قادة شاهقون

تحت راية الإسلام

غيروا مجرى التاريخ

قادة شاهقون تحت راية الإسلام غيروا مجرى التاريخ

تُشْرِقُ وتتلألأ في سماءِ مَجْدِ الإِسْلام أَسْمَاءُ قَادَةٍ غيَّروا وَجْهَ التَّاريخِ.. كان الرَّجلُ منهم أُمَّةً.. لا بألف.. بل واللهِ أمَّة.. قادوا جيوشَ الإِسلامِ في معارك أغْرب من الخيالِ..

فللَّهِ دَرُّ خالد بن الوليد، ولله دَرُّ أبي عبيدة، وسعد بن أبي وقَّاصٍ، والمثنى بن حارثة، وعمرو بن العاص، والقعقاع بن عمرو التميمي، وعاصم وزهرة، وعتبة المرقال، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقتيبة بن مسلم، ومَسْلمة بن عبدالله، رهبان الليل وفرسان النهار... ملئوا المحاريب طاعةً وسجودًا، والميادين بطولةً تأخذ بالألباب.

ما كان حديثًا يُفترى، ولا فُتونًا يتردد، ذلك الحديث الذي روى به التاريخ أنباء أعظم ثلة ظهرت في دنيا العقيدة والإيمان.

قادة ورجال شاهقون من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ومن بعدهم أصحاب عظمة باهرة ليست أساطير، وإن بدت من فرط إعجازها كالأساطير!!!

إنها حقائق تشكل ما كان لأصحاب الرسول ومن بعدهم من التابعين لهم بإحسان، وتابعي التابعين من حياة ربانية جهادية، تسمو وتتألق، لا بقدر ما يريد لها الكتاب والواصفون، بل بقدر ما أراد لها أصحابها وذووها، وبقدر ما بذلوا في سبيل التفوق والكمال من جهد خارق مبرور.

وهذه الموسوعة لا تزعم لنفسها القدرة على تقديم العظمة كاملة للقراء.. وحسبنا أن نومئ إلى سِماتها، ونتطلع إلى سمائها.

ألا إن التاريخ لم يشهد رجالًا عقدوا عزمهم ونواياهم على غاية تناهت في العظمة والسمو، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى في الجسارة والتضحية

والبذل ـ كما شهد في قادة الجهاد في القرون الخيرية.

لقد جاءوا الحياة في أوانهم المرتقب ويومهم الموعود.

أنجز أولئك الأبرار كل هذا الذي أنجزوه في بضع سنين...؟!

دمدموا على إمبراطوريات الشرك والوثنية، وحولوها إلى كثيب مهيل؛ يقول قائلهم: «**إن اللَّه ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن ظلم الكُهَّان إلى عدل الإسلام**».

كيف شاءوا بقرآن اللَّه وكلماته ميادين بذل تهتز نضرة.. وتتألق عظمة وتتفوق اقتدارًا..؟؟

وقبل هذا كله، وفوق هذا كله ـ كيف استطاعوا في مثل سرعة الضوء أن يضيئوا الضمير الإنساني بحقيقة التوحيد وينكِّسوا إلى الأبد وثنية القرون.

وأيضًا، فإن عبقريتهم الحقة تتمثل في تلك القدرة التي صاغوا بها فضائلهم، واعتصموا بإيمانهم في ساحات الوعي على نحو يجلُّ عن النظير.

وترى هنا البذل الذي بذلوا.. والهول الذي احتملوا.. والفوز الذي أحرزوا.

والدور الجليل الذي نهضوا به، والبطولات الوضيئة التي سطروها بدمائهم من أجل الإسلام دين الله.

لقد أقام اللَّه لهذا الدين قادة وفرسانًا قاتلوا مع رسول اللَّه ﷺ وبعده بالسيف والسهم والسنان، وتتصاول بين يديه في ميادين السباق تصاول الأقران، وتبذل في نصرته من نفوسها وأموالها نفائس الأثمان. هؤلاء الفرسان الأبرار الذين صُنِعوا على عين رسول اللَّه ﷺ، وكانت صوارمهم لا تهوى مضاجعة أغمادها، وسهامهم تحب نحور الأعداء، وهممهم دانت لها همم الآخرين، وعزيمتهم قد سبقت مرهفات السيوف، طلبوا المعالي والأمجاد تحت ظلال السيوف، وسالت دماؤهم الزكية؛ طلبًا للشهادة وشوقًا إليها؛ حتى ينعموا بجوار الرحمن في أعالي

الغرف وفراديس الجنان... كانت حياتهم في الدنيا بين صليل السيوف وصهيل الخيول، وخفق البنود، وصياح الفرسان، ودويِّ التكبير، ما عرفوا في الدنيا إلا ذروة سنام الإسلام؛ فنالوا بسنام الإسلام حياة، أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في أرجاء الجنة، ثم تأوي إلى قناديل من ذهب معلقةً بعرش الرحمن:

طُف بالمصارِعِ واستمِع نجواها ... واضمم لحبات العيون ثراهَا
ضاع الشَّذى القدسِيِّ في جنباتها ... فانْشَق وصِفْ للمؤمنين شذاهَا
ضمَّتْ حماةَ الحق ما عَزَف امرؤٌ ... عِزًّا لهم من دُونه، أوْ جاهَا
الطَّالعين به على أعدائِه ... مَوْتًا إذا نشروا الجنود طَواهَا
الخائضين من الخطوبِ غِمَارَها ... المُصْطَلين من الحروب لظاهَا
الباذِلين لدى الفداءَ نَفُوسَهم ... يبغون عند إلههم محياهَا
قومٌ هم اتخذوا الشهادة بغيةً ... لا يبتغون لدى الجهاد سِوَاها
هُمْ في حمى الإيمان أوَّلُ صخرةٍ ... فسَل الصخور: أما عرفنَ قواها؟
حملت جبال الحق في دنيا الهدى ... بيضًا شواهق، ما تُنال ذراهَا
تُؤْتي الممالكَ والشعوبَ حياتَها ... وتقيمُ من أمجادها وعُلاَها
ذَهبتْ ترفرف في مسابح عزِّها ... ومضتْ يفوتُ مدى النسور مداها
تجري الرياح الهوجُ طوعَ قضائِها ... وتَخافُها فتحيدُ عن مجراها
طاف الغمام مُهَلِّلًا بظلالها ... فَسقَتْهُ من بركاتِها وسقاها

* * *

فرسان ديني أنتمُ المثلُ الذي ... بلغ المدى بعد المدى فتناهى
علَّمتمُ الناس الجهادَ فأقبلوا ... ملء الحوادث يدفعون أذاها
أمَّا الفداء فقد قضيتم حَقَّهُ ... وجعلتموه شريعة نرضاها
مَن رام تفسير الحياة لقومه ... فَدَمُ الشهيد يُبينُ عن معناها
ما أكرمَ الأبطال يومَ تفيَّئوا ... ظلل المنايا يبتغُون جناها

راحوا من الدم في مطارِفَ[1] أشرقت ... حُمْرُ الجراح بها فكنَّ حِلاهَا
لو أنهم نُشِروا رأيت كُلومَهم ... تَدْمَى كأنك في القتال تراها
هُمْ عند ربك يُرزَقون فَحَيِّهم ... وصِفِ الحياة لأنفسٍ تهواها

❑ **أمَّا واقعنا.. ويا بُؤْسَ واقعنا، فكما يقول الشاعر:**

يا بلادًا عزَّ الفوارسُ فيها ... وتخلَّى عَنْ سَاحِهَا الضِّرغامُ

وبكى الإِسْلامُ لغَيْبَةِ فُرْسانِهِ، وعلا الصوتُ «وامثنَّاه».. ولا مثنَّى للخيل، **«وامعتصماهُ»**.

رُبَّ وامعتصماهُ انطَلَقَتْ ... مِلْءَ أَفْواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ
صادفتْ أسماعَنا لكنَّها ... لمْ تصادفْ نَخْوةَ المعْتصمِ

وهذا حالُنا تصوِّرُه هذه القصيدة:

كَسَرْنا قوسَ حمزةَ عن جَهَالهْ ... وَحَطَّمْنَا بِلا وَعْي نِبَالَهْ
فمزَّقَنَا العدوُّ ولا جهادٌ ... وشرَّدَنَا الطُّغَاةُ ولا عَدالهْ
وباتتْ أُمَّةُ الإسلامِ حَيْرَى ... وبات رُعَاتها في شَرِّ حالهْ
فلا الصدِّيقُ يرعاها بحزمٍ ... ولا الفاروقُ يُورِثُهَا فِعَالَهْ
ولا عُثمانُ يمنحُها عطاءً ... ويُرْخِصُ في سبيلِ اللهِ مالَهْ
ولا سَيْفٌ صقيلٌ من عَلِيٍّ ... يُفَيِّئُنَا إلى «عَدَنٍ» ظِلالَهْ
ولا زيدٌ يقود الجَمْعَ فيها ... لحَرْبٍ أو يُعِدُّ لها رجالَهْ
ولا القعقاعُ يهتفُ بالسَّرايا ... فتخشى ساحةُ الهَيجا نِزَالَهْ
ولا حطينُ يصنعُها صلاحٌ ... طوى الجبناءُ في خَوْرٍ هِلالَهْ
سرى صوتُ المؤذنِ في حمانا ... وقد فقدتْ مآذِنُنَا بلالَهْ
وأَقْصانا يُدَنِّسُه يهودٌ ... ويَعْبَثُ في مَرابعه حُثَالَهْ
نَشُد رحالنا شرقًا وغربًا ... وأولى أن نشد له رحالهْ

---

(١) جمع مطرف؛ وهو: الرداء المعلم.

وشعب ضائعٌ في كلِّ أرضٍ … وجُلُّ مناةُ أَنْ يُرضي «جَمَالَهْ»

وراعي الشعب سجَّانٌ غشومٌ … وسفَاحٌ يَسِنُّ له نِصالَه

وحادي الركب بومٌ أو غرابٌ … وقد قادَ الجموعَ «أبو رِغالَهْ»

يُرمرمُ من فتاتِ الكفرِ قوتًا … ويلعَقُ من كئوسهم الثُمالَهْ

يقبِّل راحةَ الطاغوتِ حينًا … ويلثمُ دونما خجلٍ نِعَالَهْ

فيرْتعُ في مرابعنا دخيلٌ … يُطارِد في حضارتنا الأصالَهْ

إذا سألَ الزعيمُ مزيدَ ذُلٍّ … لشعب لا يَرُدُّ لَهُ سُؤالَهْ

وإن نَصَحَ الحكيمُ فلا سميعٌ … ولا قلبٌ يَعِي صِدْقَ المَقالَهْ

وَهَمُّ الشعبِ ثوبٌ أو رغيفٌ … و«صَكٌّ» من رصيدٍ أو «حوالَهْ»

وألقاب يتيه بِهَا قرودٌ … وليس لها مَعَانٍ أو دلالَهْ

«سعادته» شَقَاءٌ في شقاءٍ … وقد رَفعتْ «معاليه» السَّفَالَهْ

«سيادتُه» يقيمُ على هوانٍ … «سماحتهُ» يعيش مع الضلالَهْ

«فخامته» هزيلٌ ليس يدري … بأن النَّاسَ قد فضحوا هُزالَهْ

و«دولَتُهُ» يعيش مع الأماني … ويخشى أن تُفاجِئَه الإقالَهْ

مَضَغْنا قلبَ حَمْزَةَ وانثنينا … نذوقُ المرَّ أَوْ نجني وَبَالَهْ

مُؤامرةٌ يُدَبِّرُهَا يَهودٌ … ويرعاها عميلٌ لا أبَا لَهُ[1]

---

(١) قصيدة «ضلال وخبال» من ديوان «في رحاب الأقصى»، ليوسف العظم ص (٢٠٧ - ٢١١) «المكتب الإسلامي».

قادة الرسول ﷺ
سادات الأبطال والشجعان

أثمن وأغلى وأعلى ما أنجبته العسكرية الإسلامية...

شجعان أفذاذ تربوا على عين رسول اللَّه ﷺ ليخرجوا إلى الدنيا منارات شاهقة في البطولة والبذل والفداء والفروسية ونكران الذات متحلين بالعقيدة الصافية عقيدة الصحابة...

هؤلاء الذين ائتمنهم النبي ﷺ على قيادة جيش المسلمين في السرايا...

ما أنجبت أرض الجزيرة أكفأ منهم في ميادين الوغى وساحات الطعن والطعان.

كان النبي ﷺ هو قائد أصحابه المجاهدين في الغزوات، وهي ثمان وعشرون غزوة، نشب القتال في تسع غزوات منها بين المسلمين وأعدائهم، وحقَّقت تسع عشرة غزوة من غزواته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ أهدافها المرسومة بدون قتال.

واستغرق جهاد النبي ﷺ في غزواته كافةً سبع سنين من سِنِيٍّ ما بعد الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؛ فقد خرج إلى غزوة **«وَدَّان»**، وهي أول غزوة قادها النبي ﷺ في شهر صفر من السنة الثانية الهجرية، وكانت غزوة **«تَبُوك»** وهي آخر غزواته ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رَجَب من السنة التاسعة الهجرية.

ولكن جهاد النبي ﷺ لم يقتصر على الغزوات فحسب؛ بل شمل الغزوات والسرايا أيضًا.

والفرق بين الغزوة والسرية: هو أن الغزوة تكون بقيادة النبي ﷺ، أما السرية فتكون بقيادة أحد أصحابه ـ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى.

وكان عدد سرايا النبي ﷺ سبعًا وأربعين سرية، وفي رواية أنه بعث عددًا أكثر من السرايا، والأول أصح؛ لإجماع أكثر المصادر المعتمد عليها، وقد استغرق بعث هذه السرايا تسع سنين؛ ابتداءً من سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه التي بعثها إلى

«**الْعِيص**» في شهر رمضان من السنة الأولى الهجرية، وانتهاءً بسرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي بعثها إلى بلاد «**مَذْحِج**» في اليمن في شهر رمضان من السنة العاشرة الهجرية.

وكان من بعض ثمرات جهاد سبع سنين في الغزوات وتسع سنين في السرايا: توحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ تحت لواء الإسلام، وكان عدد قادة سرايا النبي ﷺ سبعًا وثلاثين قائدًا من الصحابة، قادوا سبعًا وأربعين سرية من سرايا النبي ﷺ؛ منهم مَنْ قاد سرية واحدة، ومنهم مَنْ قاد أكثر من سرية واحدة في أوقات مختلفة من عمر الزمن.

وهذه أسماء هؤلاء القادة الأبرار .. أشجع الفرسان.. قادة النبي ﷺ:

قادة النبي ﷺ	
١ـ حمزة بن عبد المطلب.	٢ـ عُبَيْدَةُ بن الحارث بن المُطلب.
٣ـ عبدالله بن جَحْش الأسدي.	٤ـ عُمَيْر بن عَدِي الخَطْمِي الأوسِي.
٥ـ سالم بن عُمَيْر الأوسِي.	٦ـ محمد بن مَسْلَمَة الأوسِي الأنصاري.
٧ـ سعد بن أبي وقاص[1].	٨ـ زيد بن حارثة الكلبي.
٩ـ عبدالله بن أُنَيْس الجُهَني.	١٠ـ عبدالله بن جُبَيْر الأوسِي الأنصاري.
١١ـ أبو سَلَمَةَ بن عبد الأسد المخزومي.	١٢ـ المنذر بن عمرو الساعِدي الخزرجي الأنصاري.
١٣ـ مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِي.	١٤ـ عُكَّاشة بن مِحْصَن الأَسدي.

(١) مَرَّ ذكره سابقًا.

١٥- أبو عُبَيْدَةَ بن الجَرَاح[١].	١٦- عبدالرحمن بن عَوْف[٢].
١٧- علي بن أبي طالب[٣].	١٨- عبداللَّه بن عتيك الخزرجي.
١٩- كرز بن جابر الفهري.	٢٠- عمرو بن أمية الضمري.
٢١- عمر بن الخطاب[٤].	٢٢- أبو بكر الصديق[٥].
٢٣- بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي.	٢٤- غالب بن عبداللَّه الليثي.
٢٥- ابن أبي العوجاء السلمي.	٢٦- شجاع بن وهب الأسدي.
٢٧- كعب بن عمير الغفاري.	٢٨- جعفر بن أبي طالب.
٢٩- أبو قتادة بن ربعي الأنصاري.	٣٠- خالد بن الوليد.
٣١- عمرو بن العاص.	٣٢- سعد بن زيد الأوسي.
٣٣- الطفيل بن عمرو الدوسي.	٣٤- عيينة بن حصن الفزاري.
٣٥- قطبة بن عامر الخزرجي.	٣٦- الضحاك بن سفيان الكلابي.
٣٧- علقمة بن مجزز المدلجي.	

وسنضيف إليهم قائدًا آخرَ هو عبداللَّه بن جُبير الأوسي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي كان قائد الرماة في غزوة «**أُحُد**» فأبلى في تلك الغزوة بلاءً عظيمًا، وثبت في

(١) سبق ذكره.
(٢) ذكرناه من قبل.
(٣) تكلمنا عنه.
(٤) سبق ذكره.
(٥) ذكرناه من قبل.

موضعه ثباتَ الراسيات، وضرب أروع المثل لجيله ولأجيال المسلمين المتعاقبة من بعد، في الشجاعة والإقدام والطاعة والثبات والتضحية والفداء، فآثرتُ أن أضيف سيرته العَطِرَة إلى سِيرِ قادة النبي ﷺ؛ إكبارًا لمزاياه القيادية الفذة، وتقديرًا لسجاياه البطولية النادرة، وليكون أسوة حسنة لكل قائد وجندي من قادة المسلمين وجنودهم في مزاياه وسجاياه قائدًا وجنديًّا، ثم إن النبي ﷺ هو الذي اختاره في غزوة «**أُحُد**» ليقود الرماة من الصحابة، وهم أهم قسم من أقسام المجاهدين في غزوة «**أُحُد**»؛ لأنهم كانوا يحمون ظهور المسلمين من أعدائهم المشركين، وهي أخطر مهمة من المهمات في تلك الغزوة، في ذلك الموقف العصيب.

وليس عبدالله بن جُبَيْرٍ رضي الله عنه من قادة سرايا النبي ﷺ، ولكنه كان قائدَ قسمٍ تعبويٍّ من أهم أقسام غزوة «**أُحُد**» التعبوية، وليست السرايا بأهم في قيادتها من قيادة «**الرماة**» في غزوة «**أُحُد**»، وليس ابن جُبير بأقل من قادة السرايا كفاية واقْتِدَارًا، وَقَدْرًا وَجَلَالًا.

لقد كانت ثمرات الجهاد في الغزوات والسرايا النبوية ثمرات يانعةً حقًّا، وكان لقيادة النبي ﷺ آثارٌ حاسمةٌ في نتائج غزواته وسراياه:

بصورة مباشرة في غزواته؛ لأنها بقيادته رسولًا قائدًا.

وبصورة غير مباشرة في سراياه؛ لأنها بقيادة مَنْ أَحْسَنَ اختيارهم؛ فَوَضَعَ القائدَ المناسبَ في القيادة المناسبة.

واختيارُ الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لقادة سراياه بطريقته الفذة وأسلوبه النادر في اختيار الرجل المناسب للواجب المناسب وفي حرصه على توخي الكمال في المسئول المختار لفائدة المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم درسٌ ينبغي أن نتعلمه حكامًا ومحكومين، إذا أردنا أن ننتصر في الحرب ونتفوق بالنجاح في السلام؛ فقد عز النصر على العرب والمسلمين وعز النجاح، وأصبحوا أهل الهزائم والإخفاق منذ تخلو عن بناء الإنسان العربي المسلم، وتفرغوا لهدم هذا

الإنسان تفرغًا كاملًا، ولم يحرصوا على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، وَوَسَّدُوا الأمرَ لغير أهله؛ فكان الخراب والدمار.

لقد كان رسول اللَّه ﷺ رسولًا مؤيدًا بالوحي، وكان لهذا التأييد أثره الحاسم في توفيقه قائدًا وجنديًّا، وهذا التأييد الإلهي لا يمنع أن تكون لكفايته الشخصية أثر في هذه القيادات، وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ فمن ضمن كفايات النبي ﷺ الفذة قابليته النادرة على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

وهذه القابلية التي التزم بها التزامًا حازمًا هي من أهم الأسباب الدنيوية لانتصاره في الحرب.

كان ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يعرف أصحابه معرفة دقيقة مفصلة، وكان يعرف ما يتميز به كل صحابي من «**مزايا**» تفيد المجتمع الإسلامي الجديد؛ فكان يستعمل هذه المزايا استعمالًا كاملًا لخير هذا المجتمع وخدمته، وللمصلحة العامة للمسلمين.

وكان ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بهذا الأسلوب الرائع الذي التزم به في كل حياته المباركة يشيد بالمزايا، وينتفع بها لخير المسلمين، ويغض الطرف عن النواقص، ويقومها بالحسنى.

لقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يبقي المزايا في أصحابه طاقات معطلة؛ بل كان ينتفع بها لمصلحة المجتمع الجديد؛ وهذا يجعل طاقات أصحابه المتميزة تتضافر لشد أزر الأمة وتقويتها ودفعها نحو النصر والبناء.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرف كفايات أصحابه وقابلياتهم حق المعرفة؛ فلم تُغْمَط كفاية، ولم يُهْمَل صاحب كفاية، وَأُضِيفَتِ التجربة العملية على تلك الكفايات؛ فَصُقلت ولمعت.

ووضع كل رجل من ذوي الكفايات المتميزة في المكان المناسب لكفايته.

وكان الشرطان الرئيسان اللذان التزم بهما النبي ﷺ في توليه القادة هما: الإسلام والكفاية.

أما العقيدة الراسخة فَشَرْطُ أساسٍ لتولية القيادة؛ لكي يبرز القائد في عمله، ويكون إنتاجه بعيدًا عن الشوائب، قريبًا من الكمال؛ لأن مثل هذا القائد العقيدي يعمل على هدى وبصيرة، معتمدًا على عقيدته وكفايته، وحتى يعمل القائد في خدمة عقيدته ومجتمعه أكثر مما يعمل لنفسه ولعائلته، وهذا هو سر تفوق أهل العقيدة في أعمالهم على مَن لا عقيدة لهم، أو لهم عقيدة فاسدة تجعل المرء يحرص على العمل لنفسه أولًا، ولا يعمل لمجتمعه والمصلحة العامة.

أما الكفاية العالية فَشَرْطُ أساسٍ لتولية القيادة؛ حتى يبرز القائد في أداء واجباته، ويكون إنتاجه بعيدًا عن الشوائب قريبًا من الكمال؛ لأنه ذو كفاية يعمل بِهَدْيِ كفايته معتمدًا عليها، ولا يعمل في فوضى وتخبط؛ لأنه ذو كفاية تصونه من الخطإ، وتقوده إلى الصواب، وتبعده عن الارتجال، وتقربه من العمل المدروس.

لقد كان ثلاثون من قادة النبي ﷺ من الذين أسلموا قديمًا؛ منهم واحد وعشرون قائدًا من البدريين الذين شهدوا بَدْرًا تحت لواء الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ومن دراسة سِيَرِ قادة سرايا النبي ﷺ يظهر لنا أن غالبيتهم العظمى من المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين؛ فقد كان ثمانون بالمئة (٨٠٪) منهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ـ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ ـ، وكان ستون بالمئة (٦٠٪) منهم بدريين؛ فلأهل بدر فضل عظيم على غيرهم من الصحابة.

وكان لا يؤمر أهل الوَبَر على أهل الحَضَر؛ أي أنه لا يستعمل أعرابيًا من أهل البادية على عربي من أهل المدن؛ فقد كان خمسة وثلاثون من قادته من أهل الحَضَر، واثنان من الأعراب؛ هما: عُيَيْنَة بن حِصْن الذي تطوع للنهوض بقيادته، والضحاك بن سفيان الكلاني الذي كان من أشجع الشجعان، وكان يُعد بمئة

فارس؛ كما أنه مكث ردحًا طويلًا في المدينة إلى جانب النبي ﷺ سيافًا له، وقد وَلَّاهُ على قومه في ظروف معينة؛ ذلك لأن أهل الحَضَر أعرف بفنون القتال من أهل الوَبَر، وأكثر صبرًا على معاناة الحرب، وأقدر على تحمل أعباء القتال.

❑ والخلاصة:

هي أن الشرطين الرئيسين لتولية القادة؛ هما: الإسلام أولًا: والكفاية ثانيًا.

وهذان الشرطان هما القاعدة للتولية بدون استثناء.

أما الشروط الأخرى: السابقون الأولون، وأهل بَدْر، وأهل الحَضَر، فهي قواعد لا تخلو من استثناءات عند الضرورة القصوى.

وقد طبق أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب هذه الشروط نصًّا وروحًا في تولية القادة، ولم يحيدا عن هذه الشروط أبدًا.

وقد استطاع النبي ﷺ والشيخان أبو بكر وعمر من بعده بتطبيق هذه الشروط في تولية القادة أن يجعلوا الصفوة المختارة من الأمة عقيدة وكفاية يقودون الأمة إلى النصر في الحرب وإلى التفوق في النجاح في السلام.

وما أسعد الأمة التي يقودها القمم من رجالها دينًا واقتدارًا!!

إن استفادة النبي ﷺ وخليفتيه من مزايا كل مسلم واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الإسلامي ـ فلا يضعون لبنة إلا في المكان اللائق بها والمناسب لها ـ جَعَلَ هذا البناء يرتفع ويتعالى سليمًا مرصوصًا، يشد بعضه بعضًا.

وكان اختيار القائد المناسب للعمل المناسب سببًا من أسباب انتصار النبي ﷺ وخليفتيه وتوفيقهم عسكريًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وفي أيام الحرب والسلام.

ولما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، خَلَّفَ في المجتمع الإسلامي قادةً وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدثين، قادوا الأمة الإسلامية عسكريًّا وسياسيًّا

وإداريًّا وفكريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا إلى النصر والنجاح والخير، وإلى السؤدد والمجد والتوفيق، وإلى طريق الحق وسبيل الرشاد.

وكان أولئك القادة هم من خريجي مدرسة الرسول القائد - عليه أفضل الصلاة والسلام.

وأسلوب اختيار القادة هو الدرس الحيوي الذي يجب أن يتعلمه العرب والمسلمون في هذه الأيام وفي المستقبل أيضًا، قادة وشعوبًا، وحكامًا ومحكومين؛ أن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطلوها، وأن يضعوا الإنسان المناسب في الموقع المناسب.

وليس كل حاكم يستطيع أن يبني الكفايات، ويستقطبها، ويضعها في المكان المناسب.

لقد كان النبي ﷺ قمة القمم نسيانًا لذاته وتفكيرًا في صالح المسلمين وإخلاصًا لمصالحهم العُليا.

لذلك خَرَّجَ في مدرسته القمم من جميع الكفايات والقابليات لمختلف المناصب والواجبات.

❑ حقائق أغرب من كل خيال.. وشذى وعبق العطور يفوح من سير القادة الرجال

لقد تمتع قادة الرسول ﷺ بكفاءات قيادية متميزة؛ وأقوى الأدلة على هذا تلك الانتصارات الباهرة على أعداء الإسلام المتفوقين على المسلمين عَدَدًا وَعُدَّة في كل معركة خاضوها.

لقد كانت الشجاعة الفائقة هي القاسم المشترك بين مزايا قادة النبي ﷺ، وهي إحدى المزايا الواجب توفرها في الكفاية القيادية، والدليل القاطع على الشجاعة الفائقة لقادة الرسول ﷺ، حقيقة فريدة ما جَادَ التاريخ بها أَبَدًا إلا لهؤلاء القادة قادة الجيل القرآني الفريد؛ هذه الحقيقة أن اثنين وعشرين قائدًا منهم قضى نحبه

شهيدًا، وخمسة عشر قائدًا منهم مات على فراشه؛ أي أن ستين بالمئة (٦٠٪) من القادة استُشهدوا، وأربعين بالمئة (٤٠٪) منهم ماتوا خارج ساحة القتال.

ولا أعرف نسبةً عاليةً من الشهداء في القادة كنسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ في تاريخ الحروب القديمة والحديثة؛ فالخسائر في القادة اعتياديًّا أقل بكثير من الخسائر في غير القادة من الجنود وضباط الصف والضباط، وقد لا تكون واحدًا بالمئة (١٪) في أحسن الأحوال وفي أعلى تقدير.

والقول بأن هذه النسبة العالية في الشهداء بين قادة النبي ﷺ سببها شجاعتهم الفائقة صواب ومنطقي وسليم، ولكنه لا يقرر الواقع كاملًا، والواقع الكامل أن سببها هي الشجاعة الفائقة والإيمان العميق، وليس كالإيمان العميق حافز من حوافز الإقدام والاستقتال في طلب الشهادة، تخلصًا من الحياة المؤقتة للأحياء إلى الحياة الخالدة للشهداء.

والمبدأ الذي جاء به الإسلام في اختصاص الشهداء بالحياة الباقية مبدأ لا مثيل له في تعاليم القتال التي جاءت بها الشرائع السماوية الأخرى، ولها أنه مبدأ فريد في جميع تعاليم القتال الشرقية والغربية، تنفرد به العسكرية الإسلامية، لم تُسبق إليه، ولم تُنافسها به عسكرية أخرى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

❑ **وهذي مصارع القادة الرجال يفوح منها شذا الجنان ومقاعد الصدق عند المليك الرحمن:**

هذي رجالك يا محمد فَاسْقِهَا ... من خير ما تسقى السيوف وتنضح

فَجِّرْ ينابيع الفتوح فَرِيُّهَا ... ما تستبيح من البلاد وتفتحُ

	القائد	قدمه في الإسلام	مصرعه	مكان مصرعه	تاريخ مصرعه	
١	حمزة بن عبد المطلب	قديم الإسلام - بدري	شهيد	أحد	٣	٦٢٤
٢	عبيدة بن الحارث بن المطلب	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	بدز	٢	٦٢٣
٣	عبد الله بن جَحْش الأَسَدِيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	أُحُد	٣	٦٢٤
٤	عُمَيْر بن عَدِيّ الخَطْمِيّ الأوسّي	قديم الإسلام	شهيد	أحد	٣	٦٢٤
٥	سالم بن عُمَيْر الأوسِي	قديم الإسلام - بدريّ	مات على فراشه	المدينة	على عهد معاوية ابن سفيان	
٦	محمد بن مَسْلَمَة الأوسيّ الأنصاري	قديم الإسلام - بدري	مات على فراشه	المدينة	٤٣	٦٦٣
٧	سعد بن أبي وَقّاص	قديم الإسلام - بدريّ	مات على فراشه	المدينة	٥٥	٦٧٥
٨	زيد بن حارثة الكلبِيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	مُؤْتَة	٨	٦٢٩
٩	عبد الله أُنَيس الجُهَنِيّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	غَزَّة	٥٤	٦٧٣
١٠	عبد الله بن خُبَيْر الأوسي الأنصاريّ	قديم الأسلام - بدريّ	شهيد	أُحُد	٣	٦٢٤
١١	أبو سَلَمَة بن عبد الأسد المخزوميّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	المدينة	٤	٦٢٥
١٢	المنذر بن عمرو السَاعدي الخزرجيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	بئر مَعُوْنَة	٤	٦٢٥
١٣	مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	الرَّجِيْع	٤	٦٢٥
١٤	عُكَّاشة بن مِحْصَن الأَسَدِيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	بُزَاخة	١١	٦٣٢

١٥	أبو عُبَيدة بن الجَرَّاح[1]	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	عَمْواس	١٨	٦٣٩
١٦	عبد الرحمن بن عوف	قديم الإسلام - بدريّ	مات على فراشه	المدينة	٣٢	٦٥٢
١٧	علي بن أبي طالب	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	الكوفة	٤٠	٦٦٠
١٨	عبد الله بن عَتِيك الخزرجيّ	قديم الإسلام	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
١٩	عبد الله بن رَوَاحة الخزرجيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	مؤْتة	٨	٦٢٩
٢٠	كُرْز بن جابر الفِهْرِيّ	أسلم بعد الهجرة	شهيد	مكة	٨	٦٢٩
٢١	عَمْرُو بن أُميّة الضَّمْريّ	أسلم بعد غزوة أُحد	مات على فراشه	المدينة		على عهد معاوية ابن أبي سفيان
٢٢	عمر الخطّاب	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	المدينة	٢٣	٦٤٣
٢٣	أبو بكر الصدّيق	قديم الإسلام - بدري	مات على فراشه	المدينة	١٣	٦٣٤
٢٤	بشير بن سعد الخزرجيّ	قديم الإسلام - بدري	شهيد	عين التمر	١٢	٦٣٣
٢٥	غالب بن عبد الله اللَّيثيّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	-	-	-
٢٦	ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيّ	أسلم قبل فتح مكّة	شهيد	ديار بني سُلَيم	٧	٦٢٨
٢٧	شُجاع بن وَهْب الأسَدِيّ	قديم الإسلام - بدريّ	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
٢٨	كَعْب بن عُمَيْر الغِفَارِيّ	قديم الإسلام	شهيد	ذات أطْلَاح	٨	٦٢٩
٢٩	جعفر بن أبي طالب	قديم الإسلام	شهيد	مُؤْتَة	٨	٦٢٩
٣٠	أبو قَتَادَة بن رِبْعِيّ الأنصاريّ	قديم الإسلام	مات على فراشه	المدينة	٥٤	٦٧٣
٣١	خالد بن الوليد	أسلم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	حمص	٢١	٦٤١
٣٢	عمرو بن العاص	اسم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	القاهرة	٤٣	٦٦٤

(١) مات أبو عبيدة ﷺ شهيدًا بالطاعون وإن مات على فراشه؛ وبهذا يصبح عدد القادة الشهداء ثلاثًا وعشرين قائدًا، وأربعة عشر قائدًا ماتوا على فُرُشِهِمْ.

٣٣	سعد بن زيد الأوسيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	ـ	ـ	ـ
٣٤	الطُّفيل بن عمرو الدَّوْسيّ	قديم الإسلام	شهيد	اليمامة	١١	٦٣٢
٣٥	عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَارِيّ	أسلم قبل فتح مكّة	مات على فراشه	المدينة	على عهد عثمان بن عفان	
٣٦	قُطْبَة بن عامِرْ الخزرجيّ	قديم الإسلام ـ بدريّ	مات على فراشه	المدينة	على عهد عثمان بن عفان	
٣٧	الضَّحَّاك بن سُفيان الكلانيّ	قديم الإسلام	شهيد	بلاد بني سُلَيْم	١١	٦٣٢
٣٨	عَلْقَمة بن مُجَزِّز المُدْلِجِيّ	أسلم قبل فتح مكّة	شهيد	بلاد الحبشة	٢٠	٦٤٠

كما أن ارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على طلبهم للشهادة، وحرصهم على الاستشهاد؛ فكانت الشهادة من أغلى أماني المجاهدين الصادقين.

وقادة النبي ﷺ هم سادات المجاهدين الصادقين.

كما أن ارتفاع نسبة الشهداء في قادة النبي ﷺ يدل على أنهم كانوا يقودون رجالهم من «**الأمام**»، يقولون لهم: اتبعونا. ويضربون لهم في الشجاعة والإقدام أروع الأمثال، وأنهم كانوا يستأثرون دون رجالهم بمواطن الخطر، ويؤثرونهم بمواطن الأمن، وهكذا يكون القادة الذين يحوزون على ثقة رجالهم عن جدارة واستحقاق.

ودليل على أن أولئك القادة لم يكونوا يقودون رجالهم من «**الخلف**»، يقولون لرجالهم: تقدموا. ثم يبقون قابعين في مواقع أمينة، كما يفعل القادة الذين يؤثرون مصالحهم الذاتية على مصالح رجالهم ومصلحة أمتهم العليا.

لقد كان شعارهم في الجهاد: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] النصر أو الشهادة.

تلك هي الحقيقة الأولى التي تظهر من دراسة السِّيَرِ التفصيلية لقادة النبي ﷺ؛ وهي: أن نسبة الشهداء منهم كانت ستين بالمئة (٦٠٪)، وهي أعلى نسبة مئوية لاستشهاد القادة في تاريخ الحرب القديم والحديث؛ وهذا برهان على صدق حديث النبي ﷺ: «**خير الناس قَرْني ثم الذين يَلُونَهُمْ...**» الحديث[١]، برهان من الناحية العسكرية، وبإمكان كل مختص أن يدلل حسب اختصاصه على صدق هذا الحديث الشريف.

لا تقعدن لذكرنا في ذكرهم ..

نعم!!

لا تقعدن لذكرنا في ذكرهم   ليس الصحيح إذا مشى كالمقعدِ

ورحم اللَّه من قال:

ألم ترَ أن السيف ينقُص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

هل يُقَاسُ من وضعوا أكاليل الفخار على جبين أمتهم وساقوا لأمتهم الأمجاد تلو الأمجاد التي هي ـ واللَّه ـ أغرب من الخيال .. هل يُقَاسُ هؤلاء بمن وضعوا أمتهم في الوحل وساقوا لها كل خزي وَهُزِمُوا وَادَّعوا الانتصارات في (٦٧) وحياتهم.

في السِّلْم كأس وسيجارٌ وغانية   وساحة الحرب في الهيجا إذاعاتُ[٢]

وشرعة اللَّه في القرآن نَهْجُرُهَا   وشرعة الخصم تلمودٌ وتوراةُ

هل يُتَصَوَّرُ أن يقودَ الأمةَ أعداؤها؟!

هل يُصَدِّقُ عاقل أو يَمُرُّ في خيال أن تعطي الأمةُ أَزِمَّتَهَا وقيادتَها لـ«**جلوب**» الإنجليزي تحت إمرة عاهل الأردن الملك عبداللَّه بن الشريف حسين الهاشمي؟!

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأحمد.

(٢) لسان إعلامهم أحمد سعيد كبير المدرسة الغوغائية التي يقول قائلها:

وزَمِّــر مــع كــل قــردِ   حتــى ينتهــي ســوق القــرود

يا شام أين هما عينا معاوية ... وأين من زاحموا بالمنكب الشهبا
فقبر خالد في حمصٍ نلامِسُهُ ... فيرجف القبر من زُوَّارِهِ غضبا
فَرُبَّ حي تراب القبر مسكنه ... ورب مَيْتٍ على أقدامه انتصبا
يا ابن الوليد ألا سيف نؤجِّره ... فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا
سَقَوْا فلسطين أحلامًا مُلَونة ... وأودعوها سخيف القول والخُطَبا
وطالعوا كُتُبَ التاريخ واقتنعوا ... متى البنادق كانت تسكُنُ الكتبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عارية ... تبيح عزة نهديها لمن رغبا

❑ وحقيقة ثانية أعجب من أختها نهديها للجبناء: احرص على الموت تُوهَب لك الحياة:

الحقيقة الثانية أعجب من الحقيقة الأولى وأغرب، وهي أن قادة النبي ﷺ المتميزين بالشجاعة «**الفائقة**» استُشهدوا في ساحة الجهاد، والقادة المتميزين منهم بالشجاعة «**النادرة**» ماتوا في بيوتهم على فراشهم.

وبتعبير أوضح: إن القادة الذين ماتوا في بيوتهم بآجالهم كانوا أكثر شجاعة من القادة الذين استُشهدوا في ساحة الجهاد.

ومن المعلوم أن الشجاعة من المزايا المعنوية في الإنسان؛ فالشجاع والأشجع من الأمور التي تثبت بالقتال، وقد كانت بطولات قادة النبي ﷺ الذين ماتوا في بيوتهم بآجالهم والتي أثبتوها بالقتال رفيعة المستوى متميزة عن سائر البطولات؛ لذلك وصفتُ شجاعة قادة النبي ﷺ بأنها شجاعة فائقة، ولكنني وصفت شجاعة الذين قضوا نحبهم في بيوتهم بآجالهم بأنها شجاعة نادرة؛ تمييزًا لدرجتها الرفيعة على درجة الشجاعة الفائقة؛ فكل شجاعة نادرة شجاعة فائقة، ولكن ليس كل شجاعة فائقة شجاعة نادرة.

وهدفي من إبراز الحقيقة الثانية هو لإثبات أن الجبن لا يُحْيِي، والشجاعة لا تُميت، وصدق اللّه العظيم: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

لقد مات خمسة عشر قائدًا من قادة النبي ﷺ - كما ذكرنا - في بيوتهم وبآجالهم بعيدًا عن ساحة الجهاد، مع أنهم كانوا جميعًا بدون استثناء من المتميزين بالشجاعة النادرة، وكانوا جميعًا يتمنون من أعماق قلوبهم أن يُسْتَشْهَدُوا في ساحة الجهاد، ولكن أمانيهم لم تتحقق؛ فماتوا وفي أنفسهم شيءٌ من تخلفهم بدون إرادتهم عن تحقيق أعز أمانيهم في الحياة.

وسأضرب الأمثال على شجاعة أولئك القادة النادرة؛ بالنسبة لأقدميتهم في القيادة؛ حيث سنجد أن الشجاع اسْتُشْهِدَ، والأشجع منه مات حتف أنفه[1].

● فقد مات سالم بن عُمَيْرٍ الأنصاري الأوسي على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شوال من السنة الثانية الهجرية، فتطوع لقتل أبي عَفَك، وقتله وهو بين قومه وعشيرته وأهله، وكان أبو عفك يحرض على عداوة النبي ﷺ والمسلمين، وَيَنْظِمُ الشعر في هجائهم؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لي بهذا الخبيث؟!**»، فتطوع سالم من بين الأوس والخزرج والمسلمين لقتله، ونفذ وعده الذي قطعه على نفسه.

● ومات محمد بن مَسْلَمَةَ الأنصاري الأوسي على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية؛ فكان ممن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ يوم «**أُحُد**»، وقد ثبت مع النبي ﷺ أربعة عشر رجلًا: سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، كان أحدهم ابنَ مَسْلَمَة.

وكان يتولى قيادة حرس النبي ﷺ في غزواته، وهو الذي قَتَلَ اليهودي كعب بن الأشرف عدو الإسلام والمسلمين، وقد تطوع لقتله؛ فقتله بين قومه وعشيرته وأهله، وانتصر على حشود المشركين بثلاثين من رجاله فقط، وكان من الذين لا يخشون في الحق لومة لائم، واعتزل الفتنة الكبرى؛ خوفًا على دينه.

---

(١) وهذا يجري مجرى الغالب؛ فقد يشذ فرد أو اثنان؛ كحمزة رضي الله عنه.

● ومات سعد بن أبي وقاص حتف أنفه، وقد تولى القيادة لأول مرة في عهد النبي ﷺ، ثم أصبح من قادة الفتح الإسلامي المشـهورين؛ فتولى لـ«**عمر بن الخطاب** رضي الله عنه» قيادةَ معركة القادسية التي فتحت أبواب العراق للمسلمين، وقد كان أول مَنْ رمى بسهم في الإسلام، وَثَبَتَ مع النبي ﷺ يوم «**أُحُد**»، ووقف إلى جانبه يرمي بالنبل دونه، والنبي ﷺ يناوله النبل، ويترصد له إصاباته الدقيقة قائلًا: «**اِرْمِ فداك أبي وأمي**»، وكان علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يقول: «ما سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يفدي أحدًا بأبويه إلا سعدًا».

ولعل من نافلة القول إثباتَ أن سعدًا كان يتحلى بالشجاعة النادرة.

● ومات عبداللَّه بن أُنَيْس الجُهَنِي الأنصاري على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة الرابعة الهجرية، وهو الذي تولى قتل اليهودي سَلَّام بن أبي الْحُقَيْق أحد أعداء النبي ﷺ والمسلمين؛ حيث تم قتله بين قومه وأهله في «**خَيْبَر**»؛ كما تَولى قَتْلَ اليهودي البُسَيْر بن رِزَام الذي كان بـ«**خَيْبَر**» يجمع غَطَفَان؛ لغزو رسول اللَّه ﷺ لعداوته الشديدة للإسلام والمسلمين.

وابن أُنَيْس هو الذي قَتَلَ وحده خالد بن سُفْيان بن نُبَيْح الْهُذَلِيَّ، وكان من سادات قومه يجمع الجموع لرسول اللَّه ﷺ؛ ليغزوه؛ فقتله ابن أُنَيْس بين قومه وحشوده التي حشدها لحرب الإسلام والمسلمين.

● ومات أبو عُبَيْدَةَ بن الجراح على فراشه بالطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية، والذي يموت بالطاعون شهيد، ولكنني لم أجعله مع الشهداء الذين استُشهدوا؛ لأنه توفي خارج ميدان الجهاد، وقد كان منهاجي في إحصاء الشهداء منهاجًا واضحَ المعالم؛ هو درج الذين يستشهدون في ساحة الجهاد، وقد تولى أبو عُبَيْدة القيادة لأول مرة في شهر ربيع الآخر من السنة السادسة الهجرية، وشهد غزوة «**بَدْر**» الحاسمة، وَقَتَلَ أَبَاهُ في تلك الغزوة، وكان مع النفر الذين ثبتوا يوم «**أُحُد**» مع رسول اللَّه ﷺ، ودافع عنه يومئذ دفاع الأبطال.

وتولى قيادة عدة سرايا على عهد النبي ﷺ، كان من جنوده في بعضها الشيخان: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ. فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، أصبح أبو عبيدة من أكبر قادة الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطاب، وهو فاتح بلاد الشام والجزيرة.

وأراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الوباء بعد اشتداده سنة ثماني عشرة الهجرية، ولكن أبا عبيدة كتب إلى عمر: «... **لا أجد بنفسيْ رغبة عن جند المسلمين، فلست أريد فراقهم...**»، وبقي مع جنوده حتى تُوفي بالطاعون مع مَنْ توفي منهم، وهذا من شجاعته النادرة التي لا تتكرر.

● ومات عبدالرحمن بن عَوْف على فراشه في منزله بأجله الموعود، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السادسة الهجرية، وشهد غزوة «**بَدْرٍ**» الحاسمة؛ فأسر أسيرًا، وقتل رجلًا من قريش، وغنم أدراعًا، وثبت يوم «**أُحُد**» مع رسول اللّه ﷺ، وما ثبت معه يومئذ غير قليل: سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار، وَجُرِحَ في هذه الغزوةِ ـ لاستقتاله في الدفاع عن النبي ﷺ ـ إحدى وعشرين جراحةً، وَجُرِحَ في رجله؛ فكان يعرج منها، وسقطت ثنيتاه؛ فكان أَهْتَمَ، وقتل رجلين من المشركين.

ومواقفه البطولية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين أكثر من أن تُحْصَى.

● ومات عمرو بن أُمَية الضَّمْرِي على فراشه في بيته بأجله الموعود، وقد تولى القيادة لأول مرة في السنة السادسة الهجرية، وكان من أَنْجَادِ العرب ورجالها نجدةً وجَراءَةً وجُودًا.

ومن جراءته أن المشركين من قريش صلبوا خُبَيْبَ بن عَدِيٍّ بـ«**التنْعِيم**» قريبًا من مكة المكرمة، وجعلوا عليه حرسًا منهم؛ فاختطف عمرو جثةَ خُبَيْبٍ وعاد بها إلى المدينة.

وكان أبو سُفْيَان بن حرب قد بعث رجلًا من المشركين؛ لاغتيال النبي ﷺ؛

فانكشف أمر المشرك وأسلم.

وبعث النبي ﷺ عمرو بن أمية وبرفقته مسلم آخر اسمه: «**سَلَمَةُ**» إلى أبي سفيان، وقال لهما: «**إن أصبتما منه غِرَّة فاقتلاه**».

ودخلا مكة، ومضى عمرو يطوف بالبيت العتيق ليلًا، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه؛ فأخبر قريشًا بمكانه؛ فخافوه وطلبوه، وكان فَاتِكًا في الجاهلية؛ فهرب عمرو وسَلَمَةُ، فلقي عُبَيْدالله بن مالك التميمي الذي كان مشركًا؛ فقتله، وقتل مشركًا آخر سمعه يغني ويقول:

ولستُ بمسلمٍ ما دمتُ حيا ولستُ أَدِينُ دينَ المسلمينا!

ولقي رسولين لقريش يتجسسان على المسلمين؛ فقتل أحدهما، وأسر الآخر.

وقدم عمرو المدينة عائدًا من رحلته إلى مكة، فجعل يُخبر رسول الله ﷺ خبره، ورسول الله ﷺ يضحك.

ومواقف عمرو البطولية كثيرة؛ فكان بطلًا في الجاهلية، وبطلًا في الإسلام.

● ومات أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة السابعة الهجرية، وكان من المهاجرين السبعة الذين ثبتوا مع النبي ﷺ يوم «**أُحُد**»، وأثبت كفاية عالية في قيادته المستقلة، وانتصر بالعدد القليل من رجاله على العدد الكثير من المشركين، وثبت مع النبي ﷺ يوم «**حُنَيْن**».

وقال عبدالله بن مسعود عن شجاعة أبي بكر: «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كدنا نهلك فيه، لولا أن الله مَنَّ علينا بأبي بكر»، في عزمه على قتال المرتدين، وانتصاره عليهم انتصارًا مؤزرًا.

وعن أبي رجاء العُطاردي قال: «دخلتُ المدينة، فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلًا يُقبل رأس رجل وهو يقول: «**أنا فداؤك، ولولا أنتَ لهلكنا!!**» فقلت: مَنِ الْمُقَبِّلُ وَمَنِ الْمُقَبَّلُ؟ قالوا: ذاك عمر يقبل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة؛ إذ

منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين».

وحسبنا شهادة علي بن أبي طالب ﷺ؛ فقد سأل عليٌّ مَنْ حوله: **«أخبروني مَنْ أشجع الناس؟»** فقالوا: **«أنت!!»**، فقال: «أما إني ما بارزتُ أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن أخبروني مَنْ أشجع الناس؟!»، فقالوا: «لا نعلم!!»، فقال: «أبو بكر!! إنه لما كان يوم بَدْرٍ، فجعلنا لرسول اللَّه ﷺ عريشًا، فقلنا: مَنْ يكون مع رسول اللَّه ﷺ؛ لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟! فواللَّه ما دَنَا منا أحد إلا أبا بكر شاهرًا بالسيف على رأس رسول اللَّه ﷺ، لا يهوي إليه أحد، إلا هوى إليه؛ فهو أشجع الناس».

وشجاعة أبي بكر النادرة أشهر من أن تُعَرَّفَ.

● ومات غالب بن عبداللَّه الليثي حتف أنفه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة السابعة الهجرية، وتولى قيادة أكثر من سرية من سرايا النبي ﷺ، حقق بها انتصارات باهرةً بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة؛ فكان بِحَقٍّ قائدًا فذًّا من قادة النبي ﷺ؛ كما قَادَ مقدمة النبي ﷺ في غزوة فتح مكة، وكانت قيادته متميزة للغاية.

وشهد غالب معارك حروب الردة وفتح العراق؛ فكان من أبطال المسلمين المعدودين.

وفي معركة **«الْبُوَيْبِ»** التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجرية قَتَلَ وَحْدَهُ تسعة من الفرس في هذه المعركة وحدها.

وكان له موقف مشرف في معركة القادسية الحاسمة التي كانت سنة أربع عشرة الهجرية، وهو الذي قتل هُرمز ملك مدينة **«الباب»** التي تسمى اليوم: **«دربند»** على بحر الخَزَر، وكان هرمز يومئذ من أكبر قادة الفُرْس.

لقد كان غالب بطلًا مغوارًا، يتحلى بالشجاعة النادرة.

● ومات أبو قَتَادَةَ بن رِبْعِي الأنصاري الخزرجي على فراشه في داره بأجله

الموعود، وتولى القيادة لأول مرة في شهر شعبان من السنة الثامنة الهجرية، وكان قد شهد سريةَ عبداللَّه بن عَتِيْك - لقتل اليهودي أبي رافع سَلَّام بن أبي الْحُقَيْق النَّضْرِي - التي قتلت أبا رافع؛ لأنه كان يحرض المشركين على المسلمين، فنسي أبو قَتَادَةَ قوسه في موضع مقتل أبي رافع، فذكرها بعدما نزل؛ فرجع واستعاد قوسه، وعاد إلى أصحابه دون أن يخشى حشود يهود أو يحسب لها حسابًا.

وشهد غزوة «**الْمُرَيْسِيع**»، وكان يحمل لواء المشركين في هذه الغزوة صَفْوان ذو الشقْر، فشد عليه أبو قتادة، فكان الفتح.

وشهد غزوة «**ذي قَرَد**»، فقتل مَسْعَدَة بن حَكَمَة بن مالك بن حُذَيْفَة الفِزَارِي وحبيب بن عيينة بن حِصْن، فقال رسول اللَّه ﷺ يوم ذي قَرَد: «**خير فرساننا أبو قتادة**»، ومن يومها أصبح يعرف بفارس النبي ﷺ.

وكان في قيادته لسريتين من سرايا النبي ﷺ مُوَفَّقًا، فأثبتَ أنه قائد لامعٌ.

وشهد غزوة «**حُنَيْن**»، فقتل أحد المشركين، فأراد أن يستأثر بسلبه أحد مسلمي الفتح الذين أسلموا حديثًا، فقال هذا الرجل للنبي ﷺ: «يا رسول الله! سَلَبُ ذلك القتيل عندي، فأَرْضِهِ عني»، يريد سَلْب قتيل أبي قتادة عنده، ويريد أن يستأثر به دون أبي قتادة، ولكن أبا بكر الصديق قال: «**لا والله! لا يُرْضيه منك، تعمد إلى أَسَد من أُسْدِ الله، يقاتل عن دين الله، تقاسمه سلبه! ارْدد عليه سَلَب قتيله**»، وكان هذا الأسد من أُسد اللَّه الذي يقاتل عن دين الله، هو أبا قتادة.

والحديث عن شجاعة أبي قتادة النادرة يطول.

● ومات خالد بن الوليد على فراشه كما يموت البعير، كما قال هو حين حضرته الوفاة، وتولى القيادة لأول مرة في سرية «**مُؤْتَة**» التي كانت في شهر جمادى الأولى في السنة الثامنة الهجرية، فقد أمَّره المسلمون على أنفسهم بعد أن استشهد قادة هذه المعركة الثلاثةُ بالتعاقب: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبداللَّه بن رَوَاحة، فاصطلح المسلمون على خالد، وولوه قيادتهم في موقف

ميئوس منه وعصيب للغاية، فأنقذ المسلمين الذين كانوا في تلك المعركة من الإبادة والإفناء، بفضل قيادته الفذة وشجاعته النادرة.

واستعمله النبي ﷺ على سرية من سراياه لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية، ثم استعمله من جديد على سريتين أخريين، كما استعمله قائدًا مرءوسًا في غزوة فتح مكة وغيرها.

لقد شهد خالد ثلاث معارك على المسلمين قبل إسلامه، وشهد في عهد النبي ﷺ اثنتي عشرة معركة، وشهد في حروب الردة ثلاث معارك هي أهم وأخطر وأكبر معارك حروب أهل الرِدة، وقاتل الفُرْس وحلفاءهم في العراق في خمس عشرة معركة، وخاض في طريقه من العراق إلى أرض الشام غمار أربع معارك، وقاد سبع معارك في أرض الشام، فكان مجموع ما شهده من معارك في حياته العسكرية أربعًا وأربعين معركة، كانت نتائجها كلها باهرة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب والمسلمين.

وقد حسم أكثر من معركة بهجومه شخصيًا على قائد العدو وقَتْله، مما أدى إلى انهيار معنويات رجاله واستسلامهم للمسلمين.

وانتصاراته الباهرة جعلته قائدًا مشهورًا منذ كان حتى اليوم وإلى ما شاء الله، ليس على النطاق العربي أو الإسلامي حسب، بل على النطاق العالمي، ومعاركه تُدَرَّسُ في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية الأجنبية كما تدرس في المدارس والمعاهد والكليات العسكرية العربية والإسلامية.

وطالما سمعنا أو قرأنا أن ألمع قادة الغرب يفخرون بأنهم طبقوا خطة عسكرية تعلموها من خطط خالد، وطالما سمعنا وقرأنا أن ألمع القادة الأجانب يشبههم الذين يصفونهم من المؤلفين والكتاب: بأنهم كخالد..! ولن يكون أحدهم مثله أبدًا، وشتان بين الأصل وبين الصورة.

وحسبه قولة رسول اللَّه ﷺ فيه: «**خالد سيف من سيوف الله، سله اللَّه على**

المشركين».

ولكن خالدًا قال حين حضرته الوفاة: «ما كان في الأرض من ليلة أحبُّ إلي من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين، أُصَبحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

وتنهد قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حزنًا وأسفًا على الشهادة التي فاتته بالرغم من تعرضه لأفدح الأخطار في أقسى المعارك، فقال: «شهدت مئة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، ثم هَأَنَا ذا أموت على فراشي كما يموت العِيْر، فلا نامت أعينُ الجبناء».

• ومات عمرو بن العاص على فراشه، وقد تولى القيادة لأول مرة في شهر جمادى الآخرة من السنة الثامنة الهجرية، وتولى قيادة سريتين من سرايا النبي ﷺ، فأحسن في قيادته غاية الإحسان ولما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى شهد عمرو حروب الرِّدة، وحروب فتح بلاد الشام، كما شهد فتح مصر وليبيا، ففتح فلسطين ومصر وليبيا.

ومن مواقفه التي تدل على شجاعته النادرة ودهائه ـ أيضًا ـ أنه أقام على «**أَجْنَادِيْن**» في فلسطين لا يقدر على قائدها الأرطبون الرومي ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه، ودخل عليه كأنه رسول، ففطن به الأرطبون وقال: «لا شك أن هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأمير برأيه»، فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به، وفطن عمرو لما يدبر الأرطبون، فقال له: «قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنتَ على رأس أمرك»، فقال الأرطبون: «نعم!»، ورد الرجل الذي أمره بقتل عمرو، وخرج عمرو من عند الأرطبون، فعلم الأرطبون أن عَمْرًا خدعه، فقال:

«خدعني الرجل! هذا أدهى الخلق!!»، وبلغت هذه القصة عمر بن الخطاب، فقال: «لله در عمرو!».

لقد كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم، وكان جريئًا مقدامًا، وذا رأي في قريش كما وصفه أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، فكان عمرو يقاتل بشجاعته النادرة، وعقله الراجح؛ لذلك كان موضع ثقة النبي ﷺ وخلفائه من بعده، فقال عمرو عن ثقة النبي ﷺ به واعتماده عليه: «ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في حربه منذ أسلمتُ»، وصدق عمرو، وحسبه ثقة رسول اللَّه ﷺ به، وهي ثقة لا توضع إلا في مكانها الصحيح.

● ومات سعد بن زيد الأنصاري الأَوْسي الأَشْهَلِي حتف أنفه، وتولى القيادة لأول مرة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية، وقد شهد غزوة «**ذي قَرَد**» قائدًا لفرسان المسلمين، فطارد عُيَيْنَة بن حِصْن الذي أغار على سرح المسلمين بالقرب من المدينة، وقتل حبيب بن عُيَيْنَة بن حِصْن في رواية، وفي رواية أخرى: أن الذي قتله هو أبو قَتَادة - كما ذكرنا من قَبْل.

وأحسن سعد في قيادة سريته غاية الإحسان، وأنجز واجبه على أحسن وجه.

وقد شهد سعدٌ بَدْرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، كما شهد قسمًا من سرايا النبي ﷺ جنديًّا مرات وقائدًا مرة أخرى، فأدى واجبه في الجهاد العملي جنديًّا وقائدًا بشكل مثالي يدعو إلى أعمق التقدير، وأبدى في جميع المعارك التي خاضها شجاعة نادرة.

● ومات عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَارِي على فراشه كما يموت البعير، وتولى القيادة لأول مرة في شهر المحرم من السنة التاسعة الهجرية، وكان بطلًا من الأبطال المعدودين قبل الإسلام وبعد الإسلام، وسيدًا من سادات العرب.

وكان أحد المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافًا من أشراف العرب، يتألفهم النبي ﷺ

بما أعطاهم، ويتألف بهم قومهم.

وكان عُيَيْنَة في الجاهلية من الجَرارين يقود عشرة آلاف، ولم يكن الرجل يسمى: جَرارًا حتى يرأس ألفًا على الأقل، وقد قاد غَطَفان إلى بني تَغْلِب، كما قاد قومه في كثير من أيام العرب قبل الإسلام.

وشهد معارك طاحنة مع المسلمين قبل إسلامه، وشهد معارك طاحنة مع المسلمين بعد إسلامه جنديًّا وقائدًا، وقاد سرية من سرايا النبيﷺ ؛ لأنه كان أول مَنِ انتدب لحرب المنحرفين من بني تَمِيْم الذين منعوا الزكاة، ولم يستجيبوا للمصدق الموفد إليهم من النبيﷺ ، فكان عند حُسْنِ ظن المسلمين به في قيادته، وكان لشجاعته النادرة أثرٌ عظيم في انتصار سريته بعددها القليل على المنحرفين بعددهم الكثير.

لقد كانت حياة عُيَيْنة سلسلة من المعارك المتصلة، فقد كان بطبيعته مِسْعَرَ[1] حرب.

● ومات القائد الخامس عشر والأخير من قادة النبيﷺ حتف أنفه، وهو قُطْبَة ابن جَدِيْدَة الأنصاري الخزرجي الذي تولى القيادة لأول مرة في شهر صَفَر من السنة التاسعة الهجرية، وقد شهد «**بَدْرًا**» فرمى حجرًا بين الصفَّين وقال: «**لا أفر حتى يفر هذا الحجر**»، وقد ثبت في تلك الغزوة ثبات الراسيات، وقاتل قتال الأبطال، وأسر أحد أبطال قريش من المشركين.

وشهد غزوة «**أُحُد**»، وكان أحد الرماة الماهرين الذين برزوا بين المسلمين في تلك الغزوة، وجُرح تسع جراحات فلم تمنعه جراحاته الغائرة من المبادرة إلى الخروج في اليوم التالي من يوم «**أُحُد**» مع النبيﷺ والمسلمين الذين شهدوا غزوة «**أُحُد**» إلى «**حمراء الأسد**»؛ لمطاردة المشركين، فشهد مع النبي ﷺ تلك الغزوة

---

(١) المسعر: ما تُحَرِّكُ به النارُ من حديد أو خشب. ومسعر حرب: مُوْقِدُ حرب.

التي رفعت معنويات المسلمين وحطمت معنويات المشركين.

وشهد معركة «**مُؤْتَة**»، فلما استُشهد القادة الثلاثة بالتعاقب، وكانت الهزيمة وقُتل المسلمون، جعل قُطْبَة يصيح: «**يا قوم! يُقْتَلُ الرجل مُقْبلًا أحسن من أن يُقتل مُدْبِرًا**».

وشهد غزوة فتح مكة، فعقد النبي ﷺ الألوية والرايات في «**قُدَيْد**»، فجعل راية بني سَلِمَة قومه من الأنصار مع قُطبة، والراية لا تُعقد إلا لمن يحافظ عليها ويحميها من الأعداء.

وحين تولى قُطْبَة قيادة سرية من سرايا النبي ﷺ أحسن في قيادته غاية الإحسان، وانتصر على عدوه، بينما كانت سريته قليلة العدد والمدد، وكان عدوه كثير العَدد والمدد.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، لم يتخلف عنه في مشهد من مشاهده بالإضافة إلى السرايا التي شهدها مع قادة السرايا الآخرين، فكان في كل مشهد شهده نادر الشجاعة فَذَّ الإقدام.

تلك هي الحقيقة الثانية: استُشهد القادة الشجعان، ومات القادة الذين هم أكثر شجاعة وإقدامًا.

ولعل هذه الحقيقة الناصعة التي برزت لأول مرة في بداية القرن الخامس عشر الهجري رسالةٌ من رسائل الغيب، تنكشف لِتُذَكِّرَ الجبناءَ بأن الأعمار بيد الله، لا يزيد فيها الجبن ولا تنقص منها الشجاعة، وصدق القائل: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

هكذا بكل بساطة مات الأشجع، واستُشهد الشجاع[1].

فتعال يا أخي إلى سير الأسود الربانيين الذين ضربوا أروع وأنقى الأمثلة التي لا يجود بمثلها الزمان أبدًا، وهي كالأساطير والخيال روعة وجمالًا.

---

(١) **انظر**: قادة النبي ﷺ

١٥

سيد الشهداء..

الإمام البطل الضرغام..

أسد اللَّه وأسد رسوله..

أبو عمارة وأبو يعلى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال رسول اللَّه ﷺ: «سَيدُ الشهداء عند اللَّه يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب».

سيد الشهداء..الإمام البطل الضرغام..
أسد اللَّه وأسد رسوله..
أبو عمارة وأبو يعلى
حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

قال رسول اللَّه ﷺ: «**سَيدُ الشهداء عند اللَّه يوم القيامة حمزةُ بن عبد المطلب**»[1].

وقال ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه؛ فقتله**»[2].

كان قبل إسلامه مغرمًا بالصيد والقنص[3]، وهو دليل على مهارته في الفروسية والتسديد الدقيق في الرمي، كما أنه تدريب عملي على ممارسة هذين الْفَنَّيْنِ العسكريين.

❑ إسلام حمزة شجاعة وحمية وغيرة تقود حمزة إلى الإسلام:

مَرَّ أبو جَهْل برسول اللَّه ﷺ وهو جالسٌ عند «**الصَّفَا**»؛ فَآذَاهُ وَشَتَمَهُ وَنَالَ منه وَعَابَ دِيْنه ـ وَمَوْلَاةٌ لعبداللَّه بن جُدْعان في مسكن لها تسمع ذلك ـ، وانصرف أبو جَهْل عن النبي ﷺ، فجلس في نادي قريش عند الكعبة، فلم يلبث حمزة أن أقبل من قَنْصِهِ متوشحًا قوسه، وكان إذا رجع لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة،

---

(١) **حسن**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن جابر، والطبراني في «الكبير» عن علي، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٦) و«الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٢) **حسن**: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/١٩٥)، والضياء في «المختارة»، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/٣٠٢)، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٥)، و«الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٣) أُسْد الغابة (٢/٤٦)، وابن الأثير (٢/٨٣).

وكان يقف على أندية قريش، ويسلم عليهم، ويتحدث معهم، وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة، وقد قام رسول اللَّه ﷺ ورجع إلى بيته، قالت له: «يا أبا عُمَارَةَ، لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ من أبي الحكم بن هشام، فإنه سبه وآذاه، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد».

واجتاح الغضبُ حمزةَ؛ فخرج سريعًا لا يقف على أحد، كما كان يصنع، يريد الطواف بالكعبة، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يَقَعَ به، حتى دخل المسجد، فرآه جالسًا في القوم؛ فأقبل نحوه، وضرب رأسه بالقوس؛ فَشَجَّهُ شَجَّةً منكرة، وقال: «أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فاردد عليَّ إن استطعت».

وقامت رجال من بني مَخْزُوم إلى حمزة؛ لينصروا أبا جَهْل، فقال أبو جهل: «دعوا أبا عُمارة؛ فإني سببتُ ابن أخيه سبًّا قبيحًا».

فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول اللَّه ﷺ قد عَزَّ، وأن حمزة سيمنعه؛ فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[(١)].

إنها الطامة التي لن تملك قريش لها دفعًا...

وَأَعَزَّ اللهُ الإسلام بحمزة...

ووقف شامخًا قويًّا يذود عن رسول اللَّه ﷺ وعن المستضعفين من أصحابه.

وَأُرَجِّحُ أن حمزة رضي الله عنه قد أسلم في السنة الثانية من الهجرة، ورجح ذلك ابن حجر في «**الإصابة**»، وابن عبدالبر في «**الاستيعاب**»، وتبعهما القسطلاني في «**المواهب**».

ولما أسلم عمرُ قَوِيَ الإسلام بحمزة وبه، وعلم المشركون أنهما سيمنعان رسول اللَّه والمسلمين[(٢)].

---

(١) أُسْد الغابة (٢/٤٦، ٤٧)، وابن الأثير (٢/٨٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٨٤).

ألقى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في قلب حمزة الإيمان عن يقين، وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لرسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشهد أنك الصادق شهادة الصدق، فأظهر يابن أخي دينَكَ؛ فواللَّه ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأني على ديني الأول**».

فكان حمزة ممن أعز اللَّه به الدين[1]؛ سرت نسمات الإسلام في وجدانه، وراح عبق نور الإيمان يشع من أغواره، وَشَعَرَ بالطمأنينة تغلف قلبه، وبالسكينة تغمر روحه.

❏ أول لواء في الإسلام لحمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «سرية حمزة إلى الْعِيصِ في رمضان من السنة الأولى لهجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:

قدم رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة حين هاجر إليها من مكة، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وهو المجمَعُ عليه؛ فكان أول لواء عقده رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحمزة في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مُهَاجَر رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لواء أبيض، فكان الذي حَمَلَهُ أبو مَرْثَد كَناز الغَنَوِي حليف حمزة، وبعثه رسول اللَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثين رجلًا من المهاجرين.

وخرج حمزة يعترض لعِير قريش، قد جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جَهْل بن هشام في ثلاث مئة رجل، فَبَلَغُوا سِيْفَ البحر - يعني ساحله - من ناحية «**العِيْص**»، والتقى الجانبان حتى اصطفوا للقتال، فمشى مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَني - وكان حليفًا للفريقين جميعًا - إلى هؤلاء مرة، وإلى هؤلاء مرة؛ حتى حجز بينهم ولم يقتتلوا.

وتوجه أبو جَهْل في أصحابه وعِيره إلى مكة، وانصرف حمزة في أصحابه إلى المدينة.

وبدون شك، أَثَّرَ المسلمون في معنويات قريش؛ فتخلوا عن القتال بالرغم من

---

(١) البداية والنهاية (٣/٣٣)، والمستدرك (٣/٣١٣، ٣١٤).

تفوق المشركين على المسلمين تفوقًا ساحقًا، وخافوا المسلمين على قافلتهم التجارية، ورأس المال دائمًا جبان ـ كما يقولون.

وبهذه السرية بدأ فرض الحصار الاقتصادي على قريش؛ بتهديد طريق «**مكة ـ الشام**» الحيوي لتجارة قريش تهديدًا إيجابيًّا خطيرًا.

❑ أول غزوة: غزوة وَدَّان «الأبواء» في صفر من السنة الثانية من الهجرة:

كان لواء المسلمين فيها لواءً أبيضَ، وكان مع حمزةَ البطلِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ في هذه الغزوة، وعدد المسلمين «٢٠٠» راكب، وتملص المشركون من لقاء المسلمين.

أول سرية أميرها حمزة..

أول راية عقدها رسول اللَّه ﷺ، وأول لواء لحمزة..

أول وقود بدر أول قتيل للمشركين في يوم بدر قَتَلَهُ حمزةُ.

❑ حمزة رضي الله عنه بطل يوم «بدر» يصنع الأعاجيب بالمشركين:

كان حمزة رضي الله عنه أولَ قاتلٍ لأول قتيل من المشركين يوم بدر؛ فلما «تَوَاجَهَ الفئتان، وتقابل الفريقان، وحضر الخَصْمانِ بين يدي الرحمن، واستغاث بربه سيدُ الأنبياء، وَضَجَّ الصحابة بصنوف الدعاء إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء؛ فكان أول مَنْ قُتِلَ من المشركين: الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي.

قال ابن إسحاق: وكان رجلًا شرسًا سيئ الْخُلُقِ، فقال: أعاهد اللَّه لأشربن من حَوْضهم، أو لأهدِمَنَّهُ، أو لأموتن دُونه، فلما خَرَجَ خَرَجَ إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما الْتَقَيَا ضَرَبَهُ حمزة؛ فَأَطَنَّ[1] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوْض، فوقع على ظهره تشخب[2] رجلُهُ دَمًا نحو أصحابه، ثم حَبَا إلى الحوْض حتى

(١) أَطَنَّ قدمه؛ أي: أطارَهَا.
(٢) تَشْخُبُ؛ أي: تسيل.

اقتحم فيه، يريد رَغْمًا أن تبر يمينُهُ، وَأَتْبَعَهُ حمزة فضربه حتى قتله في الحوْض»[١].

إيهِ أبا جهلٍ نُصِرْتَ بفارسٍ ... يَلْقَى المنية منه أغلبُ شَيِّحُ[٢]

أرداه حمزةُ عند حوض محمدٍ ... فانظر أَتُقْدِمُ أم تَحِيدُ وتكفَحُ[٣]

رام الورود فما انثنى حتى ارتوت ... من حوض مُهجَتِهِ المنايا القُمَّحُ[٤]

❑ لله دَرُّكَ يا أسد اللَّه وأسد رسوله من بطل مبارز قَتَّالٍ للمشركين يوم بدر:

«عن أبي ذر ﷺ أنه كان يُقْسِمُ فيها قَسَمًا: إن هذه الآية ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيْه، وعُتْبة وصاحبيْه يوم بَرَزُوا في يوم بدر»[٥].

برز عُتْبَةُ، وَشَيْبَةُ، والوليدُ بنُ عتبةَ، فلما توسطوا بين الصفين، دَعَوا إلى البراز؛ فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة؛ وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث، وأمهما عفراء، والثالث: عبداللَّه بن رواحة ـ فِيمَا قِيلَ ـ فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهْط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم من حاجة. وفي رواية: فقالوا: أكفاء كِرام، ولكن أخرجوا إلينا مِنْ بني عمنا. ونادَى مناديهم: يا محمد، أخرجْ إلينا أكْفاءَنا من قومنا. فقال النبي ﷺ: **«قُمْ يا عبيدة بن الحارث، وقمْ يا حمزة، وقم يا علي»**. فلما دَنوا منهم، قالوا مَن أنتم؟ تكلموا نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد اللَّه وأسد رسول الله، أنا حمزة بن عبد المطلب. فقال: كُفْؤٌ كريم. وقال علي: أنا عبداللَّه وأخو رسول الله. وقال عبيدة: أنا الذي في الحلفاء.

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٧٢).

(٢) الشَّيِّحُ: المقاتل أو الجاد في الأمر.

(٣) كفح: بمعنى جَبُنَ.

(٤) يُقال: إبلٌ قُمَّحٌ؛ أي: رافعة الرءوس غاضة العيون، وهذا إذا رويت من الماء.

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٤٣)، ومسلم (٣٠٣٣)، وابن ماجه (٢٨٣٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٦٩).

فأما حمزة فلم يُمهل شيبةَ أن قتله، وأما علي فلم يُمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذففا[1] عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابهما رضي الله عنه[2].

لقد أبلى في بدر بلاءً عظيمًا، وقاتل بسيفين[3]، وقد سأل أُميةُ بن خلفٍ الذي أُسِرَ يوم «**بدر**» عبدالرحمن بن عوف: مَنِ الرجل المُعلم بريشة نعامة في صدره؟! فقال عبدالرحمن بن عوف: «**حمزة بن عبد المطلب**»، فقال أُمية: «**هو الذي فعل بنا الأفاعيل**»[4].

لقد ذفف حمزة وعلي بن أبي طالب على عتبة بن ربيعة، وَقَتَلَ هو وعلي بن أبي طالب زمعة بن الأسود بن المطلب، وَقَتَلَ هو وعلي عقيل بن الأسود بن المطلب.

وَقَتَلَ أسدُ اللهِ أبا قيس بن الوليد بن المغيرة أخا خالد بن الوليد، وَقَتَلَ الأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وَجَرَحَ عائذ بن السائب بن عويمر، ثم أُسِرَ فافتدى، ثم مات متأثرًا بجراحه، وَقَتَلَ هو وسعد بن أبي وقاص نبيهَ بن الحجاج.

قالت هند بنت عتبة:

أعَيْنِي جُودي بدمعٍ سَرِبْ ... على خيرِ جُنْدُفَ لمْ ينقلبْ
تَداعَى لَهُ رهْطُهُ غُدْوَةً ... بنو هاشم وبنو المُطَّلِبْ
يُذيقونَهُ حد أسيافِهِمْ ... يُعلونه بعدَما قَدْ عَطِبْ

ولهذا نذرت هندُ أن تأكل من كبد حمزة[5].

---

(١) ذَفَّفَا عليه: أسرعا في قتله، وأجهزا عليه.
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)، وابن الأثير (٢/١٢٤، ١٢٥).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/١٦٨).
(٤) ابن الأثير (٢/١٢٧).
(٥) البداية والنهاية (٣/٢٧٢، ٢٧٣).

وَقَتَلَ حمزة ـ أيضًا ـ طعيمة بن عدي بن الخيار.

إن دور حمزة في غزوة بدر الكبرى الحاسمة لم يكن دورًا اعتياديًّا، بل كان دورًا بارزًا للغاية؛ فقد قَتَلَ أشجع شجعان قريش وأكثرهم إقدامًا، الذي تحدى المسلمين في محاولة الشرب من حوضهم أو هدمه، وَقَتَلَ شيبة بن ربيعة، وَشَارَكَ في قتل عُتْبَة بن ربيعة، وهما من أبرز أشراف قريش ومن أشجع شجعانها؛ وبذلك أَثَّرَ أعمقَ الأثرِ في معنويات قريش؛ فانهارت تلك المعنويات من جراء هذه البداية غير الموفقة، والجيش الذي يخسر معنوياته لا ينتصر أبدًا.

ولم يكن حمزة يقاتل بصورة اعتيادية في بدر؛ بل كان مستقتلًا في قتاله؛ فقتل كثيرًا من المشركين، ومزق صفوفهم، وَشَدَّ عليهم شَدَّةً لا هوادة فيها، وطارد فلولهم بدون رحمة، وفعل بهم الأفاعيل.

لقد كان حمزة ـ بِحَقٍّ ـ بطلَ غزوةِ بدرٍ الكبرى؛ فلا عجب أن تشتد نقمة المشركين عليه، ويستهدفون حياته الغالية إذا نشب القتال بينهم وبين المسلمين من جديد!!.

❑ وفي غزوة بني قينقاع كان اللواء بيد حمزة رضي الله عنه:

لما عاد رسول الله ﷺ من بدرٍ، أظهرت يهود له الحسد بما فَتَحَ اللَّه عليه، وبغوا، ونقضوا العهد، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجرًا، فلما بلغه حسدهم، جمعهم بسوق بني قَيْنُقَاع، وقال لهم: «**احذروا ما نزل بقريش وأسلموا؛ فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل**»، فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيتَ قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبتَ منهم فرصة. فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبينه، وبينما هم على مجاهرتهم وكفرهم، إذ جاءت امرأة مسلمة إلى سوق بني قَيْنُقاع، فجلست عند صائغ؛ لأجل حلي لها، فجاء رجل منهم فَخَلَّى درعها إلى ظهرها، وهي لا تشعر، فلما قامت بدت عورتها، فضحكوا منها؛ فقام إليه رجل من المسلمين؛ فقتله، ونبذوا العهد إلى رسول اللَّه ﷺ، وتحصنوا بحصونهم؛ فغزاهم رسول اللَّه

ﷺ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، فنزلوا على حكمه؛ فأجلاهم عن المدينة إلى **«أَذْرِعَات»**(١).

وكان لواء النبي ﷺ مع حمزة، وكان اللواء أبيض(٢)، وكانت الغزوة يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مُهَاجَرِهِ - عليه الصلاة والسلام -(٣).

أهاب حمزة بالأبطال فانطلقوا ۝ وانساب منطلقًا يهديهم السُّبُلا

ومن المعلوم أن اللواء يحمله اعتياديًّا أشجعُ الشجعان؛ لأن الدفاعَ عنه وإبقاءَهُ مرفوعًا دون أن يهوي إلى الأرض أو يُعَفَّرَ بالتراب لا يتم إلا لشجعان مشهود لهم بالشجاعة والإقدام والثبات وقوة الأعصاب والألمعية والذكاء.

❏ **وفي أحد يَهُدُّ حمزة أسد الله المشركين هَدًّا بسيفيه حتى قُتِلَ بعد أن قَتَلَ واحدًا وثلاثين كافرًا:**

كانت غزوة أُحُد يوم السبت لسبع ليالٍ خلون من شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من مُهَاجَرِهِ - عليه الصلاة والسلام -(٤)، في السنة الثالثة الهجرية «٦٢٤م»، وقد استقبل النبي ﷺ المدينة، وَتَرَكَ أُحُدًا خلف ظهره، وجعل وراءه الرماة وهم خمسون رجلًا، وَأَمَّرَ عليهم عبدالله بن جُبَيْر أخا خَوَّات بن جُبَيْر، وقال له: «**انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا**»، وَظَاهَرَ رسول الله ﷺ بين درعَين، وأعطى اللواء مُصْعَبَ بن عُمَيْر، وَأَمَّرَ الزبير بن العوام على الخيل ومعه المِقْداد، وخرج حمزة بالجيش بين يديه(٥).

ونشب القتال وكان أول الوقود حَمَلَةَ اللواء من بني عبد الدار، وبعد أن قَتَلَ

---

(١) أذرعات: موضع يقع في شرقي الأردن حاليًا، وهو بين أجنادين والشام.
(٢) طبقات ابن سعد (٢/٢٨ - ٣٠)، وابن الأثير (٢/١٣٧، ١٣٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٢٨، ٢٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/٣٦).
(٥) ابن الأثير (٢/١٥٢).

الزبيرُ حاملَ لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة، حمل اللواء بعده أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، تقدم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقا أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة؛ فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه حتى وصلت إلى سرته؛ فبانت رئته، وبعد أن قضى عليه رجع وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج[١].

وَاسْتَحَرَّ القتل في حملة اللواء.. وكان من حملته أرطاة بن شرحبيل؛ فلم يمهله علي بن أبي طالب أن قتله، وقيل: قتله حمزة[٢].

واقتتل الناس اقتتالًا شديدًا، وأمعن في الناس حمزة وعلي وأبو دجانة في رجال من المسلمين[٣].

وكان حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة الأنصاري كفرسي رهان في سباق البطولة؛ حيث انطلقا يهدان صفوف المشركين هدًّا.

أما حمزة فبعد أن أصدر الرسول ﷺ أوامره بالقتال، هتف بكلمة التعارف التي اتفق عليها المسلمون؛ وهي: «**أمت أمت**»، ثم اندفع إلى قلب جيش الشرك؛ كالصاعقة وفي يده سيفان لا يقف له أحد.

فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حملة لواء المشركين فَعَلَ الأفاعيل بأبطالهم الآخرين، وكان يَجُولُ الأبطالَ أمامه كما تَجُولُ الريحُ أمامها الورقَ اليابسَ؛ لما له من هيبة في نفوس الأبطال[٤].

وأبلى حمزة البطل بلاءًا عظيمًا في هذه المعركة؛ فقد قتل واحدًا وثلاثين من

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «أُحُد»، لمحمد أحمد باشميل ص (١٠٢).

(٢) المصدر السابق ص (١٠٢).

(٣) قادة النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب ص (٥٨).

(٤) موسوعة الغزوات «أُحُد»، لباشميل ص (١٠٤).

الكُفار[١]؛ قال الضرغامُ قولًا صَدَقَ بِهِ وَمَضَى عَلَيْهِ: «**والذي أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم**».

كـحـمـزة لما وفَّـى صـادقًـا ... بـذي هـبـة صـارمٍ سـلـجَـجِ[٢]
فـلاقـاهُ عـبـدُ بـنـي نَـوْفـل ... يـبـربـزُ كـالجـمـلِ الأدْعَـجِ
فـأوْجَـرَهُ حـربـةً كـالـشـهَـابِ ... تـلـهـبُ في الـلـهـبِ المُوهَـجِ

وعن سعد بن أبي وقاص: «**كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أحد بين يَدَيْ رسول الله** ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله»[٣].

عن جابر بن عبدالله قال: «**فَقَدَ رسول الله ﷺ يوم أُحُد حمزةَ حين فَاءَ الناسُ من القتال، قال: فقال رجل: رأيتُه عند تلك الشجرة، وهو يقول: «أنا أسد الله وأسد رسوله»**[٤].

❑ استشهاد حمزة وحزن النبي ﷺ عليه:

قاتل حمزة حتى مَرَّ به سِبَاع بن عبد العُزى الغُبْشَانِي، وكان يكنى بأبي نيار، فقال له حمزة: «**هَلُمَّ إليَّ يا ابنَ مُقَطِّعَةِ البُظُور**»، وكانت أمه أم أنمار مولاة شَرِيق بن الأخنس بن شريق، وكانت خَتانة بمكة، فلما التقيا ضربه حمزة؛ فقتله، وكان سباع أحد فرسان قريش المشهورين فكان لمقتله أثر سيئ في نفوس المشركين؛ لأنه من أبطالهم المعتمد عليهم في ساعة الشدة.

قال وحْشِيٌّ غلام جُبَير بن مطعم: «والله إني لأنظر إلى حمزة يَهُدُّ[٥] الناسَ

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/٦٩)، والإصابة (٢/٣٧)، وأُسْد الغابة (٢/٤٢).
(٢) سَلجج: طيب.
(٣) **إسناده صحيح**: رواه الحاكم في «المستدرك»، وابن سعد (٣/١/٦).
(٤) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/١٩٩)، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه».
(٥) يهدُّ: يهلكهم، ويروي: يهذُّ عند ابن الأثير (٢/١٥٦)؛ ومعناه: يسرع في قتلهم.

بسيفه ما يُلِيْقُ[1] به شيئًا مثل الجمل الأورق[2]، إذ تقدمني إليه سِباع بن عبد العُزى، فقال له حمزة: هَلُمَّ إليَّ يا ابن مُقَطعة البُظُور. فضربه ضربة؛ فكأنما أخطأ رأسه[3]، وهَزَزْتُ حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه؛ فوقعت في ثُنَّتِهِ[4]، حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فَغُلِبَ فوقع، وأمهلته حتى إذا مات، جئت فأخذت حربتي، ثم تنحيتُ إلى العسكر، ولم يكن لي بشيءٍ حاجة غيره»[5].

قال عبيداللَّه بن عدي بن الخيار لوحشي قاتل حمزة: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر؛ فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قَتَلْتَ حمزة بعمي فأنت حر. قال: فلما أن خرج الناس عام عينين ـ وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد ـ، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سِبَاع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سِبَاع يا ابن أم أنمار مقطعة البظور[6]، أتحادُّ اللَّه ورسوله ﷺ؟! قال: ثم شد عليه؛ فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي؛ فأضعها في ثُنَّتِهِ حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فَشَا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول اللَّه ﷺ رسلًا، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل. قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول اللَّه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، فلما رآني قال: «**أنت وحشي؟!**»، قلت: نعم. قال: «**أنت قتلت**

---

(١) ما يليق: ما يبقى.
(٢) الأورق: الذي لونه بين الغبرة والسواد.
(٣) فَكَأَنَّمَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ: يقال هذا عند المبالغة في الإصابة.
(٤) الثنية: أسفل بطنه. والثنة: أسفل البطن.
(٥) سيرة ابن هشام (١٥/٣).
(٦) أي: ختانة النساء.

حمزة؟!» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك. قال: **«فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني؟!»** قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله؛ فأكافئ به حمزة. قال: فخرجت مع الناس؛ فكان من أمره ما كان. قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار؛ كأنه جمل أورق ثائر الرأس. قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال: ووثب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته»[1].

❑ رَجُلٌ يُعَدُّ بالآلاف:

وهكذا فَقَدَ المسلمون بمصرع حمزة بن عبد المطلب رجلًا يُعَدُّ بالآلاف؛ فقد كان رضي الله عنه من أكبر سواعد النبي ﷺ في الملاحم؛ كان في أحد - كيوم بدر - نجم المعركة اللامع، كان المشركون موتورين من حمزة، وكانت قلوبهم تغلي حقدًا عليه؛ لأنه صَرَعَ الأحبة من فرسانهم يوم بدر، وكان الذين وَتَرَهُمْ حمزة يوم بدر في ذويهم يودون قتله انتقامًا، ولكنهم جميعًا يدركون أن مواجهة حمزة بن عبد المطلب ليست بالأمر الهين؛ فشهرته الحربية واستفاضة ضراوته في القتال؛ جعلت فَرَائِصَ أعظم الأبطال ترتعد لمجرد التفكير في ملاقاة هذا البطل؛ ولهذا لجَأَ الموتورون من حمزة إلى طريق الاغتيال، وَنُفِّذَتْ خطة الاغتيال الدنيئة، وَصُرِعَ الأسد حمزة، لا كما تُصرع الأبطال وجهًا لوجه في ميدان القتال؛ وإنما كما يُغْتَالُ الكرام في أحلك الظلام..

وهل كان أحد من شجعان العرب جميعًا يحسب نفسه كُفُؤًا لحمزة ونزاله؟!

وهل كان يظن أحد أن يطالع الموت حمزة في معركة على طول ما مشى بين صفوف الموت مختالًا؟!

ولكن ما عسى أن تُغني الشجاعة والنبل حين يختبئ الاغتيال في حندس الليل؛

---

(١) رواه البخاري (٤٠٧٢)، والطيالسي (١٣١٤).

فيورد صاحبها حتفه»[١].

استُشهد حمزة يوم السبت، النصف من شهر شوال[٢]، من سنة ثلاث الهجرية[٣] «٦٢٤م».

وخرج رسول اللَّه ﷺ يلتمس حمزة؛ فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كَبِدِهِ، وَمُثِّلَ به؛ فَجُدِعَ أنفُهُ وأُذُنَاهُ؛ فحزن عليه النبي ﷺ، فلما رأى المسلمون حزن رسول اللَّه ﷺ وغيظه على مَنْ فَعَلَ بعمه ما فَعَلَ، قالوا: والله، لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر، لنمثلنَّ بهم مُثْلَةً لم يُمَثلها أحد من العرب.

ولما وقف رسول اللَّه ﷺ على حمزة، قال: «**لَنْ أُصَابَ بمثلك أبدًا، ما وَقَفْتُ موقفًا قَطُّ أغيظَ إليَّ من هذا**»[٤].

ولم يَرَ النبيُّ ﷺ مَنْظَرًا أوجعَ لقلبه من منظر حمزة مقتولًا مُمَثلًا به؛ فقال: «**رحمك اللَّه أي عم!! فلقد كنتَ وصولًا للرحم، فعولًا للخيرات، فواللَّه لئن أظفرني اللَّه بالقوم لأُمثلن بسبعين منهم**»[٥]؛ فَمَا بَرِحَ حتى نزل قول اللَّه في قول رسول اللَّه ﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨]؛ فَعَفَا رسول اللَّه ﷺ، وَصَبَرَ، وَنَهَى عن المُثْلَةِ[٦].

عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: لما قُتِلَ حمزة يوم أحد، أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صَنَعَ، قال: فلقيت عليًا والزبير، فقال علي للزبير: اذكر لأمك.

---

(١) في مهبط الوحي، للأستاذ محمد حسين هيكل ص (٧٥٥).
(٢) أسد الغابة (٢/٤٧).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٦٩).
(٤) سيرة ابن هشام (٣/٤٧).
(٥) الاستيعاب (١/٣٧٤).
(٦) سيرة ابن هشام (٣/٤٥، ٤٦).

قال الزبير: لا، بل اذكر أنت لعمتك. قالت: ما فَعَلَ حمزة؟ قال: فَأَرَيَاهَا أنهما لا يدريان، قال: فجاء النبي ﷺ فقال: «**إني أخاف على عقلها!!**»، قال: فَوَضَعَ يده على صدرها وَدَعَا لها؛ فاسترجعت وبكت، ثم جاء وقام عليه وقد مُثِّلَ به؛ فقال: «**لولا جزع النساء، لتركته حتى يُحْشَرَ من حواصل الطير وبطون السباع**»، قال: ثم أَمَرَ بالقتلى؛ فجعل يصلي عليهم؛ فيضع تسعة وحمزة؛ فيكبر عليهم سبعًا، ثم يُرفعون ويُترك حمزة، ثم يُجَاءُ بتسعة وحمزة، فيكبر عليهم سبعًا، ثم يُرفعون ويُترك حمزة، ثم يُجَاءُ بتسعة، فيكبر عليهم حتى فرغ منهم»[1].

صَلَّى النبيُّ على حمزة يومئذ سبعين صلاة[2].

لولا أن تجد صفية في نفسها...

لولا جزع النساء...

لَتَرَكَ النبيُّ ﷺ حمزة...

حتى تأكله العافية...

حتى يُحْشَرَ يوم القيامة من بطونها...

ليعظم أجر أسد اللَّه وأسد رسوله حمزة.

عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه إبراهيم: «**أن عبدالرحمن بن عوف أُتِيَ بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتِلَ مصعب بن عمير وهو خير مني، كُفِّنَ في بردة إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ رجلاه بَدَا رأسه، وأراه قال: وقُتِلَ حمزة وهو خير مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِطَ ـ أو قال: أُعْطِينَا من الدنيا ما أُعْطِينَا ـ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلَتْ لنا. ثم جَعَلَ يبكي حتى ترك الطعام**»[3].

---

(١) **إسناده حسن لغيره:** أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٧)، وله متابع عند الطبراني في «الكبير» (١١٠٥١).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٥، ١٦).

(٣) رواه البخاري (١٢٧٥).

❑ إلى المترفين من المسلمين:

كُفِّنَ مصعب في بُرْدَة[(١)]، إذا غُطِّيَ رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطِّيَتْ رجلاه خرج رأسه؛ فَغُطِّيَ رأسه، وَجُعِلَ على رجليه إِذْخِر[(٢)].

وَقُتِلَ حمزةُ، وَبُقِرَتْ بَطْنُهُ، وَمُثِّلَ بِهِ...

ما ضَرَّهُ ما أصابه...

جَبَرَ اللَّه له بالجنة كل مصيبة...

فَتَنَحَّوْا أيها المترفون عن منازل ودرجات الصادقين الزاهدين.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: نظروا، فإذا حمزة قد بُقِرَ بَطْنُهُ، وأخذتْ هند كبدَهُ، فَلَاكَتْهَا، فلم تستطع هند أن تأكلها؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أَكَلَتْ منها شيئًا؟»** قالوا: لا. قال: **«ما كان اللَّه لِيُدْخِلَ شيئًا من حمزةَ النار»**[(٣)].

وَأَمَرَ رسول اللَّه ﷺ بحمزة؛ فَدُفِنَ في أُحُد، وَدُفِنَ معه ابن أخته عبداللَّه بن جحش - وأمه أميمة بنت عبد المطلب -، وكان قد مُثِّلَ به أيضًا[(٤)]، وقبرهما معروف في أحد حتى اليوم.

❑ الملائكة تُغَسِّلُ حمزة:

هذي المكارم لا قعبان من لبن ... شيبت بماء فعادت بعدُ أبوالًا

عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«رأيتُ الملائكة تُغَسِّلُ حمزة بن عبد المطلب، وحنظلة بن الراهب»**[(٥)].

---

(١) البردة: كساء مخطط يلتحف به، جمعها بُرْد، وبُرَد.

(٢) إذخر: نبات فيه رائحة طيبة.

(٣) **إسناده حسن لغيره**: رواه ابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٦).

(٤) البداية والنهاية (٤/٤٢).

(٥) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٧٠٤)، و«أحكام الجنائز» (٥٦)، و«صحيح الجامع» (٣٤٥٧).

❑ الشعر يبكي أسد اللَّه وأسد رسوله:

ولله دَرُّ القائل:

صاحب السيْفينْ ماذا صَنَعَا؟ وَدَّع الصِّفينْ والدنيا معا
غاب عن أصحابه ما علموا أي دار حَلَّ لما وَدَّعا
غاب عن أعينهم في غَمْرةٍ سدَّ غُول الهول منها المطلعا
طلبوه وتنادى جَمْعُهم نكبةٌ حلَّتْ وَخَطْبٌ وقعا
يا رسول اللَّه هذا حمزةٌ أترى عيناك منه المصرعا؟
إنه عَمُّكَ إلا أُذُنًا قُطِعَتْ منه، وأَنْفًا جُدِعَا
إنه عَمكَ فانظر بطنهُ كيف شقّوه وَعَاثُوا في الْمِعَى
كبدُ الفارس ماذا فعلت؟ أين طاحت؟ من قضى أن تُنْزَعَا؟
نَذْرُ هندٍ هِيَ لولا أنها لم تُسِغْها[1] أكلتها أجمعا
طفِقت تمضُغ من أفلاذها علقمًا مُرًّا وسُمًّا مُنقَعا[2]
كلما هَمَّتْ به تدفعُها مِلءَ شدقيْها أبتْ أن تُدفعا
نذرت يوم أبيها نَذْرَها عَلَّها تشفِي الفؤادَ المُوجَعا
جاء وَحْشِي فضجتْ فرحا وَيلِكِ[3] إن الأرض ضجتْ فَزَعا
تبذلين الحَلْي والمالَ على أن جناهُ جاهليًّا مفظعا
يا لَهُ يا هند جرحًا داميا ضاق عنه الصبر مما اتسعا
أَفَمَا أبصرت رُكْنَي أُحُدٍ حين سَالَ الجُرحُ كيف انصدعا
وأبو سفيان ماذا هاجه أفما يُزمِعُ أن يرتدعا[4]

---

(١) ساغ الطعام وأساغ ـ وهو أجود ـ: أسهل مدخله إلى الحلق.

(٢) أفلاذها: جمع فلذة؛ وهي: القطعة من الكبد ونحوها. والسم المنقع: المربَّى.

(٣) ويلك: كلمة تعجُّب مكونة من «وي، وكاف الخطاب»، وتأتي للزَّجْر.

(٤) جعل أبو سفيان يضرب بزج الرمح في شدق حمزة ﷺ بعد قتله ويقول: ذُق عقق؛ أي: ذق جزاء مخالفتك لقومك يا عاق، وقد مَرَّ به الحليس سيد الأحابيش وهو يفعل ذلك؛ فقال: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يفعل بابن عمه ما ترون!! فقال أبو سفيان: اكتمها عني؛ فإنها زلة. وَيَزْمِعُ: المراد منها هنا يريد.

غَـرَّهُ في يـومـه مـا غَـرَّهُ   إن عـنـد الـغـد سِـرًّا مُـودَعـا
يـطـعـنُ الـلـيْـثَ ويَـفِـرِي شِـدْقـه   حـين ألـقـى جنـبـه فـاضـطـجـعـا
لـو رآه يـتـحـدى نـفـسـه   لـرآهـا كـيـف تـهـوي قـطـعـا[1]
يـذكـر الـعـزى ويـدعـو هُـبَـلًا   ويـحَـهُ مـن ذاكـر مـاذا دَعَـا
أَسَـدُ الـلَّـه رمـاه ثـعـلـبٌ   يـا لَـهُ من حـادثٍ مـا أبـدعـا
أَخَـذَتْـهُ عـثـرةٌ مَـزْءُودَةٌ   ضجت الدنيا لها تدعو: لعا[2]
زالـت الـدرع فـغـشـي بـطـنـه   دافـق مـن دمـه فَـادَّرَعَـا
حربة ظَمْأى أصابت مَشرعا   كـان مِـن خـيـر وَبِـرٍّ مُـترعَـا[3]
جـزع الـهـادي لـهـا نـازلـةً   جـلـلَـتْ عُـلْـيـا قـريـش جَـزَعـا
تـلـك رؤيـاه وهـذا سـيـفـه   لا رعى الرحمن إلا من رَعَى[4]
ثلمة هدتْ من الكفر حِمًى   زعـم الـكـفـار أن لـن يُـفْـرَعـا[5]
بـورك المضـجـع والـقـوم الألـى   وسـدوا فيه الـشـهـيـد الأروعـا[6]
مَـثَّـلَ الـقـومُ بـه مـن بـغـيـهـم   مـا نـهـاهـم ديـنـهـم أو مَـنـعـا
لـيـس لـلأخـلاق إلا دِيـنُـهَـا   يُـؤثـر المثـلـى ويـهـدي مَـنْ وَعَـى
وَعَـدَ الإسـلامُ خـيـرًا مَـن عَـفَـى   إن حُـسْـنَ الـعـفـوِ مما شَـرَعَـا
سـائـلِ الـلائـي تـقـلـدْنَ الحِلَـى   مـن جـلـودٍ مَـن رآهـا خَـشـعـا

---

(١) تحدَّى الشيء: تعمده، والرجل بَارَاهُ في فعله ونازعه الغلبة.

(٢) مزءودة: بمعنى مذعورة. لَعًا أو لَعًا لك: كلمة تُقال عند العثرة؛ وهي: دعاء بالانتعاش.

(٣) المشرع: المورد. والمترع: المملوء.

(٤) قبل خروج النبي ﷺ إلى أُحُد رأي رؤيا قصَّها على سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ؛ فقال: «رأيتُ بقرًا تُذبح، ورأيتُ في ذبابة سيفي ثلمًا، ورأيتُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة وأني مردف كبشًا؛ فأما البقر فناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيته في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يُقتل، وأما الدرع الحصينة فالمدينة، وأما الكبش فإني أقتل كبش القوم ـ أي: حامل اللواء».

(٥) فَرَعَ الجبلَ ونحوه: عَلَاهُ.

(٦) الأروع: مَن يُعجبك بحسنه ووجاهة منظره، أو بشجاعته، وقيل: هو الشهم الذكي الفؤاد.

أهي كاللؤلؤ أم أبهى سنا ... من غواليهِ وأسمى مَوْضِعا
بوركت إني أراها زُلَفًا[١] ... رَفَعَ اللهُ بها مَن رَفَعا
لن يفوت الكفرَ منها ذابحٌ ... لا يُبالي أيَّ جلدٍ مَزعا
يا لريب الدهْرِ ما أَفْدَحَهُ ... حادثًا نُكرًا ورُزءًا مُفجِعا
رجع الذكْرُ به مُؤْتَنِفًا ... ولقد أشفقتُ أن لا يرجعا
شُغِلَ الأهلُ عن الأهل فيا ... عجبا للدهر ماذا صنعا
أَفَمَا أَبْصِرُ إلا لاهيا ... أو مُعَنًّى بالأماني مُولَعا
اذكروا يا قومُ من أمجادكم ... ما نسيتم رب ذكر نفعا

لقد كان حمزة أسدًا أي أسد، وكان استشهاده خسارة للمسلمين كافة، لا لآل البيت وحدهم؛ لأنه كان رجلًا في أمة، وأمة في رجل، لا يعيش لنفسه بل للمسلمين جميعًا.

وحظي حمزة بعد استشهاده بكثير من المراثي؛ لإعجاب الناس به وتقديرهم لسجاياه.

قال كعب بن مالك يرثي حمزة وقتلى أُحُد من المسلمين ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ:

نَشَجْتَ وهل لك من مَنْشَجِ ... وكنتَ متى تَذكرْ تَلْجُجِ[٢]
فَقَلْبُكَ من ذِكْرِهِمْ خافِقٌ ... من الشوْق والحُزْنِ المُنْضَجِ
وقتلاهُمُ في جِنان النعيمِ ... كرامُ المداخِلِ والمَخْرَجِ
بما صبروا تحت ظل اللواء ... لواء الرسول بذي الأَضْوُجِ[٣]
غداة أجابت بأسيافها ... جميعًا بنو الأوس والخزرج
وأشياع أحمدَ إذ شايعوا ... على الحق ذِي النور والمنهج

---

(١) الزلف: جمع زلفة؛ وهي القربة والمنزلة.

(٢) نشجت: بكيت، والنشيج: البكاء مع صوت متردد. وتلجج: هو من اللجج؛ وهو: التمادي في الشيء والإقامة عليه.

(٣) الأضوج: جمع ضوج؛ وهو: جانب الوادي.

فـما بَـرِحُـوا يـضـربـونَ الـكُـمـاة ... ويمضون في القَسْطَلِ المُرْهِجِ[1]

كـذلـك حـتـى دعـاهـم مـليـكٌ ... إلـى جـنـةٍ دَوْحـةِ المُوْلَـجِ[2]

فـكـلـهُـمُ مَـاتَ حُـرَّ الـبـلاءِ ... على مِلَّةِ اللَّه لم يَحْرَجِ[3]

كـحـمـزة لَمّا وَفـى صـادقًـا ... بـذي هَـبَّـةٍ صـارمٍ سَلْجَجِ[4]

فَـلاَقَـاهُ عـبـدُ بـنـي نَـوْفَـلٍ ... يُـبَـرْبِـرُ كـالجمـلِ الأَدْعَـجِ[5]

فَـأَوْجَـرَهُ حـربـةً كـالـشـهـاب ... تَـلَـهَّـبُ في الـلـهَـب الموهِـجِ[6]

ونُـعـمـان أوفـى بمـيـثـاقـه ... وحـنـظـلـةُ الخير لم يُحْنَـجِ[7]

عـن الحق حـتـى غـدت روحـه ... إلـى مـنـزلٍ فـاخـرِ الـزِّبْـرِجِ[8]

أولـئـك لا مَـنْ ثَـوَى مـنـكُـمُ ... مـن الـنـار في الـدَّرَكِ المُرْتَجِ[9]

وقال حسان بن ثابت يرثي حمزة وشهداء أُحُد:

أشـاقـكَ مـن أم الـولـيـدِ رُبُـوعُ ... بَلاَقِعُ ما من أهلهن جميعُ[10]

عفاهُن صَيْفِيُّ الرياح ووَاكِفٌ ... من الدَّلْوِ رجافُ السحَاب هَمُوعُ[11]

فلم يبقَ إلا مَوْقِدُ النار حوْله ... رواكدُ أمثالُ الحَمام كُنُوعُ[12]

---

(١) الكماة: الشجعان، واحدهم كمي. والقسطل: الغبار. والمرهج: الذي ثار حتى عَلَا وارتفع في الجو.

(٢) الدوحة: الكثيرة الأغصان. والمولج: المدخل؛ وأراد هنا: أن الجنة كثيرة الأبواب.

(٣) لم يحرج: لم يأثم.

(٤) بذي هبة: أراد به سيفًا. وهبة السيف: وقوعه بالعظم. والصارم: القاطع. سلجج: مرهف حادٌّ قاطع.

(٥) أراد بعبد بني نوفل: وحشيًّا. ويبربر: يتكلَّم بما لا يفهم. والجمل الأدعج: الأسود.

(٦) أوجره: طعنه في صدره. والشهاب: القطعة من النار. والموهج: المتَّقد.

(٧) لم يحنج: لم يصرف عن وجهه الذي أراد من الحق.

(٨) الزبرج: المُوَشَّى؛ وهو أيضًا الذهب.

(٩) المرتج: المغلق؛ تقول: أرتجت الباب: إذا أغلقته.

(١٠) ربوع: جمع ربع؛ وهو: المنزل. وبلاقع: جمع بلقع؛ وهو: القفر الخالي. وجميع: مجتمع مؤتلف.

(١١) عفاهن: غيرهن ودرس جدتهن. وواكف: المطر السائل. وقوله: من الدلو: أراد نجم الدلو. ورجاف: متحرك شديد الصوت. وهموع: سائل كثير السيلان.

(١٢) رواكد: جمع راكدة؛ وهي: الثابتة، وأراد بالراكدة: الأثافي؛ وهي: الحجارة التي ينصبونها لوضع القدور عليها. وكنوع: لاصقة بالأرض.

فَدَعْ ذكرَ دارٍ بَددتْ بين أهلها ... نـوى لِمَتِينَاتِ الحِبَـال قَـطُـوع[1]
وَقُلْ إنْ يكن يومٌ بأُحْدٍ يعده ... سفيهٌ فإن الحق سوف يشيع[2]
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم ... وكـان لـهـم ذكـرٌ هـنـاك رفيعُ
وحامى بنو النجار فيه وصابروا ... وما كان منهم من اللقاء جزوع
أمامَ رسول اللَّه لا يخذلونه ... لـهـم نـاصـرٌ مـن ربـهـم وشـفـيـع
وَفَوْا إذ كفرتُمْ يا سَخِينَ بربكم ... ولا يستوي عبدٌ وَفَى وَمُضِيْع[3]
بأيديهمُ بِيْضٌ إذا حَمِشَ الوَغَى ... فلا بد أن يَرْدَى لهن صريع[4]
كما غادرت في النقْعِ عُتْبَة ثاوِيًا ... وسَعْدًا صريعًا والوَشِيْجُ شُرُوع[5]
وقد غادرت تحت العجاجَة مُسْنَدًا ... أَبِيًّا وقد بَلَّ القميصَ نَجِيْع[6]
بكف رسول اللَّه حيث تنصبَتْ ... على القوم مما قد يُثِرْنَ نُقُوع[7]
أولئك قوم سادة من فُرُوعكم ... وفي كـل قـوم سـادةٌ وفُـرُوع
بهن نُعِزُّ اللَّه حتى يُعِزَّنا ... وإن كان أمرٌ يا سَخِيْنَ فَظِيع[8]
فلا تذكروا قتلى وحمزةُ فيهمُ ... قـتـيـل ثَـوَى لـلـه وهـو مـطـيـع
فإن جِنَانَ الخُلْدِ منزلةٌ له ... وأمرُ الذي يقضي الأمورَ سريعُ
وقتلاكُمُ في النار أفضل رزقهم ... حَمِيْمٌ مَعًا في جوفها وضَرِيْعُ[9]

---

(١) النوى: البعد. ومتينات الحبال: الغليظ الشديد منها. وقطوع: شديدة القطع، وأراد هنا بالحبال: الوصال والاجتماع بين الأهل والمحبين.

(٢) يشيع: يفشو أمره وينتشر ذكره وينبه شأنه.

(٣) يا سخين: أراد يا سخينة؛ وهي: الحساء يتخذ من الدقيق، وكانت قريش تنبز بها.

(٤) حمش: اشتدَّ وقوي. والوغى: الحرب. وَيَرْدَى: يَهْلِكُ.

(٥) غادرت: تركت. والنقع: الغبار. وثاويًا: مقيمًا. والوشيج: الرماح. وشوج: مائلة للطعن.

(٦) العجاجة: الغبرة والتراب الثائر. والنجيع: الدم.

(٧) نقوع: جمع نقع؛ وهو: الغبار.

(٨) يا سخين: مضى تفسيرها قريبًا. والفظيع: الثقيل الكريه.

(٩) الحميم: الحار. والضريع: نبات أخضر يرمى به في البحر؛ **وانظر**: القصيدة في «سيرة ابن هشام» (٣/ ١٠٧ - ١١٠).

وقال حسان بن ثابت يرثي حمزة سيد الشهداء:

أَتَعْرِفُ الدَّارَ عَفَا رَسْمُهَا ... بعدكَ صَوْبُ المُسْبِلِ الهاطِلِ[(١)]

بينَ السراديحِ فَأُدْمَانَةٍ ... فَمَدْفَعُ الرَّوْحاء في حائلِ[(٢)]

سألتُها عن ذاكَ فاسْتَعْجَمَتْ ... لم تَدْرِ ما مَرْجُوعَةُ السائِلِ[(٣)]

دَعْ عنكَ دارًا قد عَفَا رَسْمُهَا ... وابْكِ على حمزةَ ذِي النائلِ[(٤)]

المالِئِ الشِّيزَى إذا أَعْصَفَتْ ... غبراءُ في ذِي الشَّبِمِ الماحِلِ[(٥)]

والتارِكِ القِرْنِ لذي لِبْدَة ... يَعْثُر في ذي الخُرْصِ الذابلِ[(٦)]

واللابس الخيلَ إذا أحْجَمَتْ ... كالليث في غايته الباسلِ

أبيض في الذِّرْوَةِ من هاشمٍ ... لم يَمرْ دون الحق بالباطلِ[(٧)]

مال شهيدًا بين أسيافكم ... شُلَّت يدا وَحْشِيٍّ من قاتلِ

أي امرئٍ غادر في آلةٍ ... مَطْرورَةٍ مارِنَةِ العاملِ[(٨)]

أظلمتِ الدنيا لفِقْدانِهِ ... واسود نور القمر الناصِلِ[(٩)]

صلى عليه اللّه في جنةٍ ... عاليةٍ مُكْرَمَةِ الداخِلِ

---

(١) عَفَا: غير ودرس. ورسمها: أثرها. والصوب: المطر. والهاطل: الكثير السيلان.

(٢) السراديح: جمع سرداح؛ وهو: الوادي، ويقال: المكان المتَّسع. وأدمانة: مكان بعينه. والمدفع: حيث يندفع السيل. والروحاء: اسم موضع. وحائل: جبل.

(٣) استعجمت: لم ترد جوابًا. ومرجوعة السائل: رجوع جوابه.

(٤) النائل: العطاء.

(٥) الشيزى: الجفان المصنوعة من خشب الشيز؛ وأعصفت: اشتدَّت؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت: إذا اشتدَّ هبوبها. والغبراء: التي تثير الغبار وتهيجه. والشبم: الماء البارد. والماحل: من المحل؛ وهو: القحط.

(٦) القرن: الذي يقاومك في القتال. واللبدة: الغبار الملبد. وذو الخرص: الرمح. والخرص: سنانه، وجمعه: خرصان. والذابل: الرقيق الشديد.

(٧) لم يمر: لم يمار ولم يجادل.

(٨) غادر: ترك. وآلة: الحربة التي لها سنان طويل. والمطرورة: المحددة. والمارنة: اللينة. والعامل: أعلى الرمح.

(٩) الناصل: الخارج من السحاب.

كنـا نـرى حـمـزة حـرزًا لنـا ... في كــل أمــرٍ نَــابَــنَــا نــازِلِ
وكــان في الإســلام ذا تُــدْرَإٍ ... يكفيكَ فَقْدَ القاعِدِ الخاذِلِ[١]
لا تفرحي يا هند واسْتَجْلِبي ... دمعًا وأذْري عَبْرَةَ الشاكـلِ[٢]
وابكـي على عتْبَة إذ قَطَّهُ ... بالسيف تحتَ الرَّهَجِ الجائلِ[٣]
إذا خَرَّ في مشيخةٍ منكُمُ ... من كل عاتٍ قلبه جاهلِ
أرداهُـم حـمـزةُ في أُسْـرَةٍ ... يمشون تحت الحَلَقِ الفاضِلِ[٤]
غـداة جِـبْـرِيـل وزيـرٌ لـه ... نِعْمَ وزيرُ الفارس الحامِلِ[٥]

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

طَرَقَتْ همومُكَ فالرقادُ مُسَهَّدُ ... وجزعتَ أَنْ سُلِخَ الشبابُ الأغْيَدُ[٦]
وَدَعَتْ فؤادَكَ للهوى ضَمْرِيةٌ ... فهواك غَوْرِيٌّ وصَحْبُكَ مُنْجِدُ[٧]
فدَعِ التمادي في الغَوايةِ سادرًا ... قد كنتَ في طلب الغَواية تُفْنَدُ[٨]
ولقد أنَى لَكَ أنْ تَنَاهَى طائعًا ... أو تستفيق إذا نهاكَ المرشدُ[٩]
ولقد هُدِدْتَ لفَقْدِ حمزةَ هَدَّةً ... ظلتْ بناتُ الجَوْف منها تُرْعَدُ[١٠]

---

(١) ذا تدرأ: كثير الدفاع عنا.

(٢) أَذْري: اسكبي واسترخصي. والعَبْرَة: الدمعة. والثَّاكل: المرأة التي فقدت ولدها.

(٣) قَطَّهُ: قطعه نصفين. والرهج: الغبار. والجائل: المتحرك الثائر مما أثارته سنابك الخيل وأقدام المحاربين.

(٤) أرداهم: أوردهم الردى؛ وهو: الهلاك. وأسرة: قرابة؛ وذلك لأن حمزة قَتَلَ عتبة وشيبة أخاه وحنظلة بن أبي سفيان وأمه هي هند. والحلق: الدروع. والفاضل: الذي يفضل عن لابسه، ويزيد عنه، وينجرُّ على الأرفق.

(٥) سيرة ابن هشام (١٣٢/٣ - ١٣٥).

(٦) المسهد: القليل النوم في الأصل؛ وأراد المسهَّد صاحبه؛ فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. سلخ: أزيل. الأغيد: الناعم.

(٧) ضمرية: منسوبة إلى بني ضمرة، إحدى القبائل العربية. وغوري: منسوب إلى الغور؛ وهو: المنخفض من الأرض.

(٨) الغاوي: ضد الراشد؛ وهو: المتحير في سبيل الضلال. وتفند: تلام وتعذل وتكذب. والفند أيضًا: الكلام الذي لا يعقل.

(٩) أَنَى: حان.

(١٠) بنات الجوف: أراد قلبه وما اتصل به من كبده وأمعائه؛ لأن الجوف يضمُّها ويشتمل عليها.

وَلَوَ انَّهُ فُجِعَت حِراءُ بمثله ... لرأيتَ رَاسِيَ صخرِها يتبدد[1]
قِرْمٌ تَمَكَّنَ في ذؤابة هاشم ... حيثُ النبوةُ والندي والسؤدد[2]
والعاقِرُ الكُوَم الجِلَادِ إذا غدت ... ريحٌ يكادُ الريح فيها يَجْمُدُ[3]
والتاركُ القِرْن الكَمِي مُجَدَّلًا ... يومَ الكريهة والقَنَا يَتَقَصَّدُ[4]
وتراه يَرْفُلُ في الحديد كأنه ... ذو لِبْدَةٍ شَثْنُ البَرَاثِنِ أَرْبَدُ[5]
عَمُّ النبيِّ محمدٍ وصفيُّهُ ... وَرَدَ الحِمَامَ فطابَ ذاك المورد
وأتى المنية مُعْلَمًا في أُسْرَةٍ ... نصروا النبي ومنهمُ المُسْتَشْهِدُ[6]
ولقد إخالُ بذاك هِنْدًا بُشِّرَتْ ... لِتُمِيتَ داخلَ غُصَّةٍ لا تَبْرُدُ[7]
مما صَبَحْنَا بالعَقَنْقَلِ قومَها ... يومٌ تَغَيَّبَ فيه عنها الأسعد[8]
وببئر بدرٍ إذ يَرُدُّ وجوهَهم ... جبريلُ تحتَ لوائنا ومحمدُ
حتى رأيتُ لَدَى النبي سراتَهم ... قِسْمَين نَقْتُلُ من نشاء ونَطْرُدُ[9]
فأقام بالعَطَنِ المُعَطَّنِ منهمُ ... سبعون عُتْبَةُ منهمُ والأسود[10]
وابنَ المُغِيرَةِ قد ضربنا ضَرْبَةً ... فوق الوَرِيْد لها رَشَاشٌ مُزْبِدُ[11]

---

(١) حراء: اسم جبل، وَأَنَّثَهُ؛ باعتباره بقعة من الأرض. والراسي: الثابت. ويتبدد: يتفتت.

(٢) القرم: الفحل. وذؤابة هاشم: أعاليها؛ وأراد: أسمى أنسابها وأرفعها.

(٣) الكوم: جمع كوماء؛ وهي من الإبل العظيمة السنام. والجلاد: القوية. وريح يكاد الماء فيها: يجمد أيام الشتاء.

(٤) الكميُّ: الشجاع. ومجدَّلًا: مطروحًا على الجدالة؛ وهي: الأرض. ويتقصَّد. يتكسَّر.

(٥) يرفل: يمشي مختالًا. والحديد: الدروع. وذو لبدة: الأسد؛ واللبدة: الشعر الذي على كتفي الأسد. وشثن: غليظ. والبراثن: هي للأسد بمنزلة الأصابع للإنسان. وأربد: أغبر يُخالط لونَهُ سوادٌ.

(٦) معلمًا: مشهرًا نفسه بعلامة تميزه من سائر المحاربين. وأسرة: رهط.

(٧) إخال: أظنُّ. والغصة: ما يقف في الحلق؛ فيخنق.

(٨) العقنقل: الكثيب من الرمل؛ أراد به: كثيب بدر. وصبحناهم: أتيناهم صباحًا للغارة عليهم.

(٩) سراتهم: أشرافهم وخيارهم. ونطرد: نسوقه؛ كما تساق الأنعام؛ يريد: إنَّا قتلنا قسمًا وأسرنا قسمًا آخر.

(١٠) العطن: مبرك الإبل حول الماء. والمعطن: الذي عود أن يتَّخذ عطنًا.

(١١) الوريد: عرق في صفحة العنق. ورشاش مزبد: يريد دمًا تعلوه الرغوة.

وأُمــيــةُ الجُمْـحِـي قَـوَّمَ مَـيْـلَـهُ ... عَضْبٌ بأيدي المؤمنين مُهَنَّدُ[١]
فـأتـاك فَـلُّ المشـركـين كـأنـهـم ... والخيـلُ تَثْفُنُـهُـم نـعامٌ شُـدَّدُ[٢]
شَتَّانَ مَنْ هو في جهنم ثاويًا ... أبدًا ومن هو بالجِنان مُخَلَّدُ[٣]

وقال كعب بن مالك يرثي حمزة رضي الله عنه:

صَـفِـيـةُ قـومـي ولا تـعـجـزي ... وبَـكِّـي الـنـسـاءَ عـلـى حـمـزةِ
ولا تَـسْـأَمِـي أن تُـطِـيـلي البُـكـا ... عـلـى أسـدِ الـلـهِ في الـهِـزَّةِ[٤]
فـقـد كـان عـزًّا لأيـتـامِـنـا ... ولـيــثَ المـلاحِـمِ في الـبِـزَّةِ[٥]
يـريـدُ بـذاك رِضَـا أحْـمَـدِ ... ورضـوانَ ذي الـعرشِ والعِـزَّةِ[٦]

وقال كعب بن مالك يرثي حمزة رضي الله عنه[٧]:

بَكَـتْ عَيْني وحق لـهـا بُـكـاهـا ... ومـا يُغني البكاءُ ولا العويلُ[٨]
عـلـى أسـدِ الإلـه غـداة قـالـوا ... أحـمـزةُ ذاكُـمُ الـرجـلُ الـقـتـيـلُ
أصـيـب المسـلـمـون بـه جـمـيـعًـا ... هـنـاك وقـد أصـيـبَ بـه الـرسـولُ
أبـا يَـعْـلَـى لـكَ الأركـانُ هُـدَّتْ ... وأنـت المـاجـدُ الـبَـرُّ الـوَصُـولُ[٩]
عـلـيـك سـلامُ ربـك في جِـنـانٍ ... مُـخـالِـطُـهـا نـعـيـمٌ لا يَـزُولُ
ألا يـا هـاشـم الأخـيـار صـبـرًا ... فـكُـلُّ فـعـالـكـم حَـسَـنٌ جـمـيـلُ

---

(١) عضب: سيف قاطع.
(٢) فَلُّ المشركين: المنهزمون منهم. وَتَثْفُنُهُم: تطردهم وتتبع آثارهم، وأصله: الأول، من ثفنات البعير؛ وهي ما حول الخف. وشرد: جمع شاردة.
(٣) ثاويًا: مقيمًا ليس يبرحها، ويروى: «تاويًا»؛ وهو الهالك. **انظر**: سيرة ابن هشام (٣/١٣٦ - ١٣٨).
(٤) الهزة: الاختلاط في الحرب.
(٥) الملاحم: جمع ملحمة؛ وهي: الحرب التي يكثر فيها القتلى.
(٦) سيرة ابن هشام (٣/١٣٩، ١٤٠).
(٧) وتروى هذه القصيدة لعبدالله بن رواحة أيضًا؛ **انظر**: سيرة ابن هشام (٣/١٤٨).
(٨) العويل: البكاء مع ارتفاع الصوت.
(٩) أبو يعلى: هي كنية حمزة رضي الله عنه، وكان حمزة يكنى بابنه يعلى، ولم يعش لحمزة ولد غيره، وأعقب يعلى خمسة من البنين ثم انقرض عقبهم، وكذلك كان يكنى أبا عمارة. والماجد: الشريف.

رسـول الـلـهِ مُـصْـطَـبِـرٌ كَـرِيمٌ ... بـأمـر الـلـهِ يَـنْـطِـقُ إذ يـقـولُ
ألا مَـنْ مُـبْـلِّـغٌ عـنـي لُـؤَيًّـا ... فـبـعـد الـيـوم دائـلـةٌ تَـدُولُ[١]
وقـبـل الـيـوم ما عَـرَفُـوا وذاقـوا ... وقـائـعـنـا بـهـا يُـشْـفَـى الغليـلُ[٢]
نَـسِـيـتُـمْ ضـربـنـا بـقَـلِـيـبِ بـدرٍ ... غـداةَ أتـاكـمُ الموتُ الـعَـجِـيـلُ[٣]
غـداةَ ثَـوَى أبـو جَـهْـلٍ صـريـعًـا ... عـلـيـه الـطـيـر حـائـمـة تجـولُ[٤]
وعُـتْـبَـةُ وابـنـه خَـرَّا جـمـيـعًـا ... وشَيْبَةُ عَضَّهُ السيفُ الصَّقِيلُ[٥]
وَمَـتْـرَكُـنَـا أُمـيـةَ مُـجْـلَـعِـبًّـا ... وفي حَـيْـزُومِـهِ لَـدْنٌ نـبـيـلُ[٦]
وَهَـامَ بـنـو ربـيـعـة سـائِـلـوهـا ... فـفـي أسـيـافـنـا مـنـهـا فُـلُـولُ
ألا يـا هـنـدُ فـابْـكِـي لا تَـمَـلِّـي ... فأنتِ الوالِهُ العَبْرى الهَبُولُ[٧]
ألا يـا هـنـد لا تُـبْـدِي شَـمَـاتًـا ... بـحـمـزةَ إن عِـزَّكُـمُ ذلـيـلُ[٨]

تلك غيضٌ من فيض القصائد التي قيلت في رثاء حمزة والشهداء الآخرين في غزوة أُحُد، تدل دلالة واضحة على مبلغ حزن المسلمين كافة على استشهاد حمزة بخاصة والشهداء الآخرين بعامة، وهي إن دلت على شيءٍ، فإنما تدل على سجاياه الرفيعة التي كان يتمتع بها حيًّا، والفراغ الهائل الذي خَلَّفَهُ بعد استشهاده.

❑ لكنَّ حمزة لا بواكي له!!

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**سمع رسول الله** ﷺ نساء الأنصار يبكين على هَلْكَاهُنَّ؛ فقال: «**لكن حمزة لا بواكي له**»؛ فَجِئْنَ فبكين على حمزة

---

(١) دائلة تدول: يريد دائرة الحرب.
(٢) الغليل: حرارة الجوف من عطش أو حزن.
(٣) العجيل: العاجل السريع.
(٤) حائمة: تدور حوله. وتجول: تجيء وتذهب.
(٥) خرَّا جميعًا: سقطا على الأرض.
(٦) مجلعبًا؛ معناه: أنه ممتد مع الأرض. والحيزوم: أسفل الصدر. واللدن: الرمح اللين.
(٧) الْوَالِهُ: الشديد الحزن. والعبرى: الكثيرة الدمع. والهبول: التي فقدت عزيزها.
(٨) سيرة ابن هشام (١٤٨/٣، ١٤٩)، **وانظر**: الاستيعاب (٣٧٤/١، ٣٧٥)، والإصابة (٣٨/٢).

عنده، إلى أن قال: «**مروهُنَّ لا يبكين على هالكٍ بعد اليوم**»(١).

يَا لَهَا من كلمة تمثل حزن النبي البالغ على فَقْدِ حمزة..

بكى فيه البطولة والفروسية والغيرة وحب الجهاد والبذل والعطاء..

فهل من معتبر بمصاب الإسلام الأكبر في واقعنا المعاصر؟!

❑ **ولكن الإسلام ودياره لا بواكي له ولها!!**

في واقعنا تدْمى القلوب قبل العيون صارخة... ولكن السيف لا بواكي له...

ولكن الأعراض لا بواكي لها... ولكن الإسلام لا بواكي له...

فكَمْ من مسجدٍ جَعَلُوهُ ديرًا   على محرابه رُسِمَ الصليبُ

دم الخنزير فيه لهم خَلُوفٌ   وتحريقُ المصاحفِ فيه طِيبُ

❑ **وهذي صرخات طفلةٍ من البوسنة:**

في عالم قَطَعَ الرقاب وأشعل النيران في صدر العَذَارَى المؤمناتْ!!

في عالم جَعَلَ البطون خنادقًا للموت أطلق في بيوت اللَّه رِجْسَ المَعْصِيَاتْ!!

في عالم فَقَأَ العيون وَغَاصَ في دم الصغار وأسكت الصلواتْ!!

في عالمٍ أعطى الكلاب الحق في عِرض البناتْ!!

مِنْ ثدي أمي كان لَوْنُ الدم يحكي قصة الأهوال في الزمن اللّعينْ!!

كَفَّنْتُ بين يدي وجهيَ وانحنيتُ على التراب أُقَبِّلُ الأَب الحنونْ!!

وقد توارى في قطار الراحلينْ.

ومضيتُ عاريةً أُغطي عُرْيَ نفسي والقطار الأسود الملعونْ!!

يطوي ليلنا الدامي الحزينْ!!

الآن يا مولاي في صَمْتِ المنابر

---

(١) **إسناده قوي**: أخرجه أحمد، وابن ماجه، وابن سعد، والحاكم وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في «البداية» (٤/٤٨): هو على شرط مسلم.

يشرب الأوْغاد دم المسلمينْ!!
الآن يأكل ثَدْيَ أُمي ألفُ نخاسٍ!!
ويشرب من دمائي ألف قَوَّادٍ!!
ويعبث في مآذننا ضلالُ المُفسدينْ!!
الآن أرحل في قطار الموت ألعنُ كل خائنْ!!
من خان يومًا مسجدًا من باع آلاف المآذنْ!!
لا تسأل البحَّارَ حين يموتُ مَن في البحر مَنْ خَرَقَ السفائِنْ!!
الآن يا مولاي نرحل في قطار الموت تبكينا المدائنْ!!
فالكل يا مولاي خائنٌ فالكل يا مولاي خائنْ[1] !!

❑ في البوسنة!!

ذبح الآباء أمامَ الأبناء... صَبُّ المسكرات بالقوة في أفواه القاصرات وحقنهن بدماء الخنازير قبل الاغتصاب...

امرأة تموت فورًا؛ فيغتصبها جندي صربي مباشرة بعد مَوْتها...

وكان يقول: لا تزال ساخنة، يمكنني أن أفعل ذلك...

ذُبِحَ الآلاف؛ كما تُذْبَحُ الشياه... قطع رءوسهم بالمنشار الكهربائي، وتعليق رءوسهم على جانبي الطُّرُق وفي المساجد...

اغتصاب المئات من القاصرات؛ ما بين خمسة سنوات إلى اثنتي عشرة سنة... اغتصاب آلاف المسلمات...

فالبكاء على حمزة... على أسد الله... الذي كان مدْرَهًا[2] يذود عن الإسلام كل كفور...

---

(١) «رسالة من طفلة مسلمة بالبوسنة»، لفاروق جويدة.

(٢) سيدًا.

البكاء على حمزة... البكاء على الإسلام الآن أَشْجَي:

يا سيدي... فَلأَعْتَرِفْ

أن الجواد الجامح المجنون قد خسر الرهانْ

وبأن أوحال الليالي السُود

فوق رءوسنا

صارت ثياب الملك والتيجانْ

وبأنَّ أشباه الرجال تحكموا

وبأنَّ هذا العصر للغلمانْ

يا سيدي... فَلأَعْتَرِفْ

أن المآذن لا تساوي رقصة

أو هَزَّ خصر في حمى السلطان

أن الفراشات الجميلة

لن تقاوم خسة الثعبانْ

أن الأسود تموت حُزْنا

عندما تتحكم الفئرانْ

أن السماسرة الكبار توحشوا

باعُوا الشعوب وأجهضوا الأوطانْ

وَلأَعْتَرِفْ يَا سَيِّدِي

أني وَفَيْتُ... وأن غيري خانْ

أني نزفتُ رحيقَ عمري كي يطل الصبحُ

لكنْ خانني الوغْد الجبان

قتلوا الشباب وصوْلة الفرسانْ

في زمنِ النخاسَة والهوانْ
سجنوا الزهور وفجر العمر قربانًا
لأصنام تبيع الإِفك جهرًا
في حِمَى الشيطانْ
القدس ترسم وجْهَ أحمدَ
والملائك حولهُ
والكون يتلو سورة الرحمنْ
القدس في الأفق البعيدِ
تُطِل أحيانًا وفي أحشائها
طَيْفُ ابن زنكي وحوْله الفُرْسانْ
القدس تبدو في ثِيَاب الحزنِ
قنديلًا بلا ضوءٍ
بلا نبضٍ.. بلا ألوانْ
تبكي كثيرًا
كلما حانت صلاةُ الفجرِ
وانطفأتْ عيونُ الصبح
وانطلق المؤذنُ بالأذانْ
القدسُ تسألُ
كيف صار الابنُ سمسارًا وباع الأم
في سوق الهوان بأرخص الأثمانْ
صوتُ المآذِنِ والمنابر لم يزلْ
في القدسِ يرفع راية العصيانْ

اللَّه أكبرُ منكَ يا زمَن الهوانْ
اللَّه أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ
اللَّه أكبرُ منكَ يا زمنَ الهوانْ

* * *

كانت لنا يومًا.. هنا أوطانْ
وطنٌ بلوْنِ الصبْحِ كانْ
وطنٌ بلون الفرح
حين يجيءُ منتصرًا على الأحزانْ
وطنٌ أَضَاءَ الكون عمرًا
بالسماحةِ... والهدايةِ ... والأمانْ
وطنٌ على أرجائه الخضراء هَلَّ الوحيُ
في التوراة ... والإنجيل ... والقرآنْ
في كل شبرٍ مِن ثَرَاه
تمهل التاريخُ... وانتفضَ الزمانْ
وطنٌ بلونِ الصبح كانْ
يمتد مِن صوْت المؤذنِ
في رُبوعِ الشام ... للسودانْ
ينسَابُ فوق ضفاف دجلة ينتشي فيها
ويخشعُ في رُبَا لبنانْ
ويُطِلّ فوق خمائِل الزيتونِ
في بغداد.. في حلب.. وفي عمانْ

عَيْنَاهُ دجلةُ والفراتُ
جناحه يمتد في اليمنِ السعيد
إلى ضفاف المغرب العربي
من أقصى الخليج إلى ذُرَا أسوانْ
وُلِدَ الزمانُ وكبر الهرمانْ
القلب في سَيْنَاءَ ينبضُ
يحملُ الوحي المتوج بالجلال
فيخسَأ الشيطانْ
وطنٌ تطوف عليه مكة كعبةُ الدنيا
وبيتُ الحق .. والإيمانْ
وطنٌ عنيدٌ أيقظ الدنيا
وعلمها طريق المجد
علمها أي الذكرِ
علمها البيانْ

* * *

وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
ماذا تَبَقَّى منهُ
الآن تأكلهُ الكلابُ وترتوي
بالدم فوق ربوعه الديدانْ
الآن ترحل عنه أفواجُ الحمام
وَتَنْعَق الغربانْ

الآن تَرْتَعُ فيه أسراب الجراد
وتعبث الفئرانْ
الآن يأتي الماءُ مسمومًا
ويأتي الخبزُ مسمومًا
ويأتي الحلمُ مسمومًا
ويأتي الفجر مصلوبًا على الجدرانْ
وطنٌ بلون الفرح يبدو الآن محمولًا
على نعش مِنَ الأحزانْ
جسدٌ هزيلٌ في صقيعِ الموتِ
مصلوبٌ بلا أكفانْ
وطنٌ جميلٌ كان يومًا كعبةَ الأوطانْ
الآن ترتحلُ الرجولةُ عن ثَرَاهُ
ويسقط الفرسانْ
في ساحة الدجل الرخيصِ
يغيبُ وجْهُ الحق
تسقط أمنياتُ العمر
يزحَفُ موكبُ الطغيانْ
في ساحةِ القَهْرِ الطويل
يضيع صوتُ العدْل
تخبو تسبيحاتُ الفجرِ
تعلُو صيحةُ البهتانْ
وطنٌ بلونِ الصبحِ كانْ

وطنٌ كبيرٌ أنت في عيني
هزيلٌ في ظلامِ السجن والسجانْ
وطنٌ جسورٌ أنت في عيني
ذليلٌ في ثياب العجْز والنسيانْ
وطنٌ عريقٌ أنت في عيني
أراكَ الآن أطلالًا
بلا اسم.. بلا رسْم.. بلا عنوانْ
وطنٌ بلون الصبح كانْ
في أي عين
سوف أحمي وجه ابني
بعدما صلبوا صلاح الدين
يا وطني على الجدرانْ
في أي صدر
سوف يسكن قلبُ ابني
بعدما عزلُوا صلاح الدين
من عينْ الصغار... وَتوَّجُوا دَيَّانْ
يا للمهانة عندما تغدو سيوف المجد
أَوْسمةً بلا فرسانْ
يا للمهانة عندما يغدو صلاح الدين
خلف القدس مطرودًا
بلا أهل.. بلا سكن .. بلا وطن.. بلا سلطانْ
في كل شيء أنت يا وطني مهانْ

مَنْ عَلَّمَ الأسد الأبي
بأنْ يُنَكِّسَ رأسه ويهادن الجرذانْ
مَنْ عَلَّمَ الفرس المكابَر
أن يهرول ساجدًا في مؤكب الحملان
من علَّم القلبَ التقي
بأن يبيع صلاته ويعود للأوثانْ
من عَلَّمَ الوطنَ العريقَ
بأن يبيع جنودَهُ...
ويقايض الفرسانَ بالغلمانْ
مَنْ علَّم الوطنَ العزيزَ بأن يبيعَ تُرابَهُ
للراغبين بأبخسِ الأثمانْ
مَنْ عَلَّمَ السيفَ الجسورَ
بأن يُعانِقَ خَصْمَهُ
ويعلق الشهداءَ في الميدانْ
يأَيهَا الوطن المهانْ
إني بريء منكَ
أيها الزمن الجبانْ
إني بريء منك يا
عصرَ الضياع وسطوةَ الخصيانْ
إني بريء منكَ...
مِنْ كَفُورك والجبانْ[1]

---

(١) من قصيدة «رسالة إلى صلاح الدين»، لجويدة، مع تصرف يسير.

١٦

سيف اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وفارس الإسلام، وليث الْمَشاهد

السيد الإمام الكبير

قائد المجاهدين السداد لنحور العدو

الولي

أبو سليمان

خالد بن الوليد القرشي المخزومي

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

١٦

سيف اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وفارس الإسلام، وليث الْمَشاهد

السيد الإمام الكبير قائد المجاهدين السداد لنحور العدو الولي أبو سليمان

خالد بن الوليد القرشي المخزومي

ابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ.

لما أتى خالد بن الوليد مسلمًا هو وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال ﷺ: **«ألقت إليكم مكة أفلاذ أكبادها»**، وقال النبي ﷺ: **«اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك»**.

قال خالد: فوالله، ما كان رسول اللَّه ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما يُجزئه.

وفي رواية: فيما كان حَزَبَهُ. **وفي رواية عمرو:** في أمر حربه[١].

عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالدٍ أحدًا منذ أسلمنا في حربه[٢].

لحظة باهرة خشع فيها قلب خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتلقَّت روحه فيها عَبَقًا من الجنان، وقال: **«والله، لقد استقام الْمَنسم .. وإن الرجل لرسول.. فحتَّى متى؟؟ أذهبُ والله فَأُسْلِمُ»**، وأسلم فارس قريش، وصاحب أَعِنَّةِ الخيل فيها، وَوَلَّى ظهره لآلهة آبائه وتفجرت أشواقه إلى خدمة الإسلام، وإلى استشهاد عظيم في سبيل اللَّه ينضو عن كاهله أوزار مناصرته الباطل في أيام الجاهلية الخاليات... ومع إسلامه كان من أمره

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٢/٤، ٣٩٤/٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣٤٣/٤) (أبواب جماع السرايا التي تُذكر بعد فتح خيبر ـ باب ذكر إسلام عمرو بن العاص).

العجب العجاب.

وسجل هذه اللحظة شعر أحمد محرم فقال عن إسلام خالد وعمرو وعثمان ابن أبي طلحة:

نشط الهمامُ وراح يُدرك نفسه ... يبغي لها عند النبي ذماما
ألقى إلى الوادي الخصيب بِرَحله ... فأصاب فيه مرتعًا وقساما[1]
أيقيمُ بالوادي الجديب فلا يرى ... إلا سرابًا كاذبًا وجَهاما[2]
وَمَشَوْا فما بلغ الرسول حديثهم ... حتى بدا متهلِّلًا بسَّاما
سَرَّتْهُ مكةُ إذ رمتْ أفلاذها ... كبدًا تكنُّ الحب والإعظاما
بعثت إليه من الجبال ثلاثةً ... رضوى يُصاحِب يَذْبُلًا وشِماما[3]
وفدوا كرامًا يؤمنون بربهم ... ورسوله بيضَ الوجوهِ وساما
نفضوا الهوان عن الجباه فأصبحوا ... شُمَّ المعاطِس يرفعون الهاما[4]

* * *

صعقت نفوس المشركين وهالهم ... هَمٌّ إذا انجلت الهمومُ أقاما
قالوا فقدناهم ثلاثة قادةٍ ... ما مثلهم بأسًا ولا إقداما
نزل البلاء بنا فكان مُضاعفًا ... وجرى العذاب معًا فكان غراما

* * *

إني إخالُ البيتَ يُشرق جَوُّهُ ... وإخالُ مكةَ ترفع الأعلاما
يا ابن الوليد لك الأَعِنَّةُ كلُّها ... فَالْقَ المقانِبَ[5] وادفع الأقواما
سترى المشاهد ترجف الدنيا لها ... وترى الحصون تميد والآطاما

(١) المسام: المرعى.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٣) رضوى، ويذبل، وشمام أسماء جبال.
(٤) المعاطس: جمع معطس؛ وهو: الأنف. والهام: جمع هامة؛ وهي: الرأس.
(٥) المقانب: جمع مقنب؛ والمقنب: الجماعة من الخيل من الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاث مئة.

بَشِّرْ حماة الشرك منك بوقعةٍ تُوهِي القُوى وتزلزل الأقداما[1]

❑ **نِعْمَ عبدُاللهِ خالدٌ، سيفٌ من سيوف الله:**

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**نِعْمَ عبدُاللَّه خالدٌ، سيفٌ من سيوف الله**»[2].

جهاده مع الرسول ﷺ

❑ **في مؤتة خالد سيف اللَّه يصنع الأعاجيب:**

بعث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي رسولًا إلى ملك «**بصرى**» يدعوه إلى الإسلام، فَقُتِلَ في «**مؤتة**»، ولم يُقتل لرسول اللَّه ﷺ رسول غيره؛ لذلك ندب الناس، فأسرعوا وعسكروا «**بالجُرف**» وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبداللَّه بن رواحة، فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلًا فيجعلوه عليهم**».

سار المسلمون حتى إذا كانوا بتخوم «**البلقاء**»[3] لقيتهم جموع الروم، والتقى الطرفان في «**مؤتة**»؛ فقاتل زيد بن حارثة حتى شاط في رماح الروم؛ فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها وقاتل حتى قتل؛ ثم أخذ الراية ابن رواحة، فقاتل حتى قتل.

في هذا الموقف العصيب الذي كان المسلمون فيه يواجهون قوات معادية لها فواق عليهم فواقًا ساحقًا بالعَدد والعُدد؛ فقد كانت قوات الروم بقيادة هرقل مؤلفة من مئة ألف من الروم، وانضمت إليها العرب المستعربة من لخم وجذام وبلقين

---

(١) ديوان مجد الإسلام ص (٣٤١ - ٣٤٤) باختصار.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذي، وابن عساكر (٢/٢٧٢/٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٧)، و«صحيح الجامع» (٦٧٧٦).

(٣) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان.

وبهراء وبلي في مئة ألف منهم[١]. وبعد مقتل الأمراء الثلاثة وانكشاف صف المسلمين أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: «**يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا أنت. قال: ما أنا بفاعل. ودفعها إلى خالد بن الوليد، وقال: خذ اللواء يا أبا سليمان؛ فأنت أدرى بالقتال مني والله ما أخذته إلا لك**»، وكانت هذه أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه.

اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية، دافع القوم وَحَاشَى بهم، ثم انحاز وانحيز عنهم حتى انصرف بالناس[٢].

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ نَعَى زيدًا وجعفرًا وابنَ رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف اللَّه حتى فتح اللَّه عليهم**»[٣].

عن أبي قتادة فارس رسول اللَّه ﷺ قال: بعث رسول اللَّه ﷺ جيش الأمراء وقال: «**عليكم زيد بن حارثة، فإن أُصيب فجعفر، فإن أُصيب جعفر فعبد اللَّه بن رواحة الأنصاري**». فوثب جعفر فقال: بأبي أنت يا نبي اللَّه وأمي، ما كنتُ أرهب أن تستعمل عليَّ زيدًا! قال: «**امضوا؛ فإنك لا تدري أيُّ ذلك خير**». قال: فانطلق الجيش، فلبثوا ما شاء الله، ثم إن رسول اللَّه ﷺ صَعدَ المنبر وأمر أن يُنَادَى: الصلاة جامعة. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**تاب خبر ـ أو ثاب خبر. شَكَّ عبدالرحمن ـ ألا أُخبركم عن جيشكم هذا الغازي؟ إنهم انطلقوا حتى لَقَوا العدوَّ، فأصيب زيدٌ شهيدًا، فاستغْفِرُوا له ـ فاستغفر له الناسُ ـ، ثم أخذ اللواءَ جعفرُ بن أبي طالب، فَشَدَّ**

---

(١) الطبري (٣/٣١٩)، وابن الأثير (٢/٨٩).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٤٣٥)، والطبري (٣/٣٢٢)، وابن الأثير (٢/٩٠)، وجوامع السيرة (٢٢٢)، وطبقات ابن سعد (٤/٢٥٣)، والإصابة (٢/٩٨)، واليعقوبي (٢/٤٩).

(٣) رواه البخاري (٤٢٦٢)، وأحمد (٣/١١٣، ١١٧، ١١٨)، والنسائي (٤/٢٦)، وأبو يعلى (٧/ ٢٠٠، ٢٠١)، والبيهقي (٤/٧٠).

على القومِ حتى قُتل شهيدًا، أشهدُ له بالشهادة، فاستغْفِرُوا له، ثم أخذ اللِّواء عبدالله ابن رواحة فأثبت قدميْه حتى أُصيب شهيدًا، فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكُن من الأمراء، وهو أَمَّرَ نفسه»، فرفع رسول اللَّه ﷺ أصبعيه وقال: «**اللهم، هو سيفٌ من سيوفك فَانْصُرْهُ**»، وقال عبدالرحمن ـ مَرَّةً ـ: «**فانتصر به**»؛ فيومئذٍ سُمِّي خالد سيف الله، ثم قال النبي ﷺ: «**انفروا فَأَمِدُّوا إخوانكم، ولا يتخلفنَّ أحد**»؛ فنفر الناس في حر شديد مشاةً وركبانًا»[١].

❑ كيف استطاع خالد سيف اللَّه النجاة بالجيش من فَنَاءٍ أكيد؟!

تلقَّى خالد اللواء، وأصبح قائدًا عامًّا لقوات المسلمين في أصعب ظروف.. جيش أنهكه القتال الشديد الضَّاري طيلة الأيام الستة.. ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مئتا ألف مقاتل، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه، موقف جعل هذا الجيش مُهَيَّأً لأن يُدمَّر تدميرًا كاملًا، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب.

«وَاعْتَلَى العبقريُّ جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام؛ كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آنَ لها أن تُفتح على طريق طويل لَاحِبٍ سيقطعه البطل وثْبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته؛ حتى تبلُغَ المقادير بعبقريته أمرًا كان مقدورًا»[٢].

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة... فقد قام بتبديل كلِّيٍّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه؛ فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين ـ كل هذا في ظلام الليل ـ، وجعل مقدمةَ الجيشِ ساقةً، وساقَتَهُ مقدمةً؛ أي: أنه سحب جيشه من ساحة المعركة، وأبقى ساقةً تحمي الانسحاب، نَشَرَ هذه الساقة؛ ليحتلَّ فرسانها مساحةً شاسعةً من الأرض، وأمرهم أن يُحْدِثُوا أصواتًا

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد (٥/٢٩٩)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٧٧).

(٢) رجال حول الرسول ص (٣٩٠).

مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية، وإثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة، كل هذا؛ لِيُدْخِلَ في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا قد جاء لجيش المسلمين، هذه هي الخطة التي وضع القائد المحنَّك الفذُّ؛ فأنقذ بها جيش الإسلام من فَنَاءٍ محقق؛ فقد وجد الرومان أنفسهم ـ أثناء تقابُل الصفوف في اليوم السابع ـ أمام قادة وجنود وهيئات وراياتٍ غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية، ووجد الرومان غبارًا يسدُّ الأفق من بعيد، ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي، وَدَوَّتْ أصوات التهليل والتكبير منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق، ثم انشقَّ هذا الغُبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداها الأخرى في تنسيقٍ وإحكامٍ راكضةً نحو المسلمين في مؤتة، قد رجفتِ الأرضُ رجفًا لوقْع حوافر خيلها المنطلقة، وأصوات فرسانها تصم آذان الرومان بالتهليل والتكبير، وَدَبَّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج، ولسان حالهم يقول: إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد؟!

نعم، إن ثبات المسلمين في وجه الرومان طيلة الأيام الستة هو أرقى مراتب النصر والغَلَبة.

وأدرك خالد بحس القائد المحنَّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوفٍ ورعبٍ؛ نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة، فاغتنمها فرصةً؛ فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان، وبأسلوب عامٍّ صاعِقٍ كاسِحٍ؛ فتمَّ له ما أراد.

«وتضعضعتْ خطوط الروم الأمامية، وركبهم المسلمون، وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمةً، كانت بكل معاني الكلمة «**مذبحة**»، وَصَفَهَا الواقدي في كتابه «**المغازي**» بقوله: «فَرُعِبُوا؛ فانكشفوا منهزمين؛ فَقُتِلُوا مقتلةً لم يُقتلها قوم قطُّ»[(١)].

---

(١) مغازي الواقدي (٧٦٤/٢)، تحقيق الدكتور مارسدن جونس ـ طبع جامعة أكسفورد.

وقال ابن سعد في «**طبقاته**»: «ثم أخذ خالد اللواء، ثم حمل على القوم؛ فهزمهم اللَّه أسوأ هزيمة رأيتُها[١] قطُّ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا»[٢].

كان القتال ضاريًا، خاضه المسلمون بحنقٍ وغيظ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسةٍ، وليس أدل على عنف المعركة من قول خالدٍ نفسه: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسيافٍ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية»[٣].

لله دَرُّكَ يا خالد؛ تسعة أسيافٍ تتكسَّر في يدك!! ومن أوْلى منك بهذا!!.

أناضل عن دينٍ عظيم وهبتُهُ — عطاء مُقِلٍّ مهجتي وحياتيا
ومُمْتَثِل لله أسْلَمَ وجهَهُ — يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
وخالد سيفُ اللَّه أسلم وجهَهُ — يقول أنا وحدي سأحمي دينيا
بظهري ببطني بالذراع بمقلتي — بجنبي بعظمِ الصدرِ حتى التَّراقِيا
فلم أرَ يومًا كالتقدُّم لذَّةً — ولم أرَ عيشًا كالتقدم هانيا
على ذروة التوحيد تخفق رايتي — وتحت روابيها تصبُّ دمائيا

وانسحب الجيش الإسلامي بكل هدوء وضبط وانتظام؛ فقد انسحبت قوات القسم الأكبر من المسلمين، ومع ذلك لم يكن سَحْبُ الساقة سهلًا، وَذُهِلَ الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة، وما استطاعوا أن يتعقَّبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ست مئة ميل، حتى وصل الجيش سالمًا إلى المدينة، فلمَّا وصل الجيش إلى ضواحي المدينة «**الجرف**»، جعل أهل المدينة يصيحون بالجيش «**يا فُرَّار.. فررتم**»... وَيَحْثُونَ في وجوه الجند والقادة الترابَ، وأتت كلمة الوحي ناصعة ترد الأمر إلى موضعه؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليسوا بفُرَّارٍ، ولكنهم الكرَّار في سبيل**

---

(١) الراوي هنا أحد الصحابة؛ وهو: أبو عامر.

(٢) الطبقات الكبرى (٢/١٣٠)، مؤتة، لمحمد أحمد باشميل ص (٢٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٢٦٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/٢/٤)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٧٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٤٢/٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه. ووافقه الذهبي.

الله»، وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة.

ثم علم المسلمون بَعْدُ قَدْرَ تضحية خالد وبذله، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان.. ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع، ومن أشجع من خالدٍ قلبًا، وأروع عبقريةً، وأنْفَذ بصيرةً؟!

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب عن خالد في يوم مؤتة:

لقد قاتل يومه قتالًا شديدًا، فلما أظلم الليل غَيَّرَ نظام جيشه؛ فجعل مقدمته ساقة، وساقته مقدمة، وكذلك فعل بالميمنة والميسرة[1]؛ أي: أنه سحب جيشه من ساحة المعركة وأبقى ساقة تحمي الانسحاب؛ نشر هذه الساقة؛ ليحتلَّ فرسانها مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يُحْدِثُوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول وأدوات حربية، وإثارة الغبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة.. كل ذلك جعل الروم لا يشعرون بانسحاب قوات «**القسم الأكبر**»[2] من المسلمين ليلًا من جهة، ويعتقدون أن إمداداتٍ قويةً جاءتهم ليلًا؛ لهذا لم يُقدم الروم على مطاردة المسلمين؛ فَسَهَّلَ ذلك لخالد مهمته في سحب رجاله من ساحة المعركة بأمان ودون أن ينقلب الانسحاب إلى هزيمة؛ كما سهل عليه مهمة سحب الساقة التي سترت انسحاب القسم الأكبر من قوات المسلمين، وذلك بعد أن اطمأن إلى أن القسم الأكبر من قواته قد وصل مأمنه، ومع ذلك لم يكن سحب الساقة سهلًا؛ لأنها كانت بِتَمَاسٍّ شديدٍ بالعدو من جهة، ولأنها كانت تشغل منطقة واسعة من الأرض من جهة أخرى؛ لذلك قاتلت الساقة - وعلى رأسها خالد - قتالًا بطوليًا؛ لكي تستطيع التخلص من الاشتباك؛ قال خالد: «**لقد اندقت في يدي يوم «مؤتة»** تسعة أسياف، فما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية»[3].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٠).

(٢) القسم الأكبر: تعبير عسكري حديث يقرب من تعبير القلب الذي كان مستعملًا في الجيش الإسلامي قديمًا؛ وهو هنا يعني: القلب، والميمنة، والميسرة، والمقدمة.

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٥)، والإصابة (٢/٩٩).

وعاد خالد إلى المدينة يقود جيش المسلمين[١]، وبعد أن ترك هذا الجيش ثلاثة عشر شهيدًا في ساحة القتال[٢]، وهي خسائر طفيفة جدًّا بالنسبة إلى الخطر الداهم الذي أحدق بالمسلمين، مما يُعَدُّ معجزة عسكرية ومفخرة خالدة لقيادة خالد. ولما دَنَا الجيش من المدينة تلقاهم رسول اللَّه ﷺ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون، فقال النبي ﷺ: «**خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر**»، وجعل الناس يَحْثُونَ التراب على الجيش، ويقولون: «**يا فرَّار في سبيل الله**»، فيقول رسول اللَّه ﷺ: «**ليسوا بالفرَّار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله**»[٣].

ومن ذلك اليوم أطلق النبي ﷺ وأطلق المسلمون على خالد لقب: «**سيف الله**».

❑ خالد في فتح مكة على ميمنة قوات المسلمين

لقد جاهد خالد لأول مرة تحت لواء الرسول ﷺ في فتح مكة، ولا يصح له مشهد مع رسول اللَّه ﷺ قبل الفتح[٤].

كان خالد في غزوة فتح مكة على ميمنة قوات المسلمين، وكانت الميمنة مؤلفة من: أسلم، وغفار، ومُزَيْنة، وجهينة[٥]، وكان واجبه دخول مكة من أسفلها من «**الليط**»[٦]، وهو أول يوم أمَّر فيه رسول اللَّه ﷺ خالدًا[٧].

كانت نوايا الرسول القائد ﷺ السلمية صريحة جدًّا؛ فقد قال للزبير بن العوام

---

(١) سيرة ابن هشام (٣ - ٤٤٠)، وتاريخ أبي الفدا (١ - ١٤٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٣ - ٤٤٧)، وجوامع السيرة ص (٢٢٢)، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (٢ - ١٥٦).

(٣) الطبري (٢ - ٣٢٣)، وابن الأثير (٢ - ٩٠).

(٤) أُسْد الغابة (٢/٩٤)، والاستيعاب (٢/٤٢٨).

(٥) جوامع السيرة ص (٢٣٢)، وكان على الميسرة الزبير بن العوام، وكان أبو عبيدة بن الجراح على المقدمة. **وانظر**: شرح النووي على مسلم (٤/٢٣١).

(٦) الليط: موضع بأسفل مكة؛ **وانظر** - عن دخول خالد من (الليط) -: الطبري (٢/٣٣٢)، وابن الأثير (٢/٩٤)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٦)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٤٤)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦).

(٧) الطبري (٢/٣٣٢)، وابن الأثير (٢/٩٤)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٦).

وخالد: «**لا تقاتلا إلا من قاتلكما**»[١]، إلا أنَّ بعض رجالات قريش[٢] جمعوا ناسًا «**بالخندَمة**»[٣] أسفل مكة؛ ليقاتلوا المسلمين ويصدُّوهم عن فتح مكة؛ فقاتلهم خالد، وقتل منهم ثمانية وعشرين رجلًا، ثم انهزموا[٤] واستشهد من المسلمين رجلان[٥]، فقال رسول الله ﷺ: «**أَلَمْ أَنْهَ عن القتال؟!**». فقيل له: خالد قُوتِلَ فَقَاتَلَ[٦]. قال خالد رضي الله عنه: «**بدءونا بالقتال، ورمونا بالنبل ووضعوا فينا السلاح، وقد كففتُ ما استطعتُ، ودعوتُهم إلى الإسلام فأبوا، حتى إذا لم أجد بُدًّا من أن أقاتلهم، فَظَفَّرَنا الله بهم، فهربوا من كل وجه**»[٧]، وَقُتِلَ من المشركين ثمانية وعشرون رجلًا ثم انهزموا.

يقول ابن حماس الديلي فارسُ مكة ـ لما عَاتَبَتْهُ زوجُه على فراره في الخَنْدَمة ـ:

وأنتِ لو شهدتِنا بالخَنْدَمَهْ ... إذ فَرَّ صفوانٌ وفَرَّ عِكْرِمَهْ

وأبو يزيدَ كالعجوزِ المُؤْتِمَهْ[٨] ... إذ يلحقونا بالسُّيوفِ المُسْلِمَهْ

يَقْطَعْنَ كُلَّ ساعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبًا فلا يُسْمَعُ إلَّا غَمْغَمَهْ

لهم زئيرٌ خلفَنا وَهَمْهَمَهْ ... لم تَنْطقِي في اللَّوْمِ أدْنَى كَلِمَهْ[٩]

وعاد المسلمون إلى مكة على صهوات جيادهم الصاهلة، وتحت رايات الإسلام

---

(١) الطبري (٢/٣٣٢).

(٢) هم: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو. **راجع**: ابن الأثير (٢/٦٤).

(٣) الخندمة: جبل بأسفل مكة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٤٧٠).

(٤) في تاريخ أبي الفدا (١/١٤٤)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦)، والبلاذري ص (٥١، ٥٢): أن قتلى المشركين أربعة وعشرون رجلًا من قريش وأربعة نفر من هذيل. أما في الطبري (٢/٣٣٥): فيذكر أن عدد قتلى المشركين يبلغ اثني عشر رجلًا أو ثلاثة عشر رجلًا، وفي ابن الأثير (٢/٩٤): أن عدد قتلى المشركين ثلاثة عشر، وكذلك في «جوامع السيرة» ص (٢٣١).

(٥) فتح الباري (٨/٨)، وطبقات ابن سعد (٧/١٣٦).

(٦) طبقات ابن سعد (٢/١٣٦).

(٧) السيرة الحلبية (٢/٢٠٩).

(٨) هي المرأة التي قُتل زوجها؛ فبقي لها أيتام.

(٩) سيرة ابن هشام (٤/٥٠)، ومغازي الواقدي (٢/٨٢٧)، والبداية والنهاية (٤/٢٩٧).

الخافقة، وتكبيراتهم الصَّادِعة الرائعة، ترجُّ مكة رجًّا، وتهليلاتهم الباهرة الظافرة، يبدو الكون معها، وكأنه كلَّه في عيد.

ولله دَرُّ القائل إذ يقول في ذلك:

ديارَ مكة هذا خالد دَلَفا ... فما احتيالُكِ في الطَّوْدِ الذي رجَفا
طَوْدٌ من الشرك خَانَتْهُ جوانِبُهُ ... لما مشى نحوهُ الطَّودُ الذي زحفا
إن الجبال التي في الأرض لو كفرتْ ... لدكَّها جبلُ الإسلامِ أو نَسَفا
لَمَّا دَعَاه بسيف اللَّه سَيِّدُهُ ... زاد السيوف به في عِزِّها شَرفا
ديارَ مكة أمَّا مَن يُسالِمُهُ ... فلا أذًى يتقى منه ولا جنفا[1]
تلك الوصية ما يرضى بها بدلا ... ولا يرى دونها مَعْدًى وَمُنْصَرَفا
لا تجزعي إنه العهد الذي انبعثت ... أنوارُه تصدع العهد الذي سلفا
ليلُ الأباطيل ما التفت غياهبُهُ ... على الحقائق إلا انجاب وانكشفا

* * *

هَبَتْ إلى الشَّرِّ من جُهَّالِهم فئةٌ ... لم تَأْلُ من جَهْلِهَا بَغْيًا ولا صَلَفا
واستنفرتْ من قريش كل ذي نَزَق ... إذا يشار إليه بالبنان هفا[2]
فخاضها خالد شعواء كالحة[3] ... إذا جرى الهول في أرجائها عصفا
رمى بها مهج الكفار فاستبقت ... تلقى البوار وتشكوا الحَيْنَ[4] والتلفا
وقال قائلهم أسرفت من بطل ... ما كان أحسنه لو جانب السرفا
وهاج همُّ أبي سفيان ما وجدوا ... فراح يشفع فيهم جازعا أسفا
فَلاَنَ قلب رسول اللَّه مرحمة ... ورقَّ من شدة البطش الذي وصفا
وقال سر يا رسولي فَانْهَ صاحبنا ... عن القتال فحسبي ما جنى وكفى

---

(١) الجنف: الجور والميل عن العدل والحق.

(٢) النزق: العجلة في جهل وحمق. وهفا: أسرع في طيشه.

(٣) شعواء: منتشرة ممتدة. كالحة: عابسة.

(٤) الحينْ: الهلاك.

لا يَجْزَعِ القومُ إن السيفَ مرتدعٌ[1] عما قليل وإن النصر قد أزفا
لم يرفعوا الصوت حتى لَاحَ بارقه تحت العجاجة يجلو ضوءه السدفا[2]
هذا الزبير ترامى في كتائبه كالسيل لا تمسك الأسداد ما جرفا
اللَّه أكبر جاء الفتح وابتهجت للمؤمنين نفوس سرَّها وشفى

❑ هَدْمُ الْعُزَّى

بعث النبي ﷺ لخمس ليال بقين من رمضان ـ أي: بعد خمسة أيام من فتح مكة ـ لهدم العُزَّى[3] في ثلاثين فارسًا من أصحابه[4].

هذا البطل خالد رضي الله عنه مرة أخرى يستبد به تَوْقٌ عارِمٌ إلى هدم عالمه القديم كله ومظاهر الشرك؛ فعن أبي الطُّفيل قال: لما فتح رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العُزَّى، فأتاها خالد بن الوليد، وكانت على تلال السَّمُرَاتِ، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع؛ فإنك لم تصنع شيئًا**»، فرجع خالد، فلمَّا نظرتْ إليه السَّدَنةُ ـ وهُمْ حُجَّابُهَا ـ أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عُزَّى خَبِّليه، يا عُزَّى عَوِّرِيه، وإلَّا فموتي برغم. قال: فأتاها خالد، فإذا هي امرأة عريانة ناشرةٌ شعرها تَحْثُو التراب على رأسها، فَعَمَّمَهَا بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فأخبره قال: «**تلك العزى**»[5].

وفي رواية: فلما سمع سادِنُهَا بمسير خالدٍ إليها، علَّق عليها سيفه، والتجأ إلى

---

(١) مرتدع: أي مردود إلى غمده.
(٢) السُّدف: الظلم.
(٣) العزى: أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم، وكانت العرب وقريش تسمي بها: (عبد العزى). والعزى كانت بيتًا يعظمه قريش وكنانة ومضر كلها. **راجع:** سيرة ابن هشام (١/٨٧، ٤/٦٤)، والطبري (٢/٣٤٠)، وابن الأثير (٢/٩٧).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٤٥).
(٥) **حسن:** رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢/١٩٦)، وهو حسن.

الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

أيا عُزُّ شدِّي شدَّةً لا شوًى لها[1]   على خالدٍ ألقي القناعَ وشمِّري
ويا عُزُّ إن لم تقتلي اليوم خالدًا   فبُوئي بإثمٍ عاجلٍ أو تَنَصَّرِي

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول:

يا عُزُّ كُفرانك لا سبحانكْ   إني رأيتُ اللَّه قد أهانكْ

وعند الطبري «٣/٦٥»:

يا عُزُّ شُدِّي شدَّةً لا سِوَاكِهَا   على خالدٍ أَلْقِي الخمارَ وشَمِّرِي
فإنَّك إن لا تَقْتُلي المرءَ خالدًا   تبوئي بذنب عاجلٍ وتُقَصِّرِي

فشد خالد عليها، فقتلها، وقال: ذهبت العزى، فلا عزى بعد اليوم.

ولله دَرُّ القائل في خالد وهدمه للعُزَّى:

إلى العُزَّى فقد بَلَغَتْ مَدَاها   وإن على يديكَ لَمُنتهاها
أزِلْها خالدًا وأهْدِمْ بناءً   أقيمَ على جوانبها سَفَاها[2]
بناه الجاهلون لها ودانوا   بها من دون خالقهم إلها
مذممة تساق لها الهدايا   تظل دماؤها تسقي ثراها
رماها ابن الوليد فأي شر   أزال وأي داهية رماها
وأين غرور سادنها وماذا   أفاد دعاؤه لما دعاها
أجل يا ابن الوليد لقد دهاها   من الهون المبرح ما دهاها

إنَّ تولي خالد واجب القائد في غزوة الفتح دليل على ثقة الرسول ﷺ بكفاية قيادته، وتوليه مهمة هدم «**العُزَّى**» دليل على ثقة الرسول ﷺ برسوخ عقيدته[3].

---

(١) أي: لا تُبْقِي على شيء.
(٢) السفاه: الجهل.
(٣) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٨٣).

❑ في يوم حنين[١] يُقاتل مع النبي ﷺ قتالًا شديدًا:

كان خالد على مقدمة المسلمين في مئة فرس هي خيل بني سُليم[٢] عند التقدُّم من مكة إلى الطائف لقتال بني هوازن وثقيف الذين أجمعوا على حرب المسلمين[٣].

وكان مالك بن عوف[٤] قد عَبَّأَ رجاله في وادي «حنين» ليلًا، وأمرهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة، وَعَبَّأَ رسول اللَّه ﷺ رجاله وصفهم صفوفًا ووضع الألوية والرايات في أهلها[٥].

وانحدر المسلمون في عماية الصبح في وادي «حنين» على تعبية، وهو وَادٍ من أودية «تهامة» أجوف حَطوط[٦]، ينحدر انحدارًا[٧]، فيهاجمهم المشركون من كل جانب؛ فانكشفت خيل بني سُليم موليَّةً وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين؛ ولكن الرسول ﷺ ثَبَتَ، وَثَبَتَ معه نَفَرٌ قليل من أصحابه وأهل بيته[٨]؛ فتجمع المسلمون حوله وشنوا هجومًا مقابلًا على المشركين انهزموا على إثره، لا يلوي أحد منهم على أحد[٩]، وكان خالد أحد الذين تجمعوا حول النبي ﷺ وقاتلوا معه قتالًا

(١) حنين: واد قبل الطائف، بينه وبين مكة ثلاث ليال. **راجع**: معجم البلدان (٣/٣٠٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠)، والسيرة الحلبية (٣/١٦٣ - ١٦٥)، والأغاني (١٥/٢٥).
(٣) طبقات ابن سعد (١/١٤٩)، والطبري (٢/٣٤٤)، وسيرة ابن هشام (٣/٦٨).
(٤) مالك بن عوف النصري: من هوازن، كان قائد المشركين يوم حنين.
(٥) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠).
(٦) تهامة: ما انخفض من أرض الحجاز. وأجوف؛ أي: متسع. وحطوط؛ أي: منحدر.
(٧) سيرة ابن هشام (٤/٧١)، والطبري (٢/٣٤٧).
(٨) طبقات ابن سعد (٢/١٥١)، وأسماء الذين ثبتوا معه هم:
١- العباس بن عبد المطلب. ٢- علي بن أبي طالب. ٣- الفضل بن العباس بن عبد المطلب. ٤- أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ٥- ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ٦- أبو بكر الصديق. ٧- عمر بن الخطاب. ٨- أسامة بن زيد بن حارثة. ٩- أيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن. **راجع**: الطبري (٢/٣٤٧)، وابن الأثير (٢/١٠٠)، وسيرة ابن هشام (٤/٧٢).
(٩) طبقات ابن سعد (٢/١٥١)، والطبري (٢/٣٤٨)، وسيرة ابن هشام (٤/٧٥).

شديدًا، فجرح وعاده الرسول ﷺ[1].

إن واجب المقدمة هو حماية القسم الأكبر والحصول على المعلومات عن العدو، حتى لا تُبَاغَتَ قوات **«القسم الأكبر»**.

إن مقدمة المسلمين بقيادة خالد لم تُنْجِزْ هذا الواجب أبدًا يوم حنين؛ فهي لم تستطع معرفة مواضع المشركين التي احتلوها في وادي حنين، واندفعت إلى الأمام بسرعة قبل أن تعرف حقيقة موقف العدو في وادي حنين، فكان اندفاعها هذا على غير هدًى وبصيرةٍ، أما قوات القسم الأكبر فاندفعت وراء المقدمة؛ لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر، على افتراض أن المقدمة قامت بواجبها.

إن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في ابتداء معركة **«حنين»** هو عدم قيام مقدمتهم بواجبها؛ إذ لم تحصل على المعلومات عن مواضع العدو، ولم تمنع مباغتة العدو للقسم الأكبر؛ وبذلك فشلت مقدمة المسلمين يوم حنين في أداء واجبها فشلًا ذريعًا، على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد[2].

ما بالُ سيفِ اللّه أين مكانُه ... أيغيب عن نظر النبيِّ ويعزبُ
سألَ النبيُّ فقيل عند جراحِه ... لو يستطيع أتى يهُشُّ ويطْرَبُ
فمشى إليه يعودُه في موكِبٍ ... للّه فيه من الملائك موكِبُ
بوركتَ خالد ما رأتْ عينٌ دمًا ... كَدَمٍ جرى من خالدٍ يتصبَّبُ
قم في جراحك إنها لك قوةٌ ... تدع القواضِبَ وَهْيَ حيرى هُيَّبُ
قم للشدائد ما تلين صِلَابُها ... فلأنت صاحبها الأشدُّ الأصلَبُ
لك هِمَّةٌ ما تُستطاع ونجدةٌ ... مذخورةٌ للأمر ساعة يَحْزُبُ[3]
من يجهل الرئبال[4] ينفذ نابه ... في كل مُقتنَصٍ ويمضي المِخلبُ

(١) أُسْد الغابة (٢/٩٥)، والاستيعاب (٢/٤٢٨)، والأغاني (١٥/٢٥).

(٢) الرسول القائد (٣٧٥).

(٣) حَزَبَ الأمرُ: اشتد.

(٤) الرئبال: الأسد.

خالد بن الوليد ﷺ يدعو في غزوة الطائف: هل من مبارز؟ فلا يجيبه أحد

لم تمنع خالدًا جراحاتُهُ من أن يعود لقيادة المقدمة؛ إذ لم يزل على مقدمة المسلمين حتى وردوا «**الجعرانة**»[١] في طريق عودتهم إلى المدينة[٢].

وفي طريقه إلى «**الطائف**»[٣] قاتل فلول المشركين، وكان بين قتلى المشركين امرأة؛ فقد مرَّ النبي ﷺ في طريقه بامرأة قتيل، فقال: «**من قتلها؟!**» فقالوا: خالد بن الوليد، فقال لبعض مَنْ معه: «**أدرك خالدًا، وقل له: إن رسول اللَّه ينهاك أن تقتل امرأة، أو وليدًا، أو عسيفًا**[٤]»، ولما حاصر المسلمون الطائف، كان خالد ينادي: هل من مبارز؟ فلا يجيبه أحد[٥]!!

مشى ترجف الأرضُ من حوله ... فأين الفِرارُ وهل من مُطيقْ

ثقيف ادْخُلي الحِصْن لا تهلَكي ... ويا عبد ليل لماذا النَّعِيقْ

دعا خالدٌ يستَفِزُّ الرجالَ ... فكان فريقُكَ شرَّ الفريقْ

وكنت عليهم شهيدًا بما ... يُعابُ العدوُّ به والصديقْ

وليس الخليقُ بِحَرِّ الجلادِ ... غداة التنادي كغيرِ الخليقْ

ولما وصل المسلمون إلى «**الجعرانة**» حيث قسم الرسول ﷺ الغنائم، قال رجل من المنافقين: «**ما أُرِيدَ بهذه القسمة وجه الله!!**» فقال عمر: «**ألا نقتله؟**»، وقال خالد: «**ألا أضرب عنقه؟**»، فقال النبي ﷺ: «**لا؛ لعله يصلي**»[٦].

---

(١) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وإلى مكة أقرب. **راجع**: معجم البلدان (١٠٩/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (١٥٨/٢).

(٣) الطائف: بلد مشهور، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخًا من جهة الشرق، وهي ذات زرع ونخل وأعناب ومياه غزيرة وطيبة الهواء. **راجع**: معجم البلدان (١٠/٦).

(٤) ابن الأثير (١٠١/٢)، والعسيف: هو الأجير.

(٥) السيرة الحلبية (١٦٣/٣).

(٦) السيرة الحلبية (١٧١/٣، ١٧٢).

❑ مع بني المصطلق[١]

بعث النبي ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط إلى بني المُصْطَلِق مصدِّقًا في أوائل السنة التاسعة للهجرة؛ أي: بعد إسلامهم بعامين[٢]، فلما رأوه أقبلوا نحوه فهابهم؛ فرجع إلى النبي ﷺ، وأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام؛ فبعث النبي ﷺ خالدًا وأمره أن يَتَثَبَّتَ ولا يعجل؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلًا، وبعث عيونه، فأخبروه بأن القوم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد، فرأى ما يعجبه؛ فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره الخبر؛ فنزل قوله - تَعَالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾، نزلت في الوليد بن عقبة[٣].

لقد كان موقف خالد في هذه القضية رائعًا حقًّا: أرسل عيونه؛ ليروا عمل القوم في غفلة منهم، فلما جاءته عيونه بأخبارهم، أتاهم هو بنفسه، فوجد أن أخبار الوليد بن عقبة عنهم غير صحيحة؛ وبذلك حقن خالد دماء بني المصطلق ووضعهم في موضعهم الذي يستحقونه.

❑ هدم خالدٍ لِوُدٍّ:

ويعود البطل راسخ العقيدة ثانيةً إلى الأصنام؛ فقد «بعث النبي ﷺ خالدًا؛ لهدم «ود»[٤] في دومة الجندل، وقد بعثه من غزوة تبوك، فحالتْ بنو عبد وُدٍّ وغيرهم بينه وبين هدمه، فقاتلهم خالد، وبعد دحرهم هدمه وكسَّره جذاذًا»[٥].

---

(١) المصطلق: هو لقب جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة، بطن من خزاعة. راجع: فتح الباري بشرح البخاري (٧/٣٣٢).

(٢) السيرة الحلبية (٢/٣٦٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/١١، ١٢)، الاستيعاب (٤/١٥٣)، والإصابة (٦/٣٢١)، وأُسْد الغابة (٥/٩١)، وسيرة ابن هشام (٤/٣٤٠، ٣٤١).

(٤) تمثال رجل كبير الجسم، عَبَدَهُ بنو كلب بن وبرة من قضاعة بدومة الجندل.

(٥) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٩٠)، نقلًا عن «خالد بن الوليد»، لأبي زيد شلبي ص (٨٦ - ٨٨).

❑ أَسْرُه لأُكَيْدِر صاحب دومة الجندل:

وفي أثناء مقام النبي ﷺ في تبوك أرسل خالدًا في أربع مئة وعشرين فارسًا إلى أُكيدر بن عبدالملك الكِنْدي ثم السكوني صاحب **«دومة الجندل»**، وكان **«أُكيدر»** قد خرج من حصنه في ليلةٍ مقمرةٍ إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسان، فهاجمته خيل خالد، فَاسْتَأْسَرَ **«أكيدر»**، وامتنع أخوه وَقَاتَلَ حتى قُتِلَ، ثم هرب من كان معهما، وأجار خالد **«أكيدر»** من القتل حتى يأتي به رسول اللّه ﷺ، على أن يفتحوا له **«دومة الجندل»**؛ فدخلها المسلمون، وصالحه خالد على ألفْي بعيرٍ، وثمان مئة رأس، وأربع مئة درع، وأربع مئة رمح، ثم خرج خالد بـ**«أكيدر»** وأخيه **«مصاد»** قافلًا إلى المدينة، وهناك صالحه النبي ﷺ على الجزية وحقن دمه ودم أخيه، وَخَلَّى سبيلهما، وكتب له كتابًا فيه أمانُهُمْ وما صالحهم عليه.

أخالد إنَّكَ ذو نَجْدَةٍ ... فهيا إلى دُومة الجندلِ
إلى معشر كفروا بالكتاب ... وحادوا عن المذهب الأمثل
دعاك الرسولُ فأنت الرسولُ ... وليس له عنك من مَعْدِلِ
أمامك حصن طويل الذرى ... فخذه بصمصامك الأطول[1]
وَمُرّ بالأكيدرِ يقذفِ به ... إليك على كِبره من عَلِ
قتلتَ أخاهُ وألقى إليك ... جناحَ الذليل فلم يُقتل
وجئت به سيد الفاتحين ... فأوغل في قلبه المقفلِ
هداه إلى اللّه بعد الضلال ... وبعد العمى لم يَكَدْ ينجلي
وأعطاه من عهده موئلا ... يقيه فيالك من موئل
فصبرًا أكيدرُ إنَّ الزمان ... سيكشف عن غدك المقبل
ستنقض عهدك دأب الشقيّ ... وتجمح في غيك الأول
فيرميك ربك بابن الوليد ... ويشفيك من دائك المعضلِ[2]

(١) الصمصام: السيف الذي لا ينثني.

(٢) قتله خالد بعد ردّته في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

بـصـاعـقـةٍ مَـنْ يـذُقْـهـا يَـقُـل ... كـأنَّ الـصـواعـق لمْ تُـرْسَـلِ
أتـفـعلُ ويـحكَ مـا لـو عـقلتَ ... لأعـرضـتَ عـنـه ولم تـفـعـل
أُكَـيـدرُ لـيـس لـنـفـسٍ وقـاء ... إذا مـا ابـتلـى اللَّه مَنْ يـبتلـي

لله دَرُّ خالدٍ.. إن فترة إسلامه التي قضاها إلى جانب الرسول ﷺ لا تتجاوز أربع سنوات، بينما قاتل شمالًا على حدود أرض الشام، وجنوبًا في اليمن، وشهد أحد عشر مشهدًا؛ قاتل في ثلاثة مشاهد منها تحت لواء الرسول القائد ﷺ، وقاتل في ثلاثة مشاهد منها قائدًا مستقلًّا، ولم يقاتلْ في خمسة مشاهد منها؛ بل أنجز واجبه سِلْمًا، فمن أين له الوقت الكافي لتحقيق كل هذه الأعمال؟!

لقد كان خالد موضع ثقة الرسول ﷺ وكانت له قابليات نادرة في القيادة العسكرية خاصَّة، لا يجود بها الزمان إلا نادرًا.

❏ لله دَرُّ خالد بن الوليد.. يُوقف أنفاسه على الجهاد، ويحتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر رسول اللَّه ﷺ بالصدقة، فقيل: منع ابنُ جميل، وخالد بن الوليد، وعباس بن عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «**ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه اللَّه ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا؛ قد احتبس أَدْراعَه وأَعْتُدَه في سبيل الله، وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول اللَّه فهي عليه صدقة ومثلها معها**»[1].

❏ خالد وحروب الرِّدَّةِ

لقد كانت حروب الردة ـ التي استمرت ملتهبة حوالي سنة كاملة ـ أعنف ما شهد العرب المسلمون في تاريخهم العسكري، وأبرزت هذه الحروب وكشفت معادن الرجال، ولم يقم أي محارب مقام خالد بن الوليد في مقاومة أهل الردة والقضاء على فتنتهم، وكانت مسرح أعماله الرئيسية منطقة «**بزاخة**» ببلاد بني

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣).

أسد، ومنطقة «**البطاح**» في ديار بني تميم، ومنطقة «**اليمامة**» موطن بني حنيفة، وكانوا أكثر وأشرس قوة قَارَعَهَا خالد في حياته.

❑ مع طُليحة في بزاخة:

أمر أبو بكر الصديق خالدًا أن يبدأ بـ«**طيئ**»، ومنهم يسير إلى «**بزاخة**»[١]، ثم يثلث بـ«**البُطاح**»، ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له؛ وأظهر أبو بكر الصديق أنه خارج إلى «**خيبر**» بجيش حتى يلاقي خالدًا يرهب العدو بذلك[٢]، فَقَعَّدَ ذلك «**طيئًا**»، وَبَطَّأَ عن طليحة بن خويلد الأسدي[٣].

وكان أبو بكر قد بعث عدي بن حاتم الطائي إلى «**طيئ**» قبل مسير خالد إليهم، فدعاهم عدي وخوفهم؛ فقالوا له: استقبل خالدًا فَنَهْنِهْهُ عنا ثلاثًا حتى تستخرج مَنْ لَحِقَ بالبزاخة منا؛ فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يده قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالدًا وهو «**بالسُّنح**»[٤]، وقال له: «**أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمس مئة مقاتل تضرب بهم عدوك**»، ففعل خالد، وأرسلت «**طيئ**» إلى إخوانهم، فعادوا من بزاخة كالمدد لهم، ولولا ذلك لم يُتركوا؛ وبذلك عادت «**طيئ**» إلى الإسلام[٥].

وتوجه خالد وَمَنِ انضم إليه من «**طيئ**» وعددهم ألف راكب تلقاء «**بزاخة**»،

---

(١) بزاخة: ماء لـ«طيئ» بأرض نجد. وقيل: ماء لـ«بني أسد».

(٢) الطبري (٢/٤٨٣)، وابن الأثير (٢/١٣٢)، والإصابة (٢/٩٩).

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي: قدم مع وفد أسد بن خزيمة على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة؛ فأسلم، فلما رجع ورجعوا، تنبأ طليحة في حياة النبي ﷺ فأرسل إليه النبي ﷺ ضرار بن الأزور الأسدي؛ ليقاتله، فلما توفي الرسول ﷺ عَظُمَ أمرُ طليحة، وأطاعه الحليفان أسد وغطفان. وكان يزعم أنه يأتيه جبريل بالوحي؛ فأرسل إليه أبو بكر خالد بن الوليد، فقاتله وقضى على فتنته؛ فانهزم طليحة إلى الشام، وبقي هناك حتى توفي أبو بكر، ثم خرج محرمًا في خلافة عمر بن الخطاب، وأسلم إسلامًا صحيحًا، وجاهد الفرس في القادسية وغيرها جهاد الأبطال المغاوير، لقد كان طليحة من أشجع العرب، وكان يُعَدُّ بألف فارس. **راجع:** الإصابة (٣/٢٩٦)، وأُسْد الغابة (٣/٦٥)، والاستيعاب (٢/٧٧٣).

(٤) السنح: موضع بنجد قرب جبل طيئ، نزله خالد في حرب الردة، فجاءه عدي بن حاتم بإسلام طيئ وحسن طاعتهم. **راجع:** معجم البلدان (٥/١٤٩).

(٥) الطبري (٢/٤٨٣)، وابن الأثير (٢/١٣٢).

وأرسل عكاشة بن محصن[١] وثابت بن أقرم طليعةً لقواته، فَقَتَلَا أحد إخوة طليحة، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمة، فَقَتَلَا عكاشة وثابتًا ثم رجعا، وَمَرَّ خالد في طريقه إلى بزاخة بعكاشة وثابت قتيلين[٢].

وَعَبَّأَ خالد جيشه للقتال؛ فقالت له «**طيئ**»: نحن نكفيك «**قيسًا**»؛ فإن بني أسد حلفاؤنا. فقال: «قاتلوا أي الطائفتين شئتم». فقال عدي: «لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه، لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم». فقال له خالد: «إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط»، ثم سار خالد بجيشه، والتقى بطليحة ورجاله على بزاخة؛ فتقاتل الطرفان قتالًا شديدًا، ولما رأى طليحة أن كفة المسلمين رجحت على كفة أتباعه، ركب فرسه، وحمل امرأته، ثم نجا بها، وقال: «يا معشر فزارة، من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل»[٣]؛ وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة، وأعاد الإسلام إلى منطقة «**بزاخة**» والمناطق المجاورة لها.

لقد حطم انتصارُ خالد معنويات أسد وغطفان وأحلافهما الأقوياء ومعنويات القبائل الأخرى التي تعيش في تلك المناطق من نجد؛ فأقبل بنو عامر، وسُليم، وهوازن، وهم يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، ونؤمن باللَّه ورسوله، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا[٤].

ذلك لأن القبائل البدوية تكون دائمًا مع القوي، فبايعت خالدًا، وكانت بيعته:

---

(١) عكاشة بن محصن الأسدي: من فضلاء الصحابة وساداتهم، هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاء حسنًا وانكسر في يده سيف، وشهد أحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقتله طليحة الأسدي، وكان عكاشة يوم توفي رسول الله ﷺ ابن أربع وأربعين سنة، وقتل بعد ذلك بسنة، وكان من أجمل الرجال، رَوَى عن النبي ﷺ وَرَوَى عنه بعض الصحابة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣/ ٩٢)، والإصابة (٤/٢٥٦)، وأسد الغابة (٤/٢) والاستيعاب (٣/١٠٨).

(٢) الطبري (٢/٤٨٤)، وابن الأثير (٢/١٣)، والبلاذري ص (١٠٥).

(٣) الطبري (٢/٤٨٥)، وابن الأثير (٢/١٣٣)، والبلاذري ص (١٠٥).

(٤) الطبري (٣/٤٨٦)، وكان بين أسد وغطفان وطيئ حلف في الجاهلية. **راجع**: الطبري (٢/٤٨٦).

«**عليكم عهد الله وميثاقه؛ لتؤمنن بالله ورسوله، ولتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم**»، ولم يقبل من أحد من أسد، وغطفان، وعامر، وطيئ، وسليم إلا أن يأتوه بالذين حرَّقوا ومثلوا وعدوا على الإسلام في حال ردتهم، فأتوه بهم، فمثل بهم، وحرقهم، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم من الجبال، ونكسهم في الآبار[1].

فما أسباب انتصار خالد الساحق السريع؟!

يمكن إجمال أسباب انتصاره:

بأن المسلمين كانوا يقاتلون مدفوعين بعقيدة راسخة واثقين بنصر الله.

وكان لانضمام طيئ أثرٌ في تقوية المسلمين وإضعاف أعدائهم.

كما كان لتورية أبي بكر الصديق بأنه خارج إلى «**خيبر**» بجيش حتى يلاقي خالدًا تأثير على طيئ في عدم التعاون مع حلفائها وبقائها في مواضعها الأصلية.

وكان قتل الصحابيين الجليلين قد أحفظ قلوب المسلمين، وحرضهم على قتال أعدائهم.

كما أن إفساح المجال لـ«**طيئ**»؛ كي تقاتل «**قيسًا**» كما أرادت شجعها على الاستقلال في الحرب؛ إذ لو أصر خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم من بني أسد ـ كما أراد عدي بن حاتم ـ، لقصرت «**طيئ**» في حربها أَيَّ تقصير!.

وربما كان هناك من ينتقد خالدًا على إهماله مطاردة عدوه بعد انتصاره عليهم في بزاخة، ولكن ذلك غير وارد بالنسبة لقتال القبائل في الصحراء؛ لأن القبائل تترك حَيَّهَا، وتلجأ إلى الأحياء القريبة أو البعيدة، وتنهزم إلى جهات مختلفة؛ مما يجعل مطاردتها ـ أسوة بمطاردة القوات النظامية ـ غير ممكن إلا في حدود معينة.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٣٣).

❏ مع مالك بن نويرة[1]:

حين فرغ خالد من طليحة ومن معه سَارَ يريد مالك بن نويرة في «**البُطاح**»[2]، ولكن الأنصار من قوات خالد تخلفوا عنه، وقالوا: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا؛ إذ الخليفة عهد إلينا: إن نحن فرغنا من «**البزاخة**» واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا».

فقال خالد: «إن يَكُ عهد إليكم هذا، فقد عهد إليَّ أن أمضي، وأنا الأمير، وإلي تنتهي الأخبارُ، ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة، فكنت إن أعلمته فاتتني، لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه، لم نَدَعْ أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا، وأنا قاصد إليه وَمَنْ معي من المهاجرين والتابعين بإحسان، ولست أكرهكم»، ومضى خالد؛ فندمت الأنصار، وأجمعوا اللحاق به[3].

وصل خالد إلى «**البُطاح**»؛ فلم يجد بها أحدًا؛ لأن مالك بن نويرة فرق رجاله

---

(١) مالك بن نويرة التميمي: بعث النبي ﷺ مالك بن نويرة على بعض صدقات بني تميم، وكان قد أسلم هو وأخوه متمم، قتل خالد بن الوليد مالكًا واختلف فيه: هل قتله مسلمًا أم مرتدًا؟! والأكثر على أنه قتله خطأ، وأما أخوه متمم فلا شكَّ في إسلامه. قال متمم يرثي أخاه:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وقال يرثيه:

تطاول هذا الليل ما كاد ينجلي ... كليل تمام ما يريد صراما
سأبكي أخي ما دام صوت حمامة ... تؤرق في وادي البطاح حماما
وأبعث أنواحًا عليه بسحرة ... وتذرف عيناي الدموع سجاما

وقيل لمتمم: ما بلغ من حزنك على أخيك؟ فقال: «أُصِبتُ بعيني؛ فما قطرت منها قطرة عشرين سنة، فلما قتل أخي استهلت فما ترقأ»، **راجع**: الإصابة (٦ - ٣٦، ٤٠)، وأُسْد الغابة (٤/٢٩٥)، والاستيعاب (٣/١٢٦٢)، ومعجم البلدان (٢/٢١٥).

(٢) البطاح: ماء في ديار بني خزيمة في نجد. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/١١٤).

(٣) الطبري (٢/٥٠١، ٥٠٢)، وابن الأثير (٣/١٣٦).

ونهاهم عن الاجتماع؛ فَبَثَّ خالد السرايا، وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل مَن لم يُجِبْ داعي الحق، فإذا امتنع قتلوه، وكان أبو بكر الصديق قد أوصاهم: «أن يؤذنوا إذا نزلوا منزلًا، فإن أذن القوم فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا، فإذا أجابوكم إلى داعية الإسلام، فَسَائِلُوهُمْ عن الزكاة، فإن أقروا فاقبلوا منهم، وأن أبوا فقاتلوهم»، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع؛ واختلفت السرية فيهم؛ وكان أبو قتادة **«الحارث بن ربعي الأنصاري»**[١] فيمن شهدوا أنهم أذنوا، وأقاموا، وصلوا، فلما اختلفوا فيهم، أمر خالد بهم؛ فحبسوا في ليلة باردة، وأمر خالد مناديًا: **«أدفئوا أسراكم»**، وهي في لغة كنانة: **«القتل»**؛ فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد الدفء؛ فقتلوهم، وَقَتَلَ ضرار بن الأزور[٢] مالك بن نويرة[٣].

وفي رواية: أن خالدًا بَثَّ السرايا في بني تميم، وكان منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي، فلقي ضرار مالكًا، فاقتتلوا، وأسره وجماعة معه، فأتى بهم خالدًا، فأمر بهم؛ فضربت أعناقهم، وتولى ضرار ضربَ عنق مالك[٤].

---

(١) أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري: هكذا ورد اسمه في الطبري (٢/٥٠٣)، اختلفوا في شهوده «بدرًا»، واتفقوا على أنه شهد «أُحُدًا» وما بعدها، وكان يقال له: فارس رسول الله ﷺ شهد مع علي بن أبي طالب مشاهده كلها، ومات بالكوفة؛ فصلى عليه علي بن أبي طالب، وفي رواية أنه مات بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة وهو ابن سبعين سنة. **راجع:** طبقات ابن سعد (٦/١٥)، والإصابة (٧/١٥٦)، والاستيعاب (٤/١٧٣١).

(٢) ضرار بن الأزور الأسدي: قدم على النبي ﷺ؛ فأسلم؛ فبعثه إلى بني الصيداء وبني الديل، وهو الذي قتل مالك بن نويرة بأمر خالد بن الوليد، استشهد يوم اليمامة، وقيل: مكث في اليمامة مجروحًا ثم مات قبل أن يرتحل خالد بيوم. وكان قد قاتل يوم اليمامة قتالًا شديدًا حتى قطعت ساقاه جميعًا؛ فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل وَتَطَؤُهُ الخيل، حتى غلبه الموت. وقيل: إنه قتل يوم أجنادين. وقيل: إنه توفي بالكوفة في خلافة عمر بن الخطاب. ولكن الراجح أنه قتل باليمامة. **راجع:** طبقات ابن سعد (٦/٣٩)، والإصابة (٣/٢٦٩)، وأسد الغابة (٣/٣٩)، والاستيعاب (٢/٧٤٩).

(٣) الطبري (٢/٥٠٢)، وابن الأثير (٢/١٣٦، ١٣٧)، والأغاني (١٤/١٥٣).

(٤) البلاذري ص (١٠٧).

وفي رواية: أن السرية عندما جاءت بمالك وصحبه، قال لخالد: «أنا آتي بالصلاة دون الزكاة!..» فقال خالد: «أَمَا علمت أن الصلاة والزكاة معًا؛ لا تُقْبَلُ الواحدة دون الأخرى؟» فقال مالك: «**قد كان صاحبكم يقول ذلك!**» فقال خالد: «أَوَ مَا تَرَاهُ لَكَ صَاحِبًا؟! واللَّه لقد هممت أن أضرب عنقك»، ثم تجادلَا في الكلام، فقال خالد: «**إني قاتلك!**» فقال مالك: «**أَوَ بذلك أمرك صاحبك؟**». قال: «**وهذه بعد تلك؟!**»، ثم أمر بقتله[١].

ومضى أبو قتادة الأنصاري حتى أتى أبا بكر الصديق، فَقَصَّ عليه أمرَ خالد، وقَتْلَهُ مالكًا، وزواجه من ليلى زوج مالك، وأضاف أنه أقسم ألا يقاتل تحت لواء خالد أبدًا، لكن أبا بكر غضب عليه حتى كلمه عمر بن الخطاب، فلم يرض إلا أن يرجع أبو قتادة إلى خالد، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة[٢].

وكان عمر بن الخطاب من بين الذين اقتنعوا بوجهة نظر أبي قتادة؛ فقال لأبي بكر الصديق: «إن في سيف خالد رهقًا[٣]، فإن يكن هذا حقًّا حقَّ عليه أن تقيده»، وأكثر عليه في ذلك، فلم يَسَعْ أبا بكر الصديق إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالدًا؛ ليسأله عن حقيقة ما صنع. وأقبل خالد من ساحة الميدان إلى المدينة ومعه أبو قتادة، ودخل المسجد في عُدَّةِ الحرب، وقد غرز في عمامته أسهمًا؛ فقام إليه عمر، ونزع الأسهم من رأسه، وحطمها وهو يقول: «قتلت امرأً مسلمًا ثم نزوت على امرأته!! واللَّه لأرجمنك بأحجارك..».

وأمسك خالد؛ فلم يعترض ولم يقل شيئًا؛ لأنه ظن أن رأي أبي بكر على مثل رأي عمر؛ حتى دخل على أبي بكر، فأخبره الخبر اليقين، وقدَّم له معاذيره؛ فعذره أبو بكر وتجاوز عنه.

---

(١) الطبري (٥٠٤/٢)، وتاريخ أبي الفدا (١٥٧/١ - ١٥٨).

(٢) الطبري (٥٠٢/٢).

(٣) الرهق: السفه، والخفة، وركوب الشر، والظلم، وغشيان المحارم.

ولما خرج خالد كان عمر لا يزال جالسًا في المسجد، فقال خالد يخاطب عمر: «هلمَّ إليَّ يا ابن أم شملة!!»، فعرف عمر أن أبا بكر قد رَضِيَ عن خالد، فلم يكلم خالدًا، ودخل بيته[1].

لقد كان رأي عمر أن يعزل أبو بكر خالدًا، ولكنَّ رأي أبي بكر الصديق كان كما قال لعمر: «هَبْهُ يا عمر تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد»، ثم قال له: **«يا عمر، ما كنت لأشيم**[2] **سيفًا سَلَّهُ اللَّه على الكافرين»**[3].

لقد نَسَجَتِ الرواياتُ حول هذا الحادث من بَعْدُ صورًا هي أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ.

ولست أشك في أن الروايات الموثوق بصحتها تبرر إلى حد بعيد قَتْلَ مالك ونفر من أصحابه، وتبرئ خالدًا من دمائهم.

لنتذكر ماضي مالك بن نويرة القريب: **ماضيه** بعد وفاة النبي ﷺ: فقد منع الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ[4]، وأغار على إبل الصدقة، وفرق ما كان بيده منها، وأنشد الشعر الذي أظهر به الردة عن الإسلام[5]، وَوَادَعَ سجاح بنت الحارث التي ادعت النبوة[6]، كل ذلك يدل على أنه ارتد عن الإسلام.

أما **حاضره** الذي يبدأ من تهديد قوات خالد له، فلم يكن مشجعًا أيضًا: فرق

---

(١) الطبري (٢/٥٠٣، ٥٠٤)، وابن الأبتر (٢/١٣٧).

(٢) أشيم: أغمده؛ والشيم يستعمل في السل والإغماد.

(٣) الطبري (٢/٥٠٣)، وابن الأثير (٢/١٣٧)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٥٨)، والأغاني (١٤/١٥٢)، والبدء والتأريخ (٥/١٦٠).

(٤) الطبري (٢/٤٩٥)، وابن الأثير (٢/١٣٥)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٥٧).

(٥) قال مالك كما جاء في الأغاني (١٤/١٥٣):

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر مما يجيء به الغد

فإن قام بالأمر المخوف قائم ... منعنا وقلنا: الدين دين محمد

(٦) الطبري (٢/٤٩٦)، وابن الأثير (٢/١٣٥)، والأغاني (١٤/١٤٨).

مالك قومه ونهاهم عن الاجتماع[1]، ولم يتركهم على وضعهم الطبيعي الذي كانوا يعيشونه يوم كانوا مسلمين، فلما جاءت الخيل بمالك في نفر معه من قومه ـ سواء كان ذلك بقتال أو بدونه ـ، اختلفت السرية فيهم، وكان أبو قتادة ممن شهدوا أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا، واختلافهم هذا دليل على أن مالكًا لم يكن صريحًا في إعلان إسلامه، وأنه أظهر الإسلام ـ إن كان أظهره ـ عندما تهدده الخطر وأحدق به؛ إذ لم يختلف أحد في إسلام أخيه متمم بن نويرة[2]؛ كما أن خالدًا قَبِلَ توبة وكيع ابن مالك[3] الذي ارعوى عن غَيِّهِ، وندم وتحير في أمره، وعرف قبح ما أتى؛ فرجع رجوعًا حسنًا ولم يتجبر، وأخرج الصدقات، واستقبل بها خالدًا[4]، مع أن موقف وكيع يشابه موقف مالك بعد وفاة النبي ﷺ؛ إذ اجتمع وكيع، ومالك، وسجاح؛ فَوَادَعَ بعضهم بعضًا، واجتمعوا على قتال الناس الذين ثبتوا على الإسلام[5]، وهذا دليل على توبة وكيع وإصرار مالك على ضلاله.

إن ماضي مالك القريب وحاضره يُلْقِيَانِ شكوكًا كثيرةً على صحة إسلامه، وقد كان خالد من بين الذين اقتنعوا بأن مالكًا بقي مرتدًّا عن الإسلام؛ لذلك أقدم على قتله.

---

(١) الطبري (٢/٥٠٢)، وابن الأثير (٢/١٣٥).

(٢) متمم بن نويرة التميمي: أسلم هو وأخوه مالك في عهد النبي ﷺ، فارتد أخوه بعد موت النبي ﷺ واختلف كثير من الصحابة وغيرهم في مالك: هل قتل مرتدًا أم مسلمًا؟ أما متمم فلم يختلف في إسلامه، كان شاعرًا محسنًا، لم يقل أحد مثل شعره في المراثي. **راجع:** الإصابة (٦/٤٠) وأُسْد الغابة (٤/٢٩٨)، والأغاني (١٤/١٤٧ ـ ١٦١).

(٣) وكيع بن مالك التميمي: استعمله النبي ﷺ هو ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة وبني يربوع، وتوفي رسول الله ﷺ وهما كذلك، ثم ارتد وكيع عن الإسلام، ووافق سجاح بنت الحارث التي ادَّعَتِ النبوة، ولكنه عندما علم بقدوم خالد على رأس جيش من المسلمين استقبله بصدقات قومه، واعتذر إليه، وأسلم وحسن إسلامه. **راجع:** الإصابة (٦/٣٢٠).

(٤) الطبري (٢/٥٠١)، وابن الأثير (٢/١٣٦).

(٥) الطبري (٢/٤٩٦، ٤٩٧)، وابن الأثير (٢/١٣٥).

أما زواجه من أم تميم زوج مالك فقد جرى بعد إكمالها عدتها[١]، وليس في ذلك ما يؤخذ على خالد؛ ولستُ أشك أن أبا بكر الصديق لو اقتنع بأن خالدًا قتل مسلمًا عمدًا وَنَزَا على امرأته، لأقام عليه الحدَّ الشرعي[٢]، ولما ودى مالكًا من بيت المال؛ دفعًا للشبهات على اعتبار أن خالدًا: «**تأوَّل فأخطأ**»؛ كما قال أبو بكر الصديق عن خالد لعمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

لقد قال متمم: «**إن أخاه لم يمت شهيدًا**»[٣]؛ فقد سمع عمر بعض شعر متمم في رثاء أخيه مالك؛ فقال: «**هذا واللَّه التأبين، ولوددت أني أحسن الشعر؛ فأرثي أخي زيدًا بمثل ما رثيت به أخاك**»؛ فقال متمم: «**لو أن أخي مات على ما مات عليه أخوك، ما رثيته**»، وكان زيد بن الخطاب قد قتل شهيدًا باليمامة، فقال عمر: «**ما عزاني أحد عن أخي بمثل ما عزاني به متمم!**»[٤].

تُرَى! هل كان لشعر متمم في رثاء مالك، ذلك الشعر المهموس الذي لا نزال حتى اليوم نحس بحرقته وتأثيره على النفوس والعقول معًا، هل كان لهذا الشعر أثرٌ عاطفي على الناس استدر شفقتهم على مالك، فأخذوا يختلقون له المعاذير؛ ليظهروه بمظهر المقتول ظلمًا وعدوانًا؟! وهل أفاد الشعوبيون من هذا الشعر العاطفي بالذات؛ ليلهبوا شعور الناس على خالد باعتباره أحد قادة العرب ورجالات الإسلام الذين صدعوا أركان الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية؟! لعل شعر متمم وحقد الشعوبيين هما اللذان أثارا الشكوك حول تصرف خالد من جهة، وألهب شعور الناس حول مقتل مالك من جهة أخرى، ولكن هيهات أن تصمد نوازع الهوى أمام حقائق التأريخ!!

---

(١) الطبري (٢/٥٠٣)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٥٨).
(٢) في التشريع الجنائي الإسلامي، لعبدالقادر عودة (٢/٧٢٠ - ٧٢٥): أن عقوبة الردة هي القتل.
(٣) الأغاني (١٤/١٥٤).
(٤) الأغاني (١٤/١٥٧)، والاستيعاب (٢/٥٥٣)، وطبقات ابن سعد (٣/٣٧٨).

❑ في اليمامة مع مسيلمة الكذاب .. والقضاء على الكذاب:

وَفَدَ بنو حنيفة على النبي ﷺ وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، فلما أرادوا الرجوع، أمر لهم الرسول ﷺ بجوائزهم؛ فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبًا منا في رحالنا يُبْصِرُهَا لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا. فأمر له الرسول ﷺ بمثل ما أمر به لأصحابه، وقال: «**ليس بِشَرِّكُمْ مكانًا؛ لحفظه ركابكم ورحالكم**»، فقيل ذلك لمسيلمة؛ فقال: «**عرف أن الأمر إليَّ من بعده!**»، وادعى مسيلمة النبوة؛ فافتتن الناس به[1].

سار خالد من «**البُطاح**»؛ للقضاء على مسيلمة في «**اليمامة**»[2]، بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة بالتعاقب في القضاء عليه[3]، وفي طريقه اتفق مع بعض القبائل؛ ليقوموا بحماية قواته من الخلف، كما أمده أبو بكر الصديق بسليط بن قيس الأنصاري[4]؛ ليكون ردءًا له من أن يأتيه أحد من خلفه، فلما دنا سليط من خالد وجد خيول الأعراب التي اتفق معها خالد قد تركت مواضعها هاربة؛ فأخذ سليط على عاتقه واجب حماية مؤخرة قوات خالد[5]؛ حتى يحول بين العدو وبين تطويق جيش خالد من الخلف، وحتى يُؤَمِّنَ خطوط انسحاب خالد إلى قواعده عند الحاجة.

وفي مسير الاقتراب كان خالد على المقدمة ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣١٦، ٣١٧).

(٢) اليمامة: منقول من اسم طائر يقال له: اليمام، واحدته يمامة، بين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد.

(٣) الطبري (٢/٥٠٤، ٥٠٥)، وابن الأثير (٢/١٣٧، ١٣٨).

(٤) سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي: من بني النجار، شهد «بدرًا» وما بعدها من المشاهد، وَقُتِلَ يوم الجسر في العراق مع أبي عبيد مسعود الثقفي. **راجع**: طبقات بن سعد (٣/٥١٢)، والإصابة (٣/ ١٢٣)، وأسْد الغابة (٢/٣٤٥)، والاستيعاب (٢/٦٤٦).

(٥) الطبري (٢/٥٠٥)، وابن الأثير (٢/١٣٨).

المجنبتين زيد بن الخطاب[١] وأبو حذيفة[٢]، فلما كان على بُعْدِ ليلةٍ في معسكر مسيلمة، هجم على مفرزةٍ من بني حنيفة بإمرة مجاعة بن مرارة الحنفي[٣]؛ قُوَّتُهَا بين ثلاثين أو أربعين فارسًا؛ فأسرهم وقتل أصحاب مجاعة، واستحياه رهينة لديه؛ لشرفه في بني حنيفة[٤].

وَالْتَقَى الجمعان بـ«**عقرباء**»[٥]، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي

---

(١) زيد بن الخطاب القرشي الفهري: أخو عمر بن الخطاب لأبيه، يكنى أبا عبدالرحمن، وكان أسن من عمر ومن المهاجرين الأولين، أسلم قبل عمر، وشهد «بدرًا وأُحُدًا والخندق» وما بعده من المشاهد، وشهد بيعة الرضوان بالحديبية. قال عمر لزيد يوم أحد: «خذ درعي»؛ فقال: «إني أريد من الشهادة ما تريد»؛ فتركاها جميعًا، وَقُتِلَ زيد باليمامة شهيدًا سنة اثنتي عشرة للهجرة؛ فحزن عليه عمر حزنًا شديدًا؛ قال عمر: «ما هَبَّتِ الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد»، ولما نُعِيَ زيد إلى عمر، قال: «رحم الله أخي!! سبقني إلى الحسنيين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي». **راجع**: التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (٣/٣٧٦)، والإصابة (٣/٢٧)، وأسد الغابة (٢/٢٢٨)، والاستيعاب (٢/٥٥٠).

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشي: كان من فضلاء الصحابة ومن المهاجرين الأولين، جمع الله له الشرف والفضل: صَلَّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعًا . وكان إسلامه قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم للدعوة فيها إلى الإسلام، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، شهد (بدرًا)، ودعا أباه عتبة بن ربيعة إلى البراز، وشهد (أُحُدًا) و(الخندق) و(الحديبية) والمشاهد كلها، وَقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة، وكان رضي الله عنه رجلًا طوالًا حسن الوجه أحول أثعل (الأثعل: هو الذي له سن زائدة).

راجع: التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (٣/٨٤)، والإصابة (٧/٤١)، والاستيعاب (٤/١٦٣١).

(٣) مجاعة بن مرارة الحنفي: وفد هو وأبوه على النبي ﷺ، وكان من رؤساء بني حنيفة، أسره خالد واستحياه؛ إذ جاد أصحابه بأنفسهم دونه، وقالوا لخالد: إن كنت تريد بأهل اليمامة غدًا خيرًا أو شرًّا، فَاسْتَبْقِ هذا ولا تقتله. فحبسه خالد عنده؛ كالرهينة، ولما قهر خالد مسيلمة، صالح مجاعة خالدًا عن قومه بني حنيفة في الحصون على المال وربع السبي، فلما فتحت الحصون لم يجد خالد فيها غير النساء والصبيان؛ فقال خالد لمجاعة: «ويحك خدعتني؟!» فقال مجاعة: «إنهم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت».

راجع: التفاصيل في الطبري (٢/٥٠٨ - ٥١٧)، وابن الأثير (٢/١٣٧ - ١٤٠)، وأُسد الغابة (٤/ ٣٠٠).

(٤) الطبري (٣/٥٠٨)، وابن الأثير (٢/١٠٩).

(٥) عقرباء: منزل من أرض اليمامة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/١٩٤).

حذيفة[١]، وكانت راية الأنصار مع ثابت بن شماس[٢]، وكانت العرب على رايتها، واشتد القتال بشكل لم يسبق له مثيل من قبل عند المسلمين؛ فانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد[٣]، ولكن المسلمين عادوا فاستقتلوا؛ فكانت الحرب يومئذ سجالًا؛ تكون مرة على المسلمين، ومرة على المشركين؛ فقال خالد: «**أيها الناس، امتازوا؛ لنعلم بلاء كل حي، ولنعلم من أين نُؤْتَى؟**»؛ فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحضر؛ فوقف بنو كلِّ أَبٍ على رايتهم، ولكن مسيلمة ثَبَتَ؛ فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة[٤]؛ فحمل عليه قائلًا لحماته: «**لا أوتين من خلفي!**»، حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة[٥]، فلما دنا منه ودعاه وعرض عليه أشياء مما يشتهي، وجد فرصته مناسبة فهاجمه هجومًا شديدًا؛ فأدبر مسيلمة وأدبر رجاله معه؛ فصاح خالد في الناس، فركبوا المشركين، وكانوا بِتَمَاسٍّ شديدٍ معهم، حتى اضطروهم على الفرار[٦]، والتجأ بنو حنيفة إلى حديقة الموت، فدخلوها وأغلقوا

---

(١) سالم مولى أبي حذيفة: فارسي، من أهل اصطخر، كان من فضلاء الصحابة، وكان يؤم المهاجرين بقباء فيهم عمر بن الخطاب قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة، هاجر مع عمر بن الخطاب ونفر من الصحابة إلى المدينة، وكان يؤمهم إذا سافر معهم؛ لأنه كان أكثرهم قرآنًا، وكان عمر يفرط في الثناء عليه، شهد (بدرًا)، وَقُتِلَ شهيدًا يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة. **راجع**: التفاصيل في طبقات ابن سعد (٨٥/٣)، والإصابة (٥٦/٣)، وأُسْد الغابة (٢٤٥/٢)، والاستيعاب (٥٦٧/٢).

(٢) ثابت بن شماس الخزرجي الأنصاري: كان خطيب رسول الله ﷺ؛ كما كان حسان بن ثابت شاعره، شهد «أُحُدًا» وما بعدها من المشاهد، وَقُتِلَ يوم اليمامة شهيدًا؛ قال أنس بن مالك: «لما انكشف الناس يوم اليمامة، قلت لثابت: ألا ترى يا عم؟! ووجدته قد حسر عن فخذيه وهو يتحنط، فقال: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عودتم أقرانكم، وبئس ما عودتكم أنفسكم، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء. ثم قاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه». **راجع**: الإصابة (٢٠٣/١)، وأُسْد الغابة (٢٢٩/١)، والاستيعاب (٢٠٠/١).

(٣) الطبري (٥٠٩/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٢).

(٤) الطبري (٥١٣/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٢).

(٥) الطبري (٥١٢/٢).

(٦) الطبري (٥١٤/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٢).

عليهم؛ فصرخ البراء بن مالك[1]: «**احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه**»، فلما وضعوه على الحائط، اقتحم عليهم، فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين؛ فدخلوه واقتتلوا قتالًا مريرًا داخل الحديقة لم يروا مثله؛ فَأَبَادُوا مَنْ بالحديقة من المشركين، وكان من بين القتلى مسيلمة الكذاب[2].

وَبَثَّ خالد بعد المعركة مباشرة خيوله تطارد فلول المشركين، وتلتقط مَنْ ليس في الحصون، ثم نادى بالرحيل؛ لينزل على الحصون[3]، فقال له مجاعة: «إنه والله ما جاءك إلا سرعان الخيل، وإن الحصون لمملوءة رجالًا، فَهَلُمَّ إلى الصلح على ما ورائي»؛ فصالحه خالد على كل شيء دون النفوس، ثم قال مجاعة: «أنطلقُ إليهم وننظر في هذا الأمر، ثم أرجع إليك»، فدخل مجاعة الحصون، وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضَعْفَى، فألبسهم الحديد، وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون، ثم رجع إلى خالد فقال: «قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت»، فرأى خالد الحصون مملوءة، وقد نهكت المسلمين الحربُ،

---

(١) البراء بن مالك الأنصاري: أخو أنس بن مالك، شهد أُحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان شجاعًا مقدامًا، ولشجاعته كان عمر يكتب لقادة جيوشه: «لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين؛ فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم»، ولما كان يوم اليمامة واشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي فيها مسيلمة، قال البراء: «يا معشر المسلمين، أَلْقُوني عليهم!!» فاحتمله المسلمون حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم، فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين، ولكنه جُرِحَ يومئذ بضعًا وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهرًا حتى برأ من جراحه. قال النبي ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر لا يُؤْبَهُ له، لو أقسم على الله ﷻ لأبره؛ منهم: البراء بن مالك»، فلما كان يوم «تستر» من بلاد الفرس، انكشف الناس؛ فقال له المسلمون: يا براء، اقسم على ربك!! فقال: أقسم عليك يا ربِّ لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك. فَحَمَلَ وَحَمَلَ الناسُ معه؛ فَقُتِلَ البراء شهيدًا، وكان ﷺ حَسَنَ الصوتِ، يحدو بالنبي ﷺ في أسفاره؛ فكان هو حادي الرجال، وقد قَتَلَ على «تستر» مئة رجل مبارزةً سوى من شرك في قتله. **راجع**: طبقات ابن سعد (١٦/٧)، والإصابة (١٤٧/١)، وأسْد الغابة (١٧٢/١)، والاستيعاب (١٥٤/١)، وجوامع السيرة ص (٣٤١).

(٢) الطبري (٥١٤/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٣)، وأُسْد الغابة (١٧٢/١)، والاستيعاب (١٥٤/١)، وجوامع السيرة ص (٣٤١).

(٣) الطبري (٥١٥/٢).

وطال اللقاء، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ماذا يحدث لو كان فيها رجال وقتال؛ لذلك صالح خالد مجاعة على الفضة والذهب والسلاح ونصف السبي، وقيل: ربعه. فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء، فقال خالد لمجاعة: «ويحك خدعتني؟!»، فقال: «هم قومي، ولم أستطع إلا ما صنعت!»، ثم وصل بعد إبرام الصلح كتابُ أبي بكر الصديق إلى خالد: «**أن يَقتل كل محتلم**»، ولكن خالدًا وَفَّى لهم ولم يغدر[١].

لقد كان عدد قوات المسلمين حوالي ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان عدد رجال مسيلمة حوالي أربعين ألف مقاتل أو أكثر[٢]؛ أي: أن المشركين كان لهم الفواق الساحق على المسلمين، ومع ذلك فقد استشهد من المسلمين ثلاث مئة وستون من المهاجرين والأنصار من سكان المدينة وحدها، وثلاث مئة من المهاجرين من غير أهل المدينة، وثلاث مئة من التابعين[٣]، مع شهداء آخرين؛ فكان جملة مَن قُتِلَ من المسلمين ألفًا ومئتي شهيد[٤]، ومنهم خمس مئة من القراء[٥]؛ ولهذا أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه؛ بسبب موت مَن يحفظه[٦].

أما بنو حنيفة، فقد قتل منهم في معركة اليمامة أربعة عشر ألفًا، وقتل منهم في الطلب سبعة آلاف[٧]؛ أي: أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تعادل

---

(١) الطبري (٢/٥١٦ - ٥١٨)، وابن الأثير (٢/١٣٩، ١٤٠).

(٢) جاء في كتاب «فضائل القرآن، لابن كثير» ص (١٢) ملحق بالجزء التاسع من «تفسير ابن كثير» ما يلي: «الْتَفَّ حول مسيلمة من المرتدين قريب من مئة ألف؛ فجهز الصديق أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في قريب من ثلاثة عشر ألف».

(٣) الطبري (٢/٥١٦)، وابن الأثير (٢/١٤٠).

(٤) الطبري (٢/٥١٩).

(٥) الطبري (٢/٥١٦)، وابن الأثير (٢/١٤٠).

(٦) فضائل القرآن، لابن كثير ص (١٢)، ملحق بالجزء التاسع في «تفسير ابن كثير».

(٧) الطبري (٢/٥١٦)، وابن الأثير (٢/١٤٠).

ستة بالمئة «٦٪» فقط، وهذا يُعَدُّ من أروع الانتصارات.

فما أسباب انتصار خالد في هذه المعركة الحاسمة، التي تُعَدُّ من أقصى وأعنف معارك حروب أهل الردة؟

إن مجمل الأسباب هي:

أمر خالد الذي أصدره لرجاله بأن يمتازوا[(١)].

ووقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة؛ مما رفع معنويات رجاله ودفعهم للاقتداء بإقدامه.

وتحين خالد للفرصة السانحة للقضاء على مسيلمة.

واستقتال أهل النجدة والعقيدة الراسخة من المهاجرين والأنصار؛ خاصة القراء الذين قتل منهم خمس مئة شهيد.

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاء عظيمًا[(٢)]، وكان من العوامل الحاسمة لانتصار المسلمين على المرتدين.

ولله دَرُّ الصديق حين قال في خالد: «**ما كنتُ لأشيم سيفًا سله الله على الكافرين**»[(٣)].

هازم الفرس في أرض العراق

«**عجزت النساء أن يلدن مثل خالد**» [الصديق أبو بكر].

لقد كان خالد قائدًا لا يُجَارَى ولا يُبَارَى في خططه، وأسلوب قتاله، وشجاعته، وأُقْسِمُ بالله أن معاركه كانت أغرب من الخيال، وله في كل معركة ذِكْرٌ ونبأ تطير بذكره الرُّكبان.

---

(١) أدى ذلك إلى تنافس القبائل والرجال في القتال.

(٢) الإصابة (٢/٩٨)، وأسد الغابة (٢/٩٥).

(٣) الطبري (٢/٥٠٣)، وابن الأثير (٢/١٣٧).

أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد وهو باليمامة، يأمره بالمسير إلى العراق. وقيل: بل قدم المدينة من اليمامة، فسيره أبو بكر إلى العراق[١]، وهناك مَنْ يؤكد أن خالدًا قدم المدينة من اليمامة، ثم خرج منها إلى العراق[٢]، وهذا ما نرجحه؛ لأن تكليف خالد بمهمة شاقة؛ كفتح العراق لَا بُدَّ من أن يحتاج إلى الاتصال الشخصي بينه وبين أبي بكر بالمدينة للمذاكرة حول هذه المهمة وتأمين كل متطلباتها العسكرية والإدارية.

سار خالد إلى العراق في ألفي رجل، وانضمت إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر، تحشدت في مناطقها، والتحقت به في طريقه إلى العراق، كما انضم إليه ثمانية آلاف كانوا مع المثنى بن حارثة الشيباني والقادة الآخرين في العراق؛ فكان مجموع جيش خالد الذي لقي به العدو في أول معركة ثمانية عشر ألفًا[٣].

سلك خالد طريق «فَيْد»[٤] و«الثعلبية»[٥]، حتى نزل بـ «بانقيا»[٦] و«بَارُوسما»[٧] وغيرها من المدن والقرى في منطقة الحيرة[٨]، وقيل: لما قدم خالد بن الوليد من «**اليمامة**»، دخل على أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ -، وخرج فأقام أيامًا، ثم قال له أبو بكر: «تهيأ حتى تخرج إلى العراق»، فوجهه أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - إلى العراق؛ فخرج في ألفين ومعه من الأتباع مثلهم، فَمَرَّ بفايد - هي فيد، وقد وردت هنا: فايد خَطَأً -، فخرج معه خمس مئة من طيئ ومعهم مثلهم، فانتهى إلى «**شراف**» ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر؛

(١) الطبري (٢/٥٥١)، وابن الأثير (٢/١٤)، والبلاذري ص (٢٤٢).

(٢) البلاذري ص (٢٤٣)، والخراج ص (١٦٩).

(٣) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/ب ١٤).

(٤) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة.

(٥) الثعلبية: من منازل طرق مكة إلى الكوفة، أسفل منها ماء.

(٦) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة.

(٧) باروسما: ناحية من سواد بغداد.

(٨) الطبري (٢/٥٥١)، وابن الأثير (٢/١٤٧)، والخراج ص (١٦٩، ١٧٠).

فتعجب أهل «**شراف**» من خالد وَمَن معه ووغولهم في أرض العجم، فانتهوا إلى المغيثة - هي ما بين القادسية والعذيب - فإذا طلائع خيل العجم، فنظروا إليهم ورجعوا، فانتهوا إلى حصنهم ودخلوه، فأقبل خالد وَمَنْ معه إلى الحصن؛ فحاصرهم، وفتح الحصن، وَقَتَلَ مَنْ فيه من المقاتلة، وَسَبَى النساء والذراري، وأخذ جميع ما فيه من السلاح والمتاع والدواب، وهدم الحصن، ثم انتهى إلى «**العذيب**»، وفيه حصن فيه مسلحة لكسرى؛ فواقعهم خالد؛ فقتلهم وأخذ ما كان في الحصن من متاع وسلاح ودواب، وهدم الحصن، وضرب أعناق الرجال، وسبي النساء والذراري، وعزل الخمس... فلما رأى ذلك أهلُ القادسية طلبوا الصلح وأعطوه الجزية.

ومضى خالد من القادسية حتى نزل «**النجف**»، وبه حصن حصين لكسرى، فيه رجال من أهل فارس مقاتلة؛ فحاصرهم وافتتح الحصن.. ثم بعث طليعة إلى أهل «**أُلَيْس**»، وفيها حصن فيه رجال ومسلحة لكسرى؛ فحاصرهم وفتح الحصن... ثم مضى إلى الحيرة... إلخ.

وهذه الرواية تؤيد دخول خالد من اتجاه الحيرة أيضًا.

وفي رواية: أن أبا بكر أمره أن يبدأ بـ«**الأبُلَّة**»[1]؛ أي: من منطقة البصرة حاليًا[2]. ونرجح أنه بدأ من منطقة البصرة؛ لأن قوات المثنى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة، وهي القوة الرئيسية التي تقاتل في العراق، ولأن قوات خالد الأصلية في اليمامة، وهي أقرب إلى منطقة البصرة، ولأن أبا بكر أمر خالدًا أن يبدأ بـ«**الأبلة**»، وأمر عياض بن غنم أن يبدأ بـ«**المُصَيّخ**»؛ أي: أن خالدًا يهاجم العراق من

---

(١) الأبلة: مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين؛ **راجع**: الطبري (٩٣/٣)، وهي واقعة جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلًا وجنوب مدينة أبي الخصيب بنحو ميلين؛ **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٨٩/١).

(٢) الطبري (٥٥٤/٢)، وابن الأثير (١٤٧/٢). **وانظر**: طبقات ابن سعد (٧٦/٧)، والاستيعاب (٤/ ١٤٥٧).

جنوبه، وأن عياضًا يهاجمه من شماله[١]، وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية؛ لتفريق قوات العدو من جهة، ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الرئيسي لقوات المسلمين من جهة أخرى.

كما أنه لا يمكن البدء من «**الحيرة**» وترك قوات معادية في الجنوب؛ وذلك لاحتمال تطويق قوات المسلمين وتهديد سلامة تقدمها إلى أهدافها بعد «**الحيرة**» باتجاه الشرق، أو الشمال، أو الجنوب.

❑ في منطقة البصرة:

لما قدم خالد «**الأُبُلة**»، فَرَّقَ جنده ثلاث فرق، ولم يحملهم على طريق واحدة، وكان على مقدمته المثنى بن حارثة الشيباني، وبعده عدي بن حاتم الطائي، وجاء خالد بعدهما وواعدهم «**الحفير**»[٢]، وهو من أقوى مناطق الفرس وأشدها شوكة، وكان صاحبه «**هرمز**» من أبرز قادة الفرس يحارب العرب برًّا وبحرًا[٣].

❑ كاظمة[٤] ميدان المعركة الأولى مع الفرس:

وفيها كان قائد قوات الفرس «**هرمز**»، أرسل إليه خالد رسالةً مع رجل اسمه «**ازاذبة**»، وكان نص رسالة خالد الخالدة: «**أمَّا بعد، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، أو اعتقد لنفسك ولقومك الذِّمَّةَ وأقرر بالجزيةِ، وإلا فلا تلومن إلَّا نَفْسَكَ؛ فقد جئتُك بقومٍ يحبون الموتَ؛ كما تحبون الحياة**».

وفي رواية: «**جئتكم بقومٍ يحبون الموتَ؛ كما تحبون شُرب الخمر**».

قد كان ابن الوليد قمةً في سياسته العسكرية، وقدرته على المناورة وخداع

---

(١) الطبري (٢/٥٥٣).

(٢) الحفير: أول منزل من البصرة لمن يريد مكة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٠٣).

(٣) الطبري (٢/٢/٥٥٤، ٥٥٥)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٤) الكواظم: وهي كاظمة، جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٧/٢٠٨).

العدو، لإِنزال الهزيمة به بأقل خسارة ممكنة في جيش الإِسلام؛ فتوقع «**هرمز**» أن خالدًا سيتجه بجيشه إلى «**كاظمة**» في أول الأمر؛ فوجَّه كافة قواته إلى «**كاظمة**»، واستعد جندُهُ وحفروا الخنادق، ولكنَّ خالدًا الذي قسم جيشه وفرقه إلى ثلاثِ فرق لم يحملهم على طريق؛ ليُعمِّي وجهته عن عدوه؛ فيظل في حيرةٍ من أمره حتى آخر لحظة، وأربك خالدٌ القائدَ الفارسيَّ وفتت أعصابه؛ فتخطى «**كاظمة**»، واتجه نحو «**الحفير**» الواقعة شمال «**كاظمة**» وغربي «**الأبلَّة**»، وعندما لم يجد «**هرمز**» أَيَّ أثر لخالد في «**كاظمة**»، وأنه تخطَّاها نحو «**الحفير**»، اغتاظ وأصدر أمره إلى الكتائب في جيشه بأن يعودوا جميعًا إلى «**الحفير**»؛ لمصادمة جيش خالد، وأمر «**هرمز**» قواته بأن تُجْهِدَ نفسها في التَّحرك؛ ليسبق خالدًا إلى الحفير، وهذا هو الذي هَدَفَ إليه القائد الفذُّ خالدٌ؛ أن يُرهق عدوه نفسيًّا وجسديًّا قبل نشوب المعركة، وعن عمدٍ تَبَاطَأَ خالد بجيشه في السير نحو الحفير؛ ليسبق إليها القائد «**هرمز**»، وفعلًا وصل «**هرمز**» الحفير على عجلٍ؛ ليسبق إليها خالدًا، ثم أمر جنده بحفر الخنادق في الحفير؛ استعدادًا لمواجهة خالد، ولما تلقى خالد من استخباراته أن «**هرمز**» قد أرهق جنده بحفر الخنادق والتعبئة للقتال، عَطَفَ بجيشه راجعًا إلى «**كاظمة**»، وكان المغاوير من مقاتلي الفرس - بعد حفر الخنادق في الحفير - قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل؛ توطينًا لأنفسهم على الموت، أو إحراز النصر، ولما أبلغتْ «**هرمزَ**» استخباراتُهُ أن خالدًا وجيشه قد عَطَفَ نحو «**الكاظمة**» راجعًا، استشاط غضبًا وتوتَّرتْ أعصابه للغاية؛ فأصدر أمره إلى جيشه بالعودة نحو «**كاظمة**»، وهناك وجد خالدًا في انتظاره، قد عَبَّأَ جيشه للقتال، وكانت قوات الفرس أضعاف أضعاف المسلمين، وحال «**هرمز**» وقواته بين المسلمين وبين نهر الفرات، ومنعوهم الماء، فقال خالد كلمته الخالدة: «ألا انزلوا وحطوا رحالكم؛ فلعمري ليصيرن الماء لِأَصْبَرِ الفريقين وأكرم الجُنْدَيْن»[1].

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٤٩)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

ودعا «**هرمز**» خالدًا للبِرَازِ، وسرعان ما أجابه خالد، ولكن «**هرمز**» الخبيث ـ الذي ضُرِبَ به المثلُ فيه؛ فقيل: أَخْبَثُ من هرمز، وأكفر من هرمز ـ قد عهد إلى فرسانه عهدًا للغدر بخالد، فلما نزل خالد نزل هرمز، ومشى إليه خالد، فالتقيا، فاختلفا ضَرْبَتَيْنِ، واحتضنه خالد، وحملت حاميةُ هرمز وَغَدَرَتْ؛ فَاسْتَلْحَمُوا[1] خالدًا، فما شغله ذلك عن «**الهرمزان**»، وحمل القعقاع بن عمرو على حامية هرمز؛ فَأَبَادَهَا جميعًا، أمَّا خالد فقد تمكَّن في الحال من ذَبْحِ هرمز ذبحَ النِّعاج، وركن الفرس إلى الفرار بعد قتل قائدهم، فركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون إلى الليل[2]، ولم يَنْجُ من الفرس إلَّا من استطاع ركوب السُّفُن، وجمع خالد الرثاث[3]، وفيها السلاسل؛ فكانت وقر بعير؛ ألف رطل؛ فَسُمِّيَتْ «**ذات السلاسل**»، وَنَفَّلَ أبو بكر خالدًا قلنسوة هرمز، وكانت قيمتها مئة ألف. وقدم «زر ابن كليب» بالفيل مع الأخماس إلى المدينة، فَطِيفَ به في المدينة؛ ليراه الناس؛ فجعل ضعيفات النساء يقلن: أَمِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَا نَرَى؟! وَرَدَّهُ أبو بكر مع «**زر**».

❑ **وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك:**

نعم، الإسلام رفع من شأن العرب، وقد كانوا قبله حُفاةً عُراةً رُعاةً، لا شأن لهم في الأرض، ولا ذِكْرَ لهم في السماء؛ أذلَّهم الفرس، حتى إنَّ «**سابور الثاني**» والملقب بـ«**ذي الأكتاف**» كان يقوم بتعذيب الأسرى من العرب؛ فيقتلهم عن طريق نَزْعِ أكتافهم؛ فَنَزَعَ أكتاف خمسين ألف عربي من تميم وبكر بن وائل، حتى قالت له عجوز عربية: «**إن لهذا قصاصًا ولو بعد حين**».

الفرس الذي كانوا أشجع وأشدَّ بأسًا من العرب، بجيشهم الكبير الذي يقوده ألمعُ وأمهرُ قادة الفرس يُذِلُّهم خالد ويقتلهم ويأسرهم... حتى صار ذِكْرُهُ يُقِضُّ

---

(١) تبعوه.

(٢) الطبري (٢/٥٥٦)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٣) المتاع.

مضاجع الفرس.. ويبدو هذا في معركة «**الأُبُلَّة**».

❑ معركة الأُبُلَّة، وفرار الفرس من اسم خالد:

سار خالد بجيشه إلى «**الأُبُلَّة**»، وفيها جيوش كثيفة للفرس، وسبق سويد بن قطبة الذهلي - وكان من جيش خالد - في جماعةٍ من قومه خالدًا في اتجاه «**الأبلة**»، وعسكر حولها، ولما وصل خالد بقواته مكان البصرة اليوم، وجد سويدًا يتعقَّب أهل الأبلة في انتظار أن يُهاجموه، فيُقاتلهم خارج مدينتهم، ولكن سويدًا أخبر خالدًا بأن أهل الأبلة يهابون مقامه، وأنهم سيلظون معتصمين بقلاعهم ما دام خالد موجودًا في المعسكر؛ فقال سويد لخالد: إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك؛ أي خوفًا منك.

وهناك رَسَمَ خالد بالاتفاق مع سويد خُطَّةً يخدعون بها الفرس؛ حتى يأمنوا فيخرجوا لمُقاتلة سويد؛ وذلك بحيث يعتقدون أن خالدًا الذي بَثَّ في قلوبهم الرعب بعد قتله «**هرمز**»، قد ترك معسكر سويد، وأنه لم يبق قائد للمسلمين في المعسكر سوى سويد فقط؛ فقال خالد لسويد: فالرأْيُ أَخْرُجُ من المعسكر نهارًا، ثم أعود إليه ليلًا، فأدخل بأصحابي، فإن صبحوك حاربناهم. ونفذ خالد خطته؛ لتضليل حامية «**الأُبُلَّة**» الفارسية واستدراجهم لمهاجمة سويد؛ فتوجه خالد بمعظم قواته في وضح النهار في اتجاه «**الحيرة**»؛ فاطمأنَّ الفرس إلى تَرْك خالد للمكان، وعاد ﷺ بقواته إلى المعسكر ليلًا، فلما خرجت جيوش الفرس من «**الأُبُلَّة**» قاصدين مهاجمة سويد، وما كادوا يصلون مدخل معسكر سويد، حتى رَأَوْا كثرة العساكر وهم على أهبة الاستعداد؛ فأسقط في أيديهم لَمَّا علموا بوجود خالد في المعسكر، ولم يشرع الفرس سيفًا ولا رمحًا في وجه خالد، وما كان همهم إلَّا الفرار؛ للعودة إلى «**الأُبُلَّة**» المحصنَّة؛ فولوا الأدبار مسرعين نحو أبواب المدينة، ولكنَّ خالدًا حال بينهم وبين ذلك، وانفرط عِقْدُ جيش «**الأُبُلَّة**»، وتمزَّق شملهم، وَكَثُرَ القتل فيهم، وقذف كثيرٌ منهم نفسه في نهر دجلة والفرات؛ فغرقوا، وبعث خالدٌ

معقل بن مقرن المزني إلى «**الأُبُلَّة**» التي كانت خاليةً من المحاربين، فسيطر عليها بدون قتال، وجمع ما فيها من غنائم وأسلحة.

❑ الخريبة:

وبعد ذلك سيطر خالد على نقطة حربية مهمة يُقال لها: «**الخريبة**»، وكانت من مسالح العجم، وقال خالد لجنوده قبل المعركة ـ لَمَّا رأى وجوه قادة الفرس وجنودهم، وأدرك الرعب المسيطر عليهم ـ: «**احملوا عليهم؛ فإني أرى هيئة قومٍ ألقى الله في قلوبهم الرعب**». فحملوا عليهم؛ فهزموهم، وكثر القتل فيهم، وغرق طائفة منهم في دجلة.

❑ **الجولة الثالثة: معركة المذار[1] وقتل قُوَّاد الفرس الثلاثة:**

جهز «**شيرويه**» ملك الفرس جيشًا جرارًا، وأعطى قيادة الجيش لأكبر قائد من قواده؛ وهو: «**قارن بن قرباس**» يسانده قائدان كبيران؛ وهما: «**الأنوشجان**» و«**قباذ**»، وكان هذا الجيش يضم ـ أيضًا ـ فلولَ الأُبُلَّة، والكاظمة، وأهلَ الأهواز وفارس والسواد والجبل، وتعاهدوا بعدم الفرار.

وبلغت قوات «**فارس**» ما يقارب الثمانين ألفًا، بينما خالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا.

وبدأت المعركة اللاهبة بدعوة «**قارن**» إلى البراز؛ فاستبق إليه اثنان من المسلمين: خالد بن الوليد، وأبيض الركبان معقل بن الأعشى النباشي[2]، فسبق معقل على فرسه خالدًا، وبارز «**قارنًا**»؛ فقتله في الحال، وهجم عاصم بن عمرو على «**الأنوشجان**»؛ فقتله في الحال، وبادر البطل الميمون عدي بن حاتم إلى القائد

---

(١) المذار: في منطقة (ميسان) بين واسط والبصرة، وهي قصبة «ميسان»، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام.

(٢) معقل بن الأعشي بن النباش: كان يُعْرَفُ بأبيض الركبان، وله مشاهد مشهورة في قتال الفرس، وكان مع خالد من سنة اثنتي عشرة وما بعدها. **راجع**: الإصابة (١٧٩/٦).

«**قباذ**»؛ فقتله، وقاتل الفرس على حنقٍ وحفيظةٍ، واضطرب شمل الفرس بعد مقتل «**قارن**»، وكان شرف «**قارن**» قد انتهى؛ أي: أنه وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في فارس. وقُتِلَ من الفرس في الميدان ثلاثون ألفًا، سوى من غرق في دجلة بحديده، «**ولولا المياه لأتى المسلمون على آخرهم، ولم يفلت منهم إلا عراة أو شبه عراة**»[1].

❑ **الولجة[2] أو «واترلو الفرس»:**

أقام خالد رضي الله عنه بمنطقة «**المذار**»؛ يجمع المعلومات، ويرقب اتجاه مسارات العدو، وعلم أن القيادة العامة في «**المدائن**» أعدت جيشين يقودهما أعظم قائدين مُجَرَّبَيْنِ؛ وهما: «**الأندرزغِر**» و«**بهمن جاذويه**».

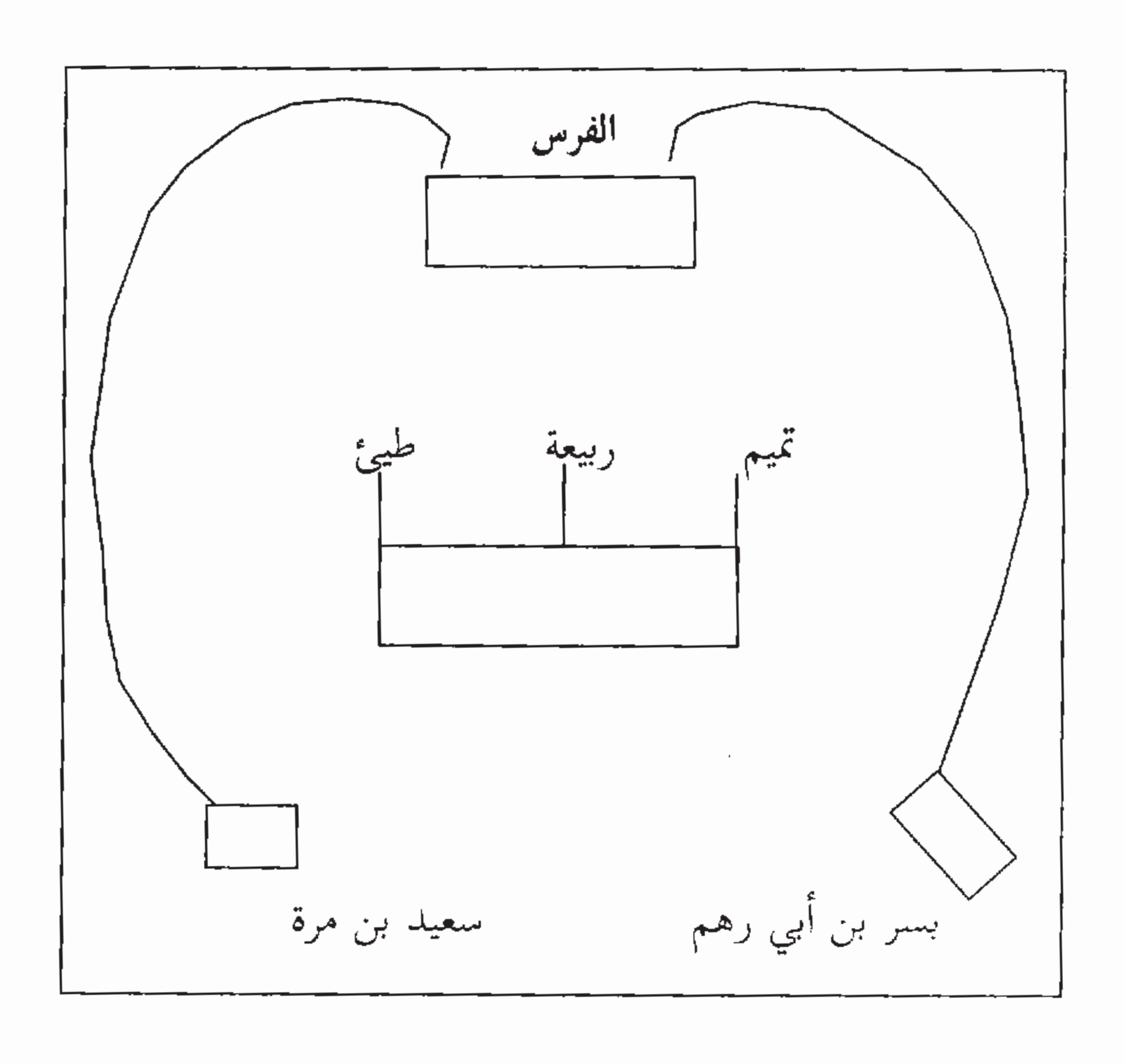
وأراد «**بهمن جاذويه**» أن يوقع خالدًا بين فكَّي كماشةٍ، إن هو اتَّجه من الشرق إلى الغرب رأسًا؛ بين جيش «**الأندرزغر**» الذي يعسكر غربًا في «**الولجة**»، وبين جيش «**بهمن**» الذي يتحرك في «**السواد**» شرقًا، ثم إنه مع وقوعه في الكماشة، سيقع بين حاجزين مائيين كبيرين. وفكر خالد ـ وهو الألمعي ـ في اتباع أسلوبٍ يجعله يتصل بـ«**الأندرزغر**» في «**الولجة**»، دون أن يوقع بجيشه في كماشة، فانحدر جنوبًا في طريق طويل بمُحاذاة نهر دجلة، حتى إذا ما وصل «**الأُبُلَّة**» عَبَرَ نحو الغرب، ثم أخذ يتجه شمالًا نحو «**الولجة**» غربي الفرات حيث يعسكر «**الأندرزغر**». لقد كان خالد من أبرز قادة الجيوش في العالم، وأقدرهم على استخراج النتائج من حساب المعارك قبل وقوعها، ورغم أنه محارب جريء ممتاز، فإنه كان أبعد القادة عن الغرور، وكان شديد التَّيقُّظ والحذر، وأوقع جيش الفرس في كماشته بدلًا من أن يوقعوه هم. ولكي يختصر خالد المعركة، ويكسب النصر بأقل خسارةٍ ممكنةٍ من رجاله أقام قبل أن يصل إلى مكان المعركة خلفه كمينَيْنِ من

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٥٢)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٢) الولجة: موضع مما يلي البر بأرض «كسكر»، وكسكر كورة واسعة، قصبتها مدينة واسط، وهي بين البصرة والكوفة.

خيرة رجاله؛ كمين في مواجهة الفرس من اليمين على رأسه «**بسر بن أبي رهم الجهني**»، وكمين من يسار الفرس وجعل على قيادته «**سعيد بن مرة العجلي**»، وأخفى الكمينينْ، وطلب من قائديهما أن لا يسرعا في الهجوم على الفرس، وهذه الخطة التي رسمها خالد بالكمينينْ تجعل جيش فارس بين فكَّيْ كمَّاشة، مع انشغاله بالرمـح المُشْرَع في صدره؛ وهو: جيش خالد.



وأُعْطِيتِ الأوامر بألا يهجم الكمينان على الفرس إلَّا عندما يحتدم القتال، وتظهر بوادر الوهن على الفرس، واشتبكت قوات خالدٍ مع قوات «**أندرزغر**» في

قتالٍ ضارٍ عنيفٍ؛ ذلك أن الفريقين صبروا صبرًا عظيمًا على أن يتلقَّى أحدهما مدده قبل الآخر، واشتدَّ القتال في «**الولجة**»، وثبت الفرس ثباتًا أزعج خالدًا حتى بات يخشى الهزيمة، وَظَنَّ الفريقان أن الصبر قد فرغ، ولكن النصر في اللحظة الحاسمة كان من نصيبه؛ فقد أطبق الكمينان على جيشِ الفرس من الشرق ومن الغرب، ثم شكَّلا رأس حربتين؛ إذ انقضَّا على جيش الفرس من وراء ظهره، في الوقت الذي كان يرقب الأفق بقلق؛ ينتظر أن يظهر عليه «**بهمن جاذويه**» فينقذه، وأُسقط في يد الفرس، وانتابهم الذعر، وشرع العرب في إبادة جيش الفرس، ولم يَرَ رجلٌ من الأعاجم مقتل صاحبه، ومضى «**الأندرزغر**» في هزيمته إلى مجاهل الصحراء؛ فمات عطشًا[1].

❑ **وتعلَّم الغرب من خالد..**

فهذه معركة «**واترلو**» التي دارت في بلجيكا بين «**نابليون بونابرت**»، وبين قائد جيوش الحلفاء «**ولنجتون**» الإنكليزي عام «**١٨١٥**»؛ وفيها انهزم نابليون بوقوعه في كمين القائد «**بلوخر**» وجيشه، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من النصر، واستقال من منصبه، ودخل الحلفاء باريس، ولجأ نابليون إلى إنجلترا، فلم تقبله لاجئًا سياسيًّا، بل عدَّتْه أسيرًا وَنَفَتْهُ إلى جزيرة القديسة هيلانة.

وخطب خالد بن الوليد بعد انتهاء المعركة، وحثَّ جنده على تحقيق المزيد من الانتصارات؛ فقال: «ألا ترون إلى طعام كرفغ التراب[2]، وباللَّه لو لم يُلزمنا الجهادَ في اللَّه والدعوة إلى اللَّه ﷻ إلَّا المعاشُ، لكان الرأي أن نُقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونُولِّي الجوع والإقلال مَنْ تولاه مِمَّن اثَّاقَلَ عمَّا أنتم عليه»[3].

(١) الطبري (٢/٥٥٨، ٥٥٩)، وابن الأثير (٢/١٤٨).
(٢) أي: كثير التراب.
(٣) الطبري (٢/٥٥٩)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

معركة أُلَّيْس[1] أو «نهر الدم»؛ الجولة الرابعة بين خالد والفرس ومعهم نصارى بكر بن وائل

حَقَدَ نصارى العرب - وهم من تغلب وبكر بن وائل - على المسلمين بعدما أصابهم في «**الولجة**»؛ فاستغاثوا بكسرى «**شيرويه**»؛ ليمدَّهم بجيش فارسي؛ ليشتركوا سويًّا في القضاء على خالد وجيشه، وكان على العرب في «**أُلَّيْس**» عبدُ الأسود العجلي، ووصل «**جابان**» على رأس جيش كثيفٍ من الفرس، وتولَّى جابان القيادة العامة، وكان عبد الأسود قائدَ خليطِ نصارى العرب؛ وهم من بكر بن وائل، وبني عجل، وتيم اللَّات، وضبيعة، وعرب الضاحية من أهل الحيرة، وانضمَّ إليهم زهيرٌ ومالكٌ ابنا قيس من قبيلة جذرة العربية النصرانية، وصل خالد بجيشه، والمجوس قد مدُّوا البُسُط يستعدُّون للغداء، وقد وُضِعَ الطعام الفاخر على البُسُط، وأصابهم الغرور وهم فيما يقارب المئة والخمسين ألف محارب، وخالد في جيشٍ لا يزيد على ثمانية عشر ألفًا، فلما يحفلوا بخالدٍ وأقبلوا على طعامهم، فقال لهم قائدهم جابان: «اتركوا الطعام، واستعِدُّوا للصدام». فلمَّا عَصَوْهُ، قال: «إن القوم سيعجلونكم قبل أن تَطْعَمُوا الطعام، وإنكم إنما هيأتموه لهم؛ ليأكلوه بدلًا منكم». فعصوه، وبسطوا البُسُط، ووضعوا الأطعمة، ودعا بعضهم إلى بعضٍ، وتوافدوا إلى البُسُط، وزحف خالد والمسلمون، فأجبروا الفرس على القيام عنه، وأجهضوهم عنه قبل أن يطعموه، ودعا خالد للبراز ونادى: «**أين أبجر بن عبد الأسود، أين مالك بن قيس؟**»؛ فجبنوا جميعًا عن مبارزته إلَّا مالك بن قيس؛ فإنه خرج إلى خالد، فقال له خالد مُوبِّخًا ومُحْتَقِرًا: «**يا ابن الخبيثة، ما جَرَّأَكَ؟! لستَ لي عليَّ من بينهم، وليس فيك وقاء**»؛ أي: أَنك لست لي بكُفْءٍ. ثم ضربه ضربةً قتلته في الحال، ومع ذلك فقد اقتتلوا اقتتالًا شديدًا كان أشدَّ من أي قتالٍ سبق؛ لأن نصارى العرب كانوا

---

(١) أُلَّيْس: موضع في أول أرض العراق من ناحية البادية، وهي قرية من قرى الأنبار.

شديدي الغيظ لخالدٍ؛ لقتله ابْنَيْ زعيميْهم في «**الولجة**»، وصبر الفرس صبرًا شديدًا، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى شقَّ عليهم الأمر؛ قال خالد: «ما لقيتُ قومًا كقومٍ لقيتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من أهل فارس قومًا كأهل أُلَّيْس»، ونذر خالد لله أن يُجري نهرًا من دمائهم إنْ مَنَحَهُ اللَّه النصر عليهم؛ فقال: «**اللهم، إنَّ لك عليَّ إن منحتَنا أكتافهم، ألَّا أستبقي منهم أحدًا قدرْنا عليهم حتى أُجرِيَ نهرهم بدمائهم**»، وانتاب الفرس والنصارى الذعُر والخوفُ عندما رَأَوْا ثبات المسلمين وشدَّة ضرباتهم، وركنوا إلى الفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، ونادى منادي خالد حتى يفي بنذره: الأسر، الأسر، لا تقتلوا إلَّا مَنْ امتنع. فأقبلت خيولُ المسلمين بهم أفواجًا مستأسرين يُساقون سوْق الأنعام، فجمعهم خالدٌ وقد حَبَسَ الماء عن النهر، فوكَّل بهم رجالًا يضربون أعناقهم في النهر يومًا وليلةً؛ على رجاء أن يسيل النهر بدمائهم، وهنا قال القعقاع وغيره لخالدٍ: لو أنك قتلتَ أهل الأرض، لم تُجْرِ دماءهم، ولكنْ أرسِلْ على الدماء الماءَ، فيجري النهر دمًا؛ لتبرَّ بيمينك. فعمل خالد بمشورة القعقاع، وأُعيد الماء إلى النهر، فجرى أحمر قانيًا؛ فسُمِّي لذلك: «**نهر الدم**»، وعُرف بذلك إلى قرونٍ طويلة. قالوا: وكانت على النهر طواحين تُدار بالماء، فطحنت بالماء وهو أحمر اللون قُوتَ العسكر ثمانية عشر ألفًا - أو يزيدون - ثلاثة أيامٍ، وأكل المسلمون طعامَ الفرس الذي وضعوه على البُسُط[1]، بعد أن قتلوا من الفرس ونصارى العرب سبعين ألفًا، أكثرهم من أهل «**أمغيشيا**»، وَزُفَّ خبر النصر إلى الصِّدِّيق، فتوَّج خالدًا بشهادةٍ من أرقى الشهادات، وحَسْبُكَ بها من شهادةٍ؛ فهو لا يرى لخالدٍ نظيرًا في عبقريته وشجاعته، ولا نظير له في

---

(١) لما هُزِمَ الفرسُ وَأُجْلُوا عن عسكرهم، ورجع المسلمون من طلبهم، وقف خالد على الطعام الذي كان للفرس، فقال لجيشه: «قد نفلتكموه؛ فهو لكم»؛ فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل، وجعل مَنْ لم يعرف الرقاق يقول: ما هذه الرقاق البيض؟! وجعل من عرفها يقول لهم مازحًا: هل سمعتم برقيق العيش؟! فيقولون: نعم!! فيقولون: هذا هو!! **راجع:** الطبري (٢/ ٥٦٠ - ٥٦٢)، وابن الأثير (٢/ ١٤٩).

عسكريته.

❑ «أعْجَزَتِ النِّساءُ أن يُنشِّئن مِثْلَ خالدٍ»:

قال الصِّدِّيق في خالد - وهو يخطب في الناس بعد نصر أُلَّيْس -: «يا معشر قريش، عَدَا أسَدُكم على الأسدِ؛ فَغَلَبَهُ على خراذيله[1]، أعجزتِ النساء أن يُنشِّئن مثل خالد!!»[2]. أو «عجزت النساء أن يلدن مثل خالد»[3].

❑ «يوم أمغيشيا» نصَرَ اللهُ خالدًا بالرُّعب:

كانت «أمغيشيا»[4] أعظم وأهمَّ من «أُلَّيْس»، وكانت على بُعْدِ أربعين كيلو مترًا من «أُلَّيْس»، فتملَّكهم الرعب، وفرَّ أهلها من مدينتهم؛ خوفًا من خالد، وتركوا وراءهم كل شيء؛ قال ابن جرير: «لمَّا فرغ خالد من وقعة أُلَّيْس، نهض فأتى أمغيشيا، وقد أعجلهم عمَّا فيها، وقد هرب أهلُها، وتفرَّقوا في السَّواد، فأمر خالدٌ بهدم أمغيشيا وكل شيء فيها، وكانت مِصْرًا كالحيرة، ولم يُصِبِ المسلمون فيما بين ذات السلاسل وأمغيشيا مِثْل ما أصابوا في أمغيشيا؛ بلغ سهمُ الفارس ألفًا وخمس مئة سوى النَّفْل الذي نفله أهل البلاء».

❑ معركة المقر[5] واستسلام الحيرة[6]:

قدَّر صاحب الحيرة ومَرْزُبَانُهَا «أزاذيه» أن خالدًا لن يتركه، وأنه سيركب إليه النهر؛ فقدَّم ابنه، وأمره أن يسدَّ قناطر الفرات، ويفتح للروافد التي تمدُّه مسالك جديدة، حتى يجفَّ النهر وتتوقَّف السفن عن الحركة.

---

(١) أطايب اللحم المقطَّع الوافر، وخردل وخرذل بمعنى واحد.
(٢) الطبري (٢/٥٦٣).
(٣) ابن الأثير (٢/١٤٩).
(٤) أمغيشيا: كانت مصرًا كالحيرة، وكانت أُلَّيْس من مسالحها.
(٥) المقر «فم العتيق»: موضع قرب فرات بادقلي من ناحية البر من جهة الحيرة.
(٦) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يُقَالُ له: النجف.

وكان خالد قد قسم جيشه على قسمين:

القسم الأول: وهم المشاة تحملهم السفن مع المؤُن.

والقسم الثاني: وهم الفرسان وراكبو الإبل.

وسارت السفن شمالًا، ولم يَفْجَإِ المسلمين إلا السفن جوانح، ولم تفُتَّ المفاجأةُ المزعجة في عضُد أبي سليمان بعد أن أخبره الفلاحون أن الفرس قد فجَّروا الأنهار؛ فسلك الماء غير طريقه، فتعجَّل خالد في جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة، فباغتَ خيلَهُ وهم على «**فم العتيق**»[١] - مَصَبِّ الفرات الأصلي - وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة، فاقتتلوا بموضع المقر - فم العتيق - حتى هزمهم بعد أن قُتِلَ ابن صاحب الحيرة، وأعاد الماء يجري في النهر؛ فغادت سفن المسلمين إلى المسير، وقصد خالد الحيرة، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، بعد أن فرَّ المَرْزُبان صاحبُها[٢]، فعسكر خالد بين «**الغريين**»[٣] والقصر الأبيض، وأجال خيله في عَرَصَاتهم[٤]، وبعد قتالٍ افتتح المسلمون الدور والدِّيرات، وأكثروا القتل، فنادى القسيسون والرُّهبانُ أهلَ الحصون: يا أهل القصور، ما يقتلنا غيركم!! فنادى أهلُ القصور: يا معشر العرب، قد قَبلنا واحدةً من ثلاثٍ، فكفُّوا عنَّا. وفاوضوا خالدًا، وأرسلوهم إلى خالد، وَخَلَا خالد بأهل كل حصن على حدة ولامهم[٥]، وقال: «**اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا،**

---

(١) العتيق: يقصد به مصب الفرات الأصلي في بعض الفروع، والموضع قريب من الكوفة. والجريدة: خيل لا مشاة فيها.

(٢) بعدما علم بموت (أردشير) ومقتل ابنه.

(٣) الغريبان: بناءان؛ كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) العرصات: جمع عرصة؛ وهي: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، ولقد وَكَّلَ خالد لكل قصر قائدًا يحاصر مَنْ فيه ويقاتلهم، وعهد إلى أولئك القادة أن يدعوهم، فإن لم يقبلوا أجلوهم يومًا ثم يناجزونهم.

(٥) قال خالد في لومه لهم: «ويحكم ما أنتم؟! أعرب فما تنقمون من العرب؟! أو عجم فما تنقمون من العدل والإنصاف؟!. **انظر:** الطبري (٢/٥٦٥).

أو الجزية، أو المنابذة[١] والمناجزة»؛ فقالوا له: بل نعطيك الجزية! فقال خالد: «**تبًّا لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة[٢] مضلّة، فأحمق العرب مَنْ سلكها، فلقيه دليلان: أحدهما عربي فتركه، واستدلَّ[٣] الأعجمي!**».

وعقد خالد معاهدة صلح[٤] بينه وبين أهل الحيرة؛ وبذلك فَتَحَتِ الحيرة أبوابها للمسلمين[٥]، وأقروا بدفْع الجزية مئة وتسعين ألف درهم، تُقبل كل سنة، وأصبحت عاصمة المناذرة وعاصمة الأقاليم وعاصمة كسرى الثانية تحت سيطرة المسلمين وحمايتهم.

ولما استقر خالد في الحيرة، صالحه صاحب «**قُس الناطف**»[٦] ودهاقين[٧] البلاد على قرى السواد إلى «**هُرْمُز جِرد**»[٨]، وجعل خالد الحيرة مقرًّا لقيادته[٩].

---

(١) المنابذة: تحيز كل من الفريقين للحرب.

(٢) الفلاة: الصحراء.

(٣) استدل: طلب منه أن يدله.

(٤) نص المعاهدة: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديًّا، وَعَمْرو بن عدي، وعمرو بن عبد المسيح، وإلياس بن قبيصة، وجبرى بن أكال، وهم نقباء أهل الحيرة. ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به؛ عاهدهم على مئة ألف وتسعين ألف درهم، تُقْبَلُ في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا، رهبانِهم وقسيسيهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيسًا عن الدنيا، تاركًا لها، وعلى المتعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو قول؛ فالذمة منهم بريئة. **راجع**: الطبري (٥٦٧/٢). **وانظر**: كتاب الخراج، للقاضي أبي يوسف ـ ص (١٧١)، نص كتاب خالد إلى أهل الحيرة الذي أعلن فيه التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر: «وجعلت لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفةٌ من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وَعِيلَ من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الإسلام.

(٥) الطبري (٥٦٣/٢ ـ ٥٦٧)، وابن الأثير (١٤٩/٢، ١٥٠)، والبلاذري ص (٢٤٥).

(٦) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة على شاطئ الفرات الشرقي.

(٧) دهاقين: جمع دهقان ـ بكسر الدال وضمها ـ؛ وهو: زعيم فلاحي العجم ورئيس الإقليم.

(٨) هرمز جرد: ناحية كانت بأطراف العراق.

(٩) **راجع**: الطبري (٥٦٨/٢ ـ ٥٨٤)، وابن الأثير (١٥١/٢، ١٥٢).

❏ وليُّ اللهِ خالدٌ يشربُ السُّمَّ فلا يضرُّه، ويتعجَّب منه، ويُبْهَرُ حكيمُ نصارى العرب:

عن قيس: أُتي خالدٌ بِسُمٍّ فقال: ما هذا؟ قال: سُمٌّ. فَشَرِبَهُ[١].

وفي أُمَّهات كتاب التاريخ: أن ابنَ بقيلة حكيم نصارى العرب، ومعمِّرهم، وأرجح قومه عقلًا، لَمَّا دخل على خالدٍ، اصطحب معه إلى مقر قيادة خالد خادمًا يحمل كيسًا صغيرًا في وسطه، فتناوله خالد وقال: ما في هذا الكيس؟ ونشر ما فيه في راحته، ثم قال: ما هذا يا عمرو؟ فقال عمرو ـ وكان رأسَ أهل الحيرة وكبيرَ الذين فاوضوا خالدًا من أهل الحيرة ـ: هذا واللَّه سُمُّ ساعةٍ. فقال خالد: وَلِمَ تحتقبُ السُّمَّ؟ قال عمرو: خشيتُ أن تكون علي غير ما رأيتُ من العَدْل، وقد أتيتُ على أجلي[٢]، والموت أحبُّ إليَّ من مكروه أُدخله على أهل قريتي. فأخذ خالد السُّمَّ المذكور، وَتَلَا هذا الدعاء: «**إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها، بسم اللَّه خير الأسماء، رب الأرض والسماء، الذي لا يضرُّ مع اسمه داء، الرحمن الرحيم**»، ثم وضع السم في فمه، وبادروه؛ ليمنعوه، ولكنَّه قد سبقهم فابتلعه، وانتظروا ساعةً ليصرع السم خالدًا، فمضت ولم يضرَّ السم خالدًا، كيف لا وهو من أكابر أولياء اللَّه المتقين، وسيد المجاهدين في الشام والعراق؛ فقال عندها ابنُ بقيلة: «**واللَّه يا معشر العرب لتملكنَّ ما أردتم**».

❏ أهل السَّوَاد يُصالحون خالدًا على الجزية:

ومثلما فعلَ أهلُ الحيرة، صالحَ أهلُ السواد من الفرس ووفودُ الدهاقين خالدًا على دَفْع الجزية مليونين من الدراهم سنويًّا للمسلمين.

❏ إعجاز عسكري: فتح خالد ثُلُثي العراق خلال أربعين يومًا:

لله دَرُّكَ يا خالد.. تَمَّتْ لجيوشه السيطرة على أكثر من ثلثي العراق خلال

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٨٢)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٩).

(٢) وكان سِنُّهُ عند التفاوض ثلاث مئة وخمسين سنة.

أربعين يومًا عام «١٢هـ»، فيما بين أواخر محرم وأوائل ربيع أول، وهذا إنجاز عسكري عظيم مدهش، تعجز اليوم عن تحقيق مثله أعتى الجيوش المدجَّجة بالصواريخ والطائرات والأساطيل والدبابات... فَبُورِكَ زَنْدكَ، وبورك ساعدُك، وبورك سيفك ورمحك، وبورك جوادك، وبوركتْ هِمَّتُك، أعلى الهِمَمِ وأشرفُها وأنبلها وأعزُّها وأغلاها.

❑ **معركة الأنبار[1] وفَقْءُ ألفِ عَيْنٍ من الكفار:**

سار خالد إلى الأنبار، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس[2]، وكان من شجعان البادية، فلمَّا بلغها طاف بها، فرأى أهلها قد تحصَّنوا بها، وخندقوا عليها خندقًا عميقًا عريضًا، وأشرفوا من حصونهم، فَأَنْشَبَ خالدٌ القتال، وكان قليل الصبر عنه، وَتَقَدَّمَ إلى رماته، فأوصاهم قائلًا: «**إني أرى أقوامًا لا عِلْمَ لهم بالحرب، فارموا عيونهم، لا توخُّوا غيرها، فارموا رشْقًا واحدًا ثم تَابِعُوا**»، وانطلقتِ السهام دفعةً واحدةً ولها أزيزٌ فأصابت مراميها، ثم تتابعَ الرَّمْيُ؛ فأُصيب الرُّماة من العدو الذين كانوا فوق جدران الحصن بكارثةٍ؛ إذ فَقَأَتْ سهام المسلمين منهم ألفَ عينٍ؛ ولذلك سُمِّيتْ موقعةُ الأنبار «**ذات العيون**»، واضطرب أهل الحصن وَمَاجُوا متصايحين: ذهبت عيون أهل الأنبار. وراسل مَرْزُبَانُ الأنبار «**شيرا زاد الفارسي**» خالدًا بشروطه التي رفضها خالد، وقرر خالد أن يردم الخندق، ولكن بماذا؟ أمر خالد أن ينحر المسلمون الإبل الهزيلة العجاف، ويقذفوا بها في نقط الخندق

(١) الأنبار: مدينة على الفرات في غربي بغداد بينها عشرة فراسخ.

(٢) الأقرع بن حابس التميمي: كان حكيمًا في الجاهلية، ثم قدم على النبي ﷺ في أشراف بني تميم بعد فتح مكة، وكان قد شهد معه فتح مكة وحنينًا والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كان معهم، وكان من رجالات العرب الذين يتألفهم الرسول ﷺ، وكان شريفًا في الجاهلية والإسلام، شهد مع خالد اليمامة وحرب العراق وفتح الأنبار، ومات شهيدًا في أرض خراسان في زمن عثمان بن عفان، وقيل: قتل باليرموك. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣٧/٧)، والإصابة (٥٨/١)، وأُسْد الغابة (١٠٧/١)، والاستيعاب (١٠٣/١).

الضيِّقة حتى تطمرها، فإذا طمرتها عبر الجيشُ على الجمال المنحورة، ونجحت الحيلة، واستقام الجسر اللحمي، وعبر عليه الجيش مشاةً وركبانًا إلى أبواب الأنبار، واستسلمت الأنبار لخالد.

بذل قائد الأنبار الفارسي ما أراده خالد؛ فقبل منه على أن يجلِّيه، ويلحقه بمأمن في جريدة[1] خيل، ليس معهم من المتاع والأموال شيء.

وبعد أن استقر خالد في الأنبار صَالَحَ مَنْ حولها؛ فاطمأن له الأمر في تلك المناطق[2].

❑ خالد يختطف القائدَ العامَّ للنصارى من قَلْبِ صَفِّهِ في معركة عين التمر ويأسره أوَّلَ المعركة:

كان على عين التمر[3] «**مهران الفارسي**» في جمعٍ عظيم من العجم والعرب، وكان على العرب «**عقَّة بن أبي عقة**»، وحين سمعوا بمسير خالدٍ إليهم، قال عقة لمهران: «**إن العرب أعلم بقتال العرب، فَدَعْنَا وخالدًا**».

قال: «**صدقت، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب**». وكانت قوات عقَّة في العراء، وقوات مهران في الحصن حين قدم خالد عل تعبيةٍ، فقال لمجنبتيْه: «**اكفوني ما عنده؛ فإني حاملٌ عليه**». ووكَّل بنفسه حوامي، وأراد خالد أن يفاجئ قائد النصارى لا بقتْله، ولكنْ بأخْذه أسيرًا؛ كي يفهم ذلك المغرور أيَّ رجال حربٍ ومهارة هم المسلمون، ثم ليُدخل الرعب والفزع في قلوبهم.

قد كان المتَّبَع في الحروب المبارزة، فكيف بخالدٍ عاشق المفاجآت يريد ما هو أعظم من المبارزة؛ وهو اختطاف قائد الأعداء وانتزاعه من قلب صفوف جيشه. وانقضَّ على عقَّة كما ينقضُّ الصقر على فريسته، وعقَّة مشغولٌ بتسوية صفوف

---

(١) الجريدة: الخيل التي لا رجالة فيها.
(٢) الطبري (٣/٥٧٤ - ٥٧٦)، وابن الأثير (٢/١٥١).
(٣) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، ولا تزال يطلق عليها هذا الاسم حتى اليوم.

جيشه، واندهش العرب المتنصِّرة للجريدة الصغيرة من الخيل التي خرجت تركض نحوهم، وماذا عسى أن يفعل عشرة رجال مع عشرات الألوف من قوم عقَّة؟! وَبَيْنَا هم غارقون في دهشتهم، إذا بخالدٍ يتجه نحو عقَّة يحتضنه، ثم يحمله ويعود به حيًّا ـ كالبرق ـ أسيرًا إلى صفوف المسلمين، وتجمَّدتِ الدماء في عروق المُتَنَصِّرة وهي تَرَى انتزاعَ خالدٍ لعقَّة من بينهم في أسلوب صاعقٍ مفاجئ، ما كان أحدٌ يتوقَّعه، وحَمْلَهُ بين يديه على فرسه؛ كأنه طفل رضيع، فلم يتحمَّلوا الصَّدْمة واختطاف قائدهم من بين أيديهم وهم ينظرون إليه؛ فلاذوا بالفرار، وركب المسلمون أكتافهم يقتلون ويأسرون، وقد كَثُرَ من بينهم الأسرى الذين استسلموا بدون مقاومة، وهرب الباقون، ودخلوا حصن **«عين التمر»**، ونجا القائد الفارسي مهران، وهرب من الحصن ومعه العناصر الفارسية المسلحة؛ وهكذا دمَّر خالدٌ جيشًا بأكمله دون أن يخسر جنديًّا واحدًا، وفتح خالد **«عين التمر»** بعد أن نزلوا على رأي خالد؛ فقتل خالدٌ مُقاتلتهم، وبدأ بعقَّة؛ فأُعدِم ثم رمى بجثته على الجسر؛ ليكون عبرةً لغيره، ثم أعدم نائبه **«عمرو بن الصعق»**، ثم نفَّذ حكم الإعدام في كلِّ مَنْ حمل السلاح في وجهه مِمَّن تحصَّن بـ**«عين التمر»**، وسَبَى النساء والذَّرارِي[1] .

❑ **في دومة الجندل: من خالد إلى عياض: إياك أريد.**

«لا يرى قومٌ وجهَ خالدٍ قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه» .. قالها ملك دومة الجندل.. والفضل ما شهدت به الأعداء.

كان خالد قد أرسل الوليد بن عقبة بفتح **«عين التمر»** وبالأخماس إلى أبي بكر الصديق؛ فوجهه أبو بكر مَدَدًا لعياض بن غنم، فقدم عليه وهو محاصر **«دُوْمة الجندل»** وأهلها محاصروه، وقد أخذوا عليه الطريق؛ فقال الوليد لعياض: **«الرأي**

---

(١) **انظر**: الطبري (٢/٥٧٦ ـ ٥٧٨)، وابن الأثير (٢/١٥١).

في بعض الحالات خير من كثيف الجند! ابعث إلى خالد فاستمده»، ففعل عياض.

وقدم رسول عياض على خالد بعد وقعة **«عين التمر»** مستغيثًا، فعجَّل خالد إلى عياض بكتابه: **«من خالد إلى عياض: إياك أريد»**.

لَبِّثْ قليلًا تأتك الحلائب يحملن آسادًا عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب

وخرج خالد على تعبية يسرع السير جهده، فلما بلغ أهل **«دومة»** مسيرُ خالد إليهم بُهِتُوا، ثم اختلف زعماؤهم فيما يصنعون، وكان عليهم رئيسان: **«أكيدر بن عبدالملك»** و**«الجودي بن ربيعة»**، فقال أكيدر: «أنا أعلم الناس بخالد! لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا يرى قوم وجه خالد قلُّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم»... فأبوا!

ولما نزل خالد **«دومة»**، جعلها بينه وبين عسكر عياض؛ فخرجت إليه بعض قوات الحصن؛ فهزمهم خالد وأخذ **«الجودي»** أخذًا.

وانهزم المشركون إلى الحصن، فلما امتلأ أَغْلَقَ مَنْ فيه أبوابه دون أصحابهم، وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم مَن يشاءون.

وأطاف خالد بباب الحصن، فأمر به؛ فاقتلع، واقتحم المسلمون على مَنْ فيه؛ فقتلوا المقاتلة كافة إلا أسارى بني كلب؛ فإن عاصم بن عمرو التميمي، والأقرع بن حابس التميمي، وبني تميم، قالوا: قد أمَّناهم! فأطلقهم خالد، وقال: **«مالي ولكم! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيِّعون أمر الإسلام؟!»**.

وأقام خالد بدومة الجندل، ورد الأقرع بن حابس إلى الأنبار[1]؛ فكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم وظنهم به الظنون؛ وكذلك ظنها عرب الجزيرة[2] فرصة

---

(١) الطبري (٢/٥٧٨ - ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/١٥٢).

(٢) الجزيرة: وهي التي بين دجلة والفرات، مجاورة أرض الشام، وتشمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة؛ لأنها بين دجلة والفرات. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٩٦).

سانحة؛ فكاتبوا الأعاجم؛ ليكونوا معهم على خالد؛ غضبًا لعقة بن أبي عقة الذي لم ينسوا مصرعه بعد؛ فبعث خالد القعقاع بن عمرو التميمي إلى «**الحصيد**»[١]؛ فقضى على قوات الفرس وحلفائهم فيها؛ وبعث أبا ليلى بن فدكي إلى «**الخنافس**»[٢]؛ فهربت من هناك قوات الفرس وحلفاؤهم[٣].

❑ خالد صاحب المفاجآت، ومعاركه الليْلِيَّة:

قد كان خالد من طرازٍ نادر؛ فهو وإن كان دقيقًا في رسم خطة المعارك، إلا أنه يمتاز ـ أيضًا ـ بسرعة التنفيذ، وحُبِّ المخاطر، والقُدرة الفائقة على ابتكار أساليبَ مُفاجِئةٍ للعدو، ولا أضَرَّ على الجيوش ـ وإن كانت عظيمةً ـ من أن تتعرَّض للهجوم بغتةً وبأسلوبٍ مفاجئ، وهي على غير استعداد؛ فمشاهير القادة العظام ـ حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ـ كانوا ينفرون من القتال الليلي، ويذهبون إلى عدم جدواه، ويقرِّر «**فردريك الأكبر**» أنه يستبعِدُ دائمًا التفكير في القيام بأي عمليةٍ ليليَّةٍ؛ نظرًا لما ينشأ عنها من اضطراب وانحلال في الضبط بين الصفوف للجنود؛ نتيجةً لتعذُّر الرؤية بين الضُّبَّاط ورجالهم، ويقرر «**بلوفر**» أنه يخشى العمليات الليلية.

وكان القتال ليلًا قليلًا ما يلجأ إليه المحاربون في ذلك العصر، ولكنَّ خالدًا هو خالد.

❑ معركة المصيّخ[٤]:

أبلغ خالد خُطَّته إلى قادة الفرق المحتشدة، وأخبرهم بكتمان الخطة حتى على

---

(١) الحصيد: موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/ ٢٨٨).

(٢) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار.

(٣) الطبري (٢/ ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/ ١٥٣).

(٤) المصيخ: ورد اسمها في الطبري (٢/ ٥٨٠)، وابن الأثير (٢/ ١٥٢): «المضيح»، بينما وردت في معجم البلدان: «المصيخ»؛ وهي: بين حوران والقلت.

جنودهم، وأخبرهم بأن الهجوم سيكون بعد منتصف الليل بساعتين؛ فالقمر لا يطلع في مثل هذا الوقت إلا قبل منتصف الليل بقليل، وقبل طلوع القمر وفي غَلَسِ الظلام قام خالد بتطويق «**المصيّخ**» على شكل دائرةٍ، دون أن يشعر بوجودها أهل «**المصيّخ**» الذين كانوا نيامًا، وَمَنْ ظلَّ مستيقظًا كان يحتسي الخمر في عُرْسِ «**حرقوص بن النعمان**» أحد زعمائهم، وقال لهم حرقوص: «**اشربوا شراب وداعٍ، فما أرى أن تشربوا بعدها، هذا خالد في عين التمر، وجنوده بحصيد، وقد بلغه جَمْعُنَا، وليس بتاركنا**»، ولم يعلم أن جيوش خالد قد طوَّقتهم في ظلام الليل في انتظار طلوع القمر. ثم أنشد حرقوص:

أَلَا فاشربوا مِنْ قَبْلِ قاصمةِ الظُّهْرِ ... بُعَيْدَ انتفاخِ القومِ بالعَسْكَرِ الدُّثْرِ
وَقبلَ منايانا المُصيبةِ بالقدرِ ... لِحِينِ لَعَمرِي لا يزيد ولا يحْرِي
ألا فاسقياني قَبْلَ جيشِ أبي بكرِ ... لعلَّ منايانَا قريبٌ ولا ندري
أظنُّ خيول المسلمين وخالدًا ... سَتَطْرُقُكم عند الصباحِ على البِشْرِ
فهل لكمو بالسير قَبْلَ قتالهمْ ... وقبلَ خروج المُعصراتِ من الخِدْرِ
أريني سلاحي يا أُميمةُ إنني ... أخافُ بياتَ القومِ أو مطلعَ الفجرِ

وكان ما قال؛ فعندما غمر القمر بنوره الأرضَ، شَنَّ خالدٌ وقادتُهُ الهجوم الصاعق من جميع الجهات، وكان حرقوص أوَّل الذين قُتلوا؛ فقد أطاح المسلمون برأسه وهو سكران، وسقط في جفنة الخمر التي كانوا يشربون منها، وقُتل جميع أبنائه، وَصَحَا النائمون من أهل «**المصيّخ**» على وَقْعِ السيوف، وانهزم وقُتل الذين استعدُّوا للقاءِ خالد، وكانت غارة موفَّقة، وَأُبِيدَ أكثرُ أهل «**المصيّخ**»، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل[1].

---

(١) الطبري (٢/٥٨٠ - ٥٨٢).

❑ في الثني والزميل:

علم خالد بتحشد بعض بني تغلب في «**الثني**»[١]و«**الزميل**»[٢]؛ استعدادًا لقتال المسلمين؛ غضبًا لعقة بن أبي عقة.

وبعد «**المصيخ**» بأربع ليال طَبَّقَ خالد نفس خطته في «**المصيخ**» على «**الثني**»، وأمر خالد القعقاع بن عمرو التميمي وأبا ليلى بن فدكي أن يرتحلا أمامه، وواعدهم ليلة؛ ليغيروا على بني تغلب من ثلاثة اتجاهات؛ كما فعل في معركة «**المصيخ**»؛ فبدأ بـ«**الثني**»، واجتمع بأصحابه، فَبَيَّتُوا بني تغلب، وأبادوا رجال «**الثني**» عن آخرهم، وسبوا كل النساء.

ولما انتهى خالد من «**الثني**»، قصد «**الزميّل**»؛ فباغتهم من ثلاثة اتجاهات أيضًا، وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا من قبل مثلها؛ ثم هاجم «**الرضاب**»[٣] وبها هلال بن عقة، فَارْفَضَّ عنه أصحابُهُ حين سمعوا بِدُنُوِّ خالد منهم؛ لهذا لم يلق خالد بها كيدًا[٤]. وقال خالد في اندحار أهل «**الرضاب**»:

طلبنا بالرضاب بني زهير ... وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاما ... ولم يؤنسهم عند الرمال
فإن تشقف أسنتنا زهيرًا ... يكفَّ شريدهم أخرى الليالي

❑ خالد هازم الروم والفرس ونصارى العرب في معركة الفِراض[٥] «الخامس عشر من ذي القعدة عام اثني عشر هجرية»:

اتَّحَدَ النقيضان الفرس والروم لقتال خالدٍ؛ فقد كاتبَ الرومان الفرس والعرب المتنصِّرة الموتورين؛ للاندماج في جيشٍ واحدٍ للقاء خالد، واحتشد الجميع في

---

(١) الثني: موضع بالجزيرة قرب الرُّصافة.
(٢) الزميل: موضع في ديار بني بكر، وهي عند «البشر» بالجزيرة شرقي الرصافة.
(٣) الرضاب: موضع بالرصافة قبل بناء هشام إياها غرب الرقة.
(٤) الطبري (٥٨٢/٢)، وابن الأثير (١٥٣/٢).
(٥) الفراض: موضع على حدود تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات.

جيشٍ لا يقلُّ عدده عن مئة وخمسين ألفًا، وكان عدد المسلمين لا يزيد على عشرين ألفًا في «**الفِراض**» بحدود الشام، ونصحهم العقلاء بأن لا يُقاتلوا خالدًا، وقالوا لهم: «**احتسِبُوا ملككم!! هذا رجل يقاتل عن دين وعقلٍ وعلمٍ، واللَّه ليُنصرنَّ ولتُخذلُنَّ**». وَخَيَّرَ الروم والفرس والمتنصِّرة خالدًا بين أن يعبر الفرات إليهم، أو يخلِّي عنهم فيعبروا هم الفرات؛ فقال لهم: «**بل اعبروا إلينا**»، فطلبوا من خالد أن يتنحَّى عن موقعه حتى يعبروا وتنشب المعركة حيث تنحَّى، فقال خالد: «**لا نفعل، ولكن اعبروا أسفل منا، ولن نتعرَّض لكم حتى تستكملوا العبور**»، وعظم خالد في أعينهم، ولم يعبر خالدٌ ميمونُ النَّقيبةِ حتى تكون الصحراء خلف ظهره، وتصاعد لَهَبُ القتال، وبدا الاضطراب واضحًا على القوات المشتركة، وبدأت كفَّة الميزان ترجح لصالح العسكر الإِسلامي، وَلَحَظَ خالد ذلك؛ فأصدر أمره إلى جنده بأن يُضاعفوا حملاتهم عليهم، فصاح فيهم: «**ألحوا عليهم ولا تُرفِّهوا عنهم**»[1]؛ فصار المسلمون يحصدونهم حصدًا، ولجأ فرسان المسلمين إلى أسلوب رائع في القتال؛ إذ صار هؤلاء الفرسان يحشرون الزمرة من الحُلَفاء بالرِّماح، فإذا جمعوهم، قتلوهم عن آخرهم، ثم عَمَّتِ الهزيمة جيوش الحلفاء الثلاثة؛ فأخذتْهم سيوفُ المسلمين من كل ناحيةٍ؛ فَقَتَلَ المسلمون منهم يوم «**الفِراض**» في المعركة وفي المُطاردة بعدها مئةَ ألفٍ، في روايات جميع المؤرِّخين[2]. وكانت معركة «**الفراض**» خاتمةَ معاركِ خالدٍ في العراق.. وما أحلاها من خاتمة.

يقول القعقاع بن عمرو عن هذه الموقعة:

لقينا بالفِراضِ جموعَ رومٍ ... وفُرْسٍ عَمَّهَا طُولُ السَّلامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لمَّا التقيْنا ... وبيَّتْنا بِجَمْعِ بني رِزامِ
فما فَتِئَتْ جنود السِّلْمِ حتى ... رأينا القومَ كالغنَمِ السَّوَامِ

---

(١) لا ترفهوا عنهم؛ أي: طاردوهم بدون هوادة.
(٢) الطبري (٢/٥٨٣، ٥٨٤) وابن الأثير (٢/١٥٣).

قال أهلُ التاريخ عن خالد: «**كان الفرس قد هابوه هيبةً شديدةً، وكان خالدٌ - إِذَا نَزَل - عذابًا من عذاب اللَّه عليهم ولَيْثًا من اللُّيُوثِ**».

وكذا كان خالد عذابًا من عذاب اللَّه على نصارى العرب من «**تغلب**» و«**إياد**» و«**النمر**» ممن اشتركوا في معركة «**الفراض**»؛ فلقنهم سيف اللَّه درسًا لا ينسونه مدى الأزمان.

❏ لله دَرُّكَ أبا سليمان:

لم يُشْجِ الجموع من الناس شجاك، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نزعك... كلمات درر من الصديق، تيجان على رأس سيف اللَّه خالد.

أمر الصِّدِّيقُ خالدًا بالتَّوجُّه لقتال الروم في الشام وَتَرْك العراق، وأثنى على خالدٍ ثناءً عطرًا؛ بأن أحدًا لن يستطيع قهر الروم وإنزال الهزيمة بهم إلا خالدٌ، فكتب إليه: «أَمَّا بعد، فَدَعِ العراق وخلِّفه في أهله الذين قدمتَ بهم عليهم وهم فيه، وامضِ مُختفيًا في أهل القوة من أصحابك، الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك في الطريق، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فإذا الْتقيتم فأنت أمير الجماعة. والسلام».

وعند الطبري: «أن سِرْ بالمسلمين حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك؛ فإنهم قد شجوا وأَشْجَوْا، وإياك أن تعود لمثلها[1]؛ فإنه لم يُشْجِ الجموع من الناس - بعون اللَّه - شجاك، ولم ينزع الشجيُّ من الناس نَزْعك، فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النِّيَّة والحظوة، فأَتْمِمْ يُتْمِمِ اللَّه لك، ولا يَدْخُلَنَّكَ عُجبٌ؛ فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ؛ فإن اللَّه له المَنُّ، وهو وليُّ الجزاء»[2].

❏ خالد قمَّة في الطاعة والانضباط العسكري:

لله دَرُّكَ يا خالد.. ما كدتَ تذوق حلاوة نصرك، ويذيع صِيتُكَ بين أعداءِ اللهِ

---

(١) يقصد الحج بدون إذن الخليفة.

(٢) تاريخ الطبري (٣/٣٨٤).

الفُرْسِ ويرهبون اسمك.. وبينك وبين المدائن التي تُتَوِّجُ نصرك قاب قوسين أو أدنى، حتى يصدر أمرُ الصِّدِّيق إليك بِتَرْك العراق، فلم تعتذر للخليفة ولا حتى تُناقشه، وحينما قال لك زعيم البدو وفارسُهم **«دسين العجلي»**: «أصلحك الله، واللَّه ما جعل اللَّه في الشام من العراق خلفًا للعراق، أكثر حنطةً وشعيرًا ودياجًا وحريرًا وفضةً وذهبًا، وأوْسَع سعةً، وأعْرَضَ عرضًا، واللَّه ما الشام كلُّه إلا كجانبِ من العراق». فرددت ـ لله دَرُّكَ ـ وما تُريد إلَّا عزَّ الإِسلام: «إن بالشام أهلَ الشامِ، وقد تهيَّأتُ لهم وتسيَّرتُ؛ فإنَّما أنا مُغيثٌ وليس لهم مَدَدٌ، فكونوا أنتم على حالتكم التي كنتم عليها، فإن نفرغ مِمَّا أُشخِصنا إليه عاجلًا، عجلنا لكم، وإن أبطأتُ، رجوتُ أن لا تعجزوا ولا تَهِنُوا، وليس خليفة رسول اللَّه ﷺ بتاركٍ إمدادَكم بالرجال حتى يفتح اللَّه عليكم هذه البلاد، إن شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ».

❏ حرب المفاجآت:

إذا أردنا كلمةً جامعةً لحرب خالدٍ مع الفرس، فنكاد نجزم بِأَخْذِ خالدٍ بزمام المُباغتة والمُفاجآت التِّكتيكيَّة؛ فأربكتْ صفوفَ أعدائه... نرى ذلك واضحًا في تغيير مكان اللقاء من «**كاظمة**» إلى «**الحفير**»، إلى «**كاظمة**» مرة ثانية، ثم مفاجآته لعدوه في كمين «**الولجة**»، وفي اقتحام خندق الأنبار بردمه بالإِبل العجاف، وفي مفاجأة «**عقَّة**» في «**عين التمر**» باحتضانه وحمْله إلى صفوف المسلمين أسيرًا، فهذا أسلوب في القتال لم يكُن مألوفًا، وفي الهجوم اللَّيلي على عدوِّه وكسبه في «**المصيّخ**»، وفي «**الثني**»، وفي «**الزميل**»، في سرعةٍ وخفَّةٍ، لم تَدَعْ لهم فرصةً أو مجالًا للتَّصرُّف أو القتال، رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خالد؛ لقد كان أسدًا إذا احتاج الأمر إلى تأسد، ثعلبًا إذا احتاج الأمر إلى ثعلبة، وهكذا الحرب مكْرٌ وخدعة وقوة.

بارز خالد يوم «**الولجة**» رجلًا من أهل فارس يَعْدِل ألف رجلٍ؛ فقتله، فلمَّا فرغ منه اتَّكأ عليه ودعا بغدائه[1]، ورضي اللَّه عن عمرو بن العاص القائل في مدح

(١) الطبري (٢/٥٦٠).

خالد: «**له أناةُ القَطاةِ ووثوبُ الأسد**»[١].

❑ **وفي واقعنا المعاصر:**

تحطَّمتِ الطائرات عند الفجر:

ينقل الدكتور عبدالله عزام في إحدى رسائله عن المستشار العسكري للقيادة الجوية في «٦٧» وكان يهوديًّا ولا يعرفون.. وهو صاحب كتاب «**وتحطَّمت الطائرات عند الفجر**»، وقد طبْعَ بأكثر من لغةٍ: «كيف أنهم أعدوا حفلة ماجنة لكبار قُوَّاد القوات الجوية وطياريها مع بنات الهوى والراقصات ليلة الخامس من يونيو «٦٧»، وكيف أنهم أسموها الميج والميراج المصري والإسرائيلي، وانتصر الميج المصري على الميراج الإسرائيلي... أي الطيارون المصريون الغارقون في الفاحشة على الراقصات وبنات الهوى، واستمَّرت إلى قُبيل الفجر، وعند الفجر كان ضرب المطارات لَمَّا نام العصاة في وحلهم، وبعد أن تَمَّ له ما أراد، هرب اليهوديُّ مع أول طائرة».

❑ **في الطريق إلى الشام: قطع البرية السماويَّة في خمس ليالٍ، وهو شيء لا مثيل له في التاريخ:**

قال الذهبي عن خالد بن الوليد: «تأمَّر في أيام النبي ﷺ، واحتبس أدراعه ولَأْمته في سبيل الله، وحارب أهل الرِّدَّة ومسيلمة، وغزا العراق، واستظهر، ثم اخترق البرية السماوية؛ بحيث إنه قطع المفازةَ من حدِّ العراق إلى أوَّل الشام في خمس ليالٍ في عسكرٍ معه، وشهد حروب الشام، ولم يبق في جسده قيد شبرٍ إلا وعليه طابع الشهداء»[٢].

فَعُدَّ من مناقبه وأعماله قَطْعُ البرية السماوية والمفازة من العراق إلى الشام في

---

(١) اليعقوبي (١٠٨/٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٦٦/١، ٣٦٧).

خمسِ ليالٍ.

أرسل خالد قبل قَطْعِهِ المفازةَ كتابًا سبقه إلى المسلمين بالشام وإلى أبي عبيدة، وكان من قوله: «... إن كتاب خليفة رسول اللَّه ﷺ أتاني يأمرني بالمسير إليكم، وقد شَمَّرتُ وانكمشتُ[1]، وكأنَّ خيلي قد أطلَّت عليكم في رجال، فأبشروا بإنجاز موعود اللَّه وحُسن ثوابه، عصمنا اللَّه وإياكم بالإيمان، وثبَّتنا وإيَّاكم على الإسلام، ورزقنا وإيَّاكم حُسن ثواب المجاهدين والسلام عليكم».

وكتب إلى أبي عبيدة: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد: سلام عليك، فإني أحمد اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني أسأل اللَّه لنا ولك الأمن يوم الخوف، والعصمة في دار الدنيا، لقد أتاني كتاب خليفة رسول اللَّه ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها، والتَّولِّ لأمرها، وواللَّه ما طلبتُ ذلك ولا أَرَدْتُهُ، ولا كتبت إليه فيه، وأنت ـ رَحِمَكَ اللَّهُ ـ على حالك التي كنت بها، لا يُعصى أمرك، ولا يُخالف رأيك، ولا يُقطع أمرٌ دونك، فأنت سيِّدٌ من سادات المسلمين، لا يُنكر فضلُك، ولا يُستغنى عن رأيك، تَمَّمَ اللَّه ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله».

فقال أبو عبيدة: «بارك اللَّه خليفة رسول اللَّه ﷺ فيما رأى، وحيَّا خالدًا بالسلام».

سلك خالد أقصر طريق أمين؛ من ناحية عدم وجود مقاومة معادية كبيرة فيه؛ وهو: طريق «**الحيرة ـ دومة الجندل ـ وادي سرحان ـ قراقر**»، وهناك استشار أصحابه قائلًا: «**كيف لي بطريقٍ أَخْرُجُ فيه من وراء جموع الروم؛ فإني إن استقبلتها، حبستني من غياث المسلمين؟!**». فأجابوه: لا نعرف إلَّا طريقًا لا يحمل الجيوش، إنما

---

(١) أسرعت.

يأخذه الفذُّ الراكبُ، فإياك أن تُغرِّر بالمسلمين. فعزم عليهم، فلم يُجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائي على تَهَيُّبٍ شديدٍ؛ فقام خالد في أصحابه وقال: «لا يختلفنَّ هَدْيُكم، ولا يضعفنَّ يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدْر النِّيَّة، والأجر على قدر الحِسبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيءٍ يقع فيه مع معونة اللَّه له»؛ فكان رد أصحابه عليه: أنت رجلٌ قد جمع اللَّه لك الخير، فشأنك[1].

فقال خالدٌ لدليله رافع: **«انطلق بالناس»**، فقال رافع: إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأنفال، واللَّه إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه؛ إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء. فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء، وأمر صاحب كل خيل أن يُعِدَّ لها الماءَ بِقَدْرِ ما يسقيها، وجمع عَدَدًا من الإِبل السِّمان ظَمَّأَهَا، حتى إذا أجهدها عطشًا أوردها الماء عَلَلًا بعد نَهَلٍ[2]، فلمَّا امتلأت، صَرَّ آذانها وشدَّ مشافرها؛ لئلا تجترَّ[3]، وانطلق خالد بالجيش، ينزلون كل يوم، فيأكل الرجال ويشربون مِمَّا معهم من الماء، ثم يَشُقُّون بطون عشرة من الإِبل، ويُخرجون الماء منها ويسقونه الخيلَ، حتى اليوم الخامس، حيث أدركوا **«الرِّيَّ»**.

لما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله: **«ويحك يا رافع، ما عندك؟»**، وكان رافع[4] أرمد، فأدار رأسه يمنة ويسرة، ثم قال: أيها الناس، انظروا عَلَمَيْنِ؛ كأنهما ثديان. فلمَّا أتوهما، وقف رافع عليهما، وقال: انظروا، هل ترون شجيرة من عوسج؛ كقعدة الرجل؟ قالوا: ما نراها. فأمرهم بالتفتيش عليها، فلمَّا وجدوها كبَّروا وكَبَّر رافع، ثم قال: احفروا في أصلها. فحفروا؛ فنبع الماء من عين؛ فشرب الناس حتى رووا، فقال رافع: واللَّه ما وردتُ هذا الماء قطُّ إلَّا مرَّةً واحدة مع أبي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل لابن الأثير (٢/١٥٦).

(٢) العَلَل: الشَّرْبَة الثانية، والنَّهَل: الشربة الأولى.

(٣) تاريخ الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (١/١٤).

(٤) هو رافع بن عميرة الطائي: يكنى أبا الحسن، وله صحبة، صحب الصديق، وكان دليل خالد بن الوليد لَمَّا سار من العراق إلى الشام.

وأنا غلام[1].

لله دَرُّكَ يا خالد.. كم كانت كفاءة دليلك الصحابي، ولله جرأتك حين تُقدم على ما يتهيَّب عنه الأدِلَّاء.. فَلِلَّهِ بركتك.. ولله دَرُّك من سيِّدٍ من سَادَاتِ أولياء هذه الأمة.

فالطريق الذي قطعه خالد بقواته ـ وكانت بين تسعة آلاف وعشرة آلاف ـ إذًا هو: «**الحيرة ـ دومة الجندل ـ وادي سرحان ـ قراقر ـ سوى ـ تدمر**[2] **ـ طريق حوارين**[3] **ـ قصم**[4] **ـ أذرعات**[5] **ـ بُصرى**[6] **ـ اليرموك**[7]».

قال الدكتور عبدالله محمد الرشيد عن خالد بن الوليد: «**نقله أبو بكر الصديق** رضي الله عنه إلى بلاد الشام، وفي طريقه إليها قام بفتح الحصيد، وقراقر، وسوى، وأرَك، وتدمر، وحوارين، وقصَم، ومرج راهط، وبُصرى»[8].

---

(١) أُسْد الغابة (٢/١٥٥)، والاستيعاب (٢/٤٨٢)، والطبري (٢/٦٠٣، ٦٠٤)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (٢/١٤).

(٢) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام. راجع التفاصيل في «معجم البلدان» (٢/٣٦٩).

(٣) حوارين: من قرى حلب. راجع التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٥٧). وهو يقصد طريق القرية لا القرية نفسها؛ إذ إنها بعيدة عن طريقه.

(٤) قصم: موضع بالبادية قرب الشام.

(٥) أذرعات: بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء: **راجع**: معجم البلدان (١/١٦٣).

(٦) بصرى: مدينة في أرض الشام، وهي كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا؛ راجع معجم البلدان (٢/٢٠٨).

(٧) الطبري (٢/٦٠٤، ٦٠٥)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، والبلاذري ص (١١٨)، وهناك رواية ثانية عن الطريق التي سلكها خالد؛ هي: «الحيرة ـ حدوداء ـ المصيخ ـ الحصيد ـ سوى... إلخ»؛ **راجع**: ابن الأثير (٢/١٥٦)، والظاهر أن أصحاب هذه الرواية قد خلطوا بين تفويز خالد وبين معاركه التطهيرية التي أجراها على الضفة الغربية من الفرات ضد قبيلة تغلب؛ لذلك أثبتنا الرواية الأولى في المتن، وعليها إجماع المؤرخين تقريبًا.

(٨) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، لعبدالله محمد الرشيد ص (٦٢٠، ٦٢١).

❑ خالد سيف الله.. هازم الروم في أرض الشام:

«**خالدٌ لها، واللَّه لأُنْسِيَنَّ الرُّومَ وساوسَ الشيطانِ بخالد بن الوليد**»:

كلماتٌ عَطِرَةٌ قالها الصِّدِّيق عن خالدٍ، حين اشتدَّ الكرب على المسلمين بالشام؛ وذلك لكثرة الروم وحُلَفَائهم الهائلة، التي بلغت ربع مليون مقاتل، بينما جيوش الإِسلام كلها لا تزيد على اثنين وثلاثين ألفًا، وأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الصِّدِّيق: «**وبعد، فإن الروم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب قد أجمعوا على حرب المسلمين، ونحن نرجو النصر، وإنجاز موعود الرب ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ وعادته الحسنة، وأحببتُ إعلامك؛ لترينا رأيك**».

فقال الصِّدِّيق: «**خالدٌ لها، واللَّه لأُنسيَنَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**»[١].

❑ دخول خالد «سوى»:

أدرك خالد «**الري**» بعد خمسة أيام، فدخل خالد «**سوى**»[٢] قُبيل الصبح، فأغار على أهلها من «**بهراء**» فأذعنوا؛ إذ لم يكونوا يتوقعون ظهور جيش المسلمين من هذا الاتجاه في هذا الوقت.

وعند الطبري «٢/٦٠٤» وابن الأثير «٢/٦٥»: «أن خالدًا أتى النقيب والكواثل[٣]؛ فلقي جمعًا كثيرًا لم يَرَ مثله إلا في أهل اليمامة؛ فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى قتل خالد عدة بيده، وأغار على ما حولها من القرى؛ فأخذ أموالهم، وحاصرهم، فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا الصلح على مثل ما صالح عليه أهل «**عانات**».

ثم مضى حتى أتى «**قرقيسياء**» ـ وهي بلدة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات

---

(١) الطبري (٢/٦٠٢).

(٢) سوى: ماء لبني بهراء.

(٣) النقيب: بين تبوك ومعان، على طريق الحاج. والكواثل: موضع في أطراف الشام.

ـ؛ فأغار على ما حولها؛ فأخذ الأموال، وسبى النساء... وحاصرهم أيامًا، ثم إنهم بعثوا يطلبون الصلح؛ فأجابهم إلى ذلك، وأعطاهم ما أعطى أهل «**عانات**»...» انتهى باختصار، ولكنه رأى مرجوح.

❑ فتح تَدْمُر:

مَرَّ خالد في طريقه بـ«**تدمر**»، فتحصَّنوا منه، فأحاط بهم من كل جانبٍ، وأخذهم بكل مأخذ، فلم يقدر عليهم، فقال لهم: «**والله، لو كنتم في السحاب، لاسْتَنْزَلْنَاكُم، ولَظَهَرْنَا عليكم، وما جئناكم إلَّا ونحن نعلم أنكم ستفتحونها لنا، وإن أنتم لم تُصالحوني هذه المرة، لأرجعنَّ إليكم لو قد انصرفتُ من وجهي هذا، ثم لا أرتحل عنكم حتى أقتل مُقاتلتكم وأسبي ذراريكم**»، ثم ارتحل عنهم فمضى، واجتمع عظماؤهم، فقال بعضهم لبعض: «**لا نرى إلا أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بكم، هم الذين كنَّا نتحدَّث أنهم يظهرون علينا، فافتحوا لهم وصالحوهم**»؛ فبعثوا في إثر خالد، فرجع إليهم، ففتحوا له مدينتهم وصالحوه.

❑ أيّ عزٍّ عزُّك يا خالد!!

ترحل ماضيًا عنهم؛ فيُرسلون إليك حتى ترجع ويُصالحوك؛ خوفًا منك ومن تهديدك.

❑ فتح القريتين وحوارين:

وأتى خالد «**القريتين**»؛ فقاتله أهلها؛ فظفر بهم، وغنم منهم.

ثم مَرَّ على «**حوارين**»؛ فخافه أهلها وهابوه، وتحرَّز أكثرهم منه وتحصَّنُوا؛ فأغار عليهم، واستاق مواشيهم، وقتل رجالهم، وأقام عليها أيامًا؛ فبعثوا إلى مَنْ حولهم فجاءهم مددان؛ **أحدهما**: من «**بَعْلَبَك**»، **والآخر**: من «**بُصرى**»، وكلٌّ منهما أكثر من ألفين، فلمَّا رآهم خالدٌ، صفَّ صفوفه، ثم خرج في مئتين من الفرسان، فحمل على مدد «**بعلبك**»؛ فقصف بعضهم على بعض، وأثخن فيهم قتلًا؛ فما صمدوا

ساعة حتى انهزموا، وحمل على أهل «**بُصرى**»؛ فما ثبتوا له إلا قليلًا حتى انهزموا إلى المدينة، وخرج أهل «**حوارين**»، فرموا المسلمين بالنِّشاب، فحمل عليهم خالد، وأعادهم إلى «**حوارين**» منهزمين، ورجع عنهم ذلك اليوم.

فلمَّا كان اليوم التالي، خرج أهل «**حوارين**»؛ ليقاتلوا المسلمين، فهاجمهم خالد؛ فهزمهم، فلمَّا رَأَوْا أنهم لا طاقة لهم به، صالحوه. قال علج من أهل حوارين ـ وكان من شجعانهم وأشدَّائهم ـ: «**والله، لخرجنا إلى خالد بعدما جاءنا مدد «بعلبك»** وأهل «**بُصرى**» بيوم، فخرجنا إليه، وإنَّا لأكثرُ من خالد وأصحابه بعشرة أضعفاهم، فما هو إلَّا أن دنونا منهم، فثاروا في وجوهنا بالسيوف؛ كأنهم الأُسْد؛ فهزمونا أقبح هزيمة، وقتلونا أشدَّ القتل؛ فما عُدنا نخرج إليهم حتى صالحناهم، وقد رأيتُ منَّا رجلًا كُنَّا نعدُّه بألف رجل، وكان يقول: لئن رأيت أميرهم لأقتُلَنَّه. فلمَّا رأى خالدًا، قال له أصحابُهُ: هذا خالدٌ أمير القوم. فَحَملَ عليه العِلْجُ، وإنَّا لنرجو لبأسه وشدَّته أن يقتله، فما هو إلا أن دَنَا منه، فضرب خالدٌ فرسه، فقدمه عليه، وكان خالد إذا كان عند الحرب، فكأنه يربو ويعظُم ويَهُول مَنْ ينظر إليه، فاستقبل العلجَ، فاستعرض وجهه بالسيف فضربَهُ؛ فأطار نصفَ وجهه وقِحْفَ رأسِه؛ فقتله، وانهزمنا أقبح هزيمةٍ حتى دخلنا مدينتنا، فما كان لنا هَمٌّ إلَّا الصُّلح حتى صالحناهم».

مَرْج رَاهِط:

بلغت الأخبار خالدًا بأن أعراب غسَّان النصارى، قد اجتمعوا بـ«**مرج راهط**» وعليهم الحارث بن الأيهم ـ أخو جبلة بن الأيهم ـ؛ فَانْقَضَّ عليهم خالد؛ فانتسف عسكرهم وعيالاتهم، وسبى منهم يوم فحصتهم[1]، ونزل بالمرج أيامًا، ثم سار خالد حتى أتى أبا عبيدة بالجابية، فالتقيا ومضيا معًا بِجُنْدَيْهِمَا إلى «**بُصرى**».

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٤١٠)، وتاريخ ابن عساكر (١/٤٥٨)، وفتوح البلدان، للبلاذري (١٣٢).

❑ فتح بُصْرَى:

جِزْية بصرى أوَّلُ جزيةٍ بالشام في عهد الصِّدِّيق:

قال قيس بن أبي حازم يصف فتح خالد لـ«بُصرى[١]»: «**كنت مع خالد بن الوليد حين مَرَّ بالشام، فأقبل حتى نزل بـ«بُصرى»** من أرض «**حوران**» وهي مدينتها، فلمَّا اطمأننا خرج إلينا الدّرنجار في خمسة آلافٍ من الروم، فأقبل إلينا، وما يظنُّ هو وأصحابه إلَّا أنَّا في أكُفِّهم، فخرج خالد فصفَّنا، ثم جعل على ميمنتنا رافع بن عمرو الطائي، وعلى ميسرتنا ضرار بن الأزور، وعلى الرجال عبدالرحمن بن حنبل الجُمحي، وقسَّم خيله؛ فجعل على شطرها المسيِّب بن نجبة، وعلى الشطر الآخر رجلًا من بكر بن وائل، فظننتُ أنه مذعور العجلي، فأمرهما خالد حين قسَّم الخيل بينهما أن يرتفعا من فوق القوم عن يمين وعن شمال، ثم ينصَبَّا على القوم[٢]، فانطلقا ففعلا ذلك، ثم أمر خالد مَنْ معه أن يرجعوا إلى القلب، فرجعنا إليهم، واللّٰه ما نحن إلَّا ثمان مئة رجل وخمسون رجلًا وأربع مئة رجل من مشجعة من قضاعة؛ فكُنَّا ألف رجلٍ ومئتي رجل ونيِّفًا، وكنَّا نظنُّ أن الكثير من المشركين والقليل عند خالدٍ سواءٌ؛ لأنه لا يملأ صدرَهُ منهم شيءٌ، ولا يُبالي مَنْ لقي منهم؛ لجُرأته عليهم وشدَّته ونجدته، ثم دنونا منهم، فبدءونا بالحملة علينا، فشدُّوا علينا شَدَّتَيْنِ، فلم نبرح مواقفنا، ثم إن خالدًا نادى بصوت جَهْوَرِيٍّ شديدٍ عالٍ فقال: «**يا أهل الإسلام، الشدَّة الشدَّة، احْمِلُوا ـ رَحِمَكُمُ اللّٰهُ ـ عليهم؛ فإنكم إن قاتلتموهم محتسِبِين تريدون بذلك وجه الله، فليس لهم أن يواقفوكم ساعةً**». ثم إن خالدًا شَدَّ عليهم وشددنا معه؛ فواللّٰه الذي لا إله إلا هو، ما ثبتوا لنا فواقًا حتى انهزموا، فَقَتَلْنَا منهم في المعركة مقتلةً عظيمةً، ثم أَتْبَعْنَاهُمْ نَكْرُدُهم[٣]، ونقتلهم، ونُصيب الطرف

---

(١) وكان معه أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد.

(٢) مِثْل كَمِينَي الولجة.

(٣) أي: نطردهم.

منهم، ونقطعهم عن أصحابهم، ثم نقتلهم، فلم نَزَلْ كذلك حتى انتهينا إلى مدينة «**بُصرى**»؛ فأغلقوا أبوابها، وَتَحَصَّنُوا منا، ثم أخرجوا إلينا الأسواق، وصالحونا أهلُ بُصْرَى، واستقبلوا المسلمين بكل ما يحبُّون، وسألونا الصلح فصالحناهم».

وكانت جزية «**بُصرى**» أوَّلَ جزيةٍ بالشام في عهد أبي بكر.

وَلَمَّا جاءت الأنباءُ «**هرقل**»، قال لجلسائه: «ألم أقُل لكم: لا تُقاتلوهم؛ فإنه لا قَوَامَ لكم مع هؤلاء القوم؟! إن دينهم جديدٌ يُجَدِّدُ لهم ثِبَارَهُمْ[1]؛ فلا يقوم لهم أحد حتَّى يُبْلَى»؛ فقالوا: «**قاتل عن دينك، ولا تُجَبِّنِ الناسَ، واقضِ الذي عليك**»؛ قال: «**وأيَّ شيءٍ أطلب إلَّا توفير دينكم**».

❑ أجنادين... يَوْمٌ من أَيَّامِ خالد:

جاءت الأخبار خالدًا أن جيشًا كبيرًا للروم قد نزل بـ«**أجنادين**» من جنوب فلسطين، وأن نَصَارى العرب وأهل الشام قد سارعوا بالانضمام إليه، وقام خالد في جيشه خطيبًا، وقال لهم بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ «أما بعد، فإنه بلغني أن طائفةً من الروم نزلوا بأجنادين، وأنهم استعانوا بأناس - وَهُمْ قليلٌ - من أهل البلد، فسألوهم النصر علينا استقلالًا لمن معهم من الكثرة ذلًّا ولَوْمًا، واللهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - جاعلُ الدَّبْرَةِ عليهم وَقَاتِلُهُمْ كلَّ مقتلة، فاقصدوا بنا قصدهم؛ فإني كاتب إلى يزيد بن أبي سفيان، حتى يوافيني بِمَنْ معه مِنَ المسلمين من البلقاء، وإلى عمرو بن العاص حتى يوافيني هنالك مِن أرض فلسطين». وكتب إلى «**شرحبيل**» وسائر الأمراء: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنه نزل بأجنادين جموعٌ من جموع الروم غير ذي عددٍ ولا قوة، واللهُ قاصمهم، وقاطع دابرهم، وجاعل دائرة السَّوْءِ عليهم، وقد شخصتُ إليهم يوم سرَّحت رسولي إليكم، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوِّكم - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - في أحسن عُدَّتكم وأصحِّ نِيَّتكم،

---

(١) مواظبتهم عليه.

ضاعف اللَّه لكم أجوركم وحطَّ أوزاركم، والسلام عليكم ورحمة الله».

وصلت جيوش المسلمين، وَتَوَافَتْ جموعهم في أجنادين، وجاء «**وردان**» بمن معه حتى وافى جموع الروم بأجنادين، وانضمَّت إليهم جموعٌ من أهل فلسطين ومن الأعراب المُوالين للروم؛ حتى صار جيش الروم يزيدُ عن مئة ألفٍ، وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا، هذه الجموع من المسلمين تجتمع لأول مرة في معركة كبرى، هي الأولى في حجمها في حرب الشام؛ يقول ابن إسحاق: «**لَمَّا تدانى العسكرانِ، بعث** «**القُبُقْلار**» رجلًا عربيًّا من قضاعة، يقال له: «**ابن هزارف**»، فقال: ادخل في هؤلاء القوم، فَأَقَمْ فيهم يومًا وليلةً، ثم ائْتني بخبرهم. فدخل في الناس.. رجل عربي لا يُنْكَرُ، فأقام فيهم يومًا وليلةً ثم أتاه، فقال له: ما وراءَك؟ قال: بالليل رهبانٌ، وبالنهار فرسانٌ، ولو سَرَقَ ابن ملكِهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِمَ؛ لإقامة الحقِّ فيهم». فقال له «**القبقلار**»: لئن كنتَ صدقتني لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من لقاءِ هؤلاء على ظهرها، ولَوَددتُ أنَّ حظي من اللهِ أن يُخلِّي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليَّ.

خرج خالد، فصفَّ قواته؛ فجعل أبا عبيدة على المشاة، وجعل معاذ بن جبل على الميمنة، وجعل سعيد بن عامر القرشي على الميسرة، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو على الخيل، وأقبل خالد يسير خلال صفوف المسلمين، لا يستقرُّ في مكانٍ واحدٍ، يُحرِّض جنده ويحمِّسهم، وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى الله، ويدعونه، ويستغثْنه، وكلما مَرَّ بهنَّ رجلٌ من المسلمين دفعن إليه أولادَهن، وقُلن له: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم. كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْنَ - أي يُحَرِّمْن - على الرجال ما كان مباحًا لهم معهنَّ، وأقبل خالد يقف على كلِّ قبيلة وكل جماعة، ويقول: «اتقوا اللَّه عباد الله، قاتلوا في اللَّه مَنْ كفر بالله، ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا؛ كإقدام الأسد وأنتم أحرارٌ كرامٌ؛ فقد أَبَيْتُمُ الدنيا واستوجبتم على اللَّه ثواب الآخرة، ولا يَهُولَنَّكم ما ترون من

كثرتهم؛ فإن اللَّه مُنزِلٌ عليهم رجزَهُ وعقابَهُ». ثم قال: «**أيها الناس، إذا أنا حملتُ فاحملوا**». وكان خالد أولَ مَن حمل على صفوف الروم، وأقبل خالد إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «**احملوا ـ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ـ على اسم الله**». وحمل خالد على الروم، وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصَّفِّ؛ فقد سئموا الوقوف، وكانت معنوياتهم مرتفعةً، وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مَرَّتَيْنِ... ثم صبروا لرشْق نبالهم، ثم صَدَرَ الأمرُ؛ فانطلق الجيش المتحمِّسُ المكبوت؛ فما صبر الروم له فُواقًا ـ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الرُّوَاةِ ـ، وانهزموا هزيمةً شديدةً، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وأصابوا معسكرهم وما حَوَى.

وعند ابن إسحاق: «**لما رأى القبقْلار ـ قائد الروم ـ ما رأى مِن قتال المسلمين، قال للروم: لفُّوا رأسي بثوبٍ. قالوا: لِمَ؟ قال: يومُ البئيسِ لا أحب أنْ أراه! ما رأيت في الدنيا يومًا أشدَّ مِن هذا. فَاحتَزَّ المسلمون رأسَه، وإنه لَمُلَفَّفٌ**»، وانتهى خبر هذه الهزيمة إلى «**هِرقل**»؛ فَنُخِبَ قلبُهُ وأُسْقِطَ في يده، ومُلئَ رُعْبًا.

وقد بلغ قتلى الروم في هذه المعركة ثلاثة آلاف، وفرَّتْ فلولهم المنهزمةُ متفرقةً نحو «**إيلياء**»، و«**قيسارية**»، و«**دمشق**»، و«**حِمْص**»، وتبعهم المسلمون يطاردونهم، فيقتلون منهم ويأسرون، وكتب خالد إلى أبي بكر ﷺ: «**لِعبد اللَّه أبي بكر خليفة رسول اللَّه** ﷺ مِن خالد بن الوليد سيف اللَّه المصبوب على المشركين، أمَّا بعد، سلام عليك، فإني أَحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإني أخبرك أيها الصديق أنَّا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعًا جمَّة كثيرةً بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا باللَّه لا يفرُّون حتى يَفنون أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين باللَّه متوكِّلين على الله، فَطَاعَنَّاهُمْ بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كلِّ فجٍّ وشِعْبٍ وغائطٍ، فأحمد اللَّه على إعزاز دينه، وإذلال عدوِّه، وحسْن الصنع لأوليائه. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته». فلما قرأ الرسالةَ، فَرِحَ بها وأعجبتْه، وقال: «**الحمد لله الذي نصر**

المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك».

❑ وفي اليرموك خالد يشرب من دماء الروم ويسحقهم:

اجتمع المسلمون بـ «**اليرموك**» وعليهم أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، فلما طلع عليهم خالد، فرح المسلمون[١] وارتفعت معنوياتهم.

أرسل هراكليوس «**هرقل**» إلى بيزنطة عاصمة دولته، وإلى من كان على دينه من جنوده ومن الأهالي في الجزيرة وفي أرمينية، وكتب إلى عماله أن يحشدوا إليه كل مَنْ أدرك الحُلُمَ من أهل إمبراطوريته فما فوق ذلك إلى الشيخ الفاني في تجنيد إجباري، كذلك كتب إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية - وهي لم تكن تحت سلطانه - في أكبر محاولةٍ له، وهو يرمي بآخر سهم في جعبته؛ لدفْع خطر المسلمين الداهم.

يقول الرواة: فأقبل إليه من الجموع ما لا تحمله الأرض. وكان عدد الروم مئتي ألف «٢٠٠,٠٠٠» يقودهم أعظم قادة الروم؛ وهو «**باهان**»، وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفًا «٣٦,٠٠٠»، منهم ألف رجل من الصحابة، فيهم مئة بدري. وخطب هرقل في الجيش قبل أن يُوجِّهه إلى «**اليرموك**»؛ فقال: «يا معشر الروم، إن العرب قد ظهروا على سورية، ولم يرضوا بها حتى تعاطوا أقاصي بلادكم، وهم لا يرضون بالأرض والمدائن والبُرِّ والشعير والذهب والفضة، حتى يَسْبُوا الأخوات والأمَّهات والبنات والأزواج، ويتَّخذوا الأحرار وأبناء الملوك عبيدًا، فامنعوا حريمكم وسلطانكم ودار مملكتكم»، ثم سيَّرهم إلى المسلمين.

وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بأن: «الروم قد توجهوا إلينا، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأُمَّةٍ قطُّ كانت قبلنا».

---

(١) الطبري (٢/٥٩١).

وقال ـ أَيْضًا ـ في كتاب آخر: «إن الروم نفرت إلى المسلمين برًّا وبحرًا، ولم يخلِّفوا وراءهم رجلًا يُطيق السلاح، إلَّا جاشوا به علينا، وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاءونا وهم نحوٌ من أربع مئة ألف رجل، قد جاء المسلمين مَا لَا قِبَلَ لهم به، إلَّا أن يُمِدَّهم اللَّه بملائكته، أو يأتيهم بغياثٍ من قِبَلِه، والسلام عليك».

وأرسل عمر إليهم: «**يا أهل الإسلام، اصدقُوا اللقاء، وشدُّوا عليهم شدَّ اللُّيُوث، واضربوا هامتهم بالسيوف، وليكونوا أهون عليكم من الذَّرِّ؛ فإنا قد كُنَّا علمْنا أنكم عليهم منصورون**».

البطل يُؤَمِّر نَفْسَه:

ولما اجتمع أبو عبيدة مع قادة جيشه بالجابية، قال خالد: «**أرى واللَّه إن كُنَّا إنما نُقاتل بالكثرة والقوة، هم أكثر منا وأقوى، وما لنا بهم إِذَنْ طاقة، وإن كُنَّا نُقاتلهم باللَّه ولله، فما أن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعًا أنهم تُغني عنهم شيئًا**»، ثم غضب وقال لأبي عُبيدة: «**أتُطيعني أنت فيما آمرك به؟**» قال له أبو عبيدة: نعم. قال خالد: «فولِّني ما وراء بابك، وخَلِّني والقوم؛ فإني لأرجو أن ينصرني اللَّه عليهم». قال: قد فعلت. وهكذا تولَّى خالد القيادة العامة على جيوش المسلمين في يوم «**اليرموك**». وجمع «**باهان**» جنده، وقال لهم: «أنتم عدد الحصى والثَّرى والذَّرِّ، فلا يهولنَّكم أَمْرُ هَؤلاء القوم؛ فإن عددهم قليل، وهم أهل الشقاء والبؤس، وجلُّهم حاسِر جائع، وأنتم من الملوك، وأبناء الملوك، وأهل الحصون والقلاع والعدة والقوة والسلاح والكراع، فلا تبرحوا الميدان وفيكم عين تطْرِف حتى تُهلكوهم أو تهلكوا أنتم».

وعلى «**اليرموك**» اجتمع خالد مع باهان قائد الروم بين الصفين فقال باهان «**ماهان**»: «إنَّا قد علمْنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلُمُّوا إلى أن أُعطي كل رجلٍ منكم عشرة دنانير وكسوةً وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم، فإذا

كان من العام المقبل بعثْنا لكم بمثلها». فقال خالد: «**إنه لم يُخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنَّا قومٌ نشرب الدِّماء، وأنه بَلَغَنا أنه لا دم أطْيَب من دم الروم؛ فجئنا لذلك**». فقال أصحاب ماهان: هذا واللَّه ما كُنَّا نتحدَّث به عن العرب[1].

اللَّه اللَّه يا خالد.. عِزُّ الإِسلام يتكلَّم.. لله دَرُّكَ.. كم خلَّدت هذه الكلمة: «**أنَّا قوم نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم؛ فجئنا لذلك**».

وبعد سنوات سيقول رستم للمغيرة بن شعبة قبل معركة «**القادسية**»: «كنتم إذا قحطتْ أرضُكم وأصابتْكم السَّنَةُ، استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير، ثم نردُّكم، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم بظلالنا، فذهبتم فدعوتم أصحابكم ثم أتيتمونا بهم، وإنَّا ومثلكم مثلُ رجلٍ كان له حائط من عنب، فرأى فيه ثعلبًا واحدًا؛ فقال: ما ثعلب واحد. فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى الحائط، فلمَّا اجتمعن فيه، جاء الرجل فَسَدَّ الجحر الذي دخلن منه، ثم قتلهن جميعًا. وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلَّا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فارجعوا عنَّا عامكم هذا؛ فإنكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا وعن عدونا، ونحن نوقر[2] لكم ركائبكم قمحًا وتمرًا، فأنا آمُر لأميركم بكسوةٍ وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمرٍ وبثوبين، وتنصرفون عنَّا؛ فإني لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم، فارجعوا عنَّا، عافاكم الله». فقال له المغيرة فيما قال: «فكان مما رزقنا اللَّه على يديه[3] حبة تنبت في أرضكم هذه، فلمَّا أذقناها عيالنا، قالوا: لا صبر لنا عنها، فجئنا؛ لنُطعمهم أو نموت».

هكذا يُرَدُّ على الصَّلَف بعز الإِسلام، لله دَرُّ المغيرة:

حيَّةٌ في الوجَار أرْبَد لا يَنفَعُ ... منه السَّليمَ نَفثُ الرَّاقي

(١) البداية والنهاية (٧/٩، ١٠).

(٢) الوقر: الحمل الثقيل.

(٣) أي: رسول الله ﷺ

وجاءت جموع الروم؛ كالسَّيْل والليل، وهم يجرُّون الشوك والشجر؛ ليصنعوا منها دفاعاتٍ، ومعهم صُلُبُهُمْ، والقسيسون، والرهبان، والأساقفة، والأباطرة، وعبَّأ خالد جيشه في تَعْبِيَةٍ لم تُعَبِّهَا العربُ من قبل؛ إذ نظم جيشه في ستة وثلاثين كردوسًا [١] إلى الأربعين، وقال: «**إن عدوَّكم قد كثُر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس**»، ثم جعل للقلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح، وكان على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة قبَّاث بن أَشْيَم، وعلى الرَّجَّالة هاشم بن عتبة، وكان خالد على الخيل.

وفي رواية: «جعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجرَّاح، وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بن أبي سفيان».

وقال معاذ بن جبل للناس مُثنيًا على خالد: «أَمَا والله إن أطعتموه، لتطيعُنَّ مباركَ الأمرِ، ميمون النقيبة، عظيم الغناء، حَسَن الحِسبة والنِّيَّة» [٢]. وقال معاذ عن خالد: «أَمَا إني لأرجو أن يكون الله قد أعطاه بصيرةً على جهاد المشركين وشدَّته عليهم وجهاده إياهم، مع حُسن بصيرته، وحسن نِيَّتِهِ، وإعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا». وكان القاضي أبا الدرداء في هذا اليوم، وَالْقَاصُّ الذي يتولَّى تخميس المسلمين أبا سفيان [٣]، وعلى الأقباض - وَهِيَ الْغَنَائِمُ -

---

(١) الكردوس: مفرد كراديس؛ وهو: كتلة من الجنود يتألَّف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية؛ العريف يقود عشرة رجال، وآمِرُ الأعشار يقود مئة رجل، ولكل كردوس قائد له راية.

(٢) الطبري (٢/٥٩٣)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

(٣) أبو سفيان بن حرب الأموي القرشي: والد معاوية ويزيد وعتبة، ولد قبل عام الفيل بعشرة سنين، وكان من أشراف قريش وعقلائها وقادتها، وإليه راية قريش، وكان من أفضلها رأيًا في الجاهلية، أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا، وقد حَسُنَ إسلامه على أصح وأوثق الروايات وبشهادة سعيد بن المسيب العالم الزاهد؛ فقد قال عن أبي سفيان: «فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا رجلًا واحدًا، يقول: «يا نصر الله اقترب»، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر؛ فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد»، فُقِئَتْ عينه يوم الطائف، وَفُقِئَتْ عينه الأخرى يوم اليرموك، ومات في خلافة =

عبدالله بن مسعود، وكان القارئ المقداد(١)؛ قرأ على الناس الأنفال(٢).

وسار خالد في صفوف جنوده يقف على أصحاب كل راية، ويقول: «يا أهل الإسلام، إن الصبر عِزٌّ، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر تُنصرون؛ فإن الصابرين هم الأَعْلَوْنَ، وإنه إلى الفشل ما يحور المُبطل الضعيف، وإن المُحِقَّ لا يفشل، يعلم أن الله معه، وأنه عن حرم الله يَذُبُّ وعنه يقاتل، وأنه إن قدم على الله أكرم منزلته وشكر سعيه؛ إنه شاكر يحب الشاكرين». وجمع خالد فرسان المسلمين؛ فقسمها أربع فِرَقٍ، ودعا قيس بن هبيرة بن مشكوح المرادي - وكان يساعده، ويوافقه، ويشبهه في جلده وشدته وشجاعته وبأسه وإقدامه على الأعداء -، فقال له خالد: «أنت فارس العرب، وَقَلَّ مَنْ حضرها اليوم يعدلك عندي، فاخرج معي في هذا الخيل»، وبعث إلى ميسرة بن مسروق وعمرو بن الطفيل، وجعل كل رجل منهما على ربع، وخرج خالد في ربع منها في خيل المسلمين، وقال رجل لخالد قبيل معركة «**اليرموك**»: ما أكثر الروم وأقل المسلمين!! فقال خالد: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر براء من تَوَجِّيهِ(٣)، وإنهم أضعفوا ضعفهم(٤)».

= عثمان سنة ثلاث وثلاثين ودفن بالبقيع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل: ابن بضع وتسعين. وكان قصيرًا سمينًا ذا هامة عظيمة. **راجع**: الإصابة (٣/٢٣٧)، وأسد الغابة (٣/١٢)، والاستيعاب (٤/١٦٨٧).

(١) المقداد بن الأسود الكندي: هو المقداد بن عمرو، صحابي جليل، كان قديم الإسلام، من الفضلاء النجباء الكبار الأخيار من أصحاب النبي ﷺ، وكان موضع ثقة الرسول ﷺ وتقديره، وقد شهد فتح مصر، ومات وهو ابن سبعين، ودفن بالمدينة. **راجع**: طبقات ابن سعد (٣/١٦١)، والإصابة (٦/١٣٣)، وأسد الغابة (٤/٤٠٩)، والاستيعاب (٤/١٤٨٠).

(٢) الطبري (٢/٥٩٣ - ٥٠٤)، وابن الأثير (٢/١٥٨)، وفي الطبري: تفاصيل أسماء قادة الكراديس أيضًا.

(٣) الأشقر: اسم فرس خالد. الوجي: أن يشتكي الفرس من باطن حافره؛ يريد بذلك: أنهم لو زادوا إلى ضعفهم لما اكترثتُ بهم اكتراثي بشكوى الأشقر من حافره!!

(٤) الطبري (٢/٥٩٤)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

وأمر خالد مجنبتي القلب ـ وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل المخزومي والقعقاع بن عمرو التميمي ـ أن ينشبا القتال.

وَجَنْدَلَ قيس بن هبيرة بن مشكوح بَطْرِيقًا من بطارقتهم؛ فصاح خالد: «مَا بَعْدَ ما ترون إلا الفتح، احمل عليهم يا قيس، احملوا عليهم؛ فوالله لا يفلحون وأوَّلُهم فارسٌ متعفِّرٌ في التراب»؛ فحمل المسلمون عليهم، وعلى خيولهم التي تقدَّمتْ أمام صفوفهم؛ كأنها أعراض الجبال، وانكشفتْ خيولُ الروم حتى لحقت بالصفوف، وعاد خالد وقد أدرك ما في نفوس الروم من خوفٍ، فقال للمسلمين: «قد رجعنا عنهم ولنا الظفر وعليهم الدبرة، فاثبتوا لهم ساعةً، فإن أقدموا علينا قاتلناهم»، وبعث الروم رجلًا من خيارهم وعظمائهم اسمه «**جرجة**»، فوالله ما إن سمع كلام المسلمين حتى أسلم، وكان له نجدة ونكاية في المشركين.

❑ **«يا خالد، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا فأعطاكه؟!»:**

كلمات عطرة تحفر من نور في التاريخ قالها «**جرجة**» عند إسلامه لخالد: «يا خالد، اصدُقني ولا تكذبني؛ فإن الحُرَّ لا يكذب، ولا تُخادعني؛ فإن الكريم لا يُخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تَسُلَّهُ على قومٍ إلَّا هزمتهم؟!». قال: «**لا**». قال: «**فَبِمَ سُمِّيتَ سيف الله المسلول؟**»؛ فقال له خالد فيما قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ بعث فينا نبيه ﷺ؛ فدعانا فنفرنا عنه، ونأينا منه جميعًا، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذَّبه، فكنت فيمن كذَّبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا؛ فهدانا به؛ فتابعناه؛ فقال: «**أنت سيف من سيوف الله سلَّه على المشركين**» ودعا لي بالنصر؛ فسُمِّيتُ سيف الله بذلك، فأنا من أشدِّ المسلمين على المشركين». قال: «**صدقتني**»[1]. ثم أسلم «**جرجة**»، وخرج «**باهان**» في جيشه وعلى ميسرته «**الدرنجار**»، وزحف الروم إلى

(١) الطبري (٣/٣٩٨)، وتهذيب ابن عساكر (١/٥٤٧)، وابن الأثير (٢/١٥٨).

المسلمين مثل الليل والسيل يدفُّون دفيفًا، قد رفعوا الصُّلبان؛ فقال رجل: ما أَكْثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين!![1]. فقال خالد: «ما أقلَّ الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثُر الجنود بالنصر وتقلُّ بالخذلان لا بعدد الرجال. أَبِالرُّومِ تُخَوِّفُنِي!! واللَّه لوددتُ أن الأشقر براء من تَوَجِّيهِ[2]، وأنهم ـ يَعْنِي الرُّومَ ـ أضعفوا في العدد».

وجاء خالد إلى أبي عبيدة فقال له: «إن هؤلاء قد أقبلوا بِعَدَدٍ وَجِدٍّ وَحَدٍّ وَزَجَلٍ، وإن لهم شدة لا يردُّها شيء، وليست خيلي بالكثيرة، ولا واللَّه لا قامت خيلي لشدَّة خيلهم ورجالهم أبدًا، قد رأيت أن أُفرِّق خيلي؛ فأكون في إحدى الخيلينْ وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة، فإذا حملوا على الناس؛ فإن ثبت المسلمون، فاللَّه ثَبَّتَهُمْ وَثَبَّتَ أقدامهم، وإن كانت الأُخرى، حَمَلْنَا عليهم بخيولنا وهي جَامَّةٌ على ميمنتهم وميسرتهم، وقد انتهت شدَّة خيلهم وقوتها، وتفرَّقتْ جماعتُهم، ونقضوا صفوفهم، وصاروا نشرًا، ثم نحمل عليهم وهم على تلك الحال، فأرجو عندها أن يُظفرنا اللَّه بهم، ويجعل دائرة السوء عليهم، وقد رأيتُ لك أن توقف سعيد بن زيد موقفك هذا، وتقف أنت من ورائه بحذائه في جماعة حسنة، في مئتين أو ثلاث مئة، فتكونوا رِدْءًا للمسلمين»، وَقَبِلَ منه أبو عبيدة، وقال له: «**افعل ما أراك الله، وأنا فاعلٌ ما أردتَ**».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ خالدٍ، في معاركه الحاسمة دائمًا ينتظر لحظة حدوث الخَلَلِ في صفوف عدوه؛ فيهجم.

عندما اشتد هجوم الروم، نادى خالد: «يا أهل الإِسلام، لم يَبْقَ عند القوم من الجَلَدِ والقتال والقوة إلَّا ما قد رأيتم، فالشدَّة الشدَّة، فوالذي نفسي بيده ليعطينكم اللَّه الظفر عليهم الساعة، إني لأرجو أن يمنحكم اللَّه أكتافهم».

كان خالد في نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن، في حين كان

(١) الطبري (٣/٣٩٧)، وابن عساكر (١/٥٥٠).
(٢) الأشقر: هو فرس خالد. والتَوَجِّي: أن يشتكي الفرس بطن حافره.

قيس بن هبيرة المرادي في نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر، وفي اللحظة الحاسمة التي تضعضعتْ فيها صفوفُ الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم حتى تصافحوا بالسيوف، واعترض خالد الروم وإلى جنبه أكثر من مئة ألف، فحمل عليهم، وما هو إلا في نحو ألف فارسٍ، فما بلغتهم الحملة حتى فَضَّ اللَّه جمعهم ذلك؛ قال عبدالأعلى بن سراقة: «**وشددْنا على من يلينا من رجَالتهم فانكشفوا، وأتبعناهم نقتلهم كيف شئنا، ما يمتنعون من قِبَلَ ميمنتنا بميسرتهم**».

ذُهِلَ درنجار وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره، واكتسحت فرسانُ خالدٍ مشاةَ الروم، وقتلتْ منهم ستة آلاف «٦,٠٠٠» في رواية، أو عشرة آلاف «١٠,٠٠٠» في رواية أُخرى، وارتدَّ من استطاع منهم في حالةٍ من الذعر والفوضى، ما يمتنعون من القتل.

وقال الدرنجار لأصحابه: «**لفُّوني بالثياب، فليت أني لم أُقاتل هؤلاء القوم اليوم**»؛ فلفُّوه في الثياب وهو يقول: «**لوددتُ أن اللَّه عافاني من حرب هؤلاء، ولم أرهم ولم يروني، ولم أُنْصَرْ عليهم ولم يُنصروا عليَّ، وهذا يوم سوء**». وبقي ملفوفًا في ثيابه حتى قُتِلَ، وزحف المسلمون إلى الروم رويدًا رويدًا، حتى إذا دنوا منهم إذا هم ينتفضون من الرعب، وكان صوت أبي سفيان يكاد يَمْلأُ المعسكر: «يا نصر اللَّه اقترب، الثبات يا معشر المسلمين»، وتراجع الروم، ودفعهم خالد إلى «**الواقوصة**»[1]، والواقوصة أحد حدوده لِهْبٌ[2] لَاجٍ في الأرض، حتى هوى فيها المقترنون بالسلاسل وغيرهم؛ فتهافت في «**الواقوصة**» مئة وعشرون ألفًا «١٢٠,٠٠٠» منهم ثمانون ألفًا «٨٠,٠٠٠» مقترنون بالسلاسل، وأربعون ألفًا «٤٠,٠٠٠» مطلقون، سوى من قُتِلَ بالمعركة من الخيل والرجال، وسُمِّيتْ تلك الأهوية التي سقطوا فيها في اليوم الضباب «**الواقوصة**»؛ لأنهم وُقِصُوا فيها، وأصبح

---

(١) نهر الرقاد جهة التقائه باليرموك.

(٢) أي: هامة.

خالد من تلك الليلة وهو في رواق قائد الروم، وَقُتِلَ صناديد الروم ورؤساؤهم، وقُتل أَخٌ لهرقل اسمه «**تيودورس**»، فلما أصبح خالد، خرج في الخيل يتعقَّب الفلول الهاربة، ويقتلهم في كل وادٍ، وفي كل شِعْبٍ، وفي كل جبلٍ، وفي كل ناحية، في مطاردة عميقةٍ حتى انتهى إلى دمشق، ثم انطلق في آثار الروم، ومضى يتعقب أكثرهم حتى أدركهم بثنيَّة العقاب، وصعد خالد والمسلمون الثنية راكبين حتى هبطوا نحو الشرق، وأشاعوا النِّكاية في الروم الفارِّين في سائر البلاد، فعاد يقتلهم في القرى والأودية والجبال والشعاب والسهول، وفي كل وجهٍ حتى انتهى إلى حمص.

وانتهت قصة الروم في أرض الشام؛ أَتَوْا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد، وقاتلوا المسلمين قتالًا شديدًا، ما قُوتِلَ المسلمون مثله في موطنٍ قطُّ، ورزق اللَّه المسلمين الصبر، وأنزل عليهم النصر؛ فقتلهم اللَّه في كل قريةٍ وشِعْبٍ ووادٍ وجبلٍ وسهلٍ.

❑ عزل خالد:

ذهب اللواء محمود شيت خطاب إلى أنه بعد التحام الطرفين في القتال قَدِمَ صاحبُ البريد من المدينة والْتَحَمَ الطرفان، وإنهم على ذلك، إذ قَدِمَ صاحبُ البريد من المدينة؛ فأخذته الخيول وسألوه الخبر، فلم يخبرهم عن شيء ذي بال، وأخبرهم عن قرب وصول الإمدادات إليهم، وكان قد جاء بموت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتأمير أبي عبيدة، وعزل خالد[(١)]، فَأَبْلَغُوهُ خالدًا، فأخبره خبر أبي بكر وَأَسَرَّهُ إليه، وأخبره بالذي أخبر به الجند، فقال له: «**أحسنت!!**»، وأخذ كتاب عزله وتأمير أبي عبيدة وجعله في كنانته؛ إذ خاف إن هو أظهره[(٢)] أن يُؤَثِّرَ إظهاره في معنويات

---

(١) عزلُ خالدٍ وتأميرُ أبي عبيدة مكانه دليلٌ قاطعٌ على أن خالدًا كان قائدًا عامًّا، وإلا فلا معنى لعزله وتأمير أبي عبيدة الذي كان قائدًا بالفعل على قسم من جيش المسلمين لا قائدًا عامًّا. **راجع**: الطبري (٢/٥٩٥).

(٢) الطبري (٢/٥٩٥)، وابن الأثير (٢/٨٥).

الجند تأثيرًا سيئًا وهم في أحرج مواقف القتال.

رهبان الليل وفرسان النهار

هزم اللَّه الروم مع الليل [١]؛ فأصبح خالد من تلك الليلة وهو في رواق «**تذراق**» قائد الروم [٢].

انتهت معركة «**اليرموك**» الحاسمة التي فتحت أبواب أرض الشام للمسلمين بانتصار المسلمين «**رهبان الليل فرسان النهار**» على الروم، وطاردوهم حتى أبواب دمشق.

نعم.. انتصار المسلمين رهبان الليل وفرسان النهار.

فعند الطبري (٢/٦١٠): أن قائد الروم بعث رجلًا من قضاعة فقال: «ادخل في هؤلاء؛ فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم»، فدخل في الناس، ثم أتاه، فقال له: «**ما وراءك؟**» فقال: «بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سَرَقَ ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجم؛ لإقامة الحد فيهم!!» فقال القائد الرومي: «لَئِنْ كنت صدقتني، لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من لقاء هؤلاء على ظهرها».

❑ فتح دمشق: خالد لا ينام ولا يُنِيمُ:

كان خالد على المقدمة حين حاصر أبو عبيدة بن الجراح بجيشه دمشق من جميع جهاتها أربعة أشهر، واستولى المسلمون على غوطة دمشق وما حَوَتْ عنْوَةً.

نزل أبو عبيدة على باب «**الجابية**» غربي المدينة، ونزل يزيد على الباب الصغير إلى باب «**كيسان**»، أمَّا شمالي السور فقد نزل عمرو بن العاص على باب «**توما**»، ونزل شرحبيل على باب «**الفراديس**»، ونزل خالد على الباب الشرقي، وكان الباب الشرقي وباب الجابية هما أكبرُ وأهمُّ هذه الأبواب جميعًا، وَطَالَ الحصارُ على أهل

---

(١) الطبري (٢/٥٩٥).

(٢) الطبري (٢/٥٩٧).

دمشق، وازداد التوتر بينهم؛ فبعث بطريق الروم رَجُلَيْنِ يندسَّان بين المسلمين؛ ليتجسسا على جنودهم وأمرائهم، ويريا أحوالهم، وكان رجلان من غسَّان دَخَلَا دمشق يتسوَّقان منها قبل حصارها، فبعث إليهما البطريق، فأمر أحدهما بالذهاب إلى معسكر المسلمين؛ ليأتيه بخبرهم ثم رجع، وقيل: كانوا عيونًا فسألهم عمَّا رَأَوْا؛ فقالوا: أمَّا الليل فطولُ قيامٍ، وأمَّا النهار فالخير الظَّاهِر والحرص على الجهاد، وإن وَجَدَ أحدهم نعلًا أو كبَّةَ شعرٍ أو غزلًا، دَفَعَهَا إلى صاحب المقسم، فإذا قال صاحب المقسم: ما هذا؟ قالوا: لا نستحلُّه إلَّا بحِلِّه. فلمَّا سمع بطريق الروم ذلك، قال: ما لنا بهؤلاء طاقةٌ، ولا لنا في قتالهم خيرٌ.

كان أبو عبيدة أحَبَّ إلى الروم من خالد، وكان خالدٌ أَفَظَّهُمَا وأغْلَظَهُمَا عليهم، وكان أبو عبيدة أَلْيَنَهُمَا وأقْرَبَهُمَا استماعًا إليهم؛ فكان أحبَّ إليهم أن يكون كتاب صُلحهم مع أبي عبيدة.

حَصَرَ المسلمون دمشق أربعة أشهر حصارًا شديدًا، وأهلها معتصمون بأسوارها، يرجون الغياث، وهرقل بحمص، وَوُلِدَ لبطريق الروم «**نسطاس بن نسطورس**» مولودٌ؛ فاحتفل بذلك، وأوْلَمَ وليمةً لحامية المدينة، فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم من الحراسة والدفاع، ولا يشعر بذلك أحدٌ من المسلمين، إلَّا ما كان من خالد؛ فإنه كان لا يغمض له جفن، «ولا ينام ولا يُنيم، ولا يبيت إلَّا على تَعْبِيَةٍ، ولا يخفى عليه من أمر عدوِّه شيءٌ، عيونه ذكيَّة، وهو مَعْنِيٌّ بمن يليهم»(١)، وعيونه تأتيه بما وراء الأسوار، والأبوابُ مغلقةٌ.

وكان خالد قد أعدَّ سلالم من الحبال تنتهي بأوهاق - وهي الحبال في أطرافها أنشوطة(٢) - فلمَّا أمسى من ذلك اليوم (الأحد، الخامس عشر من شهر رجب ١٤هـ)، وكان يومًا مناسبًا لذلك الاحتفال، أعلن خالد الاستعداد في جيشه الذي

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٦٢٦).
(٢) حلقة.

جاء به من العراق، واقترب بهم من السور، ثم تقدم هو، والقعقاع بن عمرو، ومذعور بن عدي العجلي، وأمثالهم من أبطاله الأشدَّاء، وكانت تعليماته لسائر قوَّاته: «إذا سمعتم تكبيرنا فَارْقَوْا[1] إلينا، وانهدوا للباب». وكان خالد قد أعدَّ أيضًا القِرَبَ المنفوخة بالهواء، حملوها على ظهورهم، وعبروا بها خندقهم سباحةً، وقذفوا بأوهاق الحبال، حتى اشتبك منها وهقان بأعلى السور وثبتا فيه، فتسلَّق عليهما القعقاع ومذعور، ومعهما باقي السلالم الحبال، فأثبتاها جميعًا بأعلى السور، كان هذا المكان الذي اقتحموا منه أحْصَنَ موقع بدمشق كلها؛ أكثره ماءً، وأعْرَضه خندقًا، وأشده مدخلًا، فلم يبق من قوَّته كلها أحد إلا تسلَّق السلالم أو اقترب من الباب، حتى إذا استقرُّوا بأعلى السور، حَدَرَ أكثرهم داخله، وانحدر معهم خالد، وترك من جنده من يحمي ذلك المعبر، هذا وحامية دمشق في سُكْرِهَا، مشغولة بالطعام والشراب والاحتفال بالمولود، لا يشعرون بشيءٍ، وأمر خالد مَنْ على السور بالتكبير فكبَّرُوا، وانقضَّ مَنْ كان ما زال خارجًا على الباب، وتكاثر المسلمون على سلالم الحبال، يتسلقونها من الخارج، ويهبطون إلى الداخل، وهاجم خالد بسرعة أوَّلَ قوة وجدها ففرغ منها، وانصبَّ إلى الباب فقتل حُرَّاسه - وكانوا رجلًا أو رجلينْ - وثار أهل المدينة، وفزع الناس، وتسارع كلٌّ منهم إلى مواقفه، ولا يدرون ما الشأن؟! وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم، واستغلَّ خالدٌ أثر المفاجأة، فقطعَ ومَنْ معه أغلاقَ الباب الشرقي بالسيوف وفتحوه، فتدفَّقتْ قوَّاته من خلاله، ودارت معركة دمشق داخل دمشق تجاه ذلك الباب، وكان القتال شديدًا مستميتًا يدور في الشوارع، ومع ذلك لم تبقَ من الروم قوَّة في ذلك القطاع، إلَّا فرغ منها خالد، وذلك مع طلوع الشمس، وبلغ خبر اقتحام خالد الباب الشرقي إلى حاميات سائر الأبواب، واتَّخذ الروم قرارهم فورًا بالصُّلح مع قُوَّاد المسلمين، وفوجئ هؤلاء القُوَّاد بحامية دمشق تفتح أبوابها ويقبلون شروطهم،

---

(١) أي: اصعدوا.

في حين كان خالد يدخل غازيًا، يُعْمِلُ السيف في جنود الروم، وهم يُدافعون ما أمكنهم حتى يدخل الآخرون صلحًا، فينقذ الصلح الموقف، ويحفظ عليهم حياتهم وحريتهم. وصارت دمشق صلحًا كلها، وفُتحت أبواب المدينة، والتقى خالد بأبي عبيدة عند سوق الزيت بعد أن اقتحم المدينة عنْوَة، واستولى على ألف متر طُولًا منها بالقتال، في حين دخلها أبو عبيدة من غربيِّها، وتقدَّمتْ جنوده صُلحًا مسافة (٥٠٠ ـ ٥٦٠) مترًا، بالإضافة إلى المسافة بين معسكرهم وباب الجابية.

فللَّه دَرُّ خالدٍ من بطل.. لا ينام ولا يُنيم.. ولله دَرُّه من فارسٍ يُسابق جنده في تسلُّق الأسوار.. ولله دَرُّه ودرُّ تكبيره الذي يُزلزل الروم ويُرعبهم.

❏ مرج الصفر:

أرسل هرقل خمسة آلاف يقودهم درنجار[1]، كانوا من أهل القوَّة والشدَّة؛ ليُغيث حامية دمشق، وانضمَّ إليهم عدد كبير من حامية حمص؛ فهم جميعًا أكثر من عشرة آلاف اجتمعوا في «**مرج الصفر**» جنوب دمشق، وصفَّ خالدٌ جيشه؛ فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى الفرسان سعيد بن زيد، وعلى المشاة أبا عبيدة، ثم سار خالد فوقف في أوَّل الصف، يريد أن يُحرِّض المسلمين ويُحمِّسهم، ونظر إلى الصَّفِّ من أوَّله إلى آخره، فبادره الروم بالهجوم، وكان سعيد بن زيد واقفًا في جماعةٍ من فرسانه في الميمنة يَدعُون الله، وهو يخطب فيهم ويقُصُّ عليهم، فَحَمَلَتِ الروم تجاهه بثقلهم، فصمد لهم سعيدٌ، ونازلهم في فرسانه، وتحرَّكتْ صفوف المسلمين، فاقتتلوا قتالًا شديدًا على شاطئ نهرٍ عليه طاحونة، حتى جرت الدماء في ماء النهر وطحنت بها الطاحونة.

وانهزم الروم وأصاب المسلمون عسكرهم، وقتلوا منهم كثيرًا، وتبددت فلولهم

---

(١) رتبة لقائد، وليست اسم شخص.

شراذم؛ فمنهم من دخل دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بهرقل، ومنهم من فَرَّ إلى بيت القدس، وقُتِلَ من الروم خمس مئة في المعركة، ووقع في أسر المسلمين نحو من خمس مئة آخرين.

❑ خالد في معركة فِحْل[1] بيسان[2] حديثٌ ومَثَلٌ لِمَنْ حضره:

سار أبو عبيدة إلى «**فِحْل**» وعلى مقدمته خالد، وعلى الناس شرحبيل بن حسنة، وكان أهل «**فِحْل**» قد قصدوا «**بيسان**»، وفجَّروا مياه المنطقة؛ فأصبحت مغمورة بالمياه موحلة، وبعد حصار دام طويلًا هجموا على المسلمين، كانت هذه المعركة من المعارك المهمَّة ضِمْن فتح الشام، وكانت قوات الروم ثمانين ألفًا، هم جُنَّة الروم وجيش الدفاع، وإليهم ينظرون، والشام بعدهم سلم، وكان القائد «سَقِلَّار بن مخراق» أو «سكلاريوس»، وكانت القيادة العامَّة لأبي عبيدة؛ فجعل على ميمنته معاذ بن جبل، وعلى ميسرته هاشم بن عتبة، وعلى الْمُشاة سعيد بن زيد بن عمرو، وعلى الخيل القائِدَ المبارك خالد بن الوليد، تقدَّم خالد بالخيل؛ فأخرج إليه الروم فرسانًا كثيرة، وكان قيس بن هبيرة من أشدِّ الناس نكايةً وَبَأْسًا في العدو ومباشرة لهم، فقال له خالد أن يخرج إليهم، فحمل عليهم مرارًا وحملوا عليه؛ فقاتلهم قتالًا شديدًا، ثم خرجت خيل أُخرى عظيمة للروم، فقال خالد: اخرج إليهم يا ميسرة بن مسروق. فخرج ميسرة فقاتلهم قتالًا شديدًا، وحمل عليهم وحملوا عليه، ثم خرجتْ إليهم جموعٌ أخرى من فرسان الروم أعظم من الجمعين السابقين، يقودهم بطْرِيقٌ عظيم من عظماء بطارقتهم؛ فقسَّم فرسانه قسمين، وأمر أحد القسمين فحملوا على خالدٍ وأصحابه، فصمد لهم خالد ولم يتزحزح، ثم أمر البطريقُ الثاني، فحملوا أيضًا على خالدٍ، فصمد لهم، فلمَّا رأى الروم أن هجومهم لم يُثمر شيئًا، تراجعوا وانصرفوا، فقال خالد لفرسانه: «إنه لم يبق من جدِّ القوم ولا

---

(١) فحل: اسم موضع بالشام من ناحية الأردن.

(٢) بيسان: مدينة في غرب الأردن.

حدِّهم ولا قوتهم إلَّا ما قد رأيتم، فاحملوا معي بأهل الإسلام حملةً واحدةً واتَّبعوهم ولا تغفلوا عنهم، رحمكم الله»[١] . وحمل خالد بمن معه؛ فاكتسح مَنْ أمامه منهم، ثم حمل قيس بن هبيرة على الذين أمامه منهم؛ فكشفهم، وحمل مسروق على الذين أمامه من فرسانهم؛ فهزمهم، واتَّبعهم المسلمون يقتلون منهم، ويقصفون بعضهم على بعض، وقد اختلَّ نظامهم حتى اضطرُّوهم إلى الانسحاب إلى عسكرهم وجماعتهم، وعادت فرسان المسلمين يومئذٍ ولها الظفر.

وفي اليوم التالي قاتل خالد يومئذٍ قتالًا شديدًا ما قاتل مثله أحدٌ من المسلمين؛ فكان حديثًا ومثلًا لمن حضره، كان يستعرض صفوفهم وجماعتهم، فيحمل عليهم حتى يُخالطهم، ثم يُجالدهم حتى يُفرِّقهم، ويهزمهم، ويُكثر القتل فيهم؛ قَتَلَ في ذلك اليوم أحد عشر رجلًا من بطارقة الروم، وأشدَّائهم، وأهل الشجاعة منهم، وكان يقول:

أضْـرِبـهُـمْ بـصـارِمٍ مُـهَـنَّـدِ ضَرْبَ صَلِيبِ الدِّينِ هادٍ مُهْتَدِ
لا وَاهِـنِ الـقَـولِ ولا مُـفَـنَّـدِ

وكان القتال في تلك المعركة أشدَّ قتالٍ اقتتلوه قطُّ، وقد طوى المسلمون جناحَيْ جيش الروم، ثم انفردوا بعدهما بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل، وانهزم الروم وهم حيارى، وقد قُتِلَ في هذه المعركة قائدهم «**سقلار**» والذي يليه «**نسطورس**»، وظفر المسلمون أحسن ظفر وأهْنَأَهُ، وذهب البلاذري إلى أن قتلى الروم كانوا زُهَاءَ عشرة آلاف.

❑ قَتْلُ خَالِدٍ لِلْبِطْرِيقِ الرُّومي توذرا:

بعث هرقل بطريقًا يُدعى «**توذرا**» حتى نزل بمرج دمشق وغربها، وكان خالد تجاهه، وباتوا ليلتهم، فلمَّا أصبحوا وجدوا الأرض بلاقع[٢] من «**توذرا**»، وعلم

(١) تاريخ فتوح الشام، لمحمد بن عبدالله الأزدي ص (٩٦).
(٢) بلاقع: خاوية.

خالد أنه قد رحل نحو دمشق، فتبعه خالد من ليلته في قوةٍ سريعة من الفرسان. وكان يزيد بن أبي سفيان مرابطًا حول دمشق، فبلغه مسير «**توذرا**» إليه، فاستقبله؛ فاقتتلوا، ولحق بهم خالد وهم يقتتلون، فأخذهم مِن خلفهم؛ بين قوَّاته وقوات يزيد، وقُتِلَ الروم من بين أيديهم ومن خلفهم، وقتل خالدٌ «**توذرا**»، فلم يُفلت منهم إلا الشريد، ولم يَنْجُ منهم إلا القليل[١]، واستولى المسلمون على دوابِّهم وركائبهم وأدواتهم وثيابهم، وعاد خالد إلى أبي عبيدة وهو يقول:

نحنُ قتلْنا تَوْذرًا وشَوْذَرا ... وقَبْلهما قد قتلْنا حَيْدَرَا

نحن أزرْنا الغيضةَ الأُكيدرَا

❑ في حمص[٢] والبقاع[٣]:

قصد أبو عبيدة «**حمص**»، وأرسل خالدًا إلى «**البقاع**»، فسار إليها خالد وافتتحها، وسار أبو عبيدة حتى نزل «**حمص**»، وجاء بعده خالد فنزل عليها، وحاصرها المسلمون، وشددوا عليها الحصار، فلما ذهب الشتاء، طلب أهل «**حمص**» الصلح؛ فصالحهم المسلمون[٤].

❑ في قنسرين[٥]

قِنَّسْرِين وكلمات خالدٍ الخالدة: «**لو كنتم في السحاب لحَمَلَنا اللَّه إليكم أو**

---

(١) الطبري (٣/٩٦)، وابن الأثير (٢/١٨٩، ١٩٠).

(٢) حمص: بلد مشهور قديم كبير مسور، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. **راجع**: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٣٩). وهي مدينة في مُشْتوٍ، خصبة جدًّا، من أصح بلدان الشام تربة، في أهلها جمال مفرط.
راجع المسالك والممالك، للأصطخري ص (٤٦).

(٣) البقاع: جمع بقعة؛ موضع يقال له: بقاع حلب. قريب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة.

(٤) الطبري (٣/٩٦ - ٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩٠، ١٩١)، والبلاذري ص (١٣٦).

(٥) قنسرين: بلد في أرض الشام، جنوب حلب.

أنزلكم إلينا»:

بعث أبو عبيدة رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى قِنَّسْرِين - وكانت على الطريق بين حلب وأنطاكية -، فلمَّا نزل خالد بالحاضر[١] قاتلوه، وزحف إليه الروم بقيادة «**ميناس**» وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل؛ فَقُتِلَ ميناس، ومات الروم على دمه حتى أُبيدوا جميعًا، لم يبق منهم أحد، أما أهل «**الحاضر**» فأرسلوا إلى خالد: إنهم عرب، وإنهم حُشروا كرهًا، ولم يكن من رأيهم حربه. فقبل منهم وتركهم.

ولجأ العرب من تنوخ إلى حصنهم، فتحصَّنوا منه، فقال لهم خالد: «**لو كنتم في السحاب، لحَمَلَنَا اللهُ إليكم، أو لأَنْزَلَكُم إلينا**»؛ فنظروا في أمرهم، وذكروا ما لقي أهل حمص، فطلبوا صُلْحًا؛ مثل صلح حمص.

يقول البلاذري: إن أبا عبيدة صالحهم على مثل صلح حمص.

وتقول رواية سيف: إن خالد بن الوليد أبى إلَّا أن يُخَرِّب المدينة، فأخْرَبَهَا[٢].

وبلغ عمر ما فعل خالد بِقنَّسْرِين فقال قولته العظيمة: «**أمَّر خالدٌ نَفْسَهُ، يرحم اللَّه أبا بكرٍ، هو كان أعلم بالرجال مني، إني لم أعزله عن ريبة، ولكنَّ الناس عظَّموه، فخشيتُ أن يوكَّلوا إليه**»[٣].

وكان «**هرقل**» قد غادر «**حمص**» إلى «**الرهاء**»[٤]، فلما أباد خالد الروم بـ«**الحاضر**» وأخرب «**قنسرين**»، يئس هرقل من بقاء الشام تحت حكمه، فودَّع سورية بقوله: «**عليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي إلا خائفًا**»[٥].

---

(١) الحاضر: خلاف البادي، وهو قرب حلب.
(٢) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١).
(٣) الطبري (٣/٩٨)، وابن الأثير (٢/١٩١).
(٤) الرهاء: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام.
(٥) ابن الأثير (٢/١٩١).

❏ في مرعش[1]

بعد فتح «**قنسرين**» وجه أبو عبيدة وهو بـ «**منبج**»[2] خالدًا إلى «**مرعش**»؛ ففتحها، وأجلى أهلها، وأخربها؛ مما يدل على أن أهلها قاوموه فقهرهم بالقتال كما أنه فتح حصن «**الحدَث**»[3].

❏ خالد المطيع لقائده:

كان خالد مضيافًا كريمًا، قصده الأشعث بن قيس؛ فأجازه بعشرة آلاف، فسمع بذلك عمر؛ فكتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد، فجمع أبو عبيدة الناس، وجلس لهم على المنبر، فقام صاحب البريد، فسأل خالدًا: من أين أجاز الأشعث. فلم يُجبه وأبو عبيدة ساكتٌ لا يقول شيئًا؛ فقام بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ فقال: «**إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا**»، ونزع عمامته، فلم يمنعه خالد سمعًا وطاعةً، ووضع قلنسوته، ثم أقامه فَعَقَلَهُ بعمامته، وقال: «**من أين أجزتَ الأشعث؟ من مالك أجزتَ أم من إصابةٍ أصبتَهَا؟**» فقال: «**بل من مالي**»؛ فأطلقه، وأعاد قلنسوته، ثم عمَّمَهُ بيده، وقال: «**نسمع ونُطيع لولاتنا، ونُفخِّم ونخدم موالينا**[4]»، ولمَّا قاسمه أبو عبيدة بأمر عمر بن الخطاب أمواله، قال خالد: «**ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين**»[5].

ولله دَرُّه حين عُزِلَ وهو في المعركة، وفي أوج انتصاره فما ترك العزلُ في نَفْسِهِ أثرًا، لا فَرْقَ عنده أن يكون قائدًا عامًّا، أو قائدًا مرءوسًا، أو رجلًا من المسلمين،

---

(١) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور.

(٢) منبج: بلد قديم، كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة، في فضاء من الأرض، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ.

(٣) الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش، من الثغور يقال لها: الحمراء. وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب. **انظر** - عن فتح مرعش وحصن الحدث -: تاريخ أبي الفدا (١/١٦٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/٢٢)، والإصابة (١/٥٠)، وأُسْد الغابة (١/٩٧).

(٥) الطبري (٢/٦٢٥).

هذه واللَّه العظمة الإِنسانية في أبهى مشاهدها، خالد يستلُّ النصر من بين أنياب الروم، وهو ترياق وساوس التَّجبُّر والصَّلَف والبغي عند الروم، وسيف اللَّه المسلول على قوى التَّعَفُّن والشرك يُفاجأ بالإقالة!! لقد كان مسلكًا بالغ الرَّوعة والعظمة والجلال.

يقول الأستاذ خالد محمد خالد في «رجال حول الرسول» «٣٢٥»: «ولا أعرف في حياة خالدٍ كلها موقفًا يُنبئ بإخلاصه العميق وصدِقه الوثيق مثل هذا الموقف».

❑ خالد القائد:

لقد رفع خالد معنويَّات المسلمين، وسَحَقَ معنويات الروم وقَبْلَهم الفرس، لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذروة؛ فكان خالد قائد القادة، ومطمح الأنظار، ومعقد الآمال، سواء كان قائدًا عامًّا أو جنديًّا بسيطًا.

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدِّه وجهاده.. المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرُّتَب وفوق الأهواء والنَّزعات.. لقد أصبح أُمَّةً في رجلٍ؛ لأنه أصبح يحمل مجد أُمة وبطولة جيلٍ.. لقد أصبح لا يمثل نَفْسَهُ فحسْب، بل يمثل مجدًا وفكرة، مجد عبقرية العرب في القيادة، وفكرة الفتح الإسلامي، وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ.

❑ وقفات مع الفارس المبارك خالد بن الوليد رضي الله عنه:

عن عبدالحميد بن جعفر، عن أبيه: أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةً له يوم «**اليرموك**»؛ فقال: اطلبوها. فلم يجدوها، ثم وُجِدَتْ، فإذا هي قلنسوة خَلقَة، فقال خالد: اعتمر رسول اللَّه ﷺ فحلق رأسه، فَابْتَدَرَ الناسُ شعرَهُ، فَسَبَقْتُهُمْ إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلَّا رُزِقْتُ النصرَ(١).

(١) أخرجه الحاكم، والطبراني، وأبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند صحيح.

وعن مولًى لآل خالد بن الوليد: أن خالدًا قال: ما من ليلةٍ يُهدى إليَّ فيها عروسٌ أنا لها مُحِبٌّ أحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سريةٍ أُصَبِّحُ فيها العدوَّ(١).

وفي رواية: ما من ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها مُحِبٌّ، أو أُبَشَّرُ فيها بغلامٍ أحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدة الجليد، في سريةٍ من المهاجرين، أُصَبِّحُ بهم العدوَّ، فعليكم بالجهاد.

وقال رضي الله عنه: ما أدري من أي يوميَّ أفِرُّ: يوم أراد اللَّه أن يهدي لي فيه شهادة، أو يوم أراد اللَّه أن يُهدي لي فيه كرامة.

وقال قيس بن أبي حازم: سمعت خالدًا يقول: منعني الجهاد كثيرًا من القراءة، ورأيتُه أُتيَ بِسُمٍّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: سم. قال: باسم الله. وشربه.

قال الحافظ الذهبي: هذه واللَّه الكرامة، وهذه الشجاعة(٢).

أنتَ خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القَوْ ... مِ إذا ما كُبَّتْ وجوهُ الرِّجالِ

لما حضرتْ خالدًا الوفاةُ، قال: لقد طلبتُ القتل مظانَّه، فلم يُقَدَّرِ لي إلَّا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرْجَى بعد التوحيد من ليلةٍ بِتُّهَا وأنا مُتَتَرِّس، والسماء تهلُّني، ننتظر الصبح حتى نُغِيرَ على الكفار.

ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عُدَّةً في سبيل الله، فلمَّا تُوفي، خرج عمر على جنازته فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يسفحن على خالدٍ من دموعهن، ما لم يكن نقعًا ولا لَقْلَقَةً(٣).

وفي رواية: وما عليهن أن يبكين أبا سليمان.

---

(١) أخرجه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) السير (١/٣٧٦).

(٣) ذكره الحافظ في «الإصابة»، ونسبه إلى ابن المبارك في «الجهاد»، وإسناده حسن. والنقع: التراب على الرءوس، واللَّقْلَقَةُ: الصراخ.

وقال عمر لخالد في حياته: يا خالد، والله إنك لكريم عليَّ، وإنك لحبيبٌ إليَّ.

وبعد موته قال عمر: «**قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق**».

وقال فيه أيضًا: «كان والله سدَّادًا لنحور العدو ميمون النقيبة»[١].

وعن أبي العجماء السلمي قال: قيل لعمر: لو عهدتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لو أدركتُ أبا عُبيدة ثم ولَّيْتُهُ ثم قدمتُ على ربي، فقال لي: لِمَ استخلفْتَهُ؟ لقلتُ: سمعتُ عبدك وخليلك يقول: «**لكل أُمَّةٍ أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة**». ولو أدركت خالدًا ثم وليته فقدمتُ على ربي، لقلتُ: سمعت عبدك وخليلك يقول: «**خالدٌ سيف من سيوف الله، سلَّه الله على المشركين**»[٢].

كلماتٌ عِذَابٌ رِطابٌ في الثَّناء على خالد من عمر وكَفَى.

«لقد خُلق خالد؛ ليكون قائدًا، فعاش قائدًا ومات قائدًا، فغاب جسده، ولكن بقي حيًّا في النفوس، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام، بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان»[٣].

أشجاعٌ أنت أشجعُ من لَيْـ ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ

أجَوَادٌ فأنت أجْوَدُ من سَيْـ ـلٍ غَامِرٍ يسيل بين الجبالِ

عن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احْتُضِرَ بكى، وقال: لقيتُ كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شِبْرٌ إلَّا وفيه ضربةٌ بسيف، أو رميةٌ بسهم، وَهَا أنا أموت حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أَعْيُنُ الجبناء.

إن رَوْح أبي سليمان وَرَيْحانه ليُوجَدان دائمًا وأبدًا، حيث تصهل الخيل،

---

(١) ابن عساكر ص (٧١٤).

(٢) رواه الشاشي في «مسنده»، ورجاله ثقات خلا أبا العجماء؛ فإنه مختلف فيه، وَثَّقَهُ ابن معين، والدارقطني، وابن حبان، وقال البخاري: في حديثه نظر.

(٣) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢٣١).

وتلتمع الأسِنَّة، وتخفق راياتُ التوحيد فوق الجيوش المسلمة.

لكأني بفرسك جاءتْ، لها صهيلٌ يصدح.. يقودُها عبيرُك وأرِيجُك، هذه التي وَقَفْتَهَا في سبيل الله.. لكأني بها تسفح من مآقيها دموعًا غزارًا وكبارًا.

«هل سيقدر فارسٌ أن يمتطي صهوتها بعد خالد؟! وهل ستُذَلِّل ظهرَها لأحدٍ سواه؟! إيه يا بطلَ كلِّ نَصْرٍ.. ويا فَجْرَ كلِّ لَيْلٍ.. لقد كنت تعلو بروح جيشك على أهوال الزَّحف بقولك لجندِك: «**عند الصباح يحمد القوم السُّرى**» حتى ذَهَبَتْ عنك مَثَلًا... وَهَا أنت ذا قد أتممتَ مسراك... فلصباحك الحمد، ولذكراك المجد، والعطر، والخلد، يا خالد»[١].

حِصانُك في اليرموك يشربُ دَمْعَهُ ... ويـا لـعـذابِ الخيـلِ إذْ تـتـذكَّـرُ
رفاقُكَ في الأنبارِ شدُّوا سُرُوجَهم ... لِفَقْءِ عيونِ الفُرسِ فالكُلُّ أعْوَرُ
ونـهـر الـدَّمِ يـبـكـيك لونُ دمائِهِ ... وَنَذْرًا له الأحنافُ صَلُّوا وَكَبَّرُوا
وقولٌ بِقِنَّسْرِين يشتاقُ ماجدًا ... إلى السُّحْب مرقانًا وللشِّرْكِ نَدْحَرُ
سَلُوا قبقلارَ الروم لِمْ لَفَّ وَجْهَهُ ... وحَـزَّ لـه الأحـنـافُ رأسًـا يُـنَـدَّرُ
مـقـالُـك لـلـرُّومـانِ عِـزٌّ وَرِفْـعَـةٌ ... وكم صيَّر العملاق «ماهان» أحقرُ
وإنا لِشُرْبِ الدَّمِ نشتاقُ دائمًا ... وَطَعْم دماءِ الرومِ أشهى وأعْطَرُ
تُـرَدِّدُهَـا الأجـيـالُ دومًـا لخالـدٍ ... لآلـئَ عـزٍّ سـوف تَـبْـقَـى وتُـزْهِـرُ

❑ خالد والبكرية

جاء الثناءُ على سيف اللَّه خالد في «**القصيدة البكرية**» للشيخ أحمد السكندري مُوَزَّعًا حسب المواقف.. ونورد هنا ما جاء في شأن أبي سليمان سيف اللَّه رضي الله عنه:

❑ قال في موقفه الرائع في حرب الردة:

وبثُّوا السرايا واحتوى النقع خالدا ... يخوضُ بصيداء[٢] البطاح الأعاديا

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٣٢).

(٢) الصيداء: الأرض الغليظة. والبطاح: هي التي كان يقيم بها فريق من أهل الردة.

مضى كدويّ الرعد بين أزيزهم ... بأصْلَتَ لا تلْقَى الطَّلَى منه واقيا

فما عَلِمُوا أي الحُسَامَيْنِ خالدٌ ... وأيهما كان الحسامَ اليمانيا

صدى عزمات طار من قبل خالدٍ ... يقولُ بأفواه الرياح حذاريا

فكادتْ رِثاثُ الخيلِ ترقى حلوقُها ... وتبلغ أرواحَ الرجالِ التراقيا

فيا هادم العزى ضربت فلم تذر ... بها سادنًا[1] إلا إلى اللّه جاثيا

طلعت على البلقاء والروم تحتمي ... فلم تر من صَفيك غيركَ حَاميا

كأن المواظي حَالفَتْهُم على الوغى ... وما خُلِقَتْ إلا عليهم مواضيا

إذا ثبتتْ منك العيونُ مهابةً ... تُحَرِّكُ منها بالرماحِ المآقيا

❑ وقال في يوم قنسرين:

فأحيا بقنسرين للفتح آيةً ... بها ذكر الفاروقُ ما كان ناسيا

وقال أبو بكر أشدُّ فراسةً ... وأعلم مني بالرجال خوافيا

❑ ويقول في اجتيازه البرية السماوية:

وهل علم اليرموك خطة خالد ... وما كان في أقصى الممالك ناويا

وديمومة[2] لا يقرب الضب قيظها ... ولم تسمعْ في الدهر للجن حاديا

رماها بصحراء السماوة خمسة[3] ... وأترع من جوف النياق سواقيا

إذا ظمئوا شقوا بطون جمالهم ... وبلوا نفوسًا فوقهن صواديا

وهل أغنت الأغلال[4] عن جيش هرمز ... وهل قدحت منه السلاسل واريا

وهل قُرنوا إلا لأن يُسْحَبُوا بها ... كما يَسْحَبُ الراعي القِلاصَ النواجِيا

---

(١) السادن: خادم بيت الصنم.

(٢) الديمومة: هي الأرض التي يدوم بعدها، وتطلق على المفازة والصحراء.

(٣) أي: خمسة أيام.

(٤) ذلك لأنه قَرَنَ جيشه بالسلاسل في «ذات السلاسل»؛ حتى لا يفرُّوا من وجه خالد.

❑ سيف اللّه القائد

«ما ليلة يُهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أوْ أُبَشَّرُ فيها بغلام أحبَّ إليَّ من ليلة شديدة الجليد، في سرية من المهاجرين، أُصَبِّحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

لقد نجح خالد في قيادة تحت راية الرسول وفي حياته، وكان أبرز قادة النبي ﷺ.

وفي حروب الردة قام خالد وحده بأوفر قسط من حروب الردة؛ فله في قتالهم الأثر العظيم؛ فقد قمع أخطر الفتن في الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها؛ قمع فتنة بني أسد وحلفائهم، وخطرُهُا أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة. وقمع فتنة بني حنيفة، وخطرُهُا أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة، فكان نصيب خالد من وقاية الإسلام في أرضه أوفى نصيبٍ.

❑ في العراق:

أقام خالد في العراق سنة وشهرين فقط من المحرم سنة اثنتي عشرة إلى صفر سنة ثلاث عشرة الهجرية، قاتل خلالها القوات الفارسية وحلفاءها خمس عشرة معركة، لم ينهزم ولم يخطئ ولم يخفق قط في واحدة منها؛ ذلك لأنه كان ينجز استحضارات القتال كافة قبل المعركة، ولا يسير بجيشه إلا على تعبية كاملة؛ ليقاتل عدوه حيث لقيه في شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة واستعداد.

لقد خرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من اتجاهين مختلفين؛ فسار خالد من نصر إلى نصر، ولبث عياض يدور في حلقة مفرغة عند أول موضع مُعَادٍ لَاقَى فيه مقاومة معادية، حتى أدركه خالد بالمعونة، فقضى على مقاومة العدو بسرعة خاطفة، وفتح «**دومة الجندل**»؛ وهذا دليل على أثر خالد الشخصي في فتح العراق.

وعلى الرغم من انحسار مَدِّ الفتح الإسلامي بعد خالد عن أكثر أرض العراق؛ إذ انسحب المثنى بن حارثة الشيباني تحت ضغط ضخامة تحشد القوات الفارسية

إلى «**ذي قار**»[١] ، تاركًا ما فَتَحَهُ المسلمون من أرض العراق[٢] ، إلا أن نتائج فتوح خالد والمثنى في العراق بقيت ظاهرة للعيان.

من تلك النتائج:

رفع معنويات الجيش الإسلامي، وثقته بأن في مقدوره التغلب على جيوش الفرس، وكانوا من قَبْلُ يعتقدون أن مجرد التفكير في مثل ذلك من المستحيلات.

وإذا كانت معنويات العرب والمسلمين قد ارتفعت، فإن معنويات عدوهم في العراق قد هوت إلي الحضيض؛ وبذلك أصبحت الأمة العربية الإسلامية المسلحة مهابة الجانب من الفرس وحلفائهم؛ فقد كان الفرس في السابق يعتقدون أن العرب لا يحسنون غير حرب الغارات وحرب العصابات، تحت عوامل اقتصادية بحتة، وأنهم سرعان ما يعودون إلى باديتهم بعد الحصول على شيء من الغنائم والأسلاب، ولكن الفرس بعد معارك المثنى وخالد تيقنوا أن العرب جاءوا فاتحين لا غزاة، وأنهم أصبحوا دولة عظمى في مصاف الدول العظمى في تلك الأيام.

هذه النتائج المعنوية أهم من النتائج المادية.

❑ أما نتائج فتوح خالد المادية:

فهي حصول المسلمين على خبرة عملية في التدريب على قتال القوات النظامية بأساليبَ متطوِّرةٍ وعدم بقائهم على أساليبهم البدوية القديمة في القتال، كما كان للغنائم الكثيرة التي غنمها الجيش الإسلامي أثرٌ في رفع مستوى المعيشة داخل الجزيرة العربية، وَيَسَّرَ المال لتدعيم الجيوش الإسلامية بالرجال والسلاح والعتاد.

إن معارك خالد والمثنى في العراق فتحت قلوب أهله على مصراعيها للفتح الإسلامي، بينما فتحت معركة «**القادسية**» الحاسمة أبواب العراق وقلوب أهله

---

(١) ذو قار: ماء لبكر بن وائل، قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر ابن وائل والفرس.

(٢) الطبري (٢/٦٥٩).

للفاتحين.

لقد كانت قيادة خالد في هذه الفترة قيادة عبقرية حقًّا، وما أصدق عمرو بن العاص عندما وصفها قائلًا عن خالد: «**له أناة القطاة ووثوب الأسد**»(١)، وقد كان لخالد وثوب الأسد من قبل، فجمع في أيام فتح العراق أناة القطاة ووثوب الأسد؛ وبذلك جمع مَزِيَّتَيْنِ من أبرز مزايا القيادة العبقرية.

- **في أرض الشام:**

إذا كانت معارك خالد في العراق قد فتحت قلوب أهله فقط، فقد فتحت معارك خالد في أرض الشام وعلى رأسها معركة «**اليرموك**» الحاسمة قلوبَ أهل الشام وأبواب أرض الشام للمسلمين الفاتحين.

ولعلَّ أثر خالد الشخصي في أرض الشام أكثر وضوحًا من أثره في العراق؛ إذ إنه وصل الشام في أعقاب نكسة جيش خالد بن سعيد، ومضايقة المسلمين في «**اليرموك**» بمدد الروم الزاخر(٢)، فلما وصل خالد من العراق إلى «**اليرموك**» من أرض الشام، فرح المسلمون بمقدمه(٣)، وتغلَّبُوا بقيادته على قوات الروم التي لها فواق على قواتهم فواقًا ساحقًا بالعدَد والعُدَد.

إن نتائج فتوح خالد في أرض الشام لا تزال باقية حتى اليوم، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ترك خالد في أرض الشام آثارًا مشابهة لما تركه في العراق:

رَفْعُ معنويات العرب المسلمين وسحقُ معنويات الروم، وتدريبُ جيوش المسلمين على فنون القتال ضد جيوش نظامية كثيفة، ورفعُ المستوى المعاشي للعرب المسلمين داخل الجزيرة العربية من جراء الغنائم التي حصلوا عليها، وتلك آثار كافية لتخليد عدد كبير من القادة، فكيف وهي من صنع رجل واحد هو خالد بن

---

(١) اليعقوبي (٢/١٠٨).
(٢) الطبري (٢/٥٥٢).
(٣) الطبري (٢/٥٩١).

الوليد؟!

لقد بلغت قيادة خالد في أرض الشام حدَّ الروعة والذروة؛ فكان خالد هناك بحق: قائد القادة، ومطمح الأنظار، ومعقد الآمال، سواء كان قائدًا عامًّا أو قائدًا مرءوسًا أو جنديًا بسيطًا أو قابعًا في داره بين عشيرته وأهله.

ذلك هو مقام الذروة الذي بلغه خالد بجدِّه وجهاه... المقام الذي أصبح فيه فوق المناصب والرتب وفوق الأهواء والنزعات... لقد أصبح أمة في رجل؛ لأنه أصبح يحمل مجد أمة وبطولة جيل!!

لقد أصبح لا يمثل نفسه فحسب، بل يمثل مجدًا وفكرة: مجد عبقرية العرب في القيادة، وفكرة الفتح الإسلامي؛ وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية في الحروب، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامي في التاريخ!!

❑ **مزاياه العسكرية:**

والله، لا نجد خيرًا من كلام أمه فيه يوم دفنه:

أنت خيرٌ من ألف ألفٍ من القو ... م إذا ما كَبَتْ وجوه الرجال

أَشْجَاعٌ...؟ فأنت أشجعُ من لَيْـ ... ـثٍ غَضَنْفَرٍ يذودُ عن أشبالِ

أَجْوَادٌ...؟ فأنت أجودُ من سيـ ... ـل غامرٍ يسيل بين الجبالِ

وسمعها عمر؛ فازداد قلبه خفقًا.. ودمعه دفقًا.. وقال: «**صدقتِ والله إن كان لكذلك**»[١].

قال الجنزال الألماني «**فون غولتز**» صاحب كتاب «**الأمة المسلحة**»: «خالد بن الوليد إنه أستاذي في فن الحرب»[٢].

وقال موللر: «**نابليون شبيهٌ بخالد بن الوليد، لم يأبه لشيء إلا للحرب، ولم يرغب أن يتعلم شيئًا سوى الحرب**»[٣]. وشتان ما بين الرجلين.

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٣١).

(٢)، (٣) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٠).

❑ عسكري ممتاز:

كان خالد يَهْوَى مهنة الجندية، ويفضلها على كل مهنة أخرى، وكان عسكريًّا بالفطرة من أخمص قدمه إلى قمة رَأسه، وما أصدقه حين وصف هواه بالجندية بقوله: «ما ليلةٌ يهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب أو أُبَشَّرُ فيها بغلام أحبَّ إلي من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أُصَبِّحُ بهم العدو، فعليكم بالجهاد»[1].

لقد نصَّ خالد بكلمته هذه على: «**سرية من المهاجرين**»؛ ذلك لأنهم كانوا أقدم المسلمين إسلامًا؛ فهم أرسخ المسلمين عقيدة وأشدُّهم ضبطًا وطاعةً؛ لذلك آثرهم خالد بالذِّكر على غيرهم؛ فهو يصف بقولته هذه هواه العميق بالجندية من ناحية، ورغبته الملحة في قيادة جنود ذوي عقيدة راسخة من ناحية أخرى؛ إذ إن القائد الممتاز بدون جنود ممتازين مضيعةٌ للجهود في أكثر الأحيان.

لقد كان خالد عسكريًّا ممتازًا بكل معنى الكلمة؛ وهب للعسكرية كل حياته وأعزَّ ما يملك من روح ومال وجهد ووقت؛ لذلك أصبح جنديًّا ممتازًا وقائدًا ممتازًا في وقت واحد؛ فحقق بطبعه الموهوب الذي فطره اللَّه عليه، وبعلمه المكتسب، وخبرته الطويلة في حياته معجزاتٍ عسكريةً، كانت ولا تزال وستبقى في أَوْجِ الأمثلة الرائعة الخالدة لِمَا يمكن أن يحققه أعاظم قادة التاريخ في كل زمان ومكان.

وقد يكرس العسكري كل حياته لخدمة واجبه العسكري بكل أمانة وإخلاص؛ فيحصل على معلومات ثمينة وخبرة طويلة، ولكنه لن يكون عسكريًّا ممتازًا إلا إذا خلق بطبيعته يَهْوَى الأعمال العسكرية ويندمج في متطلباتها كليًّا بشوق ولهفة.

لقد جمع خالد الطبعَ الموهوبَ والعلمَ المكتسبَ؛ فجمع بذلك كلَّ عوامل تكوين العسكري الممتاز؛ فما هي مزاياه جنديًّا ممتازًا وقائدًا ممتازًا؟!

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).

❑ جندي ممتاز:

أ ـ مزايا الجندي الممتاز:

تتلخص مزايا الجندي الممتاز فيما يلي:

عقيدة راسخة ـ ضبط متين ـ عقلية متزنة ـ شجاعة شخصية ـ تدريب جيد ـ قابلية بدنية ـ معنويات عالية.

فهل يتحلَّى خالد بهذه المزايا المعنوية والمادية للجندي الممتاز؟!

ب ـ تفصيل المزايا:

أولًا: عقيدة راسخة:

بعثه الرسول ﷺ بعد ذلك غازيًا وهاديًا، وعلى الرغم من أهمية توليه قيادة المسلمين في عهد النبي ﷺ في إثبات رسوخ عقيدته، إلا أنَّ إثبات ذلك يبدو أكثر وضوحًا في توليه هدم «**العُزَّى**»، و«**وُدٍّ**»، وإرساله داعيًا إلى بعض قبائل اليمن؛ إذ لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الواجبات غير ذوي العقائد الراسخة.

عند فتح «**الحيرة**» وجد خالد عند أحد قادتها ـ وهو عمرو بن عبد المسيح ـ سُمًّا ناقعًا، فلما سأله خالد عنه، أجابه عمرو: «**خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت، وقد أتيتُ على أجلي، والموت أحبُّ إلي من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي**»؛ فقال خالد: «**إنها لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها**»، ثم قال: «**بسم اللَّه خير الأسماء ربِّ الأرض وربِّ السماء الذي ليس يضر مع اسمه داء الرحمن الرحيم**»، ثم ابتلع السمَّ؛ فقال عمرو: «**واللَّه ـ يا معشر العرب ـ لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن**»[1].

ولما قال بنو تميم وعلى رأسهم عاصم بن عمرو التميمي والأقرع بن حابس التميمي بعد انتصار خالد في «**دُومة الجندل**» عن أسارى بني كلب: «**قد أمَّنَّاهم**»،

---

(١) الطبري (٢/٥٦٧).

قال لهم خالد: «**مالي ولكم!! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام!!**»[١]؛ فهو لا يكترث بحليف أو قريب أو نسيب إلى جانب سلامة وأمن تعاليم الدين الحنيف.

ولما تردد رجاله خوفًا من عبور الصحراء من طريق صعبة غير مطروقة، قال لهم: «**إن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة اللَّه له**»[٢]؛ فهو يثق باللَّه ثقة لا حدود لها، ويؤمن به إيمانًا راسخًا.

وكانت ثقته بنصر اللَّه ثقةً لا حدود لها أيضًا، وهو الذي قال لأهل «**قنسّرين**»: «**إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا اللَّه إليكم أو لأنزلكم اللَّه إلينا**»[٣].

وفي يوم «**اليرموك**» فقد خالد قلنسوته، فقال: «**اطلبوها**»، فلم يجدوها، فلم يزل حتى وجدوها، فإذا هي خلقة، فسئل عن ذلك، فقال: «**اعتمر رسول اللَّه ﷺ** فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالًا وهي معي إلا تبين لي النصر» وقال في آخره: «**فما وُجِّهْتُ في وجه إلا فتح لي**»[٤].

ذلك مبلغ عقيدته باللَّه وبرسوله ﷺ تلك العقيدة الراسخة التي دفعته أن يطلب الموت في مظانِّه فلم يُقدَّر له[٥]، وبذل ماله في سبيل الله؛ فمات فقيرًا معدمًا، وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله[٦].

لقد جاهد خالد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حق الجهاد.

---

(١) الطبري (٢/٥٧٩)، وابن الأثير (٢/١٥٢).
(٢) الطبري (٢/٦٠٣)، والكامل، لابن الأثير (٢/١٥٦).
(٣) الطبري (٣/٩٨).
(٤) الإصابة (٢/٩٩).
(٥) الإصابة (٢/١٠٠).
(٦) أسْد الغابة (٢/٩٦)، والإصابة (٢/١٠٠).

ثانيًا: ضبط متين:

كان خالد يتمتع بضبط مثالي متين لا يزال مَضْرِبَ الأمثال حتى اليوم؛ فقد رأيتَ كيف نزع بلالٌ الحبشي عمامة خالد فلم يمنعه؛ سمعًا وطاعة، ثم أقامه وعقله بعمامته[١] . كل ذلك جرى وخالد في أَوْجِ مجده وانتصاراته!!.

ثم رأيتَ كيف عزله عمر بن الخطاب دون أن يترك هذا العزل في نفسه أثرًا سيئًا، بل استمر في الجهاد، لا فرق عنده أن يكون قائدًا عامًّا أو قائدًا مرءوسًا أو رجلًا من المسلمين.

ولما قاسمه أبو عبيدة بن الجراح بأمر عمر بن الخطاب أمواله، قال خالد: «**ما أنا بالذي يعصي أمير المؤمنين!!**»[٢]، وهذا ضبط مثالي يندر وجوده حتى في نفوس رجال أعرق الجيوش في العالم قديمًا وحديثًا.

أما إقدامُ خالدٍ على مخالفة أوامر الخليفة في بعض الأحيان، فذلك لا يعني الإخلال بالضبط؛ بل يعني تحمل المسئولية الكاملة ضمن نطاق إمكان مخالفة الأوامر في بعض الظروف عندما لا يكون المرجعُ الذي أصدر الأمرَ حاضرًا.

إن الإخلال بالضبطِ سُبَّةٌ على الجندي، وتحَمُّل المسئولية مفخرةٌ له، ولا تزال تعاليم الجيوش حتى اليوم تنصُّ بصراحة على إمكان مخالفة الأوامر - مع تحمل نتائج تلك المخالفة - في حالة وجود الآمرِ الذي أصدر الأمرَ بعيدًا، بحيث لا يمكن مشاورته لتبديل أوامره، وعند الاقتناع بأنه لو كان حاضرًا لخالفها هو بنفسه؛ رضوخًا للموقف الراهن الذي لم يَطّلع على تفاصيله، وقد أوضح ذلك خالد للأنصار عند معارضتهم لمسيره إلى مالك بن نويرة بعد فراغه من أمر طليحة؛ فقال لهم: «**أنا الأمير وإليَّ تنتهي الأخبار!! ولو أنه لم يأتني له كتابٌ ولا أمرٌ، ثم رأيت فرصةً، فكنت إن أعلمته فاتتني، لم أعلمه حتى أنتهزها، وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس**

(١)ابن الأثير (٢/٢٠٧).
(٢)الطبري (٢/٦٢٥).

منه عهد إلينا فيه، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا، ثم نعمل به...»[1].

إنَّ ما ذكره خالد بصدد مخالفة الأوامر عند الضرورة يطابق أحدث تعاليم الجيوش الحديثة حول ذلك.

ثالثًا: عقلية متزنة:

كان خالد معروفًا بين قريش بعقليته المتزنة؛ لذلك صارت إليه الأعنة والقبة من بين كل رجال بني مخزوم في الجاهلية، على الرغم من شبابه المبكر حين تولى هذين المنصبين الخطيرين.

وقد شهد له النبي ﷺ بالعقل الراجح؛ فقال عنه: **«قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير»**[2]، وقال عنه: **«ما مثل خالد مَن جَهِلَ الإسلام»**[3]، وحسبه شهادة رسول اللَّه ﷺ برجاحة عقله.

ولله در القائل فيه:

إني رأيت لخالد من عقله فيما يمارس مرشدًا وإماما

ما مثله يرتاب في دين الهدى فيرى الضياء المستفيض ظلاما

إنا لنعرفه رشيدًا حازما ونراه شهمًا في الرجال هماما

والذي يدرس رسائله إلى قادة الفرس والروم، ومناقشاته المنطقية لهم، وأوامره التي أصدرها لرجاله، وأعماله الحربية والسلمية، وتصرفاته، يلمس بوضوح عقلية خالد المُبْدِعَةَ الخَلَّاقَةَ، ويكفي أن نعرف إنجازاته الخالدة؛ لنطمئن إلى أن مثلها أو قسمًا قليلًا منها لا يمكن تحقيقه إلا بتفكير متزن جبار.

رابعًا: شجاعة شخصية:

لعلَّ الحديث عن شجاعة خالد يعتبر حديثًا معادًا لا لزوم له، ويكفي أن نتذكر

(١) الطبري (٢/٥٠١)، وابن الأثير (٢/١٣٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢، ٧/٣٩٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢، ٧/٣٩٤).

أنه كان دائمًا في الأمام أثناء القتال قريبًا من مواطن الخطر؛ **في مسير الاقتراب** كثيرًا ما يقود المقدِّمة، **وفي الهجوم** يبادر إلى المبارزة وإلى مهاجمة قائد العدو والقضاء عليه، **وفي الانسحاب** يقود المؤخرة ثم يبقى مع الساقة، ثم لا ينسحب إلا بعد انسحاب رجال الساقة وبعد أن يتأكد أن جيشه كله أصبح بأمان.

وكمثال فقط: فإنه بارز يوم «**الولجة**» رجلًا من أهل فارس يعدل ألف رجل؛ فقتله! فلما فرغ منه اتكأ عليه ودعا بغدائه[1].

إن آثار شجاعة خالد الشخصية ملموسة بوضوح في كل معاركه التي خاضها، وملموسة أيضًا في بدنه الذي ليس فيه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية[2].

قال رضي الله عنه وهو يفارق الدنيا: «شهدت مئة زحف أو زهاءها، وما في جسمي - جسدي - موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هَا أَنَذَا أموت على فراشي؛ كما تموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»[3].

لقد كان خالد مثالًا شخصيًّا رائعًا في الشجاعة والإقدام لرجاله في كل معاركه؛ لذلك كان رجاله الذين يقاتلون تحت رايته يحتذون حذوه؛ فيصنع ويصنعون في ميدان القتال خوارق الشجاعة والإقدام.

خامسًا: تدريب جيد:

أتاح لخالد ثراءُ والدِهِ العريضُ ونشأتُهُ في بيت له القبة والأعنة[4] أن يتفرَّغ منذ

---

(١) الطبري (٢/٥٦٠).

(٢) أُسْد الغابة (٢/٩٥).

(٣) أُسْد الغابة (٢/٩٥)، والاستيعاب (٢/٤٠).

(٤) ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: كانت القبة والأعنة إلى خالد بن الوليد.
فأما الأعنَّة: فإنه كان يكون على خيول قريش في الجاهلية في الحرب.
وأما القبَّة: فإنهم كانوا يضربونها، ثم يجمعون إليها ما يجهِّزون به الجيش. «مختصر تاريخ دمشق» (٨/١٧).

نعومة أظفاره للتدريب على مختلف الأسلحة وعلى الفروسية، لا لكي يجيد استعمالها فحسب، بل لكي يَبُزَّ أقرانه في تدريبه عليهما.

ولم تكن الشجاعة وحدها ـ خاصة في قتال المبارزة ـ كافية لقهر الخصم، بل إن الشجاعة الشخصية، والتدريب الجيد على استعمال السيف، والرمح، والرمي بالنبال، والمهارة في امتطاء الخيل هما العنصران الأساسيان للنصر.

إن المهارة في استخدام الأسلحة هي نتيجة حتمية للتدريب الجيد عليها؛ وهذا يجعلك تقتل عدوك قبل أن يقتلك، وكانت هذه القاعدة صحيحة في الحرب القديمة، ولا تزال صحيحة حتى اليوم.

لقد كان خالد قائد فرسان قريش في الجاهلية؛ ومعنى ذلك: أنه كان من أبرز فرسانها شجاعةً وتدريبًا؛ لأن الوراثة وحدها ـ على اعتبار أنه مخزومي ـ غير كافية لتولي هذا المنصب الخطير؛ خاصة وأن بني مخزوم كثيرون؛ مع أن فرسان قريش كانوا في طليعة فرسان العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام أيضًا؛ وكان تدريب خالد على استعمال السيف والرمح ورمي النبال مَضْرِبَ الأمثالِ بين رجال قريش في الجاهلية؛ فأصبح مَضْرِبَ الأمثالِ بين العرب كلهم بعد الإسلام.

ولكن التدريب على الأسلحة وعلى الفروسية لا يكفي للجندي الممتاز، بل يحتاج إلى التدريب على تحمل أقسى الظروف المعاشية؛ فيأكل عند الحاجة أخشن الطعام، ويلبس أخشن اللباس، ويصوم عن الطعام عند عدم تيسره، ويصبر على الجوع والعطش، ويكتفي بالمتيسر من الطعام والشراب، كما يحتاج إلى التدريب على تحمل أقسى الظروف الجوية؛ فينام في العراء، يفترش الثرى صابرًا على البرد والجليد والمطر شتاء، وعلى الحر الشديد صيفًا... إلى غير ذلك من صنوف التدريب العنيف!!

لقد كان خالد غنيًا ـ بل من الأغنياء المعدودين في قريش ـ، وكان بإمكانه أن يعيش مترفًا في بحبوحة من العيش الرغيد، ولكن روحه العسكرية أَبَتْ عليه إلا أن

يتناول كل طعام يقدم إليه حتى في أوقات السلم وفي المدينة المنورة بين أهله وماله؛ فقد ذكر خالد: «**أنه دخل مع رسول اللّه**ﷺ بيت ميمونة أم المؤمنين[١]، فَأُتِيَ بضب[٢] محنوذ[٣]، فأهوى إليه رسول اللّه ﷺ يزيد أن يأكل منه؛ فقالوا: يا رسول الله، هو ضب!! فرفع رسول اللّه ﷺ يده؛ فقلت: أحرام هو؟ قال: «**لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه!!**» قال خالد: فاحترزته فأكلته ورسول اللّه ﷺ ينظر»[٤].

وقد اجتاز الصحراء بين العراق وأرض الشام من أصعب مسالكها وأشدها خطرًا مُتَحَمِّلًا الجهد والعطش، وتحمل التقلبات الجوية في الصحراء وفي العراق والشام في مختلف ظروف السنة وفي مختلف ظروف القتال... كل ذلك يدل على أنه كان مدربًا تدريبًا ممتازًا ليس على استعمال السلاح وركوب الخيل، بل على شظف العيش وقسوة الجو في مختلف الظروف والأحوال.

سادسًا: قابليته البدنية:

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طويلًا ضخمًا بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل.

وتمتع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقسط وافر من القابلية البدنية في كل حياته العسكرية؛ مما جعله قويًّا جدًّا؛ بحيث يحتضن خصمه عند البراز؛ فيقضي عليه[٥]، ويغلب مَن يخرج لمبارزته من الأبطال[٦]، ويتحمل المشاق العسكرية بسهولة ويسر.

---

(١) ميمونة بنت الحارث الهلالية: زوج النبي ﷺ وخالة خالد بن الوليد؛ لأنها أخت لبابة الصغرى بنت الحارث أم خالد، فيها نزل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾؛ راجع التفاصيل في «طبقات ابن سعد» (١٣٢/٨)، والإصابة (١٩١/٨)، والاستيعاب (١٩٤١/٤).

(٢) الضب: حيوان من جنس الزواحف من رتبة العظماء، غليظ الجسم خشنه، وله ذنب عريض، حرش أعقد، يكثر في صحارى الأقطار العربية.

(٣) محنوذ: مشوي بِدَسِّهِ بالنار أو في حجارة محماة بالنار.

(٤) أسْد الغابة (٩٥/٢).

(٥) الطبري (٥٥٦/٢، ٥٧٧)، وابن الأثير (١٤٨/٢، ١٥١).

(٦) الطبري (٥٦١/٢)، وابن الأثير (١٤٩/٢).

وكمثال على تحمله المشاق العسكرية: قطعه الطريق من «**الفراض**» إلى مكة المكرمة للحج: «فسار طريقًا من طرق أهل الجزيرة، لم يُرَ طريقٌ أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه؛ فكانت غيبته عن الجند يسيرة؛ فما توافى إلى «**الحيرة**» آخِرُهُمْ، حتى وَافَاهُمْ مع صاحب الساقة» (١).

طريق صعبة في الصحراء قطعها بسرعة خاطفة... ذلك دليل قاطع على قابليته البدنية الفائقة التي أعانته على تحمل المشاق العسكرية.

سابعًا: معنويات عالية:

كان خالدٌ كتلةً ضخمةً من المعنويات العالية، لا يحل في مكان إلا رفع معنويات رجاله وحطم معنويات خصومه.

ولا يتمتع المرء بالمعنويات العالية جزافًا؛ بل هناك عوامل كثيرة لتمتعه بها؛ **من هذه العوامل:** العقيدة الراسخة، والضبط المتين، والشجاعة الشخصية، والقابلية البدنية، والتدريب الجيد، والماضي المجيد.

وقد رأيتَ أن خالدًا يتمتع بكل هذه المقومات.

أما ماضيه المجيد: فَحَدِّثْ عن البحر ولا حرج!!

فليس غريبًا - إذًا - أن يكون خالدٌ كتلةً ضخمةً من المعنويات العالية - كَمَا أَسْلَفْنَا -، ولكن الغريب ألا يكون كذلك.

أطلق الرسول القائد ﷺ على خالد لقب: «**سيف الله**»، ولما انهارت معنويات المسلمين بعد هزيمة عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة في «**اليمامة**»، بعث أبو بكر خالدًا إليها؛ فانتصر.

وفي العراق كتب خالد إلى «**هرمز**» قائد الفرس قبل أن يخوض المعركة الأولى: «**أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن**

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤).

إلا نفسك؛ فقد جئتك بقوم يحبون الموت؛ كما تحبون الحياة»[١].

وكتب خالد إلى عياض بن غنم بعد أن مكث طويلًا في «**دُومة الجندل**» دون جدوى: «**إياك أريد**»[٢]، فلما بلغ أهلَ «**دومة الجندل**» دُنُوُّ خالدٍ، اختلفوا؛ فقال أكيدر بن عبدالملك أبرز رؤساء «**دومة**»: «**أنا أعلم الناس بخالد! لَا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أَحَدٌ في حرب، ولا يَرَى وَجْهَ خَالِدٍ قَوْمٌ أبدًا قَلُّوا أو كَثُرُوا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم**»[٣].

ولما تَرَدَّى موقف المسلمين في الشام، هَتَفَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه من أعماق قلبه: «**خالد لها**»؛ فأنسى الروم بخالد وساوس الشيطان؛ ففرح المسلمون بقدومه واطمأنوا.

وفي ابتداء معركة «**اليرموك**» خرج «**جرجة**» أحد قادة الروم، ونادى: «**ليخرج خالد**»، فخرج إليه خالد، فسأله جرجة: «**هل أنزل اللَّه على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه؛ فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟!**».

وفي «**اليرموك**» بالذات هتف أحد المسلمين: «**ما أكثر الروم وأقل المسلمين!!**» فأجابه خالد فورًا: «**ما أقل الروم وأكثر المسلمين!! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان**».

لقد كان خالد يعتمد على إثارة نوازع الإيمان في نفوس رجاله؛ فيتعهد جيشه بالعظات وبقراءة سورة الجهاد قبل القتال وفي أثنائه وبعده، وَيُعَيِّنُ مسئولًا عن قراءة سورة الجهاد عند اللقاء؛ كما فعل في «**اليرموك**» مَثَلًا.

وكان من جملة الأسباب التي بَرَّرَ بها عمر رضي الله عنه عزلَ خالد: أن الناس قد فُتِنُوا به[٤].

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤).
(٢) الطبري (٢/٥٧٨).
(٣) الطبري (٢/٥٧٨).
(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

إن خالد بن الوليد مَثَلٌ رائع للمعنويات العالية؛ ينصر بها المسلمين ويخذل بها أعداءه... فقد اجتازت شهرته الحدود، وأصبح معروفًا عنه أنه لا يُغْلَبُ أبدًا؛ وبذلك انتصر على أعدائه بالرعب من مسيرة شهر، بل من مسيرة أشهر في تلك الأيام.

❑ خالد بن الوليد أفضل قادة المسلمين بعد النبي ﷺ:

خالد بن الوليد قائد كبير: قال «**درمنغهام**»: «خالد بن الوليد، إنه قائد كبير، لم يغلب أو يقهر، ذكي وممتاز في قيادته»[١].

❑ خالد قائد عبقري:

تحت هذه العنوان كتب اللواء الركن محمود شيت خطاب:

«لا أعرف قائدًا عبقريًّا في تاريخ المسلمين غير الرسول القائد ـ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمُهُ عَلَيْهِ ـ يمكن أن يفضل على القائد العبقري خالد بن الوليد.

ولست أفضل عبقرية قيادة الرسول القائد على عبقرية خالد بن الوليد خضوعًا لعاطفتي؛ باعتبار أنه نبي الإسلام وخاتم النبيين والمرسلين، ولكنني مقتنع بذلك بعد دراسة مستفيضة لمزايا قيادة النبي العظيم سيد القادات وقائد السادات، رجل الرجال وبطل الأبطال محمد بن عبدالله ﷺ، ومزايا قيادة خالد هازم الفرس والروم.

لقد اصطرعت عبقريتا هذين القائدين في «**أُحُد**»، وفي «**الخندق**»، وفي غزوة «**الحديبية**»؛ فكانت الغلبة في كل هذه الغزوات لعبقرية الرسول القائد على عبقرية الصحابي القائد.

لقد كان خالدٌ قائدَ فرسانِ المشركين في «**أُحُد**»، وكان التفوق العددي إلى جانب المشركين، ومع ذلك استطاع المسلمون بقيادة النبي الكريم دَحْرَ المشركين

---

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٠).

في الصفحة الأولى من المعركة، حتى أخذ المسلمون ينتهبون معسكر المشركين؛ مما جعل بعض رماة المسلمين يتركون مواضعهم ظنًّا منهم أن المعركة قد انتهت لصالح المسلمين؛ فانتهز خالد فرصة انسحاب الرماة لضرب المسلمين من الخلف؛ فأصبح المسلمون مطوقين من كل جانب.

في هذا الموقف الرهيب بالنسبة للمسلمين، يبرز اصطراع عبقريتي القائدين العظيمين؛ فينجح الرسول القائد في إنقاذ أصحابه من هلاك أكيد، ويفشل خالد في القضاء على المسلمين، ولولا مخالفة الرماة لأوامر الرسول ﷺ الصريحة في الثبات حتى النهاية في مواضعهم، لاستحال على خالد أن يقوم بضرب المسلمين من الخلف، وَلَمَا كان له في هذه المعركة أثرٌ ملموسٌ.

أما في «**الخندق**» و«**الحديبية**»: فقد انتصرت عبقرية الرسول القائد على عبقرية خالد؛ إذ لم يظهر لخالد فيهما أثر حاسم في الوقت الذي ظهر للرسول ﷺ أثران حاسمان؛ في كل معركة منهما أثر حاسم.

ولا عجب في ذلك... لقد كان محمد قائدًا ورسولًا.

مع ذلك، فهناك قائد عربي مسلم هو «**المثنى بن حارثة الشيباني**» يشابه في سماته ومزاياه العسكرية سماتِ ومزايا خالد، ولو لم يستشهد المثنى قبل أن يقضي رسالته في الفتح، لكان له شأن ينافس شأن خالد في الفتوح.

لقد ظهر عشرات القادة من صحابة النبي ﷺ وتلاميذه، حملوا رايات الإسلام شرقًا وغربًا، ولكن لم يفتتن الناس بغير خالد والمثنى[1]؛ لأنهما كانا كفرسي رهان في مزاياهما وفي ثمار سيفيهما في الفتح.

لقد جمع خالد مزايا الجندي الممتاز إلى مزايا القائد الممتاز، مع أن هذه المزايا هي مزايا مثالية أو نماذج عليا، يندر أن يتصف بها قائد واحد؛ لأنها مجموعة من

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

مزايا عديدة من القادة العظام في فجر التاريخ حتى اليوم.

وإذا كان لنا أن نوجز مزايا عبقرية قيادة خالد بكلمات؛ فهي:

ذكاءٌ نادرٌ يجعلُهُ حاضرَ البديهة دائمًا يُصْدِرُ قراراتٍ سريعةً مرنةً ومبتكرةً غالبًا، متشبثٌ بجمع المعلومات عن العدو؛ مما يجعل تلك القراراتِ السريعةَ صحيحةً، سريعُ الحركةِ، شجاعٌ، مقدامٌ، لَهُ عقيدةٌ راسخةٌ، وشخصيةٌ قويةٌ، وإرادةٌ حديديةٌ، وقابليةٌ بدنيةٌ فائقةٌ، ومعنوياتٌ عاليةٌ، يسيطر على أعصابه سيطرةً عجيبةً، يثق به رجاله ويحبونه، ويبادلهم ثقة بثقة وحبًّا بحب، يفقه مبادئ الحرب، وله ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ.

وكان ـ بالإضافة إلى هذه المزايا ـ يختار موضعه في القتال قريبًا من مواطن الخطر؛ دائمًا في الأمام، دائمًا يبارز أبطال أعدائه ويقضي عليهم، دائمًا يقاتل أكثر من أي فرد من رجاله؛ فيضطر على تبديل سيف بعد سيف؛ إذ لَا يصمد في يده سيف واحد في معركة واحدة!!

لقد خُلِقَ خالدٌ؛ ليكون قائدًا؛ فعاش قائدًا، ومات قائدًا، فغاب جسده عن الوجود، ولكن بقي حيًّا في النفوس، وآثاره بقيت خالدة في التاريخ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان.

❑ مزايا القائد الممتاز(١):

تتلخص مزايا القائد الممتاز فيما يلي:

عقيدة راسخة ـ ضبط متين ـ عقلية متزنة ـ شجاعة شخصية ـ تدريب جيد ـ قابلية بدنية ـ معنويات عالية.

وبالإضافة إلى هذه المزايا التي سبق ذكرها في مزايا الجندي الممتاز لَا بُدَّ أن

---

(١) مقتبسة من الكتب العسكرية الرسمية، ومن محاضرات كلية الأركان ومدرسة الأقدمين في إنجلترا، ونقلها اللواء محمود شيت خطاب في «قادة فتح العراق والجزيرة» ص (١٩٣، ١٩٤).

تتوفر في القائد الممتاز المزايا الأخرى التالية:

إعطاء القرارات السريعة والصحيحة ـ الإرادة القوية الثابتة ـ تحمل المسئولية بلا تردد ـ نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار ـ سَبْقُ النظر ـ معرفة نفسيات مرءوسيه وقابلياتهم ـ ثِقَةُ قِطَعَاتِهِ بِهِ وَثِقَتُهُ بِقْطَعَاتِهِ ـ المحبة المتبادلة بينه وبين قواته ـ شخصية قوية نافذة ـ ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ ـ معرفة بمبادئ الحرب.

فهل يتحلى خالد بمزايا القائد الممتاز بالإضافة إلى مزايا الجندي الممتاز؟!

❑ المزايا والصفات القيادية التي تمتع بها سيف اللَّه المسلول

أولًا: القدرة على اتخاذ القرار السريع والصحيح:

لا بد للقائد من إعطاء قرارات سريعة وصحيحة في آنٍ واحدٍ، يعالج بها المواقف الطارئة المتبدلة بسرعة في الحرب؛ إذ إن القرارات البطيئة قد لا تكون ذات فائدة؛ لأن وقتها يكون قد فات؛ كما أن القرارات الخاطئة تضر ولا تفيد؛ أي أنها تكون في مصلحة العدو.

إن القرارات السريعة والصحيحة تستند على عاملين مهمين؛ القابلية العقلية للقائد، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة.

لقد مَرَّ بنا ذِكْرُ مزية خالد العقلية؛ فعرفنا أنه يتمتع بعقليةٍ متزنةٍ خَلَّاقَةٍ.

أما الحصول على المعلومات: فقد كان خالد حريصًا غاية الحرص على استطلاع حالة العدو المادية والمعنوية؛ فكان لا تخفى عليه خافية من حركاته وسكناته؛ لأنه كان دائمًا بِتَمَاسٍّ شديدٍ بالعدو؛ لوجوده دائمًا أمام رجاله، ولأنه كان «**لا يَنَامُ ولا يُنِيمُ، ولا يبيت إلا على تعبية، ولا يخفى عليه من أمر عدوه شيءٌ**»[(١)].

لقد كان يحصل على المعلومات عن عدوه بدوريات القتال ودوريات الاستطلاع، وبالعيون، وباستنطاق الأسرى، وبالاستطلاع الشخصي، وباستشارة

(١) الطبري (٣/٤٣٩)، والكامل (٢/٤٢٨).

ذوي الرأي والخبرة من رجاله ورجال عدوه الذين يقعون في قبضته، وكانت كُلُّ معاركه مثالًا يُحْتَذَى به في الحصول على المعلومات؛ وحسبنا أن نتذكر كيف أنه عرف أن المدافعين عن أسوار دمشق قد تركوا مواضعهم؛ فانتهز هذه الفرصة السانحة وَقَرَّرَ مهاجمتهم فورًا؛ ففتح هذه المدينة بعد حصار طويل.

لقد كان خالد منتبهًا كل الانتباه لكل حركة من حركات عدوه، ولم يتهاون لحظة واحدة عن جمع المعلومات؛ كما أنه كان غير متردد، يتحمل المسئولية، ولا ينتظر وصول الأوامر إليه، مما يؤدي إلى ضياع الوقت عَبَثًا؛ فلا عجب إذا كانت قراراته صحيحة سريعة جازمة حاسمة، وكانت نتائجها باهرةً جدًّا.

❑ مثال على تحلي سيف اللَّه بهذه الصفة:

ما حدث عند فتح «**الأنبار**» بالعراق؛ حيث قام ﵁ بجولة حول الخندق المضروب عليها، وقد تحصَّن أهل البلدة داخل أسوارها وهم مطمئنون إلى أن الخندق المحفور حول السور سوف يمنع خالدًا من الوصول إليهم، ولكنه ﵁ اكتشف نقطةَ ضعفٍ في الخندق فاستغلها، وما إن تمكن من شلِّ مقاومة أهل الأنبار برمي عيونهم بالسهام وفقئها، حتى أمر بنحر الإبل في ذلك الموضع، واتخذ من جثثها جسرًا عبر عليه جندُهُ إلى المُحَاصَرِينَ داخل المدينة وهزموهم.

ثانيًا: الإرادة القوية الثابتة:

كان لخالد إرادة فولاذية لا تزعزعها الخطوبُ والأحداثُ.

لقد كان إقدامه على محاربة جيوش الإمبراطورية الفارسية بِحَدٍّ ذاته مجازفة خارقة تدل على إرادته القوية الثابتة؛ وحسبنا أن نتذكر أن عدد رجاله في أول معركة خاضها ضد الفرس؛ وهي: معركة «**ذات السلاسل**» في منطقة البصرة ثمانية عشر ألفًا فقط(١)، يقاتلون أضعافهم من الفرس.

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/١٤٧).

وفي «**اليرموك**» كان عدد قوات المسلمين ستة وأربعين ألفًا[١]، بينما كان الروم في مئتين وأربعين ألف مقاتل[٢].

لقد كان الفواق العددي والتسليح وتيسر القضايا الإدارية دائمًا إلى جانب الفرس في العراق، وإلى جانب الروم في أرض الشام، وكان هذا الفواق فواقًا ساحقًا في كل معركة خاضها خالد، ومع ذلك انتصر خالد، وكان لإرادته القوية الثابتة أثرٌ بالغٌ في انتصاراته الباهرة.

لقد كان يفكرُ، ويقدِّر الموقفَ، ويقرِّر خطةً مناسبةً، ثم ينفِّذ خطته بعد أن يقتنع بصحتها دون أن يلتفت إلى الوراء.

لقد كان من أولئك القادة الذين يصممون أولًا، وينفذون ثانيًا ما صمموه من خطط مبنية على أسس سليمة استطلاعًا، وتفكيرًا، وتقديرًا، وإرادةً على التنفيذ.

ثَالِثًا: تحمل المسئولية:

من أبرز مزايا خالد أنه كان يتحمل المسئولية إلى أبعد الحدود؛ فإذا اقتنع بشيء أصدر قراره الحاسم لِلْبَتِّ في الأمر دون انتظار وصول الأوامر والتوجيهات والوصايا من مرجعه الأعلى.

لقد كان خالد قائدًا «**مُبْتَدِعًا**»: يرى الموقف بعينه، ويفكر فيه بعقله، ولا يدَّخر وُسْعًا في تكوين قرار يناسب ذلك الموقف ويتفق والمصلحة العامة.. وحينذاك يقدم على تنفيذ قراره بعزم وإصرار.

والقائد «**المبتدع**» ينجح نجاحًا يناسب كفايته إذا كان مرجعه الأعلى لا يميل إلى السيطرة المركزية، بل يعطي كامل الحرية لمرءوسيه؛ كما نجح خالد في عمله مع أبي بكر الصديق مثلًا.

---

(١) الطبري (٢/٥٩٢)، وابن الأثير (٢/١٥٧)، وهذا العدد هو أعلى تقدير لعدد قوات المسلمين.

(٢) ابن الأثير (٢/١٥٧)، وقد يكون في ذلك مبالغة، ولكن من المؤكد أن الروم وحلفاءهم من العرب غير المسلمين كانوا أضعاف عدد العرب المسلمين.

ولكن القائد «المبتدع» لا يستطيع العمل بتاتًا إذا كان مرجعه الأعلى مركزي السيطرة؛ مثل عمر بن الخطاب، ولعل أسباب تقدم خالد عند أبي بكر هي نفس أسباب عزله عند عمر.

❏ **ومن أمثلة تحمله المسئولية:**

سيره حين فرغ من بني أسد إلى مالك بن نويرة في «**البُطاح**»، فتمسك الأنصار بحرفية أوامر الخليفة، ولكن خالدًا أصرَّ على المسير[1].

وفي أعقاب يوم «**اليمامة**» بعد إبرام الصلح بين خالد وبني حنيفة ورد كتاب أبي بكر إلى خالد أن يقتل كل محتلم، ولكن خالدًا وَفَّى بعهده ولم يغدر[2]، مُتَحَمِّلًا بذلك المسئولية على عاتقه واثقًا من أن أبا بكر الصديق كان يعمل نفس عمله لو كان في نفس موقعه.

ولعله أغرق كثيرًا في تحمل المسئولية عندما ترك جيشه في العراق بعد انتصاره على الروم وحلفائهم في معركة «**الفِراض**»؛ ليؤدي فريضة الحج دون أن يأخذ موافقة أبي بكر؛ لذلك عاتبه أبو بكر على هذه المخالفة الصريحة[3]، ولكن عذر خالد هو أنه ذهب للحج سرًّا، في وقت لا خطر فيه على قواته، وأظهر أنه مع ساقة جيشه في طريقها من «**الفراض**» إلى «**الحيرة**»، وفعلًا وصل خالد «**الحيرة**» بعد عودته من الحج مع صاحب الساقة[4]، ولم يتأخر لحظة واحدة عن موعد وصول الساقة إلى «**الحيرة**»؛ لذلك لم يترك غيابه عن جيشه أثرًا سيئًا على الموقف العسكري.

---

(١) الطبري (٥٠١/٢)، وابن الأثير (١٣٦/٢).
(٢) الطبري (٥١٨/٢)، وابن الأثير (١٤٠/٢).
(٣) الطبري (٥٨٤/٢)، وابن الأثير (١٥٢/٢).
(٤) الطبري (٥٨٣/٢)، وهو اعتيادًا؛ كما هو دأبه يسير دائمًا مع الساقة عند العودة وفي المقدمة عند التقدم.

ولم يكن خالد يتحمل المسئولية كاملة في أمور القتال فحسب، بل كان يتحملها في أمور المال أيضًا؛ فلما كتب إليه أبو بكر بذلك؛ أجابه خالد: «**إما أن تدعني وعملي، وإلا فشأنك وعملك**»[١]. ولما تولى عمر، كتب إلى خالد: «**ألَّا تعطي شاةً ولا بعيرًا إلا بأمري**»؛ فكتب إليه خالد ما كتب إلى أبي بكر؛ فقال عمر: «**ما صدقتُ اللهَ إن كنتُ أشرتُ على أبي بكر بأمر فلم أنفذه**»؛ فعزله!! ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء[٢]؛ فيأبى عمر.

إن تحملَ خالدٍ المسئوليةَ الكاملةَ حَالَ بينه وبين الاشتغال بإمرة عمر المباشرة، ولكنه اشتغل بإمرة أبي عبيدة بن الجراح الذي كان - كأبي بكر - يعطي لمرءوسيه الحرية الكاملة؛ وبذلك فضل خالد أن يعمل قائدًا مرءوسًا وله ملء الحرية في تحمل مسئوليته كاملة على أن يعمل قائدًا عامًّا ولا حرية له في تحمل المسئولية!!

رابعًا: ثبات النفس:

كثير من الذين يظهرون بمظهر العزم والقوّة في أوقات الرخاء والدَّعَةِ ينهارون انهيارًا عجيبًا في أوقات الشدَّة والعسر؛ فهم جبابرةٌ عتاةٌ عند النصر، ضعفاءٌ مساكينُ عند الاندحار؛ فهؤلاء يمتلكون نفسيات تتبدل بين الانهيار في حالة الهزيمة والطغيان في حالة الفوز.

إن نفسية خالد لا تتبدل في حالتي الاندحار والنصر؛ إذ كان مسيطرًا على أعصابه سيطرة تامة في أشدِّ المواقف حرجًا من جهة وفي أكثر الأوقات تفاؤلًا من جهة أخرى.

لم يكن سهلًا موقفُ خالدٍ عند اندحار مقدِّمة المسلمين التي كان يقودها يوم «**حنين**»[٣]، ولكنه ضبط أعصابه؛ فَعَادَ وَعَادَ رجالُهُ إلى القتال بعد صمود النبي ﷺ

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).

(٢) الإصابة (٢/١٠٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠)، والأغاني (١٥/٢٥).

يواجه تيار المشركين الجارف؛ فكان النصر النهائي للمسلمين.

ولم يكن سهلًا موقفُهُ في أعقاب معركة «**مؤْتة**»[١] بعد مقتل قادة المسلمين واستشهاد كثير من رجاله، ولكنه قاد المسلمين إلى ساحة النجاة؛ ليعود بهم ثانية إلى ساحات النصر في «**اليرموك**».

ولقد سيطر على أعصابه حين استقدمه أبو بكر الصديق إلى المدينة المنورة؛ ليحاسبه عن قضية مقتل مالك بن نويرة، حين استفزه عمر بن الخطاب بكلمات قاسية عند دخوله المسجد لمواجهته أبي بكر، فأمسك خالد ولم يعترض، فلما تجاوز عنه أبو بكر آنَ له أن يرد على عمر، ولكن عمر في هذه المرة أمسك ولم يقل شيئًا[٢].

وقد سيطر على أعصابه حين قدم صاحب البريد؛ ليخبره بموت أبي بكر الصديق وعزله عن القيادة العامة وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه، وكان ذلك في أحرج أوقات معركة «**اليرموك**» الحاسمة[٣]؛ إذ قاد المعركة حتى نهايتها الموفقة وكأن شيئًا لم يحدث!!

لم تتبدل نفسيته في حالة الاندحار، ولم تتبدل نفسيته في حالة النصر، وبقيت نفسيته لا تتبدل بعد عزله؛ إذ كان يعتبر نفسه دائمًا أصغر من جندي وأكبر من قائد؛ فهي هي نفسه لا تتبدل في السراء ولا في الضراء، ولا تبدلها المناصبُ والرتبُ؛ لأنها أقوى من الأحداث والملمات، وأرفع من المناصب والرتب.

خامسًا: بُعْدُ النظر:

كان خالد يفكر في الاحتمالات القريبة والبعيدة التي يمكن أن ينفِّذها العدو، وَيُدْخِلُ في حسابه أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن يصادفها قبل القتال وفي أثنائه

---

(١) سيرة ابن هشام (٤٣٥/٣)، وجوامع السيرة ص (٢٢٢)، وطبقات ابن سعد (٢٥٣/٤).

(٢) الطبري (٥٠٤/٢)، وابن الأثير (١٣٧/٢).

(٣) الطبري (٥٩٥/٢).

وبعده، ويُعدُّ - سَلَفًا - الخطط المناسبة لكل ما يتوقعه من أعمال عدوِّه؛ حتى يمكن وضع تلك الخطط - عِنْدَ الْحَاجَةِ - في موضع التنفيذ دون تردد ولا ارتباك.

كان خالد لا يسير إلا في تعبية، لا يبيت إلا على تعبية؛ لأنه كان يُدْخِلُ في حسابه دائمًا احتمالَ مصادمةِ العدوِّ لقواته في أي وقت؛ وعند ذاك تكون قطعاته على استعداد لخوض المعركة من غير أن تخشى مباغتة العدو لها ومن غير أن تُضَيِّعَ الوقت سُدًى.

وصلت قوات خالد «**أُلَّيس**»، فوجدت القوات الفارسية تتناول طعامها، فعاجلت الفرس بالقتال وانتصرت عليهم، وكان الفضل في انتصار المسلمين سَبْقَ نَظَرِ خالدٍ في مسيره دائمًا على تعبية؛ فهو دائمًا حاضر للقتال.

وفي معركة «**الفِراض**» قال قائد الروم لخالد: «**إما أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم**»؛ فقال خالد: «**اعبروا**»[1] ... ذلك لأنه سَبَقَ النَّظَرَ وَقَدَّرَ ما يحتمل أن يؤدي إليه عبوره من محاذير، ولم يفسح المجال للعاطفة أن تتدخل في القضايا العسكرية، تلك القضايا التي يؤدي الإهمال في تقدير نتائجها إلى الاندحار وإلى إزهاق الأرواح دون جدوى.

لقد كان خالد يتمتع بمزيةِ سَبْقِ النَّظَرِ بشكل مدهش حقًّا، وما أصدق عمرو بن العاص حين وصفه بقوله: «**له أناة القطاة، ووثوب الأسد!!**»[2].

سادسًا: معرفة النفسيات والقابليات:

كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم؛ لأنه كان يقضي بينهم أكثر أوقاته، ويعيش معهم أكثر مما يعيش مع عائلته، ولأنه جَرَّبَهُمْ في المعارك وعرف كل فرد منهم على حقيقته بالأعمال لا بالأقوال.

---

(١) الطبري (٢/٥٨٢)، وابن الأثير (٢/١٥٢).

(٢) اليعقوبي (٢/١٠٨).

لقد كان يتمنى أن يقاتل مع سرية من المهاجرين(١)؛ لأنه يعرف أنهم يقاتلون حريصين على الشهادة حرصَ غيرهم على الحياة، وكان يريد أن يستأثر بصحابة رسول اللَّه ﷺ على المثنى بن حارثة الشيباني حين جاءه كتاب أبي بكر بالخروج من العراق إلى أرض الشام لولا إصرار المثنى على إنفاذ أمر أبي بكر بقسمة قوات المسلمين بالتساوي بينهما(٢)؛ ذلك لأن خالدًا عرف بتجربته أن الصحابة كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان راسخين، وأن أمثالهم من ذوي العقيدة هم السند القوي الأمين في الحرب لكل قائد حريص على إحراز النصر المبين.

وفي معركة «**اليرموك**» اختار خالدٌ مِئَةً من أبطال المسلمين(٣)؛ ليكونوا الفدائيين أو القوة الضاربة الأولى التي تصادم الروم، ولم يكن اختيارهم إلا عن معرفة تامة بنفسياتهم وقابلياتهم.

وفي معركة فتح «**دمشق**» اختار خالد جماعة من المغاوير من بين رجاله، وألقى على عاتقهم مهمة تسلق سور المدينة، والقضاء على حراس أبوابها، وفتح تلك الأبواب للمسلمين(٤)، ولم يكن من السهل تكليف أي رجل بمثل هذا الواجب البطولي بدون معرفة دقيقة لقابلياته في القتال.

لقد كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم عن خبرة عملية طويلة؛ كما كان رجاله يعرفون نفسيته وقابلياته عن خبرة مماثلة أيضًا؛ إذ ليس كالشدائد مَحَكٌّ لاختبار الرجال.

سابعًا: الثقة المتبادلة:

كان خالد موضع ثقة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة

---

(١) الإصابة (٢/٩٩).

(٢) الطبري (٢/٦٠٥).

(٣) فتوح الشام، للواقدي (١/١٢٠).

(٤) الطبري (٢/٦٢٧)، وابن الأثير (٢/١٦٥).

بن الجراح، وهؤلاء هم الذين عمل خالد بإمرتهم بعد إسلامه.

ولعل هناك من يظن أن خالدًا لم يكن موضع ثقة عمر، ولكن الحقيقة هي أن عمر كان لا يشك أبدًا في كفاية قيادة خالد، ولكنه عزله؛ لمبالغة الناس بالثقة به، ومبالغة خالد بالثقة بنفسه؛ وحسبنا أن نتذكر قولة عمر في خالد حين بلغه أعمال خالد في «قنسرين»: «**أَمَّرَ خالد نفسه، يرحم اللَّه أبا بكر؛ هو كان أعلم بالرجال مني!!**»[(١)].

وكان خالد من جانبه يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة؛ فقد كان يثق بالرسول ﷺ رسولًا وقائدًا ثقةً لا مزيد عليها، وكان يثق بأبي بكر الصديق، ويثق بعمر الفاروق؛ قال خالد لأبي الدرداء عن عمر: «**والله، يا أبا الدرداء، لئن مات عمر لترين أمورًا تنكرها**»[(٢)]، ولما حضرت خالدًا الوفاةُ جعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر[(٣)].

وكان خالد يقول عن أبي عبيدة: «**بعث عليكم أمين هذه الأمة**»[(٤)].

وكان خالد يثق بنفسه ويثق برجاله ثقة لا حدود لها، وقد بلغ من ثقته بنفسه وبرجاله أنه نزل على عير ماء في معركة «**كاظمة**»، ثم أمر مناديه فنادى: «**جالدوهم على الماء؛ فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين**»[(٥)].

لقد اصطلح الناس عليه في أعقاب معركة «**مؤتة**»[(٦)]، وكان بينهم بعض كبار المهاجرين والأنصار.

ولما عزم على التفويز برجاله عبر الصحراء القاحلة الخالية من الماء - والتي لم

---

(١) الطبري (٩٨/٣)، وابن الأثير (١٩١/٢).

(٢) ابن عساكر ص (٧١٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٣٩٧/٧)، والإصابة (١٠٠/٢)، وأُسْد الغابة (٩٦/٢).

(٤) الإصابة (٩٩/٢).

(٥) الطبري (٥٥٥/٢).

(٦) سيرة ابن هشام (٤٣٥/٣)، واليعقوبي (٤٩/٢).

يقطعها قائد قبل خالد ـ بقوات جسيمة[١]، قالوا له: «**أنت رجل قد جمع الله لك الخير، فشأنك**»[٢].

وليس من السهل أن يثق الرجال بقائدهم، وليس من السهل أن يستحوذ القائد على ثقة رجاله به؛ فالرجال يريدون من قائدهم: أن يدافع عنهم ويحميهم من الأخطار، وألا يستأثر بالراحة والدَّعَةِ والمال دونهم، وألا يوقعهم في المهالك دون مبرر، وأن يتحمل المسئولية كاملة ولا يتملص منها ويلقيها على عواتق الآخرين، وأن يكون شجاعًا مقدامًا يَبُزُّهُمْ شجاعةً وإقدامًا في الحرب، رءوفًا رحيمًا يغمرهم بشفقته وحنانه في السلم.

لقد وَجَدَ رجالُ خالد في قائدهم كل هذه المزايا وأكثر؛ فلا عجب أن يُولُوهُ ثقتهم حتى يخاف عمر أن يفتتن به الناس[٣]، وأن يفرحوا بالقتال تحت رايته[٤] وهم أشد ما يكونون اطمئنانًا وأمنًا.

وليس من السهل أن يثق القائد برجاله؛ فالقائد يريد من رجاله أن يطيعوه وينفِّذوا أوامره برحابة صدر، وأن يجتازوا العقبات والأخطار بلا تردُّد ولا خوف، وأن يبذلوا كل جهودهم لتحقيق النصر، وأن يُقْدِمُوا بشجاعة وتضحية وعزم لنيل الظفر.

لقد وجد خالد في رجاله كل هذه المزايا وأكثر؛ فلا عجب أن يبادلهم ثقة بثقة؛ فيصفهم في كتابه إلى «**هرمز**» قائد كسرى بقوله: «... **فقد جئتك بقوم يحبُّون الموت؛ كما تحبُّون الحياة**»[٥].

لقد كان خالد يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة؛ يثقون به ويثق بهم، كما كان

(١) ولم يقطعها قائد بعده بقوات جسيمة.
(٢) الطبري (٢/٦٠٣)، وابن الأثير (٢/١٥٦).
(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٧).
(٤) الطبري (٢/٥٩١).
(٥) الطبري (٢/٥٥٤).

يثق بنفسه، ويثق برجاله، ويثق رجاله به.

لقد كان موضع ثقة الجميع؛ لأنه كان أهلًا للثقة.

ثامنًا: المحبَّة المتبادلة:

هناك فرق ظاهر بين الثقة والمحبة؛ فقد تثق بكفاية إنسان وقابليته على إنجاز واجب ما، ولكنك لا تحبه، وقد تحب إنسانًا ما، ولكنك لا تثق بكفايته أو لَا تثق به من كافة النواحي.

فإذا اجتمعت الثقة والمحبة في إنسان؛ فكان موضع ثقة الناس ومحبَّتهم؛ فإن نجاح هذا الإنسان في الأعمال العامة ـ ومنها الأعمال العسكرية ـ مضمون إلى حدٍّ بعيدٍ.

لقد كانت المحبة متبادلة بين خالد ورجاله، وقد ظهرت هذه المحبة في معارك خالد؛ ويكفي أن نتذكر كيف بَادَرَ القعقاعُ بنُ عمرو التميميُّ وجماعتُهُ إلى إنقاذ خالد من غدر «**هرمز**» وجماعته في معركة «**ذات السلاسل**»[1]؟! وكيف كان أصحاب خالد يسارعون إلى تنفيذ أوامره بكل حرص وإقدام؟!

كما ظهر حب الناس لخالد وتقديرهم له بعد موته؛ حيث لم يبق له سلطة ولا نفوذ شخصي ليخشاه الناس ويرجوه؛ فرثاه عمر بقوله: «**قد ثلم في الإسلام ثلمةً لا تُرتق**»[2]؛ كما رثاه كثير من الصحابة وكثير من الشعراء.

أما حبُّ خالد لرجاله فيكفي أن نذكر أنه كان يستأثر دونهم بالمخاطر، ويؤثرهم بالخير والأمان، ويحب لهم ما يحبه لنفسه، ولكنَّ حُبَّهُ لهم كان حبَّ القائد لرجاله فحسب؛ إذ لا نعرف أنه بكى لمصرع شهيد ولا الْتَاعَ لمقتل مجاهد؛ لأن البكاء واللوعة لا يجديان شيئًا!!

لقد كان حبه لرجاله يزداد كلما ازداد إقدامهم وبلاؤهم؛ فالشجاع المقدام هو

(١) الطبري (٢/٥٥٥).
(٢) ابن عساكر ص (٧١٤).

الذي يحظى بحب خالد ورعايته، ولو كان أبعد الأبعدين عنه قرابةً ونسبًا، والجبان الرعديد لا مكان له في قلب خالد، ولو كان أقرب الأقربين إليه قرابةً ونسبًا؛ لذلك اخْتُصَّ خالد ببعض الرجال؛ صاحبوه في حروب أهل الردة، ورافقوه إلى العراق، وقاتلوا معه في الشام، فلما عادوا إلى العراق، نسوا الفخر إلا فخرهم بأيامهم مع خالد(١).

لقد كان خالد يحرص كل الحرص على بقائهم إلى جانبه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وأكثر هؤلاء أصبحوا معارفه وأحبابه في ساحات القتال؛ فكانت محبتهم المتبادلة محبة رفقاء السلاح في الضراء لا محبة رفقاء اللهو في السراء.

لقد كانت علاقة خالد برجاله علاقة حياة أو موت، لا علاقة قصعة وثريد!!

تاسعًا: الشخصية القوية النافذة:

لم تكن شخصية خالد قوية نافذة فحسب؛ بل كانت شخصية مستحوذة كاسحة أيضًا.

لقد ذهب خالد من المدينة إلى «**مؤتة**» جنديًّا بسيطًا، ولكنه عاد إلى المدينة قائدًا مُنْتَخَبًا؛ وليس من شك أن قوة شخصية خالد كانت من عوامل تسليمه مقاليد قيادة جيش المسلمين في «**مؤتة**».

ولما كتب عمر إلى أبي عبيدة يأمره أن يقيم خالدًا، ويعقله بعمامته، ويعزله عن عمله، لم يستطع أبو عبيدة أن ينفذ أمر عمر في خالد بنفسه؛ فجلس على المنبر ساكتًا لا يقول شيئًا، مع أن أبا عبيدة كان يومها قائدًا عامًّا في الشام، وكان خالد وغير خالد في أرض الشام بإمرته. وما كان إقدامُ بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ على تنفيذ أمر الخليفة دون غيره؛ إلا لأنه كان موضع ثقة الناس واحترامهم وإجلالهم لموضعه من النبي ﷺ ولماضيه المجيد في خدمة الإسلام.

---

(١) الطبري (٢/٥٨٤)، حول فخر أهل الأيام من أهل الكوفة بأيامهم مع خالد وعدم ذكر غيرها من الأيام احتقارًا لها واستصغارًا لشأنها.

وبقي خالدٌ مُتَحَيِّرًا بعد هذا الحادثِ، لا يدري أمعزولٌ هو أم غيرُ معزولٍ؟! ولا يُعْلِمُهُ أبو عبيدة بعزله تكرمة وتفخمة[1]؛ فكتب عمر[2] إلى خالد بالإقبال إليه، فلما قدم على عمر، شَكَاهُ، وقال له: «**قد شكوتك إلى المسلمين، فبالله إنك في أمري لغير مجمل**»؛ فقال له عمر: «**يا خالد، والله إنك عليَّ لكريم، وإنك إليَّ لحبيب**».

فأي شخصية نافذة قوية تلك التي يقدِّرها أبو عبيدة بن الجراح كلَّ هذا التقدير ويحترمها كل هذا الاحترام؟!.

وأية شخصية مستحوذة كاسحة تلك التي يقول صاحبها لمثل عمر القوي المهاب: «**قد شكوتك إلى المسلمين...**»؛ فلا يجد عمر الذي لم يترك له الحق صديقًا ـ كما يقول هو عن نفسه ـ أمامه إلا أن يسترضيه بأسلوب هينٍّ لينٍّ رقيق؟!.

تلك هي شخصية سيف الله خالد بن الوليد.

عاشرًا: الماضي المجيد:

عرفنا نسب خالد، وعرفنا أنه من أشرف بطون قريش وابن عظيم مكة المكرمة، وأمه أخت ميمونة أم المؤمنين؛ فماضيه من هذه الناحية مشرِّفٌ جدًّا.

وقد ترعرع في بيت كريم، له تقاليده الكريمة في تربية أولاده على الصدق والاستقامة والرجولة؛ فنشأ بعيدًا عن الفحشاء والمنكر والبغي، متفرِّغًا لإشباع هواياته المفضَّلة في التدريب العسكري وممارسة قيادة الفرسان؛ فتولى الأعنة والقبة وهو لا يزال في عنفوان شبابه متقدمًا على الكثيرين من بني مخزوم من إخوته وبني عمومته، وكثير منهم أكبر سنًّا من خالد ـ وللسنِّ عند العرب قيمة كبيرة في تولي المناصب المهمة ـ؛ وذلك لحسن سيرته وسمعته بين الناس بالإضافة إلى كفايته العسكرية.

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧)، وفي البلاذري ص (١٢٢): «أن ولاية أبي عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق، فكتمها خالد أيامًا؛ لأن خالدًا كان أمير الناس في الحرب...».

(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٧).

ولو لم يكن ماضيه قبل الإسلام مشرِّفًا لما خَصَّهُ النبي ﷺ بالسؤال عنه حين كان النبي ﷺ بمكة أيام عمرة القضاء، فقال: «**أين خالد؟!.. ما مثل خالد من جهل الإسلام...**» إلخ[1]، فلما أسلم، أصبحت مكانته مرموقة بين المسلمين وعند الرسول - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَتَسْلِيمُهُ عَلَيْهِ. «**ما كان رسول الله** ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما يجزئه»[2]؛ كما ذكر خالد عن نفسه، وكما نلمسه فعلًا في التاريخ.

ذلك يدل بوضوح على أن ماضيه كان ناصعًا مجيدًا في أيامه الأولى قبل الإسلام، وفي أيامه الأولى بعد الإسلام.

وابتدأ خالد يضيف إلى هذا الماضي النظيف لبنةً بعد لبنةٍ من الشرف الرفيع بانتصاراته العسكرية؛ فأصبح ماضيه يعلو بحاضره ولا يزال يعلو كل يوم، حتى بلغ درجة من الرفعة والسمو يضطر معها الذي يريد أن يرى قمتها - إذا كان حديد البصر - أن يضع يديه على غطاء رأسه من شدة علو قمة ذلك البناء.

يكفي أن نذكر ماضيه العسكري فقط: فقد شهد في الجاهلية ثلاث معارك ضد المسلمين، وشهد في عهد النبي ﷺ اثنتي عشرة معركة، وشهد في حروب أهل الردة ثلاث معارك؛ هي أهم وأخطر وأكبر معارك أهل الردة، وقاتل الفرس وحلفاءهم في خمس عشرة معركة، وَخَاضَ في طريقه من العراق إلى أرض الشام غمارَ أربع معارك، وَقَادَ سبع معارك في أرض الشام؛ فكان عدد ما شهده من معارك في حياته العسكرية أربعة وأربعين مشهدًا، كانت نتائجها باهرة جدًّا في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب المسلمين.

فأي قائد قديم أو حديث شهد هذا العدد الضخم من المعارك في فترة قصيرة جدًّا من عمر الزمن وعمر الرجال، دون أن يُهْزَمَ له لواء أو تنكص له راية؟!

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٩٤/٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٢/٤)، و(٣٩٤/٧).

وأي قائد قديم أو حديث بقيت آثار فتوحاته من اليمن جنوبًا إلى أرض العراق والشام شمالًا كل هذه القرون الطوال؟!

ذلك هو ماضي خالد، يزداد بحاضره كل يوم علوًّا.

لقد جمع المجد من أطرافه: مجد المنبت الطيب، ومجد النشأة الكريمة، ومجد التاريخ؛ فلا عجب أن يكون أكبر مفاخر أصحاب الأيام هو قولهم: «**قاتلنا تحت لواء خالد**»؛ ليعرف الناس أنهم أبلوا في خدمة الإسلام وفي خدمة الفتح الإسلامي أعظم البلاء.

❑ أحد عشر: معرفة وتطبيق مبادئ الحرب والقيادة:

نُحِيلُ القارئَ إلى ما كتبه اللواءُ الركنُ محمود شيت خطاب[1]؛ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

«مبادئ الحرب هي الجواهر التي تُنْشِئُ في القائد السجية الصحيحة في تصرفاته في الحرب، وهي التي يتكون منها مسلك القائد في أعماله بصورة طبيعية وغير متكلفة.

وكان خالد يعرف هذه المبادئ بالفطرة السليمة التي تدلُّ على استعداده الفطري الممتاز للقيادة، وقد طبق خالد هذه المبادئ في معاركه كلها؛ مما كان له أثر حاسم في انتصاراته.

١ـ اختيار المقصد وإدامته[2]:

كان خالد يختار مقصده بعد تفكير عميق، ويعمل جاهدًا في سبيل تنفيذه،

---

(١) قادة فتح العراق والجزيرة ص (٢١٠ ـ ٢٢٨).

(٢) اختيار المقصد وإدامته: في كل حركة حربية من اللازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح. إن المقصد النهائي هو تحطيم إرادة العدو على القتال، ويجب أن توجه كل صفحة من الحرب وكل صفحة منفردة نحو هذا المقصد الأعلى، ولكن لكل من هذه الصفحات مقصد محدود يجب أن يعرف بوضوح.

ولا يفكر أبدًا في التحوُّل عنه قبل الحصول عليه.

وكان مقصده في كل معاركه أن يقضي على قائد عَدُوِّهِ؛ حتى يبقى رجال ذلك القائد قطيعًا بدون راعٍ؛ فيفرون أو يستسلمون.

لقد استطاع خالد فِعْلًا في أكثر معاركه أن يقضي على قائد القوات المعادية له؛ إما بالمبارزة، أو بإدامة زخم الهجوم على مقره؛ حتى يقتل أو يضطر إلى الفرار.

وفي معركة «**اليرموك**» الحاسمة كان مقصد خالد أن يحرم مشاة الروم من إسناد فرسانهم[١]؛ لذلك هجم بالقلب متوخيًا فَصْلَ خيل الروم عن مشاتهم، ثم أفسح المجال لخيل الروم للخروج من مكانها الذي تقاتل فيه بعد التضييق بشدة عليها؛ فخرجت تلك الخيل تشتد في الصحراء؛ وفي ذلك الوقت بقي المشاة وحدهم؛ فَسَهُلَ على خالد القضاءُ عليهم.

هذا مثال عن اختيار المقصد وإدامته، ولعل مقصد خالد في كل معركة خاضها كان ظاهرًا بوضوح للعيان؛ لذلك كان النصر حليف خالد في كلِّ حروبه.

٢ـ التعرُّض:

التعرُّض: هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتم الحصول على النصر إلا بالتعرُّض وحده.

كانت معاركُ خالدٍ كلها تعرضيةً؛ إذ لم يتخذ في كل حياته العسكرية خطةً دفاعيةً واحدةً، ولم يَخُضْ معركةً دفاعيةً واحدةً؛ فكان بحق قائدًا تعرضيًا مشبعًا بروح التعرض.

ومن النادر جدًّا أن تجد في كل أدوار التاريخ قائدًا لم تضطره الظروف في وقت من الأوقات أن يمارس خطة دفاعية ثم يستأنف التعرض من بعدها، أما خالد فكان

---

(١) الإسناد في الاصطلاح العسكري: الرمي بالأسلحة لمعاونة القوة الرئيسية على تحقيق أهدافها؛ يُقال: إسناد المدفعية، وإسناد الرشاشات، والإسناد الجوي. **انظر**: المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم، للواء محمود شيت خطاب ـ دار الفتح ـ بيروت.

دائمًا في تعرضٍ مستمرٍ، وكانت لعبقريته في القيادة أثرٌ حاسمٌ على اتخاذه هذا الموقف دائمًا، ولستُ أشكُ في أن غير خالد ما كان لِيُقْدِمَ على التعرض في مثل فواق العدو بالعَدَدِ والعُدَدِ فواقًا ساحقًا على قوات خالد؛ إذ كان لا بُدَّ له أن يتخذ موقف المدافع في كثير من تلك المعارك انتظارًا للإمدادات، ولكن خالدًا لم يفكر أبدًا - حتى مجرد تفكير - في اتخاذ موقف المدافع.

لقد كان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ في القضاء المبرم على فتنة بني حنيفة في اليمامة، بعد أن فشل قائدان من قَبْلِهِ في القضاء عليها، وبعد أن نكبت بنو حنيفة هذين القائدين[١]؛ فارتفعت معنوياتها وزادت قوتها قوة.

وكان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ حاسمٌ في فتح «**دومة الجندل**» بعد أن استعصت على عياض بن غنم، فَأَشْجَى أَهْلُهَا عياضًا وشجوا به[٢] مدة طويلة كانت كافية ليفتح خالد خلالها من جنوب «**البصرة**» إلى شمال «**الفلوجة**»[٣] من أرض العراق.

وكان لتعرضِ خالدٍ أثرٌ حاسمٌ في انتصار المسلمين على الروم في «**اليرموك**» بعد أن كان المسلمون متضايقين هناك[٤].

وكان لتعرُّضِ خالدٍ أثرٌ في فتح «**دمشق**»؛ إذ لولا يقظةُ خالدٍ وتحفزُّهُ، لقاومت تلك المدينةُ المحاصَرَةُ أمدًا طويلًا.

لقد كان خالد يحمل طاقات تعرضيَّة لا تنضب، وكان مجرد وجوده في جيش من جيوش المسلمين يجعل ذلك الجيش متحفزًا أبدًا للتعرُّض، ولم يكن

---

(١) الطبري (٢/٥٠٥).

(٢) الطبري (٢/٥٧٨).

(٣) الفلوجة: الأنبار.

(٤) الطبري (٥٩٢)، **وانظر**: الطبري (٣/١٥٣)، وابن الأثير (٢/٢٩٥)، فعندما تحشد الروم لاستعادة (حمص) من أيدي المسلمين، أقبل خالد من قنسرين إلى أبي عبيدة، فاستشاره أبو عبيدة؛ فأشار عليه بالتعرض وأشار غيره بالتحصين ومكاتبة عمر، فأطاعهم وعصى خالدًا، ثم أشار عليه ثانية بالخروج إلى الروم، فلما فعل أبو عبيدة فتح الله عليه.

خالد يحرص كل الحرص على التقدم والمبيت في تعبية كاملة ـ على الرغم من صعوبة حركة القطعات وهي متخذة تشكيلات القتال ـ إلا ليكون حاضرًا باستمرار للتعرُّض على عدوه في كل وقت وبكل مكان.

٣ـ المباغتة:

كان خالدٌ مُشَبَّعًا بروح «**المباغتة**»؛ كما كان مُشَبَّعًا بروح «**التعرض**»، وليس في التاريخ قائد برز بين القادة في إنجازاته العسكرية وفي انتصاراته إلا وهو مُشَبَّعٌ بروح المباغتة وبروح التعرض؛ لأن هذين المبدأين هما أهم مبادئ الحرب كلها، وهما أهم أسباب الانتصار في الحروب.

فما المباغتة؟

المباغتة: هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعدًّا له.

والكتمانُ من أهم الوسائل التي تؤدي للمباغتة، والسرعةُ في التنقل لإنزال ضربة لا يتوقعها العدو في زمان لا يتوقعه أو في مكان لا يتوقعه، واستخدامُ الأرض الصعبة، وعبورُ الأراضي الصعبة، واستخدامُ أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبوية جديدة غير متوقعة؛ كلها وسائلُ تؤدي للمباغتة أيضًا.

لقد طبق خالد في حروبه كل هذه الوسائل؛ فباغت عدوه في كل معركة خاضها ـ تَقْرِيبًا ـ بوسيلة أو أكثر من هذه الوسائل؛ فكان ذلك من أهم أسباب انتصاراته، حتى لَيُمْكِن اعتبار معاركه نماذج رائعة لتطبيق وسائل المباغتة.

وفي غزوة «**مُؤْتة**» كَتَمَ استعداداته للانسحاب، وأظهر ساقةَ المسلمين بمظهر القوة الجسيمة؛ وذلك بنشرها في ساحة كبيرة من الأرض وبما أحدثته من جَلَبَةٍ وأصوات، فلما أنجز انسحاب «**القسم الأكبر**» من قوات المسلمين وأصبحت في مأمن من مطاردة الروم لها، سَحَبَ الساقة بسرعة خاطفة أيضًا إلى منطقة أمينة؛ وبذلك خَلَّصَ المسلمين من خطر الفناء.

ولما تحرَّك نحو «**طليحة**»، أظهر أنه اتَّجَهَ إلى منطقة «**طيئ**» لا إلى «**بزاخة**» منطقة

«**طليحة**»؛ وبذلك جعل «**طيئ**» تنفصل عن «**أسد**» قوم «**طليحة**» وتسرع إلى منطقتها؛ وبهذا ضَعُفَ «**طليحةُ**»، وَسَهُلَ على خالد القضاءُ عليه.

تلك أمثلة قليلة عن كتمان خالد لاستعداداته العسكرية ونواياه.

أما سرعة تنقل قطعاته من نقطة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر تمهيدًا لإنزال الضربة على موضع لا يتوقعه العدو، فقد كانت كل تنقلات خالد في كل معاركه تتسم بالسرعة الفائقة.

فقد أقام خالد في العراق ـ مَثَلًا ـ سنة وشهرين فقط؛ فتح خلالها من جنوب البصرة إلى «**الفراض**» على تخوم الشام والعراق، وأنقذ خلالها عياضًا في «**دُومة الجندل**»، ولا يمكن أن يتم كل ذلك في مثل هذا الوقت القصير تجاه مقاومة جيوش نظامية لإمبراطورية عريقة في المجد؛ كالإمبراطورية الفارسية، إلا بسرعة التنقل من مكان إلى مكان.

وهنا لا بد أن نذكر كيف قطع خالد الصحراء من «**قراقر**» إلى «**سوى**» في خمس ليال؛ مما جعل حاميات المدن والمواقع التي صادفته في طريقه بين العراق وأرض الشام تستسلم لقواته بعد قتال طفيف أو بدون قتال؛ لأنها لم تكن تتوقع أبدًا أن تلاقي قوة جسيمة من المسلمين تظهر عليهم من هذا الاتجاه في هذا الوقت بالذات.

وعبورُ خالدٍ للصحراء من الطريق الخطر الذي اختاره مباغتةٌ فذَّةٌ في التاريخ العسكري لا أعرف لها مَثِيلًا، ولست أعتقد أن عبور «**هانيبال**» للألب، وعبور «**نابليون**» للألب أيضًا، ولا تفويز «**نابليون**» من صحراء سيناء، أو قطع الجيش البريطاني لهذه الصحراء في الحرب العالمية الأولى يمكن أن تعتبر شيئًا إلى جانب مغامرة خالد في تفويزه؛ لأن عبور الجبال أسهل بكثير من عبور الصحراء؛ لتيسر الماء في الجبال وعدم تيسره في الصحراء، ولأن صحراء سيناء فيها كثير من الآبار والأماكن المأهولة وعدم تيسر ذلك في الصحراء التي قطعها خالد؛ فكان نجاحُ خالدٍ في عبورِ الصحراءِ مباغتةً كاملةً للروم، لم يكونوا يتوقعونها بَتَاتًا.

أما استخدام خالد أساليب تعبوية جديدة: فقد اشتهر خالد بأن فكرته التعبوية متطورة باستمرار؛ فهو لا يكاد يقاتل بأسلوب تعبوي واحد في معركتين، بل هو يُبَدِّلُ أساليبه التعبوية في معاركه؛ فيحير عدوه، ولا يَدَعُ له مجالًا لمعرفة ما يطبقه في المعارك من أساليب.

قاتل خالد المسلمين في معركة «**أُحُد**» بأسلوبِ الْكَرِّ وَالْفَرِّ[١]، وقاتل يوم «**الخندق**» بأسلوب الصفوف[٢]، وقاتل أهل الردة بأسلوب «**النظام الخماسي**»[٣]، وقاتل الفرس بأساليب متعددة: بأسلوب النظام الخماسي تارة، وبأسلوب وضع الكمائن بالإضافة إلى النظام الخماسي، وبأسلوب التقدم بأرتال متعددة، تجتمع في مكان معين وفي وقت معين لضرب العدو من جميع الجهات، وبأسلوب التقدم برتل واحد... إلخ.

وقاتل في «**اليرموك**» بأسلوب الكراديس[٤] بتعبيه لم تعهدها العرب من قبل[٥]،

---

(١) أسلوب الكر والفر: هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو، فإن صمد لهم العدو أو أحسوا بالضعف، نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكروا، وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل. **انظر:** الرسول القائد ص (١٠٤) (الطبعة الثالثة).

(٢) القتال بأسلوب الصفوف: يكون بترتيب المقاتلين صفين أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء. **راجع:** الرسول القائد ص (١٠٤)، (الطبعة الثالثة).

(٣) النظام الخماسي: ترتيب القوات لتكون محمية من الجهات الأربعة؛ وذلك بترتيب: ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، ثم جعل القلب في الوسط. **راجع:** كتاب الجندية في الدولة العباسية، للمرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت ص (٢٣٨).

(٤) أسلوب الكراديس: شَابَهَ للنظام الخماسي، غير أن تشكيلات النظام الخماسي وهي: «الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة والقلب» يتألف كل منها من عدد من الكراديس (الكتائب). **راجع:** مقال «جيش المسلمين في عهد بني أمية» في ص (٦٤٢) من «العدد الثاني - المجلد الرابع» من مجلة «المجمع العلمي العراقي» الصادرة بتاريخ (١٣٧٥ - ١٩٥٦م).

(٥) الطبري (٥١٣/٢)، وابن الأثير (١٥٨/٢).

وهكذا كان لخالد في كل يوم وفي كل معركة أسلوبٌ جديدٌ... وهو أول مَنْ قاتل بأسلوب الكراديس في الإسلام[١]، والحق أن خالدًا كان ماهرًا جدًّا في تعبية الجيوش، وتأمين حمايتها، وَزَجِّها في المعركة، واستخدام أجزائها المختلفة بتعاون وثيق في المحل اللازم وفي الوقت اللازم؛ وبذلك انتصر بفئته القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

لقد استخدم خالدٌ أساليبَ القتالِ كافة التي يمكن الحصول بها على المباغتة، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان متيقظًا منتبهًا إلى حركات العدو ونياته حريصًا غاية الحرص على سلامة رجاله؛ لذلك استطاع أن يباغت عدوه دائمًا، ولم يستطع عدوه أن يباغته أبدًا.

عندما توجه خالد لقتال «**مسيلمة**»، باغت أعداءه، وجاء بالأسرى، وسألهم: متى سمعتم بنا؟ قالوا: «**ما سمعنا بك، وما شعرنا بك**».

٤- تحشيد القوة[٢]:

كان خالد يُعِيْرُ مبدأ «**تحشيد القوة**» اهتمامه الكبير؛ لأنه كان يعلم أن عَدَدَ القوة وَعُدَدَهَا له أثرٌ كبير في إحراز النصر.

لقد عمل جاهدًا على فصل «**طيئ**» عن «**أسد**» قبل مهاجمته «**طليحة**»، وعمل على ضم هذه القبيلة إلى قواته؛ فكان لها أثرٌ ملموسٌ في قتال «**قيس**» حلفاء «**طليحة**»[٣].

وقد ضَمَّ إليه رجال شرحبيل بن حسنة والمدد الذي قَدِمَ من المدينة المنورة قبل أن يقاتل مُسيلمة الكذاب في «**اليمامة**»؛ وبذلك أكمل تحشيد قوته قبل البدء

---

(١) ذكر ابن خلدون في «مقدمته» ص (٢٧٣): أن أول من أبطل الصف وصار إلى التعبية كراديس هو مروان بن الحكم. وهذا خطأ والصحيح هو ما ذكرناه أعلاه.

(٢) تحشيد القوة: هو حشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدامها في الزمان والمكان الجازمين.

(٣) الطبري (٢/٤٨٥)، وابن الأثير (٢/١٣٣).

بالقتال[١].

وَضَمَّ إليه رجالَ المثنى بن حارثة الشيباني ورفقائه من القادة في العراق قبل أن يُنْشِبَ الحرب ضد الفرس في أرض الرافدين[٢].

وكان يحرص كل الحرص على أن يجمع أرتاله في مكان معين في وقت معين قبل أن يقوم بالهجوم على العدو؛ كما جرى ذلك في معركة «**ذات السلاسل**»، و«**المصيخ**»، و«**الثني**»، و«**الزميل**». ولم يبدأ بقتال الروم في «**اليرموك**» إلا بعد أن أكمل تحشيد قوات المسلمين هناك.

ولكنه كان لا يهتم بكثرة عدد رجاله اهتمامه بوجود عدد من المؤمنين الصادقين بين صفوف رجاله؛ أي أنه كان يهتم بـ «**النوعية**» أكثر من اهتمامه بـ «**الكمية**»؛ لذلك حَرَصَ أن يستصحب معه صحابة رسول اللَّه ﷺ الذين كانوا معه في العراق إلى الشام[٣]، وكان يتمنى أن يقاتل مع المهاجرين، ويفضلهم على غيرهم من الناس[٤].

إن خالدًا طبق مبدأ «**التحشد**» في كل معاركه، ولم يدخر وسعًا لتحشيد أكبر قوة مادية ومعنوية في كل معركة خَاضَهَا.

٥- الاقتصاد بالمجهود[٥]:

رَاعَى خالد مبدأ «**الاقتصاد بالمجهود**» في كل معاركه؛ فكانت قواته أقل بكثير

---

(١) الطبري (٢/٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) الطبري (٢/٥٥٤)، وابن الأثير (٢/١٤٧).

(٣) الطبري (٢/٦٠٥).

(٤) الإصابة (٢/٩٩).

(٥) الاقتصاد بالمجهود: هو استخدام أصغر قوة للأمن، أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر، أو صد قوة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة.

إن الاقتصاد بالمجهود يدل على الاستخدام المتوازن للقوة والتصرف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على التحشد المؤثر في الزمان والمكان الحاسمين.

من قوات أعدائه، وكان يُعَوِّضُ عن قلة رجاله بأساليبه التعبوية الفذَّة وبفنه العسكري الممتاز.

كان دائمًا في الأمام قريبًا من مواطن الخطر؛ وذلك حتى يرى بعينيه حقيقة الموقف ويعمل فورًا على معالجته، دون أن يُكَبِّدَ قواته خسائر لا مبرر لها.

وكان يستأثر بالخطر دون رجاله؛ فيتربص بقائد جيش العدو؛ ليقضي عليه، أما إذا أقدم ذلك القائد على الظهور في ميدان البراز، فخالد حاضر لمبارزته وإنهاء الحساب معه.

لقد كانت شخصية خالد وقيادته العبقرية وشجاعته الشخصية هي العوامل الحاسمة للاقتصاد بالمجهود، وعدم تكبيد المسلمين خسائر بالأرواح، وإكمال ما يعانيه المسلمون من نقص في العدد والمعدات.

لقد كان خالد قوة هائلة تعوض عن كل نقص وتحمي من كل خطر.

٦- الأمن[١]:

طبق خالد مبدأ «**الأمن**» بشكل رائع يدعو إلى الإعجاب الشديد.

كان خالد لا يتحرك إلا على تعبية؛ ومعنى ذلك: أنه يُخْرِجُ مقدَّمةً ومجنبتين ومؤخرة لقوته؛ لتكون محمية من جميع الجهات.

وكان لا يبيت إلا على تعبية؛ ومعنى ذلك: أنه يؤمن حماية قواته من جميع الجهات أيضًا، ويكثر من الحراسات.

وكان لا ينام ولا ينيم؛ أي أنه كان يفتش بنفسه قطعات الحماية والحراس حتى يتأكد من قيامهم بواجباتهم بشكل ممتاز.

وكان لا يخفى عليه شيءٌ من أمر عَدُوِّهِ؛ ومعنى ذلك: أنه كان يُكْثِرُ من إرسال

---

(١) الأمن: هو توفير الحماية للقوة ولمواصلاتها؛ لوقايتها من المباغتة، ومنع العدو من الحصول على المعلومات.

العيون والأرصاد، ويقوم هو بنفسه بالاستطلاع الشخصي - كل ذلك -؛ ليحصل على المعلومات التفصيلية عن غدوه ويحرمه من الحصول على المعلومات عن قطعاته.

وطبق مبدأ «**الكتمان**» في كل حركاته؛ فَحَرَمَ العدو من معرفة نياته قبل وقت مناسب ليتخذ لإحباطها التدابير المناسبة.

تلك هي تدابير خالد الوقائية لسلامة رجاله وأمنهم؛ لذلك لم ينجح أعداؤه في محاولاتهم لمباغتة قواته، ونجح هو كثيرًا في مباغتة أعدائه.

إن تدابير خالد الأمنية من أروع أمثلة التاريخ العسكري للسهر على أمن وسلامة رجاله من مكائد الأعداء.

٧- المرونة(١):

كانت لقوات خالد قابلية فائقة على التنقل من مكان إلى آخر بكفاية وسرعة؛ يكفي أن نذكر أنها نجحت في اختراق الصحراء من أصعب طرقها بأسرع وقت وبدون خسائر غير اعتيادية.

لقد امتاز خالد بمقدرته الفذة على غرس روح قابلية الحركة في رجاله وجعلهم يعملون بسرعة خارقة في مختلف الظروف والأحوال؛ ذلك لأن خالدًا كان يمتلك ذكاء لَمَّاحًا؛ يفكر بسرعة، ويقرر بسرعة، وينفذ بسرعة.

وكان قائدًا مرنًا في خُطَطِهِ؛ فهو لا ينفك يُعَدِّلُهَا بسرعة ودقة كلما أَلجَأَتْهُ أحوال الموقف المتطور الذي لا يستقر على حال.

---

(١) المرونة: ذلك المبدأ الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية بمبدأ (قابلية الحركة)، ثم أصبح يسمى الآن مبدأ (المرونة)؛ ذلك لأن (قابلية الحركة) تدل على الحركة المادية، وهي صنعة نسبية لا يعبر عنها تعبيرًا صحيحًا إلا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو.

أما (المرونة) فَتَعْنِي أكثر من ذلك؛ إنها لا تضمن قوة الحركة فحسب، بل قوة العمل السريع، كذلك على القائد أن يكون مرن الفكر، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته، وأن تكون خططه بشكل يمكنه من أن يعدل سريعًا حركات قواته حين تضطره الظروف غير المتوقعة.

لم يكن يدور بِخُلْدِ قائد المشركين العام في «**أُحُد**» أن بإمكانه ضَرْبَ المسلمين من الخلف، ولكن خالدًا انتهز فرصة انسحاب رماة المسلمين؛ فضرب قوات المسلمين من الخلف، وطوقهم بفرسانه دون أن ينتظر أوامر القائد العام.

وكانت خطته أن يقضي على فتنة «**طليحة**» بأسرع وقت ممكن، ولكنه توقف عن الحركة ثلاثة أيام؛ لكي تستطيع «**طيئ**» أن تسحب رجالها من إسناد «**طليحة**»[١].

ولما عبأ خالد جيشه للقتال، قالت «**طيئ**»: «نحن نكفيك قيسًا؛ فإن بني أسد حلفاؤنا!!» فقال خالد: «قاتلوا أَيَّ الطائفتين شئتم»؛ فاعترض عدي بن حاتم على قومه «**طيئ**» قائلًا: «لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى، لجاهدتهم عليه، واللَّه لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم»؛ فقال له خالد: «**إن جهاد الفريقين جهاد، لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط**»[٢].

فماذا كان يحدث لو أَصَرَّ خالد على رفض رغبة «**طيئ**» وإنفاذ رغبة عدي بن حاتم؛ بحجة أن «**أسدًا**» مرتدون لا فرق بينهم وبين «**قيس**»، وأن عدم مقاتلتهم على اعتبارهم حلفاءهم أمرٌ من أمور الجاهلية يبرأ منه الإسلام؟!.

وكانت أوامر أبي بكر الصديق لخالد: أن يُقِيمَ في «**بزاخة**» بعد الفراغ من أمر «**طليحة**» حتى يكتب إليه بأمره»، ولكن خالدًا قدر أن الانتظار قد يفيد مالك بن نويرة لترصين قواته ومضاعفة استعدادها للقتال؛ لذلك قَرَّرَ المسير إلى «**مالك**» بعد فراغه من «**طليحة**» مباشرة غير ملتفت لاحتجاج الأنصار[٣]، فلو لم يكن مرنًا وبقي مدة من الزمن ينتظر وصول الأوامر والوصايا والتوجيهات، لكان من المحتمل أن يشتد عضد مالك ويزداد خطره؛ فلا يقوى المسلمون على تحطيمه بسهولة

---

(١) الطبري (٤٨٣/٢)، وابن الأثير (١٣٢/٢).

(٢) الطبري (٤٨٢/٢)، وابن الأثير (١٣٣/٢).

(٣) الطبري (٥٠١/٢)، وابن الأثير (١٣٦/٢).

وأمان.

وفي أول معركة خَاضَهَا خالد في العراق ضد الفرس وَاعَدَ خالد قواته «**الحفير**»، فلما علم بأن الفرس سبقوه إليه ونزلوا به، مَالَ بالناس إلى «**كاظمة**»[(١)]؛ حتى يحرم الفرس من مزية سبقه إلى ميدان القتال وإكمال استعداداتهم التعبوية قبله هناك.

وفي معركة «**دمشق**» كان خالد قائدًا مرءوسًا، وكان أبو عبيدة هو القائد العام، ولكن خالدًا عندما علم بأن حماة الأسوار والأبواب من الروم قد تركوا مواضعهم للاشتراك في أفراح البطريق، انتهز هذه الفرصة الذهبية؛ فاعتلى الأسوار وفتح الأبواب ودخل المدينة[(٢)].

وقد رأيتَ كيف كان يُبَدِّلُ أساليب قتاله في معاركه، ولا يبقى على أسلوب واحد من القتال[(٣)].

تلك هي بعض ملامح خطط خالد المرنة وعقليته المرنة، وتلك هي بعض مزايا قوات خالد في قابليتها على الحركة بسرعة وكفاية، فكيف لا ينتصر على أعدائه الكثيرين بقواته القليلة نسبيًّا؟!

٨- التعاون[(٤)]:

ما دام خالد يمتلك شخصية قوية نافذة، وإرادة فولاذية ثابتة، وقابلية قيادية نادرة؛ فإن بإمكانه أن يؤمن التعاون بين صنوف[(٥)] **قطعاته** من جهة وبين

---

(١) الطبري (٢/٥٥٥)، وابن الأثير (٢/١٤٨).

(٢) الطبري (٢/٦٢٦ - ٦٢٨)، وابن الأثير (٢/١٦٤، ١٦٥).

(٣) **انظر**: ما جاء عن ذلك في فقرة: المباغتة.

(٤) التعاون: هو توحيد جهود كافة الصنوف والقطعات لبلوغ الغرض المنشود.

(٥) كانت صنوف الجيش المعروفة حينذاك هي:

١- الفرسان.

٢- الرجل أو الرجالة؛ وهم: المشاة.

٣- المنجنيقيون؛ وهم: رماة المنجنيق.

٤- النشابون أو النشابة؛ وهم: الذين يرمون النشاب.

تشكيلاتها التعبوية من جهة أخرى بسهولة ويسر ونجاح.

لَمَسْنَا كيف أَمَّنَ التعاون بين قواته وبين قبيلة «**طيئ**» ضد «**طليحة**» الأسدي؛ كما رأينا كيف أَمَّنَ التعاون بين قواته وقوات شرحبيل بن حسنة ضد «**مسيلمة**» الكذاب، وبين قواته وبين قوات المثنى بن حارثة الشيباني وأصحابه في العراق، وبين قواته وقوات قادة الشام في «**اليرموك**»، وكيف أَمَّنَ التعاون بين جيشه الذي اقتفى به أَثَرَ جيش «**توذر**» قائد الروم وبين جيش يزيد بن أبي سفيان؛ حيث ضرب جيش الروم من الخلف؛ فانهارت مقاومته ولم يستطع الوصول إلى هدفه؛ وهو: «**استعادة مدينة دمشق**».

تلك أمثلة قليلة جدًّا عن جهود خالد لجمع وتوحيد كافة جهود الصنوف والقطعات وتأمين التعاون الكامل فيما بينها؛ كي تعمل بتوافق واتساق في سبيل هدف مشترك ومصلحة مشتركة؛ ذلك الهدف: هو القضاء على العدو بأسرع وقت وبأقل خسائر؛ وتلك المصلحة: هي إعلاء كلمة اللّه ورفع راية الإسلام شرقًا وغربًا.

لقد كان لمقدرة خالد على تأمين التعاون بين مختلف رجاله وأسلحته أثرٌ كبيرٌ على إحراز النصر ودحر الأعداء.

٩ـ إدامة المعنويات[١]:

ترتكز المعنويات على دعامتين رئيسيتين: الثقة المتبادلة، والإيمان القوي.

٥ـ الدبابون؛ وهم: الذين يستخدمون الدبابات التي تتقدم مع المشاة لإعانتهم للتقدم.

٦ـ الفعلة؛ وهم: الذين نسميهم اليوم بالهندسة.

٧ـ الأطباء والبيطريون والممرضون.

راجع: مقال «جيش المسلمين في عهد بني أمية» مجلة «المجمع العلمي العراقي» «العدد الثاني المجلد الرابع» (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م) ص (٦٣٧).

(١) المعنويات: أهم عامل من عوامل النجاح في الحرب؛ وهي: استعداد الجنود العقلي أو شعورهم الذي يدفعهم عن طيب خاطر إلى الكفاح والتحمل ومجابهة الخطر، وتتوقف المعنويات العالية على إيمان الجنود بالدور الذي يلعبونه وعلى ثقتهم بقائدهم؛ فعندما تكون هناك ثقة ويكون هناك إيمان قوي؛ فإن المعنويات تكون عالية.

ذلك ما تَنُصُّ عليه كتبُ التدريب العسكري في الجيوش الحديثة لأكبر جيوش العالم شرقية وغربية.

لقد كانت معنويات خالد ومعنويات رجاله ترتكز على هاتين الدعامتين، ولكن بشكل أكثر رسوخًا وأعظم قوة؛ إذ كانت معنوياتهم ترتكز على الثقة المتبادلة الراسخة، والإيمان العظيم.

لقد أسلفنا أن خالدًا كان موضع ثقة مرجعه الأعلى؛ كان يبادله ثقةً بثقةٍ وتقديرًا بتقديرٍ. كما أسلفنا أنه كان يَثِقُ بنفسه، بل يبالغ بهذه الثقة، ويثق برجاله أعظم الثقة، ويقدِّرهم أعظم التقدير.

كما أسلفنا أن رجاله يثقون به إلى حد الفتنة، فليس بعد ثقة رجال خالد به ثقة ولا بعد إعجابهم به إعجاب.

أما إيمانهم العظيم فهو إيمان المسلمين الأولين من السلف الصالح في الصدر الأول للإسلام.

كانوا يؤمنون جميعًا بالقضاء والقدر إيمانًا لا حدود له، ويؤمنون بأن النفس لن تموت حتى تستوفي أجلها، ويؤمنون بأن الجهاد في سبيل الله فرض عين على كل مسلم، وأن الصبر في ساحات الوغى واجبٌ محتومٌ؛ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ويؤمنون بأنهم يخوضون حربًا عادلة؛ لتكون كلمة الله هي العليا وحتى ينتشر في الأرض الإسلام والسلام.

ذلك هو مبلغ إيمان خالد، وذلك هو مبلغ إيمان رجاله؛ فكيف لا تظهر على أيديهم خوارق الشجاعة ومعجزات الفداء؟!

لقد أدام خالد هذه المعنويات العالية في نفسه وفي رجاله بصورة خاصة وفي العرب المسلمين بصورة عامة؛ وذلك بإثارة الاعتزاز بالمثل العليا للعقيدة الإسلامية، وبإثارة النخوة بالماضي المجيد لأيام العرب، وبإثارة الرجولة بمثاله الشخصي في

الشجاعة والإقدام.

١٠- الأمور الإدارية:

تحسنت الحالة المعاشية لرجال خالد بعد معركة «**اليمامة**»، وازدادت تحسنًا كلما أوغلوا في فتح العراق؛ فقد بلغ سهم الفارس في يوم «**ذات السلاسل**» ألف درهم، والراجل ثلث هذا المبلغ[١]، وبلغ سهم الفارس في معركة «**أمغيشيا**» ألفًا وخمس مئة سوى النفل[٢] الذي نفله أهل البلاء[٣]... إلخ.

ولعل تدابير خالد الإدارية التي اتخذها تمهيدًا لعبوره الصحراء بين العراق والشام قد وصلت شأْوًا بعيدًا في الدقة والروعة؛ فقد نَقَلَ الماءَ في بطون الإبل وفوق ظهورها؛ كما أمر خالد قائد كل خيل أن يعطش عددًا من الإبل يكفي ما تحرزه من الماء لخيله[٤]، وَهَيَّأَ دليلًا ماهرًا يعرف مسالك الصحراء، وبهذه التدابير الدقيقة استطاع خالد عبور الصحراء بدون خلل إداري يُذْكَرُ.

وكان مع جيشه بعض الأطباء من العرب؛ لإعطاء الأدوية السائدة حينذاك للمرضى والمصابين؛ كما كانت النساء يقمن بواجب تموين المقاتلين بالماء والطعام، والعناية بالمرضى والجرحى، ونقلهم من ساحة المعركة إلى موضع أمين.

تلك هي بعض الأمور الإدارية التي أَمَّنَهَا خالد لرجاله.

أما الأمور الإدارية التي أجراها مع أعدائه فقد كانت بدرجة من الروعة والعدل والإنصاف؛ بحيث لا نزال نعجب بها حتى اليوم أشد الإعجاب.

---

(١) الطبري (٢/٥٥٧).

(٢) النفل: جمعها أنفال؛ وهي: الغنائم. **راجع**: تفسير الجلالين في تفسير قوله - تَعَالَى -: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ص (١٤٥).

(٣) الطبري (٢/٥٦٣).

(٤) الطبري (٢/٦٠٣)، وابن الأثير (٢/١٥٦)، وفتوح الشام، للواقدي (١/١٤)، والبلاذري ص (١١٨).

فقد أَقَرَّ الفلاحين على ما كانوا عليه، وجعل لهم الذمة[١]، وعاملهم معاملة ممتازة؛ مما جعلهم يلهجون بالشكر والثناء لعدالة المسلمين.

وأعلن في كتابه إلى الحيرة التأمين الاجتماعي ضد الشيخوخة والمرض والفقر؛ فقال فيه: «جعلت لهم أيما شيخ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدَّقون عليه، طرحت جزيته وَعِيلَ من بيت مال المسلمين وعيالُهُ ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلامِ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم!!»[٢].

ولكن ما مقدار الجزية المفروضة على القادر على دفعها؟ إنها أربعة عشر درهمًا على كل رجل لا أكثر[٣]، وهي أقل بكثير مما يدفعه المسلم من زكاة ماله.

الحق أن خالدًا كان عبقرية إدارية؛ كما كان عبقرية عسكرية، ولو أن الظروف ساعدته على إظهار قابليته الإدارية، لاستحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لإدارته للناس ولأمور المال؛ كما استحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لقيادته للرجال» اهـ كلام اللواء محمود شيت خطاب.

❑ خالد بن الوليد واستراتيجية الهجوم غير المباشر:

لعل «**فن الحرب**» لم يعرف قائدًا تتمثل في أعماله استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل «**خالد بن الوليد**»، وباستعراض كل أعمال «**خالد بن الوليد**» تظهر عمليات خالد على شكل مسيرات طويلة للوصول إلى مؤخرات قوات العدو أو مجنباته.

وقد عَبَّرَ خالد عن هذه الاستراتيجية عند حديثه مع دليله «**رافع بن عميرة**»؛ إذ قال له: «كيف لي بطريق أَخْرُجُ فيه من وراء جموع الروم؛ فإني إن استقبلتها حبستني

---

(١) الطبري (٢/٥٥٦، ٥٥٨، ٥٥٩).

(٢) الخراج؛ لأبي يوسف ص (١٧٢).

(٣) البلاذري ص (٢٤٥) مع اختلاف في المقدار في مصادر أخرى.

عن غياث المسلمين؟».

ولقد اضطر «**خالد**» في موقعتين حاسمتين إلى مجابهة قوات أعدائه في معركة جبهية؛ كانت الأولى «**موقعة اليمامة**»، وكانت الثانية «**موقعة اليرموك**»، ولكن رغم ذلك فقد بقي هدف خالد الدائم البحث عن الوسيلة لضرب مؤخرة العدو، ومباغتته بتهديد يحرمه من حرية العمل؛ ولهذا عمل خالد في «**اليمامة**» على ضرب القوات المتفوقة مع البحث عن ثغرة تصل بقوات المسلمين إلى «**قاعدة المرتدين في الحديقة**»؛ فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين، وفي «**اليرموك**» عمل خالد على فصل قوات الفرسان عن المشاة؛ فتمكن بذلك من الوصول إلى مؤخرة الروم وتطويقها؛ مما حمل الفرسان على الفرار؛ وبذلك استطاع تدمير «**مشاة الروم**» والقذف بهم إلى «**الواقوصة**».

وقد كان هدف خالد الدائم هو إقناع أعدائه بقصورهم عن مجابهة قواته، وعجزهم عن تحقيق النصر؛ فارتبطت عنده «**استراتيجية الهجوم غير المباشر المادية**» بنظيرتها «**المعنوية**»؛ مما كان يضمن له الوصول إلى الحسم في الصراع المسلح.

ويمكن التساؤل:

هل كان اقتحام أسوار دمشق من أصعب نقاطها أكثر من نموذج أعلى لاستراتيجية الهجوم غير المباشر؟!

ثم هل كانت معارك العراق بكاملها غير تجسيد رائع لكل معطيات استراتيجية الهجوم غير المباشر؟!

مهما كان عليه الأمر، فهناك ظاهرة تتجاوز في أهميتها كل ما عداها من ظواهر الاستراتيجية المذكورة؛ وهي:

١ـ تكييف هذه الاستراتيجية بحسب المواقف التي تتم مجابهتها؛ مما يبرهن على المرونة الرائعة في تفكير خالد؛ مما ساعده على تطوير أساليب العمل.

٢ـ العمل بتخطيط دقيق في إطار من التوازن المحكم بين الهدف والوسائط

المتوفرة مع المحافظة باستمرار على قوة زخم الهجوم؛ مما يساعد على الانتقال مباشرة من المعركة الجبهية إلى المعركة على المؤخرات؛ بمعنى: تطوير استراتيجية الهجوم الجبهي إلى استراتيجية الهجوم غير المباشر؛ وذلك في الحالات التي تظهر فيها صعوبة استخدام استراتيجية الهجوم غير المباشر منذ بداية الاشتباك.

❑ **الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:**

قد يكون من الصعب تصور إمكانات القيام بالتوغل العميق للوصول إلى مجنبات العدو أو مؤخرته، دون تعرض القوات المتوغلة ذاتها للتهديد بالتطويق والعزل، وهنا تظهر كفاءة خالد في ضمان شروط أمن قواته وتنفيذ عملياته دون التعرض للخطر.

وفي الواقع فقد تلقى خالد درسًا قاسيًا في «**موقعة حنين**»؛ فقد كان خالد في هذه المعركة مسئولًا عن الاستطلاع وضمان «**أمن القوات**»، ولكنه وقع في كمين محكم، كاد يقضي على قوة جيش المسلمين بكاملها لولا شجاعة الرسول ﷺ ولولا كفاءته القيادية العالية، وقد تعلم خالد كثيرًا من هذا الدرس؛ بحيث إنه لم يقع بعدها أبدًا في مأزق من المآزق التي قد تُجَابِهُهَا القوات عند بحثها عن مؤخرة قوات العدو لحسم الصراع المسلح.

وقد كان الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة هو أساس العمل لتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر.

لقد استطاع «**خالد بن الوليد**» إبراز مفهومه الخاص بـ «**القاعدة القوية والمأمونة**» في عدد من الحالات؛ فقد الْتَزَمَ قبل كل شيء بعدم تجاوز شواطئ الفرات في كثير من الأحيان، وفي معركة «**الفراض**» طلب إليه قادة التجمع الفارسي الرومي الاختيار بين البقاء في قاعدته أو عبور النهر؛ بقولهم له: «**إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم**»؛ فكان جواب خالد حاسمًا: «**بل اعبروا إلينا**».

وبذلك ترك «**خالد**» لنفسه حرية بقاء الاتصال مع الصحراء.

وفي معركة «**اليرموك**» تكررت هذه الظاهرة ذاتها؛ وكذلك الأمر في المعارك.

وكان لخالد أسلوب خاص في تنفيذ مبدإ «**القاعدة القوية والمأمونة**»؛ وهذا الأسلوب هو:

١ـ عزل مسرح العمليات قدر المستطاع عن المحيط الخارجي.

٢ـ تنفيذ الأعمال القتالية بسرعة مذهلة تضع العدو في حالة عجز عن التدخل في العمليات.

لقد كان مسرح العمليات بكامله هو «**قاعدة قوية ومأمونة**» بالنسبة لخالد بن الوليد سواء بالعراق أو بالشام، ولكن رغم ذلك فقد كانت كل بقعة من هذا الميدان الواسع هي «**قاعدة قوية ومأمونة**»؛ ويظهر ذلك في حرص خالد على تصفية قوات الروم في «**أجنادين**» ودعم «**عمرو بن العاص**»؛ حتى لا تكون هناك قوة تهدد قوات المسلمين في مؤخرتها عند الانتقال إلى الجولان[1].

❑ خالد بن الوليد والعنف في القضاء على أعداء المسلمين:

كانت «**بنو حنيفة**» من القبائل العربية الكبيرة؛ ولهذا فقد كانت زعامة «**مسيلمة**» لها وارتدادها تمثل أكبر خطر على المسلمين، وبعد حرب خالد لها لم يبق لهذه القبيلة دور يذكر في الفتوحات الإسلامية؛ فقد عمل خالد على إبادة المقاتلين إبادة تامة؛ ويتأكد ذلك من محادثات «**مجاعة**» مع «**خالد**» وخدعته له بإخراج النساء إلى الحصون والتظاهر بأنهن من الرجال المقاتلين، وعندما فتحت الحصون لم يجد خالد سوى النساء والأطفال.

وكان «**خالد**» في معاركه كلها يسعى للقاء قادة الأعداء ويعمل على إبادتهم وقتلهم منذ بداية الاشتباك؛ فقتل «**هرمز**» في «**ذات السلاسل**»، وقتل «**قارن**» في «**وقعة المذار**»، وقتل «**مالك بن قيس**» في «**أُلَّيس**»، وقتل في هذه المعركة كل من

---

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٤٥ ـ ١٤٩) (دار النفائس).

حمل السلاح؛ وفاء لقسمه الذي أقسمه عندما اشتدت المعركة وكثر قتلى المسلمين؛ فقال: «**اللهم، إن لك عليَّ إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقي منهم أحدًا قدرنا عليه، حتى أجري نهرهم بدمائهم**»؛ فأصبح نهر «**أُلَّيس**» منذ ذلك الوقت وهو يحمل اسم «**نهر الدم**».

وعاد خالد في معركة «**دومة الجندل**» فبدأها بقتل «**أكيدر بن عبدالله، والجودي بن ربيعة**»، وقذف بهما وبالأسرى بعد إبادتهم على أبواب الحصن.

وفي «**مصيخ بني البرشاء**» نَظَّمَ خالد إغارته الليلية؛ بحيث أمكن له إبادة أعدائه إبادة تامة. وتكررت عملية الإبادة بكاملها في «**الثني**» و«**الزميل**»، وأباد المسلمون في «**الفراض**» مئة ألف مقاتل من تجمع الفرس، والروم، والعرب المتنصرة، وطبق خالد الأسلوب ذاته في «**سوى**»، و«**اليرموك**»، و«**أجنادين**»، وفي كل موقعة خَاضَهَا بعد ذلك.

وفي هذا المجال يمكن اعتبار خالد بن الوليد نموذجًا رائدًا في «**استخدام العنف للقضاء على أعداء المسلمين**»، وقد يكون بحث خالد عن «**الفاعلية المطلقة للحرب**» واستخدام مبدإ «**حرية العمل العسكري**» حتى أبعد الحدود هو سبب هذه الظاهرة، وقد يكون حرصه على تحقيق مبدإ «**الحرص على العنصر العربي**» دعامة الإسلام هو سبب آخر أيضًا؛ إذ إنه لم يكن هناك وسيلة لتحطيم التفوق الساحق بالقوى لأعداء المسلمين إلا بهذه الوسيلة.

ومهما كان عليه الأمر، فإن البحث عن «**الفاعلية المطلقة في الحرب**» وتجاوز كل الحدود كان وسيبقى أبدًا هدف السياسة الاستراتيجية عبر التاريخ[1]، ويمكن

---

(١) وهل يمكن تفسير استخدام القنابل الذرية في «هيروشيما» و«ناغازاكي»؛ لإخضاع اليابان في الحرب العالمية الثانية سوى تطوير لهذه الظاهرة؛ من أجل حسم الصراع المسلح، ومن أجل تحقيق مبدإ الاقتصاد بالقوى؟! ثم هل كانت أعمال الإبادة الوحشية - بما فيها أعمال الإبادة بأسلحة التدمير الشامل الكيميائية - في «فيتنام»، ثم في «الجزائر»، وفي «الصراع العربي الإسرائيلي» إلا نماذج متقدمة لتطوير مبدإ «الفاعلية المطلقة في الحرب».

هنا أيضًا تجاوز الظواهر للوصول إلى النتائج.

والتساؤل:

ترى هل كان باستطاعة خالد حسم الأعمال القتالية بمثل تلك السرعة، وتصعيد الأعمال القتالية على جبهات الشام والعراق لولا استخدام الفاعلية المطلقة في الحرب؟!

ثم هل كان بالمستطاع الوصول إلى تحويل مسيرة الصراع وجعل ميزان القوى - نسبيًّا - في حدود قدرة العرب المسلمين لو لم يتم استخدام تلك الفاعلية؟!

الحرب هي الحرب، والسياسة الاستراتيجية هي توازن بين «**غاية السلم**» و«**هدف الحرب**»، وقد استطاع «**خالد**» يقينًا الوصول بالحرب إلى فاعليتها المطلقة بقدر ما استطاع تحقيق التوازن؛ من أجل إقامة سِلْمٍ لا يتعارض مع فاعلية الحرب؛ وكان ذلك النجاح هو المثل الأعلى لما يطمح قائد في تحقيقه والوصول إليه. ولئن كان هناك مَن يجد في أساليب خالد قسوةً تتعارض مع المفاهيم الحضارية، فلينظر إلى ما يتعرض له «**عالم الحروب**» في ظل الحضارة التقنية لعالم «**القرن العشرين**».

❑ خالد بن الوليد واستراتيجية الحرب التشتيتية:

بدأ خالد «**حروب الردة**» بتنفيذ تعليمات الخليفة: «**أن يبدأ بطيئًا، ثم يتوجه إلى بزاخة، ثم يثلث بالبطاح**»، وعند الانتهاء من «**أُمِّ زمل**» توجه خالد لحرب «**مسيلمة**»، وقد برهنت هذه التجربة على فاعليتها في إعاقة كل تعاون أو اتصال بين قوى الردة؛ مما ضمن لخالد تدميرها على التتابع.

وعند فتح «**الحيرة**» نَظَّمَ خالد قوته على شكل خمس مجموعات قتالية؛ تولى هو قيادة مجموعة منها، وَوَجَّهَ المجموعات الباقية لقتال أربع مجموعات من الأعداء؛ وبذلك أصبحت قوى أعداء المسلمين مشتتةً وغير قادرة على تنسيق التعاون فيما بينها، وسقطت بسرعة.

وحاول أعداء المسلمين من **«فرس - وروم»** تنظيم مقاومات قوية بالتعاون مع حلفائهم من نصارى العرب الغساسنة والمناذرة، لكن خالدًا استطاع - باستمرار - إعاقة كل تعاون عن طريق تطوير حرب الحركة للهجوم على أقرب القوى إليه والانتقال إلى بقية القوى وتدميرها على التتابع أو في تواقت واحد بواسطة مجموعات قوى مستقلة.

وفي الوقت ذاته فقد كان عمل خالد في **«جنوب العراق»** وعياض في **«شماله»** نموذجًا للحرب التشتيتية التي أمكن لها إرغام العدو على خوض معارك بقوى متفرقة، وكانت أساليب الحرب التشتيتية متوافقة مع قدرة قوات العرب المسلمين **«الخفيفة والسريعة»**؛ بحيث كان بالمستطاع دائمًا تنسيق التعاون بين هذه القوات على نحو ما حدث من تعاون بين عياض وخالد في **«دومة الجندل»**، في حين كان الفرس والروم وأنصارهم من العرب - بحكم تنظيم وخصائص قواتهم - في حالة عجز عن تنسيق التعاون.

وفي موقعة **«الفراض»** - ورغم تجمع قوات كبيرة من الروم ومسالح الفرس والعرب - وقفت قوى التحالف وهي عاجزة عن خوض المعركة في مخطط واحد؛ وكان السبب الأساسي هو عدم وحدة القيادة في حين كانت قوات المسلمين خاضعة في مسرح العمليات لقيادة واحدة هي قيادة **«خالد بن الوليد»**؛ وبذلك أمكن تنسيق التعاون لتدمير القوات المتحالفة، ضد قوات المسلمين.

وواضح أن نجاح خالد في تطبيق استراتيجية الحرب التشتيتية إنما يعود إلى مجموعة من العوالم تعود إلى خصائص **«قوات المسلمين»** وإلى **«العقيدة القتالية»** للمسلمين بحسب ما حددتها العقيدة الدينية الإسلامية، وبحسب ما أمكن تطبيقها في عهد الرسول ﷺ ولكن ذلك لا ينتقص من قدرة خالد الذي استطاع تطوير الأسس والمبادئ لمجابهة **«متغيرات مسارح الأعمال القتالية»**.

❑ خالد واستراتيجية الهجمات الوقائية:

تُظْهِرُ مراجعة أعمال خالد القتالية أنه كان من المحال عليه تحقيق مثل تلك المنجزات الرائعة، والوصول إلى مثل تلك الانتصارات الخالدة، لو لم يلتزم باستراتيجية الهجمات الوقائية في كثير من الأحيان ـ إن لم يكن في معظمها ـ؛ إذ إن الالتزام بهذه الاستراتيجية هو الذي ساعد خالد على استخدام بقية الاستراتيجيات وتطويرها. فتطبيق استراتيجية الهجوم غير المباشر، والانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة وما تبع ذلك من تطبيق لمبادئ الحرب، كل ذلك قد استند إلى قاعدة «**الهجمات الوقائية**»؛ فكان خالد في كل أعماله أكثر مرونة وأكثر سرعة للقاء قوات أعدائه، وإجهاض استعدادهم القتالي قبل إكماله، وقد كان من الصعب على خالد تحقيق النجاح في هذه الاستراتيجية لو لم يطبق بمهارة عالية مبادئ الحرب «**المباغتة والمبادأة...**» إلخ، ويظهر ذلك التعقيد الكبير الذي تميزت به أعمال خالد القتالية بقدر ما يُظْهِرُ الكفاءة العالية التي ميزت قيادة خالد، والتي جعلته قادرًا على مجابهة كل المواقف بما يناسبها من حلول.

ويبرز من جديد دور العقيدة القتالية الإسلامية في إبراز كفاءة خالد القيادية؛ فهذه الاستراتيجيات المتبادلة هي من بعض ما تضمنته العقيدة القتالية للمسلمين، وإن استعراض أعمال القادة المسلمين يبرز الناظم المشترك الذي وحد بين أساليب القادة جميعًا، وجعلهم يعملون رغم تباعد مسارح العمليات فيما بينهم، ورغم الفوارق الفردية في كفاءاتهم، بأساليب واحدة وطرائق موحدة.

لقد كان خالد يتوقع ـ باستمرار ـ قيام قوات العدو بتنظيم المقاومات ضده، وكانت عناصر استطلاعه تأتيه بأخبار تحركاتهم واستعداداتهم؛ فكان يسرع لغزوهم في عقر دارهم؛ فيعمل على إذلالهم، والتضييق عليهم، وحرمانهم من حرية العمل العسكري، وكانت تلك بعض فضائل «**استراتيجية الهجمات الوقائية**».

❑ **خالد بن الوليد أبرز قادة الدنيا في تطبيق «مبدإ الحركة»:**

يقول الأستاذ بسَّام العسلي:

«يعترف **«فن الحرب»** لخالد بن الوليد أنه من أبرز قادة الدنيا في تطبيق مبدإ **«حرب الحركة»**، وقد كانت حروب العرب المسلمين من نوع **«حرب الحركة»**، ولكن حروب **«خالد»** تميزت بصورة خاصة بتطوير أساليب **«حرب الحركة»** وتنفيذ هذه الأساليب في إطار متكامل مع مجموعة من الأسس الاستراتيجية ومبادئ الحرب.

ولقد انطلق خالد بعد وفاة الرسول ﷺ لحروب الردة، وأمضى بها سنة كاملة «سنة ١١هـ»، ثم انتقل لمسرح عمليات **«العراق»**.

وخلال عام واحد ـ السنة الثانية عشرة للهجرة ـ خَاضَ خالدٌ أكثر من عشر معارك رئيسية على امتداد شواطئ الفرات، ولم تكد هذه المعارك تبلغ غايتها حتى كانت شواطئ الفرات ودجلة قد أصبحت خاضعة لقوات العرب المسلمين، وأمكن إزالة مسالح **«فارس»** وفرض هيمنة المسلمين، ثم انتقل خالد بعد ذلك إلى **«الشام»**، ولم تكن مسيرته الكبرى عبر الصحراء الشامية ـ التدمرية ـ مسيرة سهلة، وإنما كان فيها قدر كبير من الخطر، ثم انتهت المسيرة بمعارك مستمرة، وأخذ بعضها برقاب بعض إلى أن أمكن حسم الصراع في مجموعة من المعارك الحاسمة **«اليرموك، وأجنادين، وفحل»**، واستمرت **«حرب الحركة»** من أقصى سورية إلى أقصاها، وحتى إلى ما وراء الدروب **«مسيرات طويلة، ومعارك استنزاف، ومعارك حاسمة، ضمن إطار من تدابير الأمن الدقيقة»**، تلك هي حروب خالد بن الوليد.

وكان يتم تنفيذ المسيرات في الليل والنهار، كما كان يتم تنفيذ المعارك في مناطق متباعدة، بسرعة عادية أحيانًا، وبتسارع مذهل في أحيان أخرى؛ كالسيل الذي ينحدر قويًّا مدمرًا؛ ليزيل أمامه كل العقبات، يتجمع أمام المقاومات الكبيرة، ويتفرق للمطاردة والقضاء على المقاومات الصغرى، ثم يتابع تجمعه؛ ليتفرق من

جديد، ولعله ليس هناك ما هو أبدع من هذه الصورة التي رسمها خالد لـ«**حرب الحركة**»، والتي أصبحت نموذجًا خالدًا تتناقله الأجيال.

❑ المبادأة واستخدام القوة الهجومية عند سيف الله خالد ﵁:

لم يكن حب المغامرة هو الذي يدفع خالدًا لتطوير «**حرب الحركة**» باستمرار، وتصعيد الأعمال القتالية بصورة دائمة، وإنما هو التقدير الصحيح لموقف قوات المسلمين وقوات أعدائهم.

فقد كانت قوات أعداء المسلمين متميزة بمجموعة من الخصائص؛ أبرزها: التفوق العددي الساحق، والتفوق بالوسائط القتالية، والتفوق في مجال الخبرات القتالية، والتفوق في إمكانات الإمداد الإداري، والتفوق بالعمق الجغرافي «**العامل الجيواستراتيجي**».

ولم يكن أمام خالد سوى الإفادة من العوامل المعادلة ـ أو المعاوضة ـ المتوفرة أمامه؛ وأبرزها: العقيدة القتالية المتفوقة للمسلمين، والروح المعنوية العالية للمجاهدين في سبيل الله.

ومن هنا، فقد كان لزامًا على خالد حرمان أعدائه من مميزاتهم وخصائصهم، وكانت وسيلته الأساسية «**الإمساك بالمبادأة واستخدام القوة الهجومية للمسلمين**»؛ ولهذا نراه ما يكاد يفرغ من معركة حتى يسرع لتنفيذ معركة أخرى في موقع بعيد وفي زمن غير متوقع، وهكذا كان يعمل أبدًا على فرض مواقف جديدة ومعقدة تحرم الأعداء من حرية العمل. وفي هذا الإطار «**إطار إمساك خالد بالمبادأة وحرمان خصومه من حرية العمل**» كان بالمستطاع تجزئة الحرب إلى مجموعات من المعارك المتتالية التي يكون للمسلمين فيها قدرة على حسم الصراع لمصلحتهم، وتدمير قوات الأعداء على التتابع، دون السماح لهم بفترة من الهدوء تمكنهم من إعادة تنظيم قواتهم، ولم تكن أعمال الفرسان في المطاردة لتدمير فلول قوات العدو تدميرًا تامًّا سوى استثمارًا للقوة الهجومية التي انفرد المسلمون بها، وقد يكون من

السهل ـ نسبيًّا ـ وضع العدو أمام موقف غير متوقع، كما أنه قد يكون من السهل الاحتفاظ بالمبادأة في معركة أو أكثر، ولكن ليس هناك سوى عدد نادر جدًّا من القادة الذين استطاعوا الإمساك بالمبادأة دائمًا، مع حرمان أعدائهم باستمرار من حرية العمل، ويبقى خالد في هذا المجال نموذجًا رائعًا للقائد الذي ما تخلى عن المبادأة أبدًا، والذي استخدم القوة الهجومية كأفضل ما يمكن أن يطمح إليه قائد.

ولعل احتفاظ خالد بالمبادأة هو الذي كان يضعه باستمرار في موقع التفوق على خصومه وأعدائه، وهو الذي يُظْهِرُهُ كعملاق أمام مجموعة من الأقزام الذين سلبت منهم إرادة القتال وحرية العمل(١) .

❑ خالد بن الوليد والاستعداد الدائم للقتال:

بقيت القوات التي قادها خالد بن الوليد في حالة حركة دائمة، منذ انطلقت من «**المدينة المنورة**» لـ«**حروب الردة**»، حتى حررت «**العراق**»، ثم انتقلت لتحرير «**الشام**»، واشتبكت هذه القوات بمعارك كثيرة، وخاضت حربًا متصلة، وهذا في حد ذاته برهان كاف عن الاستعداد الدائم للقتال.

وكان خالد نفسه: «لا ينام ولا ينيم، ولا يخفى عليه من أمور أعدائه شيءٌ، عيونه ذاكية وهو معنيٌّ بما يليه»؛ وهذا يعني ببساطة: بقاء القوات في حالة حرب دائمة لمدة أربعة أعوام تقريبًا، سقط خلالها مَن سقط، واستشهد مَن استشهد، واستبدل مَن استبدل، ولكن كتلة القوات الرئيسية بقيت كما هي؛ لم تتعبها المسيرات الشاقة في الليل أو النهار، في الحر أو البرد، كما لم تتعبها الأعمال القتالية المرهقة، ويمكن تصور العبء الكبير الذي احتملته قوات المجاهدين في سبيل اللَّه إذا ما تمت مقارنة منجزاتها وأعمالها بحجم قوتها العددية؛ فقد كان حجم القوات ـ على ما هو معروف ـ قليلًا، وكانت الأعباء ثقيلة؛ فقد كان على المقاتلين ممارسة أعمال

(١) خالد بن الوليد، لبسام العسلي ص (١٦١ ـ ١٦٥).

الأمن والاضطلاع بأعمال الحراسة، وتأمين الشئون الإدارية، وعدم التقصير في الفروض والعبادات ـ الصوم والصلاة ـ، وقد أجاز خالد المجاهدين بالإفطار في بعض معاركه، كما كان يتم جمع الصلوات في بعض الحالات، ولكن ذلك كله في إطار متكامل مع أعمال الحرب وكره القتال؛ «كانوا آسادًا في النهار، نساكًا في الليل، لا يفضل من مضى منهم عمن لم يستشهد إلا بفضل الشهادة»، وقد عرف أعداء المسلمين خصائص جيش المجاهدين في سبيل اللَّه وفضائله، وكان من الطبيعي ألا يتعرض جيش كهذا للمباغتة، أو يُجَابِهَ مأزقًا من مآزق الحرب المعروفة؛ فقد كانت القوات في حالة استنفار دائمًا؛ تسعى للشهادة، وتعيش تحت ظلال السيوف طلبًا للجنة، وَتَظْهَرُ فضيلة الاستعداد الدائم للقتال في جيش المجاهدين تحت «**راية العُقَابِ**» من خلال اندفاعهم للقتال بعد كل مسيرة طويلة وشاقة بقدر ما تَظْهَرُ أيضًا من خلال تحركهم الدائم والمستمر.

وقد عرف تاريخ «**فن الحرب**» جيوشًا كثيرة قامت بمسيرات طويلة وأعمال قتالية عديدة، ولكنه لم يعرف أبدًا جيشًا في حجم جيش خالد بن الوليد قام بمثل ما قام به هذا الجيش من أعمال وفتوحات، وهذا هو البرهان الحاسم على الاستعداد الدائم للقتال في جيش خالد بن الوليد.

❑ **إخلاص خالد بن الوليد: «ليهنك أبا سليمان الخطوة والنية»:**

قال الصديق لسيف الله: «**ليهنك أبا سليمان الخطوة والنية**».. ولله در الصديق؛ فهو عليم واللَّه بالرجال.. وياالإخلاص سيف اللَّه حين يقبل أمر عزله وهو في أوج انتصاراته بكل انضباط وطاعة.. بل وفوق هذا يقوم بلال الحبشي في جامع «**حمص**» فيعقل خالد بن الوليد بعمامته، ويستجوبه على سمع المسلمين وأمام بصرهم، ويخضع قاهر إمبراطوريتي الفرس والروم لبلال، ويسلمه قيادة، دون شعور بالحمية حمية الجاهلية، دون شعوز بالمهانة وهو الشريف القرشي الذي عَمَّرَ الإيمان قلبه... هو ابن الإسلام الذي صُنِعَ على عين الإسلام.

وبعد: قد يكون من الصعب تقويم منجزات خالد بن الوليد وما تركه من أثر في «**فن الحرب**».

إنه أسطورة الأجيال، وخالد كخلود الجبال الأوابد، نقرأ سيرته ونعيش حياته؛ فنجد فيها عالمًا لا حدود له.

وقد تراكمت الأبحاث في سيرة خالد ﷺ حتى كأنه هو الفتح الإسلامي، أو كأن الفتح هو خالد بن الوليد.

ونختم سيرة البطل ـ الذي أوحدت به أُمُّهُ ـ بكتابه إلى ملوك فارس وعامة أهل فارس:

كتب خالد بن الوليد إلى ملوك فارس عندما تولى قيادة حرب العراق:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد: فالحمد لله الذي حلَّ نظامكم، ووهن كيدكم، وفرَّق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شرًّا لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك لكم وأنتم كارهون على غَلَبٍ، على أيدي قوم يحبون الموت؛ كما تحبون الحياة».

وكتب إلى عامة أهل فارس:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم من خالد إلى مرازبة الفرس، أما بعد: فأسلموا تسلموا، وإلا فاعتقدوا مني الذمة، وأدوا الجزية، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الحياة؛ كما تحبون شرب الخمر»[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٣٧٠).

رسالة إلى سيف اللّه المسلول[١]

يحتاج المرءُ إلى سكينٍ
كي يكتُبَ حرفًا عن سيفِ اللهِ المسلول
يحتاجُ إلى إداوةِ دماءٍ
يحتاجُ إلى مقبض سيفٍ
كي يملكَ ناصية الكلمة في هذا الزَّمن المخبول
أختطفُ حروفًا مِن رَهَجِ الخيل
ولا أعرفُ كيف أجُول
يا خالدُ
فاسمح لي وانزِلْ عن فَرَسِكَ
كي أتملَّاكَ... وعلِّمْني كيف أصُول

❊ ❊ ❊

يا خالدُ
ستظلُّ الكلماتُ بليده
معذرةً.. فأنا أكتُبُ عنكَ
وأنا ألبسُ جلدًا يُنكرني فيهِ
وأزدَرِدُ الأمجادَ عَنِيدَهْ

❊ ❊ ❊

معذرةً تبلغُ حدَّ الجُرمِ

---

(١) قصيدة «رسالة إلى سيف الله المسلول»، لمحمود خليل (دار الصحوة).

بإنسانٍ يقترضُ كلامًا من سُوقِ نخاسةِ أهْلِيهْ
أتمنَّى... لو أكتُبُ عنك بأيَّام العَصْفِ وساعاتِ الزَّحفْ
أو أكتبُ فيك ومنك فتنسلُّ الكلماتُ شَهِيدهْ
أتمنَّى لو طارتْ عُنقي بسبيلِ اللهِ
كي تُصبحَ عنوانَ قَصِيدهْ

❊ ❊ ❊

يا خالدُ.. عقلُكَ عقلُكْ[1]
دينُكَ دينُكْ.. دَمُكَ ولحمُكْ
ما مِثلُك يَخْفَى النُّورَ عليهِ
وأنت الفارسُ يعرفُ كيف يَرِيشُ السهمَ
وكيف يُحاسِبُ أرضَ اللهِ إذا ما الباطلُ فَاخَرَ فيها
وإذا النُّورُ تَلأْلأَ
فالقاعدُ شرُّ الناسِ.. وملعونٌ مَنْ كَابَرَ فيها
يا رافعَ إرْثِ الخيلِ تليدًا.. وعتيدًا
يا جَارَ الماحِلِ والمائلِ.. والمنقطعِ
ويا عِزَّ المستضْعَفِ فيها

❊ ❊ ❊

وَدَرَجْتَ بأعتابِ العِزَّةِ
أَسْمَعْتَ الأرضَ أناشيدَ رِمَاحِكْ

---

(١) هو أخوه الوليد بن الوليد الذي سبقه إلى الإسلام، وقال له: يا خالد، عقلك عقلك، سألني عنك رسول الله ﷺ.

وَرَوَيْتَ البيداءَ دماءَ الكفرِ
ولقَّنْتَ فِراشَ الموتِ أغَارِيدَ جِراحِكْ
شوَّقتَ العالَمَ أن يقفَ على حدِّ السيفِ
لكي يسمعَ قصةَ سيفكِ وقوافيها
علَّمتَ خيولَ اللَّه بأن تَحْمِلَ مَنْ
وتطيرَ إلى اللهِ بِمَنْ
أن تَدْفَعَ بشَكَائِمِهَا
وتُنازِلَ بحوافِرِها
وتُهَلِّلَ بنواصيها

❊ ❊ ❊

يا خالدُ
رُجحانُ العقلِ تَعَانَقَ فيك ورجحانُ السيفِ
ورجحانُ الْمُحْتِدِ
والصَّهوةُ كانت طَوْعَ يَديكْ
يا خالدُ.. اللَّه عليكْ
علَمني كيف هَصَرْتَ غرابيبَ الأرضِ السوداءِ
وكيف ملكتَ العربَ النَّكراءَ
وكيف بقرتَ أجاديبَ البيداء الموحشةِ
فأضحتْ قِرْبَةَ ماءٍ في كَفَّيكْ
يا خالدُ
لا يُبْصِرُ قومٌ وجهكَ.. قلُّوا أم كثُروا إلا انهزموا عنكَ

فلا أحد أيمن طائر منكَ

ولم تعرف هذي البيداءُ أَحَدًّ عليها مِن سيفكَ

فهو السيفُ البازِغُ من فيضِ نبوءاتِ رسولِ اللهِ

وَقَدِمَ الرَّكبُ المكيُّ الفارِغُ في المجدِ إلى مجدِ رسولِ اللهِ

لكي تنبتَ أشجارُ الضوءِ الموغِلةُ.. بِعُمقِ الأرضِ

الباسقةُ إلى عِلِّيِّينْ

فلذاتُ الكَبِدِ القُرَشِيَّة عانَقَهَا أَلَقُ الدِّينْ

وحباها اللَّه مِن النُّورِ الأوَّلِ برسولِ اللهِ مناراتٍ للتَّمكِينْ

يا خالدُ

مولودٌ أنت بِظَهْرِ الخيل

أخَالُكَ لا تأكلُ إلَّا بالسيفِ

تلوتَ كتابَ اللَّه على هاماتِ الكفرِ بسيفِك حرفًا حرفًا

ودخلتَ الإسلامَ كبيرًا

وجناحُ الرَّهبةِ فيكَ.. وفي ابنِ العاصِ جناحُ الحيلةِ

يا جَبَلا أمجادِ قُريشْ

لا طابَ مُقامُكَ دونَ الحقِّ ولا طابَ العيشْ

وكأن مكانكَ في الإسلامِ يُناديكَ

وتنتظِرُكَ ساريةُ الجيشْ

يا خالدُ

يا صاحِبَ «ناصيةِ رسولِ اللهِ»

ويا صانِعَ مِنْ شَعراتِ الخيرِ رِماحًا

تُطلقُها مِن جبهةِ أسَدِ الإسلامِ وتدفعُها

في صُحبةِ سيفِ اللهِ
هل يعلمُ أجنادُ الأرضِ بأنَّ الشِّعْرَ يصيرُ رِماحًا
وبأنَّ الدعواتِ تُزلزِلُ أوتادَ الأرضِ
وتفتحُ في الكُربةِ ساحًا

* * *

يا خالدُ
أفزَعَكَ سقوطُ قَلَنسُوَتِكَ في اليرموكِ
فَرُحْتَ تُغَرْبِلُ في الميدان وليسَ عَلَيكَ.. أتقعُ على الموتْ
أم يقعُ الموتُ عليكَ
فناصيةُ رسولِ اللهِ ستَقْمَعُ ناصيةَ الرومِ
وقد قمعتْ ناصيةَ الفُرسِ
سترفعُ ناصِيتَكَ حين تَمُرُّ إلى الجنَّات بإذن اللهِ
يا شاهرَ سيفِ الإِسلامِ.. ويا فاتحَ أرض اللهِ
وباسطَ ظِلِّ كتابِ اللهِ
لم تَعْهَدْ بعدَك خيلُ اللّه مليكًا تُسلِّمه سُرُجَ العِزَّةِ
وتطيرُ به في اللّه إلى مرماهْ
علِّمْني أنَّ المؤلدَ في الموْتِ حياهْ
«لا نامتْ عينُ الجُبنَاء».. ولا كانَ السيفُ المُغْمَدُ
والجفْنُ المُغْمَضُ... لا كان الكفُّ المغلولُ بِعُنُقِ الخوفِ
المُسْتَنْوِقُ في زَيْفِ خطاهْ

* * *

يا خالدُ

مِن طعنةِ رمحكِ أتنزَّى بعض الأحْرُفِ

كي أنسبَ يومًا للصَّدإ المعروق على أسْمالِكْ

مِنْ أسْفَلِ أسفلِ بئرِ الخيبةِ

أقتلِعُ كُلَيْماتٍ لاهثةً خلفَ ظِلَالِكْ

معذرةً.. ما حيلةُ مَنْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْيِ.. المُنْخَنِسِ الضَّائعِ

معذرةً.. ما شَرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ

أو وَطْءِ نِعَالِكْ

* * *

يا خالدُ

هل تأذنُ أنْ أرفعَ بصمةَ حافرِ خيلكَ

لتصيرَ شعارًا لبيانٍ يُلقى في يوم النصرِ المقبِلِ إن شاء اللهْ

هل تأذنُ بإعارة سرج جوادِكَ يومًا

كي يعرفَ حاكمُنَا المُطَهَّمُ

ما معنى الخيل المُسْرَجَةِ لِنُصْرَةِ دينِ اللهْ

يا خالدُ

لو رمحٌ منكَ يمرُّ الآنَ.. لكانتْ رايتُنَا أعْلَى

لو سيفٌ منكَ يكرُّ الآنَ.. لكانت حُجَّتُنَا أجْلَى

لو سهمٌ منكَ يجيءُ الآنَ.. لكانت كلمتُنَا أحلى

لو كانَ لدينا وتدٌ مِن خيمتِكَ الآن

شكيمةُ فَرَسِكَ.. دِرعُكَ

لو أنَّ لدينا شيئًا ينتسبُ إليكَ الآنَ
لأصبحنا شيئًا آخرَ
ولصِرْنَا بعد هُنَيْهاتٍ عندكْ
لو شوكةُ رمحكِ تبقرُ بطنَ ولاةِ الأمرِ
لهانَ الأمرُ.. وأصبحْنَا من خيرةِ جُندِكْ
يا خالدُ
أنَسَيْتَ الرُّومَ وسَاوِسَهُمْ
وبطونُ النِّسوةِ عَقِمَتْ أن تَلِدَ قرينًا لكْ
يا من فَرَّجْتَ عن الصِّدِّيق
وأعلاك الفاروقُ.. وقال: قد أَمَّرَ خالدٌ نفسَهْ
وبسيفك
قد فُتِنَ الناسُ وقالوا
في سيفِكَ يسكُنُ سرُّ النَّصرِ
وأعناقُ الجبَّارِينَ أَبَتْ أن تُقطفَ إلَّا بهْ
وتلوتَ على النَّاسِ كلامًا يَبْرُقُ كالرَّعدِ
اللَّه عليك.. وأنتَ بِقِنَّسْرِين
إذ الميدانُ يؤزُّ.. وأضلاعُ الفتنةِ كادتْ تعتصِرُ الجُندَ
وأنتَ تمدُّ حبالَ الثِّقةِ إلى مولاكَ
فتُطلِقُ هذا القولَ سراجًا وَهَّاجًا
أمْضَى من كلِّ سلاحٍ عَرفَتْهُ الفُرسُ على النِّيرانْ

* * *

يا خالدُ
علَّمَكَ اللَّه بأنْ تضربَ فوق الأعناقِ
وأن تَضِربَ منهمْ كلَّ بَنَانْ
هل عرفَ العالمُ قبلَكَ هذي الحِكمةْ
«واللهِ.. لو أنَّ عدُوِّي في بطنِ سماواتِ الله
لَيَرْفَعُنِي اللَّه إليه.. أو يُنزِلهُ اللَّه إليَّ»

❊ ❊ ❊

اللَّه عليك وأنت بِحِمْصَ تفوحُ كَزَهْرِ الشَّامْ
وتحلُو أحلى من فاكهةِ الشَّامْ
والناسُ حواليْك تَدورُ.. وأنت البدرُ
وقد أعلى ربِّي فيكَ العِزَّةَ والإقدامْ

❊ ❊ ❊

اللَّه عليك.. وسيفُك يجتثُّ العُزَّى
ويُحِقُّ الحقَّ ويقطعُ دابِرَ كلِّ هَلُوكْ
يا شامةَ يومِ الفتحِ.. ويا قامِعَ مَنْ بَدَءُوكْ
أميرًا كنتَ.. وسيفكَ كان أميرا
والرُّمحُ البازغُ مِنْ كفَّيْكَ أميرا
وجوادُك كان أميرا
والقوسُ الرَّائِشُ منك السهم أميرا
يا خالدُ
يا قَصَّابَ الكُفْرِ

ويا قامِعَ وسوسةِ الكفرِ على اليرموكْ

«إذا دُعِيَ أجابَ»

«وإن نُودِيَ لَبَّى»

«وإذا سمِعَ الهَيْعَةَ طَارَ إليها»

لكنَّ الطاعةَ والسَّمْعَ جهادٌ

الفتنةُ فيه تفُوقُ القتْلَ

فكنتَ على التَّوِّ السيفَ المُغْمَدَ

في وقتٍ كنتَ عليه السَّيِّدَ

كانَ النصرُ إلى مقبضِ سيفكِ يَحْبُو

وجنودُ اللَّه بدُونِكَ تكبو

في وقتٍ كنتَ تُعِيدُ على العالمِ فيه قراءةَ قولِ اللهْ

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾

وجعلتَ الكفرَ أحاديثَ

وأضحى الباطلُ من طائف طَيْفِكَ يَحْبُو

لكنَّكَ تسمعُ وتطيعُ.. وإن كانَ أميرُكَ عبدًا حبشيًا

ودروس الطاعةِ ليستْ بالشيءِ الهَيِّنْ

في وقتٍ يتحدَّثُ فيه السيفُ

ولكنَّكَ كُنتَ الفارسَ

وضربتَ مثالًا لجنودِ اللهِ بأرضِ اللهِ إلى يومِ الدِّينْ

* * *

يا خالدُ

ماذا تصنعُ ورجالُكَ معذورونَ إذا فُتِنُوا في هذا السيفِ
فما عهدوا سيفًا مثْلَكَ ينطقُ بالقولِ الفَصْلِ
ويكتُبُ خاتمةَ الأشياءْ
فَتَغَلْغَلَ في أعماقِ الجندِ يقينٌ يهمسُ
«في خالدِ.. يسكنُ سرُّ النَّصْرِ»
فخالدُ رجلٌ
ميمونُ السَّاعِدِ
ميمونُ النَّصْلِ ولا يخشى لومةَ لائمْ
فتلا الفاروقُ الدرسَ الغالبَ في التوحيدِ
وَمَنْ يَجرؤُ أن يُمْلِيَ هذا الدَّرْسَ سوى الفاروقِ
وَمَنْ يفهمُ هذا الدرسَ سوى خالدْ
يا صَاحِبَ «**نهر الدمِ**» وقامِعَ رأسِ «**الرِّدَّةِ**»
يا قارئَ في كَونِ اللهِ على العادِينْ
﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾
﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾
يا هادِمَ ما عَبَدَ أبوكْ
وناصِر ما هُدِيَ أخوكْ
اللهَ عليكْ.. يا مَنْ أخْلَيْتَ الحاجِبَ ما بين المالكِ والمملوكْ

* * *

وبسيفكَ قُمتَ بِلَمِّ الأرضِ على الإسلامْ
والضوءُ السَّابغُ من هذا البدرِ أنار مَجَاهِيلَ الكوكبِ

أخرجَهُ للنُّورِ مِن الإظلامْ
وأحالَ الآياتِ جنودًا تَزْحَمُ عينَ الشَّمسِ
وخيلًا تَهْدِرُ بالإلهامْ

* * *

اللَّه عليكَ وأنت تَميدُ على اليرموكِ وقِنَّسْرِينَ
وإذْ بالفاروقِ يُقرِّرُ
أن يُعزلَ خالدُ فورًا
أن يُعقلَ بِعمامتِهْ
أن تُنْزَعَ عنه قلنْسُوَتُهْ
ذلك حتى يُعْلِمَنَا من أين أجاز الأشعث
هل من مالهْ
أم من مال اللهْ
إن كان بمالِ اللهِ فقد خانَ الأُمَّةَ
والخائنُ لا يُؤتَمَنُ على شيءٍ بعدْ
وإذا كان بمالِهْ
فلقد أسْرَفَ
ولسوفَ نُقَاسِمُهُ المالَ مُناصَفةً
حتى نَعْلَمَهْ
فابتسمَ الناسُ وقالوا: هذا لا يُصلِحُهُ إلا هذا
وبرغم قبولِ الأمرِ بصبرِ المؤمنِ وَثَبَاتِ القائدِ
وَثَبَ بِلال إليكَ

ونفَّذَ أمرَ الفاروقِ

وَنَقَضَ عِمامَتكَ الشامةَ واعْتَقَلَكَ فيها

اللهَ عَليكَ

وأنت ذَلُولٌ.. لا تمنعُ مَنْ يصنعُ ذلكَ

بل تبسطُ وجهكَ لبلال وتُعربُ

«نسمعُ ونطيعُ ولاةَ الأمْر»

وأنت الفاقِهُ معنى الطاعةِ

كان جوابُكْ

ما أنا مِمَّنْ يعصي

فاصنعْ ما يبدو لكْ

يَسَّاقطُ هذا العَدْلُ العُمَرِيُّ ثمارًا تنطقُ

يا خالدُ

«إنكَ لكريمٌ واللهِ عليَّ»

«وإنكَ لحبيبٌ واللهِ إليَّ»

«ولنْ تعتِبَ بعدَ اليومِ عليَّ على شيءٍ أبدًا»

يا تمرًا أيْنَعَ في شجر النُّصْرَةِ

والفتح الأعظمِ.. يا أملًا في كلِّ تقيٍّ

يا خالدُ

كنتَ جهادًا للإسلامِ بِطُولِ الأرضِ.. وعرضِ الأرضِ

وعُمقِ الأرضِ

وكنتَ بفضلِ اللّه مَهِيبًا

كنت تودُّ بأنْ تُستشهدَ مِلْءَ جهادِكَ.. فوقَ جوادِكَ

فِي معمعةٍ تشهدُ أنَّكَ صرتَ أميرًا للشهداءِ
وأن دماءَكَ تقطرُ طِيبًا
ما بقيَ بجسمِكِ موضعُ
إلَّا وَبِهِ طعنةُ رُمْحٍ
أو رميةُ سهمٍ
أو ضربةُ سيفٍ
جسدُكَ صار كتابَ جهادٍ يَقْدَحُ في الظُّلماتِ لَهِيبًا
فاهنأْ في عِلِّيِّينَ.. تُرَفرفُ روحُكَ
بحواصِلِ طيرٍ خُضرٍ
تَرِدُ مياه الجنَّةِ
تأوِي لقناديلَ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ
وتُؤويكَ إلى اللَّه مُبِينًا

* * *

يا خالدُ
تحمل هذي الكلماتُ إليك.. ذراعًا من كَشْمِيرْ
وبقايا طفلٍ من بورما
وحقيبةَ طفلٍ من لبنانْ
تحملُ عينًا مِن بلغاريا
تحملُ شبحًا من قلبِ بُخارَى
تحملُ مِن بيت المقدسِ نصفَ لسانْ
تحملُ عَصَبًا ينزِفُ فوقَ الثَّلجِ

ويُستشهدُ فوق القرآنْ
تحملُ مِن قلبِ الأزهرِ شيخًا مصلوبًا
مسلوبَ الجُبَّةِ والقفطانْ
مغلولَ السَّاعِدِ.. منزوعَ الأضلُعِ والأسنانْ
تحملُ جاريةً أُسِرَتْ في تونسَ ساجدةً
ينقرُ عِفَّتَهَا الغربانْ
تحملُ صورةَ بيتٍ منهوبٍ في وهرانْ
وفتاةٍ أكلوا عُذْرِيَّتَهَا
نَهَشُوهَا دَنَسًا
مئذنةً شامخةً من أرضِ البوسنةِ والهرسكْ
يعلوها نَجَسُ الصُّلْبانْ
يا خالدُ
خارِطَتي فاجعةٌ جدًّا
لا أَذْرُعَ فيها.. لا قلبَ.. ولا سيقانْ
خارطتي فاقدةُ النطقِ
وفاقدةُ السَّمْعِ
مُسجَّاةٌ.. تُحْتَضَرِ الآنْ
قتلانا من غيرِ قبورٍ
أبدانٌ من غيرِ رءوسٍ.. منبرُنا يرعُفُ بالبُهتانْ
في سيفِكَ بعضُ البُرْءِ
لا نجدُ لموتانا لحدًا

لا نملكُ ثمن الأكفانْ

* * *

يا خَالدُ

يتصبَّبُ لحمي خجلًا وأنا أكتبُ عنكَ

وأختطفُ حروفًا من رَهَج الخيلِ

ولا أعرفُ كيف أصُولْ

سامحني

لا أملكُ شيئًا أبدًا في هذا الزَّمَنِ المشلولْ

لا أعرفُ كيف أُمَيِّزُ بين القاتلِ والمقتولْ

قد أضحتْ كلُّ خياناتِ الأرضِ بأرضي فاكهةً

سامحني.. نحنُ الفاعلُ والمفعولْ

يا خَالِدُ

في هذا الزمنِ المخبولْ

أتنزَّى بعضَ الأحْرُفِ

كي أنسبَ يومًا للصَّدإِ المعروقِ على أسْمالِكْ

من أسْفَلِ أسفلِ بئر الخيبةِ

أقتلعُ كُلَيْمَاتٍ لاهثةً خلفَ ظِلَالِكْ

معذرةً

ما حيلةُ منْ وُلِدَ بِعَتَبَاتِ الخِزْي

المُنْخَنِسِ الضَّائع

ما شَرُفَ الميدانُ بحافِرِ خيلِكَ.. أوْ وَطْءِ نِعَالِكْ

فاسْمَحْ لِيْ

أن أرفعَ بصمةَ حافِرِ خَيلكَ لتصيرَ شِعَارًا

لبيانٍ يُلقى في يومِ النصرِ المقبلِ إنْ شاءَ الله

❊ ❊ ❊

١٧

القائدُ الشهيدُ حِبُّ رسول اللّه ﷺ

وأكثر قادة النبي في قيادة سراياه

والصحابي الوحيد الذي ذُكِرَ اسمه في القرآن الكريم

زيد بن حارثة الكلبي رضي الله عنه

بوركتَ يا زيدُ بن حارثة فما	لك في الموالي الصالحين نَظِيرُ
إيهِ أميرَ الجندِ ليس كمثله	جُندٌ ولا مِثْلَ الأميرِ أميرُ

١٧

القائدُ الشهيدُ حِبُّ رسول اللّه ﷺ وأكثر قادة النبي في قيادة سراياه والصحابي الوحيد الذي ذُكِرَ اسمه في القرآن الكريم

زيد بن حارثة الكلبي رضي الله عنه

بوركتَ يا زَيدُ بن حارثة فما ... لك في الموالي الصالحين نَظيرُ

إيهِ أميرَ الجندِ ليس كمثله ... جُندٌ ولا مِثْلَ الأميرِ أميرُ

من هذا الذي حَمَلَ دون سواه لقب الحِبِّ.. حب رسول اللّه ﷺ؟!

إنه العظيم الذي اختار العبودية مع رسول اللّه ﷺ على الحرية مع أبيه وعمه وأهل بيته؛ قال له رسول اللّه ﷺ أمام أبيه وعمه: «**أنا مَن قد علمت ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما**»؛ فقال زيد: «**ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني بمكان الأب والأم**»؛ فقال أبوه وعمه: «**ويحك يا زيد!! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!** قال: «**نعم!! إني قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا**».

فلما رأى رسول اللّه ﷺ ذلك، أخرجه إلى «**الحِجْر**» فقال: «**يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا أرثه ويرثني**»، فلما رأى ذلك أبوه وعمُّه، طابت أنفسهما وانصرفا؛ فدُعي زيد بن محمد، حتى جاء اللّه بالإسلام»[(١)].

عن عبداللّه بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «**أن زيد بن حارثة مولى رسول اللّه ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن:**

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤١، ٤٢)، وأنساب الأشراف (١/٤٦٨، ٤٦٩)، والإصابة (٣/٢٥)، وتهذيب ابن عساكر (٥/٤٥٦، ٤٥٧).

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[١].

إنَّ نَبَأَهُ لعظيم جد عظيم.. فهو الصحابي الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم؛ قال الزهري: «**أول من أسلم زيد بن حارثة**»[٢]، وكان يقول: «**أول من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال زيد بن حارثة**»[٣].

❑ **وهو أول من أسلم من الموالي باتفاق أهل العلم.**

أَحَبَّهُ رسول اللَّه ﷺ حبًّا عظيمًا، وكان بهذا الحب خليقًا وجديرًا.. فوفاؤه لا نظير له، وعظمة روحه وعفة ضميره ولسانه ويده تضرب بها الأمثال...

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يزين خصال «**زيد بن حارثة**» أو «**زيد الحبِّ**» كما كان يُلقِّبه أصحاب الرسول ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

عن عبداللَّه بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**بعث النبي ﷺ بعثًا، وَأَمَّرَ عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته؛ فقال النبي ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون من إمارة أبيه من قبل، وايم اللَّه إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**»[٤].

❑ **قول النبي ﷺ لزيد: «أنت أخونا ومولانا».**

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ لزيد: «**أما أنت يا زيد فأخونا ومولانا**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥)، والترمذي (٣٢٠٩)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه أحمد (١٠٦/٢، ١١٠)، وابن أبي شيبة (١٢٣٥٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٢٩/١/٣).

(٢)، (٣) أنساب الأشراف (٤٧٠/١، ٤٧١)، وابن الأثير (٥٩/٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٣٠)، وفي عدة مواضع من «صحيحه»، ومسلم (٢٤٢٦)، وأحمد (٢٠/٢)، وفي «فضائل الصحابة» (١٥٢٥).

(٥) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٥٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٢٩/١/٣)، وله طريق أخرى عند ابن أبي شيبة (١٢٣٦٠)، وأبو يعلى (٤٠١/١، ٤٢١)، وأحمد (٩٩/١، ١١٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٢٩/١/٣) عن علي مرفوعًا، وسقط ذكر علي عند ابن أبي شيبة، ورواه البخاري مطولًا (٤٢٥١) عن البراء وفيه: «وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا».

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٧/٥٨٠): «**وقال لزيد: «أنت أخونا»**؛ أي: في الإيمان «**ومولانا**»؛ أي: من جهة أنه أعتقه، وقد تقدم أن مولى القوم منهم».

وكان النبي ﷺ شديد الثقة بأمانة زيد، وحسن تصرفه، ورجاحة عقله، وشجاعته.

فقد أَوْفَدَهُ النبي ﷺ من المدينة إلى مكة مع أبي رافع مولاه، فحملا سودة بنت زمعة أم المؤمنين، وفاطمة بنت النبي ﷺ، وأم كلثوم ابنة النبي ﷺ، فقدم زيد وأبو رافع بزوج النبي وابنتيه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ - المدينة والمسجد يُبْنَى[١].

وأوفده مع رجل من الأنصار إلى مكة لحمل زينب ابنة النبي ﷺ إلى المدينة، وقال لهما: «**كونا ببطن (يأجج)**[٢] **حتى تَمُرَّ بكما زينب، فَتَصْحَبَاهَا حتى تأتياني بها**»، فخرجا إلى مكة بعد غزوة بدر الكبرى بشهر أو قريب منه، فاستلمها زيد وصاحبه، وقدما بها على رسول اللَّه ﷺ[٣].

❑ زيد بن حارثة من الرماة المذكورين في غزوة بدر، وهو قاتل حنظلة بن أبي سفيان في بدر:

كان زيد رضي الله عنه من الرماة المذكورين من أصحاب النبي ﷺ في غزوة بدر الكبرى[٤]، وكان لهؤلاء الرماة الأثرُ العظيم في إحراز المسلمين النصرَ في هذه الغزوة الحاسمة عند المشركين.

وقد قَتَلَ من المشركين يوم بدر حَنْظَلَةَ بن أبي سفيان بن صَخْر بن حَرْب بن أُمَيَّة، وكان من مشاهير مشركي قريش[٥].

---

(١) أنساب الأشراف (١/٤١٤).

(٢) يأجج: اسم مكان على ثمانية أميال من مكة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٩٧ - ٢٩٩)، وابن الأثير (٢/١٣٤)، وأنساب الأشراف (١/٣٩٧، ٣٩٨).

(٤) أنساب الأشراف (١/٣٢٣)، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٢)، وطبقات ابن سعد (٣/٤٥).

(٥) جوامع السيرة (١٤٧).

وكان زيدٌ البشيرَ الذي أوفده النبيُّ ﷺ إلى المدينة بفتح بدر[١]؛ فقد بعث النبي ﷺ زيد بن حارثة إلى أهل «**السَّافِلَة**» من المدينة، وبعث عبدالله بن رَوَاحَةَ إلى أهل «**العالية**» بشيرين بنصر المسلمين على المشركين في بدر؛ قال أُسامة بن زيد: «**فَأَتَانَا الخبرُ حين سَوَّيْنَا الترابَ**[٢] **على رُقَيَّةَ ابنة رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفَّان** رضي الله عنه **ـ وكان رسول الله ﷺ قد خَلَّفني عليها مع عثمان ـ أنَّ زيد بن حارثة قَدِمَ؛ فجئته وهو واقف بالمصلَّى، وقد غشيه الناس وهو يقول: قُتِلَ عُتْبَةُ بن ربيعة، وشَيْبَةُ بن ربيعة، وأبو جَهْل بن هشام، وَزَمْعَةُ بن الأَسْوَدِ، وأبو البَخْتَرِي العاص بن هشام، وأُمَيَّةُ بن خَلَفٍ، ونُبَيْهٌ ومُنَبِّهٌ ابنا الحجَّاج. قلت: يا أبتِ، أحقٌّ هذا؟! قال: نعم والله يا بُنَيَّ!!**»[٣].

وكان رجل من المنافقين قد قال لِأُسامة بن زيد: «**قُتِلَ صاحبكم ومَنْ معه**»، وقال آخر منهم لأبي لُبَابَةَ: «**قد تَفَرَّقَ أصحابكم تَفَرُّقًا لا يجتمعون بعده، وَقُتِلَ محمَّد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرُّعْبِ**»، قال أُسامة بن زيد: «**فأتيتُ أبي، فَكَذَّبَ قول المنافقين**»[٤].

وهكذا استطاع زيد أن يبدِّد مخاوف أهل المدينة، ويكذِّب إشاعات المنافقين المغرضة، ويعيد الهدوء والاطمئنان إلى المدينة.

❑ زيد بن حارثة خليقٌ بإمارة وهو أمير تسع سرايا من سرايا النبي ﷺ، وما بعثه رسول الله في جيش إلا وكان أميره:

عن أم المؤمنين عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «**ما بعث رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أَمَّرَهُ عليهم، وإن بقي بعده**

(١) المحبر (٢٨٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٢)، وأُسْد الغابة (٢/٢٢٦).

(٢) يريد: دفنوها وسووا التراب على قبرها.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) أنساب الأشراف (١/٢٩٤)، وانظر: المغازي (١/١١٤).

استخلفه»[1].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «**غزوتُ مع رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة تسع غزوات يؤمره رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ علينا**»[2].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: غزوت مع النبي ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ تسع غزوات، وغزوت مع ابن حارثة استعمله علينا[3].

قال الحافظ ابن حجر: «**ورواه أبو مسلم الكجي عن أبي عاصم بلفظ: «وغزوت مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا»**»، وكذلك أخرجه الطبراني عن أبي مسلم بهذا اللفظ، وأخرجه أبو نعيم في «**المستخرج**» عن أبي شعيب الحراني عن أبي عاصم كذلك، وكذا أخرجه الإسماعيلي من طرق عن أبي عاصم، وقد تتبعتُ ما ذكره أهل المغازي من سرايا زيد بن حارثة؛ فبلغت سبعًا؛ كما قاله سلمة، وإن كان بعضهم ذكر ما لم يذكره بعض.

فأولها: في جمادى الآخرة سنة خمس قِبَلَ نجد في مئة راكب.

والثانية: في ربيع الآخر سنة ست إلى بني سليم.

والثالثة: في جمادى الأولى منها في مئة وسبعين، فتلقى عيرًا لقريش، وأسروا أبا العاص بن الربيع.

والرابعة: في جمادى الآخرة منها إلى بني ثعلبة.

---

(1) حسن: أخرجه أحمد (٢٥٤/٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٥٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٣١/١/٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢١٥/٣)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٧٩).

(2) إسناده صحيح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣١/١/٣)، والحاكم (٢١٨/٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «هو في البخاري في الثلاثيات، ولفظه: «وغزوت مع زيد وكان يؤمره علينا»».

(3) رواه البخاري (٤٢٧٢) في كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الحرقات، وانظر: صحيح مسلم (١٨١٥).

والخامس: إلى حُسْمَى ـ بضم المهملة وسكون المهملة مقصور ـ في خمس مئة إلى أناس من بني خدام بطريق الشام، كانوا قطعوا الطريق على دحية وهو راجع.

والسادسة: إلى وادي القرى.

والسابعة: إلى ناس من بني فزارة، وكان خرج قبلها في تجارة، فخرج عليه ناس من بني فزارة؛ فأخذوا ما معه وضربوه؛ فجهزه النبي ﷺ إليهم؛ فأوقع بهم، وقتل أُمَّ قِرْفَةَ ـ بكسر القاف وسكون الراء بعدها فاء ـ؛ وهي: فاطمة بنت ربيعة بن بدر زوج مالك بن حذيفة بن بدر عم عيينة بن حصن بن حذيفة، وكانت مُعَظَّمَةً فيهم، فيقال: ربطها في ذنب فرسين وأجراهما فتقطعت، وأسر ابنتها، وكانت جميلة، ولعل هذه الأخيرة مراد المصنف، وقد ذكر مسلم طرفًا منها في حديث سلمة بن الأكوع[١].

❑ زيد بن حارثة قائد سرية القَرَدَة[٢]:

هي أول سرية خرج فيها زيد أميرًا، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهرًا[٣] من مهاجر النبي ﷺ؛ أي: في السنة الثالثة.

وكانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها، وخافوا من رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، وكانوا قومًا تجارًا، فقال صَفْوان بن أُميَّة: «**إنَّ مُحَمَّدًا وأصحابه قد عوروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون السَّاحل، وأهل السَّاحل قد وَادَعَهُمْ ودخل عامَّتُهُمْ معه؟ فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن في دارنا هذه، ما لنا بها نِفَاق**[٤]، **إنما نزلناها على التجارة: إلى الشام في**

---

(١) فتح الباري (٥٧٠/٧).

(٢) القردة: من أرض نجد، بين الرَّبذة والغَمَرة ناحية ذات عرق؛ انظر: طبقات ابن سعد (٣٦/٣)، ومعجم البلدان (٥٠/٧).

(٣) مغازي الواقدي (١٩٧/١)، أما في طبقات ابن سعد (٣٦/٢) فجاء: على رأس ثمانية وعشرين شهرًا.

(٤) مغازي الواقدي (١٩٧/١)، وفي بعض النسخ: «ما لنا بها بقاء». والنفاق: جمع النفقة.

الصَّيف، وفي الشتاء إلى أرض الحبشة»، فقال له الأسود بن المطَّلب: «**فَنَكِّبْ**[١] **عن السَّاحل، وخذ طريق العراق**».

ولم يكن صفوان عالِمًا بطريق العراق، فاستأجر دليلًا يدعى: «**فُرَاتَ بن حَيَّان العِجْلِيَّ**» الذي قال لصفوان: «**أنا أسلك بك طريق العراق، ليس يطؤها أحد من أصحاب محمَّد، إنما هي أرض نَجْدٍ وفيافٍ**»، فقال صفوان: «**فهذه حاجتي، أما الفيافي فنحن شَاتُونَ، وحاجتنا إلى الماء اليوم قليل**».

وتجهَّز صفوان، وأرسل معه أبو زَمْعَةَ بثلاث مئة مثقالِ ذهبٍ ونُقَرِ[٢] فضَّةٍ، وبعث معه رجالًا من قريش ببضائع، وخرج معه عبدالله بن أبي ربيعة وحُوَيْطِب ابن عبد العُزَّى في رجال من قريش، وخرج صفوان بمال كثير «**نُقَر فضَّة، وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم**»، وخرجوا على «**ذات عِرْق**»[٣].

وقدم المدينة نُعَيْمُ بن مسعود الأشْجَعِيُّ، وهو على دِينِ قومه، فنزل على كِنَانَةَ ابن أبي الْحُقَيْقِ في بني النَّضِير من يهود، فشرب معه، وشرب معه سَليط بن النُّعمان بن أسلم ـ ولم تحرَّمِ الخمر يومئذٍ ـ وهو يأتي بني النَّضِير ويصيب من شرابهم، فَذَكَرَ نُعَيْمُ خروج صفوان في عِيرِهِ وما معهم من الأموال؛ فخرج من ساعته إلى النبيِّ ﷺ فأخبره؛ فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في مئة راكب، فاعترضوا عِيْرِ قريش وأصابوها، وَأَفْلَتَ أعيان قريش، وأسروا رجلًا أو رجلين.

وقدم زيد بالعِيْرِ على النبيِّ ﷺ، فخمَّسها؛ فكان الخمس يومئذٍ قيمة عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي على أهل السرية.

وكان في الأسرى فُراتُ بن حَيَّان، فَأُتِي به؛ فأسلم[٤].

---

(١) نكب عنه: عدل وتنحى.

(٢) النقر: القطعة المذابة من الذهب والفضة.

(٣) ذات عرق: مَهَلُّ أهل العراق للحج، وهو الحد بين نجد وتهامة.

(٤) مغازي الواقدي (١/١٩٧، ١٩٨)، وطبقات ابن سعد (٢/٣٦)، وسيرة ابن هشام (٢/٤٢٩، ٤٣٠).

وهكذا صَعَّدَ النبي ﷺ بهذه الغزوة الحصار الاقتصادي على قريش، فهدد طريق تجارتهم إلى العراق أيضًا، بعد أن هَدَّدَ طريق «**مكَّة ـ الشَّام**»، وطريق «**مكَّة ـ الطائف**» في غزواته وَسَرَايَاهُ السابقة.

ولله دَرُّ القائل في هذه السرية:

نهض الغزاةُ فأين تمضي العِيرُ؟ أَعَلَى الْغَمَامِ إلى الشآم تسيرُ؟
زيدُ بنُ حارثةٍ يطيرُ وراءَها مَا ظَنُّهَا بِالنَّسْرِ حِينَ يَطِيرُ
مهلًا أبا سفيان إن طِلَابَكُم عِسِرٌ وإنَّ مصابَكُم لكبيرُ
صفوان يُرْعِدُ[1] خِيفةً وحُوَيْطِبٌ مما عراه مُروَّع مذعورُ
زولوا بأنفسكم فتلك حتوفها غضبى إليها بالسيوف تشيرُ
هي غارةُ البطل المظفر ما لكم منه إذا خاض الغِمَارُ مجيرُ[2]
ظَنُّوا الظنونَ به فلما استيقنوا زالوا عن الأموال وهي كثيرُ
أَمْسَتْ تُسَاقُ إلى النبي غنيمةً لله فيها فضلُهُ المشكورُ
تلك المغانمُ ما لها كمحمَّدٍ في الناس من أحد إليه تَصِيرُ
هي قوةٌ للمسلمين ومظهرٌ للقائمين على الجهاد خطيرُ
بوركت يا زيدُ بنُ حارثةٍ فما لك في الموالي الصالحين نظيرُ
إيهِ أميرَ الجند ليس كمثله جُنْدٌ ولا مِثْلَ الأميرِ أميرُ

❑ سريَّة زيد إلى سُلَيْم بالْجَمُوم[3]

بعث النبيُّ ﷺ إلى بني سُلَيْم بِالْجَمُوم في شهر ربيع الآخر من سنة ست الهجريَّة زيدًا، فسار على رأس سريته التي لا نعرف تعداد رجالها حتى ورد الْجَمُوم ناحية «**بطن نَخل**»[4] عن يسارها، وبطن نَخل من المدينة على أربعة بُرُدٍ، فأصابوا

---

(١) أرعد الرجل: أصابه رعد، وهنا بمعنى خاف.

(٢) الغمار: الشدائد، والمجير: المغيث والمنقذ.

(٣) الجموم: أرض لبني سُلَيْم؛ انظر: معجم البلدان (٣/١٤٠).

(٤) بطن نخل: جمع نخلة، قرية قريبة من المدينة، على طريق البصرة؛ انظر: معجم البلدان (٢/٢٢١).

عليه امرأة من مُزَيْنَةَ يقال لها: حليمة. فدلتهم على محلَّة من محالِّ بني سُليم؛ فأصابوا في تلك المحلَّة نَعَمًا وشاءً وأسرى، فكان فيهم زوج حليمة المُزَنيَّة، فلما قفل زيد بما أصاب، وَهَبَ رسول اللَّه ﷺ للمُزَنيَّةِ نفسَها وزوجها، فقال بلال بن الحارث في ذلك شعرًا:

لعمرُكَ ما أخنى المَسُول ولا وَنَتْ ... حليمةُ حتى راحَ رَكبُهُما معا[١]

وكان الهدف من هذه السرية تأمين المدينة القاعدة الأمينة للإسلام، وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التي حولها، وتشديد وطأة الحصار الاقتصادي على قريش وحلفائها.

يقول أحمد محرم الشاعر في هذه السَّرية في ديوانه «**مجد الإسلام**»:

بَني سُلَيْمٍ أَعِدُّوا الخيلَ واحترِسُوا ... إن كان ينفعُكُم كَرٌّ وإقدامُ

زيدُ بن حارثةٍ، زيدُ بنُ حارثةٍ ... خطبٌ جليلٌ وجرحٌ ليس يلتامُ[٢]

هل عندكم إن تغشتكم سَرِيَّتُهُ ... للسيف سيفٌ، وللضِرغام ضِرغامُ؟

مشى إليكم فهل قَرَّتْ منازلُكُم ... واستمسكتْ منكمُ الأعناقُ والهامُ؟

أين الأناسِيُّ؟ جلَّ اللهُ، هل مُسِخوا ... لما رأوك فَهُمْ ـ يا زيدُ ـ أنعامُ؟

ما ثم إلا الألى أدركتهم قنصا ... لم يغنه إذ هوى خوف وإحجام

عُدْ بالأُسارى وبالغَنَم التي قَسَمَتْ ... لك القواضب إن الغُنْم[٣] أقسام

❏ قائد سريَّة العِيْص[٤]

بعث النبيُّ ﷺ زيدًا إلى العِيْص، وبينها وبين المدينة أربع ليالٍ، وبينها وبين ذي المَرْوَةِ ليلة، في جمادى الأولى سنة ست الهجريَّةِ؛ فقد بلغ رسول اللَّه ﷺ أنَّ عِيرًا

---

(١) طبقات ابن سعد (٨٦/٢).

(٢) الْتَأَمَ الجرحِ: التحم وبرئ.

(٣) الغَنَم ـ الأُولى ـ: الشاء، ولا واحد لها من لفظها. والغُنْم ـ الثانية ـ: الغنيمة.

(٤) العيص: موضع في بلاد بني سُلَيْم، به ماء يقال له: ذنبان العيص؛ انظر: معجم البلدان (٢٤٨/٦)، بينها وبين المدينة أربع ليالٍ، وبينها وبين ذي المروة ليلة؛ انظر: طبقات ابن سعد (٨٧/٢).

لقريش قد أقبلت من الشَّام؛ فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومئة راكب يتعرَّض لها؛ فأخذوها وما فيها، وأخذوا يومئذٍ فضَّة كثيرة لصفوان بن أُميَّة، وأسروا ناسًا ممن كانوا في العير؛ منهم: أبو العاص بن الربيع.

وقدم زيد بهم المدينة، فاستجار أبو العاص بزينب بنت رسول الله ﷺ، فأجارته، ونادت زينب في الناس حين صلَّى رسول اللَّه ﷺ الفجر: «**إني قد أَجَرْتُ أبا العاص!!**»؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وما علمتُ بشيءٍ من هذا، وقد أجرنا مَنْ أَجَرْتِ**»، وَرَدَّ عليه ما أُخِذَ منه[1].

وهكذا شَدَّدَ النبيُّ ﷺ الخناق في حِصاره الاقتصادي على قريش التي تعيش على التجارة وتموت بدونها.

يا أبا العاصِ، أيَّ أرضٍ تريدُ؟	إن ما تبتغي لصعبٌ شديدُ
سُدَّتِ السُّبل يا أبا العاص فانظرْ	أين تمضي إذنْ وأين تحيدُ؟
أرأيت الحديدَ يُزْجِيه زيدٌ	مُستطيرَ السَّنَا، عليه الحديدُ؟
إيهِ يا ابنَ الربيعِ تلك جنودٌ	تتهاوى عن جانبيها الجنودُ
ليس للعير غيرُها فدع العيـ	ـرَ وعُدْ سالمًا وأنت حميدُ
بَعُدَتْ مكةٌ فلا تُرِدَنْها	وإلى يثربٍ فثَمَّ الوُرُودُ
جاءَ صِهْرُ النبي في نابِ مولا	هُ وللَّيثِ حُكمُه إذْ يَصِيدُ

❑ قائد سريَّة الطَّرَف[2]

بعث النبيُّ ﷺ زيدًا على سرية إلى الطَّرَف في جمادى الآخرة من سنة ست الهجريَّة، والطرف ماء قريب من المَرَاضِ دون النُّخَيل على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة طريق البَقَرة على المحجَّة.

(١) طبقات ابن سعد (٢/٨٧)، وانظر: مغازي الواقدي (٢/٥٥٣ - ٥٥٥).

(٢) الطَّرف: ماء قريب من المرقى دون النُّخَيْل، وهو على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة باتجاه العراق؛ انظر: معجم البلدان (٦/٤٣).

وخرج زيد إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلًا؛ فأصاب نَعَمًا وشاءً، وهربت الأعراب، وصبَّح زيد بالنَّعم المدينة؛ وهي عشرون بعيرًا، ولم يلق كيدًا، وغاب أربع ليالٍ، وكان شعارهم: «**أَمِتْ .. أَمِتْ**»[١].

وكان هدف هذه السريَّة: تأمين المدينة القاعدة الأمينة للإسلام، وفرض سيطرة المسلمين على القبائل بالهجوم عليها؛ لأن الهجوم أنجع وسائل الدفاع؛ إذ إنَّ الأعراب إذا لم يُهاجموا من المسلمين، هاجموا المسلمين؛ كما هو دأبهم.

بنى ثعلبة هُبُّوا ... فإن الليث قد عزَمَا
رماكم بابن حارثةٍ ... رسولُ اللهِ حين رَمَى
زعمتم أنه هو زَعْـ ... ـمَ مَن يَهْذِي وما عَلِمَا
فطارت قَبْلَ مقدمهِ ... نفوسٌ أُشعِرَتْ لَمَمَا[٢]
ونِعْمَ أخو الوغَى زيدٌ ... إذا ما جَدَّ فاقتحَمَا
يخوضُ النَّقعَ مُرتَكِما ... ويَحمي السيفَ والعَلَمَا
تولَّى جمعُهُم فَرَقا[٣] ... ولوْ لَاقَاهُ ما سلما
لبئس الجمعُ ما صَدَقَتْ ... قُوَاهُ وبئس ما زَعَمَا
تَلَمَّسَهُ ابنُ حارثةٍ ... فلا صَدَدًا ولا أَمَمَا[٤]
تَسَرَّبَ في مخابئهِ ... فكان وجودُهُ عَدَمَا
هَلُمَّ هَلُمَّ يا زيدٌ ... هَلُمَّ الشاءَ والنَّعَمَا
رُوَيدَ القوم هل طلبوا ... سِوَى ما يُعْجِزُ الْهِمَمَا؟
مَضوا في إثره، ومضى ... يَجُرُّ حُسَامَهُ قُدُمَا
فما بَلغوه إذ جهدوا ... ولا رَزَءُوهُ مَا غَنِمَا[٥]

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٨٧)، ومغازي الواقدي (٢/٥٥).

(٢) أي: غشيها اللمم؛ وهو: جنون طفيف أو طرف منه يلمُّ بالإنسان.

(٣) الفرق: الفزع.

(٤) الصَّدَدُ وَالأَمَمُ: القرب والقبالة.

(٥) رزأه المال: أصاب منه شيئًا مهما كان؛ أي: نقصه.

قَائِدُ سَرِيَّةِ حِسْمَى(١)

بَعَثَ النبيُّ ﷺ زيدًا على سرية إلى حِسْمَى - وهي وراء وادي الْقُرَى - في جمادى الآخرة من السنة السَّادسة الهجريَّة.

وسبب بعث هذه السرية: أنَّ دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيَّ - وكان مسلمًا ومن كبار الصحابة - أقبل من عند قيصر الرُّوم، وقد أَجَارَهُ وَكَسَاهُ، فلقيه الْهُنَيْد بن عارِض وابنه عارِض بن الْهُنَيْد في ناس من بني جَذَام بـ«**حِسْمَى**»؛ فقطعوا عليه الطريق، ولم يتركوا عليه إلَّا سَمَل ثوب، فسمع بذلك نفرٌ من بني الضُّبَيْبِ؛ فنفروا إليهم، واستنقذوا لـ«**دحية**» متاعَهُ.

وَقَدِمَ دِحْيَةُ على النبيِّ، فأخبره بذلك؛ فبعث زيد بن حارثة في خمس مئة رجل، وَرَدَّ معه دِحْيَةَ.

وكان زيد يسير اللَّيل ويكمن النَّهار، ومعه دليل من بني عُذْرَةَ، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصُّبح على القوم، فأغاروا عليهم وقتلوا فيهم؛ فأوجعوا، وقتلوا الْهُنَيْدَ وابْنَهُ، وأغاروا على ماشيتهم ونَعَمِهِمْ ونسائهم؛ فأخذوا من النَّعَمِ ألف بعير، ومن الشَّاء خمسة آلاف شاة، ومن السَّبي مئة من النساء والصبيان.

ورحل زيد بن رفاعة الجُذَامِيُّ في نفرٍ من قومه إلى رسول اللَّه ﷺ، فدفع إلى رسول اللَّه ﷺ كتابه الذي كان كَتَبَ له ولقومه لَيَالِيَ قَدِمَ عليه فأسلم، وقال: «**يا رسول الله، لا تُحَرِّمْ علينا حلالًا ولا تُحِلَّ لنا حرامًا**»، فقال: «**كيف أصنع بالقتلى؟**»، قال أبو يزيد بن عمرو: «**أَطْلِقْ لنا يا رسول اللَّه مَنْ كان حيًّا، ومَنْ قُتِلَ فهو تحت قدميَّ هاتين**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**صَدَقَ أبو يزيد**».

وبعث النبيُّ ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلِّيَ بينهم وبين حُرُمِهِمْ وأموالهم، فَتَوَجَّهَ عَلِيٌّ، فلقي رافع بن مَكِيْث الجُهَنِيَّ - بَشِيرَ زيد

---

(١) حِسْمَى: أرض ببادية الشام، بينها وبين وادي القُرى ليلتان، وبين وادي القُرى والمدينة ست ليال.

بن حارثة ـ على ناقة من إبل القوم؛ فَرَدَّهَا عليٌّ على القوم، ولقي زيدًا بالفَحْلَتَيْنِ ـ وهي بين المدينة وذي المَرْوَةِ ـ، فأبلغه أمر رسول اللَّه ﷺ؛ فَرَدَّ إلى الناس كُلَّ ما كان أخذ لهم[١].

وكان الهدف من هذه السرية: تأديب بني جُذام الذين اعتدوا على دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيِّ، وهم يعلمون أَنَّهُ أحد المسلمين، وليس النبيُّ ﷺ بالذي يرضى باعتداء أحد على مسلم من المسلمين؛ لأنَّ الاعتداء عليه اعتداء على المسلمين كافة.

قال أحمد محرم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في سرية حِسْمَى:

أما ومضارب البيض الرِّقاقِ ... تُضيءُ النَّقْعَ للجُرْدِ الْعِتَاقِ[٢]
لقد غَرَّ الْهُنَيْدُ بني جُذَامٍ ... فما للقوم مما جَرَّ واقِ
دَعَا سُفَاءَهُمْ فَمَشَوْا إليه ... وما التفَّتْ لهم ساقٌ بساقِ
لصوصٌ ما يبالون الدنايا ... إذ عقدوا العزائم لانطلاقِ
أحاط بدحية منهم أناسٌ ... تَعُدُّهم الذئابُ من الرِّفاق
مَضَوْا بِحَبَاءِ[٣] قيصرَ وَهْوَ جَمٌّ ... فما منه لدى الكلبيِّ باقِ
أتى مستصرخًا فأصاب مَوْلًى ... يُغِيثُ صَرِيخَهُ مما يلاقي
وما لمحمدٍ كفؤٌ إذا ما ... سقى الأبطال كأس الموت ساقِ
دعا زيدًا فأقبل في جنودٍ ... تبيت إلى الملاحم في اشتياقِ
إلى حَسْمَى فما للداء حسمٌ ... إذا لم تَرْقِهِ[٤] بدمٍ مُراق
إليه يا ابن حارثة إليه ... فَثَمَّ البغيُ مُمتدٌّ الرُّواقِ
لدحيةَ حَقُّهُ والسيف ماضٍ ... وما لبني جُذام من إباق[٥]

(١)طبقات ابن سعد (٨٨/٢)، ومغازي الواقدي (٥٥٥/٢، ٥٦٠).

(٢)البيض الرقاق: السيوف الرقيقة. والنقع: غبار المعركة. والجرد العتاق: الخيول السبّاقة.

(٣)الحباء والحبوة: العطية.

(٤)رقاه: استعمل الرقية نفعًا له.

(٥)إباق: هروب؛ من أبَق العبد إذا هرب من سيده.

عـبـيـد الـشـرك أوثـقـهـم فَـقَـرُّوا ... بدار الهون، يا لكَ من وَثاقِ
ألا إن الْـهُـنَـيْـدَ أُدِيـلَ[١] مـنـه ... فهل وَجَدَ الرَّدى عَذْبَ المذاق؟
وهـل نـظـر ابـنـه لما تَـرَدَّى ... وعاين روعة الموت الذُّعَاقِ[٢]؟
توالى القوم في الهيجاءِ صَرْعَى ... كَأَنَّ سِرَاعَهُمْ خَيْلُ السِّبَاقِ
فأهلًا بالشَّوِيِّ[٣] تُسَاقُ نَهْبًا ... وأهـلًا بـالجمـل والـنـيـاق
ويـا ويْـحِ الحلائـل والـذَّرَارِي ... تُعاني البَرْح[٤] من ألم الفِراق

سرية وادي القُرْى[٥]

بعث النبيُّ ﷺ زيد بن حارثة على رأس سرية إلى وادي القُرْى في رجب من السنة السادسة الهجريَّة[٦]؛ لتأديب بني فَزَارَةَ؛ فأصيبت هذه السرية وَتَسَلَّلَ زيد من بين القتلى وعاد إلى المدينة؛ فَآلَى على نفسه أَلَّا يَمَسَّ رأسه غسل جنابة حتى يغزو بني فَزَارَةَ[٧].

وفي رواية: أنَّ زيدًا خرج في تجارة إلى الشَّام، ومعه بضائع لأصحاب النبيِّ ﷺ، حتى إذا كان دون وادي القُرْى ومعه ناس من أصحابه، لقيه ناس من بني فَزَارَةَ من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه حتى ظَنُّوا أن قد قُتِلُوا، وأخذوا ما كان معه، ثم اسْتَبَلَّ[٨] زيد، فعاد زيد إلى المدينة[٩]، وهذه الرواية أقرب إلى المنطق والعقل وسير الحوادث.

---

(١) أديل منه؛ أي: جُعلت الكَرَّة والدُّولة عليه.
(٢) الذعاق: الكريه الذي لا يُطاق.
(٣) الشَّوِيُّ: جمع الشاة الواحدة من الغنم.
(٤) البرح: الشدة والأذى.
(٥) وادي القُرى: وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القُرَى.
(٦) طبقات ابن سعد (٢/٨٩).
(٧) عيون الأثر (٢/١٠٨).
(٨) استبلَّ؛ أي: برأ.
(٩) مغازي الواقدي (٢/٥٦٤)، وطبقات ابن سعد (٢/٩٠).

ويبدو أنَّ المسلمين لم يكتفوا بقطع الطريق التجاريَّة «**مكة ـ الشَّام**» على تجارة قريش، بل أرادوا استغلال هذه الطريق لتجارتهم بهدف تحسين أوضاعهم الاقتصادية، ولكنَّهم أخفقوا في ذلك؛ إذ تَبَيَّنَ لهم أنَّ الوقت لا يزال مُبَكِّرًا لاستغلال هذه الطريق.

❑ قائد سريَّة أمِّ قِرْفَةَ بوادي القرى

بعث النبي ﷺ زيدًا على رأس سريَّة إلى أُم قِرْفَةَ بوادي القرى على سبع ليالٍ من المدينة، في شهر رمضان من السَّنة السَّادسة الهجريَّة، وهي من فَزَارَةَ من بني بدر.

وخرج المسلمون من المدينة، يكمنون النهار ويسيرون الليل، وخرج بهم دليلٌ لهم، ونذرت بهم بنو بدر من فَزَارَةَ، فكانوا يجعلون ناطورًا[١] لهم حين يصبحون، فينظر على جَبَلٍ لهم مشرفٍ وجهَ الطريق الذي يرون أنهم يأتون منه، فينظر قدر مسيرة يوم؛ فيقول: اسرحوا؛ فلا بأس عليكم، هذه ليلتكم!!

فلما كان زيد وأصحابه على مسيرة ليلة، أخطأ بهم دليلهم الطريق؛ فأخذ بهم طريقًا أُخرى، حتى أمسوا وهم على خطإ، وعرفوا خطأهم، ثم صمدوا[٢] لهم في اللَّيل حتى صَبَّحُوهُمْ، وكان زيد نهاهم عن المطاردة، ثم أمرهم ألا يتفرَّقوا، وقال: «**إذا كَبَّرْتُ فَكَبِّرُوا**»، ثم أَحَاطَ بـ«**فزارة**» في بيوتهم، وكبَّر وكبروا؛ فَخَرَجَ مَسْلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ، فطلب رجلًا منهم حتى قتله، وأخذ جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر، وجدها في بيت من بيوتهم، وهي ابنة أم قِرْفَةَ، واسم أم قِرْفَةَ: فاطمة بنت ربيعة بن بدر؛ كما أخذوا أُمَّ قِرْفَةَ، فقتلها قيس بن المُحَسِّرِ، وقتل النُّعمانَ وعبيدالله ابني مَسْعَدة بن حَكَمَة بن مالك بن بدر[٣].

---

(١) الناطور: حافظ الكرم؛ والمعنى هنا: الراصد.

(٢) صمدوا لهم؛ أي: ثبتوا لهم وقصدوهم وانتظروا غفلتهم؛ انظر: النهاية (٢/٣٤٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٩٠، ٩١)، وفي «مغازي الواقدي» (٢/٥٦٥): قُتل عبدالله بن مَسْعَدَة، وقُتل قيس بن النُّعمان بن مَسْعَدَة بن حَكَمَة بن مالك بن بدر.

وكانت العرب تقول: «**لو كانت أَعَزَّ من أم قرفة**»[١]؛ لِأَنَّهَا كانت يُعَلَّقُ في بيتها خمسون سيفًا كلُّهم لها ذو محرم[٢].

وعاد زيد إلى المدينة، فقرع باب النبي ﷺ فخرج إليه مسرعًا واعتنقه وَقَبَّلَهُ، فأخبره زيد بانتصاره وغنمائه.

أما جارية ابنة أم قِرفة، فقد وَهَبَهَا مَسْلَمَةُ بن الأكْوَع لرسول اللَّه ﷺ فَوَهَبَهَا لِحَزْنِ بن أبي وَهْبٍ خال النبيِّ ﷺ فولدت له امرأةً، ليس له منها ولد غيرها[٣].

وهكذا أخذ زيد بثأر المسلمين الذين قتلتهم فَزَارَةُ، وأعاد هيبة المسلمين إلى تلك المنطقة، ولقَّن فزارة درسًا لا ينسونه أبدًا كما لقَّن غيرها من القبائل مِثْلَ هذا الدَّرس.

ولله درٌّ من صاغ أحداث هذه السرية شعرًا فقال:

أمنكِ فَزارةُ انْبعثَ الغُزاةُ؟ ... فما تُغنِي السُّيوفُ ولا الْحُمَاةُ؟

لَعمرُكِ ما ابنُ حارثةٍ بِحِلٍّ ... وإن زَعَمَ القَرَاصِنَةُ الجُفَاةُ[٤]

أثاروا الشرَّ لا هُوَ يَبتَغِيهِ ... ولا أصحابُهُ الغُرُّ الْهُدَاةُ

أصابوهم على ثِقَةٍ وأمنٍ ... فلا سَيفٌ يُسَلُّ ولا قَنَاةُ

وجَاءوا يَشتكونَ إلى أَبِيٍّ ... على الأعداءِ تُحْرِجُهُ الشكاةُ[٥]

رَسولُ اللهِ ليس له كِفاءٌ ... إذا التقتِ الفَوارِسُ والكُمَاةُ[٦]

دَعَا زَيدًا هَلُمَّ إلى قتالٍ ... تُنَالُ بهِ من القومِ التِّراتُ[٧]

---

(١) عيون الأثر (٢/١٠٨).

(٢) عيون الأثر (٢/١١٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٩٠، ٩١)، ومغازي الواقدي (٢/٥٦٤، ٥٦٥)، وانظر: عيون الأثر (٢/١٠٧، ١٠٨).

(٤) القراصنة: اللصوصُ والجفاةُ الغلاظُ القلوبِ والطباعِ. والحلُّ: الحلال؛ والمقصود: أن دمه حلال مُسْتَبَاحٌ.

(٥) رسول الله ﷺ.

(٦) الكفاء: الكفء.

(٧) التراة: جمع ترَة؛ وهي: الذحل أو الظلم فيه.

قُدِ الأَبطالَ للهيجاءِ وَاصْبِرْ فَنِعْمَ الصَّبرُ فيها والثَّبَاتُ
إليها يا ابنَ حارثةٍ إليها ولا يَحْزُنْكَ ما صَنَعَ الطُّغَاةُ
مَشَى البَطَلُ المقذَّفُ لا اتِّئَادٌ تَضِيقُ به السُّيوفُ ولا أَنَاةُ[1]
يَخِفُّ بها إلى الأعداءِ بِيضًا عليها من مناقِبِها سِماتُ
أقامتْ حائطَ الإسلامِ ضَخْمًا تَدِينُ له الجِبالُ الرَّاسِيَاتُ
وجاءت بالفُتوحِ مُحجَّلاتٍ له في ظِلِّها الضَّافي حَياةُ
توقَّتها فزارةُ وهيَ حَتْمٌ فما عصمتْ مقاتِلَها التقاةُ[2]
رأوها بعد ما هجعوا بِلَيْلٍ لها فِيهم وللقدرِ انْصلاتُ[3]
هَدَاهَا في الدُّجى منهم دليلٌ تُسَدِّدُهُ الأواصرُ والصِّلاتُ[4]
لَوَاهُ عن السَّبيلِ قَضاءُ ربٍّ له الحِكَمُ الصَّوادِعُ والعِظَاتُ
يسوقُ الأمرَ ظاهِرُهُ عَنَاءٌ وباطنُهُ كما اقترحَ العُنَاةُ[5]
كمِثْلِ الوِرْدِ، أوَّلُهُ أُجاجٌ وآخرُ مائِهِ عَذْبٌ فُرَاتُ
ظُبًى طَرَقَتْ جَمَاجِمَهُمْ بَياتًا وما خِيفَ الطُّروقُ ولا البَيَاتُ[6]
تَوَثَّبَتِ الحتوفُ فلا فِرارٌ وأبرقتِ السُّيوفُ، فلا نَجاةُ
نَقيعُ شقاوةٍ يُسْقَاهُ قومٌ هُمُ الشَّرْبُ المُذَمَّمُ والسُّقاةُ
تَرَدَّوْا في مصارِعِهِمْ، فأمسوا كَسِرْبِ الوحش، صَرَّعَهُ الرُّمَاةُ

---

(١) المقذف: الذي يُقذف به كثيرًا إلى الوقائع والغارات.
(٢) التقاة: اسم من الاتقاء.
(٣) المنصلت: الماضي في شأنه لا يلوي على شيء، ومن السيوف: القاطع الصقيل.
(٤) كان دليلُ السرية رجلًا من بني فزارة، وكانوا قد جعلوا لهم ناطورًا يقعد على جبل عال؛ فيقول لهم حين يصبحون: اسرحوا اسرحوا لا بأس عليكم. فإذا أمسوا قال لهم: ناموا لا بأس عليكم. وكان ينظر مسيرة يوم، فلما كانت السرية على مسيرة ليلة من القوم، أخطأ دليلها الطريق وسارت في طريق آخر؛ فإذا هي بمقربة منهم؛ فأخذتهم بالسيوف.
(٥) العناء: النصب والتعب. واقترح: اشتهى. والعناة: جمع العاني، المُتعب.
(٦) البيات: أخذ العدو ليلًا.

وَحَاقَ بِأُمِّ قِرْفَةَ ما أَرَادَتْ ... بأكرمِ مَن تُفَدَّى الأُمَّهاتُ[١]

أرادتْ قَتْلَهُ فَجَرَى عليها ... قَضَاءُ القتلِ، وانْتَصَفَ القُضَاةُ

فيا لكَ منظرًا عجبًا تناهتْ ... به الصُّوَرُ الرَّوائعُ والصِّفاتُ

أُحِيطَ بها وبابنتها جميعًا ... فما نَجَتِ العجوزُ ولا الفَتَاةُ

لِتلكَ جَزاؤُها المُرْدِي، وهَذِي ... لها الأسرُ المُبَرِّحُ والشَّتاتُ[٢]

تُساقُ ذليلةً من بَعدِ عِزٍّ ... كما سِيقَتْ غَداةَ النَّحْرِ شَاةُ

هُوَ ابنُ الأكوعِ البَطلُ المُرَجَّى ... سَبَاهَا حِينَ أَسْلَمَهَا الرُّعاةُ[٣]

قَنِيصَةُ نافِذِ الأظفارِ ضارٍ ... له في كلِّ ذي ظُفُرٍ شَباةُ[٤]

هِيَ الْهِبَةُ الكريمةُ صَادَفَتْهَا ... يَمِينٌ ما تُفَارِقُهَا الْهِبَاتُ

يَمِينُ مُحَمَّدٍ لا خيرَ إلا ... له فيها مَعَالِمُ بَيِّنَاتُ

حَبَاهَا خَالَهُ في غَيرِ ضَنٍّ ... وأينَ من الضَّنِينِ المَكْرُمَاتُ؟

رَسولُ اللهِ أكرمُ من أناختْ ... بِهِ الآمالُ وَانْتَجَعَ العُفَاةُ[٥]

بَنَى دِينَ السَّلَامِ بكلِّ ماضٍ ... بِهِ وبِمِثْلِهِ ارْتَفَعَ الْبُنَاةُ

لإنقاذِ النُّفوسِ من البلايا ... تُلِحُّ على مَبَاضِعِهَا الأُسَاةُ[٦]

تأملتُ الحياةَ وكيف تَبْقَى ... حقائقُهَا وَتَمْضِي التُّرَّهَاتُ[٧]

❊ ❊ ❊

---

(١) كانت أم قرفة هذه سيدة في قومها، وهي بنت ربيعة بن بدر الفزاري، ضرب بها المثل في المنعة: «أمنع من أم قرفة»، كان يُعَلَّقُ في بيتها خمسون سيفًا لخمسين رجلًا كلهم لها محرم، ومن أخبارها: أنها جهزت ثلاثين راكبًا من ولدها وولد ولدها، وقالت لهم: اغزوا المدينة واقتلوا محمدًا. أُخِذَت وَرُبِطَت رجلاها بحبلين شُدَّا إلى بعيرين؛ فشقاها، وَسُبِيَتْ ابنتها.

(٢) المُرْدِي: المُهْلِك.

(٣) سلمة بن الأكوع: هو الذي أسر الفتاة بنت أم قرفة. سَأَلَهَا رسولَ اللهِ ﷺ؛ فوهبها له، ووهبها هو لخاله حزن بن أبي وهب؛ فولدت له عبدالرحمن بن حزن.

(٤) القنيصة: المقنوصة. والشباة: حدُّ السيف وغيره.

(٥) أناخت: نزلت وأقامت. وانتجع فلانًا: أتاه طالبًا معروفه. والعفاة: جمع العافي، كل طالب فضل أو رزق.

(٦) أَلَحَّ على الشيء: واظب عليه. والمباضع: آلات يشقُّ بها الجلد. والأساة: الأطباء.

(٧) الترهات: جمع التُّرهة، الأباطيل والدواهي.

فَـأَدَّبَـنِـي الـيـقـيْنُ وَهَـذَّبَـتْنِي ... وصاةُ اللهِ بُورِكَتِ الوصاةُ[1]
هَنِيئًا يا ابنَ حارثةٍ وأنَّى؟ ... وما تَرْقَى إليكَ التَّهنِئَاتُ[2]؟
سَمَوْتَ فما تُطَاوِلُكَ الأمانِي ... ولا ترجو مَدَاكَ النَّيِّراتُ
ظَفِرْتَ من النبيِّ بخيرِ نُعْمَى ... تَطِيبُ بها النفوسُ الصَّالحاتُ
بِلَثْمٍ زَانَ وَجْهَكَ وَاعْتناقٍ ... شَفَاكَ، فما بجارحةٍ أذاةُ
على النُّورِ الذي انْجَلَتِ الدَّياجِي ... به وعليكَ يا زَيْدُ الصَّلاةُ

☐ سرية زيد بن حارثة إلى مدين

كانت إلى مدين قرية نبي اللَّه شعيب ﷺ، وهي تجاه تبوك، وقد أصابت هذه السرية سبيًا عادت به إلى المدينة، وَفَرَّقَ المسلمون في بيعه بين الأمهات والأولاد، وسمعهم النبي يبكون فأمر ألا يُفَرِّقُوا بينهم، وصاغ أحمد محرم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ذلك شعرًا؛ فقال:

يَمِينًا ما لِمَدْيَنَ من قَرَارِ ... فَبُعْدًا للقطينِ وللدِّيَارِ[3]
شُعَيْبٌ كيفَ أنتَ؟ وأينَ قَوْمٌ ... عَصوكَ؟ وما الذي فَعَلَ الذرارِي؟
هُمُ اتخذُوا الهَوَى رَبًّا وسَارُوا ... من العهدِ القديمِ على غِرارِ[4]
أتى الإسلامُ فَاجْتَنَبُوهُ حِرصًا ... على دينِ المهانةِ والصَّغَارِ[5]
وصَدُّوا عن سبيلِ اللهِ بَغيًا ... وكان البَغْيُ مَجْلَبَةَ الدمارِ
سَمَا زَيْدٌ إليهم بالمنايا ... تُرِيكَ مَصَارِعَ الأُسْدِ الضواري
تَأمَلْ يا شُعيبُ أما تَرَاهُ ... شديدَ البأسِ مُلْتَهِبَ المغارِ؟[6]

---

(١) الوصيَّة.

(٢) جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه، فقرع باب الرسول الكريم؛ فقام إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه وَقَبَّلَهُ وسأله فأخبره بما وهب الله من النصر والغلبة.

(٣) القطين: جمع القاطن، المقيم بالمكان.

(٤) الغرار: المثال والطريقة.

(٥) الذلُّ.

(٦) الغارة.

تَوَقَّى القومُ صَوْلَتَهُ فَضَنُّوا ... بِأنْفُسِهِمْ، وجَادوا بالفِرَارِ[١]
لَبِئْسَ الجُودُ تَلْبَسُهُ سَوَادًا ... وُجُوهُ القومِ من خِزْيٍ وعَارِ
تَلَفَّتَتِ النِّسَاءُ ولا رِجالٌ ... سِوَى السُّرُجِ الزَّوَاهِرِ كالدَّرَارِي[٢]
وَضَجتْ تستغيثُ، ولا غِيَاثٌ ... سِوَى العبراتِ والْمُهَجِ الحِرَارِ

* * *

تَوَلَّى الجُنْدُ بالسَّبْيِ الْمُحَلَّى ... وبالنصْرِ الْمُحَجَّلِ والْفَخَارِ
فيا لبضاعَةٍ للكُفرِ تُزْجَى ... ويا للشوقِ يَجْمَعُ كُلَّ شارِ
ويا لكَ من بُكَاءٍ كان حقًّا ... لِدينِ اللهِ دَاعِيَةَ افْتِرَارِ[٣]
أَتُمْسِي الأمُّ تُعْزَلُ عن بَنِيهَا ... لِمَوْلَى غيرِ مَوْلاَهُمْ وَجَارِ؟
أَبَى الْبَرُّ الرحيمُ فقال: رِفْقًا ... وتلكَ إهانةُ الهِمَمِ الْكِبَارِ
فَأَمْسَكَ كلَّ دَمْعٍ مُسْتَهِلٍّ ... وَسَكَّنَ كلَّ قلبٍ مُسْتَطَارِ
تتابعتِ المواهبُ والعطايا ... على قَدَرٍ مِن الرحمن جَارِ
فَغُنْمٌ بعد غُنْمٍ، وَانْتِصَارٌ ... يُنِيرُ الْمَشْرِقَيْنِ على انتِصَارِ
أَصَابَ الدَّهْرُ بُغْيَتَهُ؛ وأمستْ ... تَجَلَّتْ حِكمةُ الفَلَكِ الْمُدَارِ

❑ قائد سرية مُؤْتَةَ[٤]

بعث النبي ﷺ زيدًا على سرية إلى مُؤْتَةَ في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية؛ وكان سبب بعث هذه السرية: أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عُمَيْرٍ الأَزْدِيَّ أحد بني لِهْبٍ إلى ملك بُصْرَى[٥] بكتاب، فلما نزل مُؤْتَةَ، عرض له شُرَحْبِيلُ بن عمرو

(١) الصولة: الجولة والحملة في الحرب.
(٢) السُرج: جمع السراج. وزواهر: مشرقة مضيئة؛ كناية عن المسلمين.
(٣) من افترَّ الرجل: ضحك ضحكًا حسنًا.
(٤) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٨/١٩٠)، وهي بأدنى البلقاء دون دمشق؛ انظر: طبقات ابن سعد (١٢٨/٢). والبلقاء: هي الأردن الحالية.
(٥) بصرى: مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حَوْران.

الغَسانيُّ فَقَتَلَهُ، ولم يُقْتَلْ لرسول اللّهﷺ رسولٌ غيره؛ فاشتد ذلك عليه، وندب الناسَ؛ فأسرعوا وعسكروا بالجُرُف[(١)]، وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول اللّهﷺ: «**أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتِل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتِل فعبد اللّه بن رَواحة، فإن قُتِل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلًا؛ فيجعلوه عليهم**».

وعقد لهم رسول اللّهﷺ لواءً أبيض، دفعه إلى زيد، وأوصاهم رسول اللّهﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عُمَيْرٍ، وأن يَدْعُوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم باللّه وقاتلوهم، وخرج مشيعًا لهم حتى بلغ «**ثَنِية الوَدَاع**»[(٢)]، فوقف وودعهم، فلما ساروا من مُعَسكرهم نادى المسلمون: دَفَعَ اللّه عنكم وردكم صالحين غانمين!! فقال عبداللّه بن رَواحة:

لكنني أسأل الرحمَن مغفرةً وضَرْبَةً ذات فرع تقذف الزبدا[(٣)]

ولما فصلوا من المدينة، سمع العدو بمسيرهم؛ فجمعوا لهم، وقام فيهم شُرَحْبِيل بن عمرو، فجمع أكثر من مئة ألف، وقدم الطلائع أمامه.

ونزل المسلمون «**مُعَان**»[(٤)] من أرض الشام، وبلغ الناسَ أن هِرَقْل قد نزل «**مَآب**»[(٥)] من أرض البلقاء في مئة ألف من بَهْراء، ووائل، وبَكْر، ولَخْم، وجُذَام.

وأقام المسلمون ليلتين؛ لينظروا في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول اللّهﷺ، فنخبره الخبر... فشجعهم عبداللّه بن رَواحة على المُضِيِّ؛ فمضوا إلى مُؤْتَة.

ووافاهم المشركون؛ فجاء ما لا قِبَلَ لأحدٍ به من العَدد والسلاح والكُراع والديباج والحرير والذهب، فالتقى المسلمون والمشركون، وقاتل الأمراء يومئذ على أرجُلهم؛ فأخذ اللواءَ زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى

---

(١) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٢) ثنية الوداع: ثنيّة مشرفة على المدينة، سميت لتوديع المسافرين.

(٣) ذات فرع؛ أي: ذات سعة.

(٤) معان: مدينة بطرف بادية الشام تلقاء الحجاز.

(٥) مآب: مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء.

قُتِلَ طعنًا بالرماح - رَحِمَهُ اللهُ.

ثم أخذ اللواءَ جعفر بن أبي طالب، فنزل عن فرس له شقراء فَعَرْقَبَهَا[١]؛ فكانت أول فرس عُرْقِبَتْ في الإسلام، وقاتل حتى قُتل - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -؛ ضَرَبَهُ رجلٌ من الروم؛ فَقَطَعَهُ بنصفين؛ فَوُجِدَ في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحًا، ووجد في بَدَنِ جعفر اثنتان وسبعون ضربةً بسيف وطعنةً برمح.

ثم أخذ اللواءَ عبدالله بن رَوَاحَةَ، فقاتل حتى قُتِلَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.

واصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فسحب قوات المسلمين من ساحة المعركة، وحمى بالساقة انسحابهم؛ فكانت عملية الانسحاب التي طبقها خالد من العمليات الانسحابية الفذة في تاريخ الحروب.

ولما سمع أهل المدينة بجيش مُؤْتَة قادمين، تلقوهم بالجُرْف، فجعل الناس يُحْثُون في وجوههم الترابَ، ويقولون: يا فُرَّار!! أفررتم في سبيل الله؟! فيقول رسول الله ﷺ: «**ليسوا بفُرَّارٍ، ولكنهم كُرَّارٌ إن شاء الله**»[٢].

وهكذا ضَحَّى زيد بروحه رخيصةً في سبيل الله، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، رَافِعًا لواءَ الإسلام عاليًا، لم يعفره بالتراب في حياته، فلما اسْتُشْهِدَ لم يُعَفَّرْ بالتراب المجبول بدم الشهيد، بل رفعه فورًا للقائد الجديد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**خطب رسول الله ﷺ** فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، ثم أخذها عبدالله بن رَوَاحَةَ فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة، فتح الله عليه**[٣]، **وما يسرني - أو قال: ما يسرهم -**

---

(١) عرقبها: قطع عرقوبها، وعرقوب الدابة في رجلها بمنزلة الرُّكبة في يدها.

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨ - ١٣٠)، ومغازي الواقدي (٢/٧٥٥ - ٧٦٩).

(٣) ذكر ابن حجر - رَحِمَهُ اللهُ - في «الفتح» (٧/٥١٤): أن سبب هذه التسمية يرجع إلى أحد وجهين:
الأول: أنه كان هناك قتال بين الجيشين حتى هزم الله العدو وأظهر المسلمين.
الثاني: أن انحياز خالد بالمسلمين في حدِّ ذاته يُعَدُّ فتحًا حتى رجعوا سالمين من كيد أعدائهم.
ثم ذكر ابن حجر - رَحِمَهُ اللهُ - وجهًا حسنًا في الجمع بين هذين الاحتمالين؛ فقال:

أنهم عندنا» وقال: وإن عينيه لتذرفان»(١).

اقتحم زيد وهو حامل راية رسول اللَّه ﷺ رماح العدو ونباله وسيوفه، لا يبحث عن النصر، بقدر ما يبحث عن المضجع الذي تَرْسُو عنده صفقته مع اللَّه الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

لم يكن زيد يرى حواليه رمال البلقاء ولا جيوش الروم بل كانت روابي الجنة ورفرفها الخضر تخفق أمام عينيه؛ كالأعلام، تُنبئه أن اليوم يوم زفافه، وكان وهو يضرب ويقاتل لا يُطوح رءوس مقاتليه، إنما يفتح الأبواب، ويفض الأغلاق التي تحول بينه وبين الباب الكبير الواسع، الذي سَيُدْلِفُ منه إلى دار السلام، وجنات الخلد، وجوار الله.

وعانق زيد مصيره.. لكأنما كانت روحه وهي في طريقها إلى الجنة تبتسم محبورة وهي تبصر جثمان صاحبها، لا يلفه الحرير الناعم، بل يضمخه دم طهور سال في سبيل الله، ثم تتسع ابتسامتها المطمئنة الهانئة وهي ترى ثاني الأمراء **«جعفرًا»** يندفع؛ كالسهم صوب الراية ليتسلمها، وليحملها قبل أن تُغَيَّبَ في التراب(٢).

سِرْ يا ابنَ حارثةٍ بالجيش تقدمه ... هذا لواؤكَ فابعثه على عَجَلِ
أَمْرُ النبي فَسِرْ يا زيدُ ممتثلًا ... والجند جُندُك ما تأمره يَمْتَثِلِ
فإن أُصِبْتَ فمن سَمَّى على قدرٍ(٣) ... وليس للنفس إلا غايةُ الأجلِ

* * *

ويمكن الجمع بأن خالدًا لما حاز المسلمين وبات، ثم وقد غيَّر هيئة العسكر، وتوهم العدو أنه قد جاء لهم مددٌ، حمل عليهم خالد حينئذ؛ فولوا يتبعهم، ورأى الرجوع بالمسلمين هي الغنيمة الكبرى.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٣)، وأخرجه النسائي (٤/٢٦)، وأحمد (٣/١١٣، ١١٧، ١١٨)، والبيهقي (٤/٧٠)، وأبو يعلى (٧/٢٠٠ - ٢٠٢).

(٢) رجال حول الرسول ص (٢٨٤).

(٣) على الرغم من أن جعفر بن أبي طالب كان من أقرب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ، وعلى الرغم من شجاعته، وجسارته، وحسبه، ونسبه، فقد جعله رسول الله ﷺ الأمير التالي لزيد، وجعل زيدًا هو الأمير الأول للجيش... إلى هذا المدى كانت منزلة زيد عند رسول الله ﷺ.

يا مُؤتة احتملي الأهوالَ صابرةً ... هيهات ذلك شيءٌ غيرُ مُحْتَمَلِ
جِنُّ الكريهة يَسْتَشْرِي الصيالُ[١] بهم ... في مَوطنٍ لو رأته الجِنُّ لم تَصُلِ
ما زال قَائِدُهُمْ يُلقِي بمهجته ... يَرمِي المنيةَ في أنيابها العُصلِ[٢]
يغشى مواردَ من أهوالها لُجَجًا ... تلك الموارد، ليس الغَمْرُ كالوَشَلِ[٣]
يا مَن يخوضُ الوغى تطغى زَوَاخِرُهَا ... كمن يُجَانِبُهَا خوفًا من البَلَلِ
يا زيدُ أديتَ حق اللَّه فامضِ على ... نهج الألى انتقلوا من قبل وَانْتَقِلِ
آبُوا إلى خير دار ما لِنَازِلِهَا ... من أوبة تبعث الأشجان أو قَفَلِ[٤]
يسلو أخو العقل عن دار الهموم بها ... ويجتوي[٥] منزلَ الأدواءِ والعِلَلِ
جاهدت في اللَّه ترضيه وتنصره ... لم تَلْقَ من سَأَمٍ يومًا ولا مَلَلِ
هذا الذي نَبَّأَ اللهُ الرسولَ به ... فاغنم ثوابك، وَالْقَ الصحبَ في جَذَلِ

وقد دَعَا النبي ﷺ لزيد وجعفر وابن رَوَاحَةَ بعد استشهادهم، فقال: «**اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لجعفر وعبداللَّه بن رَوَاحَةَ**»[٦].

وقال حسان بن ثابت يرثي زيدًا:

عَينُ جودي بدمعك الْمَنْزُورِ ... واذْكُرِي في الرخاءِ أهلَ الْقُبورِ[٧]
واذْكُرِي مُؤْتَةً وما كانَ فيها ... يومَ رَاحُوا في وقْعَةِ التَّغْوِيرِ[٨]
حين راحوا وغادروا ثَمَّ زَيْدًا ... نِعْمَ مَأوَى الضَّرِيكِ والمأسورِ[٩]

---

(١) استشرى: تفاقم وتعاظم. والصيال: السطو والقهر.
(٢) العصل: المعوجة.
(٣) الغمر: الماء الكثير. والوشل: القليل منه.
(٤) رجوع.
(٥) اجتوى المنزل والشيء: كرهه.
(٦) طبقات ابن سعد (٣/٤٦).
(٧) المنزور: القليل؛ وذلك لأنه بكى حتى فرغ دمعه.
(٨) التغوير: الإسراع؛ يريد: الانهزام.
(٩) الضريك: الفقير.

حِبَّ خَيرِ الأنامِ طرًّا جميعًا سيدِ الناسِ حبه في الصدور
ذاكمو وأحمدُ الذي لا سِوَاهُ ذاكَ حُزْنِي له معًا وسروري
إن زيدًا قد كان مِنَّا بأمْرٍ ليس أَمْرَ المَكذبِ المغرورِ

***

❑ زيد القائد رضي الله عنه

شهد النبي ﷺ لزيد بأنه خليق بالإمارة، وتقويم النبي ﷺ لكفاية زيد القيادية لا يعادله ولا يقاربه أيُّ تقويمٍ.. وهو يفوق أيَّ تقويمٍ.. وهذا التقويم لكفاية زيد القيادية يدل على ثقة النبي الكاملة بزيد واعتماده المطلق عليه، وهو تقدير عظيم، وثقة بالغة، واعتماد هائل استحقه زيد بمزاياه القيادية أولًا وقبل كل شيء؛ فما كان النبي ﷺ يُولي ثقته الكاملة إلا لمن يستحقها بجدارة، وكان يبني الإنسان المسلم بالعقيدة الراسخة والأُسوة الحسنة التي يضربها للمسلمين كافة بشخصه الكريم، وبتولية الرجل المناسب للعمل المناسب؛ ليقود الأمة أفضلُ رجالها عقيدةً واقتدارًا بالنسبة للواجبات والمسئوليات التي يتقلدونها.

فما الذي يستطيع القادة أن يتعلموه من سجايا زيد القيادية؟!

كان من الرماة المعدودين المذكورين[1] من بين أصحاب النبي ﷺ؛ أي: أنه كان هَدَّافًا من الهدافين؛ كما نطلق على أمثاله في المصطلحات العسكرية الحديثة، وقد استغل هذه المزية في غزوة بدر الكبرى؛ فقتل أحد أبرز سادات قريش ممن ذكرهم المؤرخون، وقتل غيره ممن أغفل التاريخ ذكرهم؛ كما استغل هذه المزية في الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ؛ وهي: غزوة بدر، والخندق، والحُدَيْبِيَةِ، وخَيْبَر[2]، وغيرها؛ كما استغلها في السرايا التي قادها بأمر النبي ﷺ؛ وهي تسع

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٢)، وتهذيب ابن عساكر (٥/٤٥٩)، وطبقات ابن سعد (٣/٤٥).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/٤٥٩).

سرايا[١] ورد ذكرها في هذا البحث.

وكان من الفرسان الماهرين؛ تدرب على الفروسية كأي عربي آخر في محيطه، فبرع بها وأتقنها إتقانًا متميزًا.

ومن دراسة السرايا التي قادها زيد تظهر لنا بوضوح أنها **«غارات»** لها تأثير معنوي على الأعداء بالدرجة الأولى، وكان النبي ﷺ يتوخى من تلك السرايا **إثبات** قوة المسلمين عمليًّا؛ حتى يحول دون مهاجمة المسلمين من أولئك الأعداء، وكان بهذه السرايا يطبق الفكرة السوقية المعروفة: **«الهجوم أنجع وسائل الدفاع»**[٢].

لقد كان واجب زيد في سراياه هو خوض معركة معنويات بالدرجة الأولى، تعتمد على المباغتة والاندفاع والحرب الخاطفة، ومثل هذا الواجب بحاجة إلى قائد يتميز بالشجاعة الخارقة التي تضمن الإقدام والاندفاع، ويتميز بالعقيدة الراسخة التي تستهين بالأخطار، ويتميز بالعقلية الراجحة التي تتبصر بالعواقب، وتتميز بعد كل ذلك بالفتوة التي تتحمل المشاق ولا تبالي بالأهوال.

وقد لَمَسْنَا شجاعة زيد في الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ وفي سراياه التي قادها، وَلَمَسْنَا شجاعتَهُ في الواجبات الأخرى التي ألقاها على عاتقه النبي في استصحاب بناته وزوجته في الهجرة في وَسَطٍ يعج بالأعداء والحاقدين والموتورين من المشركين.

وقد نشأ زيد في بيت النبي ﷺ؛ فَآمَنَ أول مَنْ آمَنَ أو مع أول من آمَنَ، وأصبح مستعدًّا للتضحية بكل شيءٍ في سبيل عقيدته التي آمن بها.

أما عقليتـــه الراجحـــة: فقد ظهرت بوادرها منذ نعومة أظفاره، وما تفضيله النبيَّ ﷺ على أبيه، وإخوته، وعمه، وآل بيته إلا نموذجٌ من نماذج عقليته الراجحة الحصيفة، وطالما استشاره النبي ﷺ في معضلات الحرب والسلام.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤٥)، وتهذيب ابن عساكر (٤٥٩).

(٢) انظر: الكتب العسكرية الرسميَّة حول القضايا السَّوْقِيَّة والتعبويَّة.

أما شبابه وفتوته: فيكفي أن نذكر أنه مات في الخمسين من عمره، وهو في أَوْجِ قوته وعطائه.

وما أشبه سماته القيادية تلك بسمات قيادة ابنه أسامة بن زيد حِبِّ رسول اللَّه ﷺ وابن حِبِّهِ.

لقد قضى الإسلام - مع ما قضى عليه من تقاليد الجاهلية - على الأنفة من تأمير مَنْ لم تُقَدِّمُهُ السِّن، والاستمساك بِعُرَى التفاضل بالأنساب والأحساب والعشائر والقبائل.. إن التفاضل في الإسلام يخضع للتقوى وصالح الأعمال، بالإضافة إلى الكفايات المناسبة للعمل المناسب.

❑ **وقد رَفَعَتْ زيدًا مَزَايَاهُ القيادية وإيمانه الراسخ العميق إلى الإمارة.**

لقد كان لزيد قابلية فذة لإعطاء قرار سريع صحيح في الوقت والمكان المناسبين، وكانت كل سراياه بحاجة ماسة إلى إصدار قرارات سريعة وصحيحة، وحين وَجَدَ العدوَّ في سرية مُؤْتَة قد حشد له ما لا قِبَلَ للمسلمين به عَزَمَ أن يتريث في قبول المعركة غير المتكافئة، ويستشير النبي ﷺ في الموقف الجديد، ولكن المتحمسين من المجاهدين الذين خرجوا للجهاد طلبًا للشهادة - وعلى رأسهم عبداللَّه بن رَوَاحَةَ - أَرَادُوا لقاء العدو مهما تكن نتائج هذا اللقاء؛ فَانْصَاعَ زيدٌ لنداء العاطفة، ويبدو أن الأحداث تطورت بسرعة عظيمة؛ فاضطرت المسلمين إلى قبول المعركة؛ فكانت سرية مُؤْتة إخفاقًا تعبويًا، ولكنها كانت نصرًا سَوْقيًا؛ جعلت الروم جيران المسلمين في الشمال يلمسون عمليًا أن العرب بالإسلام أصبحوا خلقًا جديدًا؛ فأصبحت حربهم ليست حربًا عابرةً، بل هي حرب لها ما بعدها كأية حرب نظامية تتميز بإرادة القتال، وبالنظام والتنظيم، والاستمرارية.

وكان زيد ذا إرادة قوية ثابتة، استطاع أن يتغلب بسهولة ويسرٍ على كثير من المصاعب والعقبات في سراياه، التي كان أكثرها يَتَّسِمُ بالمغامرة والمشاق، فنجح بفضل إرادته على ما صادفه من معضلات ومشاق.

وكان من أولئك القادة الذين يتحملون المسئولية ويتقبلونها قبولًا حسنًا، ولا يتملصون منها بإلقائها على عواتق الآخرين.

وكان ذا نفسية ثابتة لا تتبدل: لا يطربها النصر؛ فيؤدي بها إلى مزالق الشطط، ولا يقلقها الاندحار؛ فيحملها إلى مهاوي الانهيار، والشطط والانهيار يلحقان الكوارث بالقائد ورجاله.

وما دام المرء لا يعمل لنفسه، بل يعمل للمصلحة العامة، وتكون نيته خالصة لوجه الله، فإن نفسيته تكون ثابتة لا تتغير.

وكان عارفًا بنفسيات رجاله وقابلياتهم؛ لأنه نشأ بينهم، وعمل معهم، وعايشهم طويلًا في حالتي الحرب والسلام إلى جانب النبي ﷺ وأصحابه المقربين وآل بيته الطاهرين؛ فكان يكلف كل فرد منهم بما يناسب نفسيته وقابليته.

وكان يثق برجاله ثقة مطلقة، ويثق به رجاله ثقة مطلقة، والثقة الأساس القوي للتعاون بين القائد وجنوده، ولا تعاون بدون ثقة متبادلة.

وكان يحب رجاله حب الأخ لأخيه، ويحبه رجاله حبًّا لا مزيد عليه، والحب المتبادل هو العامل الحيوي لإرساء أسس التعاون الوثيق الذي يقود إلى النصر.

وكان يتمتع بشخصية قوية نافذة؛ جعلت النبي ﷺ يوليه السرايا التي فيها أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ -، ويوليه إمرة المدينة المنورة في بعض غزواته؛ مما يدل على شخصيته القوية النافذة.

وكانت له قابلية بدنية فائقة؛ ساعدته على قطع المسافات الشاسعة بسرعة، وتحمل أعباء السفر والقتال دون كلل ولا ملل ولا تعب ولا إنهاك.

وكان له ماضٍ ناصعٌ مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين، وخدمة النبي ﷺ.

وكان يساوي بينه وبين رجاله، لا يستأثر دونهم بالخير ويترك لهم المتاعب، بل

يؤثرهم بالأمن والدَّعَةِ والاطمئنان، ويستأثر دونهم بالأخطار والمصاعب والمشاق.

وكان يستشير أصحابه؛ وبخاصة ذوي الرأي منهم، ويأخذ بآرائهم، ويضمها في حيز التطبيق العملي واستنادًا إلى مبادئ الحرب؛ فقد كان زيد يختار مقصده ويديمه، ويفكر في أقوم وسيلة للوصول إليه، ثم يقرر الخطة المناسبة للحصول عليه.

وكانت سرايا زيد كُلُّهَا تعرضيةً، تشيع فيها روح المباغتة، وكانت جميع سراياه ـ عدا سرية مُؤْتَة ـ مباغتة كاملة لأعداء المسلمين؛ لذلك استطاع الانتصار عليهم بالرغم من قلة قواته بالنسبة إلى كثرة قواتهم، وبالرغم من وجودهم في بلادهم بينما كانت خطوط مواصلات زيد بعيدة عن المدينة قاعدة عمليات المسلمين الرئيسة.

كما أن زيدًا كان يحشد قواته قبل الإقدام على خوض المعركة، وكان يديم معنويات تلك القوات، ويمكن اعتبار سراياه في هدفها الرئيس سرايا معنويات بالدرجة الأولى؛ كما ذكرنا من قبل.

وكان يطبق مبدأ الأمن؛ فلم يستطع العدو مباغتة سرايا زيد في أية معركة خاضها، وحتى سرية مُؤْتَة لم يُبَاغَتْ بتفوق القوات المعادية على قوات المسلمين عَدَدًا وعُدَدًا، ولكنه اختار لنفسه الشهادة؛ فكان له ما أراد.

وكانت سرايا زيد تتحلى بالطاعة المطلقة، وهي ما نسميه اليوم: الضبط المتين؛ كما امتازت سراياه بالشجاعة والإقدام والجلد والصبر والمصابرة وتحمل المشاق، وهي الصفات المعنوية الباقية على الزمان لكل جيش متماسك في كل زمان ومكان.

وكان زيد يتحلى بنفس مزايا جيشه المعنوية، وكان مثالًا شخصيًّا رائعًا لسراياه في تلك المزايا والصفات كلها.

لقد كان زيد قائدًا متميزًا حقًّا.

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْحِبِّ وَأَبِي الْحِبِّ وَأَسْكَنَهُ أَعَالِيَ الْفِرْدَوْسِ.

١٨

الصحابي الفدائي ..

فارس وحارس النبي

مُحمد بن مَسْلَمَة الأوسي

قاتل كعب بن الأشرف الشيطان اليهودي

١٨

الصحابي الفدائي .. فارس وحارس النبي

محمد بن مسلمة الأوسي

قاتل كعب بن الأشرف الشيطان اليهودي

كان ﵁ من أكابر[١] الصحابة ومن فضلائهم[٢] وساداتهم[٣] وشجعانهم[٤]، وكان موضعَ ثقة النبي ﷺ وثقة الخلفاء الراشدين.

قال ابن كثير: «**كان من سادات الصحابة، وله وقائع عظيمة، وصيانة، وأمانة بليغة**[٥]**، آخَى النبيُّ بينه وبين أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح**»[٦].

أسلم على يد مصعب بن عمير قبل إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ[٧]، وهو ممن سُمِّيَ في الجاهلية محمدًا[٨].

❑ جهاده

كان محمد بن مسلمة ﵁ جبلًا من فرسان الصحابة الذين حَلَّقُوا عاليًا في سماء الفروسية والشجاعة، وممن تركوا آثارًا وضيئةً في ميادين البذل والجهاد

(١) خلاصة تهذيب الكمال (٣٥٩).
(٢) الاستيعاب (١٣٧٧/٣).
(٣) البداية والنهاية (٢٧/٨).
(٤) الاستبصار (٢٤١).
(٥) البداية والنهاية (٢٧/٨).
(٦) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣)، والمحبر (٧٥)، وأنساب الأشراف (٢٢٤/١، ٢٧١).
(٧) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣)، والبداية والنهاية (٢٨/٨).
(٨) الإصابة (٦٣/٦).

وسجلات الفروسية.

❑ «بطل همام أشهر من أن يُنْكَرَ، وأحق أن يُذْكَرَ».

أثرُهُ ولمستُهُ وبلاؤُهُ في كل بقعة ضوءٌ ينشرها الإسلامُ على صفحة الدنيا، وسيفُهُ وعزيمتُهُ وإيمانُهُ في كل نصر يحققه الإسلام على جحافل الضلال والخطيئة.

محمد بن مسلمة فارس رسول اللَّه ﷺ بطل بدر، الصامد في أُحُد، قائد الفرسان في عمرة القضاء، وأمير السرايا المنتصر الظافر، والغانم المكتسب، نائب النبي ﷺ في حكم المدينة مدة غيابه في غزوة تبوك، القائم على تنفيذ حكم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في بني قريظة، ورسولُهُ وحاملُ إنذارِهِ إلى بني النضير، والبطل الشجاع في يوم خيبر.

أتكفي هذه الأوسمة صدر بطلنا.. إن وسامًا واحدًا منها يزين صدر مَنْ يحمله، ويأخذ بيده إلى أن يوصله إلى المكانة العليا.

«إن قلب المؤمن خزانة من الأسرار يكشفها سرًّا سرًّا كلما كان الدين في حاجة إلى هذا السر؛ خاصة إذا كان هذا القلب مُعَلَّقًا باللَّه عَزَّ وَجَلَّ الذي لا تنفد خزائنه، ولا يتوقف تثبيته للذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة»(١).

شهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ عدا غزوة تبوك؛ فإن رسول اللَّه ﷺ استخلفه على المدينة حين خرج إلى تبوك(٢)، ولكنه شَارَكَ بِمَالِهِ في هذه الغزوة(٣)؛ إذ حمل إلى النبي ﷺ مالًا، وهو ما تيسر له يومئذ مشاركًا في جيش العسرة.

❑ **في الغزوات**

١- شهد محمد بن مَسْلَمَة غزوة بني قَيْنُقَاع من يهود، ويبدو أنه أبلى فيها بلاءً

---

(١) «أهل بدر»، لعبد الفتاح عبدالخالق سمك (١٨٥/١).

(٢) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣)، ومغازي الواقدي (٩٩٥/٣).

(٣) مغازي الواقدي (٩٩١/٣).

حسنًا؛ فكرمه النبي ﷺ، ووهب له درعًا من دروعهم[١]، كما أنه تولى إجلاءهم وقبض أموالهم[٢].

٢ـ كان له مواقف مشرفة في غزوة «**أُحُد**»؛ فقد وَلَّاهُ النبي ﷺ الحرس، وكان يطوف حول العسكر وفي العسكر في خمسين رجلًا[٣]، وكان فيمن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ يومئذ حين وَلَّى الناسُ[٤]؛ فقد ثبت النبي ﷺ في نفرٍ صبروا معه؛ أربعةَ عشرَ رجلًا؛ سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار؛ منهم: محمد بن مَسْلَمة[٥].

قال محمد بن مَسْلمة: «**سمعت أُذُنَايَ وأبصرت عيناي رسول اللَّه ﷺ يقول يومئذٍ: إليَّ يا فلان! إليَّ يا فلان! أنا رسول الله! فما عرج منهما واحد عليه ومضيا**»[٦]؛ فقد كان الموقف عصيبًا إلى أبعد الحدود.

وبعد أن عاد المسلمون إلى المدينة ليلًا بعد يوم أُحُد خَرَجَ محمد بن مَسْلَمَة يطلب مع النساء ماءً؛ وكن قد جئن أربع عشرة امرأة؛ منهن: فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ، يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى، ويداوينهم[٧]، وهكذا لم يقتصر نشاط محمد بن مسلمة على القتال، بل امتد نشاطه إلى القضايا الإدارية أيضًا؛ فقد أشرف على العملية الإدارية التي نهض بها نساء المسلمين، فلما لم يجد عندهم ماءً وكان النبي ﷺ قد عطش يومئذ عطشًا شديدًا، ذهب ابن مسلمة إلى قناةٍ، وأخذ سقاءه حتى استقى من حِسْيٍ[٨]؛ فأتى بماء عذب؛ فشرب

---

(١) مغازي الواقدي (١/١٧٩).
(٢) مغازي الواقدي (١/١٧٨).
(٣) أنساب الأشراف (١/٣١٥).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٤٤٣).
(٥) مغازي الواقدي (١/٢٤٠).
(٦) مغازي الواقدي (١/٢٣٧).
(٧) مغازي الواقدي (١/٢٤٩).
(٨) الحسي: حفيرة قريبة القعر، قيل: إنَّه لا يكون إلَّا في أرض أسفلها حجارة وفوقها رمل، فإذا أمطرت

رسول اللَّه ﷺ وَدَعَا لمحمد بن مَسْلَمة بخير[١].

٣ـ وفي غزوة بني النضير من يهودٍ التي كان سببها المباشر محاولة يهودٍ الغدر بالنبي ﷺ، وكان يومئذٍ في زيارتهم لمعاونته في تحمل ديتين لرجلين قتلهما أَحَدُ المسلمين[٢].

ورجع النبي ﷺ من بني النضير إلى المدينة وَتَبِعَهُ أصحابه، فأرسل إلى محمد ابن مَسْلَمَة يدعوه، فقال أبو بكر الصديق: «**يا رسول الله! قمتَ ولم نشعر**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هَمَّتْ يهود بالغدر بي**».

وجاء محمد بن مَسْلَمة، فقال: «**اذهب إلى يهود بني النضير، فقُلْ لهم: إن رسول اللَّه أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده**».

ولما جاءهم ابن مَسْلَمَة قال لهم: «**إن رسول اللَّه ﷺ أرسلني إليكم؛ ليقول لكم: قد نقضتم العهد الذي جعلتُ لكم بما هممتم به من الغدر بي... ويقول: اخرجوا من بلدي، فقد أَجَّلْتُكم عشرًا، فمن رُئِيَ بعد ذلك ضربت عنقه**»، قالوا: «**يا محمد!! ما كنا نرى أن يأتي بذلك رجل من الأوس!!**»[٣]. وكان الأوسُ حلفاءَ بني النضير.

وحاصرهم النبي ﷺ خمسة عشر يومًا، فأجلاهم رسول اللَّه ﷺ وَوَلِيَ إخراجَهُمْ محمدُ بن مَسْلَمة[٤]، كما وَلِيَ قبضَ أموالهم وسلاحهم[٥].

ولم يَكُنْ تكليف محمد بن مسلمة بتبليغ بني النضير بالجلاء وتوليته إجلاءَهم وإخراجَهم من ديارهم وقبضَ أموالهم وسلاحهم، إلا لأنه من الأوس حلفاءِ بني

نشفها الرمل، فإذا انتهى إلى الحجارة أمسكته؛ انظر: النهاية (٢٢٨/١).

(١) مغازي الواقدي (٢٥٠/١).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣٦٣/١ ـ ٣٦٦).

(٣) مغازي الواقدي (٣٦٦/١، ٣٦٧).

(٤) مغازي الواقدي (٣٧٤/١).

(٥) مغازي الواقدي (٣٧٧/١).

النضير، فأثبت محمد بن مسلمة أن ولاءه للإسلام وحده لا لأعداء الإسلام - حتى ولو كانوا من حلفائه المقربين إلى قومه -، وبذلك حَلَّتْ مُثُلُ الإسلام مكان تقاليد الجاهلية، وكان ما فعله محمد بن مسلمة اختبارًا عمليًا لإيمانه العميق بِالْمُثُلِ الإسلامية الجديدة، وتخليه نهائيًّا عن تقاليد الجاهلية البالية.

٤- وفي غزوة «**دُومَة الجَنْدَلِ**»[١]، تفرق المشركون، فنزل رسول اللَّه ﷺ بساحتهم، فلم يجد بها أحدًا، فأقام بها أيامًا وبث السرايا وفرقها حتى غابوا عنه يومًا، ثم رجعوا إليه، ولم يصادفوا منهم أحدًا، إلا أن محمد بن مَسلَمَة أخذ رجلًا منهم، فأتى به النبي ﷺ، فسأله عن أصحابه، فقال: «**هربوا أمس؛ حيث سمعوا بأنك قد أخذت نَعَمهم**»، فعرض عليه رسول اللَّه ﷺ الإسلام أيامًا، فأسلم الرجل، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة[٢].

٥- وشهد محمد بن مَسْلَمَة الخندقَ[٣]، فأقبل خالد بن الوليد في ليلة من ليالي تلك الغزوة في مئة فارس، أقبلوا حتى وقفوا وجاه قُبة النبي ﷺ، فأنذر محمد بن مَسْلَمة قائدُ حرس النبي ﷺ عَبَّادَ بن بِشر، وأقبل خالد في ثلاثة نَفَرٍ هو رابعهم، فقال: «**هذه قبة محمد! ارموا... ارموا...**». فقاومهم محمد بن مَسْلَمَة حتى وقف ومَن معه من المسلمين على شفير الخندق، وخالد ومَنْ معه بشفير الخندق من الجانب الآخر، حتى ردهم المسلمون لم ينالوا خيرًا[٤]. وذكر محمدُ بن مسلمة، أنه كان مع قسم من المسلمين حول قُبة رسول اللَّه ﷺ يحرسونه؛ إذ وافت أفراس

---

(١) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة المنورة، فيها حصن مبني بالجندل؛ لذلك سميت بدومة الجندل، وهي حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيئ؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٤/١٠٦).

(٢) مغازي الواقدي (١/٤٠٣، ٤٠٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤٤٣).

(٤) مغازي الواقدي (٢/٤٦٧، ٤٦٨).

على «**سَلْع**»[(١)]، فبصر بهم عَباد بن بِشْر، فأخبرهم بهم، فمضى إلى الخيل، وعَباد قائم على باب قبة النبي ﷺ آخذًا بقائم السيف ينتظر عودة محمد بن مَسْلمَة إلى موضعه في حراسة قُبة النبي ﷺ، ثم يقول ابن مَسْلَمَة: «**كان ليلنا بالخندق نهارًا، حتى فَرَّجَهُ اللهُ**»[(٢)]؛ يريد أنهم يسهرون الليل كله خوفًا من مباغتة قريش لهم، وحرصًا على سلامة النبي ﷺ والمسلمين.

٦- وفي غزوة بني قُرَيْظَة من يهود كان محمد بن مَسْلَمَة أحد فرسان المسلمين[(٣)]، وقد ذُكِرَ أن المسلمين حاصروهم قبل الفجر، وجعلوا يَدْنُون من الحِصْن ويرمونهم عن كَثَبٍ، ولزموا حصونَهم لا يفارقونها حتى حَلَّ المساءُ، والنبي ﷺ يَحُضُّهُمْ على الجهاد والصبر، وبات المسلمون حَوْلَ حصون يهودٍ حتى تركوا قتال المسلمين وطلبوا أن يفاوضوا النبي ﷺ، فوافق النبي ﷺ على المفاوضة، فَأَنْزَلُوا نباش بن قيس أحدهم، فَكَلَّمَ رسولَ اللَّه ﷺ ساعةً، وقال: «**يا محمد! ننزل على ما نزلت عليه بنو النضير: لك الأموال والسلاح، وَتَحْقِنُ دماءَنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذَّراري، ولنا ما حملت الإبل إلا السلاح**»، فأبى رسول اللَّه ﷺ، فقالوا: «**ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا، إلا أن تنزلوا على حُكْمِي**»[(٤)].

واشتد حصار المسلمين لبني قُرَيْظة، وكان محمدُ بن مَسْلَمة على حرس النبي ﷺ، فمر بالحرس عمرو بن سُعْدَى الذي لم يشايع بني قومه من يهود على نقضهم عهودهم، فقال ابن مَسْلَمَة: «**مَنْ هذا؟**»، فقال: «**عمرو بن سُعْدَي**»، فقال ابن مَسْلَمَة: «**مُرَّ، اللهم لا تحرمني من إقالة عَثَرَاتِ الكرام**»، فخلى سبيله، وخرج حتى

---

(١) سلع: جبل بالقرب من المدينة المنورة، بينها وبين جبل أُحُد. انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٥/ ١٠٧).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٤٦٨).

(٣) انظر: أسماء الفرسان والمسلمين في «مغازي الواقدي» (٢/٤٩٨).

(٤) انظر: تفاصيل المفاوضات في «مغازي الواقدي» (٢/٥٠١ - ٥٠٣).

أتى مسجد رسول اللّه ﷺ، فبات به حتى أصبح، فلما أصبح غدا فلم يُدْرَ أين هو حتى الساعة، فَسُئِلَ رسول اللّه ﷺ عنه، فقال: «**ذلك رجل نَجَّاهُ اللّهُ بوفائه**»[١].

ولما جَهَدَهُمُ الحصارُ، نزلوا على حكم رسول اللّه ﷺ، فأمر رسول اللّه ﷺ بأسراهم، فَكُتِّفُوا رباطًا، وجعل على كتافهم محمد بن مَسْلَمَة[٢].

ووصف محمد بن مسلمة الموقف الراهن فقال: «**وَتَنَحَّى رسول اللّه** ﷺ فجلس، ودنت الأوس إلى رسول اللّه ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! حلفاؤنا دون الخزرج، وقد رأيتَ ما صنعتَ ببني قَيْنُقاع بالأمس، حلفاء ابن أُبي، وهبتَ له ثَلَاثَ مئة حاسرٍ وأربع مئة دارع، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نَقْضِهم العهد، فَهَبْهُمْ لنا! ورسول اللّه ساكت لا يتكلم، حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها، فقال رسول اللّه ﷺ: «**أما تَرْضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجلٍ منكم؟**» قالوا: بلى! قال:«**فذلك إلى سَعد بن مُعاذ**»، وسعد يومئذٍ في المسجد في خيمة يداوي جرحه.

وجاء سعد، فأكثر عليه الأوس، فقال: «**قد آن لسعد ألا تأخذه في اللّه لومة لائم**»، وأقبل إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: «**أحكم فيهم أن يُقتل مَن جرت عليه المُوسَى، وتُسْبَى النساء والذرية، وتقسم الأموال**»، فقال رسول اللّه ﷺ: «**لقد حكمتَ بحكم اللّه عَزَّ وَجَلَّ من فوق سبعة أرقعة**»[٣]. فَنُفِّذَ بهم الحُكْمُ العادل[٤].

وابتاع محمد بن مُسْلَمة من السبي ثلاثة: امرأة معها ابناها، بخمسة وأربعين دينارًا، وكان ذلك حقه وحق فرسه من السبْي والأرض والرِّثَّة[٥]، وكان أَسْهَمَ

(١) مغازي الواقدي (٢/٥٠٤)، والدرر (١٩١).
(٢) مغازي الواقدي (٢/٥١٠).
(٣) الأرقعة: السماوات، الواحدة رقيع، شرح أبي ذر (٣٠٦).
(٤) انظر: التفاصيل في «مغازي الواقدي» (٢/٥١٠ ـ ٥٢٥).
(٥) الرِّثَّة: رديء المتاع وسقط المتاع. والجمع: رَثَث، وَرِثَاث.

النبي ﷺ للفارس ثلاثة أسهم: له سهم، ولفرسه سهمان[١].

٧ـ وشهد محمد بن مسلمة غزوة **«الحُدَيْبِية»**[٢]، فكان أحد فرسان الطليعة التي قدمها رسول اللَّه ﷺ بإمرة عباد بن بِشْر، والمؤلفَة من عشرين فارسًا[٣].

وكان رسول اللَّه ﷺ يأمر أصحابه بالحُدَيْبية يتحارسون الليل، فكان ثلاثة من أصحابه يتناوبون الحراسة؛ أحدهم محمد بن مَسْلَمَة.

وكان ابن مَسْلَمة على فرس النبي ﷺ ليلة من تلك الليالي، وعثمان بن عفان بمكة بعدُ، وقد كانت قريش بعثت ليلًا خمسين رجلًا، وأمروهم أن يطيفوا بالنبي ﷺ رجاءَ أن يُصيبوا منهم أحدًا أو يُصيبوا منهم غِرَّةً، فأخذهم محمد بن مَسْلَمَة وأصحابه، فجاء بهم إلى رسول اللَّه ﷺ، وكان عثمان بمكة قد أقام بها ثلاثًا يدعو قريشًا، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول اللَّه ﷺ على أهليهم، فبلغ رسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وسلم ـ أن عثمان وأصحابه قد قُتلوا، فذلك حين دعا إلى البيعة تحت الشجرة على الموت.

وبلغ قريشًا حبس أصحابهم، فجاء جمع منهم إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة، وأسروا حينئذ من المشركين أسرى[٤].

وعندما عُقِد صلح الحُدَيْبية بين المسلمين وقريش، كان محمد بن مَسْلَمَة أحد الشهود المسلمين على عقد الصلح مع جماعة من المسلمين؛ منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم[٥] ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعًا.

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٥٢٤).
(٢) قرية صغيرة على تسعة أميال من مكة؛ انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنيّة (٢/٢١٦).
(٣) مغازي الواقدي (٢/٥٧٤).
(٤) مغازي الواقدي (٢/٦٠٢).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٦١٢)، وأنساب الأشراف (٢/٣٥٠).

٨ـ وشهد محمد بن مَسْلَمَة غزوة **«خَيْبَر»**[١] ، فدعاه رسول اللَّه ﷺ وقال: **«انظر لنا منزلًا بعيدًا من حصونهم بريئًا من الوباء، نأمنُ فيه بياتهم»**، فطاف ابن مَسْلَمَة حتى انتهى إلى **«الرجيع»**[٢] ، ثم عاد إلى النبي ﷺ ليلًا فقال: **«وجدت لك منزلًا»** فقال رسول اللَّه ﷺ : **«على بركة الله»**، فلما أمسى رسول اللَّه ﷺ تحول وأمر الناس فتحولوا إلى الرجيع[٣].

وقد شارك محمد بن مَسْلَمة في قطع النخل الذي يحيط بحصن **«النطاة»** أحد حصون خَيبر، فكان ينظر إلى صَوْر[٤] من كَبيس[٥] ويقول: **«أنا قطعت هذا الصوْر بيدي حتى سمعت بِلالًا ينادي عزمةً من رسول اللَّه ﷺ: لا يُقْطع النخل! فأمسكنا»**[٦].

وكان محمود بن مَسْلَمَة أخو محمد بن مَسْلَمَة يقاتل مع المسلمين يومئذٍ، وكان يومًا صائفًا شديد الحر، وهو أول يوم قاتل فيه رسول اللَّه ﷺ أهل حصن النطاة وبها بدأ، فلما اشتد الحر على محمود وعليه أداته كاملة، جلس تحت حصن ناعِم يبتغي فَيْئَه، ولا يظن محمود أن فيه أحدًا من المقاتلة، إنما ظن أن فيه أثاثًا ومتاعًا.

وناعم: يهودي، وله حصون ذوات عدد، فكان هذا منها ـ فدلى عليه مَرْحب اليهودي رحى، فأصاب رأسه، فاستشهد في المعركة[٧].

وخرج مَرْحب اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول:

قد عَلِمَتْ خَيْبَر أَني مَرْحَبُ ... شَاكِي السلاحِ بطلٌ مُجَربُ

---

(١) خيبر: على ثمانية بُرُدٍ من المدينة لمن يريد الشام؛ انظر: معجم البلدان (٣/٤٩٥).

(٢) الرَّجيع: وادٍ قرب خيبر؛ انظر: وفاء الوفا (٢/٢١٥).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٦٤٤).

(٤) الصور: النخل الصغار أو المجتمع.

(٥) الكبيس: ضرب من التمر.

(٦) مغازي الواقدي (٢/٦٤٥).

(٧) مغازي الواقدي (٢/٦٤٥).

أطعنُ أحيانًا وحينًا أَضْرِبُ يُحْجِمُ عن صَوْلَتِيَ المجربُ

وهو يقول: «**مَن يبارز؟**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لهذا؟**»، فقال محمد بن مَسْلَمَة: «**أنا له يا رسول الله! أنا واللَّه الموتور الثائر، قُتِل أخي بالأمس**»، فقال: «**فَقُمْ إليه! اللهم أَعِنْهُ عليه**».

فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عُمْرِية[١]، من شَجَر العُشَرِ[٢]، فجعل أحدهما يلوذ بها[٣] من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبُه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم، ما فيها فَنَن[٤]، ثم حمل مرحب على محمد بن مَسْلَمة فضربه، فاتقاه بِدَرَقة[٥] فوقع سيفه فيها، فَعَضتْ به فأمسكته، وضربه محمد بن مَسْلَمَة حتى قتله[٦].

والصحيح الذي عليه أكثر أهل السير وأهل الحديث أن علي بن أبي طالب ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه ـ هو الذي قتل مرحبًا اليهودي بخيبر[٧].

وبرز أُسَيْر اليهودي، وكان رجلًا أَيِّدًا، وكان إلى القِصَر، فجعل يصيح: «**مَنْ يبارز؟**»، فبرز له محمد بن مَسْلَمَة، فاختلفا ضربات، ثم قتله محمد بن مَسْلَمَة[٨].

وكان يهود خَيبر في حصونهم يرمون المسلمين بالسهام، ويحاولون قتل النبي ﷺ، فكان محمد بن مَسْلَمة فيمن تَرَّسَ عن النبي ﷺ.

قال محمد بن مَسْلَمَة: «كنتُ فيمن تَرَّسَ عن النبي ﷺ، فجعلت أصيح

---

(١) عمريَّة؛ أي: قديمة طويلة العمر.

(٢) العُشَر ـ بضم العين وفتح الشين ـ: شجر له صمغ.

(٣) يلوذ بها: يلجأ إليها ويستتر بها من عدوِّه.

(٤) فنن ـ بفتح الفاء والنون ـ: غصن.

(٥) الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب ولا عقب.

(٦) سيرة ابن هشام (٣/٣٨٣ ـ ٣٨٥)، وانظر: مغازي الواقدي (٢/٦٥٤ ـ ٦٥٧)، والدرر (٢١١، ٢١٢).

(٧) الاستيعاب (٣/١٣٧٧)، وأُسْد الغابة (٤/٥٣٣).

(٨) مغازي الواقدي (٢/٥٦٧).

بأصحابه: تراموا بالحَجَف[1]! ففعلوا، فرمونا حتى ظننتُ ألا يُقْلِعوا، فرأيت رسول اللَّه ﷺ رمى بسهمٍ، فما أخطأ رجلًا منهم، وتبسم إليَّ رسول اللَّه ﷺ، وانفرجوا ودخلوا الحصن»[2].

وحين استسلم أحد الحصون عَنْوَة للمسلمين، دفع النبي ﷺ كِنَانَة بن أبي الحُقَيْق إلى محمد بن مَسْلَمة، فقتله بأخيه الشهيد محمود بن مَسْلَمة[3] الذي استُشهد في تلك الغزوة، وأخذ سهمه من الأرض واشترى من غيره أيضًا[4].

وكان رسول اللَّه ﷺ لما فتح خَيْبَر سأله يهود، فقالوا: «**يا محمد! نحن أرباب النخل وأهل المعرفة بها**»، فساقاهم[5] رسول اللَّه ﷺ خَيْبَر على شطر من التمر والزرع، وكان يُزرع تحت النخل، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أُقركم على ما أقركم الله**»، فكانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ حتى تُوفي، وأبي بكر، وصدرٍ من خلافة عمر بن الخطاب[6]، ثم أجلى عنها يهود، وبقي محمد محافظًا على ما يملك من أرض خَيْبَر[7].

٩ـ ولما خرج رسول اللَّه ﷺ إلى عُمْرَة القَضِية «**غزوة القَضِية**» فانتهى إلى «**ذي الحُلَيْفة**»[8]، قدم الخيل أمامه وهي مئة فرس، واستعمل عليها محمد بن مَسْلَمة[9].

وسار رسول اللَّه ﷺ يُلَبي والمسلمون يُلَبون، ومضى محمد بن مَسْلَمَة بالخيل

---

(١) الحجف: جمع الحَجَفة؛ وهي: الترس من جلود بلا خشب ولا رباط من عصب.

(٢) مغازي الواقدي (٦٢٢/٢).

(٣) مغازي الواقدي (٦٧٢/٣ ـ ٦٧٣)، وابن الأثير (٢٢١/٢).

(٤) مغازي الواقدي (٩٦٠/٢).

(٥) سَاقَى فلانٌ فلانًا نخله أو كرمه: إذا دفعه إليه، واستعمله فيه على أن يعمره ويسقيه ويقوم بمصلحته من الآبار وغيره، فما أخرج الله منه فللعامل سهم من كذا وكذا سهمًا مما تغلُّه، والباقي لمالك النخل؛ انظر: لسان العرب (١١٨/١٩).

(٦) مغازي الواقدي (٦٩٠/٢، ٦٩١).

(٧) مغازي الواقدي (٧٢١).

(٨) ذو الحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، على طريق «المدينة ـ مكة»، ومنها ميقات أهل المدينة؛ انظر: معجم البلدان (٣٢٩/٣).

(٩) طبقات ابن سعد (٤٤٤/٣)، ومغازي الواقدي (٧٣٣/٢).

إلى «**مَرِّ الظَّهْران**»، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوا محمد بن مَسْلَمَة فقال: «**هذا رسول الله** ﷺ يُصبِّح هذا المنزل غدًا إن شاء الله!». فرأوا سلاحًا مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعًا حتى أتوا قريشًا فقالوا: «**والله ما أحْدَثنا حَدَثًا، ونحن على كتابنا ومدتنا، ففيمَ يغزونا محمد في أصحابه؟!**».

ونزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظهْران، وقدم رسول الله ﷺ السلاح إلى بطن «**يَأْجَج**» (١) حيث ينظر إلى أنصاب الحرم.

وبعثت قريش مِكْرَز بن حَفْص بن الأحنف في نفرٍ من قريش، حتى لقوه ببطن يَأْجَج، ورسول الله ﷺ في أصحابه والهَدْيَ والسلاح قد تلاحقوا، فقالوا: «**يا محمد! والله ما عُرِفتَ صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر! تدخل بالسلاح الحَرَمَ على قومك، وقد شرطتَ ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القُرُب؟**»، فقال رسول الله ﷺ «**لا ندخلها إلا كذلك**» (٢).

١٠ـ وهكذا بذل محمد بن مَسْلَمَة قصارى جهوده وغاية جهاده في غزوات النبي ﷺ جنديًّا من جنود المسلمين، وقائدًا مرءوسًا من قادتهم الذين عملوا تحت راية الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

☐ قائد السَّرايا

١ـ سريته إلى كعب بن الأَشْرَف (٣) اليهودي:

وكان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة الثالثة الهجرية «٦٢٤م».

---

(١) يأجج: مكان من مكة على ثمانية أميال؛ انظر: معجم البلدان (٨/٤٩٠).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٧٣٤).

(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/١٨٤ ـ ١٩٣)، وسيرة ابن هشام (٢/٤٣٠ ـ ٤٤٣)، وطبقات ابن سعد (٢/٣١ ـ ٣٤)، والطبري (٢/٤٨٧ ـ ٤٩١)، وابن الأثير (٢/١٤٣ ـ ١٤٥)، وعيون الأثر (١/٢٩٨ ـ ٣٠٣)، والمحبر (٢٨٢)، والبداية والنهاية (٤/٥ ـ ٩)، والإمتاع (١٠٧)، وتاريخ الخميس (١/٤١٢)، وسنن أبي داود (١/٢٧٧)، وجوامع السيرة (١٥٤ ـ ١٥٦)، والنويري (١٧/٧٢)، والدرر (١٥٠ ـ ١٥٣)، وأنساب الأشراف (١/٣٧٤).

ولما اتصل بكعْب بن الأشرف ـ وهو رجل يهودي من نَبْهان من طَيئ، وأمه من بني النضِير ـ قَتْلُ صناديد قريش ببدرٍ قال: «**بطن الأرض خير من ظهرها**».

ونهض ابن الأشرف إلى مكة، فجعل يَرْثي قتلى قريش، ويحرض على قتال النبيﷺ ، ويُشبِّب بنساء المسلمين؛ قصدًا لإيذاء أزواجهن، وكان شاعرًا، ثم عاد من مكة إلى المدينة، فلم يزل يؤذي رسول اللهﷺ ويدعو إلى خلافه ويسب المسلمين حتى آذاهم أعظم الأذى، فقال رسول اللهﷺ : «**مَنْ لي بابن الأشرف، فإنه يؤذي اللَّه ورسوله والمؤمنين؟**»، فقال له محمد بن مَسْلَمَة: «**أنا له يا رسول الله، أنا أقتله إن شاء الله**»، فقال: «**فافعل إنْ قدرتَ على ذلك**».

ومكث محمد بن مَسْلَمَة أيامًا مشغول النفس بما وعد رسول اللَّهﷺ من نفسه في قتل ابن الأشرف، فانتدبه رسول اللَّهﷺ ، وانتدب معه سِلْكان بن سلَامة بن وَقْش أبا نائلة أحد بني عبد الأَشْهَل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعَباد بن بِشْر بن وَقْش، والحارث بن أَوْس بن مُعَاذ، وهما من بني عبد الأشهل، وأبا عَبْس بن جَبْر أخا بني حارثة[1] ، وأذن لهم رسول اللَّهﷺ أن يقولوا غير ما يعتقدون[2] ، على سبيل جواز ذلك في الحرب.

وقدَّموا إلى ابن الأشرف سِلْكَانَ بنَ سَلَامة، فقصد له وأظهر له موافقته على الانحراف عن رسول اللَّهﷺ ، وشكا إليه ضِيْق حالهم، وكلمَه في أن يبيعه وأصحابه طعامًا، فَيَرْهَنُوه سِلاحَهم، فأجابهم إلى ذلك.

ورجع سِلْكَان إلى أصحابه، فخرجوا إلى ابن الأشرف اليهودي، وشيعهم رسول اللَّهﷺ إلى «**بِقَيْعِ الغَرْقَد**»[3] في ليلة مُقْمِرَة، فأتوا كعبًا، فخرج إليهم من

---

(١) في عيون الأثر: أن اسمه عبدالرحمن.

(٢) أن يقولوا في الرسولﷺ ما لا يعتقدون؛ خدعة للعدو على سبيل جواز ذلك مع الأعداء في الحرب.

(٣) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة المنورة.

حِصْنِه، فَتَماشَوْا، فوضعوا عليه سيوفهم، ووضع محمد بن مَسْلَمَة مِغْوَلًا[(١)] كان معه في ثُنته[(٢)] فقتله.

وصاح ابن الأشرف صيحة شديدة انذعر بها أهل الحصون حواليه، فأوقدوا النيران دون جدوى.

وجُرح الحارث بن أَوْس في رِجْلِه ببعض سيوف أصحابه أو في رأسه، فَنَزَفَهُ الدم، وتأخر قليلًا عن أصحابه، الذين سلكوا على بني أُمَيَة بن زيد إلى بني قُرَيْظَة، إلى «**بُعَاث**»[(٣)]، إلى «**حَرة العُرَيْض**»[(٤)]، فانتظروا صاحبهم الحارث هناك حتى وافاهم، فأتوا به رسول اللَّه ﷺ في آخر الليل وهو يُصلي، فأخبروه بقتل ابن الأشرف.

وهكذا انتهت حياة أحد أعداءِ المسلمين الذين آذاهم وحرض عليهم كثيرًا.

عن سفيان عن عمرو سمعت جابر بن عبداللَّه ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لي بكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى اللَّه ورسوله**» فقام محمد بن مسلمة فقال: «**يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟**» قال: «**نعم**» قال: فأْذَنْ لي أقل شيئًا. قال: «**قل**».

فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال: وأيضًا واللَّه لتُمَلُّنَّه. قال: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين ـ

---

(١) المغول: شبه سيف قصير يشتمل به الرجل تحت ثيابه. وقيل: هو حديدة دقيقة لها حدٌّ ماضٍ وقفًا، وقيل: هو سوط في جوفه سيف دقيق يشدُّه الفاتك على وسطه؛ ليغتال الناس.

(٢) الثُّنَّة من الإنسان: مادون السرَّة، فوق العانة، أسفل البطن.

(٣) بعاث: موضع في نواحي المدينة كانت فيه وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية؛ انظر: معجم البلدان (٢/٢٢٣).

(٤) حرَّة العريض: حرَّة بالقرب من المدينة، لا ذكر لها في «معجم البلدان».

وحدثنا عمرو غير مرة فلم يذكر «**وسقًا أو وسقين**» فقلت له: فيه وسقًا أو وسقين؟ فقال: أرى فيه وسقًا أو وسقين ـ فقال: نعم، أرهنوني. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسب أحدهم فيُقال رُهِن بوسق أو وسقيْن، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللامة ـ قال سفيان: يعني السلاح: فواعده أن يأتيه فجاءه ليلًا ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة، وقال غير عمرو: قالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين ـ قيل لسفيان : سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم ـ.

قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر. قال عمرو: جاء معه برجلين فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشَعْره فأشمه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، وقال مرة: ثم أشمكم.

فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا ـ أي أطيب ـ. وقال غير عمرو: قال عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتاذن لي؟ قال: نعم، فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه.

ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه»[1].

قال عباد بن بشر في هذه الواقعة: وفيها وصف شجاعة محمد بن سلمة رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١)، وأبو داود (٢٧٦٨)، وعزاه المزي للنسائي.

صَرَخْتُ بِهِ فَلَمْ يَعْرِضْ لِصَوْتِي وَوَافَى طَالِعًا مِنْ رَأْسِ خِدْرِ[١]
بَعَثْتُ لَهُ فَقَالَ مَنِ المُنَادِي فَقُلتُ أخوكَ عَبادُ بنُ بِشْرِ[٢]
وَهَذِي دِرْعُنَا رُهْنًا فَخُذْهَا لِشَهْرٍ إِنْ وَفَى أَوْ نِصْفِ شَهْرِ
فَقَالَ مَعَاشِرٌ سَغِبُوا وَجَاعُوا وَمَا عُدِمُوا الْغِنَى مِنْ غَيْرِ فَقْرِ
فَأَقْبَلَ نَحْوَنَا يَهْوِي سَرِيعًا وَقَالَ لَنَا لَقَدْ جِئْتُمْ لِأَمْرِ
وَفِي أَيْمَانِنَا بِيضٌ حِدَادٌ مُجَرَّبَةٌ بِهَا الْكُفَّارَ نَفْرِي
فَعَانَقَهُ ابْنُ مَسْلَمَةَ المُرَدَّى بِهِ الْكُفَّارُ كَاللَّيْثِ الهِزَبْرِ
وَشَدَّ بِسَيْفِهِ صَلْتًا عَلَيْهِ فَقَطَّرَهُ أَبُو عَبْسِ بْنِ جَبْرِ
وَكَانَ اللَّهُ سَادِسَنَا فَأُبْنَا بِأَنْعَمِ نِعْمَةٍ وَأَعَزِّ نَصْرِ
وَجَاءَ بِرَأْسِهِ نَفَرٌ كِرَامٌ هُمُو نَاهِيكَ مِنْ صِدْقٍ وَبِرِّ

قال كعب بن مالك في قتل ابن الأشرف:

فَغُودِرَ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيعًا فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيرُ
عَلَى الْكَفَّيْنِ ثُمَّ وَقَدْ عَلَتْهُ بَأَيْدِينَا مُشَهَّرَةً ذُكُورُ
بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لَيْلًا إِلَي كَعْبٍ أَخَا كَعْبٍ يَسِيرُ
فَمَا كَرِهٍ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرٍ وَمَحْمُودٌ أَخُو ثِقَةٍ جَسُورُ

ولله دَرُّ من نظم هذه السرية شعرًا فقال:

يَا نَاقِضَ الْعَهْدِ لا شَكْوَى وَلَا أَسَفُ اللهُ مُنتقِمٌ والسيفُ مُنتصِفُ
تَهْجُو النَّبِيَّ وَتُغرِي الْمُشرِكينَ بهِ مَهْلًا لكَ الويلُ مَاذَا أنتَ مُقترِفُ
كَمْ جِيفَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِيكَ مُنْكَرَةً لَمَّا تَرَدَّتْ بِبَدْرٍ تِلْكُمُ الجِيَفُ
إِنَّ الْوَلِيمَةَ أَخْزَى اللَّهُ صَانِعَها كَانَتْ ضِرَارًا فَلَا وُدٌّ وَلَا لَطَفُ

---

(١) في مصادر أخرى: رأس جدر، وعند الواقدي:

صرخت به فلم يحفل لصوتي وأوفى طالعًا فوق قصر

(٢) وفي مصدر آخر:

فعُدتُ فقال من هذا المنادي فقلت أخوك عبّاد بن بشر

أتحسبونَ رسولَ اللهِ يجهلُها مَكِيدةٌ فَضَحَتْ أسرارَها السجُفُ[١]
بل أظهرَ اللهُ مَا تُخفونَ فانكشفَت يا وَيَلكم أي خافٍ ليس يَنكشِفُ
لقد هَممتُمْ بمن لا حَيَّ يَعدِلُه إن نُوزِعَ المجدُ بين الناسِ والشرفُ
يا ويلُ من ظن أن اللّه يَخذُلُه وأنه من يمينِ اللهِ يُختطَفُ
يا كعبُ مالَكَ تُؤذيهِ وتُنكِرُه وما الوُلوعُ بقولِ الزورِ والشغَفُ
جعلتَ مالَكَ للأحبارِ مفسدةً يُمتاحُ فيها الأذى حِينًا ويُغترَفُ[٢]
رَمَوْك بالحق لما رُحتَ تسألُهم وأعلنوا من يقينِ الأمرِ ما عَرفُوا
فقلتَ: عُودوا فما عندِي لكم صِلَةٌ جَف المَعِينُ فلا قَصْدٌ ولا سَرَفُ
حَسْبِي الحقوقُ فمالِي لا يجاوزُها إلى الفُصولِ وما عن ذاكَ مُنصرفُ
عادوا يقولونَ ما أشقاهُ من رَجُلٍ لا يرتضِي القولَ إلا حينَ ينحرِفُ
ثم انثنَوا ينطقون الزورَ فانقلبوا بالمالِ يَصدِفُ عنه المعشرُ الأُنُفُ[٣]
بِئسَ العطاءُ وبِئسَ القومُ أمرُهُم وأمرُ سيدِهم في الغَي مُؤتلِفُ
هُمُ اليهودُ، لَو أنَّ المالَ لاح لهم في عَيْنِ مُوسى كليمِ اللهِ ما صَدَقُوا
هبَّ ابنُ مسلمةٍ للحق يَنصرُه وللرسولِ يُريه كيفَ يَزدهِفُ[٤]
فقال دُونكَ سعدًا إن هممتَ بها شَاوِرْهُ فيها فَنِعمَ الحاذقُ الثقِفُ[٥]
قَضى ثلاثةَ أيامٍ على سَغَبٍ وللمجربِ ذي التدبيرِ ما يَصِفُ
وجاءَ في صحبِهِ يستأذنون على تَقْوَى من اللهِ ما مالوا ولا جَنَفُوا

---

(١) الأستار.

(٢) جاءه أحبار اليهود؛ ليأخذوا صلتهم على عادتهم؛ فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل «النبي»؟! قالوا: هو الذي كنا ننتظره، ما أنكرنا من نعوته شيئًا!!. قال قد حُرِمْتُم كثيرًا من الخير، ارجعوا إلى أهليكم؛ فإن الحقوق في مالي كثير!!. فرجعوا عنه خائبين، ثم رجعوا إليه وقالوا: إنا عجلنا فيما أخبرناك به، وليس هو المنتظر!!. فرضي عنهم، ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئًا من ماله. وَمَتَحَ المَاءَ وامْتَاحَهُ: نَزَعَهُ.

(٣) جمع أُنوف؛ وهو: الشديد الأنفة.

(٤) ازْدَهَفَ: الأمرَ: تقحم فيه، وَالحِمْلَ: احتمله، والشيءَ: ذهب به وأهله، وللكلمة معانٍ أخرى.

(٥) الحاذقُ والثَّقِفُ بمعنى.

قال الرسولُ لكمُ في القولِ مأربُكم ... ماذا على الدر مما يُوهِمُ الصدَفُ
هِيَ القلوبُ فإن طابتْ سَرائرُها ... فما بأفواهِكم عَيبٌ ولا نَطَفُ(١)

* * *

مَضْوا فقالوا لكعبٍ أنت مَوئلُنا ... أنت الحِمى المُرتجى في الأزْل والكَنَفُ(٢)
أما ترانا جِياعًا لا طعامَ لنا ... حتى لقد كادَ يَغْشَى أهلَنا التلَفُ(٣)
لم يُبقِ صاحِبُنا شيئًا نَعيشُ بِهِ ... فالزادُ مُنتَهبٌ والمالُ مُجترَفُ(٤)
إن أنتَ أسلفتَنا ما نَستعيدُ به ... رُوحَ الحياةِ فَغَيْثٌ ودْقُهُ يَكِفُ(٥)
قال الحلائلُ رَهْنٌ لا طعامَ لكم ... إلا بهن فقالوا مَطلبٌ قُذُفُ(٦)
تأبَى علينا سَجايانا ويمنعُنا ... هذا الجمالُ أُوتيتَ والترَفُ
قال: البنونَ فقالوا لا تَكُنْ عَسِرًا ... البؤسُ أهونُ مما رُمْتَ والشظَفُ
خُذِ السلاحَ وإن كَلفتنا شَططًا ... إن الشدائدَ فيها تَسْهُلُ الكُلَفُ(٧)
لم يَدْرِ مأربَهم إذ يسخرونَ بهِ ... وإذ يُريدونَها دَهماءَ تُلتَحَفُ(٨)
قال ارتضيتُ فقالوا: غُمةٌ ذَهبت ... عنا غياهِبُها وَانْجَابتْ السدُفُ(٩)

---

(١) النطف: العيب والشر والفساد.

(٢) الأزل: الشدة والضيق.

(٣) قال له أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء؛ عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة؛ فقطعت عنا السبيل حتى جاعت العيال، وجهدت الأنفس، وسألنا الصدقة، ونحن لا نجد ما نأكل، وسائر ما عندنا أنفقنا على هذا الرجل وعلى أصحابه، إني أريد أن تبيعني وأصحابي طعامًا، ونرهنك، ونوثق لك. قال: ارهنوني نساءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ولا نأمنك عليهن؟! قال: فأبناءكم. قالوا: هذا عار علينا، نرهنك السلاح؛ فرضي.

(٤) اجترف الشيءَ: ذهب به كله أو معظمه.

(٥) الودق: المطر. ووكف: سال قليلًا قليلًا.

(٦) القذف من الأمكنة والمواضع: ما يُزلُّ عنه ويُهْوَى، والشيء يبعد ويتقاذف.

(٧) جمع الكلفة، المشقة.

(٨) الدهماء: الداهية.

(٩) السدف: الظُلم، جمع سدفة.

وَأَرْجَـئُـوهُ إلـى إبـانِ مَـوْرِدِه يَعُب من سُمهِ المُرِدِي ويَرتشِفُ[١]
جاءوه بالليلِ مَسرورًا بغرفته وليس يُنْجِي الفتى من حَتفِه الغُرَفُ[٢]
وَرَن صَوتُ أخيهِ عندَ مضجعهِ اخْرُجْ إلينا أما تَنْفَك تَعْتَكِفُ؟
فَهب يركضُ، وَارْتاعتْ حَلِيلَتُه مَهْلًا فإن فُؤادِي خائِفٌ يَجِفُ[٣]
أنت امرؤٌ ذُو حروبٍ لا يُلائِمُه أن يستجيبَ ذَوِي الأضغانِ إن دَلفوا
إني لأَسمعُ صَوْتًا لستُ آمَنهُ كأنه الدمُ يَجرِي أو هُوَ الجَدَفُ[٤]
قال اسْكُنِي ودَعِيني إنه لأخي يَخْشَى علي فَيرعانِي وينعطِفُ
وراحَ يلقاهُ والإسلامُ مُبتسِمٌ والشركُ مُتسِمٌ بالحزنِ مُرتجِفُ
وَافَاهُ في صَحْبَهِ يُدنِي الخُطَى عَبِقًا كأنه ذاتُ دَل زَانها هَيَفُ[٥]
قالوا أتمشِي إلى شِعبِ العجوزِ ففي هذا الخلاء جَنًى للنفس يُخْتَرفُ[٦]
وَانْظُرْ إلى القمرِ الزاهِي وبَهجتِه وَاعْجَبْ له بعد هذا كيفَ يَنكسِفُ

* * *

ساروا إلى الشعبِ والأقدارُ تَتبعُهم على هُدى اللهِ ما زَاغت ولا اعْتَسَفُوا
حتى إذا قعدوا ظَلتْ بموقِفها وَأَقْبَلَ الموتُ عن أيمانِها يَقِفُ

(١) يعبُّ: يشرب بلا تنفس. والمُردِي: والمُهلِك.

(٢) انتهوا إلى حصن كعب، وكان قريب عهد بعرس، فهتف به أبو نائلة ـ وهو أخوه من الرضاع ـ، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بطرفها، وقالت: إنك رجل محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة؛ إني أسمع صوتًا؛ كأنه يقطر منه الدم. قال: إنه أبو نائلة، ولو وجدني نائمًا ما أيقظني. ونزل ينفح منه ريح الطيب، فتحدث معهم ساعة، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز ـ اسم موضع كان قريبًا منهم ـ نتحدث به بقية ليلتنا، وكانت ليلة مقمرة؟. فقال: إن شئتم. ثم مشوا ساعة، وأدخل أبو نائلة يده في باطن رأسه، ثم شم يده، وقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر. ثم عاد لمثلها فاطمأن، ثم أخذ في الثالثة بشعره، وقال: اضربوا عدو الله. فضربوه، وصاح صيحة منكرة، وصاحت امرأته: يا آل قريظة والنضير مرتين؛ فلم يبق حصن إلا أوقدت فيه النار.

(٣) وجف القلب: خفق.

(٤) الجدف: القبر.

(٥) الْعَبِق: الذي تفوح منه رائحة الطيب. والدلُّ: الدلال، والهَيف: ضمور البطن ورقَّة الخصر.

(٦) اخترف الثمر: جناه.

وتِلْكَ كف أخيهِ فَوْقَ مَفْرِقِه ... كأنها من جَنيِّ الزهرِ تَقْتَطِفُ
يَشُمها ويقولُ القولَ يخدَعُه ... في الطيبِ وَهْوَ له من خلفهِ هَدَفُ
ظَلتْ سيوفُ رسولِ اللهِ تأْخذُهُ ... تشُق ما ضربت منه وتَنْتَقِفُ[1]
يا حُسنَها صَيحةً من فيه يُرسِلُها ... كادتْ تَخِر لها من دارِهِ السقُفُ
لم تستطع عُرْسُه صَبْرًا فجاوبها ... صَوْتٌ يُجلجِلُ أودَى السيدُ اللقِفُ[2]
بَنِي قَريظةَ هُبوا من مَضَاجِعكم ... بني النضيرَ انْفِرُوا للثأرِ وَازْدَلِفُوا
عَدا الرجالُ على كعبٍ فوالهفا ... أين الحماةُ وماذا يَصنعُ اللهَفُ
تَبكِي عليه وماذا بعدَ مصرعِه ... إلا البكاءُ وإلا الأدمعُ الذُرُفُ
إن الذي كان يَثْنِي عِطْفَهُ صَلَفًا ... أمسى صَريعًا فلا كِبْرٌ ولا صَلَفُ
عادوا بهامتِه تُلْقَى مُذَممةً ... عِندَ الرسولِ ومنه الصد والنكَفُ[3]
طار اليهودُ على آثارهم فأبَتْ ... أن يُدركوا هِمَمٌ تَرْمِي بهم عُصُفُ
اللَّه أكبرُ والحمدُ الجزيلُ له ... نَصرٌ جديدٌ وفضلٌ منهُ مؤتَنَفٌ[4]
رِيعَتْ يهودُ فجاءَتْ تَبتغِي حِلفًا ... عُودِي يَهودُ فنعمَ العهدُ والحَلِفُ[5]
هَيهاتَ مالكِ من عهدٍ ولو حَمَلَتْ ... مِلءَ البسيطةِ من أيمانِكِ الصحفُ
عَبَّاد قُلْ إن في الأشعارِ تذكرةً ... وإن أحسنها ما أورثَ السلَفُ[6]
غَنِّ الرفاقَ بِوَحيِ الحق تُنشِدُه ... مَضَى النعيبُ وأودَى الشاعِرُ الخَرِفُ[7]

---

(١) نَقَفَ الشيءَ أو انْتَقَفَهُ؛ بمعنى: شقه، وكان محمد بن مسلمة ابن أخيه من هذه الناحية.

(٢) العرس: امرأة الرجل. واللقف: الحاذق.

(٣) جزوا رأسه واحتملوه في مخلاة كانت معهم، واجتمعت اليهود من كل ناحية، فأخذوا على غير الطريق، ففاتوهم، فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد قام النبي ﷺ تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم وعرف أنهم قتلوه، ثم انتهوا إليه، فأخبروه بمقتله؛ فقال: «أفلحت الوجوه»، قالوا: «ووجهك يا رسول الله»، ورموا برأسه بين يديه؛ فحمد الله على قتله، ونكف عنه؛ أي: أَنِفَ منه.

(٤) المؤتنف: بمعنى المستأنف؛ أي: الجديد المبتدأ.

(٥) الحِلْفُ: العهد والصداقة. وَالحَلِفُ: اليمين.

(٦) عباد بن بشر رضي الله عنه: قال في هذه الواقعة.

(٧) النعيب: صوت الغراب. والخرف: الضعيف العقل؛ والمقصود: هو كعب.

☐ سريته إلى القرطاء وأسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه:

خرج محمد بن مَسْلَمَة من المدينة المنورة لعشر ليالٍ خلون من شهر المحرم على رأس تسعة وخمسين شهرًا من مُهاجَر رسول اللَّه ﷺ في السنة السادسة الهجرية بعثه في ثلاثين راكبًا إلى القُرَطاء. والقُرَطاء: بنو قُرْط وقُرَيْط بنو عبداللَّه بن أبي بكر ابن كِلَاب، وهم بطن من بني بَكْر من كِلاب، وكانوا يَنزلون «**البَكَرات**»(١) بناحية «**ضَرِية**»(٢)، وبين ضَرِية والمدينة سبع ليالٍ.

وأمر النبي ﷺ محمد بن مَسْلَمَة أن يشن على القُرَطاء الغارة، فسار الليل، وكمن النهار؛ وأغار عليهم، فقتل نفرًا منهم، وهرب سائرهم، واستاق نَعَمًا وشَاءً، ولم يطارد الذين هربوا من القُرَطاء.

وانحدر محمد بن مَسْلَمَة إلى المدينة، فخمَّس رسول اللَّه ﷺ ما جاء به، وأخذ أصحاب ابن مسلمة ما بقي، فعدلوا الجزور بعشر من الغنم، وكانت النعَم مئة وخمسين بعيرًا، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وغاب تسع عشرة ليلة، وقدم لليلة التي بقيت من المحرم(٣).

وقد استطاع محمد بن مسلمة بهذه العملية السريعة الخفيفة، أن يباغت العدو مباغتة كاملة بالزمان، فانتصر عليه بسهولة ويسر انتصارًا ساحقًا.

ومن مناقب محمد بن مسلمة رضي الله عنه وبركات هذه السرية أنها كانت سببًا في إسلام ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة... فقد لقيهم ثمامة عند قفول السرية راجعة إلى المدينة فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما قدموا على النبي ﷺ عرفه وأحسن معاملته وأطلق سراحه بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يُسلم، فما كان من ثمامة إلا أن عاد وأسلم وصار من خيار المسلمين رضي الله عنه.

---

(١) البكرات: جبال شُمَّخ سود بناحية ضرية.

(٢) ضرية: قرية عامرة قديمة، في طريق مكة من البصرة، تقع في نجد، فيها ماء من بئر.

(٣) طبقات ابن سعد (٧٨/٢)، وانظر: مغازي الواقدي (٥٣٤/٢، ٥٣٥).

● **ولنا هنا وقفة:**

رُبط ثمامة بن أثال بسارية من سواري المسجد، وأمر النبي أهله بإطعامه، وجعل له لبن ناقة يأتيه صباحًا، وما زال يتعهد ببره وفضله، ويقول: ما عندك يا ثمامة؟ فيقول: إن تقتل تقتل ذا كرم، أو ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، فإنه جاءه قبل ذلك رسول من مسيلمة ليغتاله فعصمه اللَّه منه، وقد أمر بإطلاقه فاغتسل وأسلم وذهب إلى مكة معتمرًا، فأخذته قريش وقالت: لقد صبأت عن ديننا. فقال: إنما أسلمت وتبعت خير دين، ولن تصل إليكم بعد اليوم حبة حنطة من اليمامة حتى يأذن رسول الله، فهموا بقتله ثم رأوا أن يخلوا سبيله، فحبس عنهم ما كان يأتيهم من اليمامة حتى أضر بهم الجوع، وأكلوا العلهز وهو الدم يخلط بأوبار الإبل فيشوى، فكتبوا إلى النبي ﷺ يناشدونه الرحم، فبعث إليه يأمره أن يخلي بينهم وبين ما يريدون ففعل، وفي ذلك نزل قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾

ولله در من صاغ هذه الواقعة شعرًا فقال:

مُحَمَّدُ يَا بْنَ مَسْلَمَةٍ سَلامُ ... وَحَمْدٌ مِنْ شَعَائِرِهِ الدَّوَامُ
إِلَى القُرَطَاءِ لَا كَانُوا رِجَالًا ... هُمُ الْبَرحَاءُ وَالدَّاءُ العُقَامُ[١]
رِجَالُ السُّوءِ لَا حَقٌّ يُؤَدَّى ... لِخَالِقِهِمْ وَلَا دِينٌ يُقَامُ
تَنبهتِ القواضِبُ والعَوالِي ... بأيدِي الفاتِحينَ وهَمْ نِيامُ
بَنِي بَكْرٍ أَلَمَّا تُبصِرُوها ... يَشُبُّ ضَرامَها البطلُ الهُمامُ[٢]
ألا إن السريةَ فَاحْذَرُوها ... لِيرهَبَ بَأسَها الجيشُ اللهامُ[٣]
هُمُ الأبطالُ عِدتهمْ قليلٌ ... ومَشهدُهم كَثيرٌ لا يُرامُ
تَقدَّمَ عابِدٌ ومَشى إليهم ... عِبادُ اللهِ وَاسْتَعَر الصدامُ[٤]

(١) البرحاء: الأذى والشر. وداء عقام؛ أي: لا يُرجى البرء منه.
(٢) شبَّ النار: أوقدها. والضرام: الحطب يرمي به في النار.
(٣) العظيم كأنه يلتهم كل شيء.
(٤) عابد بن بشير رضي الله عنه بعثه محمد بن مسلمة في طليعة السرية ثم ركبها وراءه.

فَتِلَكَ جَماجِمُ القَتْلَى وَهذِي ... فلولُ القومِ ليس لها نِظامُ
وخُلِيتِ النساءُ فلا ذمارٌ ... لبكريٍّ يُصانُ ولا ذمامُ
وليسَ لِعرضِ مَغلوبٍ وقاءٌ ... ولكن الألى غَلبوا كِرامُ
أَعِفَّاءُ النُّفُوسِ ذَوِي حِفاظٍ ... عليهم كل فاحشةٍ حَرامُ
هُوَ الإِسلامُ إحسانٌ وَبِرٌّ ... وأخْذٌ بالمُروءةِ وَاعْتِصامُ
تَخَلَّوْا عن حِلائِلهم فرُدت ... عليهم تِلكُمُ المِنَنُ الجِسامُ
بَني بكرٍ غَدَا الوادي خَلاءً ... فأين الشاءُ والكُوَمُ العِظامُ[1]
وأين ثُمامةُ بنُ أثالٍ هَلَّا ... حَمَتْهُ حَنِيفَةٌ مما يُسامُ
يُسامُ الهُونَ ما جزِعَتْ عليهِ ... ولا بَكتِ اليمامةُ إذ يُضامُ
أما بَصُرتْ بسيدها ذليلًا ... عَبوسَ الوجهِ يَعْلُوه القَتامُ[2]
أصابَ مِنَ الرسولِ حِمًى مَنِيعًا ... وكَهْفًا فيه للهِمَمِ ازْدِحامُ
أصابَ قِرًى يُحدثُ عن جَوادٍ ... يُصيبُ الرِّيَّ من يَدِه الغَمامُ
أصابَ كرامةً وأفادَ خيرًا ... فلا مَثوى يُذَم ولا مُقامُ
تَعهدَهُ كَريمٌ أرْيَحِيٌّ ... لهُ في كل آونةٍ لِمامُ[3]
ثُمامةُ كيفَ أنتَ وأي نُعْمَى ... ظفرتَ بها فأعوزَها التمامُ[4]
أما مُكِّنْتُ منك وكنتَ خصمًا ... تَفاقَم شَره وطَغى العُرامُ[5]
طَحَا بِكَ مِن مُسَيْلَمةٍ خَبالٌ ... فلا رَسَنٌ يُرَد ولا زِمامُ[6]
يَقول لئن أردت اليومَ قتلي ... فلا شكوى لدي ولا مَلامُ
وإن يَكُ مِنكَ مغفرةٌ وعَفْوٌ ... شكرتُكَ والقَوِي له احتِكَامُ

---

(١) الكوم: جمع الأكوم؛ وهو: البعير الضخم السنام.
(٢) الغبار: الأسود أو هو السواد.
(٣) اللمام: الزيارة القصيرة.
(٤) البيت وما بعده مسوق على لسان النبي الكريم.
(٥) الشراسة والأذى.
(٦) الرَسَنُ: الحبل يُجعل في رأس الدَّابة.

هَداهُ إلى سَبيلِ اللهِ هادٍ ... له بِمَخائلِ الخيرِ اتسامُ
ثُمامَةُ لا تَخَفْ ما عِشتَ شرًّا ... تَجلى النورُ وانْقَشَع الظلامُ
إلى البيتِ العتيقِ فَسِرْ رَشيدًا ... ولا يَحْزُنْكَ عَتْبٌ أو خِصامُ
تأججَ في صُدورِ القومِ غيظٌ ... له في كل جانحةٍ ضِرامُ[١]
أتُسلِمُ يا ثمامةُ إن هذا ... وإنْ كَذبْتَنا لَهُوَ الأثامُ[٢]
ثُمامةُ خُنْتَنا وَصَبأْتَ عنا ... فليس لِصَدْعِ أنفُسِنا الْتِئَامُ
لأنتَ لنا عدو نتقيهِ ... فلا صُلحٌ يكونُ ولا سَلامُ

* * *

ألا فَدَعُوا الجَهالَةَ وَاسْتَفيقُوا ... فما يُغْني عَنِ الغَيْثِ الجَهامُ[٣]
حذارِ فَما ثُمامةُ غير عَضْبٍ ... لكم في حَدهِ الموتُ الزؤامُ[٤]
يَقولُ لكم لئن لم تَتْبَعُوني ... لسوفَ يُبيدُكم مني انتقامُ
أشُدُّ عليكُمُ الأسواقَ حتى ... يَصيحَ جِياعُكم أينَ الطعامُ؟
أبَوْا فأذاقهم منه عذابًا ... غَرامًا ما لدائِبه انْصِرامُ[٥]
أذابَ الجوعُ أنفسهم فَضَجوا ... وَضَجتْ في جُلودِهْم العِظامُ
أهابوا بالنبي ألا أغِثْنا ... فما يُرضِيكَ أن يَشْقَى الأنامُ
أغِثْنا إنها يا خيرَ مَولى ... عُرَى الأرحامِ ليس لها انْفِصامُ
رُمِينا من ثُمامةَ بالدواهي ... وفي يَدِكَ الكِنانةُ والسهامُ[٦]
نَهاهُ فلا دَمٌ في الحي يُشْوَى ... ولا شَيْخٌ يَجوعُ ولا غلامُ

---

(١) الضِرام: الاضطرام والاتقاد.
(٢) الإِثم.
(٣) السحاب لا ماء فيه.
(٤) العضب: السيف القاطع. والزؤام: السريع أو الكريه.
(٥) الغرام: اللازم من العذاب والشرّ الدائم؛ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: مُلِحًّا دائمًا مُلازمًا، وقال أبو عبيدة: أي هلاكًا ولزامًا لهم.
(٦) الكنانة: جعبة من جلد أو خشب تُجْعَلُ فيها السهام.

تَـدارَكَ فَـضلُـه منـهـم نُـفوسًا ... تَمنتْ لـو تَـدارَكـهـا الحِـمـامُ[1]
فـأمسى الأمرُ فيهم مُستقيمًا ... ولـو عَـرَفـوا المحجـةَ لاسْتَـقـامـوا

❑ سريته إلى ذي القَصة:

بعث النبي ﷺ محمد بن مَسْلَمَة إلى «**ذي القَصة**»[2] في شهر ربيع الآخر سنة ستٍّ الهجرية، في عشرة نفرٍ إلى بني ثَعْلَبَة وبني عُوال من ثعلبة بن سعد، وهم بذي القَصة، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلًا على طريق «**الربَذَة**»[3]، فورد المسلمون عليهم ليلًا، فأحدق بهم القوم وهم نيام فأعملوا فيهم الرماح وجرحوا محمدا وضُرِب كعبه فلا يتحرك، وجرَّد المشركون المسلمين من الثياب، فمر بمحمد بن مَسْلَمَة رجل من المسلمين، فحمله على بعيره حتى وردَ به المدينة المنورة.

وبعث النبي ﷺ أبا عُبَيْدَة بن الجَراح في أربعين رجلًا إلى مصارع القوم، فلم يجدوا أحدًا، ووجدوا نَعَمًا وشاءً فساقه ورجع إلى المدينة[4].

وقد نجا محمد بن مَسْلَمَة من الموت؛ لأن المشركين بعد إصابته بجروح بالغة، ظنوا أنه قد قضى نحبه كسائر أفراد سريته، ولكنه لم يكن قد مات، فنجا من الموت ليواصل خدمة الإسلام والمسلمين من جديد.

وَيْحَ ذِي الـقَـصةِ ماذا يَشْهَدُ؟ ... وَيْـحَـهُ مِـن وَقْـعَـةٍ لا تُـحْـمَـدُ
يـا بـنـي ثَـعْـلَـبَـةٍ مـا خَـطبُـكـم؟ ... أكـذا تُـقْـرَى الـلـيوثُ الـهُـجَّـدُ؟[5]
إنـــه الجبنُ وأخـــلاقُ الأُلَـــى ... يَحسَبونَ الخَتْلَ حَربًا تُوقَدُ[6]

---

(١) الموت.

(٢) ذو القصَّة: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلًا، وهو طريق الرَّبذة.

(٣) الرَّبَذَة: قرية من قرى المدينة، على ثلاثة أميال؛ قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكَّة؛ انظر: معجم البلدان.

(٤) طبقات ابن سعد (٨٥/٢)، ومغازي الواقدي (٥٥١/٢، ٥٥٢)، وأنساب الأشراف (٣٧٧/١).

(٥) قرى الضيف: أضافه.

(٦) الختل: الخداع.

فَقَدُوا البأسَ فدبوا خِفيةً وَانْتَضُوها أنفُسًا لا تُفْقَدُ[١]

* * *

يا جريحَ الحق هل مِت وهَلْ قُضِيَ الأمرُ وحُمَّ الموعِدُ؟
فَرِحَ القومُ فقالوا مَغنمًا ساقَهُ الجَد ورأيٌ مُحصَدُ[٢]
جَردوا الفارَس من أثوابه ليتَ شِعري أي سَيْفٍ جَردوا
عَرفَ السيَف فتى من قومِه ضَج يسترجعُ مما يَشْهَدُ
أيها الميْتُ تحركْ لا تَخَفْ حَضر الفادِي وجَاءَ المُنجدُ
بُورِكَ الحاملُ ما أحسنَها من يدٍ مَعروفُها لا يُجْحَدُ

❏ جهاده بعد رسول اللَّه ﷺ:

كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه أحد أبطال حروب الردة، حتى أتم اللَّه نعمته وأظهر دينه على الدين كله، ورد كيد الكائدين إلى نحورهم[٣].

وشهد فتح مصر، وكان فيمن طلع للحصن مع الزبير بن العوام رضي الله عنه.

وقد شهد محمد بن مسلمة الجابية بالشام مع عمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - وكان على مقدمته يومئذ[٤].

❏ البطل يكسر سيفه ولا تضره الفتنة:

كان رضي الله عنه ممن اعتزل الفتنة، ولم يحضر الجمل، ولا صفين، بل اتخذ سيفًا من خشب، وتحول إلى الربذة.

عن أبي بردة قال: مررنا بالربذة، فإذا فسطاط محمد بن مسلمة فقلت: لو خرجت إلى الناس فأمرت ونهيت؟

---

(١) انتضى السَّيف: سَلَّهُ.
(٢) مُحكَم.
(٣) أهل بدر (١٨٥، ١٨٦).
(٤) فرسان حول الرسول (٢/٤١٩).

فقال: قال النبي ﷺ: «**يا محمد بن مسلمة، ستكون فُرْقَةٌ وفتنة واختلاف، فاكسر سيفك، واقطع وترك، واجلس في بيتك**» ففعلت الذي أمرني به النبي ﷺ[١].

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إني لأعرف رجلا لا تضره الفتنة؛ يعني بذلك محمد بن مسلمة.

أورد ابن سعد بسنده عن محمد بن مسلمة قال: «**أعطاني رسول اللَّه ﷺ سيفًا فقال: «يا محمد بن مسلمة، جاهد بهذا السيف في سبيل الله، حتى إذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسره، ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منية قاضية أو يد خاطئة**» فلما قُتِل عثمان وكان من أمر الناس ما كان، خرج إلى صخرة في فنائه، فضرب الصخرة بسيفه حتى كسره. «طبقات ابن سعد ٣/ ٤٤٥».

❑ القائـد

كان محمد بن مَسْلَمَة من شجعان الصحابة كما ذكرنا، حتى لُقب بفارس نبي الله، فسخر كل شجاعته في إعلاء كلمة اللَّه مجاهدًا تحت لواء الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ جنديًا وقائدًا، مرءوسًا على الفرسان تارةً، وعلى حرس النبي ﷺ ومعسكر المسلمين تارةً أخرى، وقائدًا لسرايا النبي ﷺ، فقضى على أعدى أعداء المسلمين أفرادًا وجماعات، وأثر في أعداء الإسلام ماديًا ومعنويًا.

وقد أَمَّرَهُ النبي ﷺ على نحوٍ من خمس عشرة سرية[٢] من سراياه؛ كما نص على ذلك قسم من المؤرخين، ولكنَّ السرايا التي فَصَّلَها المؤرخون ثلاث سرايا فقط، هي التي ورد ذكرها في هذا البحث.

ومن دراسة نشاطه جنديًا، وقائدًا، مرءوسًا تحت لواء النبي ﷺ، يبدو أنه كان

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢١٥/٢٣)، وسير أعلام النبلاء (٣٧١/٢).
(٢) البداية والنهاية (٢٧/٨).

ذا أثر بارز في كل غزوة من غزوات النبي ﷺ، وفي كل سرية قادها، ولم يكن جنديًّا عاديًّا، بل كان جنديًّا متميزًا، ولا قائدًا عاديًّا، بل قائدًا متميزًا أيضًا؛ فهو من جنود العقيدة الراسخة، وقادة العقيدة الراسخة، يُوَظِّفُ كل طاقاته في طبعه الموهوب، وعلمه المكتسب، وتجربته العملية؛ لخدمة عقيدته والمؤمنين بها، ولا يدخر وسعًا في خدمتهما.

وقد كان يتحلى بالطاعة المطلقة لقادته وأمرائه، والطاعة هي الضبط المتين الذي هو من أهم ما يُمَيِّزُ الجنديَّ الجيد على الجندي الرديءِ والعسكريَّ بصورة عامَّةٍ على المدني، فكان يحارب الفتنة ومثيريها وأسبابها ومسببيها بكل ما أُوتي من قوة وعزم.

وقد كان سريع القرار صائبه، وقراره مبني على المعلومات التي يحصلها عن العدو. وقد كان حرصه على جمع المعلومات عن العدو عظيمًا، وكان دائب النشاط لا يكاد يهدأ؛ فلا ينام ولا يُنِيم في جمع المعلومات عن العدو التي تعينه على إصدار قرار سريع صائب؛ كما أن ذكاءه اللامع أعانه على إصدار مثل هذا القرار.

وكان يتحمل المسئولية ولا يتملص منها أو يلقيها على عواتق الآخرين، عارفًا بنفسيات زملائه ورجاله وقابلياتهم، فيلقي على عاتق كل واحد منهم ما يتناسب مع نفسيته وقابليته وكفايته.

وكان يثق بزملائه ورجاله ورؤسائه ويحبهم، ويبادلونه ثقة بثقة، وحبًّا بحب.

وكانت شخصيته قويةً جدًّا، لا يبالي أن يحاسب الأمراء والولاة والقادة دون مجاملة أو التزام إلا بالحق وحده دون سواه.

وكان ذا ماض مشرف مجيد، فهو من قدامى الصحابة وأشرافهم وشجعانهم وعلمائهم، وخدماته للإسلام والمسلمين واضحة للعيان، كما أنه كان من أشراف الأوس ومن بيوتاتهم الكريمة في الجاهلية وفي الإسلام.

وكان يعرف مبادئ الحرب بالفطرة السليمة التي تدل على استعداد فطري للجندية عامَّةً والقيادةِ خاصة.

فهو يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، ويحرص غاية الحرص على تحقيق مقصده بدأبٍ واستمرار، دون أن يشتت جهوده من أجل تحقيق أهداف ثانوية تصرفه عن تحقيق مقصده كاملًا.

وهو يطبق مبدأ التعرض، فكل معاركه جنديًا وقائدًا معارك تعرضية، ولم يخض معارك دفاعية في حياته القتالية.

وهو يطبق مبدأ المباغتة، أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، وقد بَاغَتَ في إحدى سراياه عدوه مباغتةً كاملة بالزمان كما ذكرنا.

وهو يطبق مبدأ الأمن، وكان غالبًا المسئول الأول عن قضايا الأمن في غزوات النبي ﷺ قائدًا لحرسه وقائدًا لحرس معسكره، فلم يستطع العدو أن يباغت قوات المسلمين أبدًا، لأن ابن مسلمة كان حذرًا كل الحذر، يقظًا كل اليقظة.

تلك هي أبرز سمات محمد بن مَسْلَمَة جنديًا وقائدًا، فلا عجب أن يكون موضع ثقة النبي ﷺ في حياته المباركة، وموضع ثقة خلفائه من بعده، وأن يستطيع أن يؤدي واجباته العسكرية بكفاية واقتدار، وأن يثبت وجوده الفاعل في كل غزوة أو سرية شهدها جنديًا وقائدًا.

فرضي اللَّه عن الصحابي الجليل الذي ملأ الأعين قدرًا وجلالا، والنفوس تقديرًا وإجلالا، والقلوب أسوة ومثالا.

❊ ❊ ❊

١٩

عُبَيْدَةُ بنُ الحارثِ بنِ المطلب

القائد المطلبي الشهيد

١٩

عُبَيْدَةُ بنُ الحارثِ بنِ المطلب

القائد المطلبي الشهيد

هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي، يجتمع مع رسول اللَّه ﷺ في عبد مناف.

أسلم هُوَ وأبو سَلَمَة بنُ عبد الأسد، وعبداللَّه بن الأرقم المخزومي، وعثمان بن مَظْعون في وقت واحد[١]، وكان إسلامه قديمًا[٢]، وكان إسلامه قبل دخول رسول اللَّه ﷺ دار الأرْقَم بن أبي الأرقم وقبل أن يَدْعُوَ فيها[٣]، فهو من السابقين الأولين لاعتناق الدين الحنيف.

آخَى النبي ﷺ في مكة بينه وبين بلال الحَبَشِي مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٤]؛ فقد آخى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين أصحابه المهاجرين في مكة، وكان آخى بينهم على الحق والمواساة وذلك بمكة[٥] المكرمة.

وفي المدينة المنورة آخَى النبي ﷺ بينه وبين عُمَيْر بن الحُمَام الأنصاري، وَقُتِلَا جميعًا يوم بدر[٦].

---

(١) أُسْد الغابة (٣٥٦/٣).

(٢) الإصابة (٢٠٩/٤)، وطبقات ابن سعد (٥١/٣).

(٣) الاستيعاب (١٠٢٠/٣).

(٤) أنساب الأشراف (٢٧٠/١)، والمحبر، لابن حبيب (٧١) عن عروة بن الزبير قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أول راية عقدها راية عبيدة بن الحارث.

(٥) المحبر (٧٠).

(٦) طبقات ابن سعد (٥١/٣)، والمحبر (٧١)، وفي أنساب الأشراف (٢٧٠/١): أنه آخى بين عبيدة وحمام بن الجموح، ويقال: عمرو بن الجموح، والأول أصحُّ.

كان لعبيدة قدر ومنزلة كبيرة عند رسول اللَّه ﷺ[١]، وهذا دليل قاطع على ما كان يتمتع به عُبَيْدَةُ من سجايا رفيعة، وإيمان عميق، وكفاية عالية.

❑ سرية عُبَيْدَةَ لرابغ

كان أول لواء عقده رسول اللَّه ﷺ بعد أن قدم المدينة لحمزة بن عبد المطلب، ثم عقد بعده لواء عبيدة[٢]؛ فقد بعث ـ عليه الصلاة والسلام ـ سرية عبيدة إلى بطن «**رَابغ**»[٣] في شوال على رأس ثمانية أشهر من مُهَاجَرِ رسول اللَّه ﷺ؛ عقد له لواءً أبيضَ كان الذي حمله مِسْطَحُ بن أثَاثَةَ بن المُطلِب بن عبد مُنَاف، بعثه رسول اللَّه ﷺ في ستين رجلًا من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، فلقي أبا سُفْيَان بن حَرْب، وهو على مئتين من أصحابه، على ماء يقال له: «**أحياء**»[٤] من بطن «**رابغ**» على عشرة أميال من «**الجُحْفَة**»[٥] وأنت تريد «**قُدَيْدًا**»[٦] عن يسار الطريق، وإنما نكبوا عن الطريق؛ ليرعوا ركابهم؛ فكان بينهم الرمي، ولم يَسُلُّوا السيوف، ولم يصطفوا للقتال، وإنما كانت بينهم المناوشة، إلا أن سَعْد بن أبي وَقاص قد رمى يومئذ بسهم؛ فكان أول سهم رُمِيَ به في الإسلام، ثم انصرف الفريقان[٧] وعاد المسلمون إلى المدينة، وعاد المشركون إلى مكة.

وفر من المشركين إلى المسلمين المِقْداد بن عمرو البَهْراني حليف بني زُهْرَةَ، وعُتْبَة بن غَزْوان بن جابر المازني حليف بني نَوْفَل بن عبد مَنَاف، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا؛ ليتوصلا بالكفار، وكان على المشركين عِكْرِمة بن أبي جَهل في

---

(١) أُسْد الغابة (٣/٣٥٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥١).

(٣) رابغ: وادٍ بين الجحفة وودَّان على طريق «المدينة ـ مكة».

(٤) ماء أحياء: ماء أسفل من ثنية المرَّة؛ انظر: معجم البلدان (١/١٤٥).

(٥) الجحفة: قرية على «طريق المدينة ـ مكة»؛ انظر: معجم البلدان (٣/٦٢).

(٦) قديد: اسم موضع قرب مكة؛ انظر: معجم البلدان (٧/٣٨).

(٧) طبقات ابن سعد (٢/٧)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٢٤).

رواية أخرى[١].

وهناك مَنْ يذكر أن أول راية عقدها النبي ﷺ كانت لعبيدة[٢] لا لحَمزة بن عبد المطلب؛ وذلك أن بَعْثَ حمزة وبَعْثَ عبيدة كانا في وقتين متقاربين؛ الأول في رمضان، والثاني في شوال؛ فشُبِّه ذلك على الناس[٣].

ولا مجال للاشتباه؛ لأن راية حمزة عقدت في رمضان، بينما عقدت راية عبيدة في شوال؛ أي: بعد شهر تقريبًا.

وبالرغم من أن القتال لم ينشب في هذه المعركة، فلم يحرز أي طرف من الطرفين انتصارًا في القتال، إلا أن سرية عبيدة أحرزت انتصارًا معنويًّا على المشركين لا ريب فيه؛ لأن انسحاب مئتين من المشركين بين فارس وراجل أمام ستين من المسلمين يدل على أن معنويات المسلمين كانت عالية، ومعنويات المشركين كانت منهارة، والانتصار المعنوي لا يقل أهمية عن الانتصار المادي إنْ لم يكن أكثر أهمية منه وأعظم أثرًا وتأثيرًا.

وقد فرح المسلمون بنتائج هذه السرية، ولا أدل على ذلك من الشعر الغزير الذي سجلوا به أثر هذه السرية، ولو أن أكثر أهل العلم بالشعر يشك في صحة نسبته إلى قائليه، ولكن تبقى دلالته على أهمية نتائج هذه السرية في مثل ذلك الوقت المبكر من تاريخ المسلمين في المدينة المنورة.

❑ «قُم يا عبيدة بن الحارث»:

خرج النبي ﷺ باتجاه موقع «بَدْرٍ» من المدينة المنورة لثماني ليالٍ خَلَوْن من شهر رمضان، من السنة الثانية الهجرية «٦٢٣م» على رأس أصحابه، وكان معه سبعون بعيرًا يعتقبها أصحابه، وكان بين عُبيدة، والطفَيْل، والحُصَين؛ بني الحارث،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٤، ٢٢٥)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/٧).

(٢) الاستيعاب (٣/١٠٢٠)، وسيرة ابن هشام (٢/٢٢٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٠).

ومِسْطَح بن أُثاثة ناضحٌ ابتاعه عبيدة من أبي داود الأنصاري المازني.

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه فنادى: من يبارز؟ فانتُدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه. فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا. فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث**» فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم مِلْنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة[١].

وعن قيس بن عباد: سمعت أبا ذر يُقسم قسمًا إن: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة ابن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة[٢].

وبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما جرح صاحبه، فكَرَّ علي وحمزة بأسيافهما على عتبة، فَذَفَفا عليه[٣]. واحتملا صاحبهما إلى معسكر المسلمين[٤].

وكان عُبَيْدَة في هذه المبارزة أمير جماعته من المسلمين: حمزة وعلي ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ[٥] في رهط المبارزة من المسلمين الذين بارزوا رهط المبارزة من

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٦٥)، وأحمد (١/١١٧).
(٢) رواه البخاري (١/١١٧)، ومسلم (٣٠٣٣)، واللفظ له، وابن ماجه (٢٨٣٥)، وابن جرير (١٧/ ٩٩)، والنسائي في «الفضائل» (٥١)، والطيالسي (٤٨١).
(٣) ذفف عليه: أجهز عليه.
(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)، وابن الأثير (٢/١٢٢ ـ ١٢٥).
(٥) ابن الأثير (٢/١٢٥).

المشركين، وكان له غناء عظيم في غزوة بدر[(١)] الحاسمة.

ولكن عُتْبَة بن ربيعة قطع رِجْلَ عُبَيْدَة في المبارزة حين جرح كل واحد منهما خَصْمَهُ في تلك المبارزة[(٢)]، فحُمل عبيدة إلى النبي ﷺ وجرحه ينزف دمًا، فقال له عبيدة: «**يا رسول الله! ليت أبا طالب حي، حتى يرى مصداق قوله:**

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ اللهِ نُبْزَى محمدًا ... ولما نُطَاعِنْ دونَه ونُنَاضِل

ونُسْلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... ونُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائل»[(٣)]

وكان النبي ﷺ قد وضع رأس عبيدة على ركبته[(٤)]، ويومها كان عُبيدة أسن المسلمين الذين شهدوا غزوة بدر[(٥)]. وعاد عبيدة مع رسول الله ﷺ من بدر، وفي طريق عودته إلى المدينة توفي عبيدة بـ «**الصفْراءِ**»[(٦)]، فدُفن بها بذات أجذال أسفل من عين الجدول بالصفراء[(٧)].

وهكذا انتهت حياة عبيدة ـ الحافلة بالجهاد ـ بالشهادة، فاستراح بالصفراء بعد أن أتعب نفسه طويلًا؛ دفاعًا عن الإسلام والمسلمين.

لكأني بالسيد الهاشمي المطلبي... الذي قطعت رجله، ثم استشهد يمضي إلى رحمة ربه ولسان حاله يقول:

ستبلغ عنا أهل مكة وقعةٌ ... يهبُّ لها من كان عن ذاك نائيَا

بعتبة إذ ولي وشيبة بعدهُ ... وما كان فيها بكر عتبة راضيَا

فإن تقطعوا رجلي فإني مسلمٌ ... أُرَجّي بها عيشًا من اللَّه دانيَا

مع الحور أمثال التماثيل أخلِصتْ ... مع الجنة العليا لمن كان عاليَا

---

(١) الاستيعاب (٣/١٠٢٠).

(٢) الإصابة (٣/٢١٠)، وانظر: الاستيعاب (٣/١٠٢٠).

(٣) نسب قريش (٩٤)، وانظر: ابن الأثير (٢/١٢٥)، وَنُذْهَلُ: نقهر؛ أي: لا نحميه وندافع عنه.

(٤) أُسْد الغابة (٣/٣٥٧).

(٥) الاستيعاب (٣/١٠٢٠)، وأُسْد الغابة (٣/٣٥٧).

(٦) الصَّفراء: قرية كثيرة النخل والمزارع، وماؤها عيون كلها، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة.

(٧) طبقات ابن سعد (٣/٥١، ٥٢)، وانظر: الاستيعاب (٣/١٠٢١).

وبعتُ بها عيشًا تعرَّفتُ صَفْوَهُ ... وعالجته حتى فقدتُ الأدانيَا
فأكرمني الرحمن من فَضْل مَنِّهِ ... بثوب من الإسلام غطى المساويَا
وما كان مكروهًا إليَّ قتالهم ... غداة دعا الأكفاء مَن كان داعيًا
ولم يَبْغِ إذْ سألوا النبي سواءنَا ... ثلاثتنا حتى حضرنا المناديَا
لقيناهم كالأُسْد تخطُر بالقنا ... نُقاتل في الرحمن من كان عاصيًا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ... ثلاثتنا حتى أزيروا المنائيَا

ولله در كعب بن مالك الأنصاري وهو يرثي الشهيد الذي ما ترك درهمًا ولا دينار فيقول:

أيا عين جودي ولا تنجلي ... بدمعك حقًّا ولا تنزري
على سيدٍ هدَّنا هلْكه ... كريم المشاهد والعنصرِ
عُبيدة أمسى ولا نرتجيه ... لعرف عرانا ولا منكر
وقد كان يحمي غداة القتا ... ل حامية الجيش بالمنبر[1]

ولله در هند بنت أثاثة المطلبية وهي ترثي بطلنا فتقول:

لقد ضُمن الصفراء مجدًا وسؤددَا ... وحليمًا أصيلًا وافر اللب والعقل
عبيدة فابكيه لأضياف غربةٍ ... وأرملة تسعى لأشعث كالجذل[2]

❑ القائد

كانت لعبيدة مكانة عظيمة عند النبيﷺ، ومن مكانته أنه عقد له اللواء الثاني في الإسلام بعد لواء أسد اللّه وأسد رسوله وسيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب عم النبيﷺ، مما يدل على أن عبيدة كان يتمتع بسجايا قيادية مميزة، منها الشجاعة، والإقدام، والذكاء، وحسن الإدارة لرجاله، ومعرفة الأساليب القتالية المعروفة في وقته.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤، ٢٥).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٤١).

ولعل أمر النبي ﷺ لعبيدة أن يخرج لمبارزة أبطال قريش المعروفين، دليل قاطع على ثقته بشجاعته وإقدامه وبطولته.

أما مزاياه القيادية الأخرى، فمن الصعب اكتشافها، لأن المعارك التي خاضها قليلة، فلم تطل حياته لتبرز تلك المزايا في سرايا النبي ﷺ وغزواته أو في أيام الفتح الإسلامي العظيم بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

أما سبب عدم قضاء عبيدة على خصمه الذي بارزه يوم بدر، بل جرح كل واحد منهما خصمه، فإن المبارزة تعتمد على القوة البدنية، والمهارة في الفروسية، وتسديد السلاح، وقد كان فارسًا لا غبار على مهارته في الفروسية، وكان هدافًا في تسديد سلاحه، ولكن قوته البدنية مشكوك فيها؛ لأنه كان في الثالثة والستين من عمره، فهو شيخ طاعن في السن وليس شابًا أو كهلًا في أوج قوته، لذلك لم ينجح في القضاء على خصمه، كما فعل علي بن أبي طالب الذي كان شابًّا، وحمزة بن عبدالمطلب الذي كان كهلًا.

وحسب عُبيدة شرفًا أنه كان قائدًا من أوائل قادة النبي ﷺ ، فذلك الدليل القاطع على سجاياه القيادية، وحسبه شرف الصحبة والجهاد تحت لواء النبي ﷺ .

***

٢٠

المُجَدَّع في الله.. أول أمير للمؤمنين..

من تمني الشهادة فنالها..

أصبر الناس على الجوع والعطش..

القائد الشهيد

عبداللَّه بن جحش الأسدي

٣٠

المُجَدَّع في الله.. أول أمير للمؤمنين.. من تمنى الشهادة فنالها.. أصبر الناس على الجوع والعطش.. القائد الشهيد

عبدالله بن جحش الأسدي

هو البطل عبدالله بن جحش بن رئاب الأسدي، وهو حليف لعبد شمس، وأمه أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ[١].

كان من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام[٢]، فقد أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم[٣]، فهو أحد السابقين[٤] إلى الإسلام. وآخى النبي بينه وبين عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح[٥].

تحمل عبدالله وآل بيته وعشيرته ما تحمل من هجرة ومصاعب وشدائد في سبيل الله.

❑ سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة في السنة الثانية من الهجرة:

بعث النبي ﷺ إلى نَخْلَة في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من مُهاجَره، في السنة الثانية الهجرية، سرية عليها عبدالله بن جحش الأسدي في اثني عشر رجلًا من المهاجرين[٦]، كل اثنين منهم يعتقبان بعيرًا، ليس فيهم من الأنصار أحد.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٨٧٧/٣)، وأُسْد الغابة (١٣١/٣)، وطبقات ابن سعد (٨٩/٣).

(٢) سيرة ابن هشام (٢٦٨/١ - ٢٧١).

(٣) الاستيعاب (٨٧٧/٣)، وأُسْد الغابة (١٣١/٣).

(٤) الإصابة (٤٦/٤).

(٥) الإصابة (٤٦/٤)، والمحبر (٧٢).

(٦) طبقات ابن سعد (١٠/٢)، أما في سيرة ابن هشام (٢٣٩/٢): فذكر أن السرية كان تعدادها ثمانية

وكتب النبي ﷺ لعبد الله كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يَسْتَكْرِه من أصحابه أحدًا، وهذا النوع من الرسائل هو الذي نطلق عليه: الرسائل المكتومة، في المصطلحات العسكرية الحديثة.

وكان أصحاب عبدالله من المهاجرين: أبو حُذَيْفَة بن عُتبة بن ربيعة، وعُكَّاشة بن مِحْصَن الأسدي، وعُتبة بن غَزْوَان بن جابر، وسعد بن أبي وقاص، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله التميمي، وخالد بن البُكَيْر الليثي، وسُهَيْل بن بيضاء الفِهْرِي، وهؤلاء الذين ذكرهم ابن هشام في سيرته[١].

فلما سار عبدالله يومين بسريته فتح الكتاب ونظر فيه، فإذا نصه: «**إذا نظرتَ في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتَعَلم لنا من أخبارهم**».

وقال عبدالله بعد قراءة كتاب رسول الله ﷺ: «**سمعًا وطاعة**»، ثم قال لأصحابه: «**قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطق، ومَنْ كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ**».

ومضى عبد الله، ومضى معه أصحابه، لم يتخلفْ منهم أحد، فلما كان بـ«**بُحْران**»[٢] أضل سعد بن أبي وقاص وعُتْبَة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه.

وواصل عبدالله مسيرته نحو هدفه، حتى نزل بنَخْلَة، فمرت به عِيرٌ لقريش تحمل زَبيبًا وأَدَمًا وتجارة من تجارة قريش، عليها عمرو بن الحَضْرَمِي، وفيها عثمان ابن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نَوْفَل بن عبدالله المخزوميان، والحكَم بن كَيْسَان مولى

رهط من المهاجرين.

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٩).

(٢) بحران: موضع بين المدينة والفرع، وبينهما ثمانية بُرُد.

هشام بن المغيرة، فلما رأى المشركون المسلمين هابوهم، فأشرف لهم عُكاشَة بن مِحْصَن، وكان قد حلق رأسه، فلما رآه المشركون أمِنوا، وقالوا: عُمارٌ لا بأس عليكم منهم.

وتشاور المسلمون فيما بينهم، فقالوا: واللَّه لئن تركتم القوم هذه الليلة لَيَدْخُلُن الحرَم فَلَيَمْتَنِعُن منكم به، ولئن قتلتموهم لَتَقْتَلُنهُمْ في الشهر الحرام.

وتردد المسلمون، وهابوا الإقدام على المشركين؛ حرمةً للشهر الحرام، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل مَنْ قدروا عليه منهم، وأَخْذ ما معهم، فرمى واقد بن عبداللَّه التميمي عمرَو بن الحَضْرَمِي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبداللَّه فأعجزهم.

وأقبل عبداللَّه بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول اللَّه ﷺ بالمدينة.

وقال عبداللَّه لأصحابه: «**إن لرسول اللَّه ﷺ مما غنمنا الخُمس**»، وذلك قبل أن يفرض اللَّه ـ تَعَالَى ـ الخُمس من المغانم، فعزل لرسول اللَّه ﷺ خُمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه.

فلما قدموا على رسول اللَّه ﷺ المدينة، قال: «**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**»، فوقف العير والأسرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا.

وسُقِط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعَنفَهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا.

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

ورد على قريش قِسْمٌ من المسلمين الذين كانوا بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان لا في رجب.

واستغل يهود هذا الموقف، فأخذوا يشنعون على المسلمين، ويحرضون قريشًا على المسلمين والإسلام.

ولما أكثر الناس في ذلك أنزل اللَّه على رسوله ﷺ: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل اللَّه مع الكفر به، وعن المسجد الحرام. وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند اللَّه من قتل مَنْ قتلتم منهم: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ ؛ أي: قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه؛ حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند اللَّه من القتل، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا﴾ ؛ أي: ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا البيان للأمر، وفرج اللَّه ـ تَعَالَى ـ عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف، قبض رسول اللَّه ﷺ العيرَ والأسيرين.

وبعثت إليهم قريش في فداء عثمان بن عبداللَّه والحكم بن كَيْسَان، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا نفديكموهما حتى يَقْدمَ صاحبانا**»، يعني: سعد بن أبي وقاص وعُتْبَة بن غَزْوان، «**فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتلْ صاحبيكم**»، فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول اللَّه ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلمَ وحسُنَ إسلامه، وأقام عند رسول اللَّه ﷺ حتى قُتِل يوم بئر مَعُونَة شهيدًا، وأما عثمان بن عبداللَّه فلحق بمكة، فمات بها كافرًا.

وهذه السرية كان فيها أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول مَنْ قتله المسلمون، وعثمان بن عبداللَّه والحكم بن كيسان أول مَنْ أسر المسلمون[١] .

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٨ ـ ٢٤٣)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/١٠، ١١).

وكان عبدالله أول من قسم المغنم وأعطى الخمس في الإسلام[١]، وأول من سُمي: أمير المؤمنين في الإسلام[٢] في هذه السرية.

ولم يرد النبي ﷺ من هذه السرية أن تُنْشب القتال، بل كان هدفه من بعثها الاستطلاع فقط، ولكن حماسة عبدالله واندفاعه أدى إلى نشوب القتال في الشهر الحرام، مما يخالف تقاليد العرب المرعية حينذاك، فانتهزتها قريش فرصة سانحة كما انتهزها يهود والمشركون كافة للدعاية ضد المسلمين.

وبالإضافة إلى تأثير نتائج هذه السرية معنويًا في قريش بخاصة، إذ لم تكن تظن أن المسلمين قادرون على التغلغل بالعمق إلى مشارف مكة والطائف، فأثر إقدام المسلمين في هذه السرية في معنويات قريش فتزعزعت، فإن من نتائج هذه السرية فرض الحصار الاقتصادي على قريش ليس بالنسبة لطريق مكة ـ الشام، وهو طريق حيوي جدًّا لتجارة قريش، بل امتد هذا الحصار على طريق مكة ـ الطائف التجاري، وهو طريق ثانوي بالنسبة لطريق مكة ـ الشام، وبذلك أحكم المسلمون الطوق على طرق تجارة قريش، فلم يبق أمامها طريق تأمنه غير طريق الجنوب: طريق مكة ـ.

وكان اعتماد النبي ﷺ بالدرجة الأولى في هذه السرية على كفاية عبدالله في تحمله المشاق والصعوبات، فقد خطب المسلمين وقال: «**لأبعثن عليكم رجلًا ليس بخيركم، ولكنه أصبركم للجوع والعطش**»، فبعث عبدالله[٣].

وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «**لأعطين الراية رجلًا هو أصبر على الجوع والعطش منكم**»، فأعطاها عبدالله، فقال: «**يا رسول الله! أسير بها وأنا غلام حدث؟!**»، فقال له: «**سر**»، فسار، ففتح الله عليه[٤].

لقد كان واجب سرية عبدالله أشبه بواجبات المغاوير أو القوات الخاصة في

---

(١) المحبر (٨٦)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١)، والاستيعاب (٣/٨٧٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٩٠).

(٣)، (٤) المحبر (٨٨).

الجيوش الحديثة، تلك التي تدرب تدريبًا شاقًا عنيفًا على تحمل الأهوال واجتياز العقبات والصبر على الجوع والعطش.

وهؤلاء يجري اختيارهم من الأقوياء الأشداء، ويجري اختيار قائدهم من أقواهم وأشدهم، وهذا هو عبداللَّه في قوته وصلابته وصبره وشجاعته وإقدامه.

قال عبداللَّه بن جحش ردًّا على تخرصات المشركين في هذه السرية:

تعُدون قتلًا في الحرام عظيمة ... وأعظمُ منه لو يرى الرشْد راشِدُ
صُدُودُكُم عَما يَقُولُ مُحَمدٌ ... وكُفْرٌ به واللهُ رَاءٍ وشَاهِدُ
وإخْرَاجُكُمْ من مسجدِ اللهِ أهلَه ... لئلا يُرى للهِ في البيتِ ساجِدُ
فإنا وإنْ عَيرْتُمونا بقَتْلِه ... وأرجفَ بالإسلام باغٍ وحاسِدُ
سَقَيْنَا مِنَ ابنِ الحَضْرَمِي رماحَنَا ... بنَخْلَةَ لما أوقدَ الحربَ واقِدُ
دَمًا وابنُ عبداللهِ عُثْمانُ بينَنَا ... يُنَازِعُهُ غل من القِد عانِدُ[١]

وهذه الأبيات التي نسبت إليه، إذا صحت نسبتها إليه، تدل على أنه كان شاعرًا، وأنه لم يسخر سيفه وماله لخدمة الإسلام حسب، بل سخر لسانه أيضًا، وهكذا سخر كل طاقاته المادية والمعنوية لخدمة الاسلام والمسلمين.

❑ عبداللَّه بن جحش بطل من أبطال بدر

شهد عبداللَّه في اليوم السابع عشر من رمضان من السنة الثانية الهجرية، غزوة بدر الكبرى الحاسمة، فهو من البدريين ـ عليهم رضوان الله[٢].

وقد أبلى في بدر بلاءً عظيمًا، وبذل قصارى جهده؛ لإحراز النصر على المشركين، وقد أسر في هذه الغزوة الوليد بن الوليد بن المغيرة، فقدم في فدائه خالد

---

(١) القِد: شرك يقطع من الجلد. وعاند: سائل بالدم لا ينقطع. وانظر: سيرة ابن هشام (٢٤٣/٢) حول هذا الشعر.

(٢) المحبر (٢٧٨)، وأُسْد الغابة (١٣١/٣)، والاستيعاب (٨٧٨/٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٦٣)، وسيرة ابن هشام (٣٢٦/٢).

ابن الوليد، وأخوه هشام بن الوليد، ولكنه أفلت منهما، وأسلم[١]، وهاجر إلى المدينة قبل الفتح[٢].

وقد استشار رسول اللَّه ﷺ عبدالله، وأبا بكر الصديق، وعمر الفاروق ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ في أُسارى بدر[٣]، ويبدو أن رأيه كان كرأي أبي بكر الذي قال: «**قومك وأهلك، استبقهم؛ لعل اللَّه أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك**»[٤].

واستشارةُ النبي ﷺ عبداللَّه دليل على حصافة رأيه، ومكانته السامية بين أصحاب النبي ﷺ، ودليل على بلائه الحسن في غزوة بدر بخاصة، وفي خدمة المسلمين بعامة.

❑ **تمني البطل الشهادة، وفوزه بها في أُحد:**

ذكر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: «**قعدت أنا وعبداللَّه بن رواحة صبيحة يوم أُحد نتمنى؛ فقلت: اللهم، لقني من المشركين رجلًا عظيمًا كُفْرُهُ، شديدًا حَرْدُهُ**[٥]**، فيقاتلني، فأقتله، فآخذ سَلَبه. فقال عبداللَّه بن جحش: اللهم، لقني من المشركين رجلًا عظيمًا كُفْرُهُ، شديدًا حَرْدُهُ، فأقاتله، فيقتلني، فيسلبني، ثم يجدع أنفي، وأُذني، فإذا لقيتُك، قلتَ: يا عبداللَّه بن جحش، فِيْمَ جُدِعتَ؟ قلتُ: فيك، يا ربي. فوالله، لقد رأيته آخر ذلك النهار، وقد قُتِل، وإن أنفه وأذنه لفي خيط واحد بيد رجل من المشركين**».

وكان سعد يقول: «**كان عبداللَّه بن جحش خيرًا مني**»[٦]، ويقول: «**كانت**

(١) أنساب الأشراف (٣٠٢/١).

(٢) جمهرة أنساب العرب (١٤٧).

(٣) الاستيعاب (٨٨٠/٣).

(٤) تفسير الكشاف، للزمخشري (٢٠/٢).

(٥) الحرد: الغيظ والغضب.

(٦) جوامع السيرة (١٦٧)، وأُسْد الغابة (١٣١/٣)، والإصابة (٤٦/٤)، وطبقات ابن سعد (٩٠/٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦٣/١).

دعوة عبدالله خيرًا من دعوتي»[١].

وقد سُمع يوم أُحد يدعو اللهَ بقوله: «**اللَّهمَّ، أُقسم عليك أن نلقى العدو، وإذا لقينا العدو أن يقتلوني، ثم يبقروا بطني، ثم يمثِّلوا بي، فإذا لقيتُك سألتني: فِيمَ هذا؟ فأقول: فيك**». فلقي العدو، وقُتل وبقروا بطنه، ومثَّلوا به.

قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «**فإني أرجو أن يبر الله آخر قسمه**»[٢].

وكان عبدالله قد قاتل قتال الأبطال في أُحُد، واستقتل استقتالًا شديدًا؛ لينال الشهادة، فانقطع سيفه الذي كان يقاتل به يوم أُحُد؛ فأعطاه رسول الله ﷺ سيفًا جديدًا، يسمى: العرجون.

ولم يزل هذا السيف ينتقل من يدٍ إلى أخرى، حتى بيع من بغا التركي بمئتي دينار[٣]، يوم كانت الشاة بنصف درهم.

ونال الشهادة كما أراد في غزوة أُحُد، فقد قتله أبو الحَكَم بن الأخنس بن شُرَيْق[٤]، ودفن هو وحمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ في قبر واحد[٥]، وكان له يوم قُتل نيِّف وأربعون سنة[٦]، وصلى عليه النبي ﷺ[٧].

ولما قُتل عبدالله مثَّل به المشركون؛ فجدعوا أنفه، وقطعوا أذنيه، وبقروا بطنه؛ فكان يقال له: المُجَدَّع في الله، وعرف بهذا الوصف بعد استشهاده، ووَلِيَ تركتَه رسول الله ﷺ، فاشترى بـ«**خَيْبَر**»[٨] لابنه مالًا[٩].

---

(١) أُسْد الغابة (٣/١٣١). (٢) أُسْد الغابة (٣/١٣١، ١٣٢).

(٣) الاستيعاب (٣/٨٧٩)، وأُسْد الغابة (٣/١٣٢).

(٤) الإصابة (٤/٤٦)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١).

(٥) أنساب الأشراف (١/٣٢٢)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١)، والإصابة (٤/٤٦).

(٦) الإصابة (٤/٤٦)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١).

(٧) الإصابة (٤/٤٦)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١)، والاستيعاب (٣/٨٧٨).

(٨) خيبر: ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشَّام، ويطلق الاسم على الولاية التي تشمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير؛ انظر: معجم البلدان (٣/٤٩٥).

(٩) طبقات ابن سعد (٣/٩١)، وأُسْد الغابة (٣/١٣١).

وكان عبدالله باستشهاده اللبنة الأولى في صرح الإسلام، والأسوة الحسنة للمسلمين في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم.

وكان استشهاد عبدالله في أُحُد في السنة الثالثة الهجرية «٦٢٤م».

❑ شهادة النبي ﷺ لقتلى أحد:

قال ابن إسحاق «**لما أشرف رسول الله ﷺ على القتلى يوم أحد قال: أنا شهيد على هؤلاءِ، إنه ما من جريح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك**»(١).

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خُضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يُبلغ إخواننا عنا أنَّا أحياء في الجنة نُرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يتكلوا عند الحرب؟ فقال الله ـ تَعَالَى ـ: «أنا أبلغهم عنكم»**»(٢).

❑ القائـد

كان من أبرز سمات عبدالله القيادية: الشجاعة الفائقة، والجرأة النادرة، والصبر العظيم على تحمل أعباء القتال.

فقد كانت سَرِيته مختارة من ناحية أفرادها من أشجع شجعان المهاجرين، فهم مغاوير المهاجرين دون منازع، وقد سجل التاريخ لكل فرد منهم صفحات في الفتوح، وفي الشجاعة والإقدام.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٩٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»٩، وأبو داود، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٠٨١)، و«تخريج المشكاة» (٣٨٥٣)، و«تخريج الطحاوية» (٣٩٣).

لقد كانت سرية عبداللَّه مؤلفة من قمم شجعان المهاجرين، وكان عبداللَّه قمة القمم؛ لأن النبي ﷺ اختاره قائدًا لتلك السرية.

وحسبنا قولة رسول اللَّه ﷺ في عبدالله: «**مِنا خير فارس في العرب: عبداللَّه بن جحش**»(١).

أما جرأته النادرة، فقد استطاع أن يتغلغل بسريته المؤلفة من أفراد قلائل إلى طريق مكة ـ الطائف، بعيدًا عن قاعدة المسلمين الأَمِينَة: المدينة المنورة.

وقد قدر النبي ﷺ خطورة مُهمة سرية عبداللَّه إلى «**نخلة**»، فأمره ألا يستكره أحدًا من رجاله على مصاحبته في مهمته، وأن يترك لهم الخيار، إن شاءوا رافقوه، وإن شاءوا لم يرافقوه، وعادوا أدراجهم إلى المدينة المنورة غير ملومين.

ولا أعرف سرية كانت لها خطورة سرية عبداللَّه إلى «**نخلة**» في مثل قلة عددها، وضعف مددها، وفي مثل ذلك الوقت المبكر من جهاد المسلمين.

ولكن عبداللَّه اندفع بجرأة خارقة، وحقق أهداف السرية، وذهب إلى مدى أبعد من تحقيق أهدافها المرسومة، فحقق بجرأته واندفاعه المذهل ـ حقًّا ـ أهدافًا لم تكن في الحسبان.

أما الصبر العظيم في تحمل أعباء القتال، فقد تحدى عِيْر قريش وحراسها، وقاتلهم بحرب خاطفة مصغرة، فقتل مَنْ قَتَلَ، وأسر مَنْ أسر، وعاد بالغنائم منتصرًا إلى المدينة المنورة.

ولكن القول على صبره في القتال لا يُغني عن كل قول، فقد شهد له النبي ﷺ: بأنه أصبر المسلمين على الجوع والعطش، وهي شهادة لها وزن عظيم في كل ميزان.

وكان يتمتع بضبط متين إلى أبعد الحدود، وهي صفة من صفات الجندي

---

(١) المحبر (٨٧).

المتميز والقائد المتميز، فما كان يقرأ رسالة النبي ﷺ المكتومة، إلا وهتف من صميم قلبه: «**سمعًا وطاعة**». ثم مضى لتنفيذ واجبه لا يلوي على شيءٍ في تصميم وإصرار عجيبين.

وكان سريع القرار صائبه، فقد بادر المشركين بالهجوم عليهم، قبل أن يأتيهم المدد، ويشتد عضدهم، فتغدى بهم قبل أن يتعشوا به ـ كما يقول المثل العربي المشهور ـ.

وكان ذا إرادة قوية، يتلقى الأوامر، وينفذها بدون تردد ولا خوف، مهما تكن تلك الأوامر صعبة التنفيذ، تكتنفها الأخطار والمصاعب.

وكان يتحمل المسئولية كاملةً، ويحب تحمل المسئولية مهما تكن بالغة الخطورة، ثقيلة النتائج، ولا يتهرب منها خوفًا وجزعًا، ويلقيها على عواتق الآخرين.

وكان ذا نفسية رصينة لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، فلم يكن يعمل لشخصه بل لمصلحة الإسلام والمسلمين.

وكان يسبق النظر، فقد قطع المسافة بين نخلة والمدينة قبل أن تستطيع قريش مطاردته لاسترداد أموالها وأسيريها، فوصل إلى المدينة قبل أن يصلوا إليه، مع أن المسافة بين نخلة والمدينة أضعاف المسافة بين نخلة ومكة موطنِ قريش.

وكان على معرفة تامة بنفسيات رجاله وقابلياتهم؛ لأنه عاش معهم بتماس شديد ردحًا طويلًا قبل الإسلام، وبعده.

وكان موضع ثقة النبي ﷺ الكاملة، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو القائدَ الأعلى للمسلمين، كما كان موضع ثقة رجاله به والمسلمين كافة، وكان يبادلهم ثقة بثقة، فقد كانت أهدافهم واحدة، هي إعلاء كلمة الله، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

وكان النبي ﷺ يحبه حبًا عظيمًا، كما كان أصحابه يحبونه، ويبادلهم حبا

بحب، في مجتمع الأخوة الإسلامي السائد حينذاك.

وكان ذا شخصية قوية نافذة، تؤثر في الرجال والأحداث، ولا تتأثر بها إلا في الحق ومن أجل الحق، وقد كان أبرز المسلمين من بني أسد الذين قال عنهم النبي ﷺ: «**أسد خطباء العرب**»[1].

وكان يتمتع بقابلية بدنية فذة، بل كان مثالًا رفيعًا يحتذى به في هذا المجال.

وكان ذا ماضٍ ناصع مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين، وفي الإخلاص للدعوة والدعاة، وفي العمل للمصلحة العامة للمسلمين.

وكان على علم لمبادئ الحرب، يطبقها تطبيقًا قادرًا، وينفذها في القتال وقبله وبعده.

وكان يساوي نفسه مع أصحابه، بل كان يستأثر بالخطر، ويؤثرهم بالأمن والاطمئنان.

فلا عجب أن يثق به النبي ﷺ ثقة مطلقة، ويوليه على أبرز أصحابه وأخطر سراياه وأكثرها أهمية.

لقد كان عبدالله قائدًا مجيدًا، وفارق الحياة شهيدًا وهو في أوج عطائه وبداية كهولته، ولكن ذكره بقي عطرًا في التاريخ.

وفي بطلنا قائد السرية التي قَتَلَت أول قتيل من المشركين في الإسلام، وأسرت أول أسيرين من المشركين في الإسلام، وصاحب أول مغنم في الإسلام، وأول من قسم لرسول الله ﷺ خمس المغنم قبل أن ينزل به القرآن، وأول من سُمي: أمير المؤمنين في الإسلام عبدالله بن جحش رضي الله عنه ؛ قال الشاعر:

أَبْشِرْ فذلك ما سألتَ قضاهُ ... رَب هداك فكنتَ عند هداهُ

آثرتَه ورَضِيتَ بين عباده ... من صالحِ الأعمال ما يرضاهُ

---

(١) المحبر (٨٧).

قتلوكَ فيه تردّهم عن دينه صَرْعى وتمنعُ أن يُبَاحَ حِماهُ
وبَغَوْا عليك فعذبُوا الجسد الذي ما للكرامةِ والنعيم سواه
هِيَ دعوةٌ لك ما بسطتَ بها يدًا حتى تقبلَ واستجابَ اللهُ
ولقد رأيتَ حِمَى الجهاد فصف لنا ذاك الحمى القدسي كيفَ تَراهُ؟
ماذا جزاكَ اللهُ من رضوانِه وحَبَاكَ في الفردوس من نُعماه؟
ماذا أعد لكل بَر مُتَق غَوَتِ النفوسُ فما أطاع هواهُ؟
أرأيت عبداللَّه كيف بَلَغْتَهُ شَرَفًا مَدَى الجوزاءِ دُون مَدَاهُ؟[1]
دَمُك المطهرُ لو أُتيحَ لهالكٍ أعيا الأساةَ شفاؤهُ لشَفَاهُ[2]
صَوتٌ يُهيبُ بكل شعب غافل طوبى لمن رُزِق الهدى فوعَاهُ
معنى التفوقِ في الحياة، فمن أَبَى إلا الصدودَ فما درى معناهُ
الأمر رهنُ الجِد ليس بنافعٍ قولَ الضعيف لعلَهُ وعَسَاهُ
تشقى النفوسُ ولا كشِقْوةِ خاسرٍ لا دينَه استبقى ولا دنياهُ
والمرءُ يرغبُ في الحياة وطولِها حتى يكون الموتُ جُلَّ مُناهُ

* * *

أُوتيتَ نصرًا يا محمدُ ساطعًا يبقى على ظُلَم العصورِ سناهُ[3]
لك من دم الشهداءِ بأسٌ لم يَقُمْ فيَ الأرض دينُكَ عاليًا لولاهُ
ما تنقضي لإمامِ حق قُوةٌ إلا تزيدُ على الزمانِ قواهُ[4]

* * *

---

(١) الجوزاء: نجم في السماء.
(٢) الأساة جمع آس؛ وهو: الطبيب.
(٣) السنا: الضوء.
(٤) قصيدة «عبدالله بن جحش» من ديوان «مجد الإسلام»، لأحمد محرم ص (١٥٠، ١٥١).

٢١

سالم بن عُمَيْر العَوْفي الأوسي الأنصاري

المجاهد المغوار

قاتلُ الشيطانِ أبي عَفَك ألدِّ أعداء المسلمين

٢١

سالم بن عُمَيْر العَوْفي الأوسي الأنصاري

المجاهد المغوار
قاتلُ الشيطانِ أبي عَفَك ألدِّ أعداء المسلمين

بطلنا هو سالم بن عمير بن ثابت بن النعمان، وهو ابن عم خَوَّات بن جبير بن النعمان(١)، وهو من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بيعة العقبة(٢)، كما شهد بدرًا(٣)، وأحدًا، والخندق(٤)، والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ(٥).

وسالم هو أحد البكائين الذين جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يريد أن يخرج إلى «تَبوك»، فقالوا: «احْمِلنا»، وكانوا فقراء، فقال: «**لا أجدُ ما أحملكم عليه**»، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون(٦)، وهم سبعة: من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، ومن بني واقِف: هَرَمي بن عمرو، ومن بني حارثة: عُلْبَة بن زيد، ومن بني مازن بن النجار: أبو ليلى عبدالرحمن بن كعب، ومن بني سَلِمَة: عمرو بن عُتْبَة، ومن بني زُرَيْق: سَلَمَة بن صَخْر، ومن بني سُلَيْمِ: عِربَاض بن سارية السلَمي(٧).

وفي هؤلاء البكائين نزل قول الله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ

---

(١) أُسْد الغابة (٢/٢٤٨).
(٢) أُسْد الغابة (٢/٢٤٩)، والإصابة (٣/٥٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤٨٠).
(٤) الاستيعاب (٢/٥٦٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/٤٨٠)، والاستيعاب (٢/٥٦٧).
(٦) طبقات ابن سعد (٣/٤٨٠).
(٧) مغازي الواقدي (٣/٩٩٣، ٩٩٤).

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ۝٩٢﴾ [التوبة: ٩٢].

وفي غزوة بني قريظة قتل سالمٌ في هذه الغزوة أحد يهود بني قريظة[١].

❑ سريته

لعل أبرز أعمال سالم، قتْلُه أبي عَفَك، أحد بني عمرو بن عوف، ثم من بني عبيدة[٢]، وكان قد نَجَمَ[٣] نفاقه حين قَتَلَ رسولُ اللَّه ﷺ الحارثَ بن سُوَيْد بن صامِت، فقال:

لقد عِشْتُ دهرًا وما إنْ أرى ... من الناس دارًا ولا مَجْمَعَا
أَبَرَّ عهُودًا وأوفى لمن ... يُعاقد فيهم إذا ما دعا
من اولادِ قَيْلَةَ في جَمْعِهم ... يَهُد الجبالَ ولن يخضعا
فصدَّعهم راكبٌ جاءهم ... حلالٌ حرامٌ لَشَتى معا
فلو أن بالعز صدَّقْتُمُ ... أو المُلْكِ تابعتُم تُبَّعا

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لي بهذا الخبيث؟**»[٤].

وكان أبو عَفَك شيخًا كبيرًا بلغ عشرين ومئة سنة، حين قدم النبي ﷺ المدينةَ، وكان يحرض على عداوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام، فلما خرج رسول اللَّه ﷺ إلى «**بدرٍ**»، ورجع وقد انتصر على المشركين، حسده أبو عَفَك وبغى، وقال في هجائه وهجاء المسلمين شعرًا[٥].

وقال سالم: «**عليَّ نذرٌ أن أقتل أبا عَفَك أو أموت دونَه**».

وأمهل سالم، وطلب له غِرة، حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عَفَك بالفِناء في

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٥١٦).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/٣١٢).
(٣) نجم: ظهر.
(٤) سيرة ابن هشام (٤/٣١٣).
(٥) مغازي الواقدي (١/١٧٤، ١٧٥).

الصيف في بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم فوضع السيف على كبده، حتى خشَّ في الفراش.

وصاح أبو عَفك، فسارع إليه ناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله وقبروه، وقالوا: مَنْ قتله؟ واللَّه لو نعلم مَنْ قتله لقتلناه به! فقالت أُمامة المُرَيْرِية[1] في ذلك:

تكَذِّبُ دينَ اللهِ والمرءَ أحمدا ... لعَمر الذي أمْنَاكَ إذْ بئس ما يُمْنِي[2]

حَبَاكَ حَنِيفٌ آخِرُ الليلِ طعنةً ... أبا عَفَك خُذْها على كِبَرِ السن

فإني وإنْ أعلمْ بقاتلك الذي ... أبَاتَكَ حِلْسَ الليلِ إنْسي أو جني

وكان قتل أبي عفك في شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة، من السنة الثانية الهجرية[3].

يذكر التاريخ لبطلنا أنه قتل أخته؛ لأنها قالت في النبي ﷺ ما لا يرضاه ولا يرضاه المسلمون الصادقون.

ويذكر له أنه قتل أبا عَفَك، أحد أعداء الإسلام والمسلمين، فأعز بقتله الإسلام والمسلمين.

ويذكر له أنه كان أحد البكائين، الذين نزل في أمرهم قرآن يُتلى، مثالًا للإخلاص للعقيدة في أسمى مظاهر الإخلاص.

رَضِيَ اللهُ عَنْ الصحابي الجليل، المجاهد الصادق، سالم بن عُمَيْر العَمْرِي الأوسي الأنصاري.

* * *

(١) سيرة ابن هشام (٣١٣/٤)، أما في مغازي الواقدي (١٧٥/١): فورد اسمها: النهديَّة.

(٢) أمناك: أنساك، قاله أبو ذر. وعندنا أنَّ خيرًا من ذلك أن يكون أمناك بمعنى بلاك، وما يُمني: مضارع هذا الفعل.

(٣) مغازي الواقدي (١٧٤/١، ١٧٥)، وسيرة ابن هشام (٣١٢/٤، ٣١٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٢٨).

٢٢

بطل الأبطال، ورجل الرجال، وقمة الفدائيين
عبداللَّه بن أُنيس الجهني الأنصاري
القائد الفذ

٢٢

بطل الأبطال، ورجل الرجال، وقمة الفدائيين

عبدالله بن أُنيس الجهني الأنصاري

القائد الفذ

هو البطل عبدالله بن أُنيْس بن أسعد بن حرام الجهني.. حليف بني سملة من الخزرج.. وحليف بني سواد بن سلمة على الأخص.

شهد أبو يحيى عبدالله بن أُنيس ﷺ بيعة العقبة[١]، فأسلم وحسن إسلامه.

عمل الإيمان عمله في نفس بطلنا، فأضحى ينظر بنور الله، وأصبحت الأصنام أبغض الأشياء لديه، فكان أحد ثلاثة من قومه كسروا آلهة بني سلمة وأصنامهم[٢]، وهؤلاء الأخيار هم: معاذ بن جبل، وثعلبة بن غَنَمة، وعبدالله بن أُنيْس[٣].

وكان ابن أنيس أحد أفراد سرية عبدالله بن عتيك من رجالات الخزرج، التي خرجت إلى خيبر؛ لقتل كبير مجرمي اليهود وزعيم المتآمرين على الإسلام سَلَّامِ بن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع...

وهؤلاء الأبطال المغاوير ـ الذين نفذوا ما أرادوا وقتلوا ملك خيبر أبا رافع في ست رمضان سنة من الهجرة ـ هم: عبدالله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبدالله بن أنيس، والحارث بن ربعي أبو قتادة، وخزاعي بن أسود.

---

(١) سيرة ابن هشام (٧١/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٧/٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٥٨٠/٣)، والاستبصار ص (١٣٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦٠/١).

وأكثر أصحاب المغازي والسير وعلى رأسهم إمامهم محمد بن إسحاق يرون أن الفدائيين الخمسة كلهم اشتركوا مع قائدهم عبداللَّه بن عتيك في القضاء على الطاغية اليهودي، وأن الذي أثبت أبا رافع وقضى عليه هو «**عبداللَّه بن أنيْس**»، وكل أصحاب الكتب الستة والسير ما عدا الإمام البخاري يتفقون مع ابن إسحاق في رأيه، إلا أن الإمام البخاري يختلف مع أصحاب الكتب الستة وأصحاب السير، فروى أن قاتل أبي رافع هو قائد الفدائيين عبداللَّه بن عتيك لا عبداللَّه بن أنيس[1].

❑ ابن أنيس سرية وحده لقتل الشيطان خالد بن سفيان الهُذَلي.

خرج عبداللَّه من المدينة يوم الاثنين لخمس ليال خلون من شهر المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة، أي: من السنة الرابعة الهجرية، فغاب عنها ثماني عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم[2]، بعد أن أدى واجبه الذي أمره به النبي ﷺ.

فقد بعثه النبي ﷺ في سرية مؤلفة منه وحده إلى خالد بن سُفيان بن نُبَيْح الهُذَلي الذي كان بِعُرَنة[3] يجمع الجموع لرسول اللَّه ﷺ؛ ليغزوه، فقتله عبداللَّه وعاد برأسه إلى المدينة المنورة.

قال عبدالله: «دعاني رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلِي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بنَخْلَة[4] أو بعُرَنة، فأْتِهِ فاقتله**». قلت: يا رسول الله! انْعَتْه لي حتى أعرفه، فقال: «**إنك إذا رأيته أذكرك الشيطانَ، وآية ما**

---

(١) انظر: موسوعة الغزوات الكبرى «صلح الحديبية» لباشميل ص (٨٧)، وسيرة ابن هشام (٣/٣١٤ - ٣١٦)، وصحيح البخاري «فتح الباري» (٥/٢١٠ - ٢١٢)، والبداية والنهاية (٤/١٣٩).

(٢) مغازي الواقدي (١/٣)، وفي (١/٤): أنها كانت سنة ست الهجرية في شهر المحرم، وفي طبقات ابن سعد (٢/٥٠): أنها في السنة الرابعة الهجريَّة؛ كما جاء في «مغازي الواقدي» (١/٣)؛ فأخذنا بذلك.

(٣) عُرنة: موضع بقرب جبل عرفة موضع الحجيج؛ انظر: شرح الزرقاني على المواهب اللدنيَّة (٢/٧٦). وعرنة: وادٍ بحذاء عرفات.

(٤) نخلة: موضع بالحجاز قريب من مكة.

بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدتَ له قُشَعْرِيرَة»»[١].

وخرجت متوشحًا سيفي، حتى دفعت إليه وهو في ظُعُن[٢] يرتاد[٣] لهن منزلًا[٤]، وحيث كان وقت العصر، فلما رأيته وجدتُ ما قال لي رسول اللَّه ﷺ **من القُشَعْرِيرَة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن تكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومِئُ برأسي، فلما انتهيت إليه قال: مَنْ الرجل؟ قلت: رجل من العَرَب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك، قال: أَجَلْ**[٥] **إني لفي ذلك.**

فمشيت معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف، فقتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مُنْكَبَّاتٍ عليه.

فلما قدمت على رسول اللَّه ﷺ فرآني قال: «**أَفْلَحَ الوجهُ**»، قلت: قد قتلته يا رسول الله[٦]، ووضعت رأسه بين يديه، وأخبرته خبري»[٧].

وهكذا استطاع عبداللَّه وحده، ببطولته الفذة، وإقدامه النادر، أن يقضي على فتنة الهذلي التي كان يُعِدها ويستعد لها، وينهي خططه في حرب الإسلام والمسلمين.

قال عبداللَّه بن أنيس في ذلك:

تركتُ ابن ثَوْرٍ كالحُوار وحولَه ... نوائح تَفْرِي كل جَيْبٍ مُقَددِ[٨]

---

(١) القشعريرة ـ بِزِنَةِ الطمأنينة ـ: رعدة وارتعاش؛ كارتعاش المحموم.

(٢) الظعن: جمع ظعينة؛ وهي: المرأة.

(٣) يرتاد: يطلب.

(٤) المنزل: موضع النزول.

(٥) أجل: كلمة جواب؛ مثل: نعم.

(٦) طبقات ابن سعد (٢/٥٠، ٥١)، ومغازي الواقدي (٢/٥٣١ ـ ٥٣٣)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٩٣، ٢٩٤).

(٧) مغازي الواقدي (٢/٥٣٣).

(٨) الحُوار ـ بِزِنَةِ غراب ـ: ولد الناقة إذا كان صغيرًا. وتفري: تقطع.

تناولتُهُ والطَّعْن خَلْفي وخَلْفَهُ ... بأبيضَ من ماءِ الحديد مُهَندِ[١]
عَجُومٍ لِهَامِ الدار عِينَ كأنه ... شِهابُ غَضًا من مُلْهَبٍ مُتَوَقِدِ[٢]
أقول له والسيفُ يَعْجُمُ رأسَه ... أنا ابنُ أُنَيْس فارسًا غيرَ قُعْدَدِ[٣]
أنا ابنُ الذي لم يُنْزِل الدهرُ قِدْرَهُ ... رَحِيْبُ فِنَاءِ الدار غيرُ مُزَندِ[٤]

ولله در القائل مثنيًا على البطل ابن أنيْس:

سَرِيةٌ أنتَ وَحْدَكْ ... فَاجْعَلْ سَجَايَاكَ جُنْدَكْ
لَا تَخْشَ يا ابنَ أَنيسٍ ... فليس سُفيانُ نِدكْ
احْشُدْ قُواكَ وَخُذْهُ ... فليس يَسْتطِيعُ حَشْدَكْ
إن غَرهُ حَدّ عَزمٍ ... فَسَوفَ يَعرِفُ حَدكْ
يَهولُ في الوصفِ جِدا ... حَتى لَيَعْظُمُ عِنْدَكْ
لَكِنهُ اللهُ أعلى ... عليهِ في البأسِ جَدكْ
أَقْبِلَ فتى البأسِ أَقْبِلْ ... وَاعْمَلْ لربكَ جُهْدَكْ

* * *

أَخَذْتَهُ بِخِلابٍ ... كَذَبْتَهُ فيه وُدكْ[٥]
أوردتَهُ القَولَ حُوًا ... ولو دَرى عَافَ وِرْدَكْ[٦]
وَيْلُمهِ من غَبي ... لو كان يعرف قصدَكْ[٧]

---

(١) بأبيض: يريد به سيفًا. والمهنَّد: السيف المنسوب إلى الهند، ويقولون: سيف هندي، وهندواني، ومهنَّد.
(٢) عجوم: هو من صفات الأبيض، وهذه صيغة مبالغة من العجم؛ وهو: العضُّ وزنًا ومعنى. والهام - هاهنا -: الرءوس. والشِّهاب - بزنَةِ الكتاب -: القطعة من النار. والغضا: شجر يشتدُّ التهاب النار فيه. والملهب: اسم مفعول من ألهبْتَهُ، إذا أوقدتَ فيه النار.
(٣) القعدد: اللئيم الدَّنيء القاعد عن الحرب والمكارم.
(٤) رحيب: متَّسع، وأصله من الرحب؛ وهو: الفضاء. والمزند: الضيِّق البخيل.
(٥) الخلاب: الخداع بلطيف الكلام.
(٦) عافه: كرهه؛ فتركه.
(٧) وَيْلُمِّهِ: أصلها: وَيْلٌ لِأُمِّهِ.

أحْبِبْ بِهِ من رسولٍ ... لِقَتْلِهِ قد أعدكْ
يَظن أنك ضِد ... له فَدُونَكَ ضِدكْ[1]
بُورِكْتَ يا ابنَ أنيسٍ ... من فارسٍ ما أشدكْ
ضربَتَهُ فَتَردى ... وكان ذلك وَكْدَكْ[2]
وَعُدْتَ لا مَجدَ إلا ... أراهُ يَحْسُدُ مَجْدَكْ

* * *

سفيانُ هل كنتَ طَودًا ... فمن رَماكَ فَهَدكْ؟
أم كُنْتَ للشر ذُخرًا ... تَخشى الطواغيتُ فَقْدَكْ؟[3]
أَوْدَى بِكَ ابنُ أنيسٍ ... فَأقفَرَ الحيُّ بَعْدَكْ
وَرَدَّ عِزكَ ذُلًّا ... فما تُصَعرُ خَدكْ[4]
مَلأْتَ صدرَكَ حِقدًا ... فهل شَفَى السيفُ حِقْدَكْ؟
وَمِتَّ مِن قَبلُ وَجدًا ... فهل مَحَا الموتُ وَجْدَكْ؟
أين الجموعُ؟ أتَدرِي ... مَن خط في التربِ لَحْدَكْ؟
وأين رأسُكَ؟ هلَّا ... صَدقْتَ نفسَكَ وَعْدَكْ؟
أَغواكَ جهلُكَ حتى ... لَقِيتَ في النارِ رُشْدَكْ
أنضَجتَ نفسَكَ غيظًا ... فاليومَ تُنضجُ جِلْدَكْ
يَغيظُكَ الدينُ حقًا ... فأنتَ تَقدحُ زَنْدَكْ[5]
هَيجْتَ للشر وَقْدًا ... فأينَ غادرتَ وَقْدَكْ؟[6]

* * *

(١) الضدُّ: المثل والنظير.
(٢) الوكد: المراد والقصد.
(٣) الطواغيت: جمع الطاغوت؛ وهو: الشيطان وكل معبود دون الله.
(٤) صَعَّرَ خده: أماله عن النظر إلى الناس؛ تهاونًا وكبرًا.
(٥) الزند: العود الأعلى الذي يقتدح به النار.
(٦) الوقد: النار.

يا صاحِبَ الغارِ مَن ذَا ... بِنَصرِهِ قد أَمَدكْ[١]؟
أليس ربَّكَ؟ فاجْعَلْ ... لهُ على الدهرِ حَمْدَكْ
رَد العِدَى لم يفوزوا ... وأنتَ بالفوزِ رَدكْ
أَلْقِ الهدية[٢] وَاسْحَبْ ... في ساحَةِ الفَخرِ بُرْدَكْ
دَعَا الرسولُ وأثنى ... فَاحْمَدْ لكَ الخَيرُ رِفْدَكْ[٣]
وقل تباركتَ ربي ... يَسرْتَ للخيرِ عَبْدَكْ

شهد عبداللَّه بن أنيس العقبة، وأُحُدًا وما بعدها، فقد أبطأ من رسول اللَّه ﷺ قوم من أصحابه إذ لم يحسبوا أنهم سيحاربون، فلم يشهدوا بدرًا، وكان منهم عبدالله[٤]. وفي طريق عودة النبي ﷺ من غزوة بدرٍ إلى المدينة، لقيه عبداللَّه بـ «تُرْبان»[٥]، فقال: **«يا رسول الله! الحمد لله على سلامتك وما ظفرك! كنتُ يا رسول اللَّه ليالي خرجتَ موروذًا[٦]، فلم يفارقني حتى كان بالأمس، فأقبلتُ إليك»**، فقال: **«آجرك الله»**[٧].

❑ قَتْلُ البطل الصحابي عبداللَّه بن أنيْس الجُهَني للقائد اليهودي ملك خيبر اليُسيْر بن رِزَام[٨] في شوال سنة ست للهجرة:

كان عبداللَّه بن أنيس أحد أفراد سرية عبداللَّه بن رواحة لقتل اليُسيْر بن رزام

---

(١) أسرع القوم خلف عبدالله بن أنيس رضي الله عنه بعد أن قَتلَ سفيان، فاختبأ في غار كان في طريقه، ونجاه الله منهم.
(٢) هي رأس سفيان ألقاها بين يدي النبي ﷺ؛ ففرح وأثنى عليه.
(٣) الرِفد بفتح الراء: النصيب، وبكسرها: العطاء.
(٤) أنساب الأشراف (٢٨٨/١).
(٥) تربان: قرية على ليلة من المدينة على طريق «بدر - المدينة».
(٦) قال الجوهري: الورد: يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت؛ تقول: وردته الحمى، فهو مورود.
(٧) مغازي الواقدي (١١٧/١).
(٨) انظر: التفاصيل في سيرة ابن هشام (٢٩٢/٤، ٢٩٣)، وفي «مغازي الواقدي» (٥٦٦/٢): أن اسمه أُسير بن رازم، وليس اليُسير بن زرام الذي أخذنا به لشهرته.. وانظر: تفاصيل هذه السرية في مغازي الواقدي (٥٦٦/٢ - ٥٦٨).

الذي كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول اللَّه ﷺ، وقد حمل عبداللَّه بن رواحة رسالة شفوية من النبي إلى اليسير ملك خيبر، وخرج أُسَيْر في ثلاثين من خلصاء وزعماء اليهود بصحبة عبداللَّه بن رواحة وقومه.

وكان عبد اللَّه بن رواحة ومن معه أمناء في توصيل رسالة النبي ﷺ، ولم تراودهم أي فكرة عن قتل هؤلاء اليهود أثناء الطريق... غير أن طبيعة الغدر المتأصلة في اليهود جعلت عبداللَّه بن رواحة وأصحابه يكونون على حذر دائم من عدوهم، ولهذا جعل كل رجل من أصحاب ابن رواحة رجلًا من أصحاب ابن رازم رديفًا خلفه.

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة حاول اليهود الغدر بالمسلمين، فقد أهوى أُسير بن رازم بيده إلى سيف عبداللَّه بن أنيس ليقتله، إلا أنه كان أسرع منه ففطن لذلك، فانتزع السيف من يده وقتله، ثم دارت معركة بين بقية الركب تمكن فيها المسلمون من القضاء على أصحاب ابن رازم ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار[1].

قال الشاعر:

أأنت يا ابنَ رِزامٍ تَغلِبُ القَدَرا؟ ... جَربْ لك الويلُ من غِرٍ وسوف ترى

جَربْ أُسَيْرُ ولا تَجزعْ إذا عَثرتْ ... بك التجاريبُ إن الحُر مَنْ صبرَا

كذبت قومك إن الحق ليس له ... من غالبٍ فَاعْتَبِرْ إن كنتَ مُعتَبِرا[2]

هيهاتَ مالكَ إلا الغَي تتبعُه ... والغي يتبعه في الناسِ من فجرا

بِئسَ الأميرُ وبئسَ القومُ إذ جعلوا ... لك الإمارَة كيما يُداركوا الظفرا

الظافِرونَ بنو الإسلام لا فَزَعًا ... يرى العِدَى في الوغَى منهم ولا خَوَرا[3]

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «صلح الحديبية» ص (٩٩، ١٠٠).

(٢) قال لهم: والله، ما سَاحَ محمد إلى أحد من يهود ولا بعث أحدًا من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد، ولكني أصنع ما لم يصنع أصحابي. قالوا: وما عسيت أن تصنع؟ قال: أَسِيرُ في غطفان؛ فأجمعهم ونسير إلى محمد في عقر داره؛ فإنه لم يُغْزَ أحد في عقر داره، إلا أدرك منه عدوه ما يريد.

(٣) الفزع: الذعر. والخور: الضعف.

هُمُ الألَى يُلبِسونَ الحربَ زِينَتهَا ... إذا تَعَرتْ وَولى الذادةُ الدبُرا
ماذا تُحاوِلُ بالأشياعِ تَندبُهم؟ ... حاولت يا ابن رِزامٍ مطلبًا عَسِرا
ظَننْتَها غزوةً تَخفَى مكائدها ... فما احتيالُك في السر الذي ظَهَرا؟
لو لم يُوافِ رَسولَ اللهِ مُخبِرُهُ ... وافاهُ مِن ربهِ مَن يحمِلُ الخبَرا
كم فَض جِبريلُ من صَماءَ مُغْلَقَةٍ ... أنْحَى على سِرها المكنونِ فاشتهرا[(١)]

* * *

على أبي رافعٍ فَلْتَبكِ مِن أسَفٍ ... وَاسْتَبْقِ نفسَكَ إنْ كُنْتَ امْرَأً حَذِرا
ذَلتْ يهودُ فما يُرجَى لها خَطرٌ ... على يَدَيْ من نَهَى فيها ومن أمَرا
دَعْها أسيْرُ لكَ الويلاتُ من رجلٍ ... ضَل السبيلَ فأمسى يَركبُ الغَرَرا[(٢)]
ألستَ تُبصِرُ عبدَ اللهِ في نَفَرٍ ... أعْظِمْ به وبهِمْ من حَولِه نَفرا؟
جاءوك يا ابنَ رِزامٍ لو تطاوِعُهم ... لأذهبَ اللهُ عنكَ الرجسَ والوَضَرا[(٣)]
لكنكَ المرءُ لو ترميهِ صاعقةٌ ... تَنهاه عن نَزعاتِ الغَي ما ازْدجَرا
رَدوا لكَ الخيرَ تُسديه إليكَ يدٌ ... ما مِثلُها من يدٍ نَفْعًا ولا ضَرَرا
قالوا انْطَلِقْ معنا إن كنتَ مُنطلقًا ... فأْتِ الرسول وَسَلْهُ تبلغِ الوَطَرا
ما شِئتَ مِن سُؤْدُدٍ عالٍ ومن شَرَفٍ ... على اليهودِ ويَجزي اللهُ من شكَرا
أبى وراجعهُ من نفسه أمَلٌ ... أغراهُ بالسيرِ حتى جَد مُبتَدِرا
ثُم انثنَى يَتمادَى في وَساوسِهِ ... يَظن ذلك رأيًا منه مُبتَسَرا
واختارَها خُطةً شَنعاء ماكرةً ... فحاقَ بالجاهلِ المأفونِ ما مكرا
أرادَ شرا بعبدِ اللهِ فَانْبعثتْ ... مِنْه صَريمةُ عادٍ يَنْقُضُ المِرَرا[(٤)]
رَآهُ أخْوَنَ مِن ذئبٍ فَعاجَلَهُ ... بالسيفِ يُورِدُه مِنه دمًا هَدَرا[(٥)]

---

(١) أنحى على الشيء: أقبل.
(٢) الغَرَرُ: التعريض للهلكة.
(٣) الرجس: القذر. والوضر: الوسخ.
(٤) الصريمة: العزيمة. والمرر: جمعُ المِرِّ؛ وهو: الحبل. ونقضه: أي حله؛ كناية عن نقض العهد.
(٥) هَدرًا؛ أي: باطلًا.

وَانْقض أصحابُه يَلْقُونَ من معهُ　　مِن قومه فاستحر القتلُ وَاسْتَعرا
لم يتركِ السيفُ منهم وَهْوُ يأخذُهم　　إلا حُشاشَة هافٍ يَسبقُ البصرا[١]
مَضَى مع الريحِ لا يأسَى لمهلكِهم　　ولا يُبالي قضاء اللهِ كيفَ جرَى
كذلك الغدرُ يَلْقَى الويلَ صاحِبُه　　وكيف يأمنُ عُقْبَى السوءِ من غَدَرا؟

لقد كان عبداللَّه مهاجريًّا أنصاريًّا عَقبيًّا، ومِن جُلَّة الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممن صلى إلى القبلتين.

وبعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، شهد عبداللَّه فتوح بلاد الشام، ودخل مصر وخرج إلى إِفْرِيْقِية، وبذلك نال عبداللَّه ـ الذي كان يكنى: أبا يحيى ـ شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وشرف الجهاد في الفتح الإسلامي العظيم.

❏ سماته القيادية:

أما سمات قيادته التي تبدو واضحة للعيان، فهي الشجاعة الخارقة، والإقدام النادر؛ «**وكنت لا أهاب الرجال**»[٢]، كما قال عن نفسه، ويكفي دلالة على ذلك اندفاعه إلى مشارف مكة وقتل الهذلي بين قومه وأنصاره وحشده، دون أن يكون معه أحد من الناس، بل كان وحده، ليس معه غير سيفه.

كما أنه قتل غير الهذلي من أعداء النبي ﷺ والمسلمين، فكان هو الذي يتولى قتل أولئك الأعداء من بين رجال سريته، وإذا كان أفراد السرية من المختارين شجاعة وإقدامًا، فعبد اللَّه أشجع الرجال المختارين من بين المهاجرين والأنصار والمسلمين كافة في حينه، ومن أكثرهم إقدامًا ومغامرة ورجولة.

لقد كان عبداللَّه قائدًا بطلًا.

---

(١) هو الرجل الذي هرب؛ أفلت على رجليه وأعجز المسلمين شدًّا. والحُشاشة: بقية الروح في المريض والجريح. والهافي: المُسرِع.

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٣٢).

توفي رضي الله عنه بالشام سنة أربع وخمسين الهجرية [١]«٦٧٣م» في خلافة معاوية [٢]

رَضِيَ اللهُ عَنْ البطل المغوار، القائد المقدام، الصحابي الجليل، عبدالله بن أُنيس الجُهَني، القُضاعي، الأنصاري، المهاجري، العقبي.

* * *

(١) الإصابة (٣٨/٤)، والاستيعاب (٨٧٠/٣)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦١/١).

(٢) تهذيب التهذيب (١٥٠/٥)، وانظر: الاستبصار (١٦٨). أما ما جاء في «تهذيب الأسماء واللغات» (٢٦١/١)، و«أُسْد الغابة» (١٢٠/٣): «أنه توفي سنة أربع وسبعين الهجرية»، فلا صحة له؛ لأنه توفي في أيام معاوية الذي توفي سنة ستين الهجرية.

٢٣

ليث المعمعة الصحابي الجليل

غالب بن عبدالله الليثي

القائد الأمير

٢٣

ليث المعمعة الصحابي الجليل

غالب بن عبدالله الليثي القائد الأمير

هو غالب بن عبدالله بن مُسْعِر بن جَعْفَر بن كَلْب[١] بن عامِر بن لَيْث بن بُكَيْر[٢] بن عبد مَنَاة بن كِنَانة الكِناني الليْثِي[٣].

ويقال: غالب بن عبيد الله[٤]، والصواب: غالب بن عبدالله بن مُسْعِر[٥].

كان إسلام غالب قديمًا، وولاه النبي قيادة ثلاث من سراياه، ولم يكن النبي يولي قيادة السرايا إلا لمن حسن إسلامه أولًا، ولمن يتحلى بالمزايا القيادية المتميزة ثانيًا، ولذوي الخبرة العملية في ميادين القتال ثالثًا.

❏ في سريته إلى المَيْفَعَة[٦]

وهي سرية غالب إلى المَيْفَعة في شهر رمضان من السنة السابعة الهجرية، بعثها رسول الله ﷺ بقيادة غالب بن عبدالله إلى بني عُوال وبني عبد بن ثعلبة وهم بالمَيْفَعة، بعثه في مئة وثلاثين رجلًا، ودليلهم يَسار مولى رسول الله ﷺ.

وهجم المسلمون على المشركين ووقعوا وسط محالهم، فقتلوا مَنْ تصدى لهم، واستاقوا نَعَمًا وشاءً، فحدروه إلى المدينة، ولم يأسروا أحدًا.

---

(١) في الإصابة (١٨٦/٥): كلب بن عوف بن كعب بن عامر.

(٢) في الإصابة (١٨٦/٥): بكر، لا بكير.

(٣) أسْد الغابة (١٦٨/٤).

(٤) الاستيعاب (١٢٥٢/٣)، وأُسْد الغابة (١٦٨/٤).

(٥) المصدر السابق.

(٦) الميفعة: موضع وراء بطن نخل إلى النَّقْرة قليلًا بناحية نجد، وبينها وبين المدينة ثمانية برد.

وفي هذه السرية، قتلَ أسامةُ بن زيد الرجلَ الذي قال: «**لا إله إلا الله**»، فقال النبي ﷺ: «**ألا شققتَ قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب؟**»، فقال أسامة: «**لا أقاتل أحدًا يشهد أن لا إله إلا الله**»[1].

وهكذا باغت غالبٌ بسريته المشركين مباغتة كاملة، فأثر في معنوياتهم تأثيرًا حاسمًا، مما أدى إلى هزيمتهم بعد تكبيدهم خسائر بالأرواح والمواد، وعاد إلى المدينة بالغنائم منتصرًا، فأدى واجبه في هذه السرية على أحسن وجه.

اسألِي يا نَجدُ أهلَ المَيْفَعهْ — كيف أمسَوا بعد أمنٍ وَدَعَهْ؟
وانْظرِي ما صَنَع الكُفرُ بهم — من أذى يُعجبه أن يصنَعهْ
هو صِنْوُ الشر أو تَوأمُهُ — ما ثوى في موطنٍ إلا مَعَهْ
ما الذي يعصمُهم من غالبٍ — جُذوَةِ الحربِ وليثِ المَعْمَعَهْ؟[2]
جاءهم يقدمُ من أبطالِه — كل ماضٍ لا يُبالِي مَصْرَعَهْ
يَمنعُ الإِسلامَ من أعدائِهِ — بدمٍ يأبَى له أن يَمنعَهْ
لو تمشى الموتُ في بُرْدَتِه — حين يمشِي للوغَى ما رَوعَهْ
أخذوهم أخْذَةً رابَيةً — صَادفْت منهم نُفوسًا فَزِعَهْ
ثم آبوا كالنجومِ الزهرِ في — نِعمةٍ مما أصابوا وَسَعَهْ

❑ سرية غالب بن عبدالله الليثي

وهي سرية غالب إلى بني المُلَوح بالكَدِيد[3] في شهر صَفَر من السنة الثَامنة الهجرية، بعثها رسول اللهﷺ بقيادة غالب، مؤلفة من بضعة عشر رجلًا، وأمرهم أن يشنوا الغارة على بني المُلَوح بالكَدِيْد، وهم من بني لَيْث.

---

(١) طبقات ابن سعد (١١٩/٢)، ومغازي الواقدي (٧٢٦/٢، ٧٢٧)، والطبري (٤٨٣/٢)، وابن الأثير (١٣٩/٢)، والمقتول هو مِرداس بن نُهيك.

(٢) الجذوة: الجمرة الملتهبة. والمعمعة: الحرب.

(٣) الكديد: موضع بين مكة والمدينة على بعد اثنين وأربعين ميلًا من مكة.

وخرجت السرية، فلما كانت بـ«**قُدَيْد**»[1] لقي غالبُ الحارث بن البَرْصَاء الليثي، فأخذته السريَة، فقال: «**إنما جئتُ أريد الإسلام، وإنما خرجتُ إلى رسول اللَّه ﷺ**»، فقال له غالب: «**إن تكن مسلمًا لم يضررك رباطنا يومًا وليلة، وإن تكن على غير ذلك نَسْتَوْثِقْ منك**»، فشدوه وثاقًا، وخلفوا عليه رُوَيْجِلًا منهم أسود، قال له غالب: «**إن نازَعكَ فاحتز رأسه**».

وسارت السرية حتى جاءت الكَدِيْد عند غروب الشمس، فكمنت في ناحية الوادي، وبعث غالب رجلًا من السرية هو جُنْدَب بن مَكِيْث الجُهَني ربيئة[2] للسرية، فخرج حتى أتى تلًّا مشرفًا على الحاضِر[3] يطلعه عليهم، حتى إذا أسند عليهم في التل علا على رأس التل ثم اضطجع عليه، قال: «**فإني لأنظر إذ خرج رجل منهم من خباءٍ له، فقال لامرأته: إني أرى على هذا الجبل سوادًا ما رأيته أول من يومي هذا، فانظري إلى أوعِيَتِكِ لا تكون الكلاب جرت منها شيئًا! فنظرت فقالت: واللَّه ما أفْقِد من أوعيتي شيئًا، فقال: فناوليني قوسي ونَبلي، فناولته قوسه وسهمين معها، فأرسل سهمًا فواللَّه ما أخطأ بين عيني؛ فانتزعته، وثَبَت مكاني. ثم أرسل آخر، فوضعه في منكبي، فانتزعته فوضعته وثبت مكاني، فقال لامرأته: واللَّه لو كانت ربيئة لقد تحركت بعد! واللَّه لقد خالطَها سَهمايَ لا أبا لَكِ! فإذا أصبحتِ فانظريهما لا تمضغهما الكلاب، ثم دخل**».

وراحت الماشية من إبلهم وأغنامهم، فلما احتلبوا وعَطنوا[4] واطمأنوا فناموا، شن المسلمون عليهم الغارة، واستاقوا النعَم.

---

(١) قُدَيْد: اسم موضع قرب مكة.

(٢) الربيئة: الطليعة؛ انظر: الصحاح (٥٢).

(٣) الحاضر: القوم المقيمون بمحلهم؛ انظر: السيرة الحلبية (٢/٣١٢).

(٤) عطنت الإبل: إذا سقيت وبركت عند الحياض؛ لِتُعَادَ إلى الشرب مرة أخرى؛ انظر: النهاية (٣/١٠٧).

وخرج صريخ القوم في قومهم، فجاء ما لا قِبَل بالسرية به من المشركين عَدَدًا وعُدَدًا، ولكنهم خرجوا بالنعَم وانحدروا بها حتى مروا بابن البَرْصَاء، فاحتملوه. وأدركهم القوم، واقتربوا منهم، وأصبح ليس بين السرية والمشركين غير الوادي، فجاء سيل عَرِم ملأ جنبتيه ماءً، فلا يستطيع أحد أن يجوزه، فلم يستطع المشركون طلب السرية، فأسرع المسلمون باتجاه المدينة، ومعهم النعم من الغنائم، وراجزهم يرتجز:

أَبَى أبو القاسِم أن تَعَزبي[1] ... في خَضِل نباتُهُ مُغْلَوْلِبِ[2]

صُفْرٍ أعاليهِ كَلَوْنِ المُذْهَبِ ... وذاك قَوْلُ صادِقٍ لم يَكْذِبِ

وكان شعار السرية يومئذ: أَمِتْ... أَمِتْ[3]...

لقد استطاع غالب بحذره ويقظته واستطلاعه، الحصول على المعلومات الكافية عن عدوه، فباغتهم بالهجوم الليلي مباغتة كاملة بالأسلوب، إذ لم يكن المشركون يتوقعون هجومًا ليليًا عليهم.

كما بغتهم بالزمان، إذ لم يكن المشركون يتوقعون الهجوم عليهم ليلًا، بل اطمأنوا وأمنوا، كما استطاع غالب بسرعة الحركة من الابتعاد عن المشركين والخلاص من مطاردتهم له، فأدى غالب واجبه في هذه السرية أداءً رائعًا حقًا، وحقق أهدافه كافة منها.

بَنِي المُلَوحِ لا حَامٍ ولا واقِ ... طَافَ الردَى وتَلاقَى الشَّرْبُ والساقِي[4]

---

(١) تعزُّ بي: تُقيم. يقال: تَعَزَّيَتِ الإبل في المرعى: إذا أقامت فيه. انظر: شرح أبي ذر (٤٥٠).

(٢) المُغْلَوْلَبُ: الكثير الذي يغلب على الماشية حين ترعاه. والخضل: النبات الأخضر المبتل؛ انظر: شرح أبي ذر (٤٥٠، ٤٥١).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٥٠ - ٧٥٢)، وطبقات ابن سعد (٢/١٢٤، ١٢٥)، وعيون الأثر (٢/١٥٠، ١٥١)، وابن الأثير (٢/٢٢٩، ٢٣٠)، وانظر: البدء والتاريخ (٤/٢٣٠)، والمحبر (١١٩)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٨١).

(٤) الشرب: جمع الشارب.

أتتكُمُ المرهفاتُ البِيضُ زائرةً ... فاستقبلوها بهاماتٍ وأعناقِ
مشى بها غالبٌ في غيرِ ما وَهَنٍ ... يَلُفُ للحرب آفاقًا بآفاقِ
رَمَتْ به هِمَمُ الإيمانِ مُمعنةً ... فالشِرْكُ يَرجُفُ من خوفٍ وإشفاقِ
ما خطبُ هذا الذي لاقَتْ فوارسُهُ ... عِندَ القديدِ أيمضِي غير مُعتاقِ؟
كلا فإن يَكُ حقًّا ما يقولُ فما ... فيما يُريدُونَ من ظُلم وإرهاقِ
يُقيمُ حتى يَعودوا ثم يَصحبُهُم ... إلى الرسولِ على عهدٍ وميثاقِ
وإن يكن كاذبًا فالسيفُ صاحبُهُ ... والسيفُ صاحبُ صدق غيرِ مَذاقِ[1]

* * *

جاءوا «الكَدِيدَ» فما يَغْفى رَبِيئتُهُم ... والنومُ يلهو بأجفانٍ وأحداقِ[2]
ولاح بالليلِ فوقَ التل مَنظرُهُ ... لساهرٍ قام من ذُعرٍ على سَاقِ
رَمَى بِسهمَينْ لم يُخْطِئ له نَظرٌ ... ولم يُجاوِزْهُ في نَزْعٍ وإغراقِ[3]
انْزَعْهُما ابنَ مكيثٍ لا تَكُنْ جزعًا ... ولا تُرَعْ لِدَمٍ في اللَّه مُهرَاقِ
ويا سيوفَ رَسولِ اللهِ لا تَدَعِي ... للعاكِفينَ على الأصنامِ من بَاقِ
النازِلينَ وَراءَ الحق منزلةً ... ما اختارَها غيرُ فُجارٍ وَفُساقِ
ما يُنكِرُونَ من الدينِ الذي كرهوا؟ ... هل جاءَ إلا بآدابٍ وأخلاقِ؟
دِينُ السجايا العُلَى تَمضِي بهم صُعُدًا ... ما تستطِيعُ مَدَاهَا هِمةُ الراقِي[4]
دِينٌ هو الغُل يَنْهَى كل مُبتَدِعٍ ... يرمي النفُوسَ بأغلالٍ وأطواقِ[5]
لا يَحبِسُ النفسَ إلا حينَ يُطلِقُها ... وليس يَظلِمُ في حَبْسٍ وإطلاقِ

* * *

---

(١) مذَّاق: غير مخلص.

(٢) الربيئة: الطليعة أو العين.

(٣) نزع الرامي وأغرق: جذب وتر القوس؛ ليستوفي مدَّها.

(٤) الصاعد.

(٥) الغل: واحد الأغلال.

بَنِي الملوحِ رُدوا مِن غَوايَتِكم ... فالحق ذُو وَضَحٍ بادٍ وإشراقِ[١]
هو الشِفَاءُ لأدواءِ النفوسِ إذا ... حَارَ الطبيبُ وأَمْسَى رَهْنَ إخفاقِ
أَتَصْدِفُونَ عَنِ المُثلى وقد هَتَفَتْ ... بها الدعاة فَلَبى كل سَباقِ؟
لولا العَمَى مَا اقْتَدَيْتُمْ في ضَلاَلَتِكُم ... بمعشرٍ من قُريشٍ غيرِ حُذاقِ
والناسُ من زُعماءِ السوءِ في خَبَلٍ ... يُؤذِي الطبيبَ ويُعيي حِكمةَ الراقِي[٢]
يا وَيْلَكُم إن رَضِيتُمْ جَوْفَ مُظلِمَةٍ ... مَسْجُورةٍ ذاتِ أطواءٍ وأعماقِ[٣]
ماذا صنعتم بخيلِ اللهِ حين دعا ... يَسْتَصرِخُ الحي منكم كل نَعاقِ؟
طارت بكم غارةٌ حَرى فأطفأها ... وَادي قَدِيدٍ بِسَيْلٍ منه دَفاقِ
لا تنكروا وقضاءُ اللهِ يُرسِلُهُ ... ما كانَ من دَهَشٍ جَم وإطراقِ
أعظِمْ بها آيةً لولا جَهالَتكُمْ ... كانت لخيرِ البرايا خيرَ مِصدَاقِ
سيقتْ لِنُصْرَتِهِ الأقدارُ تَمنَعُكُم ... أن تُدرِكُوا جُنْدَهُ من كُل مُنْساقِ
وأنتَ يا أيها المُزْجي مَطِيتَهُ ... إلى الرسولِ يُوالي سَيْرَ مُشتاقِ[٤]
أصبتَ من نِعمةِ الإسلامِ كَنْزَ هُدىً ... أغناكَ ربك منه بَعْدَ إملاقِ
فَاسْعَدْ برزقِكَ وَاشْكُرْ مَن حَبَاكَ به ... سُبحانَهُ مِن عظيمِ الفَضْلِ رَزاقِ

❑ سرية غالب إلى فَدَك، والأخذ بثأر بشير بن سعد وأصحابه من بني مُرة

وهي سرية غالب إلى مُصَاب أصحاب بشير بن سعد بِفَدَك في شهر صَفَر من السنة الثامنة الهجرية، بعثها رسول اللّٰه ﷺ بقيادة غالب بن عبدالله، وكان عليه الصلاة والسلام قد هيأ الزبير بن العَوام وقال له: «**سِرْ حتى تنتهي إلى مُصَاب أصحاب بشير بن سعد، فإن أظفركَ اللّٰه بهم، فلا تُبْقِ فيهم**»، وهيأ مع الزبير مئتي رجل وعقد له لواءً[٥].

(١) الوضح: الضوء وبياض الصبح.
(٢) مَنْ يصنع الرُّقية.
(٣) المسجورة: الموقدة. والأطواء: الآبار.
(٤) هو الحارث بن مالك الليثي.
(٥) طبقات ابن سعد (١٢٦/٢)، وانظر: مغازي الواقدي (٧٢٣/٢).

وكان بشير بن سعد قد بعثه النبي ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى بني مُرةٍ بفَدَك، فقتلَ المُرِيون أصحابَ بشير وأصابوا بشيرًا بجروح بليغة، وكان ذلك في شهر شعبان من السنة السابعة الهجرية[1].

وقَدِم غالب من سريته إلى الكَدِيْد مُنْتَصِرًا، فقال رسول اللَّه ﷺ للزبير: «**اجلسْ!**»، وبعث غالب بن عبداللَّه في مئتي رجل، وخرج أُسامة بن زيد فيها، حتى انتهى إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد، وخرج معه عُلْبَة بن زيد[2] فيها، فأصابوا منهم نَعَمًا وقتلوا منهم قتلى.

وقبل الاشتباك بالمشركين، آخى غالب بين أفراد سريته، وجعل كل رجلين من السرية أخوين، وأمرهم ألا يفترقوا، وقال: «لا تعصوني، فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ أطاع أميري فقد أطاعني، ومَنْ عصاه فقد عصاني**»، وإنكم متى تعصوني فإنكم تعصون نبيكم»، فأغارت السرية على بني مُرة في فَدَك صباحًا، وانتصروا عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة بالأرواح والمواد[3].

وهكذا حقق غالب هدف هذه السرية تحقيقًا كاملًا، فلم تَضِعْ دماء أصحاب بشير بن سعد هدرًا دون مطالب، بل لقن الذين أصابوهم من بني مُرة درسًا قاسيًا، وأثر في معنويات المعتدين فانهارت بعد هزيمتهم، بينما استعاد المسلمون معنوياتهم العالية بعد إحراز النصر، وبعد تيقنهم من أن هناك مَنْ يدافع عن حقوقهم ولا يسكت عمن يُلحق بهم الضرر ماديًّا أو معنويًّا.

بَنِي مُرة اقْضُوا أمركم قبل غَالِبِ ... وَذُوقُوا مَنايا القَومِ مِن كُل ذاهبِ
بَشِيرُ بنُ سعدٍ والذين أصابَهم ... أذاكم رَمَوْكُمْ بالقُرُومِ المصاعِبِ[4]

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/١١٨، ١١٩)، ومغازي الواقدي (٢/٧٢٣)، وعيون الأثر (٢/١٤٦، ١٤٧).

(٢) هو علبة بن زيد الحارثي الذي قدم بمصاب سرية بشير بن سعد إلى النبيِّ ﷺ وأخبره بخبرهم؛ انظر: طبقات ابن سعد (٢/١١٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٢٦)، والواقدي (٢/٧٢٣ - ٧٢٦)، والمحبر (١٢٠).

(٤) القرم والمصعب بمعنًى؛ وهو: الفحل، ويطلق على السيد العظيم.

جَهِلْتُم جزاءَ البَغْيِ والبَغْيُ مَركب ... لذي الجهلِ يُؤذِي شُؤمُهُ كل راكبِ

خُذُوهُ جَزاءً مِن يدِ اللهِ عادلًا ... يُدَمرُ منكم كل راضٍ وغاضِبِ

بُليتُم بِخَصمٍ لا تَنامُ سيوفهُ ... عن الوَتْرِ إن نامتْ شِفَارُ القواضِبِ[1]

أبيٍّ على الكفارِ يَسقِيهِمُ الردى ... ويأخذُهم بالخسفِ من كل جانبِ[2]

حَفِي بدينِ اللهِ يَمنعُ حَوْضَهُ ... ويكفيهِ أضغانَ العَدو المُشَاغِبِ[3]

هُوَ الدمُ لا يَشْفي من الجهلِ غيرُهُ ... إذا لم يُفِدْ فيه ضروبُ التجاربِ

أَجَلْ يا ابنَ عبدِ اللَّه إن الوغى لها ... رجالٌ يَرَوْنَ الحزمَ ضَربةَ لازبِ[4]

شَدَدْتَ قُوى الأبطالِ بالموثقِ الذي ... عَقَدْتَ على تلك القُوى والجواذِبِ[5]

فَعَهدٌ على عهدٍ من اللهِ ثابتٍ ... وإلفٌ على إلفٍ من الدينِ راتبِ[6]

أَخٌ لأخٍ جَمِ الوفاءِ وصاحبٌ ... أمينُ الهَوَى يَرْعَى الذمامَ لصاحِبِ

ويا لَكَ إذ تُلْقِي بما أنتَ قائلٌ ... على الجندِ آدابَ الكمي المحاربِ

أخذتَ رُماةَ النبْلِ بِالسيْفِ ما رَمَى ... بغيرِ المنايا عن يَدَيْ كل ضارِبِ

سقاهمْ نقيعَ الحَتْفِ من كل ماجِدٍ ... جَرَى الحتفُ صِرْفًا في دمٍ منه ذائب

لذي الحِلم مِن حُسْنِ المثوبَةِ ما ابْتَغَى ... وللجاهِلِ المغرورِ سُوءُ العواقِبِ

دَعَاكَ رسولُ اللهِ أصدَقُ من دَعَا ... إلى الحق تَرمِي دُونَهُ غيرَ هائبِ

فكنتَ أمامَ الجيشِ أكرمَ قادمٍ ... وكنتَ وَراءَ النهبِ أكرمَ آيِبِ[7]

---

(١) الوتر: الانتقام. وشفار: جمع شفرة؛ وهي: حدُّ السيف.

(٢) الخسف: الإذلال.

(٣) الحفي: المبالغ في الإكرام.

(٤) أي: لازمًا ثابتًا.

(٥) عن حويصة ﷺ قال: بعثني ﷺ في سرية مع غالب إلى بني مرة؛ فأغرنا عليهم مع الصبح، وقد أخذ علينا أميرنا أن لا نتفرق، وآخى بيننا، وقال: لا تعصوني؛ فإنه ﷺ قال: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني».

(٦) دائم ثابت.

(٧) النهب: الغنيمة.

مَـقَـامٌ تـمـنـاهُ الـزبـيـرُ ومَـطـلـبٌ ... يَراه الفَتى المِقدامُ أَسْنَى المطالِبِ[١]
ظَفِرْتَ بِهِ يا توأمَ النصْرِ تَوْأمًا ... لما نِلتَ من مجدٍ على الدهرِ دائبِ
مَضَى لكَ يومٌ في الكديدِ مُشَهرٌ ... يُحَدثُ عن جِد امْرِئٍ غير لاعبِ
فيا حُسْنَهـا من وَقعةٍ غـالـبـيـةٍ ... ويا لَكَ من يومٍ جليلِ المناقبِ

❏ في غزوة فتح مكة

وكانت في السنة الثامنة الهجرية في رمضان المبارك، وكان غالب على مقدمة النبي ﷺ يوم الفتح[٢].

قال غالب: «بعثني النبي ﷺ عام الفتح بين يديه؛ لأسهل له الطريق ولأكون له عينًا، فلقيني في الطريق لِقَاح[٣] بني كِنانة، وكانت نحوًا من ستة آلاف لَقْحَة، وإن النبي ﷺ نزل، فحلبت له، فجعل يدعو الناس إلى الشراب، فمن قال: إني صائم، قال: «**هؤلاء العاصون**»[٤]، وكان النبي ﷺ قد سار إلى فتح مكة في رمضان فصام وصام أصحابه، حتى إذا كان بالكَدِيْد بين «**عُسْفَان**»[٥] و«**أَمَج**»[٦] أَفْطَر[٧] بعد صلاة العصر، وشرب على راحلته علانية؛ ليراه الناس، وأمر بالفطر، فبلغه ﷺ أن قومًا تَمَادَوْا على الصيام، فقال: «**أولئك العُصَاة**»، إباحة للإفطار في السفر[٨].

وهكذا ولى النبي ﷺ غالب بن عبدالله قيادة مقدمته في غزوة فتح مكة؛ ثقة به وتقديرًا لمزاياه القيادية، فحقق للنبي ﷺ هدفه، ونهض بواجبه في قيادة المقدمة على

---

(١) روي أنه ﷺ هيأ الزبير بن العوام ﷺ، وقال له: «سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير»، وهيأ معه مئتي رجل، فلما رجع غالب بن عبدالله من الكديد مؤيدًا بالنصر، استبقى الزبير، وبعثه هو.
(٢) الإصابة (١٨٧/٥).
(٣) اللقاح: جمع لقحة؛ وهي: الناقة الحلوب غزيرة اللَّبن.
(٤) الإصابة (١٨٧/٥)، وانظر: أُسْد الغابة (١٦٨/٤).
(٥) عُسفان: قرية على مرحلتين من مكة، بين مكّة والمدينة.
(٦) أمج: بلد من أعراض المدينة.
(٧) جوامع السيرة (٢٢٦)، ومعجم البلدان (٢٢٤/٧).
(٨) جوامع السيرة (٢٢٧).

أحسن وجه.

❑ غالب بن عبدالله يُبلي بلاءً حسنًا في معركة «البُوَيْب» و«القادسية»:

بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، شهد غالب فتوح العراق، فشهد معركة «**البُوَيْب**»[١] سنة ثلاث عشرة الهجرية على عهد عمر بن الخطاب بقيادة المُثَنى بن حارثة الشيباني، وأبلى في هذه المعركة بلاءً حسنًا للغاية، فكان أحد أبطال المسلمين الذين قتلوا تسعة من الفرس في هذه المعركة، وكان من أصحاب التسعة المعدودين[٢]، فانتصر المسلمون انتصارًا كاسحًا على الفرس[٣] في تلك المعركة.

وقُبَيْل معركة القادسية التي كانت سنة أربع عشرة الهجرية بقيادة سعد، أغارت سرية من المسلمين على الحِيرَة، فإذا أخت مرزبانها الفارسي تزف إلى أحد أشراف العجم، ومعها في الحاشية ثلاثون من الدهاقين ومئة من التوابع، ومعهم ما لا يُدْرى قيمته، فغنمت السريةُ العروسَ وما معها من رجال وأثقال ومتاع، فترك سعد بن أبي وقاص هذه الغنائم من الأشخاص في «**العُذَيْب**»[٤]، وقسم الغنائم على مستحقيها، وجعل على أولئك الأسرى من الأشخاص خيلًا تحولها، وأمر عليها غالب بن عبدالله[٥].

وشهد غالب معركة القادسية الحاسمة، فأرسله قائده مع نفرٍ من ذوي الرأي والنجدة، وأمرهم بتحريض الناس على القتال، فخطب الناس وحرضهم على القتال[٦]، واشتبك مع الفُرس برفقةٍ أمثاله من أهل النجدات[٧]، وهو الذي قتل

---

(١) البويب: نهر بالعراق موضع الكوفة.

(٢) ابن الأثير (٢/٤٤٤).

(٣) انظر: تفاصيل المعركة في «الطبري» (٣/٤٦٠ - ٤٧٢).

(٤) العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال؛ انظر: معجم البلدان (٦/١٣١).

(٥) الطبري (٣/٤٩٤)، وابن الأثير (٢/٤٥٤).

(٦) ابن الأثير (٢/٤٧٠).

(٧) ابن الأثير (٢/٤٨٠).

هرمز ملك «**الباب**» التي تسمى اليوم «**دربند**» على بحر الخزر، وكان هرمز على رأس رجاله مع الفُرس في معركة القادسية الحاسمة[١].

ولا نعرف بالضبط المعارك التي خاضها بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى في حروب أهل الرِدة وقبل القادسية وبعدها من معارك الفتوح شرقًا وغربًا، فمن الصعب على المؤرخين تسجيل دور كل مجاهد في كل معركة خاضها؛ لكثرة المجاهدين وتعدد المعارك، وحسبنا أن نسجل ما ذكره المؤرخون لغالب في هذا المجال، وهو يدل دلالة واضحة على أنه كان من الشخصيات البارزة في الفتوح، وأنه كان من أصحاب الأيام المعدودين.

☐ غالب بن عبدالله الصحابي القائد

كان الصحابي الجليل غالب بن عبدالله يتحلى بمزايا قيادية عظيمة، فهو قائد قدير كان يتحلى بمزايا قياديةٍ ومزايا إداريةٍ، فهو قائد قدير وإداري حازم، وأنه كان على خُلق رفيع.

أما السمات القيادية لغالب فواضحة كل الوضوح؛ لأنه قاد ثلاث سرايا من سرايا النبي ﷺ في حياته المباركة، كما قاد مقدمة المسلمين في غزوة فتح مكة، فلما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، استمر على نشاطه في الجهاد، فكان من أصحاب الأيام في حرب العراق وفارس.

ولعل من تلك السمات الحذر واليقظة، فلم يصدق الأسير الذي ادعى الإِسلام وأنه في طريقه إلى النبي ﷺ لإعلان إسلامه؛ بل شَدَّ وثاقه وجعل عليه حارسًا مزودًا بأوامر واضحة جلية؛ أن يحز رأسه إذا حاول الهروب من الأسر؛ حتى يحول دون اتصال هذا الأسير بقومه وكشف نيات المسلمين مبكرًا، مما يؤدي إلى استعداد المشركين للقاء المسلمين.

---

(١) الإصابة (١٨٧/٥).

وكان الأسير من بني ليث، وغالب من بني ليث أيضًا، ولكنه لم يُزاعِ ابن عمه كما كان يفعل في أيام الجاهلية، بل عامله كأي عدو آخر بصرف النظر عن قرابته، مما يدل على تغلغل تعاليم الإسلام فيه من جهة، واجتثاث عنعنات الجاهلية وتقاليدها من جذورها في نفسه من جهة أخرى.

ومن دلائل يقظته وحذره، إرساله الربايا الاستطلاعية، ليستطيع إعداد خطته على هدى وبينة، وبشكل يؤدي إلى النصر.

وكان يحرض رجاله على القتال، ويحثهم على الجهاد، ويؤاخي بين أصحابه؛ ليكون التعاون وثيقًا بينهم قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها، كما يأمر بالطاعة المطلقة والالتزام بتنفيذ أوامره نصًا وروحًا، والابتعاد عن الخلاف والفتنة، إذ لا نصر مع الخلاف، ولا هزيمة مع الطاعة.

وقد كان قائدًا تعرضيًا، يطبق مبدأ المباغتة، بالزمان فيتعرض بوقت لا يتوقعه العدو، والمكان باتجاه لا يتوقعه العدو، وبالأسلوب في التعرض السريع الخاطف والانسحاب السريع الخاطف، قبل أن يعود إلى العدو رشده الذي فقده جرَّاء المباغتة.

ويبدو أن من سماته القيادية، سرعة الحركة: التقدم بسرعة إلى ساحة المعركة، والانسحاب بسرعة مع الغنائم، فكأنه أحد رواد الحرب الخاطفة التي بحاجة إلى قابلية الحركة وسرعتها.

وكان من القادة الذين يطبقون مبدأ: إدامة المعنويات، فكان من أهدافه رفع معنويات رجاله من جهة، وهدم معنويات أعدائه من جهة أخرى.

وكان سريع القرار صائبه، يثق برجاله ويثقون به، ويبادلهم حبًّا بحب، يعرف مزايا أصحابه وخواصهم، ويكلف كل واحد منهم ما يناسب كفايته من واجبات، له شخصية قوية نافذة، يتحمل المسئولية كاملة ولا يتهرب منها ولا يلقيها على عواتق الآخرين، يتمتع بمزيةِ سبقِ النظر، ويحسب لكلِّ أمر حسابه، ويعد له ما

ينبغي لمعالجته وحسمه بسرعة قبل فوات الأوان، له قابلية بدنية جيدة، وماض ناصع مجيد.

ولعل من أبرز سماته القيادية، شجاعته الشخصية الفائقة، فلما أصيبت سرية بشير بن سعد، أعد النبي ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه، وهو مَن هو شجاعة وإقدامًا؛ لتأديب بني مُرة الذين أصابوا تلك السرية وألحقوا بها أفدح الأضرار بالأرواح، ولكن النبي ﷺ آثر غالب بن عبدالله للقيام بمهمة تأديب بني مُرة، وهذا دليل على أنه كان له في ميزان الشجاعة والإقدام وزن ثقيل.

لقد كان غالب من قادة النبي المتميزين.

❏ غالب في التاريخ

يذكر التاريخ لغالب، أنه قاد ثلاث سرايا من سرايا النبي ﷺ إلى النصر.

ويذكر له أنه قاد مقدمة المسلمين في غزوة فتح مكة، أهم غزوات النبي ﷺ.

ويذكر له أنه نال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

ويذكر له أنه لم يغمد سيفه بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فكان من أصحاب الأيام في الفتوح.

ويذكر له أنه كان عاملًا من عمال النبي ﷺ وعاملًا من عمال المسلمين من بعده.

رَضِيَ اللهُ عَنْ الصحابي الجليل، القائد الفاتح، الإداري الحازم، غالب بن عبد اللَّه الليثي.

* * *

٢٤

القائد الشهيد

عبدالله بن عَتِيك الخزرجي

قائد السرية التي قتلت شيطان اليهود سلّامَ بن أبي الحُقيق

٢٤

القائد الشهيد
عبدالله بن عَتِيك الخزرجي

قائد السرية التي قتلت شيطان اليهود سلَّامَ بن أبي الحُقيق

بطلنا هو عبدالله بن عتيك بن قيس بن الأسود بن مري الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه من بني غنم بن سلمة.

شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد لا اختلاف في ذلك. والاختلاف في أنه شهد بدرًا، والراجح أنه لم يشهدها.

تولى قيادة سرية من سرايا النبي ﷺ، فكان جنديًّا مجاهدًا وقائدًا من قادة النبي ﷺ.

❑ سرية عبدالله بن عتيك

كانت في رمضان من سنة ست الهجرية(١).

انقضى شأن غزوة الخندق (وهي غزوة الأحزاب)، وانقضى شأن قريظة، وكان أبو رافع سلام بن أبي الحُقَيْق ممن حزب الأحزاب وألب على رسول الله ﷺ.

كان سلام بن أبي الحقيق من بني النضير اليهود، وحين قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا، نصبت أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوةَ بَغْيًا وحَسَدًا وضِغْنًا؛ لما خص اللَّه ـ تَعَالَى ـ العربَ به من أخذه رسوله منهم، وأضاف إليهم(٢) رجال من الأوس والخزرج ممن عَسَا على جاهليته(٣)، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٩١).

(٢) أضاف إليهم: مَالَ إليهم؛ يريد: أنَّه أخذ بما أخذوا به من الحسد والبغض والعداوة.

(٣) عَسَا على جاهليته: بقي عليها، واشتدَّ في الأخذ بها؛ من قولهم: عسا العود يعسو: إذا قوي واشتدَّ.

والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فَظَهَروا بالإسلام، واتخذوه جُنة[١] من القتل، ونافقوا في السر، وكان هَوَاهم مع يهود؛ لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم الإسلام، وكان أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه[٢] ويأتونه باللبْس لِيَلْبِسُوا الحق بالباطل، فكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه، إلا قليلًا من المسائل في الحلال والحرام التي كان المسلمون يسألون عنها.

ومن أحبار يهود الذين نزل فيهم القرآن وكانوا يحقدون على النبي ﷺ ويتعنتونه: سَلام بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النضير[٣].

وحين حاصر النبي ﷺ بني النضير وأجلاهم عن المدينة، كان سَلام يهدد المسلمين قائلًا: «**إن حلفائي بِخَيْبَر لعشرة آلاف مقاتِل**»، فبلغ رسول الله ﷺ قوله، فتبسم[٤]، ثم دارت الدائرة على بني النضِيْر، فاستسلموا للمسلمين.

وكان سلام من التجار الكبار الذين يتعاطون الربا، وكان له على أُسَيْد بن حُضَير عشرون ومئة دينار إلى سنة، فلما أجلاهم النبي ﷺ صالحه سلام على أخذ رأس ماله ثمانين دينارًا، وأبطل ما فضل[٥] وصنع يهود المرابون صنيعة مُكْرَهين.

وأعطى النبي ﷺ سعد بن مُعَاذ سيف سلام بن أبي الحُقَيْق، وكان سيفًا له ذكر عندهم[٦]، وكان من جملة غنائم بني النضِيْر.

ولجأ سلام إلى خَيْبَر، فكان من يهود الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغَطَفان

---

(١) جُنَّة: وقاية. يجتنُّون بها؛ أي: يستترون.
(٢) يتعنتونه؛ أي: يشقُّون عليه، ويحاولون إنزال العنت به.
(٣) سيرة ابن هشام (١٣٣/٢، ١٣٤).
(٤) مغازي الواقدي (٣٧٣/١).
(٥) مغازي الواقدي (٣٧٤/١).
(٦) مغازي الواقدي (٣٧٩/١).

وبني قُرَيْظَة[1] ، فكانت غزوة الخندق ثمرة من ثمرات حقدهم وعملهم الدائب على الإِسلام، وقالوا: «**إننا سنكون معكم حتى نستأصله**»، وزعمت لقريش أن دين قريش خير من الإِسلام[2] .

لقد كان سلام بن أبي الحُقَيْق من أخطر أعداء النبي ﷺ والإِسلام والمسلمين، وكان لا بد من وضع حد لنشاطه المخرِّب، فقد كان لا يُريح ولا يَسْتَريح، ولكن القضاء عليه لم يكن سهلًا ميسورًا، وبخاصة وهو في حصْنه الحصين، بين أهله وذويه الأقوياء، في وسط خَيْبَر المحصنَة ذات الحصون والقلاع، التي يحميها عشرة آلاف مقاتل[3] ، والتي تستطيع إرسال ثلاث آلاف مقاتل فورًا[4] ، فلا بد من أن يوكل أمره إلى بطل مقدام، وكان هذا البطل هو عبداللَّه بن عَتِيك.

❑ سرية عبداللَّه بن عتيك رضي الله عنه

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «بعث رسول اللَّه ـ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلمَ ـ إلى أبي رافع اليهودي رجالًا من الأنصار، فأمر عليهم عبداللَّه بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول اللَّه ويُعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم قال عبداللَّه لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لَعَلِّي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخلَ الناس فهتف به البواب: يا عبداللَّه إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علال له، فلما ذهب عنه أهل سَمَرِهِ صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أُغلقت عليَّ من داخل قلت: إن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/١٩٠).
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٢٢٩، ٢٣٠).
(٣) مغازي الواقدي (١/٣٧٣).
(٤) مغازي الواقدي (١/٣٩٣).

القوم إن نُذِروا بي لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت. فقلت: أبا رافع قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئًا، وصاح فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل إن رجلًا في البيت ضربني قبلُ بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره؛ فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته، فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ـ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلمَ ـ فحدثته، فقال لي: «**ابسط رجلك**» فبسطت رجلي، فَمَسَحَهَا فكأني لم أشتكها قط»[١].

قال اللواء/ محمود شيت خطاب عن هذه السرية: «كانت في رمضان من سنة ست الهجرية، وكانت الأوس قبل غزوة «**أُحُد**» قد قتلت اليهودي كعب بن الأشرف في عداوته رسول اللَّه ﷺ[٢]، وكانت الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحول؛ لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول اللَّه ﷺ غَنَاء[٣] إلا قالت الخزرج: واللَّه لا تذهبون بهذه فَضَلًا علينا عند رسول اللَّه ﷺ في الإسلام، فلايَنْتَهُونَ حتى يُوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

ولما أصابت الأوس كَعْب بن الأشرف في عداوته رسول اللَّه ﷺ، قالت

(١) رواه البخاري (٤٠٣٩).

(٢) الدرر (١٩٥).

(٣) غَناء: منفعة، ودفع مكروه عنه، وجلب فائدة.

الخزرج: واللَّه لا تذهبون بها فضلًا علينا أبدًا.

وتذاكر الخزرج: مَنْ رجلٌ لرسول اللَّه ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحُقَيْق، وهو بخَيْبَر، فاستأذنوا رسول اللَّه ﷺ في قتله، فأذن لهم، فخرج إليه خمسة نفر من الخزرج، كلهم من بني سَلِمَة، وهم: عبداللَّه بن عَتِيك، وعبداللَّه بن أُنَيْس، وأبو قَتَادة الحارث بن رِبْعِي، ومَسْعود بن سِنَان، وخَزاعِي بن الأسوَد[1] حليف لهم من المسلمين من أَسْلَم.

وأمَّر رسول اللَّه ﷺ عليهم عبدَ اللَّه بن عَتِيك، ونهاهم عن قتل النساء والصبيان، فنهضوا حتى أتوا خيبر ليلًا.

وكان سَلام ساكنًا في دار في جماعة من يهود، فلم يَدَعُوا بيتًا في الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان سَلام في عِلِّية له إليها عَجَلَة[2]، فأسندوا فيها[3] حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا عليه، فخرجت إليهم امرأته فقالت: «**مَنْ أنتم؟**»، قالوا: «**ناس من العَرَب نلتمس الميْرَة**»، قالت: «**ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه**».

فلما دخلوا أغلقوا الباب على أنفسهم تخوفًا أن تكون دونه مُجَاولة[4] تحول بينهم وبينه، فصاحت امرأته فهموا بقتلها، ثم ذكروا نهي النبي ﷺ عن قتل النساء، فأمسكوا عنها، ثم تعاوروه بأسيافهم وهو راقد على فراشه، أبيض في سواد الليل كأنه قُبْطِية[5] مُلْقَاة، ووضع عبداللَّه بن عَتِيك سيفه في بطنه حتى أنفذه، كما تحامل عليه بالسيف عبداللَّه بن أُنيس في بطنه حتى أنفذه، وسلام يقول: قَطْنِي... قَطْنِي، أي حَسْبي حَسْبي.

---

(١) يسمى أيضًا الأسود بن الخزاعي؛ انظر: الإمتاع وتاريخ الخميس.

(٢) له إليها عجلة: المراد بالعجلة هنا: جذع النخلة، كانوا ينقرون في مواضع منه نقرًا بعضها فوق بعض، ثم يجعلونه؛ كالسلَّم يصعدون عليه إلى الغرف والأماكن العالية.

(٣) أسندوا فيها: علوا وارتفعوا؛ وتقول: أسند فلان إلى الجبل: إذا علا فيه وارتفع.

(٤) المجاولة: الحركة تكون بينه وبينهم.

(٥) القبطيَّة: ثوب يصنع بمصر أبيض من الكتان الرقيق، وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس.

وخرج أفراد السرية من حجرة سَلام، وكان عبدالله بن عَتِيك سَيئَ البصر، فوقع من الدرجة فَوُثِئَتْ[١] رجله وثئًا شديدًا، فحمله أصحابه حتى أتوا مَنْهَرًا من مناهِرِهم[٢]، فدخلوا فيه واستتروا.

وخرج أهل الآطام، وأوقدوا النيران في كل وجه، فلما يئسوا رجعوا إلى آطامهم.

وقال أفراد السرية: «**كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات؟**»، فرجع أحدهم ودخل بين الناس، فوجد امرأته ورجالَ يهود حوله، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول: «**أما والله! لقد سمعت صوت ابن عَتِيك، ثم أكذبتُ نفسي وقلت: أنَّى ابن عَتِيك بهذه البلاد؟**»، قال: «**ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه، ثم قالت: فاظ[٣] وإلهِ يهود! فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسي منها**».

وقد حدَّث الذي ذهب يستطلع موت سَلام أصحابه بحديثه هذا بعد عودته إليهم من مهمته الاستطلاعية، فأيقنت السرية بهلاكه.

واحتمل أفراد السرية عبدَ الله بن عَتِيك، وقدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بقتل سَلام، واختلفوا عنده في قتله؛ فكلهم يدعيه، فقال رسول الله ﷺ: «**هاتوا أسيافكم**»، فنظر إليها، فقال لسيف عبد الله بن أُنَيْس: «**هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام**»[٤].

قال حسان بن ثابت وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سَلام بن أبي

---

(١) وثئت يده: شبه الفسخ في المفصل، أصاب العظم شيء ليس بالكسر. وقال بعض أهل اللغة: الوثء: تصدُّع في اللَّحم لا في العظم.

(٢) المنهر: مدخل الماء من خارج الحصن إلى داخله.

(٣) فاظ: مات؛ قال الرَّاجز: «لا يَدْفِنون عنهم مَنْ فاظا».

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٣١٤ - ٣١٦)، والدرر (١٩٥، ١٩٦)، جوامع السيرة (١٩٨ - ٢٠٠)، وطبقات ابن سعد (٢/٩٠، ٩١)، وانظر: مغازي الواقدي (١/٣٩١ - ٣٩٥)، وابن الأثير (٢/١٤٦ - ١٤٨).

الحُقَيْق:

لِـلـهِ دَر عِـصَـابَـة[١] لاقَـيْـتَـهُـمْ   يا ابنَ الحُقَيْقِ وأَنْتَ يا ابنَ الأَشْرَفِ
يَسْرون بالبيضِ الخِفَافِ إليكُمْ   مَرَحًا كأسدٍ في عَرِيْنٍ مُغْرِفِ[٢]
حتى أتوكُم في مَحَل بلادِكُمْ   فَسَقَوْكُمْ حَتْفًا بِبِيضٍ ذُففِ[٣]
مُسْتَنْصِرِينَ لِنَصْر دِينِ نَبِيهم   مُسْتَصْغِرين لكل أمرٍ مُجْحِفِ[٤]

وهكذا تخلص المسلمون من عدو لدود[٥]، وكان إقدام عبدالله وإقدام سريته إقدامًا فذًّا بمعنى الكلمة.

كما قلنا من قبل: إن أكثر أصحاب المغازي والسير وعلى رأسهم محمد بن إسحاق يرون أن الفدائيين الخمسة كلهم اشتركوا مع قائدهم عبدالله بن عتيك في القضاء على الشيطان اليهودي، وأن الذي أثبت أبا رافع وقضى عليه هو عبدالله بن أُنيْس.

وعلى هذا كل أصحاب الكتب الستة والسير عدا البخاري الذي ذكر أن قاتل أبي رافع هو عبدالله بن عتيك، لا عبدالله بن أنيس، ولم يذكر البخاري أن بقية الفدائيين لم يدخلوا الحصن.

وليس هناك تناقض بين الروايتين في اشتراك الفدائيين الخمسة في قتله «أما جاء في صحيح البخاري من أن ابن عتيك قال لبقية رجاله: ابقوا مكانكم حتى أنظر،

---

(١) العصابة: الجماعة.

(٢) يَسْرُون: يسيرون ليلًا. والبيض الرقاق: السيوف. ومرحًا: يروى بفتح الميم والراء جميعًا، وهو مصدر قولك: مَرِحَ فلان فهو مَرِحٌ؛ أي: نشط؛ وَالْمَرَحُ: النشاط، ويروى بضمِّ الميم وسكون الراء، فهو جمع مَرِح ـ بِزِنَةِ كَتِف ـ؛ وهو النَّشيط. والأُسْدُ: جمع أسد بفتحتين. والعرين: الغابة؛ وهي: موضع الأسد. والمغرف: الذي الْتَفَّتْ أغصانه.

(٣) ذُفَّف ـ بضم الذال وتشديد الفاء مفتوحة ـ: السريعة القتل؛ تقول: ذففت على الجريح: إذا أسرعت في قتله ولم تمهله.

(٤) الأمر المجحف: الذي يذهب بالنفوس والأموال.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/٣١٦، ٣١٧).

فليس فيه ما ينفي اشتراكهم معه في العملية، إذ يحتمل أنه بعد أن نظر وقام بالاستكشاف رجع وأخذهم معه كقائد مسئول، وأنه كان يتحدث بلسان القائد الذي يُنسَب إليه فعل كل شيء حتى وإن لم يكن هو الذي فعل كل شيء..

كما أن عدم ذكر دور بقية الفدائيين في رواية البخاري لا ينفي اشتراكهم، إذ يحتمل أن يكونوا ظلوا كالحرس يحمون ظهر قائدهم حتى قام بالقضاء على أبي رافع..

أما قول ابن عتيك في رواية البخاري: ثم أتيت أصحابي أحجل.. إلخ، فلا ينفي - أيضًا - اشتراكهم مع قائدهم في العملية؛ إذ لا يستبعد أن يكونوا قد سبقوه، فخرجوا قبله وتأخر هو بسبب ما حدث له من كسر في رجله، ولأن القائد عند الانسحاب عادة يكون آخر من ينسحب.

بهذا يتضح أنه لا تناقض ولا تباين يُذْكر بين الروايتين»[1] إلا في اسم قاتل أبي رافع؛ أي: من أجهز عليه في النهاية.

قال ابن سعد يصف مطاردة اليهود للفدائيين الخمسة:

«وصاحت امرأته، فتصايح أهل الدار، واختبأ القوم في بعض مناهر خيبر... وخرج الحارث أبو زينب[2] في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران «أي: بالمشاعل في ظلام الليل» **فلم يروهم، فرجعوا، ومكث القوم** «أي الفدائيون» في مكانهم يومين حتى سكن الطلب، ثم خرجوا مقبلين إلى المدينة»[3].

أبَا رافعٍ لا يَرفَعُ اللهُ طاغيا ... ولا يَدَعُ الخَصْمَ المُشاغِبَ نَاجيَا
جمعتَ مِن الأحزابِ ما شِئتَ تَبتغي ... لنفسِكَ من تلكَ العقابيلِ شَافيا[4]

---

(١) موسوعة معارك الإسلام «خيبر»، ص (٩٣، ٩٤).

(٢) الحارث أبو زينب هذا فارس يهودي شجاع مشهور.. كان أحد الفرسان الذين قُتِلُوا مبارزة أمام حصن مرحب.

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/٩١).

(٤) العقابيل: الشدائد وبقايا العلة أو العداوة، جمع العقبول والعقبولة.

وَرُحتَ تَصُب المالَ في غيرِ هِينةٍ ... تُريدُ بدينِ المسلمين الدواهيا[١]
هو ابنُ عتيكٍ إن جَهِلتَ وصَحبُه ... فلستَ بلاقٍ من حِمامِكَ واقيا[٢]
يَدُب وقد جُن الظلامُ مُقنعًا ... يُريدُك مُغتالًا ويلقاكَ غازيًا
كأن حِمارَ الحصنِ أُوتيَ رُشدَهُ ... فأجمعَ ألا يصحبَ الدهرَ غاويا
أعان عليكَ السيفَ يكرهُ أن يرى ... دمًا فاجرًا في مَسْبَح الكُفر جاريا
يقول له البوابُ مالك جالِسًا ... وقد دخل الرهطُ الذي كُنتَ رائيًا؟[٣]
إلى الحصنِ فَادْخُلْ لَسْتُ تاركَ بابِه ... لأجلِكَ مفتوحًا ودَعْنِي لما بيا
فقامَ ولو يدري خَبِيئةَ نَفسه ... أعض وَرِيدَيْهِ الحُسامَ اليمانيا[٤]
ولاحت لِعيَنْيهِ الأقاليدُ فَانْتَحى ... يضُمُّ عليها مِخلَب الليثِ ضَاريا[٥]
فلما غَفا السمارُ أقبلَ صَاعِدًا ... إلى الأخرقِ المغرور يَعلو المراقيا[٦]
سَقاه بِحَد الهَنْدوَانِي حَتْفَهُ ... فَبُورِكتَ من سيفٍ وبُورِكَ ساقيًا

❊ ❊ ❊

هَوتْ رِجلُه من زَلةٍ قَذفت بهِ ... إلى الأرضِ في ظَلماءَ تُخفي الدرارِيا[٧]
فما بَرحتْ حتى أُصِيبَ صَميمُها ... بِصَدْعٍ فأمَسى وَاهِنَ العَظمِ واهيا
وباتَ يُواري نَفسَهُ في مكانِه ... ويزورُّ في بُرديه يَخشَى الأعاديا[٨]

---

(١) الهينة: السكينة والوقار.
(٢) الحمام: الموت.
(٣) ظنَّه البواب من أهل الحصن؛ فقال له: إن كنت تريد أن تدخل فادخل؛ فإني أريد أن أغلق الحصن؛ فدخل فاختبأ يتربص لحاجته.
(٤) يريد بواب الحصن. وَأَعَضَّهُ الْحُسَامَ: جَعَلَ الْحُسَامَ يَعضُّهُ.
(٥) الأقاليد: المفاتيح.
(٦) الأخرق: الأحمق. والمراقي: الدرجات، جمع المرقى والمرقاة.
(٧) قال ابن عتيك رضي الله عنه يذكر ما حدث له بعد قتل أبي رافع: فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى الأرض؛ فوقعت؛ فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة ثم خرجت، فكمنت في موضع، وأوقدت اليهود النيران وذهبوا في كل وجه يطلبوني، حتى إذا آيسوا رجعوا، فلما صاح الديك صعد الناعي على السور ينعي أبا رافع، قال فأتيت أصحابي أحجل.. إلخ.
(٨) يزوَّر؛ أي: يميل وينكمش للاستخفاء.

تَنادَوْا فقالوا فاتكٌ من عَدونا ... رَمى السَنَد الأعلى فلا كان راميا
مَتى جاءَ كيفَ انسل في غَسَقِ الدجَى؟ ... وماذا جَرى من كان للحصنِ حاميا؟[١]
مِنَ الجِن هذا أم من الإنس يا لَهُ ... مُصابًا يُنسِّينا الخُطوبَ الخواليا؟
وراحوا سِراعًا مُهطِعينَ يَهيجُهم ... طِلابُ الذي ما زال في الحِصْنِ ثاويا[٢]
فما تركوا في أرضِ خَيبرَ بقعةً ... ولا غادروا مما هُنالِكَ واديا
وعادُوا يَعُضونَ البَنان ولو رَأَوْا ... مكانَ الردى المجتاحَ أَلْفَوْهُ جَاثيا
فما زالَ حتى أَذَّنَ الديكُ وانْبَرى ... مِنَ القومِ داعٍ يَرفعُ الصوتَ ناعيا
هُنالِكَ وافى صَحبُه فتحدبُوا ... عليه وكان الظن أن لا تلاقيا[٣]
فَتًى يركبُ الأهوالَ لا يَتقِي الردى ... ولا يتوقى الحتفَ يَلقاهُ عاديا
قُصارَاهُ أن يَرعَى رَبهِ ... ويلقى رسولَ اللهِ جَذْلانَ راضيا[٤]
شَفَى رِجلَه مما بها فكأنها ... بِخَيبرَ لم تُكْسَرْ ولم يَكُ شاكِيا

* * *

أبا رافعٍ ماذا لَقِيتَ بحُفرةٍ ... طَوَتْ منكَ جبارًا قضَى العُمرَ عاتيا؟
عَكفتَ على البَغْيِ المُذمِ والأذَى ... فَذُبْ أسفًا واعْكُفْ على النارِ صَاليا

استشهاد البطل ابن عتيك يوم اليمامة

واستشهد عبدالله بن عَتِيك يوم «**اليَمامة**»[٥] التي كانت بين المسلمين في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقيادة خالد بن الوليد وبين المرتدين بقيادة مُسَيْلَمَة الكذاب،

---

(١) غسق الدجى: ظلمة الليل.
(٢) المهطع: من ينظر في ذلٍّ وخضوع.
(٣) تحدَّب عليه: تعطَّف وحنا.
(٤) القُصارى: الجهد والغاية، وقصاراه أن يفعل كذا؛ أي: غاية جهده وآخر أمره وكل مستطاعه هو أن يفعل كذا.
(٥) اليمامة: قرية في نجد، بينها وبين البحرين عشرة أيام، وتسمى. جَوًّا والعَروض؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٨/٥١٥، ٦/٥١٦)، وهي في منطقة الرياض حاليًا.

في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة الهجرية[١]، فاستشهد من الصحابة أربع مئة وخمسون رجلًا، وقيل: استشهد من الصحابة ست مئة نَفْس[٢]، وكان عبداللَّه بن عَتِيك أحد الصحابة الشهداء في هذه المعركة[٣]، وكان من بين الصحابة الشهداء خمسون أو ثلاثون من حملة القرآن[٤].

والواقع أن معركة اليمامة كانت سنة إحدى عشرة الهجرية[٥] لا سنة اثنتي عشرة الهجرية.

وذُكر أنه شهد معركة «صِفين» مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٦]، والصحيح هو أنه استُشهد يوم اليَمَامة في خلافة أبي بكر سنة اثنتي عشرة الهجرية[٧]؛ لإجماع مؤرخي سيرته على ذلك، واسمه ورد في قائمة الشهداء التفصيلية في معركة اليمامة[٨].

* * *

(١) العبر (١٣/١).

(٢) العبر (١٤/١).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٨٠/١).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٧٧/١).

(٥) الطبري (٢٨١/٣)، وابن الأثير (٣٦٠/٢).

(٦) أُسْد الغابة (٢٠٤/٣)، والاستيعاب (٩٤٧/٣)، والإصابة (١٠١/٤).

(٧) الإصابة (١٠١/٤).

(٨) تاريخ خليفة بن خياط (٧٧/١ - ٨٣).

(٢٥)

أبو قَتَادَة بن رِبْعِي الأنصاري الخَزْرَجِي

فارس رسول الله ﷺ وأحد قادة سراياه

أبو قَتَادَة بن رِبْعِي الأنصاري الخَزْرَجِي

فارس رسول الله ﷺ وأحد قادة سراياه

هو أسد من أُسْد اللَّه كما شهد له الصديق أبو بكر والفاروق عمر، وما أحلاها من شهادة، هو أبو قَتَادَة بن رِبْعِي بن بَلْدُمَة بن خُنَاس بن سِنَان[١] بن عبَيْد بن عَدِي بن غَنْم بن كَعْب بن سَلِمَة[٢] بن سَعْد بن عَلِي بن راشِد بن سَارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج[٣].

اسمه الحارث، وقيل: النعمان، وقيل: عمرو[٤]، والمشهور أن اسمه الحارث[٥]، وهو مشهور بكنيته[٦].

وقد اختلف في شهوده بدرًا، فقال بعضهم: كان بدريًّا، ولم يذكره بعضهم في البدريين[٧]، ولا وجود لاسمه في قائمة الذين شهدوا بَدْرًا في المصادر المعتمدة، واختلاف المؤرخين في شهوده بدرًا يدل على أنه أسلم قديمًا، فهو من المسلمين الأولين من الأنصار.

وحسبه أنه نال شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ وشرف قيادة قسم من سراياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد نوه رسول اللَّه ﷺ بفضله فعن سلمة بن الأكوع عن النبي ﷺ: «**خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة بن الأكوع**» أخرجه مسلم، وأحمد، والطبراني.

---

(١) الاستبصار (١٤٦).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٦٠).
(٣) أُسْد الغابة (٣٢٧/١).
(٤) طبقات ابن سعد (١٥/٦).
(٥) الإصابة (١٥٥/٧).
(٦) أُسْد الغابة (٣٢٧/١).
(٧) أُسْد الغابة (٢٧٤/٥).

جهاده في الغزوات والسرايا

شهد أبو قتادة غزوة أُحُد[١] التي كانت في شهر شوال من السنة الثالثة الهجرية[٢]. ولما قُتِل حَمْزَة بن عبد المطلب عم رسول اللَّه ﷺ ومُثل به حزن عليه النبي ﷺ، فجعل أبو قَتادَة يريد أن ينال من قريش؛ لِمَا رأى من غم رسول اللَّه ﷺ في قتل حمزة وما مُثل به، وكان النبي ﷺ يشير إلى أبي قتادة: أن اجلس ثلاثًا، وكان قائمًا، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أحتسبُك عند الله**»، وقال: «**يا أبا قتادة! إن قريشًا أهل أمانة، مَن بغاهم العَواثِر**[٣] **كبهُ اللّه لِفيِه، وعسى إنْ طالت بك مدَّة أن تحقِر عملك مع أعمالهم وفَعالك مع فَعالهم، لولا أن تَبْطَرُ قريش لأَخبرتُها بما لها عند الله**». فقال أبو قَتادة: «**واللَّه يا رسول الله! ما غضبتُ إلا لله ولرسوله حين نالوا منه ما نالوا**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**صدقتَ، بئس القومُ كانوا لنبيهم**»[٤].

وشهد غزوة «**حَمْراء الأَسَد**»[٥]، وكانت يوم الأحد لثمانٍ من شوال من السنة الثالثة الهجرية، وقد عاد النبي ﷺ بالمسلمين إلى المدينة يوم الجمعة بعد أن غاب عنها خمسة أيام.

فقد صلى الصبح يوم الأحد، فلما انصرف من الصبح أمر بِلالًا أن ينادي: إن رسول اللَّه ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا مَنْ شَهد القتال بالأمسِ.

وخرج رؤساء الأوس والخزرج والمهاجرين يأمرون رجالهم بالمسير، والجراح في الناس فاشية.

---

(١) الاستيعاب (١٧٣١/٤)، وأسْد الغابة (٢٧٤/٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٦/٢)، والدرر (١٥٣)، وجوامع السيرة (١٥٦).

(٣) العَواثر: جمع عاثِر؛ والعاثر: حِبَالَةُ الصَّائد.

(٤) مغازي الواقدي (٢٩٠/١، ٢٩١).

(٥) حمراء الأسد: على ثمانية أميال ـ وقيل: عشرة ـ من المدينة، على يسار الطريق إذا أردتَ ذا الحليفة. انظر: شرح المواهب اللدنية (٧٠/٢).

وجاء أبو قَتَادة بني سَلِمَة وهم يداوون الجِرَاح، فقال: **«هذا منادي رسول اللَّه ﷺ يأمركم بطلب عدوكم»، فوثبوا إلى سلاحهم وما عرجوا على جراحاتهم، فخرج من بني سَلِمَة أربعون جريحًا، حتى وافوا النبي ﷺ عليهم السلاح، قد صفوا لرسول اللَّه ﷺ، فلما نظر رسول اللَّه ﷺ إليهم والجراح فيهم فاشية قال: «اللهم ارْحَمْ بني سَلِمَة»**[(١)].

وشهد سرية أبي سَلَمَة بن عبد الأسد إلى «**قَطَن**»[(٢)] التي كانت في شهر المحرم من السنة الرابعة الهجرية[(٣)] ففرقت السرية شمل المشركين وغنموا إبلًا وشاءً[(٤)].

وشهد غزوة «**بَدْر**» الموعد التي كانت في شهر شعبان من السنة الرابعة الهجرية، فأخلفت قريش موعدها؛ خوفًا من لقاء المسلمين[(٥)]. وكان أبو قتادة في تلك الغزوة فارسًا[(٦)].

وشهد سرية عبداللَّه بن عَتِيك لقتل اليهودي أبي رافع سَلام بن أبي الحُقَيْق النضْرِي[(٧)]، وكانت في شهر رمضان من السنة السادسة الهجرية، فقتلوا أبا رافع؛ لأنه كان يحرض المشركين على المسلمين[(٨)]. ونسي أبو قَتادة قوسه، فذكرها بعدما نزل، فقال له أصحابه: «**دع القوس**»، فأَبى، فرجع وأخذ قوسه وعاد إلى أصحابه[(٩)]، دون أن يخشى حشود يهود الذين تجمعوا لمقتل أبي رافع.

---

(١) مغازي الواقدي (٣٣٤/١، ٣٣٥).
(٢) قطن: جبل بناحية فيد، به ماء لبني أسد بن خزيمة؛ انظر: طبقات ابن سعد (٥٠/٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٥٠/٢).
(٤) انظر: التفاصيل في «مغازي الواقدي» (٣٤٠/١ - ٣٤٦).
(٥) انظر: التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥٩/٢، ٦٠).
(٦) مغازي الواقدي (٣٨٧/١).
(٧) مغازي الواقدي (٣٩١/١).
(٨) انظر: التفاصيل في طبقات ابن سعد (٩١/٢، ٩٢).
(٩) مغازي الواقدي (٣٩٣/١).

وشهد غزوة «**المُرَيْسِيع**»[١] فارسًا من فرسان المسلمين[٢] التي كانت في شعبان من السنة الخامسة الهجرية[٣].

وكان يحمل لواء المشركين في هذه الغزوة صَفْوان ذو الشُّقْر، فشد عليه، فكان الفتح، وكان شعار المسلمين في تلك الغزوة: «**يا منصور، أَمِتْ أَمِتْ**»[٤].

وشهد غزوة بني قُرَيْظَة فارسًا[٥]؛ التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة الهجرية[٦].

كما شهد غزوة ذي «**قَرَد**»[٧] فارسًا، وكانت في شهر ربيع الأول من السنة السادسة الهجرية[٨]، فقتل مَسْعَدة بن حَكَمَة بن مالك بن حُذَيفة الفِزَاري وحبيب بن عُيَيْنَة بن حِصْن، وفي هذه الغزوة نودي: «**يا خيل الله اركبي**»، ولم يقُل ذلك قبلها[٩].

قال أبو قتادة: «**إني لأغسل رأسي، قد غسلت أحد شِقيه، إذ سمعت فرسي جَرْوَة تصهل وتبحث بحافرها، فقلت: هذه حرب قد حَضَرت! فقمت ولم أغسل شِق رأسي الآخر، فركبتُ وعلي بردة لي، فإذا رسول الله ﷺ يصيح: الفَزَعَ! الفَزَعَ! قال: وأدركت المِقْداد بن عمرو، فسايرته ساعة، ثم تقدمه فرسي وكان أجود**

---

(١) المريسيع: ماء لخزاعة، بينه وبين الفرع نحو يوم؛ انظر: وفاء الوفا (٢/٣٧٣).
(٢) مغازي الواقدي (١/٤٠٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٦٢).
(٤) مغازي الواقدي (١/٤٠٧).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٤٩٨).
(٦) طبقات ابن سعد (٢/٧٤).
(٧) ذو قرد: على نحو يوم من المدينة مما يلي غطفان، ويقال: هو بين المدينة وخيبر على يومين من المدينة؛ انظر: وفاء الوفا (٢/٣٦٠).
(٨) طبقات ابن سعد (٢/٨٠).
(٩) أنساب الأشراف (١/٣٤٩)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٢٦)، والدرر (١٩٨)، ومغازي الواقدي (٢/٥٤٠)، وجوامع السيرة (٢٠٢).

من فرسه، وقد أخبرني المِقْداد ـ وكان سبقني ـ بقتل مَسْعَدَة مُحْرِزًا، فقلت للمقداد: أنا أموت أو أقتل قاتل مُحْرِز». ولحقهم أبو قتادة، فوقف له مَسْعَدة، فحمل عليه أبو قتادة بالقَنَاة، فدق صُلبه وهو يقول: «**خذها وأنا الخَزْرَجِي!**»، فوقع مَسْعَدَة ميتًا، ونزل أبو قتادة، فسجاه ببردته، وجَنبَ فرسه معه، وخرج يُحْضِر في أثر القوم، حتى تلاحق الناس.

ولما مر الناس ونظروا إلى بُرْدَة أبي قَتَادة، عرفوها، فقالوا: هذا أبو قتادة قتيل! واسترجع أحدهم، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا، ولكنه قتيل أبي قتادة، وجعل عليه بردته؛ لتعرفوا أنه قتيله، فخلوا بين أبي قتادة وبين قتيله وسَلبه وفرسه**»، فأخذه كله[1].

وقال أبو قتادة: «لما أدركني النبي ﷺ يومئذ ونظر إلي قال: «**اللهم بارك في شَعْرِه وبَشَرِه**». وقال: «**أفلح وجهك!**» قلت: ووجهك يا رسول الله! قال: «**قتلت مَسْعَدَة؟**» قلت: نعم، فأعطاني يومئذ فرس مسعدة وسلاحه، وقال: «**بارك اللَّه لك فيه**»[2].

ومُحْرِز الذي قتله مَسْعَدَة، هو مُحْرِز بن نَضْلَة من بني أسد بن خُزَيْمَة، وكان حليفًا لبني عبد شمس[3].

وقال النبي ﷺ يوم ذي قَرَد: «**خير فرساننا أبو قتادة**»[4]، ومن يومها أصبح فارس النبي ﷺ[5].

ولله در القائل في هذه الغزوة مثنيًا على شجاعة وفروسية أبي قتادة:

وما بأبي قتادة في الرجال ... خَفَاءٌ حين تشتجرُ العوالي[6]

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٥٤٤)، وانظر: الاستبصار (٣٣٠).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٤٥).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٥٤٩)، والاستيعاب (٣/١٣٦٤).

(٤) الاستبصار (١٤٦).

(٥) جوامع السيرة (٢٨)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/٨٤).

(٦) تشتجر العوالي: تشتبك الرماح.

وحين يُقال أين ذوو النطاح؟

أصاب السهْمُ وجهًا منه نضْرا وأبصره النبي فقال: صَبْرا

وعالَجه فأخرج منه شَرا وألقى نفثةً كَرَمًا وبِرا

فراح يَزِف في القوم الصحَاحِ(١)

تزود منه كنزًا ليس يفنى تزود دعوةً سعدًا ويُمنا

تزود رحمة وهدًى وأمْنا تزود ما أحب وما تمنى

وجاوز كل سُؤْلٍ واقتراح

شفيتَ أبا قتادة كل صادِ لهيف الصدرِ حرانَ الفُؤادِ

يبيتُ على أسى مِمن يعادي رسول اللّه في دين الجهادِ

وفي دنيا المُروءة والصلاح

غَنِمْت سلاحَ مسعَدة الشقِي وفُزت بطرْفِهِ(٢) فوْز التقي

عطاءٌ من جَوادٍ أريحي عطاء اللّه مِن يَدَي النبي

رسولِ اللّه أفضل مُسْتَماحِ(٣)

لقد أحدثتَ للأبطالِ شُغْلا وهَما ما أشد وما أجلا(٤)

سَقُوا مكروهه نهَلًا وعَلا(٥) ولولا فضلُ ربك ما تجلى

دَعَوْا إذ أبصروا البُرْدَ المُخَلى على الجسدِ الذي أوجعتَ قتلا

نَعَاءِ أبا قتادة إذْ تولى نعاءِ الفارسَ البطَل المُدِل(٦)

---

(١) يزف بمعنى يسرع.

(٢) الطرف: الكريم من الخيل.

(٣) استماحه: سأله العطاء.

(٤) لما قَتَلَ أبو قتادة مسعدة الفزاري، ألقى عليه برده فغطَّاه، فلما رآه المسلمون استرجعوا وقالوا: «قُتِلَ أبو قتادة»؛ فقال النبي ﷺ: «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل له، وَضَعَ عليه برده؛ ليعرف أنه صاحبه ـ أي: قاتله ـ»؛ فخرج عمر بن الخطاب حتى جاءه، وكشف البرد عن وجهه؛ فإذا هو مسعدة.

(٥) النهل: الشرب الأول، والعلُّ: الشرب الثاني.

(٦) نَعَاءِ ـ بالبناء على الكسر؛ كـ«نَزَالِ» ـ: اسم فعل للأمر بمعنى: انع؛ قال الأصمعي: كانت العرب إذا مات منها ميت له قَدْرٌ، ركب راكب فرسًا، وجعل يسير في الناس ويقول: نعاء فلانًا؛ أي: انعه وأظهر خبر وفاته.

وضجوا بالتي في الخطب تُتْلَى فتنفع من تجلد أو تسلى[١]
فقال محمد يا قومُ كلا أخوكم لم يزل حيًّا فمهلا
كفاكُمْ ربكم فقدًا وتكلا فأشرقت الوجودُ وكان فضلا
طَوَى قَرْحَى القلوبِ على ارتياح[٢]

وشهد غزوة الحُدَيْبية فارسًا[٣]، وكانت في شهر ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية[٤].

قال أبو قتادة: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في عُمَرَة الحُدَيْبية، ومِنا المُحِل والمُحْرِم، حتى إذا كنا بالأَبْواءِ[٥]، وأنا مُحِل، رأيتُ حِمارًا وحشيًّا، فأسرجت فرسي، فركبت، فقلت لبعضهم: ناولني سوطي، فأبى أن يناولني، فقلتُ: ناولني رُمْحِي! فأبى، فنزلت فأخذَت سوطي ورمحي، ثم ركبت فرسي، فحملت على الحمار، فقتلته، فجئت به أصحابي المُحْرِمِينْ والمُحِلين، فشك المحرمون في أكله، حتى أدركنا رسول اللَّه ﷺ، وكان تقدمنا بقليل، فأدركناه، فسألناه عنه، فقال: أمعكم منه شيء؟ قال: فأعطيته الذراع، فأكلها حتى أتى على آخرها وهو مُحْرِم»، فقيل لأبي قتادة: «**وما خلفكم عن رسول اللَّه ﷺ؟**»، فقال: «**طبخنا الحمار، فلما نَضِجَ لحقناه وأدركناه**»[٦].

❑ أبو قتادة يفضح المنافق الجد بن قيس:

وقد صاول أبو قتادة المنافقين من قومه في هذه الغزوة مصاولة لا هوادة فيها، قال: «لما نزلنا الحُدَيْبية، والماء قليل، سمعت الجَدَّ بن قيسٍ[٧] يقول: ما كان

(١) كلمة الاسترجاع: إنا لله وإنا إليه راجعون.
(٢) قرحى: جمع قريح؛ والقريح: الجريح.
(٣) مغازي الواقدي (٢/٥٧٤).
(٤) طبقات ابن سعد (٢/٩٥).
(٥) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا.
(٦) مغازي الواقدي (٢/٥٧٦).
(٧) كان الجد بن قيس منافقًا. انظر: الاستبصار (١٤٥).

خروجنا إلى هؤلاء القوم بشيءٍ! نموت من العطش عن آخرنا! فقلت: لا تَقُل هذا يا أبا عبدالله، فلِمَ خرجت؟ قال: خرجت مع قومي. قلت: فلِمَ خرجتَ تخرج مُعْتَمِرًا؟ قال: لا واللهِ، ما أَحْرَمتُ. قال أبو قتادة: ولا نويتَ العُمْرَة؟ قال: لا! فلما دعا رسول اللَّه ﷺ الرجل فنزل بالسَّهم، وتوضَّأ رسول اللَّه ﷺ في الدَّلْو ومجَّ فاه فيه، ثمَّ ردَّه في البئر، فجاشت البئر بالرَّواء، فرأيت الجَدَّ مادًّا رجليه على شفير البئر في الماء، فقلت: أبا عبدالله! أين ما قلتَ؟ قال: إنما كنت أمزح معك، لا تذكر لمحمَّد مما قلتُ شيئًا. قال أبو قتادة: وقد كنت ذكرته قبل ذلك للنبيِّ ﷺ، قال: فغضب الجَدُّ، وقال: بقينا مع صبيانٍ من قومنا لا يعرفون لنا شرفًا ولا سِنًّا، لبَطْنُ الأرض اليومَ خير من ظهرها! قال أبو قتادة: وقد كنت ذكرت قوله للنبيِّ ﷺ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ابنه خير منه**»[1]! قال أبو قتادة: فلقيني نفر من قومي، فجعلوا يؤنبونني ويلومونني حين رفعت مقالته إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلت لهم: بئس القوم أنتم! ويحكم! عن الجدِّ بن قيس تذبُّون؟ قالوا: نعم، كبيرنا وسيِّدنا. فقلت: قد واللهِ طَرَح رسول اللَّه ﷺ سؤدده عن بني سَلِمَة، وسوَّد علينا بِشْر بن البَراء بن مَعْرور[2]، وهدمنا المنامات التي كانت على باب الجَدِّ وبنيناها على باب بِشْر بن البَراء، فهو سيِّدنا إلى يوم القيامة.

فلما دعا رسول اللَّه ﷺ إلى البيعة، فرَّ الجدُّ بن قيس، فدخل تحت بطن البعير، فخرجت أعدو وأخذت بيد رجل كان يُكلِّمني فأخرجناه من تحت بطن البعير، فقلت: ويحك! ما أدخلك ههنا؟ أفرارًا مما نزل به روح القُدُس؟ قال: لا، ولكني رُعِبْتُ وسمعتُ الهَيْعَة[3]. قال أبو قتادة: لا نضحت[4] عنك أبدًا، وما فيك خير».

---

(١) ابنه عبدالله بن الجَدِّ بن صخر بن قيس بن خنساء بن سنان، شهد بدرًا وأُحدًا؛ انظر: التفاصيل في «الاستبصار» (١٤٥).

(٢) انظر: سيرته في «الاستبصار» (١٤٢).

(٣) الهيعة: الصوت تفزع منه وتخافه من عدو؛ انظر: النهاية (٤/٢٦١).

(٤) نضح عنه: ذَبَّ ودفع؛ انظر: القاموس المحيط (١/٢٥٣).

ولما مرض الجَدُّ بن قيس ونزل به الموت، لزم أبو قَتَادة بيته فلم يخرج حتى مات ودُفِن، فقيل له في ذلك، فقال: «**واللَّه ما كنتُ لأُصَلِّيَ عليه وقد سمعته يقول يوم الحُدَيْبِية كذا وكذا، وقال في غزوة تَبُوْك كذا وكذا**[١]، **واستحييت من قومي يرونني خارجًا ولا أشهده**».

ويقال: خرج أبو قتادة إلى ماله بالوادَيَيْن، فكان فيه حتى دُفن الجَدُّ، ومات الجَدُّ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه[٢].

وشهد مع النبيِّ ﷺ غزوة القَضِيَّة[٣] التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة السَّابعة الهجريَّة[٤]، وقال: «**سلكنا في عُمْرَة القَضِيَّة على «الفُرْع»**[٥] وقد أحرم أصحابي غيري، فرأيت حمارًا وحشيًّا فشددت عليه فعقرته، فأتيت به أصحابي، فمنهم الآكل والتارك، فسألت النبيَّ ﷺ فقال: «**كُلْ!**»، قال أبو قتادة: «**ثمَّ حجَّ حجَّة الوداع، فأحرم من «البَيْدَاء»**[٦]، **وهذه العُمْرة من المسجد، لأنَّ طريقه ليس على البيداء**»[٧].

وشهد سرية مُؤْتَة[٨]، التي كانت في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجرية[٩]، ويبدو أنَّه أبلى في هذه السريَّة بلاءً حسنًا، فأثنى عليه النبيَّ ﷺ.

---

(١) قال للنبيِّ ﷺ في تبوك: «لا تفتني بينات الأصفر!!»، وكان يبغي الانصراف عن القتال؛ انظر: هامش الاستبصار (١٤٥) الرقم (٥٣٣) نقلًا عن جمهرة الكلبي.

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٩٠، ٥٩١).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٣٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٢٠).

(٥) الفرع: قرية من نواحي الرَّبذة عن يسار السُّقْيا، بينها وبين المدينة ثمانية بُرُد على طريق مكة، وقيل: أربع ليالٍ، وبين الفرع والمريسيع ساعة من نهار؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/٣٦٣).

(٦) اسم البيداء: اسم لأرض ملساء بين مكَّة والمدينة، وهي إلى مكَّة أقرب، تعدُّ من الشرف أمام ذي الحليفة؛ انظر: معجم البلدان (٢/٣٢٦).

(٧) مغازي الواقدي (٢/٧٣٣، ٧٣٤).

(٨) مغازي الواقدي (٢/٧٦٢).

(٩) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨).

كما روى أبو هُرَيرة فقال: «**خير الفرسان أبو قَتَادة، وخير الرَّجَّالة سَلَمَة بن الأكوع**»[١].

وهكذا لم يدَّخر أبو قتادة وسعًا في الجهاد، وكان له مواقف محمودة في الغزوات والسَّرايا.

والذي يتَّبع سير الحوادث في هذه الغزوات والسّرايا وتواريخ نشوبها، يجد أنَّ أبا قَتَادة قضى معظم وقته في الجهاد دفاعًا عن الإسلام والمسلمين، فكأنَّه لم يأخذ لنفسه قسطًا من الراحة.

❑ أبو قتادة فارس النبي ﷺ قائد سرية خَضِرَة[٢]

وكانت في شهر شعبان من السنة الثامنة الهجريَّة، إلى خَضِرَة، وهي أرض مُحَارب بنجدٍ، وكانت السريَّة مؤلفة من خمسة عشر رجلًا بقيادة أبي قتادة، إلى غَطَفان، وأمره ﷺ أن يسروا الليل، ويكمنوا النَّهار، ويشنُّوا الغارة، ولا يقتلوا النساء والصبيان.

وخطب أبو قتادة رجاله، فأوصاهم بتقوى اللَّه ﷻ، وألَّف بين كلِّ رجلين وقال: «**لا يُفارق كلُّ رجلٍ زميله حتى يُقتل أو يرجع إليَّ فيخبرني خبره، ولا يأتني رجلٌ فأسأل عن صاحبه فيقول: لا علم لي به! وإذا كبَّرتُ فكبِّروا، وإذا حملت فاحملوا، ولا تُمعنوا في الطلب**».

وهجمت السرية على الحاضر، فأحاطت بالمشركين، فصرخ رجل منهم: يا خَضِرَة! وقاتل منهم رجال، فقَتلوا مَنْ أشْرَف لهم، واستاقوا النَّعَم، فكانت الإبل مئتي بعير والغَنَم ألفي شاة، وسَبوا سبيًا كثيرًا، وجمعوا الغنائم، فأخرجوا الخُمس فعزلوه، وقسموا ما بقي على أهل السريَّة، فأصاب كلُّ رجل منهم اثنا عشر بعيرًا، فعُدل البعير بعشر من الغَنَم. وصارت في سهم أبي قتادة جارية وضيئة، فجاء

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٦٢).

(٢) خضرة: أرض محارب بنجد؛ انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٣٢)، ومعجم البلدان (٣/٤٤٧).

مَحْمِيَة بن جَزْء الزُّبيدي فقال: «**يا رسول الله! إنَّ أبا قَتادة قد أصاب في وجهه هذا جارية وضيئة، وقد كنتَ وعدتَني جاريةً من أوَّل فيءٍ يُفيء الله عليك**»، فاستوهبها من أبي قتادة رسولُ اللَّه ﷺ، فوهبها رسولُ اللَّه ﷺ لمَحْمِيَة بن جَزْء.

وغابوا في هذه السريَّة خمس عشرة ليلة[١].

لقد أحرز أبو قتادة في هذه الغزوة انتصارًا رائعًا. وكان من أهم عوامل انتصاره: مباغتة المشركين مباغتة كاملة بالزَّمان، إذ لم يكونوا يتوقَّعون هجوم المسلمين عليهم في ذلك الوقت، فلاذوا بالفرار.

❏ وقائد سرية بطن إِضَم[٢]:

وكانت في أول شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية إلى بطن إِضَم بقيادة أبي قَتادة في سرية مؤلفة من ثمانية رجال.

فلما هَمَّ رسول اللَّه ﷺ، بغزو أهل مكَّة، بعث أبا قتادة في ثمانية نفر سريةً إلى بطن إضَم، وهي فيما بين «**ذي خُشُب**»[٣] و«**ذي المَرْوَة**»[٤] وبينها وبين المدينة ثلاثة بُرُد؛ ليظنَّ ظانٌّ أنَّ رسول اللَّه ﷺ، توجَّه إلى تلك الناحية، ولأن تَذْهَبَ بذلك الأخبارُ.

وكان في تلك السريَّة مُحَلِّم بن جَثَّامَة اللَّيثِيّ، فمرَّ عامِر بن الأَضْبَط الأَشْجَعِيّ، فسلَّم بتحيَّة الإسلام، فأمسك عنه القومُ، وحمل عليه مُحَلِّم بن جَثَّامة فقتله وسلبه بعيره ومتاعه ووَطْبَ[٥] لَبَن كان معه. فلما لحقوا بالنبي ﷺ، نزل فيهم القرآن:

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٧٧ - ٧٨٠)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣٢، ١٣٣)، وأنساب الأشراف (١/ ٣٨١)، وعيون الأثر (٢/١٦١)، وانظر: ابن الأثير (٢/٢٣٣).

(٢) إضم: الوادي الذي فيه المدينة المنوَّرة، وهو وادٍ يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر، وأَعْلَا إضم التي تمرُّ دُوَيْنَ المدينة، وأرى أنه الوادي في قسمه الذي يمرُّ شمالي المدينة؛ لأن الغَرض من إرسال هذه السرية هو التعمية على غزوة فتح مكة.

(٣) ذو خشب: وادٍ على ليلة من المدينة؛ انظر: وفاء الوفا (٢/٢٩٩).

(٤) ذو المروة: قرية بوادي القرى، وقيل: بين ذي خشب ووادي القرى.

(٥) الوطب: سقاء اللَّبن خاصة؛ انظر: الصحاح (٢٣٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ﴾ [النساء: ٩٤].

وانصرف القوم ولم يلقوا جمعًا، حتى انتهوا إلى ذي خُشُب، فبلغهم أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى مكَّة، فأخذوا على «**بِيْن**»[١] حتى لحقوا النبيَّ ﷺ بـ«**السُّقْيا**»[٢]، فشهدوا معه فتح مكَّة[٣].

❑ وفي غزوة حُنَيْن: أبو قتادة أسد من أُسْد الله

شهد أبو قتادة بعد غزوة فتح مكة غزوة حُنَيْنٌ[٤] التي كانت في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجريَّة[٥].

وكان أبو قتادة يحدِّث قال: «لما التقينا كانت للمسلمين جَولة، فرأيت رجلين يقتتلان: مسلمًا ومشركًا، وقد علاه المشرك، فاستدرتُ حتى أتيته من ورائه، فضربته على حَبْل عاتقه، وأقبل عليَّ فضمَّني ضمَّة وجدت منها ريح الموت، وكاد أن يَقتلني لولا أنَّ الدم نزفه، فسقط وذفَّفتُ عليه ومضيت وتركت عليه سَلَبَه، ولحقت عمر بن الخطَّاب فقلت: «**ما بال الناس؟! قال: أَمْرُ الله. ثمَّ إنَّ النَّاس رجعوا، وقال رسول الله** ﷺ: «**مَنْ قتل قتيلًا له عليه بيِّنة فله سَلَبه**». فقمت فقلت: مَنْ يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال: «**مَنْ قتل قتيلًا عليه بيِّنة فله سَلَبه**»، فقمت فقلت: مَنْ يشهد لي؟ ثم جلست، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قتل قتيلًا له عليه بيِّنة**

(١) بين: وادٍ قرب المدينة؛ انظر: معم البلدان (٢/٣٤٣).
(٢) السُّقيا: قرية جامعة من عمل الفُرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلًا؛ انظر: معجم البلدان (٥/ ٩٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٣٣)، ومغازي الواقدي (٢/٧٩٦، ٧٩٧)، وأنساب الأشراف (١/٣٨٥)، والمحبر (١٢٢، ١٢٣).
(٤) مغازي الواقدي (٣/٩٠٨).
(٥) طبقات ابن سعد (٢/١٤٩).

فله سَلَبه» فقام عبد اللَّه بن أنيس فشهد لي، ثمَّ لقيت الأسود بن الخُزاعِيِّ فشهد لي، وإذا صاحبي الذي أخذ السَّلَب لا يُنْكر أني قتلته، وقد قصصت على النبيِّ ﷺ القصَّة، فقال: يا رسول الله! سَلَبُ ذلك القتيل عندي، فأرضِهِ عنِّي! فقال أبو بكر الصدِّيق: لا واللَّه لا يرضيه منك تَعْمدُ إلى أسَدٍ من أسد الله، يقاتل عن دين الله، تقاسمه سَلَبه! ارْدُد عليه سَلَب قتيله! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**صَدَق فأَعطِه إيَّاه**»، فأعطانيه، فقال لي حاطب بن أبي بَلْتَعَة: يا أبا قَتَادة! أتبيع السِّلاح؟ فبعته منه بسبع أواقٍ، فأتيت المدينة، فاشتريت به مَخْرَفًا[١] في بني سَلِمَة يقال له الرُّدَيْنِيُّ، فإنَّ لأَوَّل مال لي نِلْته في الإِسلام، فلم نزل نعيش منه إلى يومنا هذا»[٢].

وعند أحمد بإسناد صحيح: فقال عمر: لا يُفيئها اللَّه على أسد من أُسده، ويعطيكها، فضحك رسول اللَّه ﷺ وقال: «**صدق عمر**».

❑ أبو قتادة في سرية علي بن أبي طالب إلى «الفُلْس»[٣] في ربيع الآخر من سنة تسع الهجرية:

شهد أبو قتادة هذه السرية مع علي بن أبي طالب، وقد بعثه قائد السرية مع الحُباب بن المنذر وأبي نائلة، فخرجوا على متون خيل لهم يطوفون حول المعسكر، يتقصَّون ما حولهم، فأصابوا غلامًا أسود، فقالوا: ما أنت؟ قال: «**أطلب بُغْيَتي**»، فأتوا به عليًّا، فقال: «**ما أنت؟**»، فقال: «**باغ!**»، فلما هدَّدوه قال: «أنا غلام لرجل من طيئ من بني نَبْهَان، أمروني بهذا الموضع، وقالوا: إن رأيت خيل محمَّد فَطِرْ إلينا فأخبرنا، وأنا لا أُدرك أَسْرًا، فلما رأيتكم أردت الذَّهاب إليهم، ثمّ قلت: لا

---

(١) المخرف: الحائط من النخل؛ انظر: النهاية (١/٨٩).

(٢) مغازي الواقدي (٣/٩٠٨، ٩٠٩)، وسيرة ابن هشام (٤/٧٨، ٧٩)، والاستبصار (١٤٧).

(٣) الفلس: في «ابن الكلبي» بفتح الفاء، وفي «طبقات ابن سعد» (٢/١٦٤)، و«مغازي الواقدي» (٣/٩٨٤) بضمِّها: صنم لطيئ، وكان آنفًا أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له: أجأ، أسود كأنه تمثال إنسان، كانوا يعبدونه ويهدون إليه، ولا يأتيه خائف إلَّا أمن عنده؛ انظر: كتاب: الأصنام، لابن الكلبي (٥٩).

أَعجَلُ حتى آتي أصحابي بخبر بيِّن من عددكم وعدد خيلكم وركابكم، ولا أخشى ما أصابني، فكأني كنتُ مُقَيَّدًا حتى أخذتني طلائعكم»، قال عليٌّ: أصدِقْنا، ما وراءَك؟، قال: أوائل الحيِّ على مسيرة ليلة طَرَّادَة[١]، تُصبِّحهم الخيل ومغارُها حين غَدَوا.

واستشار عليٌّ بن أبي طالب أصحابه، فقال جَبَّار بن صَخْر: نرى أن ننطلق على متون الخيل ليلتنا حتى نصبِّح القوم وهم غارُّون، فنغير عليهم، ونخرج بالعَبْد الأسود ليلًا ونُخلِّف حُرَيثًا[٢] مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله. فوافق عليٌّ على هذا الرأي.

وخرجوا بالعبد الأسود، والخيل تعادى، وهو رِدْف بعضهم عُقْبَةً[٣]، ثمَّ ينزل فيُردف آخر عُقْبَة، وهو مكتوف، فلما انهار اللَّيل كذب العبد، وقال: قد أخطأْتُ الطريق وتركتُها ورائي، فقال عليٌّ: «**فارجع إلى حيث أخطأت!**»، فرجع ميلًا أو أكثر، ثمَّ قال: أنا على خطإ، فقال عليٌّ: «**إنَّا منك على خُدْعة، ما تريد إلَّا أن تثنينا عن الحيِّ، قدِّموه! لتصْدُقنا أو لنضربنَّ عنقك**»، فقُدِّم العبد وسُلَّ السيف على رأسه، فلما رأى الشرَّ قال: أرأيت إنْ صدَقتكم، أينفعني؟ قالوا: نعم، فقال: فإني صنعتُ ما رأيتم، إنَّه أدركني ما يُدرك الناسَ من الحياءِ، فقلت: أقبلتَ بالقوم أدلُّهم على الحيِّ من غير مِحْنَةٍ ولا حقٍ فآمنهم، فلما رأيت منكم ما رأيتُ وخفتُ أن تقتلوني كان لي عُذْر، فأنا أحملكم على الطريق. قالوا: اصدُقْنَا. قال: الحيُّ منكم قريب.

وخرج منهم حتى انتهى إلى أَدنى الحيِّ، فسمعوا نُباح الكلاب وحركة النَّعَم في المَرَاح والشاء، فقال: هذه الأصرام[٤]، وهي على فرسخ، فينظر بعضهم إلى

---

(١) طرَّادة: طويلة؛ انظر: القاموس المحيط (١٠/٣٤٠).

(٢) اسم دليل السرية إلى الفلس.

(٣) العقبة: النوبة؛ انظر: الصحاح (١٨٥).

(٤) الأصرام: جمع الصرمة؛ وهي الجماعة؛ انظر: القاموس المحيط (٤/١٣٩).

بعض، فقالوا: فأين آل حاتَم؟[1]، قال: هم متوسِّطو الأَصرام.

وأغارت خيل المسلمين على المشركين فجرًا، فقتلوا مَنْ قتلوا، وأسروا مَنْ أسروا، واستاقوا الذرِّيَّة، والنِّساء، وجمعوا النَّعَم والشاء.

وقالت جارية من الحي وهي ترى العبد الأسود ـ وكان اسمه أَسْلَم ـ وهو مُوْثَق: ما لَه هَبِل! هذا عمل رسولكم أَسْلَم، لا سَلِم، وهو جلبهم عليكم ودلَّهم على عَوْرَتكم!، فأجابها العبد الأسود: أَقْصِري يا ابنة الأَكارم، ما دللتهم حتى قُدِّمتُ ليُضْرَب عنقي.

وعسكر المسلمون، وعزلوا الأسرى، وهم قليل، وعزلوا الذُّرِّيَّة، وأصابوا من آل حاتم أخت عَدِيٍّ بن حاتم ونُسَيَّاتٍ معها، فعزلوهنَّ على حدة، فقال أسلم لعليٍّ بن أبي طالب: ما تنتظر بإطلاقي؟ فعرض عليه الإسلام، فقال: أنا على دين قومي هؤلاء الأسرى، ما صنعوا صنعتُ! فقال: ألا تراهم مُوثَّقين، فنجعلك معهم في رِباطك؟ فقال: نعم، أنا مع هؤلاء مُوثَّقًا، أحبُّ إليَّ من أن أكون مع غيرهم مُطْلَقًا، يصيبني ما أصابهم. فأُوثِق وطرح مع الأسرى، فقال: أنا معهم حتى تَرَوْن منهم ما أنتم راءون. فقائل يقول له: مرحبًا بك وأهلًا، ما كان عليك أكثر مما صنعت! لو أصابنا الذي أصابك لفعلنا الذي فعلت وأشدَّ منه، ثم آسَيْتَ بنفسك! وقائل يقول له: لا مرحبًا بك، أنت جئتنا بهم!

وجاء العسكر واجتمعوا، فقرَّبوا الأسرى، وعرضوا عليهم الإسلام، فمن أسلم تُرك، ومَن أبى ضربت عُنُقه، حتى أتوا على الأسود، فعرضوا عليه الإسلام، فقال: واللهِ إنَّ الجزَع من السّيْفِ للُؤْم، وما من خلود. فقال له رجل من الحي ممن أسلم: يا عجبًا منك! ألا كان هذا حين أُخذتَ! فلما قُتل من قتل، وسُبي مَن سُبي منا، وأسلم منا مَن أسلم راغبًا في الإسلام تقول ما تقول! ويحك أسلِم واتَّبع دين

---

(١) يريد: كريم العرب حاتم طيئ.

محمَّد. فأسلم وتُرك، حتى كانت الرِّدَّة، فشهد مع خالد بن الوليد اليَمَامة، فأبلى بلاءً حسناً[١].

وقصَّة العبد الأسود طويلة نقلتها دون أن تكون لها صلة بسيرة أبي قَتَادة، ولكنَّها تحمل في طيَّاتها عبرةً لمن يعتبر بالتزام حتى العبيد قبل الإِسلام بالخلق الكريم، فقلت لنفسي: ليت الأحرار المسلمين يلتزمون بمثل هذا الخُلق في هذه الأيام!

وفي الحديث الصحيح: «**خياركم في الجاهلية، خياركم في الإِسلام إذا فَقُهُوا**»[٢].

ولا فائدة للتاريخ، إذا لم يكن عبرة للحاضر والمستقبل، فهو ليس للتسلية ولا لقضاء الوقت سدى.

وهدمت السرية الفُلْس وخربوه، فوُجد في خزانة الفُلْس ثلاثة أسياف: رَسُوب، والمِخْذَم وسيف يقال له اليماني، وثلاثة أدراع.

واستعمل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه على السَّبْي أبا قتادة، واستعمل على الماشية والرِّثَّة[٣] عبدَالله بن عَتِيْك السُّلَميَّ، فلما نزلوا «**رَكَكَ**»[٤] اقتسموا الغنائم، وعزل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم صفيًّا رسوبًا والمِخْذَم، ثم صار له بعد السيف الآخر، وعزل الخمس، وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة[٥].

وكان في السَّبْي أخت عَدِي بن حاتم لم تُقْسَم، فأنزلت دار رَمْلَة بنت الحارث، وكان عَدِيٌّ بن حاتم قد سمع بحركة عليٍّ رضي الله عنه، وكان له عينٌ بالمدينة محذِّرة

(١) مغازي الواقدي (٣/٩٨٥ - ٩٨٨).
(٢) رواه البخاري.
(٣) الرثة: رديء المتاع.
(٤) ركك: محلة من محال سلمى، أحد جبلي طيئ.
(٥) طبقات ابن سعد (٢/١٦٤)، ومغازي الواقدي (٣/٩٨٨).

فخرج إلى الشَّام، وكانت أُخت عَدِي إذا مرَّ النبيّ ﷺ تقول: «**يا رسول الله! هَلَكَ الوالد، وغاب الوافد، فامنُنْ علينا مَنَّ اللهُ عليك**»، كلُّ ذلك يسألها رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ وافِدك؟**»، فتقول: «**عَدِيُّ بن حاتِم!**»، فيقول: «**الفار من اللَّه ورسوله؟!**»، حتى يَئِست.

فلما كان اليوم الرابع، مرَّ النبيُّ ﷺ فلم تَكَلَّم، فأشار إليها رجل: قومي فكلِّميه! فكلَّمته، فأَذن لها ووصلها.

وسألت عن الرَّجل الذي أشار إليها، فقيل: عَلِيٌّ، وهو الذي سباكم، أما تعرفينه؟! فقالت: «**لا والله، ما زِلْتُ مُدْنِيَةً طَرَف ثوبي على وجهي وطَرَف ردائي على بُرْقعي من يوم أُسِرت حتى دخلت هذه الدار، ولا رأيت وجهه ولا وجه أحدٍ من أصحابه**»[١].

وهذه عبرة جديدة من التاريخ لعربيات المسلمات، يتعلَّمنها من فتاة جاهلية لم تسلم ولكنَّها ملتزمة بأهداب الشَّرف الرَّفيع.

❏ شهوده غزوة تبوك:

وشهد غزوة «**تبوك**»[٢] التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية[٣].

واشتهى الذين شهدوا غزوة تَبوك من المسلمين اللَّحم، فانطلق عشرة من الأنصار على خيولهم منهم أبو قتادة إلى الصَّيد، وكان صاحب طِرْد بالرُّمح، فقتل أبو قتادة خمسة أَحْمِرَة بالرُّمح على فرسه، واصطاد أصحابه الظِباء، وعادوا بالصَّيد إلى العسكر مساء، وفرَّقوه على أصحاب النبيِّ ﷺ[٤].

وفي طريق عودة المسلمين من تَبوك إلى المدينة، كان أبو قتادة يسير قريبًا من

---

(١) مغازي الواقدي (٣/٩٨٨، ٩٨٩).
(٢) مغازي الواقدي (٣/٩٩٧).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٦٥).
(٤) مغازي الواقدي (٣/١٠٣٥، ١٠٣٦).

النبيِّ ﷺ، فَخَفق النبيُّ ﷺ خَفْقَةً وهو على راحلته، فمال على شقِّه، فدنا منه أبو قتادة ودَعَمَه[١]، فانتبه، فقال: «**مَنْ هذا؟**»، فقال: «**أبو قتادة يا رسول الله! خِفت أن تسقط فدعمتك**»، فقال: «**حَفِظَك اللَّه كما حفظتَ رسول الله!**»، ثمَّ سار غير كثير، ثمَّ فعل مثلها، فدعمه أبو قَتادة أيضًا، فانتبه، فقال: «**يا أبا قتادة! هل لكَ في التَّعريس[٢]؟**»، فقال: «**ما شئت يا رسول الله!**»، فقال: «**انظر مَنْ خلفك!**»، فنظر فإذا رجلان أو ثلاثة، فقال: «**ادعُهم!**»، فدعاهم، فعرَّسوا، وهم خمسة رجال.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في بعض أسفاره إذْ تأخر عن الرحلة، فدعمته بيدي، حتى استيقظ، فقال: «**اللهم احفظ أبا قتادة كما حفظني منذ الليلة، ما أرانا إلا قد شققنا عليك**» أخرجه الطبراني، وأحمد، ومسلم.

❑ بعد النبي ﷺ:

كان لأبي قتادة الدور البطولي في حروب الردة، وإن خالف خالدًا في قتله لمالك بن نويرة، وزواجه من ليلى زوج مالك، فمضى أبو قتادة إلى الصديق وأخبره الخبر، وجاهر بما يراه الحق.

وفي أيام الفتنة الكبرى بين عليٍّ بن أبي طالب، ومُعاوية بن أبي سفيان، شهد مع علي رضي الله عنه مشاهده كلَّها[٣]، وكان على الرَّجالة في حرب عليٍّ للخوارج سنة سبع وثلاثين الهجريَّة[٤].

ومات أبو قتادة فارس رسول اللَّه ﷺ بالمدينة المنورة سنة أربع وخمسين الهجرية[٥] وله سبعون سنة[٦].

---

(١) دعمته؛ أي: أسندته. انظر: النهاية (٢/٢٣).
(٢) التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة؛ انظر: النهاية (٣/٨٠).
(٣) أُسْد الغابة (٥/٢٧٥)، وابن الأثير (٣/٢٢١).
(٤) ابن الأثير (٣/٣٤٥).
(٥) ابن الأثير (٣/٥٠٠)، والإصابة (٧/١٥٦).
(٦) الإصابة (٧/١٥٦).

❑ القائـد

شهد أبو قتادة غزوة «أُحُد» وما بعدها من الغزوات تحت لواء النبيِّ ﷺ[١]، كما شهد كثيرًا من سرايا النبيِّ ﷺ، وقاد سريتين من سراياه.

كما شهد حروب الردَّة تحت لواء خالد بن الوليد رضي الله عنه، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشاهده كلها في خلافته[٢].

ومن دراسة سيرته المفصَّلة، نجد أنَّ حياته في الجهاد اقتطعت الجانب الأكبر من سنيِّ حياته، وبقي الجانب الأقل منها لشئونه الحياتية الأخرى، مما يدلُّ على أنَّ أبا قتادة كانت له تجربة عملية في الجهاد قائدًا وجنديًّا.

كما أنَّ العربي، كان يحرص على تعلُّم الفنون العسكرية النظريَّة والتدريب على القضايا العسكرية العملية؛ كالرماية، والطَّعن بالرمح، والمبارزة بالسيف، فهو قد أحرز المزية الأخرى من مزايا القائد، وهي: العلم المكتسب.

والذي يحاول أن يتلمَّس في أبي قتادة مزية معرفة مبادئ الحرب، يجد أنَّه طبَّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته على أحسن وجه، فهو يعرف مقصده ويحرص على تحقيقه بخطَّة مُدبَّرة بعيدة عن الارتجال.

كما أنَّه كان قائدًا تعرُّضيًّا، لم يعرف الدفاع في حياته العسكرية جنديًّا ولا قائدًا إلَّا في غزوة الأحزاب، التي كانت غزوة دفاعيَّة ولكنها تمهيد لاستئناف التعرُّض.

كما أنَّه كان يطبِّق مبدأ: المباغتة، تطبيقًا رائعًا، وما السريتان اللَّتان قادهما إلا تطبيق لهذا المبدأ بشكل مثاليٍّ يدعو إلى الإعجاب.

وكان يطبِّق مبدأ: حشد القوَّة في الزمان والمكان المناسبين، دون أن ينسى مبدأ: الاقتصاد بالمجهود.

كما كان يطبِّق مبدأ: الأمن، فقد استطاع مباغتة أعدائه، ولم يستطع أعداؤه

---

(١) الإصابة (١٥٦/٧)، وأُسْد الغابة (٢٧٤/٥)، والاستيعاب (١٧٣١/٤).

(٢) الإصابة (١٥٦/٧)، والاستيعاب (١٧٣٢/٤).

مباغتة رجاله.

وكانت خطَّته: مرنة تصلح للتطبيق عند تبدُّل الظروف والأحوال، دون أن يؤثر ذلك في جوهر الخطَّة الأصليَّة.

وكان يطبِّق مبدأ: التعاون بين أفراد رجاله، وبين القيادة وأصحابه، وبين قوَّته وقوَّات المسلمين.

وكان يديم معنويات رجاله، ويحرص على ذلك، وسبيله إلى إدامتها: العقيدة الراسخة، والقيادة الحكيمة، وإحراز النصر، وفرض النظام، وغرس الطَّاعة.

وكان يحرص على: القضايا الإداريَّة لرجاله قبل المعركة، وفي أثنائها، وبعدها في تقسيم الغنائم بالسويَّة وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

تلك هي مجمل مزية معرفة مبادئ الحرب من أبي قتادة، وبالإضافة إلى هذه المزية حرصه على القضايا التنظيمية في قوَّته، المؤاخاة بين كل رجلين من رجاله، وفرض الارتباط الوثيق بينهما من جهة، وبينهما وبين قوَّته من جهة ثانية، وتوضيح كيفيَّة تأمين الاتصال الوثيق بين كلِّ رجلين من جهة وبين أفراد القوَّة من جهة أخرى.

كما أنَّه كان واضح الأوامر، من أجل المحافظة على رجاله أولًا، وتأمين السيطرة عليهم، وفرض الطَّاعة والضبط عليهم، وقيادتهم للنصر.

ومزيَّتا: التنظيم، ووضوح الأوامر، يكاد يتميَّز بهما أبو قتادة على غيره من القادة الآخرين.

أما مزاياه القيادية الأخرى، فمشابهة لمزايا إخوته من القادة الآخرين، ولا عجب في ذلك، فهم خريجو مدرسة واحدة في القيادة هي مدرسة الرسول القائد عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام، وهم نشأوا في بيئة واحدة، هي البيئة العربية الإسلامية الأصلية، ومن أصل واحد هو العرب.

فقد كان ذكيًّا حاضر البديهة، يسعى إلى الحصول على المعلومات عن العدو

وعن الأرض التي يقاتل عليها، لذلك كانت قراراته سريعة على أسس سليمة.

كما كان شجاعًا مقدامًا من غير تهوُّر، والقاعدة في العرب الشجاعة والإقدام، والاستثناء الجبن والإحجام.

وكان ذا إرادة قويَّة، هي إرادة القتال التي يغرسها الدين الحنيف، تلك الإرادة التي يتمثَّل تطبيقها العملي في هدفين لا ثالث لهما: النَّصر، أو الشَّهادة.

وكان ذا نفسية ثابتة لا تتبدَّل في حالتي النصر والاندحار، ما دام الإيمان بالقضاء والقدر هو المسيطر على النفس المؤمنة المطمئنة.

وكان يتمتَّع بمزيَّة سبق النظر، فيُعدُّ لكل أمرٍ عدَّته، ويدخل في حساباته أسوأ الاحتمالات، لئلا يؤخذ على حين غرَّة.

وكان عارفًا بنفسيات رجاله وقابلياتهم معرفة دقيقة، فيكلِّف كلَّ فرد ما يناسبه من واجبات وأعمال يستطيع إنجازها كما ينبغي بكفاية واقتدار.

وكان يثق برجاله ويثقون به، كما كان موضع ثقة القيادة العليا للمسلمين، وكان يحبُّ رجاله ويبادلونه حبًّا بحبٍّ، وتقديرًا بتقدير.

وكان ذا شخصية قويَّة نافذة متَّزنة، يهابه رجاله ولا يخافونه، ويلتزمون بتنفيذ أوامره طوعًا لا كرهًا.

وكان يتمتَّع بقابليَّة بدنية متميِّزة، تعينه على تحمُّل المشاق العسكرية، وعلى النهوض بأعباء الجهاد.

وكان ذا ماضٍ ناصع مجيد، في خدمة الإسلام والمسلمين، وفي الإخلاص لله ولرسوله.

وروح كلِّ هذه المزايا، هي إيمانه الرَّاسخ، واستعداده للتضحية بروحه وماله لإعلاء كلمة الله، وما كان التاريخ ليذكره وما عرفه الناس في أيامه وبعد موته وحتى اليوم لولا إيمانه الرَّاسخ العميق، الذي رفع ذكره وأعلى قَدْرَه وجعله مجاهدًا

صادقًا وقائدًا متميِّزًا.

أبو قَتَادة في التَّاريخ

يذكر التَّاريخ لأبي قتادة، أنَّه شهد غزوة أُحُد وما بعدها من غزوات النبيِّ ﷺ.

ويذكر له أنَّه شهد ثماني غزوات من غزوات النبيِّ ﷺ وثلاث سرايا من سراياه، قبل أن يتولَّى قيادة سريتين من سرايا النبيِّ ﷺ.

ويذكر له أنَّه تولى قيادة سريتين من سرايا النبيِّ ﷺ وأبلى في قيادتهما أعظم البلاء.

ويذكر له أنَّه شهد غزوتين من غزوات النبيِّ ﷺ وسرية من سراياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بعد توليه قيادة السريتين.

ويذكر له أنَّه لم يتخلَّف عن غزوة من غزوات النبيِّ ﷺ، ولا عن سريَّة من سراياه، وأبلى أحسن البلاء في عشر غزوات وثلاث سرايا مجاهدًا صادقًا بالإضافة إلى السريتين اللَّتين قادهما من سرايا النبيِّ ﷺ قائدًا متميِّزًا منتصرًا.

ويذكر له أنَّه قضى حياته على عهد النبيِّ ﷺ في الغزوات والسرايا لا يستريح ولا يُريح مجاهدًا من أجل التوحيد، وموحِّدًا من أجل الجهاد.

ويذكر له، أنَّه شهد حرب الرِّدَّة بعد التحاق النبيِّ ﷺ بالرفيق الأعلى تحت لواء خالد بن الوليد، فقاتل المرتدين قتال الأبطال.

ويذكر له أنَّه كان مع عليٍّ مجاهدًا تارة، وقائدًا تارة أخرى، وواليًا تارة على مكَّة المكرَّمة ومستشارًا مقربًا في جميع الأوقات.

ويذكر له أنَّه كان لا يخشى في الحق لومة لائم، وكان دائمًا مع المظلوم على الظالم.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابيِّ الجليل، القائد البطل، أبي قتادة بن رِبْعي الأنصاري الخزرجيِّ، فارس رسول اللَّه ﷺ.

٣٦

القائد المخزومي ، أخو النبي من الرضاعة

القائد الشهيد

أبو سلمة بن عبدالأسد

٣٦

القائد المخزومي، أخو النبي من الرضاعة

القائد الشهيد أبو سلمة بن عبدالأسد

هو عبدالله أبو سَلَمَة بن عبدالأَسد بن هلال بن عبدالله بن عمر بن مَخْزُوم بن يَقَظَة بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيٍّ القُرَشِيّ[١].

أمُّه: بَرَّة بنت عبدالمطَّلب بن هاشم[٢]، فهو ابن عمَّة النبيِّ ﷺ[٣]، وأخوه في الرضاعة، أرضعت ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب حمزة بن عبدالمطّلب، ثم رسول الله ﷺ ثمَّ أبا سَلَمة. وثُوَيْبَة أول مَنْ أرضعت النبيَّ ﷺ وأرضعَت حمزة وأبا سَلَمة[٤].

أسلم بعد أبي عُبَيْدَة بن الجرَّاح، وقبل الأَرْقَم بن أبي الأَرْقَم[٥]، فقد أسلم قبل دخول النبيِّ ﷺ والمسلمون الأولون السَّابقون إلى الإسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم[٦]، أسلم بعد عشرة أنفس، فكان الحادي عشر من المسلمين[٧].

كان أبو سلمة ومعه امرأته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة المخزومية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة[٨].

وقد هاجر إلى الحبشة مرتين، ثم هاجر إلى المدينة، وكان الثالث بعد مصعب

---

(١) نسب قريش (٣٣٧)، وجمهرة أنساب العرب (١٤١ ـ ١٤٣)، وأنساب الأشراف (١/٢٥٧)، والاستيعاب (٣/٩٣٩).

(٢) نسب قريش (٣٣٧)، والمحبر (١٧٣).

(٣) أُسْد الغابة (٥/٢١٨).

(٤) ابن الأثير (١/٤٥٩)، وأُسْد الغابة (٣/١٩٥)، وأنساب الأشراف (١/٩٤).

(٥) سيرة ابن هشام (١/٢٦٩)، وانظر: جوامع السيرة (٤٦).

(٦) أنساب الأشراف (١/١٧٦).

(٧) الاستيعاب (٣/٩٣٩).

(٨) سيرة ابن هشام (١/٣٤٤) و(١/٣٤٩).

ابن عمير وعبدالله بن أم مكتوم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، وهناك من يذكر أن أبا سلمة هاجر قبل ابن أم مكتوم، والخبر الأول أثبت(١).

وكان أول من قدم المدينة مهاجرًا أبو سلمة(٢)، ولا خلاف بين الروايتين، فقد بعث النبي ﷺ مصعب بن عمير؛ ليفقه مسلمي المدينة في الدين، وكان ذلك قبل الإذن بالهجرة إلى المدينة، فلما أذن النبي ﷺ بالهجرة، كان أول مهاجر إلى المدينة أبو سلمة(٣).

ولقد لاقى آل أبي سلمة أعظم الأهوال في هجرتهم، وصبروا أجمل الصبر على الأذى، ويكفي قول أم سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: **«فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ -»**(٤)، وقولها - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: **«والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام، أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة»**(٥).

وآخى النبي ﷺ بين أبي سلمة وسعد بن خيثمة(٦).

❑ جهاد أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

في شهر جمادى الآخرة من السنة الثانية الهجرية، خرج النبيُّ ﷺ إلى غزوة **«ذي العُشَيْرة»**(٧)، فاستخلف على المدينة أبا سَلَمَة(٨).

---

(١) أنساب الأشراف (٢٥٩/١).
(٢) طبقات ابن سعد (٢٣٩/٣)، وأُسْد الغابة (١٩٦/٣).
(٣) سيرة ابن هشام (٧٧/٢).
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (٩١٨).
(٥) سيرة ابن هشام (٧٧/٢، ٧٨).
(٦) طبقات ابن سعد (٤٧٠/٣)، والمحبر (٧٣).
(٧) ذو العشيرة: موضع من ناحية ينبع بين مكة والمدينة؛ انظر: معجم البلدان (١٨١/٦).
(٨) طبقات ابن سعد (٩٢)، وأنساب الأشراف (٢٨٧/١)، والدرر (١٠٦)، وجمهرة أنساب العرب (١٤٣).

وشهد أبو سلمة غزوة «**بدرٍ**» الكبرى [١]، وشهد غزوة «**أُحُد**»، فجُرح في هذه الغزوة، وكان الذي جرحَه أبو أُسامة الجُشَمِيُّ، رماه بمَعْبَلَة [٢] في عَضُده، فمكث شهرًا يداويه، فَبَرأ فيما يُرى، وقد اندمل الجرح على بَغْيٍ لا يعرفه، فانتقض به الجرح فاشتكى، ثم مات [٣].

وهكذا صدق أبو سلمة ما عاهد اللَّه عليه، فتحمَّل الأهوال في هجرته، وأعان النبيَّ ﷺ في حربه جنديًّا وقائدًا، وفي سِلْمِهِ إداريًّا.

❑ سريته إلى قَطَن [٤]

شهد أبو سلمة «**أُحُدًا**»، وكان نازلًا في بني أُميَّة بن زيد بالعالية إحدى ضواحي المدينة، بعد أن تحوَّل من قُبَاء، ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أُميَّة، فجُرح جرحًا في عضده، فرجع إلى منزله.

وجاءه الخبر أنَّ رسول اللَّه ﷺ سار إلى «**حَمْراء الأسد**» [٥]، فركب حمارًا وخرج يعارض رسول اللَّه ﷺ، حتى لقيه حين هبط من «**العَصْبَة**» [٦] بالعَقيق، فسار مع النبيِّ ﷺ إلى حَمْراء الأسد.

ولما رجع رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، انصرف أبو سلمة مع المسلمين، فعاد من موضع العَصْبَة إلى داره، حيث استقرَّ فيها شهرًا يداوي جرحه.

فلما كان هلال المحرَّم على رأس خمس وثلاثين شهرًا من الهجرة، أي في السنة الرابعة الهجريَّة، دعاه رسول اللَّه ﷺ فقال: «**اخرج في هذه السريَّة، فقد استعملتك**

---

(١) نسب قريش (٣٣٧).
(٢) معبلة: نصل طويل عريض.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٤).
(٤) قطن: جبل بناحية فَيد، به ماء لبني أسد بن خزيمة؛ انظر: طبقات ابن سعد (٢/٥٠)، وانظر: معجم البلدان (٧/١٢٥ - ١٢٧).
(٥) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٣٧).
(٦) العصبة: منزل بني جحجبي غربي مسجد قباء؛ انظر: وفاء الوفا (٢/٣٤٦).

عليها»، وعقد له لواءً، وقال: «**سِرْ حتى تَرِدَ أرض بني أسَد، فأغِزْ عليهم قبل أن تلاقَى عليك جُموعهم**»، وأوصاه بتقوى اللَّه ومَنْ معه من المسلمين خيرًا، فخرج معه في تلك السريَّة خمسون ومئة، منهم: أبو سَبْرَة بن أبي رُهْم، وهو أخو أبي سَلَمة لأمِّه، وأَرْقَم بن أبي الأَرْقَم، وأبو عُبَيْدَة بن الجرَّاح، وسعد بن أبي وَقَّاص، وغيرهم.

والحافز المباشر لهذه السَّرية أنَّ رجلًا من طيِّئ هو الوليد بن زُهير بن طَرِيْف الطائي عمُّ زينب الطائيَّة، وكانت تحت طُلَيْب بن عُمَيْر القُرَشي العبديِّ، قدم المدينة لزيارة ابنة أخيه الطائيَّة، فنزل على صهره الذي هو من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فأخبره أنَّ طُلَيْحَة وسَلَمَة ابني خُوَيْلِد تركهما قد سارا في قومهما ومَنْ أطاعهما بدعْوَتهما إلى حرب رسول اللَّه ﷺ يريدون أن يدنوا للمدينة وقالوا: «**نَسير إلى محمَّد في عُقْر داره، ونُصِيب من أطرافه، فإنَّ لهم سَرْحًا يرعى جوانب المدينة، ونخرج على متون الخيل، فقد أرْبَعْنا ـ رعاها في الرَّبيع ـ خيلَنا، ونخرج على النَّجائب المَخْبُورَة، فإنْ أصبنا نَهْبًا لم نُدْرَك، وإن لاقينا جمعهم كنَّا قد أخذنا للحرب عُدَّتها؛ معنا خيل ولا خيلَ معهم، ومعنا نجائب أمثال الخيل، والقوم منكوبون، قد أوقعت بهم قُريش حديثًا، فهم لا يستبلُّون دهرًا، ولا يثوب لهم جَمْعٌ**».

وقام فيهم رجل منهم يقال له: قيس بن الحارث بن عُمَيْر، فقال: «**يا قوم! واللَّه ما هذا برأي! ما لنا قِبَلَهم وِتْرٌ، وما هم نُهْبَة لمُنْتَهب. إنَّ دارنا لبعيدة من يَثْرِب، وما لنا جَمْع كجمع قريش، مكثت قريش دهرًا تسير في العرب تستنصرها، ولهم وِترٌ يطلبونه، ثمَّ ساروا وقد امتطوا الإبل وقادوا الخيل وحملوا السِّلاح مع العدد الكثير ـ ثلاثة آلاف مقاتل سوى أتباعهم ـ، وإنَّما جهدكم أن تخرجوا في ثلاث مئة رجل إن كمُلوا، فتُغرُون بأنفسكم وتخرجون من بلدكم، ولا آمن أن تكون الدَّائرة عليكم**».

وكاد كلام هذا الرَّجل الحصيف أن يشكِّك بني أسد في المسير إلى المسلمين، وهم على ما هم عليه بعدُ، لم يخرجوا خطتهم إلى حيِّز التنفيذ.

وخرج طُلَيْب بن عُمَيْر صاحب رسول اللَّه ﷺ، بالوليد بن زُهير بن طريف

الطَّائي، الذي نقل له خبر نيَّات بني أسد العدوانيَّة على المسلمين، إلى النبيِّ ﷺ وأخبره ما أخبر به الرجلُ الطائيُّ.

وبعث النبيُّ ﷺ ، أبا سَلَمَة، فخرج في أصحابه، وخرج معه الطائيُّ دليلًا، فأغذُّوا[1] السير، ونكَّب بهم عن سَنَن الطَّريق، وعارض الطريق، وسار بهم ليلًا ونهارًا، فسبقوا الأخبار، وانتهوا إلى أدنى قَطَن ـ ماء من مياه بني أسد ـ وهو الذي كان عليه جَمْعُهم، فوجد المسلمون سَرْحًا، فأغاروا على السَّرْح فضمُّوه، وأخذوا رِعاءً لهم مماليكَ ثلاثةٍ، وأفلت سائرهم، فجاءوا جَمْعَهم فخبَّروهم الخبر وحذَّروهم جَمْعَ أبي سَلَمَة، وكثَّروه عندهم، فتفرَّق الجمع في كلِّ وجه.

وورد أبو سلمة الماءَ، فوجد جمعَ بني أسد قد تفرَّق، فعسكر وفرَّق أصحابه في طلب النَّعَم والشاء، فجعلهم ثلاث فِرَقٍ: فرقة أقامت معه، وفرقتان أغارتا في ناحيتين شتى، وأوعز إليها ألَّا يمنعوا في طلب، وألَّا يبيتوا إلَّا عنده إنْ سَلِموا، وأمرهم ألَّا يفترقوا، واستعمل على كلِّ فرقة قائدًا منهم.

وعادت الفرقتان إلى أبي سلمة جميعًا سالمين، قد أصابوا إبلًا وشاءً، ولم يلقوا أحدًا.

وانحدر أبو سلمة بذلك كلِّه إلى المدينة راجعًا، ورجع معه الطَّائيُّ، فلما ساروا ليلة قال أبو سلمة: «**اقتسموا غنائمكم**»، وأعطى أبو سلمة الدَّليل رضاه من المَغْنَم، ثم أخرج صَفيًّا لرسول الله ﷺ عبدًا، ثمَّ أخرج الخُمُس، ثمَّ قسم ما بقي بين أصحابه، فعرفوا سُهمانهم، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشَّاء يسوقونها حتى دخلوا المدينة[2] .

وفي رواية أخرى: أنَّ الطَّائي رجع مع أبي سَلَمة دليلًا، وكان خِرِّيتًا[3] ، فسار

---

(١) أغذوا: أسرعوا. والإغذاذ: الإسراع.

(٢) مغازي الواقدي (١/٣٤٠ ـ ٣٤٣)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/٥٠)، وعيون الأثر (٢/٣٨، ٣٩).

(٣) الخِرِّيت: الماهر الذي يهتدي لأخرات المفازة، وهي طرقها الخفية ومضايقها، وقيل: إنه يهتدي لمثل خَرْتِ الإبرة في الطريق؛ انظر: النهاية (١/٢٨٦).

بهم أربعًا إلى قَطَن، وسلك بهم غير الطريق، حتى يُعمَى الخبر على القوم، فجاءوا القوم وهم غارُّون على صِرْمة[١]، فوجدوا الصِّرَم قد نَذِروا[٢] بهم وخافوهم فهم مُعِدُّون، فاقتتلوا، فتساقط الجرحى بين الجانبين، ثم افترقوا[٣].

وفي رواية ثالثة: أنَّ سرية أبي سلمة كانوا يسيرون ليلًا ويكمنون نهارًا، حتى وردوا قَطَن، فوجدوا القوم قد جمعوا جمعًا، فأحاط بهم أبو سلمة في عَماية الصُّبح، وقد وعظ القومَ وأمرهم بتقوى الله، ورغَّبهم بالجهاد وحضَّهم عليه، وأوعز إليهم في الإمعان بالطَّلب، وألَّف بين كلِّ رجلين. وانتبه بنو أسد قبل حملة المسلمين عليهم، فتهيَّئوا وأخذوا السِّلاح، أو مَنْ أخذه منهم، وصفُّوا للقتال، وحمل سعد بن أبي وقَّاص على رجل منهم، فضربه فأبانَ رجله، ثم قتله. وحمل رجل من الأعراب على مسعود بن عُرْوَة بالرُّمح وقتله، فخاف المسلمون على صاحبهم أن يُسْلَب من ثيابه، فحازوه إليهم.

وصاح سعد: «**ما يُنْتَظر؟**»، فحمل أبو سَلَمَة، فانكشف المشركون على حاميتهم، وتبعهم المسلمون. وتفرَّق المشركون في كلِّ وجه، وأمسك أبو سلمة عن الطَّلب، وواروا صاحبهم، وأخذوا ما خَفَّ لهم من متاع، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة. حتى إذا كانوا من ماء قَطَن على مسيرة ليلة أخطئوا الطريق، فوجدوا نَعَمًا لبني أسد فهجموا عليه، فاستاقوا النَّعَم، واستاقوا الرِّعاء، فكانت غنائمهم سبعة أبعرة[٤].

ومن الواضح أنَّ الرواية الأولى هي الصحيحة، لإجماع المؤرِّخين الثقاة عليها، ولأنَّها أقرب إلى المنطق والعقل، فقد باغت أبو سَلَمة المشركين من بني أسد،

---

(١) الصرمة: القطعة من الإبل نحو الثلاثين.

(٢) نذر القوم بالعدو: إذا علموا.

(٣) مغازي الواقدي (١/٣٤٤).

(٤) مغازي الواقدي (١/٣٤٤).

فهربوا خوفًا من إبادتهم، وخلَّفوا وراءهم إبلهم ومواشيهم، فغنمها المسلمون.

وقد كان هدف النبيِّ ﷺ من هذه السريَّة هو تشتيت حشود بني أسد، وتفريق شملهم، وتحطيم معنوياتهم، حتى لا يهاجموا المسلمين في المدينة، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما هو معلوم، فحقَّق أبو سلمة هدف النبيِّ ﷺ تحقيقًا كاملًا، وعاد إلى المدينة على رأس سريَّته سالمًا غانمًا.

ولله درُّ من صاغ أحداث هذه السرية شعرًا فقال:

يَا ابْنَيْ خُوَيْلِدَ أيَّ شَرٍّ هِجْتما؟ ... إن كانَ مَن يَبغِي المُحالَ فأنتما

أَفَتَدْعُوانِ إلى قتالِ مُحمَّدٍ؟ ... هَلَّا إلى غيرِ القتالِ دَعَوْتُما؟

ما كان قيسٌ في النصيحةِ جاهلًا ... بل كان أعلمَ بالصَّوابِ وأَحْزَما

ينهاكما أن تفعلا ويَخافُها ... مشبوبةً تَجري جَوانِبُها دما

بَعَثَ النبيُّ الجيشَ تحتَ لوائِهِ ... بطلٌ إذا نَكَصَ الفوارسُ أقدما

هو ذاك عبدُ اللهِ في أصحابِهِ ... يَمشِي إلى قَطَنٍ قَضاءً مُبْرَمَا

فتأهَّبا يا ابْنَيْ خُويلدَ وَاجْمَعَا ... للحربِ جَمْعَكما ولا تَتندَّما

* * *

سر يا دليلَ الجيشِ في بَرَكَاتِهِ ... وَاسْلُكْ إلى فَيْدَ الطريقَ الأقومَا[1]

هيَ مُنتواهُ فليس يَبغِي غيرَها ... لِشَبَا القواضِبِ مُنتوى ومُيمَّما[2]

يا دائبًا يَصِلُ الدياجِرَ بالضُّحَى ... سِرْ في سبيلِكَ إن أردتَ المغنما[3]

إنَّ الأُلَى جعلوكَ رائدَهم أَبَوْا ... إلَّا السَّخاءَ فما أبرَّ وأكرما

درجوا على دينِ الفِدَاءِ فما بهم ... عِندَ الحفيظةِ ما يُعابُ ويُحتَمَى

أين الرجالُ؟ ألا فتى ذو نَجدةٍ ... يَرمِي بمُهجَتِهِ العَجاجَ الأقتما؟[4]

---

(١) هو الوليد بن زبيد الطائي.

(٢) شبا: جمع شباة، حدُّ كل شيء. والقواضب: السيوف القاطعة.

(٣) أعطي من الغنيمة ما أرضاه.

(٤) العجاج: الغبار.

أين الرجالُ؟ أَفَارَقُوا أوطانَهم ... أم أصبحوا مِلءَ المضاجِعِ نُوَّما؟
يا ابْنَيْ خُوَيْلِدَ جَرِّدا سَيْفَيْكُما ... حَذَرَ العِدَى وَتَقدَّما لا تُحجِما
يا ابني خُويلد أين ما أعددتُما ... للحربِ تَسْتَلِبُ الكَمِيَّ المُعلَمَا؟[1]
أعددتما الجُبنَ المُذِلَّ لتسلما ... فهلكتما وكذاك يَهلَكُ ذو العَمَى
أسلمتما النَّهبَ السليبَ وإنَّه ... لأجلُّ منزلةً وأعظمُ مِنْكُما
رَجَعَ الغُزَاةُ به كرامًا ما لقوا ... كَيْدًا يُرَدُّ ولا أصابوا مُجرما
اللهُ طهَّرهم وصانَ سُيوفَهُم ... سُبحانَهُ أَسْدَى الجميلَ وأنعما
هم حِزبُهُ لا حِزبَ إلَّا دونهم ... وَلَو أنَّه اتَّخَذَ الكواكبَ سُلَّما[2]

أبو سلمة القائد رضي الله عنه

حين عاد أبو سلمة من سريته إلى قطن بعد غيابه عن المدينة المنوَّرة بضع عشرة ليلة، انتقض به جرحه فاشتكى، وكان قد أصيب بهذا الجرح يوم أُحُد، فمات لثلاث ليالٍ مضين من جمادى الآخرة سنة أربع الهجريَّة «**٦٢٥م**»، فغُسِّل في «**اليُسَيْرَة**» بئر بني أُميَّة بن زيد بالعالية، غُسل بين قرني البئر، وكان اسمها في الجاهليَّة «**العَبِيْر**»، فسمَّاها رسول اللَّه ﷺ «**اليُسَيْرَة**»، ثم حُمل من بني أميَّة بن زيد، فدُفن بالمدينة[3].

وأتى النبيُّ ﷺ أبا سلمة يعوده، فوافق دخوله عليه خروج نفسه، فبسط النبيُّ ﷺ كفَّيه على عيني أبي سلمة فأغمضهما.

عن أم سلمة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: دخل رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ على أبي سلمة وقد شُقَّ بصره، فأغمضه، ثم قال: «**إن الروح إذا قُبض تبعه البصر**»، فضج ناس من أهله فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»، ثم قال: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في**

(١) الشجاع الموسوم بسيماء الحرب.
(٢) دون هنا بمعنى: تحت أو بعد أو خلف.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٢٤١).

المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره، ونوِّر له فيه»[(١)].

مات أبو سلمة ﵁ دون أن يترك درهمًا ولا دينارًا ولا دارًا، وترك أكبر من كل ذلك؛ أثره الباقي في خدمة الإسلام والمسلمين، ومثاله الشخصي الذي يبقى أسوة حسنة لغيره من المسلمين، والشهادة في سبيل الله.

❑ أما سمات قيادته

فتحمُّل المشاق، والكتمان الشديد، وتطبيق المباغتة الكاملة بالزَّمان.

وبالرغم من أنَّه قاد سرية واحدة من سرايا النبيِّ ﷺ لمرَّة واحدة فقط، ثم انتهت حياته وذهب إلى جوار الله، إلَّا أنَّ أفراد سريته كانوا من أبرز المسلمين ومن قادة النبيِّ ﷺ في حياته، وقادة الفتح الإسلاميِّ بعد التحاق النبيِّ ﷺ بالرفيق الأعلى، مما يدلُّ على قوَّة شخصيته وتميُّزه في سماته القياديَّة.

ولم يكن أبو سلمة قائدًا متميِّزًا من قادة النبيِّ ﷺ فحسب، بل كان إداريًّا متميِّزًا أيضًا من إداريِّ النبيِّ ﷺ الذين كان يستخلفهم على المدينة حين كان يغادرها للجهاد.

لقد كان أبو سلمة إنسانًا مثاليًّا، وإداريًّا متميزًا وقائدًا فَذًّا.

فرضي اللَّه عن الشهيد البطل أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي القرشي.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠).



القائد الشهيد

الذي يدخل الجنة بغير حساب

عُكَّاشَةُ بن مِحْصَن الأَسَدِيُّ

٢٧

القائد الشهيد
الذي يدخل الجنة بغير حساب

عُكَّاشَةُ بن مِحْصَن الأَسَدِيُّ

هو عُكَّاشَة بن مِحْصَن بن حُرْثان بن قَيْس بن مُرَّة بن كبير بن غَنْم بن دُوْدان ابن أَسد بن خُزَيْمَة الأَسَدِيُّ، ويُكْنَى: أبا مِحْصَن، حليف بني عبد شَمْس[1] من بني أُمية[2]، كان من ساداتهم وفضلائهم[3]، ومن السَّابقين الأولين[4] إلى الإِسلام.

وهاجر عُكَّاشة من مكَّة إلى المدينة مع مَنْ هاجر من قومه بني غَنْم بن دُوْدان رجالًا ونساءً، وكانوا أهل إسلام[5]، فاستقرَّ في المدينة المنوَّرة؛ ليبدأ صفحة جديدة من صفحات خدمته للإِسلام والمسلمين، وآخى النبيُّ ﷺ بينه وبين المجذَّر بن ذِياد البَلَوي حليف الأنصار[6].

❑ سبقك بها عكَّاشة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر**». وقال أبو هريرة: فقام

---

(١) أُسْد الغابة (٤/٢)، والإصابة (٤/٢٥٦)، وفيه: ابن مرة بن بكير، والاستيعاب (٣/١٠٨٠)، وطبقات ابن سعد (٣/٥٢).
(٢) الاستيعاب (٣/١٠٨٠).
(٣) أُسْد الغابة (٤/٢، ٣).
(٤) الإصابة (٤/٢٥٦).
(٥) سيرة ابن هشام (٢/٨٠)، وانظر: جوامع السيرة (٨٧).
(٦) الدرر (١٠٠).

عُكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول الله، ادع اللَّه أن يجعلني منهم قال: «**اللهم اجعله منهم**»، ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع اللَّه أن يجعلني منهم فقال: «**سبقك بها عكاشة**»[1].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عُرِضت عليَّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد حتى رُفِع لي سواد عظيم قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب**». ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا باللَّه واتبعنا رسوله، فنحن هم أو أولادنا الذين وُلدوا في الإسلام فإنا وُلِدنا في الجاهلية، فبلغ ذلك النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - فخرج فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**». فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»[2]، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «**سبقك بها عكاشة**»[3].

وعن عمران ﵁ قال: قال نبي اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ -: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب**» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون**»، فقام عكاشة فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**أنت منهم**» قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله، ادع اللَّه أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦).

(٢) في رواية البخاري (٦٥٤١): ادع الله أن يجعلني منهم قال: «اللهم اجعله منهم». قال الحافظ في «الفتح» (١١/٤١٢): ويجمع بأنه سأل الدعاء أولًا؛ فدعا له، ثم استفهم؛ قيل: أُجِبْتَ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨)، والترمذي (٢٤٤٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وعزاه المزي للنسائي.

يجعلني منهم قال: «**سبقك بها عكاشة**»[١].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أُريت الأمم بالموسم، فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيأتهم، فقيل: أرضيت؟ قلت: نعم. قال: ومع هؤلاء سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**اللهم اجعله منهم**». فقام آخر فقال: ادع الله عز وجل أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**سبقك بها عكاشة**»[٢].

❑ جهاد عكاشة رضي الله عنه

كان عكاشة رضي الله عنه أحد أفراد سريَّة عبدالله بن جَحْشٍ الأسدي[٣]، وكان في هذه السرية أوَّل غنيمة غُنمَت في الإِسلام، وأوَّل أسيرين أُسِرا من المشركين، وأوَّل قتيل قُتل منهم[٤].

وشهد عُكَّاشة غزوة بدرٍ الكُبرى الحاسمة، فأبلى فيها بلاءً حسنًا، وانكسر في يده سيف، فأعطاه النبيُّ ﷺ سيفًا جديدًا، فقاتل به حتى انتصر المسلمون، ولم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ[٥]، وقتل من المشركين يوم بدرٍ معاوية ابن عبد قيس حليف عامِر بن لؤي، ثم من بني مالك بن حِسْل من قُرَيْش[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨).

(٢) حسن: أخرجه الطيالسي (٣٥٢).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٩)، ومغازي الواقدي (١/١٩).

(٤) انظر: تفاصيل السرية في سيرة ابن هشام (٢/٢٣٨)، ومغازي الواقدي (١/١٣)، وطبقات ابن سعد (٢/١٠)، وجوامع السيرة (١٠٤).

(٥) أُسْد الغابة (٤/٣)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٧٧، ٢٧٨)، والدرر (١١٤)، وجوامع السيرة (١١٣)، وأنساب الأشراف (١/٣٠٨).

(٦) مغازي الواقدي (١/١٥٢)، وأنساب الأشراف (١/٣٠١).

قال عكاشة: «**انقطع سيفي في يوم بدر، فأعطاني رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ عودا، فإذا هو سيف أبيض طويل، فقاتلت به حتى هزم الله المشركين**»[(١)].

ولم يزل هذا السيف مع عكاشة يقاتل به في المشاهد كلها، وورثه آله من بعده، وشهد غزوة أُحُد[(٢)]، فباشر النبيُّ ﷺ القتال، فرمى بالنَّبْل حتى فنيت نبله وتكسَّرت سِيَة[(٣)] قوسه، وأخذ القوس عُكَّاشة يوتره للنبيِّ ﷺ، فقال: «**يا رسول الله! لا يبلغ الوتر**»، فقال رسول الله ﷺ: «**مُدَّه يَبْلُغ**»، ففعل عكَّاشة، وأعاد قوس النبيِّ ﷺ إليه صالحًا للرَّمي[(٤)].

وشهد مع رسول الله ﷺ الخندق وسائر المشاهد[(٥)]، وكان من الفرسان الذين شهدوا غزوة بني قُرَيْظَة من يهود[(٦)]، وشهد غزوة ذي قَرَد على طريق المدينة ـ الشَّام ـ ناحية خَيْبَر فارسًا[(٧)] أيضًا وقَتَلَ أَوْثَار بن عمرو بن أَوْثَار[(٨)]، وقيل: بل قتل أوثار وعمرو بن أوثار من بني فزارة[(٩)].

ذكر ابن إسحاق في سيرته أن عكاشة أدرك في غزوة الغابة أوبارًا وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد، فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعًا، واستنقذ بعض اللقاح[(١٠)].

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٩١)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٣٨)، وفي «دلائل النبوة»، للبيهقي (٣/ ٩٨، ٩٩)، وفي «الدلائل»: أن اسم السيف «القوي» بدلًا من «العون».

(٢) أُسْد الغابة (٤/٣)، والاستيعاب (٣/١٠٨٠).

(٣) السِيَةُ من القوس: ما عُطف من طرفيها، وهما سِيَتَان.

(٤) مغازي الواقدي (١/٢٤٢).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٣٨)، وأُسْد الغابة (٤/٣)، والاستيعاب (٣/١٠٨٠).

(٦) مغازي الواقدي (٢/٤٩٨).

(٧) مغازي الواقدي (٢/٥٤١).

(٨) طبقات ابن سعد (٢/٨٠).

(٩) مغازي الواقدي (٢/٥٤٦، ٥٤٩).

(١٠) مشارع الأشواق (٢/٩٨٥).

هذا العمري منتهى الفروسية والشجاعة.

قالوا أينظِمُ فارسَيْنِ بطعنةٍ وقت النزال ولا أراه قليلا
لا تعجبوا لو كان مَدُّ قناته مِيلًا إذنْ نظم الفوارس ميلا[1]

وكان عُكَّاشة من أوائل مَنْ جاء إلى النبيِّ ﷺ ملبيًا دعوته لمطاردة عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزارِي وقومه الذين نهبوا لِقَاح النبيِّ ﷺ، وبذل جهده لاستعادتها من المشركين.

وقد أحسن عُكَّاشة غاية الإحسان في خدمة الإسلام والمسلمين أيام السَّلام والحرب، وفي الجهادين الأكبر والأصغر، فبشَّره النبيُّ ﷺ أنَّه ممَّن يدخل الجنَّة بغير حساب. وهكذا نال عكاشة شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ، وكان من خيرة الفرسان ومن أوائل من بايعوا تحت شجرة الرضوان.

❏ عكاشة قائد سريَّة الغَمْر

وجَّه رسول اللَّه ﷺ عُكَّاشة في أربعين رجلًا، إلى الغَمْر - غَمْر مرزوق، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من «فَيْد»[2] طريق الأول إلى المدينة - منهم: ثابت بن أَقْرَم، وشُجاع بن وَهْب، ويزيد بن رُقَيْش، فخرج سريعًا يُغِذُّ السَّير.

ونَذِر به القوم، فهربوا من ديارهم، ونزلوا علياءَ بلادهم.

وانتهى عكَّاشة إلى ماء بني أسد، فوجد الدار خالية منهم، فبعث الطَّلائع يطلبون خبرًا أو يرون أَثرًا حديثًا، فرجع إليه شجاع بن وَهب، وأخبره أنَّه رأى أثر نَعَم قريبًا، ثم أصابوا ربيئة لبني أسد قد رصد ليلته يسمع الصوت، ويرى حركة السريَّة، فلما أصبح نام، فأخذوه وهو نائم، فسألوه عن أخبار بني أسد، فذكر أنَّهم قد لحقوا بعلياء بلادهم ومعهم النَّعَم، فأمَّنه المسلمون فدَلَّهم على نَعَم لبني عَمٍّ له،

---

(١) ألف باء، للبلويِّ (٥٤٢/١، ٥٤٣)، والمستطرف، للأبشيهي (٢٢٥/١)، وهذا الشعر لبكر بن النطاح. انظر: فرسان حول الرسول (٢٩٠/٢).

(٢) فيد: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة.

فأغاروا عليها واستاقوا مئتي بعير، فأرسلوا الرَّجل، وساقوا النَّعَم إلى المدينة، فقدموا على رسول الله ﷺ، ولم يلقوا كيدًا.

وقد جرى ذلك في شهر ربيع الأول سنة ست الهجرية[١].

لقد أدَّى عُكَّاشة واجبه في قيادة هذه السرية على أحسن ما يرام، إذ عاد وسريته دون أن يتكبَّدوا خسائر بالأرواح أو المعدَّات، وغنموا من الأعراب عددًا كبيرًا من الإبل، وأثَّروا في معنوياتهم تأثيرًا كبيرًا، إذ هربوا منهم ولم يستطيعوا مجابهتهم، كما أثَّروا في معنويات أعراب المنطقة كافة، وجعلوهم يخشون المسلمين.

ولله در القائل:

عُكَاشَةُ ما في الغَمْرِ من مُتْخَلَّفِ ... خلا الغَمْرُ من عُمَّارِهِ فَهْوَ مُقْفِرُ

تَنَاذَر أهلُوهُ سُيوفَكَ فَانْجَلوا ... وغُودِرَ وَحْشًا خَالِيًا ليس يُعمَرُ[٢]

خُذِ الشَّاءَ والإبلَ السِّمانَ فإنَّهم ... إلى أجلٍ ما دُونَهُ مُتَأَخَّرُ

فإمَّا حِمَى الإسلامِ أو حَدُّ قاضبٍ ... على مَتْنِهِ مِنهم دَمٌ يَتَفَجَّرُ[٣]

عُكَاشَةُ عُدْ بالجندِ غيرَ مُخَيَّبٍ ... كفى القومَ خِزْيًا أن يَفِرُّوا ويُدبِرُوا

لِكُلِّ امرِئٍ من نفسِهِ ما تَوَدُّهُ ... وما يكُ من شيءٍ فربُّكَ أكبَرُ

له الدِّينُ والدُّنيا وما بعدَ هذِهِ ... فلا شَيءَ إلَّا ما يَشاءُ ويَقْدِرُ

❑ سريَّة الجِنَاب[٤]

بعث النبيُّ ﷺ في ربيع الأول سنة تسع الهجرية سريَّة بقيادة عُكَّاشة إلى

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٥٥٠، ٥٥١)، وطبقات ابن سعد (٢/٨٤، ٨٥)، وأنساب الأشراف (١/٣٧٦، ٣٧٧).

(٢) تناذر القوم: أنذر بعضهم بعضًا. والوحش: القَفْر.

(٣) القاضب: السيف القاطع.

(٤) الجناب: موضع بعراض خَيبر وسَلَاح ووادي القرى، وقيل: هو من منازل مازن. والجناب من منازل فَزَارة بين المدينة وفَيْد؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/١٤٠، ١٤١).

الجِنَاب أرض عُذْرَة (١)وبَلِيٍّ (٢)؛ من بني قُضَاعَة (٣)؟

ولا نعلم شيئًا عن عدد أفراد هذه السريَّة ولا عن الهدف من إرسالها، ولا نتائج هذه السريَّة، ويبدو أنَّها سرية من سرايا الدَّعوة، قصدت تلك المنطقة للدعوة إلى الإسلام؛ لأن الإسلام في السنة التاسعة الهجرية كان قويًّا في تلك المناطق، وكان أكثر سكَّانها قد أسلموا وحسن إسلامهم قبل سنين، وربما بقيت جيوب في تلك المنطقة لم يُسْلِم أهلها، فكانت تلك السرية إحدى المحاولات لتطهير تلك الجيوب من الشِّرك ونشر الإسلام فيها.

❑ عكاشة الشَّهيد

حين ارتدَّ العرب بعد موت النبيِّ ﷺ سنة إحدى عشرة الهجرية، فارتدَّت كلُّ قبيلة عامةً أو خاصةً إلَّا قُريشًا وثَقِيفًا، واستغلظ أمر طُلَيْحَة بن خُوَيْلد الأَسْدِيِّ، واجتمع على طُلَيحة عوام طيِّئ وأسد (٤)، عقد أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أحد عشر لواء، كان من بينها لواء خالد بن الوليد، وأمره بطُليحة بن خُوَيْلد.

وكان أبو بكر بعث عَدِيَّ بن حاتم الطائي إلى طيئ قبل خالد وأتبعه خالدًا، وأمره أن يبدأ بطيئ ومنهم يسير إلى «**بُزَاخَة**»(٥).

وقدم عَدِيٌّ على طيئ، فدعاهم وخوَّفَهم، فأجابهم، وقالوا له: استقبل الجيش، فأخِّره عنَّا حتى نستخرج مَنْ عند طُليحة منَّا؛ لئلا يقتلهم.

واستقبل عَدِيٌّ خالدًا، وأخبره بالخبر، فتأخَّر خالد، وأرسلت طيئ إلى إخوانهم عند طليحة، فلحقوا بهم، فعادت طيِّئ إلى خالد بإسلامهم.

---

(١) بنو عُذْرة بن سَعْد بن هُذَيْم بن زيد بن ليث بن أَسْلُم بن الحافي بن قُضَاعة، منهم من بني قضاعة؛ انظر: جمهرة أنساب العرب (٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) بنو بَلِيٍّ بن عمرو بن الحافي بن قُضَاعة في بني قُضاعة؛ انظر: جمهرة أنساب العرب (٤٤٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٦٤).

(٤) ابن الأثير (٢/٢٤٢).

(٥) بزاخة: ماء لطيئ بأرض نجد، وقيل: ماء لبني أسد؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٢/١٦٠).

ورحل خالد يريد جَدِيلَة[1]، فاستمهله عَدِيٌّ عنهم، ولحق بهم عديٌّ يدعوهم إلى الإسلام، فأجابوه، فعاد إلى خالد بإسلامهم، ولحق بالمسلمين ألف راكب منهم، فكان عَدِيٌّ خير مولود في أرض طيئ وأعظمه بركةً عليهم.

وأرسل خالدُ بن الوليد عُكَّاشة وثابت بن أَقْرَم[2] الأنصاري طليعةً، فلقيهما حبال أخو طُليحة فقتلاه، فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سَلَمَة، فقتل طُليحةُ عُكَّاشةَ وقتل أخوه ثابتًا ورجعا[3].

فقد انفرد طُليحة بعكَّاشة، وسَلَمَةُ بثابت، وكان ثابت وعكَّاشة فارسين، عُكَّاشة على فرس يقال له: الرَّزام، وثابت على فرس يقال له: المحبَّر، فلم يلبث سَلَمَة أن قتل ثابت بن أقرم، فصرخ طليحة لسَلَمَة: «**أعِنّي على الرَّجل، فإنه قاتلي**»، فكرَّ سَلَمَة على عُكَّاشة، فقتلاه جميعًا، فعادا إلى مَنْ وراءهما من الناس، فأخبراهم الخبر، فسُرَّ عُيَيْنَة بن حِصْن، وكان مع طُليحة، وقد كان خلَّفه على عسكره، وقال: «**هذا الظَّفَر**».

وجاءت مقدمة خالد في مئتي فارس عليها زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه، فمرَّت بعكَّاشة وثابت قتيلين، فحزن المسلمون على قتلهما كثيرًا.

وأقبل خالد ومعه المسلمون، فلم يَرُعْهم إلَّا ثابت بن أقرم قتيلًا، فعظم ذلك على المسلمين، ثم لم يسيروا إلَّا يسيرًا حتى وجدوا عُكَّاشة قتيلًا، فاجتاح المسلمين حزن عظيم.

وأمر خالد بحفر قبرين لهما، فدُفنا بدمائهما وثيابهما، وكانت بعكَّاشة

---

(١) جديلة: هم بنو خارجة بن سعد بن قُطْرَة بن طَيِّئ، بطن من بطون طَيِّئ؛ انظر: التفاصيل في «جمهرة أنساب العرب» (٤٧١).

(٢) ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عَدِيٍّ بن العَجْلان من بني طَيِّئ من قُضاعة.

(٣) ابن الأثير (٢/٣٤٦، ٣٤٧).

جراحات مُنْكَرَة[١]، فجزع لذلك المسلمون[٢].

ولم يذهب دم عُكَّاشة وثابت هدرًا، فقد انتصر المسلمون على طُلَيْحة يوم بُزَاخَة، وكبَّدوا جماعته أفدح الخسائر بالأرواح والأموال.

أما طُليحة فقد أعدَّ فرسًا له وراحلة لامرأته النَّوَّار، فلما دارت الدائرة على أصحابه، ركب فرسه وحمل امرأته، ثم نجا بها، فانهزم ولحق بالشَّام، ثمَّ نزل على بني كلب، وأسلم حين بلغه أنَّ أسدًا وغَطَفان قد أسلموا، ولم يزل مقيمًا في بني كلب حتى مات أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

وكان خرج مُعْتَمِرًا في خلافة أبي بكر الصدِّيق ومرَّ بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طُلَيْحَة! فقال: «**ما أصنع به؟ قد أسلم!**». ثم أتى عمر بن الخطَّاب، فبايعه حين استُخلِف، فقال له: «**أنت قاتل عُكَّاشة وثابت؟ والله لا أُحبُّك أبدًا!**» فقال: «**يا أمير المؤمنين! ما يهمُّك من رجلين أكرمهما الله بيدي ولم يُهِنِّي بأيديهما!**»، فبايعه عمر، ثم رجع إلى قومه فأقام عندهم حتى خرج إلى العراق مجاهدًا[٣]. قُتل في سبيل الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيُقتل ثم يتوب الله على القاتل فَيُسلم، فيقاتل في سبيل الله فيُستَشهد**»[٤].

وكان استشهاد عُكَّاشة سنة إحدى عشرة الهجرية «٦٣٢م».

❑ عكاشة القائد

كان عكاشة رضي الله عنه من السابقين الأولين، ومن سادات الصحابة، وفضلائهم،

(١) طبقات ابن سعد (٣/٩٢، ٩٣).

(٢) ابن الأثير (٢/٣٤٧)، وانظر: أُسْد الغابة (٤/٣)، والاستيعاب (٣/١٠٨٠)، والإصابة (٤/٢٥٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٣٨).

(٣) ابن الأثير (٢/٣٤٨).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه.

وفرسانهم، وشجعانهم.

استشهد يوم بُزاخة سنة إحدى عشرة، وكان عمره حين استشهد خمسًا وأربعين سنة تقريبًا.

أما قيادته فيمكن أن نتبينَّ من سماتها، بأنَّه شجاع مقدام، أبلى بلاءً حسنًا في الغزوات التي شهدها تحت راية النبيِّ ﷺ، وأنَّ النبيَّ ﷺ كرَّمه بإهدائه سيفًا؛ لشجاعته وإقدامه، وأنَّه كان يسارع إلى تلبية صريخ النَّجدة، فيندفع اندفاعًا شديدًا إلى سعير المعركة غير هيَّاب ولا وجل.

وأنَّه كان من فرسان النبيِّ ﷺ، ومن فرسان خالد بن الوليد بعد أن التحق النبيُّ ﷺ بالرفيق الأعلى.

ولم يكن في المقدمة فحسب، بل كان في طليعة المقدمة، يستطلع أخبار العدو، ويمنعه من استطلاع أخبار المسلمين، ويحمي المقدمة، ويواجه العدو قبل أي فرد من أفراد المسلمين، وهذا دليل على شجاعته وإقدامه، وفطنته وألمعيَّته؛ لأنَّ الذي يُكلَّف بالاستطلاع، لا بدَّ أن يكون ذكيًّا جدًّا، شديد الاندفاع، حاضر البديهة.

وكان من أولئك القادة الذين يعملون لخدمة عقيدتهم والمسلمين، فهو قائد من قادة العقيدة، بذل نفسه رخيصة من أجل عقيدته، وضحَّى بروحه من أجل إعلاء كلمة الله.

فرضي اللَّه عن القائد الذي يدخله الجنة بغير حساب.

* * *

٢٨

قائد الرماة

البطل الشهيد

عبداللَّه بن جُبَيْر الأوسي الأنصاري

٢٨

قائد الرماة، البطل الشهيد

عبْدالله بن جُبَيْر الأوسي الأنصاري

هو عبدالله بن جُبَيْر بن النُّعْمان بن أُمَيَّة بن امرئ القَيْس بن ثعلبة بن عمرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس، ولقب بامرئ القيس البُرَك، وبه يعرف [(١)].

وهو من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف [(٢)]، ولم يُذكر اسمها، وهو أخو خَوَّات بن جُبَيْر لأبيه وأمِّه [(٣)]، وعمُّهما الحارث بن النُّعمان بن أُميَّة، شهد بدرًا [(٤)] أيضًا.

يكنى عبدالله بن جُبَيْر: أبا المُنْذِر [(٥)]، أسلم قديمًا، وشهد بيعة العَقَبة الثانية مع مسلمي الأوس والخزرج الذين شهدوها هناك [(٦)].

ولما هاجر النبي ﷺ من مكَّة إلى المدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار في المدينة، آخى بينه وبين الحُصَيْن بن الحارث [(٧)].

وكان هو وسُهَيْل بن حُنَيْف يكسران أصنام المشركين في المدينة ويأتيان بها المسلمين؛ ليستوقدوا بها [(٨)]، مما يدلُّ على شدَّة إخلاصه للإسلام والمسلمين.

---

(١) الاستبصار (٣٢٢)، والاستيعاب (٣/٨٧٧)، وأُسْد الغابة (٣/١٣٠)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٤٧٥)، وانظر: جمهرة أنساب العرب (٣٣٦).

(٢) أُسْد الغابة (٣/١٣٠).

(٣) الاستيعاب (٣/٨٧٧).

(٤) جمهرة أنساب العرب (٣٣٦).

(٥) أنساب الأشراف (١/٢٤١).

(٦) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)، وأنساب الأشراف (١/٢٤١)، والدرر (٧٦)، وجوامع السيرة (١٢٨).

(٧) الدرر (٩٩).

(٨) أنساب الأشراف (١/٢٦٥).

❑ جهاده

١- في غزوة بدر الكبرى:

شهد عبدالله بن جُبَير غزوة بدر الكبرى[١]، وأسر يومئذ أبا العاص بن الربيع[٢] وهو زوج زينب بنت النبيِّ ﷺ.

ولما بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بن الرَّبيع، وبعثت فيه بقِلادة لها كانت لخديجة أمِّ المؤمنين، يقال: إنَّها من جَزْعِ[٣] ظَفار[٤] كانت خديجة بنت خُوَيْلد أدخلتها بها على أبي العاص حين بَنَى بها. فلما رأى رسول الله ﷺ القِلادة عرفها ورقَّ لها وذكر خديجة وترحَّم عليها، وقال: «**إنْ رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا إليها مَتَاعها فعلتم**»، فقالوا: «**نعم يا رسول الله!**»، فأطلقوا أبا العاص بن الرَّبيع وردُّوا إلى زينب متاعها، وأخذ النبيُّ ﷺ على أبي العاص أن يُخلي سبيل زينب ابنته، فوعده ذلك. وقدم في فدائه عمرو بن الرَّبيع أخوه، وكان أبو العاص أسير عبدالله بن جُبَيْر[٥] الذي أطلقه بدون فداء؛ إكرامًا لرسول الله ﷺ.

٢- في غزوة أُحُد:

شهد عبدالله بن جُبَيْر غزوة أُحُد[٦]، فولَّاه النبيُّ ﷺ على الرُّماة، وعددهم خمسون رجلًا، وجعل موضعهم على جبل «**عَيْنَيْن**»[٧]، وجعل النبيُّ ﷺ أُحُدًا

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٧٥/٣)، والاستبصار (٣٢٣)، وأُسد الغابة (١٣٠/٣)، والمحبر (٢٧٩)، والاستيعاب (٨٧٧/٣)، والإصابة (٤٦/٤).

(٢) مغازي الواقدي (١٣١/١)، والاستبصار (٣٢٣).

(٣) الجزع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، والحجر في جملته بلون الظُّفْر.

(٤) ظَفَار: موضع باليمن قرب صنعاء، إليه ينسب الجزع؛ انظر: القاموس المحيط (٨١/٢).

(٥) مغازي الواقدي (١٣٠/١، ١٣١).

(٦) الإصابة (٤٦/٤)، وأُسد الغابة (١٣٠/٣)، والاستيعاب (٤٧٧/٣)، وطبقات ابن سعد (٤٧٥/٣).

(٧) عينان: جبل بأُحُد؛ انظر: معجم ما استعجم (٦٨٨).

خلف ظهره، واستقبل المدينة[١].

وأوعز النبيُّ ﷺ إلى الرُّماة، فقال: **«قوموا على مَصَّافكُم[٢] هذا، فاحموا ظهورنا، فإنْ رأيتم قد غنمنا فلا تشركونا، وإنْ رأيتم نُقْتَل فلا تنصرونا»**[٣].

ولما بدأت معركة أُحُد، جعل الرماة يرشقون المشركين، فما يقع سهم من سهامهم إلَّا في رجل أو فرس[٤]، وكان النبيُّ ﷺ قد رتَّب الرُّماة خلف جيش المسلمين، وأمر عبدالله بن جُبَيْر أن يَنْضَح[٥] المشركين بالنَّبْل؛ لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم[٦].

وجعلت قريش على ميمنتهم في الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم في الخيل عِكْرِمة بن أبي جَهْل[٧]، وكان عكرمة وخالد يتربَّصان بالمسلمين دون جدوى؛ لأنَّ الرماة يحمون ظهور المسلمين حماية كاملة من جهة، ويكبِّدون قريشًا خسائر فادحة في الأرواح من جهة أخرى.

واستمرَّ القتل في أصحاب لواء المشركين، ورأى النساء برجالهنَّ أمرًا عظيمًا، حتى وَلْوَلْنَ وتركن ما كنَّ فيه، فانهزم المشركون حتى انهزمت هند بنت عُتْبَة وصواحبها متحيِّرات ما دونهنَّ دافع ولا مانع، وحتى لو يشاء المسلمون لأخذوهن[٨].

وقاتل المسلمون يومئذ قتالًا شديدًا[٩]، ببصائر ثابتة، فانهزمت قريش واستمرَّت

---

(١) مغازي الواقدي (١/٢٢٠).

(٢) المصاف: جمع المَصَفّ؛ وهو موضع الصف في الحرب تقف فيه الصفوف.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤٧٥).

(٤) أنساب الأشراف (١/٣١٧).

(٥) ينضح: يرمي.

(٦) الدرر (١٥٥).

(٧) جوامع السيرة (١٥٩)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/١١).

(٨) أنساب الأشراف (١/٣١٧، ٣١٨)، وانظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٤).

(٩) جوامع السيرة (١٦٠).

الهزيمة عليهم(١).

وتبعهم المسلمون يضعون فيهم السِّلاح حيث شاءوا، حتى أجهضوهم ووقعوا ينتهبون العسكر، ويأخذون ما فيه من الغنائم(٢).

❑ البطل الشهيد

ولما انهزم المشركون، وتبعهم المسلمون يضعون السِّلاح فيهم حيث شاءوا وينهبون عسكرهم ويأخذون الغنائم، قال بعض الرُّماة لبعضٍ: «**ما تُقيمون ههنا في غير شيءٍ، فقد هزم اللَّه العدو، فاغنموا مع إخوانكم**». وقال بعضهم: «**ألم تعلموا أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال لكم: احموا ظهورنا؟ فلا تبرحوا مكانكم**»، فقال الآخرون: «**لم يرد رسول اللَّه ﷺ هذا، وقد أذلَّ اللَّه العدو وهزمهم**».

وخطبهم أميرهم عبداللَّه بن جُبَيْر، وكان يومئذٍ مُعْلَمًا بثياب بيض، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ أمر بطاعة اللَّه وطاعة رسوله، وأن لا يُخالَفَ لرسول اللَّه أمرٌ، فعصوا، وانطلقوا، فلم يبق من الرماة مع عبداللَّه ابن جُبَير إلَّا نُفَيْر ما يبلغون العشرة، فيهم الحارث بن أنس بن رافع من بني عبدالأشهل الأوس يقول: «**يا قوم! اذكروا عهد نبيِّكم إليكم، وأطيعوا أميركم**»، فأبوا، وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلَّوا الجبل(٣).

فلما انصرف الرُّماة، وبقي مَنْ بقي، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلَّة أهله، فكرَّ بالخيل، وتبعه عِكْرِمة بالخيل، فانطلقا إلى موضع الرُّماة، فحملوا على مَن بقي منهم، فرماهم القوم حتى أُصيبوا.

ورامى عبداللَّه بن جُبير حتى فَنِيَت نَبْلُه، ثم طاعن بالرُّمح حتى انكسر، ثم كسر جفن سيفه، فقاتلهم حتى قُتِل(٤). فلما وقع جَرَّدوه، ومَثَّلوا به أقْبَح المَثَل،

---

(١) الدرر (١٥٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٤١/٢).
(٣) مغازي الواقدي (٢٣٠/١)، وطبقات ابن سعد (٤٧٥، ٤٧٦).
(٤) مغازي الواقدي (٢٣٢/١)، وطبقات ابن سعد (٤٧٦/٣)، وانظر: الاستبصار (٣٢٣).

وكانت الرماح قد شُرعت في بطنه حتى خرقت ما بين سُرَّته إلى خاصرته إلى عَانَتِهِ، فكانت حُشْوَته قد خرجت منها.

وحمله أخوه خَوَّات ودفنه[١].

وقد قَتَل عبدَالله بن جُبَيْر يوم أُحد عِكْرِمةُ بن أبي جَهْل[٢].

وما قصَّر عبدالله بن جبير في طاعته المطلقة، وفي نصح أصحابه الرُّماة، وفي استقتاله دفاعًا عن موضع الرُّماة والباقين منهم، وعن الإسلام والمسلمين، مما يدعو إلى أعمق التقدير والإعجاب.

وكان من نتيجة مخالفة الرُّماة، خسارة غزوة أُحُد بالنسبة للمسلمين[٣].

وقد استُشهد عبدالله بن جُبَيْر يوم أُحُد وليس له عقب[٤]، فرحل عن الدنيا دون أن يترك درهمًا ولا دينارًا، ولا دارًا ولا عقارًا، ولا ولدًا من ذكر وأنثى، ولكنه ربح عقيدته ولم يخسرها في المعركة، فنزل فيه ومن ثبت معه من الرماة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢][٥].

ولله در القائل في أمر الرماة وسيدهم عبدالله بن جُبيَر:

أَئِن تولت جنود الشرك مُدبرةً ... خَفَّ الرماة وظنوا الأمر قد وَجَبا؟

كأنَّهم والرِّعانُ الشُّمُّ تقذفهم ... سَيْلٌ تَدَفَّق في شُؤبوبِه صَببا[٦]

يَخالهم من يراهم ساعةَ انطلقوا ... سِهامَهم حين جاش البأسُ فالتهبا

رَدُّوا على ابن جُبيْرٍ رأيه ومضوا ... إلَّا فريقًا رأى ما لم يروا فأبى

---

(١) مغازي الواقدي (٢٨٤/١)، وطبقات ابن سعد (٤٧٦/٣).

(٢) مغازي الواقدي (٣٠١/١، ٣٠٢)، وأنساب الأشراف (٣٣٠/١)، وانظر: سيرة ابن هشام (٧٨/٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢٤/٣، ٢٥)، وجوامع السيرة (١٦٠)، والدرر (١٥٦)، وابن الأثير (٢/ ١٥٣، ١٥٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٤٧٦/٣).

(٥) مغازي الواقدي (٣٢٤/١).

(٦) الرعان: أنوف الجبال، والجبال بجملتها. والشم: الطوال. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

أصابها خالدٌ منهم وعكرمةٌ ... أُمنيَّةً لم تُصِبْ من ذي هَوى سببًا
فاستنفرا الخيلَ والأبطالَ وانطلقا ... في هَبْوةٍ تزدهي الأرماحَ والقُضُبا
هم خلَّفوا رِمَم القتلى مُطرَّحةً ... وغادروا الجندَ جُندَ اللَّه والسَّلبا
طاروا إلى جبلٍ راسٍ على جبلٍ ... ما اهتزَّ مذ قام من ضعفٍ ولا اضطربا
قال الرسولُ فأعطاهُ مقالَته ... وما سِوَى نفسِه أعطى ولا وَهبا
تَوزَّعوه فلو أبصرتَ مَصرعَهُ ... أبصرتَ في اللهِ منه مَنظرًا عجبا
طَعنٌ وضَربٌ يعافُ البأسُ عندهما ... سِلاحَ من طَعنَ الأبطالَ أو ضربا
سلُّوا حَشَاهُ فظلَّت من أسنَّتهم ... تَموجُ في الدم يجري حوله سَربا[١]
تَتابَع القتلُ يجتاحُ الأُلى معه ... لولا المناقبُ لم يترك لهم عِقبا
تلك الدِّماءُ التي سالت على أُحدٍ ... لو أنبتَ الدمُ شيئًا أنبتت ذهبا
ظلمْتُها - ما لشيءٍ مثلُ رتبتِها ... وإن تخطَّى المدَى أو جاوزَ الرُّتَبا
لم يبقَ سَهمٌ ولا رامٍ يُسدِّده ... تَغيَّبَ الوابلُ الهطَّالُ واحتجبا[٢]
وكرَّتِ الخيلُ تَردِي في فوارسها ... بعد الفرار فأمسى الأمرُ قد حَزبا[٣]
المسلمون حَيارى - كيف يأخذُهم ... بأسُ العدوِّ أما رَدُّوه فانقلبا؟
حَلُّوا الصفوفَ وجالوا في مغانمِهم ... ما ظنَّ عسكرهم شرًّا ولا حَسبا
هذا البلاءُ لقومٍ مالَ غافلهم ... عن رأي سيدهم إذ يُحكِم الأُربا[٤]

استشهد البطل في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة، «٦٢٤م»، عن سبع وثلاثين سنة تقريبًا.

❑ عبداللَّه بن جبير القائد

لقد كان مؤمنًا قويَّ الإيمان، راسخ العقيدة، كثير التقوى، شديد الورع،

---

(١) سائلًا.
(٢) الوابل: المطر الكثير.
(٣) ردت الفرس: رجمت الأرض بحوافرها. وحزب الأمر: اشتد، وهو يتعدى؛ فيقال: حزبه الأمر.
(٤) الأرب: جمع أربة؛ وهي: العقدة التي لا تنحل حتى تحل.

مخلصًا للإسلام والمسلمين، محبًّا لله ورسوله، شهمًا، غيورًا، كريمًا، فكان جماع سَجايا الأصيل والمسلم الحق.

كانت تلك السجايا تمثَّلت فيه رجلًا سويًّا يمشي على الأرض، فعاش من أجل تلك السجايا، ومات من أجلها، عليه رحمة الله.

أما سجاياه القيادية التي أهَّلته لتولي قيادة الرُّماة في أخطر غزوة من غزوات النبيِّ ﷺ، والذي يتوقَّف على جهوده وجهود رجاله النَّصر أو الهزيمة، كما حدث في التَّطبيق العملي لسير الحوادث في القتال، فيُمكن تلخيصها بثلاث سجايا بارزة، هي: مهارته في الرمي أولًا؛ وشجاعته وإقدامه ثانيًا؛ وطاعته المطلقة وشدَّة ضبطه ثالثًا وأخيرًا.

لقد كان الرُّماة الماهرون معروفين في صفوف المسلمين بأسمائهم وكفايتهم المتميِّزة بالرمي، وهم الذين نطلق عليهم اليوم بموجب المصطلحات العسكرية الحديثة وصف: الهدَّافين، جمع هدَّاف، وهو الرَّامي الماهر بالرَّمي.

وكان اعتماد النبيِّ ﷺ، في غزواته ـ وبخاصة غزواته الأولى ـ على الرُّماة الماهرين عظيمًا جدًّا؛ لأنَّ المسلمين حينذاك كانوا يفتقرون إلى الخيول، بعكس المشركين الذين كانوا أغنياء بخيولهم، فكان المسلمون يعوِّضون بدقَّة الرمي عن نقص الخيول في صفوفهم، فلا بدَّ أن يكون عبداللَّه بن جبير ماهرًا بالرَّمي ليتولى قيادة الرُّماة في تلك الغزوة؛ ليكون قدوة لرجاله، ولكي يستطيع قيادتهم بكفايته المتميِّزة على كفايتهم في الرَّمي.

ولكن القول بأنَّه كان من الرُّماة الماهرين لا يغني عن كلِّ قول، فلا بد أن يكون متميِّزًا بشجاعته وإقدامه؛ ليضرب لرجاله في هذا المجال أروع الأمثال.

ولعلَّ أكبر دليل على شجاعته وإقدامه، ثباته العنيد مع عشرة من رجاله فقط، تجاه هجوم فرسان المشركين المؤلَّف من مئتي فارس بقيادة خالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبي جهل، فقد كانت المعركة بين عشرة من المشاة من جهة، ومئتي فارس من

جهة ثانية معركة غير متكافئة؛ لأنَّ التفوق كمِيَّةً ونوعيَّةً بجانب المشركين على المسلمين، فكانت المعركة معروفة النتائج سلفًا: الشَّهادة بالنسبة للرُّماة العشرة المسلمين، ولكنَّه ثبت ثبات الراسيات، وقاتل قتال الأبطال، واستقتل في الدفاع عن عقيدته، فربح شرف المعركة وشرف الثبات، وخسر نفسه، ولا تعدُّ خسارته هذه شيئًا مذكورًا تجاه ثباته وشجاعته وإقدامه.

أما سجيَّته الثالثة فهي طاعته المطلقة وشدَّة ضبطه المتين، مما كان ولا يزال وسيبقى مثالًا رائعًا للطَّاعة المطلقة والضبط المتين لكل عسكري يعتدُّ بشرفه العسكري قائدًا، وضابطًا، وضابط صف، وجنديًّا.

تلك هي مزايا عبدالله بن جُبَيْر القيادية، وهي ثمرة من ثمرات عقيدته الراسخة وإيمانه العميق.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، القائد الشهيد، البطل الصنديد عبدالله بن جُبير الأوسي.

* * *

٢٩

القائد الشهيد

قائد سرية بئر معونة «المعنق ليموت»

المُنْذِر بن عمرو السَّاعدي الخَزْرَجِي الأنصاريُّ

٢٩

القائد الشهيد
قائد سرية بئر معونة «المعنق ليموت»

المُنْذِر بن عمرو السَّاعدي الخَزْرَجِي الأنصاريُّ

هو المُنْذِر بن عَمْرو بن خُنَيْس بن لَوْذَان بن عَبْدِ وُدٍّ بن زيد بن ثَعْلَبَة بن الخَزْرَج ابن ساعدة[١].

أُمُّه: هند بنت المنذر بن الجَموح بن زيد بن حَرام بن كَعْب بن غَنْم بن كعب ابن سَلِمَة[٢]، من بني الخزرج[٣] أيضًا من بني حَرَام الخَزْرَجِيَّة الأَنْصارِيَّة، وكانت من النساء المبايعات لرسول الله ﷺ[٤].

ولا ذكر للمنذر قبل الإسلام، ولا نعلم عن أخباره شيئًا في الجاهليَّة، ولكن اسمه لمع بعد إسلامه، فقد شهد البيعة الثانية الكبرى بالعَقَبَة، في ثلاث وسبعين رجلًا وامرأتين من الأنصار[٥]، فاختاره النبيُّ ﷺ نقيبًا ضمن اثني عشر نقيبًا، فهو عَقْبي نقيب[٦].

ولما علمت قريش بأخبار بيعة العقبة الثانية، خرجوا في طلب الذين بايعوا النبيَّ

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٦٦)، وفيه: «ابن طريف بن الخزرج»، والاستبصار (١٠١)، وطبقات ابن سعد (٣/٥٥٥)، وأُسْد الغابة (٤/٤١٨)، والإصابة (٦/١٤٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٥)، والمحبر (٤٢٦).

(٣) المحبر (٤٢٦).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٤٩).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/٥٢)، والمحبر (٢٦٩، ٢٧٠)، والاستبصار (١٠١)، وأنساب الأشراف (١/٢٥٢).

(٦) الإصابة (٦/١٤٠)، وأُسْد الغابة (٤/٤١٨).

ﷺ، فأدركوا سعد بن عُبَادة بـ«أَذاخِر»[(١)]، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر ففاتهم، ولما ظفر المشركون بسعد بن عبادة سألوه: أنت على دين محمَّد؟ فقال: «**نعم**»، فأوثقوه رباطًا، حتى خلَّصه مُطْعِم بن عَدِي، وكان له صديقًا. وكان المنذر أشرف أن يؤخذ، فقال ضِرار بن الخطَّاب الفِهْري:

تَدارَكْتُ سَعْدًا عَنْوَةً فَأَخَذْتُهُ ... وكانَ شِفاءً لَوْ تَدارَكْتُ مُنْذِرا

ولو نِلْتُهُ طُلَّتْ هُناكَ جِراحُهُ ... وكَانَ حَرِيًّا أنْ يُهَانَ ويُهْدَرا

فأجابه حسَّان بن ثابت شاعر النبيِّ ﷺ يردُّ عليه[(٢)]، فقال:

وَلَسْتَ إلى سَعْدٍ ولا المَرْءِ مُنْذِرٍ ... إذا ما مَطَايَا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا[(٣)]

فلولا أبو وَهْبٍ لَمُرَّتْ قَصائِدٌ ... على شَرَفِ البَرْقَاءِ يَهْوِيْنَ حُسَّرا[(٤)]

أتَفْخَرُ بالكَتَّان لَمَّا لَبِسْتَهُ ... وقد تَلْبَسُ الأَنْبَاطُ رَيْطًا مُقَصَّرا[(٥)]

فلا تَكُ كالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أنَّهُ ... بِقَرْيَةِ كِسْرى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرا[(٦)]

وَلَا تَكُ كالثَّكْلَى وكانَتْ بِمَعْزِلٍ ... عن الثُّكْل لو كانَ الفؤادُ تَفَكَّرا[(٧)]

وَلَا تَكُ كالشَّاةِ التي كان حَتْفُهَا ... بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا فلم تَرْضَ مَحْفَرَا[(٨)]

---

(١) أذاخر: اسم موضع قريب من مكَّة، وفي حديث فتح مكَّة: «لما وصل رسول الله ﷺ عام الفتح، دخل من أذاخر، حتى نزل بأعلى مكَّة، وضربت هناك قبَّته».

(٢) انظر: التفاصيل في سيرة ابن هشام (٢/٥٨ - ٦١)، وأنساب الأشراف (١/٢٥٤، ٢٥٥)، وانظر: الدرر (٧٥، ٧٨)، وجوامع السيرة (٧٦).

(٣) ضُمَّرًا: جمع ضامر، وكان العرب يضمرون الخيل للسباق أو الركض إلى العدو، وكانوا إذا فعلوا ذلك أمنوا عليها البهر الشديد والإعياء إذا حضروها، وقد كنى بذلك حسَّان عن التهيؤ للحرب والاستعداد له.

(٤) حُسَّرًا: جمع حاسرة؛ يريد: لولا أبو وهب، لكانت قصائدك قد انقطع بها السير في طريقها إلينا؛ لأنَّها من سفساف القول ورديئه، لكنَّه حملها إلينا فبلغتنا.

(٥) الكتان ـ بفتح أوله وتشديد ثانية ـ: نوع من القماش معروف. والأنباط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق. والريط ـ بفتح فسكون ـ: جمع ريطة؛ وهي: الملحفة البيضاء.

(٦) الوسنان: النَّائم.

(٧) الثَّكلى: التي فقدت ولدها.

(٨) يشير إلى مَثَلٍ سببه: أنَّ رجلًا وجد شاة بالفلاة وهو جائع، وليس معه ما يذبحها به، فلما أمسكها

ولا تَكُ كالغَاوِي فَأَقْبَلَ نَحْرَهُ ... وَلَا يَخْشَهُ سَهْمًا من النَّبْلِ مُضْمَرا[١]
فإنَّا وَمَنْ يُهْدِي القَصَائِدَ نَحْوَنَا ... كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْرًا إلى أَهْلِ خَيْبَرا[٢]

فلما قدم الذين بايعوا النبيَّ ﷺ في العَقَبَة المدينة، أظهروا الإسلام بها[٣].

ولما هاجر النبيُّ ﷺ من مكَّة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة، وصل إلى المدينة، تلقّاه المسلمون يعرضون عليه النزول عندهم، كلُّ واحد منهم يتمنى أن يحلَّ عنده، وكلُّ جماعة من الأنصار تَتَمنَّى أن تنال هذا الشرف العظيم، وكان المنذر من جملة الذين عرضوا على النبيِّ ﷺ أن يحلَّ بينهم، فقد مرَّ النبيُّ ﷺ على ناقته بدار بني ساعدة قوم المنذر من الخزرج، فاعترضه سعد بن عُبادة والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فقالوا: «**يا رسول الله! هَلُمَّ إلينا إلى العَدَد والعُدَّة والمَنَعَة**»، فقال: «**خلُّوا سبيلها فإنَّها مأمورة**»[٤]، يريد خلُّوا سبيل ناقته القَصْواء فإنَّها مأمورة.

وآخى النبيُّ ﷺ بين طُلَيْب بن عُمَيْر بن وَهْب والمنذر بن عمرو[٥]، وفي رواية: أنَّه آخى بين أبي ذرٍّ الغِفاري والمنذر بن عمرو[٦]، والرواية الأولى هي الصحيحة، وإنما آخى رسول اللَّه ﷺ بين أصحابه قبل غزوة بدرٍ الكبرى، وأبو ذَرٍّ يومئذٍ غائب عن المدينة، ولم يشهد بَدْرًا ولا أُحُدًا ولا الخَنْدَق، وإنَّما قدم على رسول اللَّه ﷺ المدينة بعد ذلك[٧].

ظلَّت تحفر الأرض بأرجلها حتى ظهرت مدية كانت مطمورة في الرَّمل، فأخذها فذبحها بها، وفي ذلك يقول العرب: «سعى إلى حتفه بظلفه»؛ والحتف: الموت. ومحفرًا: يكون مصدرًا بمعنى الحفر، ويكون اسم مكان.

(١) أقبل نحره السهم: جعل نحره قبالة السَّهم.

(٢) يقول: نحن أهل الشِّعر، والمقال مقالنا؛ فكيف تتعرَّض لنا بالقول. وخيبر: إحدى البلاد الشهيرة بالتمر، ويقال أيضًا في الأمثال: كمستبضع التَّمر إلى هَجَر، وكمستبضع التمر إلى البصرة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٥٩/٢ - ٦١).

(٤) سيرة ابن هشام (١١٢/٢)، والدرر (٩٣).

(٥) المحبر (٧٢)، وطبقات ابن سعد (٥٥٥/٣)، وأُسْد الغابة (٤١٦/٤).

(٦) الدرر (٩٩)، وسيرة ابن هشام (١٢٥/٢)، وجوامع السيرة (٩٦).

(٧) طبقات ابن سعد (٥٥٥/٣)، وأُسْد الغابة (٤١٩/٤)، والاستبصار (١٠١)، وعيون الأثر (٢٠١/١).

وبدأ الصِّراع الحاسم بين الإِسلام والشِّرك وبين المسلمين والمشركين، فشهد المنذر غزوة بَدْر الكبرى[١].

كما شهد غزوة «**أُحُد**» وكان على مَيْسَرة المسلمين في هذه الغزوة[٢].

وهكذا أدَّى المنذر واجبه في الدَّعوة إلى الإسلام، وفي الدفاع عنه، وفي الجهاد مجاهدًا وقائدًا مرءوسًا، وكان من رؤساء الخزرج من الأنصار، ومن الذين جنَّدوا رئاستهم لخدمة المسلمين جنديًّا وقائدًا وداعية ومُرْشِدًا.

❑ قائد سريَّة بئر مَعُونة[٣]

بعد غزوة «**أُحُد**»، أقام رسول اللَّه ﷺ بالمدينة المنوَّرة بقيَّة شوَّال، وذا القَعْدَة، وذا الحِجَّة من السنة الثالثة الهجرية، والمُحَرَّم من السنة الرابعة الهجرية، ثمَّ بعث أصحاب بئر مَعُوْنَة في تمام السنة الثالثة للهجرة وأوائل السنة الرابعة للهجرة على رأس أربعة أشهر من غزوة «**أُحُد**».

وكان سبب ذلك أنَّ أبا براء الكِلَابي، من بني كِلاب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة، ويُعرف بمُلاعِبِ الأسِنَّة[٤]، واسمه عامِر بن مالك بن جعفر بن كِلاب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة، وفد على رسول اللَّه ﷺ، فدعاه رسول اللَّه ﷺ إلى الإسلام، فلم يُسْلِم ولم يُبْعِد، وقال: «**يا محمَّد! لو بعثْتَ رجالًا من أصحابك إلى أهل نَجْدٍ فَدَعَوْهم إلى أمرك، لرجوت أن يستجيبوا لك**»، فقال ﷺ: «**إني أخشى**

---

(١) مغازي الواقدي (١٦٨/١)، وسيرة ابن هشام (٣٤٤/٢)، والدرر (١٣١).

(٢) الاستبصار (١٠١).

(٣) بئر معونة: ماء من مياه بني سليم، بين أرض بلاد عامر وأرض بني سليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرَّة بني سليم أقرب.

(٤) سمِّي ملاعب الأسنة يوم سوبان، وهو يوم كانت فيه وقيعة (بالتصغير) في أيام العرب بين قيس وتميم، وقد فَرَّ عنه أخوه؛ فقال الشاعر:

فررتَ وأسلمتَ ابن أمِّك عامرًا ... يلاعب أطراف الوشيج المزعزع

انظر: الروض الأنف (١٧٤/٢).

عليهم أهل نَجْدٍ»، فقال أبو بَراء: «**أنا جارٌ لهم**».

وبعث رسول اللَّه ﷺ المنذر بن عمرو، أحد بني ساعِدَة، وهو الذي يلقَّب: «**المُعْنِق**[١] **ليموت**»، لقب غلب عليه، والأكثر يقولون: «**أعْنَق ليموت**»، في أربعين من المسلمين، وقيل: في سبعين من خيار المسلمين، منهم: الحارث بن الصِّمَّة، وحَرام بن مِلْحان ـ أخو أمِّ سُلَيْم[٢]، وهو خال أنَس بن مالك ـ وعُرْوَة بن أسماء بن الصَّلْت السُّلَمِيّ، ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء الخُزَاعِيّ، وعامِر بن فُهَيْرَة مولى أبي بكر الصِّدِّيقِ، وغيرهم، فنهضوا ونزلوا بئر مَعُونة، وهي بين أرض بني عامِر وحَرَّة بني سُلَيْم، وهي إلى حَرَّة بني سُلَيْم أقرب ـ وأمَّر النبيُّ ﷺ على جميعهم المنذر بن عمرو.

وحين وصلت السرية إلى بئر مَعُونة، بعثوا منها حَرَام بن مِلْحَان بكتاب رسول اللَّه ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيْل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، ثمَّ عدا عليه فقتله، ثمَّ استنهض إلى قتال الباقين بني عامِر، فأبوا أن يُجيبوه؛ لأنَّ أبا بَراء أجارهم، فاستغاث عليهم بني سُلَيْم، فنهضت معه عُصَيَّة ورِعْل وذَكْوان، وهم قبائل من بني سُلَيْم، فأحاطوا بهم، فقاتلوا، فقُتلوا كلُّهم رضوان اللَّه عليهم، إلَّا كَعْب بن زيد أخا بني دينار بن النجّار، فإنَّه تُرِك في القتلى وفيه رمق، فارتُثَّ[٣] من القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق رضوان اللَّه عليه.

وكان عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيُّ في سرح المسلمين الذين كانوا في تلك السرية، ومعه المُنْذِر بن محمَّد بن عُقْبَة بن أُحَيْحَة بن الجُلاح، فنظر إلى الطَّير نحو على العسكر، وكانا في سَرْح المسلمين[٤]، فنهضا إلى ناحية أصحابهم، فإذا الطَّير تحوم

---

(١) المعنق: المسرع، لقب به؛ لمسارعته للشهادة. وأعنق ليموت؛ أي: أنَّ المنيَّة أسرعت به وساقته إلى مصرعه. انظر: النهاية (٣/١٣٣).

(٢) هي أمُّ أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخت أم حرام التي هي زوجة عبادة بن الصَّامت.

(٣) ارتث: رُفِعَ وبه جراحٌ، حُمِلَ من المعركة جريحًا.

(٤) السَّرح: الرعاء.

على القتلى، والخيل التي أصابتهم لم تزل بعدُ، فقال المنذر بن محمَّد لعمرو بن أُميَّة: «**فما ترى؟**»، فقال: «**أرى أن نلحق برسول اللَّه ﷺ فنخبره الخبر**»، فقال الأنصاري: «**ما كنتُ لأَرْغَبَ بنفسي عن موطن قتل فيه المُنْذِر بن عمرو**»، فقاتل حتى قُتِل، وأُخذ عمرو بن أُميَّة أسيرًا، فلما أخبرهم أنَّه من مُضَر، جَزَّ ناصيته عامِر بن الطُّفَيْل، وأطلقه عن رقبة كانت على أُمِّه، وذلك لعشرين بقين من صفر.

ورَجَع عمرو بن أُميَّة، حتى إذا كان بـ«**القَرْقَرَة**»[١] من صدر «**قناة**»[٢]، أقبل رجلان من بني عامِر، وقيل: من بني سُلَيْم، حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وكان معهما عهد من رسول اللَّه ﷺ لم يعلم به عمرو بن أُميَّة. وكان قد سألهما حين نزلا: «**ممن أنتما؟**»، قالا: «**من بني عامِر**»، فأَمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنَّه قد أصاب منهما ثأره من بني عامِر فيما أصابوا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

فلما قدم عمرو بن أُميَّة على رسول اللَّه ﷺ وأخبره الخبر، قال: «**لقد قَتَلْتَ قتيلين كان لهما مني جِوار، لأَدِيَنَّهما**[٣]**، هذا عمل أبي بَراء، قد كنتُ لهذا كارهًا متخوِّفًا**».

ولم يَجِد رسول اللَّه ﷺ على قَتْلى ما وَجَد على قَتْلَى بئر مَعُوْنَة.

وبلغ أبا بَرَاء ما صنعَ عامِر بن الطُّفَيْل، فشقَّ عليه إخفاءه إياه، ولا حركة به من الكِبَر والضعف، فقال: «**أَحْضرني ابن أخي من بين بني عامِر**».

وركب ربيعة بن أبي بَرَاء ولحق عامرًا وهو على جمل له، فطعنه بالرُّمح فأخطأ مَقَاتله، وتصايح النَّاس، فقال عامر بن الطُّفَيْل: «**إنَّها لم تضرَّني! إنها تضرَّني!**». وقال: «**قُضِيَت ذِمَّة أبي بَرَاء**»، وقال: «**قد عفوت عن عمِّي، هذا فعله**»[٤].

---

(١) القرقرة: هي قرقرة الكدر، على ثمانية برد من المدينة.

(٢) قناة: وادٍ يأتي من الطائف ويصبُّ في قرقرة الكدر.

(٣) أَدِيَنَّهُمَا: أؤدي ديتهما.

(٤) مغازي الواقدي (١/٣٤٦ - ٣٥٣)، وسيرة ابن هشام (٣/١٨٤ - ١٩١)، وطبقات ابن سعد (٢/٥١ - ٥٤)، والطبري (٢/٥٤٥ - ٥٤٩)، وابن الأثير (٢/١٧١ - ١٧٣)، وابن كثير (٤/٧١ - ٧٤)،

لقد كان أكثر أفراد هذه السرية شَبَبَةً[١] يُسَمُّون القُرَّاء، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة، فتدارسوا وصلَّوا، حتى إذا جاء الصُّبح استعذبوا من الماء وحَطَبوا من الحَطَب، فجاءوا به إلى حُجَر رسول اللَّهﷺ، وكان أهلوهم يظنون أنهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنهم في أهليهم، فبعثهم رسول اللّهﷺ في تلك السرية، فخرجوا فأصيبوا في بئر مَعُونَةَ[٢]، والقُرَّاء هم علماء الأُمَّة، الذين نذروا أنفسهم للعلم وللعمل به، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعمل الخير، وكان على رأسهم أعلمهم بكتاب اللّه وسنَّة نبيِّهﷺ المنذر بن عمرو.

وقد قُتل أصحاب المنذر، فعرض عليه المشركون أن يؤمِّنوه، ولكنَّه قاتلهم حتى قُتل، فذلك قول رسول اللَّهﷺ فيه: «**أَعْنَقَ ليموت**»[٣]، فَلُقِّب: «**المُعْنِق ليموت**» ـ كما ذكرنا ـ.

لقد كانت سرية بئر مَعُوْنة ملحمة من ملاحم المجاهدين في اللّه الذين يعتبرون الشهادة أُمنية من أغلى أمانيهم، فحين طعن المشرك جبَّارُ بن سُلْمى مولى أبي بكر الصِّدِّيق عامِرَ بن فُهَيْرَة سمعه القاتل يقول: «**فُزْتُ واللهِ**»[٤]، فأعلن حينذاك القاتل إسلامه؛ لأنه رأى تضحية لا يمكن أن تكون إلا لله وحده.

وكان على رأس المجاهدين الصادقين، المنذر بن عمرو.

والدر، لابن عبدالبر (١٧٠ ـ ١٧٣)، وجوامع السيرة، لابن حزم (١٧٨ ـ ١٨٠)، والبخاري (٥/ ١٠٣)، وابن سيد الناس (٢/٤٣ ـ ٤٨)، والنويري (١٧/١٣٠)، وزاد المعاد (٢/٢٧٢)، والإمتاع (١٧٠)، والمواهب (١/١٣٣)، وتاريخ الخميس (١/٤٥١)، وأنساب الأشراف (١/٣٧٥).

(١) شبية: الشبان، واحدهم شاب؛ انظر: النهاية (٢/٢٠١).

(٢) مغازي الواقدي (١/٣٤٧).

(٣) مغازي الواقدي (١/٣٤٨).

(٤) مغازي الواقدي (١/٣٤٩).

المنذر بن عمرو القائد

وكما وَجَد النبيُّ ﷺ على شهداء بئر مَعُوْنة وجدًا عظيمًا، كان وَجْد المسلمين عليهم عظيمًا كذلك، فقال حسَّان بن ثابت يبكي قتلى بئر مَعُوْنة، ويخصُّ بالذكر منهم المنذر بن عمرو:

على قَتْلَى مَعُوْنَة فاسْتَهِلِّي بدمع العَيْنِ سَحًّا غيرَ نَزْرِ[١]
على خَيْلِ الرَّسولِ غَدَاةَ لَاقَوْا ولَاقَتْهُمْ مَنَايَاهُم بِقَدْرِ
أَصَابَهُمُ الفَنَاء بِعَقْدِ قَوْمٍ تُخُوِّن عَقْدُ حَبْلِهِمْ بِغَدْرِ[٢]
فيا لَهْفِي لِمُنْذِر إذ تَوَلَّى وأَعْنَقَ في مَنِيَّتِهِ بِصَبْرِ[٣]
وَكَائِنْ قد أُصِيبَ غَداةَ ذَاكُم مِنَ ابيَضَ ماجِدٍ من سِرِّ[٤] عمرو[٥]

لقد كان المنذر من رجالات قومه، وحسبه أنَّ النبيَّ ﷺ اختاره لهم نقيبًا؛ لأنَّه كان أتقاهم ومن رؤسائهم.

ولم يكن وحده من آل بيته متميِّزًا بالتقوى، فقد كانت أخته مندوس بنت عمرو، وهي أمُّ سلمة بن مُخَلَّد، وأخته سَلْمَى بنت عمرو من المبايعات رسول الله ﷺ[٦] وكانت أمُّه من المبايعات[٧] أيضًا، فهو من بيت تقوى انتشر الإسلام فيه مبكِّرًا، وأثَرُ المنذر في هذا البيت ظاهر العيان.

---

(١) استهلي: أسيلي دموعكِ. والسحُّ: الصبُّ الكثير. والنزر: القليل.
(٢) تخوَّن: انتقص، وهو مبني للمجهول، فهو بضم التاء والخاء وتشديد الواو مكسورة.
(٣) أعنق: أسرع. والعَنَق - بفتح العين والنون جميعًا -: السَّيْر السَّريع، وهذا الفعل مأخوذ منه، وقوله لمنذر إما أن يكون قد حذف التنوين من العلم المذكَر؛ لاضطراره إلى ذلك؛ لإقامة الوزن، وإما أن يكون وصل همزة إذ، وهذا أولى عندنا، وهو الذي ضبطنا البيت عليه. قاله الشيخ محي الدين عبدالحميد - رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٤) «من سر عمرو» سر القوم: خالصهم ولبابهم. انظر: سيرة ابن هشام (٣/١٩٠).
(٥) من سيرة ابن هشام (٣/١٩٠).
(٦) المحبر (٤٢٢ - ٤٢٣).
(٧) المحبر (٤٢٦).

وفي المنذر قال النبيُّ ﷺ: «**أعْنَقَ ليموت**»؛ أي: مشى للموت، وهو يعرفه[١].

وكان المنذر يكتب في الجاهلية[٢]، يوم كان الذين يكتبون قليلين، فهو من علماء المسلمين الأولين، وكانت الكتابة في العرب قليلاً[٣].

وقد استُشهد أوَّل سنة أربع الهجرية[٤] «٦٢٥م»، ولا عقب له[٥]، وروى حديثًا واحدًا عن النبيِّ ﷺ[٦].

ولا نعلم سنة مولده، والأغلب أنَّه استُشهد وهو في ريعان الشباب.

أما سمات المُنْذِر القيادية، فهو قائد من قادة العقيدة، اختاره النبيُّ ﷺ نقيبًا يدعو إلى الله، فعاش نقيبًا واستُشهد نقيبًا، وكان في سريته نقيبًا، يضرب لهم في نفسه أروع الأمثال في البذل والتضحية والفداء.

ولعلَّ قولة أحد رجاله: «**ما كنت لأَرْغَب بنفسي عن موطنٍ قُتِل فيه المنذر بن عمرو!!**»، خير دليل على تعلق رجاله به وتعلقه بهم؛ لأنَّه أعلمهم بالدين، وأتقاهم، وأصبرهم، وأكثرهم شجاعة وإقدامًا، فأعْنَقَ ليموت، كما وصفه النبيُّ ﷺ؛ لأنَّه أسرع إلى الموت مُقْبلًا غير مُدْبِر، فرحًا بلقاء الله، طالبًا الشَّهادة، وقع على الموت، ولم يقع الموت عليه، فسقط شهيدًا، ولم يسقط السيف من يده.

لقد كان المنذر أحد اللَّبِنات القوية المتينة التي شُيِّد عليها صرح الإسلام القويُّ المتين.

وليس كالشهداء من أجل عقيدتهم لِبَنات تشيَّد عليها صروح العقيدة التي لا يمكن أن تُقهر أبدًا.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٥)، وأُسْد الغابة (٤/٤١٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٥).
(٤) أُسْد الغابة (٤/٤١٩)، والمحبر (١١٨).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٥).
(٦) الإصابة (٦/١٤٠).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، العَقَبي النقيب، البدري الشهيد، القارئ الفقيه، قائد سرية بئر معونة، المُعْنِق ليموت، المنذر بن عمرو الساعدي الخزرجي الأنصاري.

* * *

٣٠

عُمَيْر بن عَدِيٍّ الخَطْمِيُّ الأَوْسِيُّ

القائد الشهيد

٣٠

عُمَيْر بن عَديٍّ الخَطْمِيُّ الأَوْسِيُّ

القائد الشهيد

هو عُمَيْر بن خَرَشة بن أُمَيَّة بن عامِر بن عبدالله، وهو خَطْمَة، بطن من بطون الأَوس، بن جَشَم بن مالِك بن الأوس[١].

وكان قديم الإسلام، صحيح النيَّة[٢]، وكان أسبق بني خَطْمَة إلى الإسلام، وكان أوَّلهم إسلامًا، ولم يكن في بني خطمة يوم أسلم مُسْلِمٌ غيره[٣]، وكان يكسِّر أصنام بني خطمة[٤].

ولا نعلم سنة مولده، ولا تفاصيل أيامه الأولى قبل الإسلام.

أما بعد الإسلام، فقد كان عمير يُدعى: القارئ، وقد حفظ طائفة من القرآن، وكان يؤمُّ بني خَطْمَة[٥] قومه، وكان أبوه شاعرًا[٦].

ولم يشهد عمير بدرًا؛ لضرارته، فقد كان أعمى[٧]، وقيل: بل كان بصيرًا ولكنه ضعيف البَصر[٨].

وأرجِّح أنه كان بصيرًا، ولكنه كان ضعيف البصر؛ لأنَّه شهد مع النبيِّ ﷺ بعض غزواته، وأدَّى بعض الواجبات التي يصعب على الأعمى أداؤها، كما

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٤٣).
(٢) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار (٢٦٨).
(٣) جوامع السيرة، لابن حزم (١٦٩).
(٤) الاستيعاب (١٢١٨/٣).
(٥) الاستبصار (٦٩).
(٦) الاستيعاب (١٢١٨/٣).
(٧) الإصابة (٣٤/٥).
(٨) الاستبصار (٢٦٨).

سنذكر إحدى تلك الواجبات وشيكًا.

ويبدو أنَّه كان يشكو ضعف البصر الشديد، لذلك اختلفوا في أمره، فقال قسم منهم: إنَّه أعمى، وقال الآخرون: إنَّه بصير، ولكنَّه ضعيف البَصر.

❑ سَرِيَّتُه

وكانت سريَّة عمير إلى عَصْماء بنت مروان من بني أُميَّة بن زيد، لخمس ليالٍ بقين من رمضان على رأس تسعة عشر شهرًا من هجرة النبيِّ ﷺ ، أي: في السنة الثامنة الهجريَّة، وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حِصْن الخَطْمِي، وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبيّ ﷺ وتقول الشعر[1] . فقالت تعيب الإسلام وأهله:

بِإسْتِ بَنِي مالِكٍ والنَّبِيبِ ... وعَوْفٍ وبِاسْتِ بنِي الخَزْرَجِ
أَطَعْتُمْ أَتَاوِيَّ مِنْ غَيرِكُمْ ... فلا من مُرادٍ ولا مَذْحِجِ[2]
تُرَجُّونَه بَعْدَ قَتْلِ الرءوسِ ... كما يُرْتَجى مَرَقُ المُنْضِجِ[3]
أَلَا أَنِفٌ يَبْتَغِي غِرَّةً ... فَيَقْطَعَ مِنْ أَمَلِ المُرْتَجِيْ[4]

فأجابها حسَّان بن ثابت شاعر النبيِّ ﷺ فقال:

بنو وائِلٍ وبنو واقِفٍ ... وخَطْمَةَ دونَ بني الخَزْرَجِ
مَتَى ما دَعَتْ سَفَهًا وَيْحَهَا ... بِعَوْلَتِهَا والمنايا تَجِي[5]
فهزَّتْ فَتى ماجِدًا عِرْقُهُ ... كَرِيمَ المداخِلِ والمَخْرَجِ
فَضَرَّجَها من نَجِيعِ الدِّما ... ءِ بَعْدَ الهُدُوِّ فلم يَحْرَجِ[6]

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٢٧).

(٢) الأتاوي: الغريب. ومراد ومذحج: قبيلتان من قبائل اليمن.

(٣) الرءوس: أشراف القوم.

(٤) الأَنِف ـ بفتح الألف وكسر النون ـ: الذي يترفع عن الشيء ويكبر نفسه عنه. والغرة: الغفلة. وقد روى أيضًا: «ألا أَنِفٌ يبتغي عزَّة».

(٥) العَوْلة ـ بفتح العين المهملة وسكون الواو ـ: المرَّة من العويل؛ وهو: البكاء مع ارتفاع صوت. وتجي في آخر البيت: أصله تجيء بالهمزة، فخفَّفه بحذفها.

(٦) ضرَّجها: لطَّخها. والنجيع ههنا: الكثير. بعد الهدو؛ أي: بعد ساعة من اللَّيل. وقوله: لم يحرج: هو

فقال رسول اللَّه ﷺ حين بلغه ذلك: «**ألا آخِذٌ لي من ابنة مَرْوان؟**»، فسمع ذلك من قول رسول اللَّه ﷺ عُمَيْر، وهو عنده، فلما أمسى من تلك الليلة سَرَى عليها في بيتها، فقتلها.

وأصبح عمير مع رسول اللَّه ﷺ فقال: «**يا رسول الله! إني قد قتلتها**»، فقال: «**نَصرْتَ اللهَ ورسولَه يا عُمَيْر!**»، فقال: «**هل عليَّ شيءٌ من شأنها يا رسول الله؟**»، فقال: «**لا يَنْتَطِحُ فيها عَنْزان**»[1].

ورجع عمير إلى قومه، وبنو خطمة يومئذ مَوْجُهُم[2] كثير في شأن بنت مروان، ولها يومئذ بنون؛ خمسة رجال، فلما جاءهم عمير من عند رسول اللَّه ﷺ قال: «**يا بني خطمة! أنا قتلتُ ابنة مروان، فكيدوني جميعًا ثمَّ لا تُنْظِرون**»، فذلك اليوم أوَّل ما عزَّ الإسلام في دار بني خَطْمَة. وكان يستخفي بإسلامه فيهم مَنْ أسلم، وأسلم يوم قُتِلت ابنة مروان رجال من بني خطمة؛ لما رأوه من عِزِّ الإسلام[3].

ويبدو أن سكوت أبناء عصماء وإخوتها عن أخذ الثأر من عمير؛ لأنَّ عميرًا كان من أشرافهم، وكان معدودًا من أشرافهم[4] المعدودين حقًّا، وأنَّ الإسلام فشا فيهم، وأنَّهم خافوا المسلمين الذين أصبحوا قوَّة ضاربة بعد انتصارهم في غزوة بَدْرٍ الحاسمة، ولا يمكن تعليل سكوتهم عن أخذ ثأرهم إلَّا بأحد هذه الأسباب، أو

من الحرج؛ وهو: الإثم، وجاءت في «مغازي الواقدي» (١/١٧٤):

فضرَّجها من نجيع الدماء ... قُبَيْل الصباح ولم يَحْرَجِ
فأوردَكَ اللهُ بَرْدَ الجِنانِ ... جَذْلانَ في نعمة المَوْلجِ

وذكر الواقدي أنَّ حسان بن ثابت قال هذه القصيدة يمدح عمير بن عدي؛ لقتله عصماء، وأرجِّح ذلك.

(١) لا ينتطح فيها عنزان: يريد أنَّ شأن قتلها هيِّنٌ لا يكون فيها طلب ثأر ولا اختلاف.

(٢) موجهم كثير: أراد به اختلاط كلامهم.

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٣١٣ - ٣١٥)، وانظر: طبقات ابن سعد (٢/٢٧، ٢٨)، ومغازي الواقدي (١/ ١٧٢ - ١٧٤).

(٤) المحبر (٢٩٨).

بهذه الأسباب مجتمعة.

❑ الشَّهيد

خاض المسلمون غزوة «**أُحُد**» في شهر شوَّال من السنة الثالثة الهجرية[١]، فخسر المسلمون سبعين شهيدًا، كان بينهم من شهداء الأنصار عمير[٢].

وفي رواية: أنَّه مات في حياة النبيِّ ﷺ، فقام مقامه ولده عبداللَّه بن عمير، وهذه الرواية على الاحتمال[٣] لا على الجزم.

وفي رواية: أنَّه شهد أُحُدًا وما بعدها[٤]، وفي رواية: أنَّه لم يشهد أُحُدًا ولا الخندق؛ لضرر بصره[٥].

وأرجِّح أنَّه شهد أُحُدًا، واستُشهد في هذه الغزوة؛ لأنَّ الثقاة الذين أرَّخوا له أجمعوا على أنَّه شهد أُحُدًا، والذين نصُّوا على استشهاده في هذه الغزوة من أوثق أولئك الثقاة.

وهكذا ضحَّى عمير بحياته من أجل عقيدته، وكان بمقدوره أن يبقى بعيدًا عن الحرب غير ملوم؛ لأنَّه كان لا يُبصِر أو كان ضعيف البصر، وهذا عذر مشروع يسوِّغ له التخلُّف عن القتال.

❑ الإنسان والقائد

التفاصيل عن حياة عمير؛ إنسانًا قليلة للغاية، ويروى أنه قتل أخته؛ لأنها شتمت رسول اللَّه ﷺ[٦]، كما قتل عصماء بنت مروان من قومه، وكسَّر أصنام

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير (١٥٣).
(٢) الدرر (١٦٣)، وجمهرة أنساب العرب (٣٤٣)، وجوامع السيرة (١٦٩).
(٣) الإصابة (٥/٣٤).
(٤) الاستيعاب (٣/١٢١٨)، والاستبصار (٢٦٨، ٢٦٩).
(٥) الاستيعاب (٣/١٢١٨).
(٦) الاستيعاب (٣/١٢١٧).

بني خَطْمَة، وكان يدعى بالقارئ، ويؤم قومه على عهد رسول الله ﷺ، وكلُّ هذه الأعمال تدلُّ على إيمانه العميق وعقيدته الرَّاسخة.

وقد مرض عُمير، فعاده النبيُّ ﷺ وقال لمن حوله من أصحابه: «**انطلقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقِف نعوده**»(١).

ويروي عنه ابنه عَدِي بن عُمَيْر(٢).

ويمكن اعتباره من المغاوير أو الفدائيين المتطوِّعين، أكثر من اعتباره قائدًا له سمات القائد الخاصة، وكان إقدامه على قتل عصماء متطوِّعًا دليلًا على أنَّه من أولئك المغاوير الفدائيين، يتَّسم بالشَّجاعة والإقدام والجرأة وحب المغامرة من أجل إعلاء كلمة الله.

لقد كان عمير مجاهدًا من الطراز الأول، وقد أعزَّ الإسلام بشجاعته وإقدامه وجرأته، وقد جاهد مع النبيِّ ﷺ وهو أعمى(٣) أو ضعيف البصر.

وبذلك نال عمير شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ـ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ، وختم حياته بالشَّهادة.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، القارئ المحدِّث، البطل الشهيد، عمير بن عَدِيٍّ الخَطْمِيِّ الأوسيِّ الأنصاريِّ.

❊ ❊ ❊

(١) الإصابة (٥/٣٤).
(٢) الاستبصار (٢٦٩).
(٣) الإصابة (٥/٣٤).

٣١

عَمْرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيُّ الكِنانِيُّ

القائد السَّفير

٣١

عَمْرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيُّ الكِنانِيُّ

القائد السّفير

هو عمرو بن أُمَيَّة بن خُوَيْلِد بن عبداللَّه بن إياس بن عبد بن ناشِرة بن كَعْب بن جُدَيِّ بن ضَمْرَة[١] بن بَكْر بن عبد مَنَاة بن كِنَانة الكِنَانيّ[٢]، أبو أُمَيَّة[٣].

كان من أنجاد العرب ورجالها نجدةً وجراءة[٤] وجودًا[٥].

وقد أسلم قديمًا، وهو من مهاجرة الحبشة، ثمَّ هاجر إلى المدينة[٦]، وفي رواية أخرى: أنَّه شهد بَدْرًا وأُحدًا مع المشركين، وأسلَم حين انصرف المشركون من أُحُد[٧]، وهذا ما نرجِّحه؛ لأنَّه لم يرد له ذكر في أسماء مهاجرة الحبشة، ولا في مهاجرة المدينة، ولا في المؤاخاة التي جرت بعد الهجرة إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار كما هو معروف، كما لم يرد له ذكر في أيِّ نشاط اجتماعي أو عسكري للمسلمين بعد الهجرة، مما يدلُّ على أنَّه أسلم بعد أُحُد وهاجر إلى المدينة المنوَّرة، فكانت أوَّل مشاهدة بئر مَعُونَة[٨] كما سيرد ذلك بشيءٍ من التفصيل وشيكًا.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٨٥)، وأُسْد الغابة (٨٦/٤)، والاستيعاب (١١٦٢/٤)، والإصابة (٤/ ٢٨٥)، وتهذيب التهذيب (٦/٨).

(٢) أُسْد الغابة (٨٦/٤).

(٣) الإصابة (٢٨٥/٤)، والاستيعاب (١١٦٢/٤).

(٤) أُسْد الغابة (٨٦/٤).

(٥) الإصابة (٢٨٥/٤).

(٦) أُسْد الغابة (٨٦/٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٤٤/٢).

(٧) أُسْد الغابة (٨٦/٤)، والإصابة (٤٨٥/٤).

(٨) أُسْد الغابة (٨٦/٤)، والإصابة (٢٨٥/٤)، وأنساب الأشراف (٣٧٥/١)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٥٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢٥/٢)، وتهذيب التهذيب (٦/٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٩)، وجوامع السيرة (١٧٩)، والدرر (١٧٢).

وليس من المعقول أن يبقى عمرو بن أُميَّة، وهو مَنْ هو مكانةً وشرفًا وسجايا، مجهول المكانة خامل الذكر في الأحداث الإِسلاميَّة الأولى، وهو قد أسلم قديمًا، ومَعنى ذلك أنَّه أسلم متأخِّرًا بعد غزوة أُحُد، فبدأ تسليط الأضواء على حياته في المجتمع الإِسلامي الجديد بعد إسلامه.

ولما أسلم وحسن إسلامه، أصبح موضع ثقة النبيِّ ﷺ، فأخذ يبعثه في أموره[1] العسكريَّة والسياسيَّة والإداريَّة، فقد كان شجاعًا له إقدام[2] بالإِضافة إلى سجاياه الفكريَّة والبدنية الأخرى التي يرد ذكرها في تفصيل حياته قائدًا وإنسانًا.

❏ في سرية بئر مَعُوْنَة[3]

وكانت هذه السرية في شهر صفر من السنة الرابعة الهجريَّة[4] بقيادة المُنْذِر بن عمرو السَّاعدي الخزرجيِّ الأنصاري[5].

وكان سبب إرسال هذه السريَّة، أنَّ أبا براء الكِلابيَّ، ويعرف بملاعب الأسنَّة[6]، واسمه: عامِر بن مالك بن جعفر بن كِلاب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة، وفد على النبيِّ ﷺ، فدعاه رسول اللَّه ﷺ إلى الإِسلام، فلم يُسْلِم ولم يُبْعِدْ، وقال: «**يا محمَّد! لو بعثتَ رجالًا من أصحابك إلى أهل نَجْدٍ فَدَعَوْهُمْ إلى أمرِك لرجوتُ أن يستجيبوا لك**»، فقال ﷺ: «**إني أخشى عليهم أهل نَجْدٍ**»، فقال أبو

---

(١) أُسْد الغابة (٤/٨٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٥).

(٢) تهذيب التهذيب (٨/٦)، وانظر: الإصابة (٤/٢٨٥).

(٣) بئر معونة: ماء من مياه بني سُلَيْم، بين أرض بلاد عامر وأرض بني سليم، كِلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرَّة بني سليم أقرب؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٧/٢).

(٤) جوامع السيرة (١٧٨)، والدرر (١٦٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٨)، وانظر: ابن الأثير (٢/١٧١).

(٥) انظر: سيرته المفصَّلة في كتاب «قادة النبيِّ ﷺ».

(٦) وسمي ملاعب الأسنة يوم سوبان، وهو يوم كانت فيه وقيعة (بالتصغير) في أيام العرب بين قيس وتميم، وقد فرَّ عنه أخوه؛ فقال الشاعر:

فررت وأسلمت ابن أمِّك عامرًا ... يُلاعب أطراف الوشيج المزعزع

انظر: الروض الأنف (٢/١٧٤).

بَراء: «**أنا جارٌ لهم**».

وبعث رسول اللَّه ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين من المسلمين، وقيل: في سبعين من خيار المسلمين، فنهضوا ونزلوا بئر مَعُوْنَة.

وحين وصلت السريَّة إلى بئر معونة، بعثوا حَرَام بن مِلْحَان بكتاب رسول اللَّه ﷺ إلى عامر بن الطُّفَيْل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، ثم عدا عليه فقتله، ثم استنهض إلى قتال سرية المسلمين بني عامر، فأبوا أن يجيبوه؛ لأنَّ أبا بَراء أجارهم، فاستغاث عليهم بني سُلَيْم، فنهضت معه عُصَيَّة ورِعْل وذَكْوَان، وهم قبائل من بني سُلَيْم، فأحاطوا بالمسلمين، فقاتلوا، فقُتلوا كلُّهم رضوان اللَّه عليهم، إلَّا كَعْب بن زيد أخا بني دينار بن النَّجار، فإنه تُرك في القتلى وفيه رمق، فارتثَّ[١] من القتلى، فعاش حتى قُتل شهيدًا يوم الخندق رضوان اللَّه عليه.

وكان عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِيُّ في سَرْح المسلمين، ومعه المُنْذِر بن محمَّد بن عُقْبَة بن أُحَيْحَة بن الجُلَّاح، فنظرا إلى الطير تحوم على العسكر، وكانا في سرح المسلمين[٢]، فنهضا إلى ناحية أصحابهم، فإذا الطير تحوم على القتلى، والخيل التي أصابتهم لم تزل بَعْدُ، فقال المنذر بن محمَّد لعمرو بن أُميَّة: «**فما ترى؟**»، فقال: «**أرى أن نلحق برسول اللَّه ﷺ فنخبره الخبر**»، فقال المنذر: «**ماكنتُ لأرغب بنفسي عن موطِن قُتل فيه المنذر بن عمرو**»، فقاتل حتى قُتل، وأُخذ عمرو بن أُميَّة أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مُضَر، جزَّ ناصيته عامرُ بن الطُّفَيْل وأطلقه عن رقبة كانت على أمِّهِ، وذلك لعشرين بقين من صَفَر.

ورجع عمرو بن أُميَّة، حتى إذا كان في «**القَرْقَرَة**»[٣] من صدر «**قَناة**»[٤]، أقبل

---

(١) ارتث: رُفِعَ وبه جراحٌ، حُمِلَ من المعركة جريحًا.

(٢) السرح: الرعاء.

(٣) القرقرة: هي قرقرة الكدر، على ثمانية برد من المدينة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٧/ ٥٦، ٢٢٤).

(٤) قناة: وادٍ يأتي من الطائف ويصب في قرقرة الكدر بالقرب من قبور الشهداء بأُحُد؛ انظر: معجم البلدان (٧/ ١٦٦).

رجلان من بني عامِر، وقيل: من بني سُلَيْم حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وكان معهما عهد من رسول اللَّه ﷺ لم يعلم به عمرو بن أُميَّة، وكان قد سألهما: «**ممَّن أنتما؟**»، قالا: «**من بني عامِر**»، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنَّه قد أصاب منهما ثأره من بني عامِر فيما أصابوا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فلما قدم على رسول اللَّه ﷺ وأخبره الخبر، قال: «**لقد قتلتَ قتيلين كان لهما مني جوار، لأَدِيَنَّهُما، هذا عمل أبي بَراء، قد كنتُ كارهًا متخوِّفًا**»(١).

لقد كان قرار عمرو بن أُميَّة بالرجوع إلى النبيِّ ﷺ؛ ليخبره بما حدث في بئر مَعُوْنَة لسرية المسلمين قرارًا حكيمًا وصائبًا، فما كان الرجل جبانًا، بل كان شجاعًا معروفًا بشجاعته، ولكنَّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه حشود القبائل الغادرة، والمتورطة في قتل سريَّة المسلمين، وكلُّ ما يمكن أن يحدث هو استشهاده الحتميُّ في قتال غير متكافئ.

وكان قرار صاحبه الأنصاري في الإصرار على الاستشهاد قرارًا شجاعًا بطوليًّا، فما كان له أن يعود إلى مستقرِّه في المدينة، وهو يرى جثث إخوانه قتلى تملأ ساحة المعركة.

لقد كان قرار عمرو بن أُميَّة قرار العقل، وقرار الأنصاري قرار العاطفة، وكان لكلٍّ من القرارين ما يسوِّغه حينذاك، وقد اجتهدا، وللمجتهد أجره على كلِّ حال.

❑ في غزوة بني النَّضِيْر من يهود

وكانت في شهر ربيع الأول سنة أربع الهجريَّة، وكانت منازل بني النَّضِير بناحية «**الغَرْس**»(٢) وما والاها، فقد خرج رسول اللَّه ﷺ يوم السبت، فصلَّى في

---

(١) مغازي الواقدي (١/٣٤٦ - ٣٥٣)، وسيرة ابن هشام (٣/١٨٤ - ١٩١)، وطبقات ابن سعد (٢/٥١ - ٥٤)، والطبري (٢/٥٤٥ - ٥٤٩)، وابن الأثير (٢/١٧١ - ١٧٣)، وابن كثير (٤/٧١ - ٧٤)، والدرر (١٧٠ - ١٧٣)، وجوامع السيرة (١٧٨ - ١٨٠)، والبخاري (٥/١٠٣)، وأنساب الأشراف (١/٣٧٥).

(٢) الغرس: منطقة بقُبَا، من ضواحي المدينة المنورة، فيها بئر اسمه: بئر غرس، كان النبيُّ ﷺ يستطيب ماءها؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/٢٧٦، ٢٧٧).

مسجد قُباء ضاحية المدينة، ومعه نفر من أصحابه المهاجرين والأنصاري، ثمَّ أتى بني النَّضِيْر فكلَّمهم أن يُعِيْنوه في ديَّة الكلابِيَيْنْ اللَّذين قتلهما عمرو بن أميَّة، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم ما أحببت!.

وخلا بنو النضير بعضهم مع بعض وهمُّوا بالغدر بالنبيِّ ﷺ، وذلك بطرح صخرة عليه من فوق أحد سطوح المنازل التي كان جالسًا في جوارها.

ونهض النبيُّ ﷺ سريعًا، وتوجَّه إلى المدينة، فلحقه أصحابه هناك.

وبعث النبي ﷺ إلى بني النَّضِير محمَّد بن مَسْلَمَة: «**أن اخْرجوا من بلدي، فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجَّلتكم عشرًا، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه**»، فمكثوا على ذلك أيَّامًا يتجهَّزون، فأرسل إليهم عبداللَّه بن أُبيٍّ المنافق حليفهم: «**لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصنكم، فإنَّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدُّكم قُرَيْظَة وحلفاؤكم من غَطَفَان**»؛ فأرسلوا إلى رسول اللَّه ﷺ: «**أنَّا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك**».

وأظهر رسول اللَّه ﷺ التكبير، وكبَّر المسلمون لتكبيره، وقال: «**حاربت يهود**».

وسار النبيُّ ﷺ في أصحابه، فصلَّى العصر بفضاء بني النَّضِير، وعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه يحمل رايته، فلما رأوا رسول اللَّه ﷺ قاموا على حصونهم معهم النَّبْلُ والحجارة، واعتزلتهم قُرَيْظَة فلم تُعِنْهُم وخذلهم ابن أُبيٍّ المنافق وحلفاؤهم من غَطَفَان، فأيسوا من نصرهم.

وحاصرهم النبيُّ ﷺ، وقطع نخلهم، فقالوا: نحن من بلادك، فقال: «**لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلَّا السِّلاح**»، فنزلت يهود على ذلك، وكان حاصرهم خمسة عشر يومًا[1].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٥٧ ـ ٥٩)، وانظر: عيون الأثر (٢/٤٨ ـ ٥٢)، وأنساب الأشراف (١/٣٣٩).

وكان عمرو هو الحافز المباشر لهذه الغزوة التي أنقذت المسلمين من عدوٍّ جاثم بين ظهرانيهم [١].

قائد السَّرية

بعث النبيُّ ﷺ عمرو بن أُميَّة إلى مكَّة، بعد مقتل خُبَيْب بن عَدِيٍّ، وأمره أن يَقتل أبا سُفْيان بن حَرْب، وبعث معه جَبَّار بن صخر الأنصاري [٢].

وكان خُبيب أحد أفراد سرية **«الرَّجيع»** [٣] التي كانت في صفر من السنة الرابعة الهجريَّة في ستة رجال دعاة إلى الله، فغدر بهم المشركون، وقتلوا مَنْ قتلوا وأسروا خُبَيْبًا وباعوه بمكَّة، فَصُلب خُبَيْب **«بالتَّنْعِيم»** [٤] وهو القائل حين قُدِّم ليُصْلب:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا … على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرَعِي [٥]

وذلك في ذات الإله وإن يشأْ … يبارك على أوصال شِلْوٍ ممزَّعِ [٦]

وخُبَيْب أوَّل من سَنَّ الركعتين عند القتل، وقال له أبو سفيان بن حرب [٧]: **«أيسرُّك يا خُبَيْب أنَّ محمدًا عندنا بمكَّة تُضْرَب عنقه وأنَّك سالم في أهلك؟»**، فقال: **«واللَّه ما يسرُّني أني سالم في أهلي، وأنْ يصيب محمَّدًا شوكة تؤذيه»** [٨].

وقد بعث النبيُّ ﷺ عمرو بن أُميَّة وحده عينًا على قريش، فحمل خُبَيْب بن

---

(١) انظر: جوامع السيرة (١٨١)، والدرر (١٨٤)، وأنساب الأشراف (١/٣٣٩).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٣١٠).

(٣) الرجيع: ماء لهذيل قرب الطَّائف؛ انظر: معجم البلدان (٤/٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) التنعيم: موضع خارج الحرم بالحل.

(٥) روى الشطر الثاني هكذا:

على أي شق كان لله مصرعي.

وروى:

على أي حال كان في الله مضجعي.

(٦) أوصال: أعضاء. شلو ـ هنا ـ: جسد.

(٧) وروي هذا الخبر بين أبي سفيان وزيد بن الدثنة.

(٨) الدُّرر (١٦٨، ١٦٩).

عَدِي من الخشبة التي صُلِب عليها[(١)]، وعاد بها إلى المدينة، ولكن كان ذلك في السنة الرابعة الهجرية، حيث كانت سرية الرَّجِيْع في تلك السنة، بينما كانت سرية عمرو إلى أبي سفيان هذه في السنة السَّادسة الهجريَّة.

أما السبب الحقيقي لإرسال سرية عمرو ومعه سَلَمَة بن أَسْلَم بن حَرِيس[(٢)] إلى أبي سفيان في مكَّة، فهو أنَّ أبا سفيان بن حرب قال لنفرٍ من قريش: «**ألا أحدٌ يغتال محمَّدًا فإنَّه يمشي في الأسواق؟**»، فأتاه رجل من الأعراب فقال: «**قد وجدتَ أجمع الرِّجال قلبًا، وأشدَّه بطشًا، وأسرعَه شدًّا، فإنْ أنتَ قوَّيتني خرجتُ إليه حتى أغتاله، ومعي خَنْجرٌ مثل خافية النَّسر، فأسُورُه ثمَّ آخُذُ في عيرٍ وأسبق القوم عَدُوًا، فإني هادٍ بالطريق خِرِّيت[(٣)]!**»، قال: «**ائت صاحبنا**»، فأعطاه بعيرًا ونفقة وقال: «**اطوِ أمرك**».

وخرج ليلًا، فسار على راحلته خمسًا وصبَّح «**الحَرَّة**»[(٤)] صبح سادسةٍ، فأقبل يسأل عن رسول اللَّه ﷺ حتى دُلَّ عليه، فعقل راحلته ثمَّ أقبل إلى رسول اللَّه ﷺ وهو في مسجد بني عبدالأَشْهَل، فلما رآه رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَّ هذا ليريد غَدْرًا!**»، وذهب الرجل ليجني على رسول اللَّه ﷺ ،فجذبه أُسَيْد بن حُضَير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر، فسقط في يديه وقال: «**دمي... دمي...**»، فأخذ أُسَيْد بلَبَّتِه[(٥)]، فدَعَتَهُ[(٦)]، فقال رسول اللَّه ﷺ : «**اصدُقني ما أنت؟**»، قال: «**وأنا آمن؟**»، قال: «**نعم!**»، فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان، فخلَّى عنه رسول اللَّه ﷺ ، فأسلم الرجل.

---

(١) أُسْد الغابة (٨٦/٤)، وتهذيب التهذيب (٦/٨).

(٢) ورد كذلك في طبقات ابن سعد (٩٣/٢)، أما في عيون الأثر (١١٢/٢) فورد: ابن حريش.

(٣) خرِّيت: الدليل الحاذق بالدلالة، ويقال: هو في هذا الأمر خريت: حاذق ماهر فيه. والجمع: خراريت.

(٤) الحَرَّة: أرض ذات حجارة سود نخرة؛ كأنها أُحرقت بالنار. وحَرَّة قُباء: قبلي المدينة، لها ذكر في الحديث؛ انظر: معجم البلدان (٢٥٩/٣).

(٥) اللبة: موضع القلادة من العنق.

(٦) دعته: ضغطه على رقبته.

وبعث رسول اللَّه ﷺ عمرو بن أُميَّة بن أَسْلم إلى أبي سفيان بن حرب وقال: «**إن أصبتما منه غِرَّة، فاقتلاه!**».

ودخلا مكَّة، ومضى عمرو يطوف بالبيت ليلًا، فرآه معاوية بن أبي سفيان، فعرفه، فأخبر قريشًا بمكانه فخافوه وطلبوه، وكان فاتكًا في الجاهلية، وقالوا: «**لم يأت عمرو لخيرٍ**»، فحشد له أهل مكَّة، وتجمَّعوا، فهرب عمرو وسَلَمَة، فلقي عمرو عُبَيْدَ اللَّه بن مالك التَّمِيْمِيَّ، فقتله، وقتل آخر سمعه يغني ويقول:

ولستُ بِمُسْلِمٍ ما دمتُ حيًّا ... ولستُ أدينُ دينَ المسلمينا!

ولقي رسولين لقريش يتجسَّسان فقتل أحدهما وأسر الآخر.

وقدم عمرو المدينة، فجعل يُخبر رسول اللَّه ﷺ خبره، ورسول اللَّه ﷺ يضحك[1].

وقد جعلت هذه السرية في تسلسل سرايا النبيِّ ﷺ بين سرية كُرْز بن جابر الفِهْري التي جرت في شهر شوال من السنة السادسة الهجرية، وسرية عمر بن الخطَّاب التي جرت في شهر شعبان من السنة السابعة الهجرية، ويبدو أنَّها جرت في السنة السادسة الهجرية؛ إذ لم ينص مؤرخوها على موعد حدوثها عدا ما جاء في أنساب الأشراف من أنها كانت في صفر سنة ثمان الهجرية[2]، وهذا غير معقول؛ لأنَّ المسلمين حينذاك كانوا في هدنة ضمن شروط صلح الحُدَيْبية كما هو معروف، والمسلمون يوفون بالعهود ولا ينقضونها أبدًا.

ولم يحقِّق عمرو هدفه كما ينبغي؛ لأنَّ صاحبه الذي كان معه أصرَّ على الصَّلاة بالبيت والطواف حول الكعبة، فانكشف أمره؛ لأنَّه كان معروفًا للغاية[3]،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٩٣، ٩٤)، وعيون الأثر (٢/١١٢)، وانظر: سيرة ابن هشام (٤/٣١٠ - ٣١٢)، وأنساب الأشراف (١/٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) أنساب الأشراف (١/٣٧٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٣١٠)؛ وابن الأثير (٢/١١٩).

فضيَّع الكتمان الضروري لمثل هذه العملية، ولكنه نجح بالفتك بغير أبي سفيان من المشركين: من المتعصبين على الإسلام، وعيون قريش وأرصادهم، ومن غيرهم من أعداء المسلمين.

ولله در من نظم أمر هذه السريَّة شعرًا فقال:

أبا سُفيانَ أيَّ دَمٍ تُرِيدُ؟ ... هِيَ العنقاءُ مَطلبُها بَعِيدُ[1]
بَلِ العنقاءُ أقربُ من مرَامٍ ... هُوَ الأملُ المُخَيَّبُ أو يَزِيدُ
أغرَّكَ خِنْجَرٌ بِيَدَيْ شَقِّيٍ؟ ... وما يُدريكَ أيُّكما السَّعيدُ؟
رأى جبلًا ترى الشُّمُّ الرَّواسي ... جَلَالَتُه فترجفُ أو تَمِيدُ
فلم تنفَعْهُ من فَزَعٍ قُواهُ ... ولم ينهضْ به البأسُ السَّديدُ
وشُدَّ خناقُهُ بِيَدَيْ أَسِيْدٍ ... فلولا الرفقُ لَانْقَطَعَ الوريدُ
تَلقّاهُ بِمخلبِ مُكْفَهِرٍ ... يَثورُ فتقشعرُّ له الجُلُودُ
وأظهرَ ما يُوارِي من سِلاحٍ ... يَذُبُّ بمثلِه الشَّنِفُ الحَقودُ[2]
وأيقنَ أنَّ دِينَ اللهِ حَقٌّ ... فما يُجدِي الضَّلالُ، وما يُفيدُ
أصابَ الخيرَ من بَركاتِ رَبٍّ ... هَداهُ رسولُه الهادِي الرَّشيدُ
وجاءكَ يا أبا سُفيانَ عمروٌ ... فأينَ تَزِيغُ وَيْحَكَ أو تَحِيدُ؟
هو البطلُ الذي عرفتْ قُريشٌ ... فلا نُكْرٌ بذاكَ ولا جُحودُ
يُخادِعهم وما تَخْفَى عليهم ... مكيدةُ مَن يُخادِعُ أو يَكِيدُ[3]
بدا لهمُ المغيَّبُ فَاسْتَرابوا ... وَلَجَّ الذُّعرُ واضطرمَ الوعيدُ[4]
وأبْصَرهُ مُعاويةُ فَجَلَّى ... سَرِيرَةَ نفسِهِ النَّظرُ الحديدُ

---

(١) العنقاء: طائر مجهول الجسم لم يوجد.

(٢) الشنف: المبغض.

(٣) دخل مكة ليلًا هو وصاحبه سلمة بن أسلم أو جبار بن صخر، ومضى عمرو يطوف بالبيت فرآه معاوية بن أبي سفيان، فعرفه وأشاع خبره، فقال أبو سفيان ورجال قريش: والله ما قدم عمرو إلا لشرٍّ. وطاردوه.

(٤) استراب: وقع في الريبة والشك. ولجَّ الذعر: ألَحَّ عليهم ولازمهم. واضطرم: أشعل وكأنَّه نار.

وقالوا فاتكٌ يرتاد صيدًا ... وما كنّا فريسةَ مَن يصيدُ
وشَدُّوا خلفَهُ فإذا سُلَيْكٌ ... أُعيرَ جناحَهُ البطلُ النجيدُ
وغيَّبهُ ببطنِ الأرضِ غارٌ ... فما يَدرونَ أين مَضى الطَّريدُ؟
أُعِينَ بصاحبٍ لا عَيْبَ فيهِ ... فَنِعم الصَّاحبُ الثَّبْتُ الجليدُ[1]
وجاءَ لِحَيْنِهِ منهم غَوِيٌّ ... له في الشِّعر شيطانٌ مَريدُ[2]
يُديرُ الكفرَ في فمهِ نَشيدًا ... يُردِّدهُ، فيعجبُه النَّشيدُ
أصاخَ له فأوقد منه نارًا ... لها من كلِّ جارحةٍ وَقودُ[3]
تلهَّبَ واسْتَطارَ فيالنفسٍ ... طَغَتْ حِينًا فأدركها الخمودُ
رَمَاها في لهيبِ البأسِ رَبٌّ ... لها في نارِه الكُبْرى خُلودُ

* * *

كِلَا الرَّجُلَيْن يا عَمرٌو عَدُوٌّ ... فَدُونَكَ إنَّه صَيْدٌ جَديدٌ[4]
هُما عَيْنا الخيانةِ من قُريشٍ ... وأنتَ يَدُ النبيِّ بها يَذُودُ
رَمَيْتَ عنِ النبيِّ فمن صريعٍ ... أراقَ حياتَهُ السَّهمُ السَّديدُ
ومن فَزِعٍ مَضيتَ به أسيرًا ... على جَزَعٍ يَذلُّ ويَسْتَقيدُ[5]
جَلبتَ على أبي سفيانَ شَرًّا ... فأصبحَ وَهْوَ محزونٌ كَمِيدُ[6]
تَجرَّعَ ثُكْلَ من فُقِدا زُعافًا ... وأهلكه الأسَى فَهْوَ الفقيدُ
ستدركُهُ الحياةُ ولا حياةٌ ... لغيرِ المؤمنينَ ولا وُجودُ

---

(١) سلمة بن أسلم أو جبار بن صخر. والثبت الجليد: الثابت ذو القوة والصبر.

(٢) رجل قتله أمية؛ لقوله:

ولستُ بمسلمٍ ما دمتُ حيًّا ... ولستُ أدينُ دينَ المسلمينا

والحين: الهلاك. والمَريد: الخبيث الشرّير.

(٣) أصاخ: أصغى واستمع.

(٤) دونك: اسم فعل بمعنى خُذْ.

(٥) الفَزِع: الخائف. والجَزَع: الحزن والكدر. واستقاد: ذلَّ وخضع.

(٦) الكميد: الذي مرض قلبه من الكَمدة؛ أي: الحزن والغم الشديد.

رِجـالٌ لا تُـبـيـدُهُـم المنـايـا ... وكـلٌّ مـن بَنـي الـدُّنيا يَـبِيـد
هُـوَ الإيمـانُ لا دُنـيـا حَـلـوبٌ ... يُـعـاشُ لـهـا ولا مُـلـكٌ عَـتِـيـدُ

في الغزوات والسرايا

شهد عمرو غزوات النبيِّ ﷺ وقسمًا من سراياه بعد سرية بئر مَعُوْنَة[1]، وقد شهد حصار الطَّائف الذي كان في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجرية، وقد وصف عمرو دفاعات أهل الطائف من المشركين فقال: «**لقد طلع علينا من نَبْلهم ساعةَ نزلنا شيءٌ اللَّه به عليم، كأنَّه رِجْلٌ[2] من جراد ـ وترَّسنا لهم ـ حتى أُصيب ناس من المسلمين بجِراحة. ودعا رسول اللَّه ﷺ الحُباب بن المُنْذِر فقال: «انْظُرْ مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم**»، فخرج الحُباب حتى انتهى إلىموضع مسجد الطائف خارج القرية، فجاء إلى النبيِّ ﷺ فأخبره، فأمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه أن يتحوَّلوا، إني لأنظر إلى أبي مِحْجَن يرمي من فوق الحصن بعِشْرَته[3] بمَعَابِلَ[4] كأنها الرِّماح، ما يسقط لها سَهْمٌ[5].

كما شهد سرية خالد بن الوليد إلى «**دُومَة الجَنْدَل**»[6]، فاستطاع خالد أسر أُكَيْدِر بن عبدالملك ملكَ دُومة الجندل وقَتْلَ أخاه حسَّان بن عبدالملك، وكان على حسَّان قَباء دِيباج مُخَوَّصٌ بالذَّهب، فغنمه خالد، وبعث به إلى رسول اللَّه ﷺ مع عمرو بن أُميَّة، فجعل المسلمون يتلمَّسونه بأيديهم ويتعجَّبون منه[7].

وكان النبيُّ ﷺ قد بعث سرية خالد إلى دُومة الجندل من غزوة تَبُوْك التي

---

(١) أُسْد الغابة (٨٦/٤).
(٢) الرِّجْل: الكثير؛ انظر: النهاية (٧٠/٢).
(٣) العشرة: الصحبة؛ انظر: النهاية (٩٨/٣).
(٤) المعابل: نصال عراض طوال، الواحدة: معبلة: انظر: النهاية (٦٣/٣).
(٥) مغازي الواقدي (٩٢٥/٣، ٩٢٦).
(٦) دومة الجندل: حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة؛ انظر: معجم البلدان (١٠٦/٤).
(٧) مغازي الواقدي (١٠٢٦/٣).

كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية[١].

وكانت غزوة تَبوك آخر غزوات النبيّ ﷺ، فكانت هذه الغزوة إيذانًا بمولد الدولة الإسلاميَّة.

السَّفير

أرسل النبيّ ﷺ عمرو بن أُميَّة سفيرًا[٢] إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام سنة ست الهجرية، وكتب إلى النجاشي كتابًا، فأسلم النجاشيُّ، وأمره أن يزوِّجه أمَّ حَبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ويرسلها ويرسل مَنْ عنده من المسلمين[٣] من أرض الحبشة إلى المدينة المنوَّرة.

فقد آمن النجاشي بالنبيِّ ﷺ واتبعه، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأرسل إليه ابنه في ستين من الحبشة، فغرقوا في البحر[٤]. وأرسل إليه رسول اللَّه ﷺ؛ ليزوجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عُبَيْد اللَّه بن جَحْش، فتنصَّر وتوفي بالحبشة، فخطبها النجاشي إلى رسول اللَّه ﷺ، فوكَّلت أمُّ حَبِيْبَة خالد بن سعيد بن العاص بتزويجها. وكان وأخوه أقرب مَن بالحبشة إليها، فزوجها إيَّاه[٥]، ونَقَد النجاشيُّ عن النبيِّ ﷺ مهر أمِّ حبيبة أربع مئة دينار[٦]، وبعث بكسوة إلى رسول اللَّه ﷺ: قميص، وسراويل، وعمامة، وعِطاف[٧] أُسْواني من قرية يقال لها: أُسْوَان، وهي آخر مدينة بمصر، وخفَّين ساذجين[٨].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٦٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٩)، وجوامع السيرة (٢٩).

(٣) أُسْد الغابة (٤/٨٦).

(٤) ابن الأثير (٢/١١٣).

(٥) أنساب الأشراف (١/١٩٩، ٢٠٠)، وابن الأثير (٢/١١٣).

(٦) أنساب الأشراف (١/٢٢٩)، وابن الأثير (٢/١١٣).

(٧) عِطاف: رداء.

(٨) انظر عن (أسوان): معجم البلدان (١/٢٤٨، ٢٤٩)، وانظر: طبقات ابن سعد (١/٢٥٨، ٢٥٩)،

وأرسل النَّجاشي إلى النَّوَاتي[1]، فقال: «**انظروا ما يحتاج فيه هؤلاء القوم من السُّفن؟**»، فقالوا: يحتاجون إلى سفينتين، فجهَّزهم، وكلَّم قوم النجاشي من الحبشة أسلموا، في أن يبعث بهم إلى رسول اللَّه ﷺ يُسلِّموا عليه، وقالوا: نصاحب أصحابه هؤلاء، فنجذف بهم في البحر ونغنِّيهم، فأذن لهم، فشخصوا مع عمرو ابن أُميَّة والمسلمين، وأمَّر عليهم جعفر بن أبي طالب[2].

ويبدو أنَّ النبيَّ ﷺ أرسل عمرو بن أُميَّة إلى النجاشي سنة ست الهجرية، فعاد من سفارته سنة سَبْع الهجرية؛ لأنَّ مهاجري الحبشة، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، عادوا من الحبشة إلى المدينة في أعقاب غزوة خَيْبَر التي كانت في شهر محرم من سنة سبع الهجرية[3].

كما أنَّ عمرو بن العاص الذي أوفدته قريش إلى النجاشي، قد غادر إلى أرض الحبشة بعد غزوة الحُدَيْبِيَّة، فقد ذكر أنَّه لم يحضُر الحُدَيْبِيَّة ولا صلحها، فانصرف رسول اللَّه ﷺ بالصلح ورجعت قريش إلى مكَّة، فسافر إلى أرض الحبشة[4]، والحُدَيبية كانت في شهر ذي القَعْدة من السنة السَّادسة الهجريَّة، كما هو معروف.

لقد أوفد النبيُّ ﷺ عمرو بن أميّة في أواخر السنة السَّادسة الهجريَّة إلى أرض الحبشة، وعاد منها في أوائل السنة السَّابعة، ومن هنا حدث الاختلاف بين المؤرخين في سنة إيفاد عمرو بن أميّة، فمنهم مَن قال: سنة ست الهجرية[5]، ومنهم مَن

وفيه: أنَّ النبي ﷺ كتب إلى النجاشي مع عمرو بن أمية كتابين؛ يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويأمره في الكتاب الآخر أن يزوِّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان.

(١) النواتي: مفردها نُوتِيٌّ؛ وهو: الملَّاح الذي يدير السفينة في البحر.

(٢) أنساب الأشراف (١/٢٢٩).

(٣) انظر: جوامع السيرة (٢١١)، والدرر (٢١٨) عن قدوم جعفر من الحبشة إلى المدينة، وانظر: أنساب الأشراف (١/٢٢٩).

(٤) مغازي الواقدي (٢/٧٤٢).

(٥) جوامع السيرة (٢٠٧).

قال: سنة سبع الهجرية.

وروى عمرو بن العاص قصَّة لقائه بعمرو بن أُميَّة في الحبشة فقال: «فأجمعوا لنا ما نهديه له ـ أي للنجاشي ـ وكان أحبُّ ما يتهدى إليه من أرضنا الأَدَم[١]، فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذْ جاءه عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جَعْفَر وأصحابه، فدخل عليه، ثمَّ خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي لو دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أَجْزَأت عنها[٢] حين قتلت رسول محمَّد، فدخلت عليه، فسجدت له كما كنتُ أصنع، فقال: مَرْحبًا بصديقي! أَهْدَيْتَ إليَّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم أيُّها الملك، قد أهديت إليك أدَمًا كثيرًا، ثمَّ قرَّبته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثمَّ قلت: أيها الملك! إني قد رأيت رجلًا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنَّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا! فغضب، ثمَّ مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنَّه قد كسره[٣]، فلو انشقَّت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقًا منه! ثمَّ قلت: أيُّها الملك! والله لو ظننت أنَّك تكره هذا ما سألتُكَه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيُّها الملك! أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه، فإنَّه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على مَن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده! قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثمَّ خرجت إلى أصحابي وقد حال[٤] رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي»[٥].

---

(١) الأدم: الجلود. والأديم: الجلد.

(٢) أجزأت عنها: قمت مقامها فيه وكفيتها شأنه.

(٣) وفي رواية مغازي الواقدي (٢/٧٤٢): «فرفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره».

(٤) حال رأيي: تحوَّل وتغيَّر.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/٣١٨، ٣١٩)، وانظر: مغازي الواقدي (٢/٧٤٢ - ٧٤٤)، والدرر (١٣٩ - ١٤٦).

وكان نص كتاب النبيِّ ﷺ الذي حمله عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي إلى النجاشي:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من: محمَّد رسول الله

إلى: النّجاشي الأصْحَم ملك الحبشة:

سِلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلَّا هو، الملكُ، القُدُّوس، السَّلام، المؤمن، المُهَيْمِنُ، وأشهد أنَّ عيسى ابن مريم روح اللَّه وكلمته، ألقاها إلى مريمَ البتول الطيِّبة الحصينة، فحملتْ بعيسى، فخلقه اللهُ من رُوْحِهِ ونَفْخِهِ، كما خلقَ آدمَ بيده ونَفْخِهِ.

وأنِّي أدعوكَ إلى اللَّه وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتَّبعني، وتؤمنَ بالذي جاءني، فإني رسول الله.

وقد بعثتُ إليكَ ابن عَمِّي جَعْفَرًا ونفرًا من المسلمين، فإذا جاءك فاقْرِهِمْ، وَدَعْ التَّجَبُّرَ، فإني أدعوك وجنودَك إلى الله، فقد بلَّغْتُ ونَصَحْتُ، فاقبلوا نُصْحي.

والسَّلام على مَنْ اتَّبع الهُدَى(١).

الختم: الله

رسول

محمد

لقد حقَّق عمرو بن أُميَّة أهداف سفارته إلى النجاشي كافة: إسلام النجاشي أو تجديد إسلامه وإسلام غيره من الحبشة، واستقدام المسلمين المهاجرين في أرض

---

(١) انظر: الطبري (٢/٦٥٢)، وصبح الأعشى، للقلقشندي (٦/٣٧٩)، والمواهب اللدنية، للقسطلاني (١/٢٩١، ٢٩٢)، وزاد المعاد، لابن القيِّم (٣/٦٠)، وانظر: تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية «ط/٢ ـ ٤٣»، وقد ظفر د. م. دنلوب بأصل هذا الكتاب ونشر صورته الشمسية في مجلة الجمعية الملكية الآسيائية (gras) الإنكليزية في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٠م؛ انظر: مجموعة الوثائق السياسية (٤٤، ٤٥).

الحبشة إلى المدينة، وزواج النبيِّ ﷺ أم حبيبة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -.

وقد يكون النجاشي الذي أسلم على يدي عمرو قد خلف النجاشي الذي أسلم على يدي جعفر بن أبي طالب، فيكون الخلف والسلف قد أسلما[١]، وأرجح ذلك.

وهكذا أثبت عمرو بن أُميَّة أنه ليس مقاتلًا رهيبًا حسب، بل مفاوضًا لامعًا أيضًا.

وتبقى قصَّة سفارة عمرو بن أميَّة إلى مُسَيْلَمَة الكذَّاب، فقد قدم مسيلمة مع وفد بني حَنِيْفَة قومه المدينة المنوَّرة، وكان منزله في دار ابنة الحارث امرأة من الأنصار، واجتمع برسول اللَّه ﷺ، ثم عاد إلى اليَمَامة بِنَجْدٍ وتنبَّأ وتكذَّب لبني حنيفة وادَّعى أنَّه شريك رسول اللَّه ﷺ في النبوَّة، فاتَّبعه بنو حَنِيفة، وكان قدوم بني حنيفة ومعهم مسيلمة في سنة عشر الهجرية[٢]، وهي عام الوفود.

ويبدو أنَّ أخبار رِدَّة مسيلمة الكذَّاب تسرَّبت إلى المسلمين، فكتب إليه رسول اللَّه ﷺ مع عمرو بن أميَّة الضَّمْري، يدعوه إلى الإسلام، فكتب مسيلمة إلى النبيِّ ﷺ جواب كتابه، يذكر فيه أنَّه نبيٌّ مثله، ويسأله أن يقاسمه الأرض، ويذكر أنَّ قريشًا قومٌ لا يَعْدِلون[٣]، وكان نص كتاب مسيلمة الكذَّاب إلى النبيّ ﷺ: من مسيلمة رسول الله.. إلى محمد رسول الله.

أما بعد: فإني قد أُشركت معك في الأمر، وإنَّ لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكنَّ قريشًا قوم يعتدون.

وبعث كتابه هذا إلى النبيِّ ﷺ مع رسولين، فسألهما رسول اللَّه ﷺ عنه،

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨٣/٣): «فإنَّ الظاهر أنَّ هذا الكتاب إنَّما هو للنجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر».

(٢) ابن الأثير (٢٩٨/٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٣٧/١).

فصدَّقاه، فقال لهما: «**لولا أنَّ الرّسل لا تُقْتَل لقتلتكما**».

وكتب النبيُّ ﷺ إلى مسيلمة: «**بسم اللَّه الرحمن الرحيم.. من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذَّاب، أما بعد، فالسَّلام على مَنْ اتّبَع الهُدى، فإنَّ الأرض لله، يورثها مَنْ يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**»(١)، وبعث بالكتاب مع السَّائب بن العوَّام أخي الزُّبير بن العوَّام(٢) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.

وقيل: إنَّ دعوى مسيلمة وغيره النبوَّة كانت بعد حجَّة الوَداع ومرضته التي مات فيها، فلما سمع الناس بمرضه - عليه الصَّلاة والسَّلام -، وثب الأسود العَنْسِيَ باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطُلَيْحَة الأسديُّ في بني أسد(٣).

ومعنى ذلك، أنَّ عمرو بن أُميَّة حمل رسالة النبيِّ ﷺ إلى مسيلمة بموجب الرواية الأولى سنة عشر الهجرية، وبموجب الرواية الثانية سنة إحدى عشرة الهجرية.

ومن الواضح أنَّ سفارة عمرو كانت لمهمَّة استطلاعية، هدفها التأكُّد من رِدَّة مسيلمة وبني حنيفة، ودرجة خطورة هذه الردَّة على مستقبل الإسلام والمسلمين، فوجد أنَّ أمر مسيلمة وبني حنيفة قد خرج عن الطَّوق، وأنَّ حافزهم هو النعرات القبلية التي جاء الإسلام لمحاربتها، ولا علاقة للدين في حافزهم ورِدَّتهم، فلا مجال للعقل في معالجة الأمر، فنطق السيف حين سكت العقل.

وكان لعمرو بن أُميَّة فضل مع غيره من الذين أطلقوا إشارات الإنذار المبكِّر للمسلمين من أجل العمل لمكافحة المرتدين وإعادة الوحدة إلى الصفوف تحت لواء الإسلام، فبدأت الاستعدادات لحرب أهل الرِدَّة.

فلما التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وضع خليفته أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه خطة

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٣٧).

(٣) ابن الأثير (٢/٣٠٠).

حرب الرِدَّة في موضع التنفيذ، فاستطاع خلال شهور معدودة إعادة الوحدة إلى الصفوف تحت لواء الإسلام من جديد.

وكان للاستعدادات المتَّخذة لحرب الرِدَّة، أثر حاسم في انتصار المسلمين بعددهم القليل، على المرتدين بعددهم الكثير، وكان لعمرو - أحد الروَّاد الذين استحثُّوا على إنجاز تلك الاستعدادات وإبراز أخطار الردَّة - فضل في استكمال تلك الاستعدادات بدقَّة وسرعة في أحرج الظروف والأحوال.

❑ عمرو بن أمية القائد

لقد كان عمرو من أجواد العرب وشخصياتهم المعروفة، وكان شخصية مرموقة قبل الإسلام وبعده، وقد خدم الإسلام والمسلمين خدمات عظيمة جدًّا لا تُنسى.

لقد كان عمرو من رجال العرب نجدةً وجراَةً[1] وأحد أبطالهم[2]، وكان شجاعًا[3]، وكان سريع الحركة، يتملَّص بسرعة إذا حاق به الخطر، فيعجز خصمه عن اللِّحاق به.

وكان حاضر البديهة؛ لأنَّ مجابهة المواقف المتغيرة السريعة، والنّجاح في التملُّص من أخطارها، دليل على حضور البديهة والذكاء.

وكان عاقلًا متَّزنًا، لذلك كان من مهماته التي نهض بها السِّفارة إلى النجاشي داعيًا وخاطبًا ومفاوضًا.

ومن المهمات التي أنجزها يبدو أنَّه كان من المجاهدين الفدائيين المغاوير.

وربما تبدو مهمة استنقاذ جثَّة خُبَيْب بعد صلبه من قريش مهمة سهلة أو لا أثر لها ولا تأثير ولا قيمة.

---

(١) تهذيب التهذيب (٦/٨).

(٢) خلاصة تهذيب تهذيب الكمال (٢٨٧).

(٣) الإصابة (٤/٢٨٥).

والواقع خلاف ذلك، فقد كانت الجثة محروسة حراسة قويَّة، فاستطاع خطفها من بين حرَّاسها المتربصين، كما أنَّ خطفها رفع معنويات المسلمين من جهة، وأدَّى إلى انهيار معنويات قريش من جهة أخرى.

فقد كان النبيُّ ﷺ لا يتخلَّى عن أصحابه أحياء وأمواتًا، وهذا مما يرفع معنوياتهم في السِّلم والحرب.

وكان خطف الجثة ضربة شديدة على معنويات قريش؛ لأنَّهم أيقنوا أنَّ المسلمين يستطيعون تحقيق مآربهم حتى في عقر دار قريش على رغم اليقظة والحراسة، فأصبحوا غير آمنين على أنفسهم.

تلك هي أبرز سمات قيادة عمرو، تبدو واضحة للعيان من دراسة سيرته العطرة.

رضي اللَّه عن الصحابي الجليل، القائد البطل، السفير الحصيف، عمرو بن أمية الضمري.

* * *

٣٢

سَعْدُ بن زَيْدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ الأَسْهَلِيُّ

القائد العَقَبِيُّ البَدْرِيُّ

هَادِمُ مَنَاةٍ

٣٢

سَعْدُ بن زَيْدٍ الأنصاريُّ الأوسيُّ الأَسْهَلِيُّ

القائد العَقَبِيُّ البَدْرِيُّ

هَادِمُ مَنَاةٍ

هو سَعْد بن زَيْد بن مالك بن عَبْد[١] بن كعب بن عبد الأَشْهَل[٢] بن جُشَم ابن الخَزْرَج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة[٣].

وأمُّه: عَمْرَةُ بنت مَسْعُود بن قَيس بن عَمرو بن زيد مَنَاة بن عَدِيٍّ بن عَمرو بن مالك بن النَّجار من الخزرج، وكانت من المبايعات[٤]؛ كما كانت أخته أمُّ نَيَّار بنت زيد بن مالك من المبايعات[٥] أيضًا.

وقد شهد بيعة العَقَبَة الثانية مع السبعين من الأنصار[٦]، وهي البيعة التي بايعوا رسول اللَّه فيها عند العَقبة على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأُزُرَهم، وأن يرحل هو إليهم وأصحابه[٧]، وحضر تلك البيعةَ العبَّاسُ بن عبد المطلب متوثِّقًا لرسول اللَّه ﷺ، والعبَّاس على دين قومه بَعْدُ لم يُسْلم، ولم تذكره بعض المصادر فيمن شهد العَقَبَةَ[٨].

---

(١) في «الاستيعاب» (٢/٥٩٢)، والاستبصار (٢٢٦)، وجمهرة أنساب العرب (٣٣٩): عبيد.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٤٣٩)، وأسد الغابة (٢/٢٧٩)، والإصابة (٢/٧٨).

(٣) جمهرة أنساب العرب (٣٣٩)، والاستبصار (٢٠٥)، وفيه: جشم بن الحارث بن الخزرج.

(٤) طبقات ابن سعد (٣/٤٣٩).

(٥) المحبر (٤١٧).

(٦) طبقات ابن سعد (٣/٤٣٩).

(٧) جوامع السيرة (٧٤)، والدرر (٧٤).

(٨) جوامع السيرة (٧٨ - ٨٥)، والدرر (٧٦ - ٧٩).

ولما أُذِنَ بالهجرة للنبيِّ ﷺ وأصحابه وهاجروا إليها، آخَى رسول اللَّه ﷺ بينه وبين عمرو بن سُراقة[١].

❑ جهاده

١ـ في الغزوات والسَّرايا:

شهد سعدٌ «**بَدْرًا**»[٢] التي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجريَّة[٣]، وفي مسيرة الاقتراب من المدينة المنوَّرة إلى موقع بَدْر، وكان سعد يعتقب على نَاضِحٍ[٤] له هو، وَسَلَّمَة «**سَلامة**»، وعَبَّاد بن بِشْر، ورافع بن يزيد، والحارث بن خَزَمَة، وما تزوَّد سعد إلَّا صاعًا من تمر[٥]، وكان زَادَهُ وَزَادَ مَنْ معه من أصحابه.

ويبدو أنَّ سعدًا كان ميسور الحال بالنسبة لأقرانه؛ فحملهم على بعيره إلى ساحة المعركة، وَأَمَّنَ له ولهم ما يسدُّون به رمقهم.

وشهد غزوة «**أُحُد**» التي كانت في شهر شوَّال من السَّنة الثالثة الهجرية[٦]، فسلك رسول اللَّه ﷺ بالمسلمين من المدينة إلى ساحة المعركة في «**أُحُد**» طريق حَرَّة بني حارثة، وقال: «**مَنْ يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ؟**»، فقال أبو خَيْثَمة أحد بني حارثة: «**أنا، يا رسول الله!!**»، فسلك به بين أموال بني حارثة، حتى سلك في مالٍ لـ«**مِرْبَع بن قَيْظِيٍّ**»، وكان منافقًا ضريرَ البَصرِ، فقام الفاسق يحثو التراب في وجوه المسلمين؛ فابتدره القوم؛ ليقتلوه؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البَصر**»، وضربه سعد بقوسه؛ فَشَجَّهُ في رأسه[٧]، فنزل

---

(١) الاستيعاب (٥٩٢/٢)، وأُسْد الغابة (٢٨٠/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٣٣٣/٢)، وأُسْد الغابة (٢٨٠/٢)، والإصابة (٧٨/٢)، والاستيعاب (٥٩٢/٢)، وجوامع السيرة (١٢٣)، والدرر (١٢٥).

(٣) الدرر (١١٠)، وجوامع السيرة (١٠٧).

(٤) الناضح: الدابة يستقي عليها، والجمع: نَوَاضِح.

(٥) مغازي الواقدي (٢٤/١).

(٦) طبقات ابن سعد (٣٦/٢).

(٧) جوامع السيرة (١٥٨)، والدرر (١٥٤، ١٥٥).

الدم[١]، وذلك قبل نهي رسول اللَّه ﷺ عنه[٢].

وشهد غزوة «**المُرَيْسِيع**»[٣] فارسًا من فرسان المسلمين[٤]، وكانت هذه الغزوة في شهر شعبان من السنة الخامسة الهجريَّة[٥].

وشهد غزوة «**بني قُرَيْظَة**» من يهود التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة الهجرية[٦]، وكان فارسًا من فرسان المسلمين[٧].

وشهد غزوة «**ذي قَرَد**»[٨] التي كانت في شهر ربيع الأول من السنة السَّادسة الهجرية[٩]، فارسًا من فرسان المسلمين، فأمَّره النبيُّ ﷺ على الفرسان[١٠]، وكان اسم فرسه: «**لَاحِق**»[١١]؛ فاستطاع استرجاع قسم من لقاح المسلمين التي نَهَبَهَا المشركون، وَوَلَّى المشركون منهزمين[١٢].

وقال حسَّان بن ثابت شاعر النبيِّ ﷺ في ذلك اليوم:

هل سَرَّ أولادَ اللَّقيطة أننا سلم غداة فوارس المِقْدادِ

فعاتبه سعد بن زيد الأشهليُّ؛ لأنَّه كان الرئيس يومئذ: «**كيف نسبت الفوارس للمقداد ولم تنسبها إليَّ؟!**»؛ فاعتذر بالقافية، وأراد باللَّقيطة أمَّ حِصْن[١٣]؛ وهو: أبو

---

(١) مغازي الواقدي (٢١٨/١).

(٢) الاستبصار (٢٢٦)، وانظر: أنساب الأشراف (٣١٥/١).

(٣) المريسيع: ماء لـ«خزاعة»، بينه وبين الفرع نحو يوم؛ انظر: وفاء الوفا (٣٧٣/٢).

(٤) مغازي الواقدي (٤٠٥/١).

(٥) طبقات ابن سعد (٤٣/٢).

(٦) طبقات ابن سعد (٧٤/٢).

(٧) مغازي الواقدي (٤٩٨/٢).

(٨) ذو قرد: ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان، وقيل: على مسافة يوم منها.

(٩) طبقات ابن سعد (٨٠/٢).

(١٠) مغازي الواقدي (٥٤١/٢)، والدرر (١٩٨).

(١١) جوامع السيرة (٢٠٢).

(١٢) الدرر (١٩٨، ١٩٩).

(١٣) الإصابة (٧٨/٢)، وانظر: مغازي الواقدي (٥٤٨/٢).

عُيَيْنَةَ بن حصن الذي قام بالغارة على سرح المسلمين في المدينة المنوَّرة.

وذكر سعد قصَّة توليته قيادة الفرسان في غزوة ذي قَرَد؛ فقال: «**لَمَّا كان يوم السَّرْحِ، أتانا الصَّريخ، فأنا في بني عبد الأَشْهَل، فألبسُ درعي، وأخذتُ سلاحي، وأستوي على فرسٍ لي جامٍّ حصانٍ، يقال له: «النَّجْلُ»، فأنتهي إلى رسول الله ﷺ وعليه الدِّرع والمِغْفَر لا أَرى إلَّا عَيْنَيْه، والخيل تعدو قِبَلَ «قَنَاة»**[١]**، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فقال: «يا سعد، امْضِ؛ قد استعملتُكَ على الخيل حتى أَلْحَقَكَ إن شاء الله؛ فَقَرَّبْتُ ساعة ثم خَلَّيته يَمُرَّ يُحضر**[٢]**، فَأَمُرُّ بفرسٍ حسير؛ فقلت: ما هذا؟ وَأَمُرُّ بِمَسْعَدَة**[٣] **قتيل أبي قَتَادة، وَأَمُرُّ بِمُحْرِز قتيلًا فَسَاءَنِي، وألحق المِقْداد بن عمرو ومُعاذ بن ماعِص، فأحضرنا ونحن ننظر إلى رَهْجِ**[٤] **القوم، وأبو قَتَادة في أثرهم، وأنظر إلى ابن الأَكْوَع**[٥] **يسبق الخيل أمام القوم يرشُقُهُمْ بالنبل، فوقفوا وقفة، ونلحق بهم فتناوشنا ساعة، وأحمل على حبيب بن عيينة بن حِصْن؛ فأقطع منكِبَهُ الأيسر، وخلَّى العِنَان، وتتابع فرسه، فيقع لوجهه، وأقتحم عليه؛ فقتلته، وأخذتُ فرسه، وكان شعارنا: «أَمِتْ أَمِتْ!!»**».

وهناك في قتل حبيب بن عُيَيْنَة وجه آخر[٦].

وكان سعد قد أَخَذَ سَلَبَ مَسْعَدَة؛ فقال النبيُّ ﷺ: «**لا والله!! أبو قَتَادَةَ قَتَلَهُ، ادفعه إليه**»[٧].

● وشهد سرية «**كُرْز بن جابِر الفهري**» التي كانت في شهر شوال من السنة

(١) قناة: وادٍ بالمدينة المنورة، وهي أحد أوديتها الثلاثة، عليه حرث ومال، وقد يسمى: وادي قناة؛ انظر: معجم البلدان (١٦٦/٧).

(٢) يحضر الفرس: يثب في عدوه.

(٣) هو: مسعدة بن حكمة بن مالك بن بدر الفزاري، ومحرز: هو محرز بن نضلة.

(٤) الرَّهْج: الغبار.

(٥) هو: سَلَمَة بن الأكوع الأنصاري.

(٦) مغازي الواقدي (٥٤٥/٢، ٥٤٦).

(٧) مغازي الواقدي (٥٤٤/٢).

السَّادسة الهجرية لمطاردة الذين خانوا الأمانة وكانوا رعاة للمسلمين، فانطلقوا بالسَّرْح، وقتلوا مولى النبيِّ ﷺ وقطعوا يده ورجله، وكان سعد فارسًا؛ فاستطاعت السرية استعادة السَّرح وأَسْرَ الذين خانوا الأمانة[1].

● وشهد غزوة **«الحُدَيْبِيَّةِ»** التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية، وكان سعد فارسًا، ويقال: كان سعد أميرًا على الفرسان الذين قَدَّمهم النبيُّ ﷺ أمامه طليعة في خيل المسلمين، وكانوا عشرين فارسًا[2].

❑ **قائد السَّرِية إلى مَنَاةٍ**[3]:

بَعَثَ النبيُّ ﷺ حين فَتَحَ مكَّة سعد بن زيد الأَشْهَلِيَّ إلى مَنَاةٍ في رمضان من السنة الثامنة الهجريَّة قائدًا لسريةٍ مؤلفةٍ من عشرين فارسًا من فرسان المسلمين، وكانت مَنَاة بالْمُشَلَّل[4] للأوس والخزرج وغَسَّان.

فلما كان يوم الفتح، بعث رسول اللَّه ﷺ سعد بن زيد الأَشْهَلِيَّ يهدمها، وخرج سعد على رأس سريته حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال السَّادن: **«ما تريد؟»**، قال: **«هَدْمَ مَنَاةٍ!!»**، قال: **«أنت وذاك!!»**.

وأقبل سعد يمشي إليها؛ فخرجت إليه امرأة عُريانة سوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالويل وتضرب صدرها؛ فقال السَّادن: **«مَناة دونَك بَعْضَ غَضَبَاتِك!!»**؛ فضربها سعد وقتلها.

وأقبل سعد ومعه أصحابه إلى الصَّنَم، فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئًا،

---

(١) انظر: التفاصيل في «مغازي الواقدي» (٢/٥٦٨ - ٥٧١).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٧٤).

(٣) مناة: أقدم الأصنام كلِّها، وكانت العرب تسمي: عبد مناة، وزيد مناة، وكان منصوبًا على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكَّة، وكانت العرب جميعًا تعظِّمه وتذبح حوله، وكانت الأوس، والخزرج، ومَنْ ينزل المدينة ومكَّة، وما قارب من المواضع يعظِّمونه ويذبحون له ويهدون له، ولم يكن أحد أشدَّ إعظامًا له من الأوس والخزرج؛ انظر: كتاب الأصنام، للكلبي (١٣).

(٤) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.

فانصرف راجعًا إلى رسول اللَّه ﷺ، وكان ذلك لستٍّ بقين من شهر رمضان[١].

ولله در القائل:

مناةُ مناةُ مَا لَكِ من بقاءٍ ... وأَيُّ شَقِيَّةٍ بلغتْ مُناهَا

رَمَاكِ اللهُ من زيد بن سعدٍ ... بمن ترمي الجبالُ له ذُرَاهَا

أما نَفَضَتْكِ من خوف وذُعْر ... عرانينُ المُشَلَّل إذ لَوَاهَا

تَبَارَكَ هادمُ الأصنام إني ... أرى الأصنام تهدمُ مَنْ بَنَاهَا

يُضلُّ العالمين وقد أتاهم ... كتابُ اللَّه ينذرهم أذاها

❑ المجاهد الصَّادق:

لقد شهد سعد بَدْرًا، وأُحُدًا، والخندق، والمشاهد كلَّها مع رسول اللَّه ﷺ[٢]؛ كما شهد قسمًا من سرايا النبيِّ ﷺ جنديًّا مرة، وقائدًا مرةً أخرى مع اختلاف في قيادته؛ كما قاد سرية من سرايا النبيِّ ﷺ في هَدْمِ مَنَاةٍ صَنَمِ الأوس، والخزرج، وغَسَّان، وغيرها من قبائل العرب؛ فأدَّى واجبه في الجهاد العملي جنديًّا وقائدًا بشكل مثاليٍّ يدعو إلى أعمق التقدير.

لقد كان سعد مجاهدًا صادقًا بحقٍّ.

❑ سعد بن زيد القائدُ

كل أخبار سعد تدل على رسوخ عقيدته، فلما تَزَوَّجَ النبيُّ ﷺ مَيْمونة، جاءه حُوَيْطب بن عبد العُزَّى بن أبي قيس فقال: «**يا محمَّد، إنَّ أجلك قد مضى، فاخرج من بلادنا**»؛ فقال له سعد: «**كذبت؛ إنها ليست بلادك، ولكنها بلاده وبلاد آبائه**»؛ فقال له ﷺ: «**مهلًا يا سعد، لا تسفِّه على زُوَّارنا، ما عليك يا حويطب أن نقيم فيكم فنأكل وتأكلون؟!**»[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد (١٤٦/٢، ١٤٧)، وعيون الأثر (١٨٥/٢)، وانظر: مغازي الواقدي (٨٧٠/٢)، وابن الأثير (٢٦٠/٢)، وأنساب الأشراف (٣٨١/١).

(٢) طبقات ابن سعد (٤٣٩/٣)، والاستيعاب (٥٩٢/٢)، والاستبصار (٢٢٦).

(٣) المحبر (٩١، ٩٢).

وسعد بن زيد هذا، هو الذي بعثه رسول اللَّه ﷺ بسبايا من سبايا بني قُرَيظة إلى نَجْد، فابتاع للمسلمين بها خيلًا وسلاحًا[١].

وأهدى سعد إلى رسول اللَّه ﷺ سيفًا من نَجْران، فأعطاه محمَّد بن مَسْلَمَة، وقال: «**جاهد بهذا في سبيل الله، فإذا اختلف النَّاس فاضرب به الحجر ثمَّ ادخل بيتك**»[٢]، فهو الذي روى حديث القعود في الفتنة[٣].

يكفيه شرفًا أنه عَقَبِيٌّ بَدْرِيٌّ، نَالَ شرفَ الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيِّ ﷺ، وكان يتميَّز بحبِّه العظيم لله ولرسوله.

شهد سعد غزوات النبيِّ ﷺ كافة،لم يتخلَّف عن غزوة من غزواته ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

وبرز دوره في خمس غزوات منها، ذكره المؤرخون فيها ذكرًا طيِّبًا؛ كما ذكروه في سريَّة من سرايا النبيِّ ﷺ جنديًّا، وفي سرية من سراياه قائدًا.

لقد قضى حياته كلها بعد إسلامه مجاهدًا من أجل التوحيد؛ فأبلى في الجهاد بلاءً حسنًا، وكان بلاؤه حسنة من حسنات عقيدته الراسخة وإيمانه العميق، فلولا الإِسلام لم يكن سعد شيئًا مذكورًا، وبقي مغمورًا لا يعرفه أحد، أسوة بالآخرين من أمثاله قبل الإِسلام، أو الذين تخلفوا عن الإِسلام.

ومزاياه القيادية لا تختلف عن مزايا أقرانه من قادة النبيِّ ﷺ؛ فهم من خريجي مدرسةٍ قياديةٍ واحدةٍ، وعاشوا في بيئة واحدة، وكانوا من أصل واحد.

ومن المعروف أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُوَلِّ المناصب القياديَّة في السرايا جميع أصحابه؛ بل اختار منهم الذين يتميزون بمزايا قياديَّة معيَّنة، أما الصحابة الآخرون فَوَلَّى كلَّ واحد منهم ما يناسب كفايته من أعمال؛ فقد كان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ملتزمًا

---

(١) الاستيعاب (٢/٥٩٢)، وأُسْد الغابة (٢/٢٨٠)، والاستبصار (٢٢٦).
(٢) أُسْد الغابة (٢/٢٧٩).
(٣) أُسْد الغابة (٢/٢٨٠).

إلى أبعد الحدود بمبدإ: «**استخدام الرجل المناسب في المنصب المناسب**»، لا يحيد عن هذا المبدإ أبدًا؛ وبذلك استطاع أن يبني الإنسان المسلم على ثلاثة أسس قويمة: العقيدة الراسخة وهي الإسلام، والقدوة الحسنة في سيرته المباركة ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، واستخدام الرجل المناسب في المنصب المناسب؛ ليؤدي واجبه بكفاية واقتدار.

ونعود إلى مزايا قيادة سعد الرئيسة: فقد كانت له تجربة عملية في الجهاد، وكان كأبناء قومه الآخرين مدرَّبًا على فنون القتال النظرية والعملية؛ وبذلك حاز على شرطين أساسيين من مزايا القائد الرئيسة: التجربة العملية، والعلم المكتسب.

أما الطبع الموهوب: فلا نستطيع أن نجزم به إيجابًا أو سلبًا؛ لأنَّه لم يَتَولَّ القيادات التي تؤهِّله لإظهار مواهبه القياديَّة على عهد النبيِّ ﷺ أو بعد التحاقه بالرفيق الأعلى.

أما مزاياه الفرعية: فيمكن أن نتلمس منها أنه كان ذكيًّا حاضر البديهة؛ لذلك كانت قراراته سريعة صائبة، شجاعًا مقدامًا، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسئولية ويحبُّها، ولا يتهرَّب منها أو يلقيها على عواتق الآخرين، ذا نفسية لا تتبدَّل في حالتي النصر والاندحار، يتمتَّع بمزية سبق النَّظر، عارفًا بنفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق برجاله ويثقون به، ويحبُّهم ويحبونه، ذا شخصية قوية نافذة، له قابليَّة بدنية متميِّزة وماضٍ ناصعٌ مجيدٌ في خدمة الإسلام والمسلمين، عارفًا لمبادئ الحرب، مطبِّقًا لها بكفاية وحزم، يساوي نفسه برجاله، ولا يحبُّ أن يتميَّز عليهم، ويؤثرهم بالأمن ويستأثر دونهم بالأخطار.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، القائد الشجاع، سعد بن زيد الأنصاري الأوسي الأشهَلِي مُحَطِّم مناة.

***

٣٣

أبو المساكين .. ذو الجناحين
أول سفير في الإسلام .. أمير المؤمنين بالحبشة
القائد الشهيد
جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي رضي الله عنه

٣٣

أبو المساكين .. ذو الجناحين
أول سفير في الإسلام .. أمير المؤمنين بالحبشة
القائد الشهيد ..

جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي رضي الله عنه

هو جعفر بن أبي طالب، واسم أبي طالب: عبد مَنَاف بن عبد المُطَّلِب بن هاشِم بن عبد مَنَاف بن قُصَيٍّ القُرَشِيُّ الهاشِمِيُّ، وهو ابن عَمِّ رسول الله ﷺ، وأخو علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبويه، يكنى: أبا عبداللَّه بابنه عبدالله.

أسلم جعفر قبل أن يدخل رسول اللَّه ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم يدعو إلى الإسلام فيها[١]، وقد أسلم بعد إسلام شقيقه عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه بقليل.

لقد كان جعفر من السَّابقين الأولين إلى الإسلام.

❏ المهاجر السَّفير

لما رأى رسول اللَّه ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها ملكًا لا يُظْلَمُ عنده أحد، وهي أرض صِدْقٍ، حتى يجعل اللَّه لكم فرجًا مما أنتم فيه**»[٢]، وكان بالحبشة مَلِكٌ صالح يقال له: «**النَّجاشِيُّ**»، لا يُظْلَمُ أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه، وفيه صلاح[٣]؛ فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب

---

(١) الإصابة (٣٤٨/١).

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١)، وانظر: جوامع السيرة (٥٥)، والدُّرر (٥٠).

(٣) الطبري (٣٢٨/٢).

رسول اللَّه ﷺ إلى أرض الحبشة[١]، وكان ذلك في السنة الخامسة من النبوَّة[٢]؛ أي: في السنة الثامنة قبل الهجرة؛ مخافة الفتنة وفرارًا إلى اللَّه بدينهم؛ فكانت هذه الهجرة أوَّل هجرة في الإسلام[٣]، وهي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة[٤].

وكما كان جعفر أحد السابقين الأولين إلى الإسلام[٥]، كان أحد المهاجرين الأولين إلى الحبشة[٦]؛ فقد هاجر إليها ومعه امرأته أسماء بنت عُمَيْس بن النعْمان ابن كَعْب بن مالِك بن قُحَافَة بن خَثْعَم الخَثْعَمِية[٧].

وبعث النبي ﷺ كتابًا إلى النجاشي مع جعفر هذا نصه:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: النجاشي الأصحم[٨] ملك الحبشة:

سِلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو، الملك، القُدوس، السلام، المؤمن، المُهَيْمِن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح اللَّه وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ البَتُولِ الطيبة الحصينة؛ فحملت بعيسى؛ فخلقه اللَّه من روحه ونَفْخِهِ؛ كما خلق آدمَ بيده ونَفْخِهِ.

وإني أدعوك إلى اللهِ وحده لا شريك له، والموالاة له على طاعته، وأن تَتبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣).

(٢) الطبري (٢/٣٢٩).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣).

(٤) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣).

(٥) الإصابة (١/٢٤٨).

(٦) أُسْد الغابة (١/٢٨٧)، والإصابة (١/٢٤٨)، والاستيعاب (١/٢٤٢).

(٧) سيرة ابن هشام (١/٣٤٥).

(٨) اسم النجاشي: أَصْحَمَة، وليس الأصحم؛ انظر: البداية والنهاية (٣/٧٧).

وقد بعثتُ إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك، فَأَقْرِهم ودَعِ التجبر، فإني أدعوك وجنودَك إلى الله؛ فقد بلَّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصحي. والسلام على مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى» (١).

عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قالت: «**لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وَعَبَدْنَا اللهَ - تَعَالَى - لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم (٢)؛ فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلِّمهم إليكم قبل أن يكلمهم. قالت: فخرجا فَقَدِمَا على النجاشي ونحن عنده بخير دار وخير جار فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشراف قومهم؛ ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلِّمهم إلينا ولا يُكلمهم؛ فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا: نعم. ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهم، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك**

---

(١) الطبري (٢/٦٥٢)، وصبح الأعشى (٦/٣٧٩)، وانظر: تفاصيل المراجع والمصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٣، ٤٤) في الوثيقة رقم (٢١).

(٢) الجلد.

فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم؛ فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم؛ فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك؛ قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردانهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: وغضب النجاشي ثم قال: لا هايم الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أَكَادُ قومًا جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله، اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله؛ ليسألهم؛ فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كَلَّمَهُ جعفر بن أبي طالب؛ فقال له: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، وَنُسِيءُ الجوار؛ يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرحِم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدم، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قال: فَعَدَّدَ عليه أمور الإسلام ـ؛ فصدقناه وآمنا به واتبعْناه على ما جاء به؛ فعبدنا الله وحده فلم نُشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا؛ فَعَدَا

علينا قومنا؛ فعذبونا ففتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، ولما قهرونا وظلمونا وشَقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظْلَمَ عندك أيها الملك»، قالت: فقال له النجاشي: «**هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي. فقرأ عليه صدرًا من** ﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾. قالت: فبكى والله النجاشي حتى أَخْضَلَ[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تَلَا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة[2] واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا ولا أكاد. قالت أم سلَمة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ـ: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا أعيبهم عنده ثم أستأصل به خضراءهم[3]. قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ: لا تفعل؛ فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله، لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ عبد. قالت: ثم غَدَا عليه الغَدَ؛ فقال: «**أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه؟ قالت أم سلمة: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها؛ فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وما جاء به نبينا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ كائنًا في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب ﷺ: نقول فيه الذي جاء به نبينا ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده على الأرض فأخذ منها**

---

(١) أخضل لحيته؛ أي: بَلَّهَا.

(٢) المشكاة: الثقب الذي يُوضع فيه الفتيل والمصباح، وهي الكوة غير النافذة.

(٣) استأصل به خضراءهم: يعني جماعتهم ومعظمهم.

عودًا ثم قال: ما عَدَا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود[١]. فناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال؛ فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُومٌ بأرضي - والسيوم الآمنون -؛ من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دير ذهب وأني آذيتُ رجلًا منكم - والدير بلسان الحبشة الجبل -، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها؛ فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع في الناس فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت: فوالله، إنا على ذلك إذ نزل به - يعني من ينازعه في ملكه -، قالت: فوالله، ما علمنا حزنًا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك؛ تخوفًا أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مَن رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام ﷺ: أنا. قالت: وكان مِن أحدث الناس سنًّا، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم[٢]، قالت: ودعونا الله - تَعَالَى - للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده؛ واستوثق عليه أمر الحبشة؛ فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وهو بمكة»[٣].

وهكذا أدى جعفر واجبه في الدفاع عن المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة وفي شرح تعاليم الإِسلام للنجاشي ورجاله بكلماته المسفرة؛ كضوء الفجر، والتي ملأت نفس النجاشي إحساسًا وروعة، ونجح جعفر في إخفاق عمرو بن العاص

---

(١) تقديره: ما جاوز مقدار هذا العود أو قدر هذا العود.

(٢) وهذا من بطولة وفدائية الزبير ﷺ.

(٣) حسن: أخرجه أحمد (١/٢٠٢، ٥/٢٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١١٥، ١١٦).

وصاحبه في مهمتهما إلى أرض الحبشة؛ فعادا أدراجهما خَائِبَيْنِ.

ولما هاجر النبي من مكة المكرمة إلى المدينة، آخى النبي بين جعفر ومعاذ بن جبل وكان جعفر غائبًا بالحبشة[١].

وأسلم النجاشي على يد جعفر، واستمر جعفر أكثر من أربع عشرة سنة في بلاد الحبشة؛ من السنة الثامنة قبل الهجرة إلى أوائل السنة السابعة الهجرية، كان خلالها المسئول الأول عن المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، وكان اسم النجاشي الذي أسلم على يد جعفر: أَصْحَمة[٢].

❑ جعفر الطيار في سَرِية مُؤْتَة[٣] وبطولته الفذة

بعث النبي ﷺ سرية مُؤْتَة في جمادى الأولى من سنة ثمانٍ الهجرية، وكان سبب بعث هذه السرية أن النبي ﷺ بعث الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِي أحد بني لِهْبٍ إلى ملك بُصْرَى[٤] بكتاب يدعوه فيه إلى الإِسلام، فلما نزل مُؤْتَة عرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغَساني فقتله، ولم يُقْتَل لرسول اللَّه ﷺ رسولٌ غيره؛ فاشتد ذلك عليه، وندب الناس؛ فأسرعوا وعسكروا خارج المدينة المنورة بالجُرْف[٥]، وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمير الناس زيد بن حارِثة، فإِن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإِن قُتِل فعبداللَّه بن رَوَاحَة، فإِن قُتِل فَلْيَرْتَضِ المسلمون بينهم رجلًا، فيجعلوه عليهم**».

وعقد رسول اللَّه ﷺ لواءً أبيض دفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم رسول اللَّه ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عُمَيْر، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإِسلام، فإِن أجابوا

---

(١) سيرة ابن هشام (١٢٤/٢)، والإصابة (٢٤٨/١).

(٢) البداية والنهاية (٧٧/٣).

(٣) مؤتة: قرية من قرى البلقاء (الأُردن) في حدود الشَّام، وهي بأدنى البلقاء دون دمشق؛ انظر: طبقات ابن سعد (١٢٥/٢).

(٤) بصرى: مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران.

(٥) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشَّام.

وإلا استعانوا عليهم اللَّه وقاتلوهم، وخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ مشيعًا لهم حتى بلغ «**ثَنِية الوَداع**»، فوقف وودعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع اللَّه عنكم، وردكم صالحين غانمين!!.

فقال عبداللَّه بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً   وضربة ذات فرعٍ تقذف الزبدا[1]

ولما فصل المسلمون من المدينة، سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام فيهم شُرَحَبيل بن عمرو؛ فجمع أكثر من مئة ألف، وَقَدَّمَ الطلائع أمامه.

ونزل المسلمون «**مُعَان**»[2] من أرض الشام، وبلغ الناس أن هِرَقْل قد نزل «**مَآب**»[3] من أرض البَلْقَاء في مئة ألف من بَهْراء ووائِل وبَكْر ولَخْم وجُذَام.

وأقام المسلمون في «**مُعَان**» ليلتين؛ لينظروا في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول اللَّه ﷺ، فنخبره الخبر... ولكن عبداللَّه بن رَوَاحة شَجَّع المسلمين على المُضِي قُدُمًا إلى هدفهم تنفيذًا لأوامر النبي ﷺ؛ فمضوا إلى مُؤْتة.

ولما وصل المسلمون إلى «**مُؤْتَة**»، وافاهم المشركون هناك؛ فجاءهم ما لا قِبَلَ لأحدٍ به من العَدَد والسلاح والكُراع والديباج والحرير والذهب، فالتقى المسلمون بالمشركين، وقاتل الأمراء يومئذٍ على أرجُلهم.

وأخذ اللواءَ زيد بن حارثة؛ فقاتل، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قُتل طعنًا بالرماح ـ رَحِمَهُ اللهُ.

وأخذ اللواءَ جعفر بن أبي طالب؛ فترجل عن فرس له شقراء، فعرقبها[4]؛ فكانت أول فرسٍ عُرْقِبَت في الإسلام، وقاتل حتى استُشهد رضي الله عنه؛ ضَرَبَهُ رجل من

---

(١) ذات فرع: أي ذات سعة.

(٢) معان: مدينة بطرف بادية الشام تلقاء الحجاز.

(٣) مآب: مدينة في طرف الشام بنواحي البلقاء.

(٤) عَرْقَبَهَا: قطع عرقوبها، وعرقوب الدابة في رجلها.

الروم؛ فقطعه نصفين؛ فَوُجِدَ في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحًا، ووجد فيما أقبل من بَدَن جعفر ما بين منكبيه تسعون ضربة بين طعنة برمح وضربة بسيف. وفي رواية أخرى: اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح(١).

وأخذ اللواءَ عبدالله بن رَوَاحة؛ فقاتل حتى قتل ﷺ؛ فاصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فسحب قوات المسلمين من ساحة المعركة وحمى بالساقة انسحابهم، وعاد بهم إلى المدينة(٢).

وهكذا مضى جعفر إلى ربه شهيدًا، مقبلًا غير مُدبر، يقاتل الروم وحلفاءهم من الغساسنة، وهو يقول:

يا حَبذا الجنةُ واقْترابُها ... طَيبةً وباردًا شَرابُها
والروم رُوْمٌ قد دَنا عَذابُها ... كافرةً بَعِيْدَةً أَنْسابُها
عَلَي إذْ لاقَيْتُهَا ضِرابُها

فأخذ جعفر اللواء بيمينه؛ فَقُطِعَتْ؛ فأخذه بشماله؛ فقطعت؛ فاحْتَضَنَهُ(٣) بِعَضُدَيه حتى قُتل(٤)؛ فسقط مضربًا بدمائه دون أن يسقط اللواء؛ فقد رفعه أحد المسلمين عاليًا.

وتلك شجاعة فذة، وبطولة نادرة، وإقدام لا يتكرر إلا قليلًا.

هكذا صنع جعفر لنفسه موتة من أعظم موتات البشر، ولقي ربه الكبير المتعال مُضمخًا بفدائيته مُدثرًا ببطولته.

عن عبدالله بن عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**أَمَّرَ رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة؛ فقال رسول الله ﷺ «إنْ قُتِل زيدٌ فجعفر،**

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٨/٤، ٣٩).
(٢) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢ ـ ١٣٠)، ومغازي الواقدي (٧٥٥/٢ ـ ٧٦٩).
(٣) احتضنه: أخذه في حضنه. وحضن الرجل: ما تحت العضد إلى أسفل.
(٤) سيرة ابن هشام (٤٣٤/٣).

وإن قُتِل جعفر فعبداللَّه بن رواحة. قال عبدالله: كنتُ فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورَمية»[1].

وعن نافع: أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذٍ وهو قتيل، فعددتُ به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دُبُره، يعني في ظهره[2].

ووجه الجمع بين هذه الرواية والتي قبلها: أن ابن عمر اطلع على هذا العدد وغيره اطلع على أكثر من ذلك، وأن هذه في قُبُلِهِ أصيبها قَبْلَ أن يُقتل، فلما صُرع إلى الأرض ضربوه أيضًا ضربات في ظهره، فَعَدَّ ابن عمر ما كان في قُبُلِهِ وهو في وجوه الأعداء قبل أن يُقتل.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**قال النبي ﷺ: «أخذ الراية زيدٌ فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبدالله بن رواحة فأصيب - وإن عينيْ رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لتذرفان -، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة فَفُتِحَ له»**[3].

وعند أبي داود (٢٥٧٣)، والحاكم في «**المستدرك**» (٣/٢٠٩)، وأبي نعيم في «**الحلية**» (١/١١٨)، من حديث رجل من بني مرة بن عوف وكان في تلك الغزوات غزاة مؤتة قال: والله، لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ[4].

وأنت يا جعفرُ المأمولُ مشهَدُهُ ... خُذِ اللواءَ وجَاوِزْ غايةَ الأمَلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦)، وأحمد (٣/١١٣، ١١٧، ١١٨)، والنسائي (٤/٢٦)، والبيهقي (٤/٧٠)، وأبو يعلى (٧/٢٠٠ - ٢٠٢)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/٢٧).

(٤) حسن: قال أبو داود: هذا الحديث ليس بالقوي، وَحَسَّنَهُ الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/٥١١)، وَصَحَّحَهُ الشيخ أحمد شاكر.

هذا جوادُك ما حالتْ سجيتُه ... ولا ارتضى بوفاء الحر من بَدَلِ
عَقْرتَه وركبت الأرض تمنعُه ... مواطن السوء من ضَن ومن بَخَلِ
أكرمتَهُ وحرمتَ القوم نجدتهُ ... فَصُنتَ نفسك عن لوْمٍ وعن عَذلِ[1]
دَلفَتَ تمشي على الأشلاء مقتحِمًا ... والقوم منجدِلٌ في إثر منجدِلِ[2]
فَقَدْتَ يمناك فانصات اللواءُ على ... يُسراك ما فيه من أمْتٍ ولا خللِ[3]
حتى هَوَتْ فجعلتَ الصدرَ مَوضِعَهُ ... كأنهُ منه بِضْعٌ غيرُ منفصلِ[4]
يضمهُ ضَمَّ صادي النفس يُولِعُهُ ... بمن أطال صَدَاه[5] لذة القُبلِ
يا قائد الجيش ضَجَّ الجيشُ من ألمٍ ... وأنت عن دمك المسفوكِ في شُغُلِ
تقضي الذمامَ وتمضي غيرَ مُكْتَرِثٍ ... كأنما الأمرُ لم يَفْدح ولم يَهُلِ[6]
لقيت حتفك في شعواءَ عاصفةٍ ... حَرَّى الجوانِح ظَمْأى البيض والأَسَلِ[7]
أعطيتَها مِنْك نفسًا غيرَ واهنةٍ ... أَعْطَتْك سَوْرةَ مَجْد غير مُنْتَحلِ[8]
لك المناقب لم تُقْدر غرائبها ... ملء المشاهد لم تُعْهَدْ ولم تُخَلِ[9]
من يُؤْثِر الحق يبذل فيه مُهْجَتَهَ ... وَمَنْ يَكُنْ هَمُّهُ أَقْصَى الْمَدَى يَصِلِ
لا شيء يعجز آمال النفوس إذا ... خَلَتْ من الضعفِ واستعصتْ على الكَسَلِ

عن الشعبي: «**أن ابن عمر ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ كان إذا سلم على ابن جعفر، قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحيْن**»[10].

---

(١) عذل: ملامة.
(٢) دلف: تقدم. والمنجدل: المقتول.
(٣) انصات: بمعنى انتصب، والأمت: الاعوجاج.
(٤) البضع من الشيء: القطعة منه.
(٥) الصادي: المشتاق.
(٦) هال الأمر: عظم.
(٧) صفات للحرب. والبيض: السيوف. والأسل: الرماح.
(٨) سَوْرة المجد: أثره وعلامته.
(٩) المناقب: جمع منقبة؛ وهي: المفخرة. وتُعْهَدُ: تُعْرَفُ. وَتُخَالُ: تُظَنُّ.
(١٠) أخرجه البخاري (٣٧٠٩)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٥٥).

قال ابن كثير: لأن اللَّه ـ تَعَالَى ـ عوضه عن يده بجناحيْه في الجنة[١].

عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«دخلتُ الجنة البارحة، فنظرتُ فيها؛ فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئ على سريره»**[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«رأيتُ جعفر بن أبي طالب مَلَكًا يطير في الجنة مع الملائكة بجناحيْن»**[٣].

وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«رأيتُ جعفر بن أبي طالب مَلَكًا في الجنة، مُضَرَّجَة قوادِمُهُ بالدماء يطير في الجنة»**[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«مَرَّ بي جعفر الليلة في ملإٍ من الملائكة وهو مخضب الجناحين بالدم، أبيضُ الفؤاد»**[٥].

وقال عبداللَّه بن جعفر: قال لي رسول اللَّه ﷺ: **«هنيئًا لك!! أبوك يطير مع الملائكة في السماء»**[٦].

وعن ابن عباس مرفوعًا: **«إن جعفرًا يطير مع جبرائيل وميكائيل، له جناحان عوضه اللَّه من يديه»**[٧].

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/٢٥٦).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، وابن عدي عن ابن عباس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٨)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٢٢٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٥٩).

(٤) إسناده جيد: أخرجه الحاكم عن ابن عباس وَصَحَّحَهُ، وكذا هو في «الاستيعاب»، وقال الحافظ في «الفتح»: أخرجه الحاكم والطبراني عن ابن عباس، وإسناده جيد.

(٥) إسناده صحيح على شرط مسلم: قال الحافظ في «الفتح» (٧/٩٦): أخرجه الحاكم بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٦) إسناده حسن: قال الحافظ في «الفتح» (٧/٩٦): أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

(٧) إسناده جيد: قال الحافظ في «الفتح» (٧/٩٦): وإسناد هذه جيد.

رَضِيَ اللهُ عَمَّنِ اجتمعت فيه كل رائعة من روائع الحسن، والفضيلة، والعظمة.. جلال شبابه.. ونضرة إهابه.. وشجاعته التي لا تعرف الخوف، وجوده الذي لا يخاف الفقر أشبه الناس بنبينا ﷺ خَلْقًا وخُلُقًا.

أخرج البخاري في «صحيحه» من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة...» الحديث، وفيه أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قال لجعفر: **أشبهت خَلْقي وخُلُقي**».

❑ ذو الجناحَيْنِ أبو المساكين

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة، وإني كنتُ ألزم رسول اللَّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بشبع بطني حتى لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنتُ ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنتُ لاستقرئ الرجل الآية هي معي؛ كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب؛ كان ينقلب بنا فيطعمُنَا ما كان في بيته حتى إن كان ليُخرج إلينا العُكَّة التي ليس فيها شيء، فيشقها فنلعق ما فيها»[1].

وكان رضي الله عنه أجود الناس بعد رسول اللَّه ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**ما احتذى النعال، ولا انتعل، ولا ركب المطايا، ولا ركب الكُورَ بعد رسول اللَّه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أفضل من جعفر بن أبي طالب**»[2].

❑ بكاء الشعر لجعفر الطيار

قال حسان بن ثابت:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١١٧)، وابن سعد في «الطبقات» مختصرًا (٤/٢٨)، والعُكَّة: زق صغير للسَّمن، جمعها: عُكَكٌ، وَعِكَاكٌ.

(٢) موقوف صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٦٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. والكور: الرَّحْل. وأخرجه أحمد (٢/٤١٤)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٥٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٢٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وابن سعد في «الطبقات» (٤/٢٨)، وَصَحَّحَ الحافظ ابن حجر إسناده في «الإصابة» (١/٢٣٩).

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرِبَ أَعْسَرُ ... وَهَمٌ إذا ما نَوَّمَ الناسَ مُسْهِرُ(١)

لِذِكْرَى حَبِيبٍ هَيَّجَتْ لِيَ عَبْرَةً ... سَفُوحًا وَأَسْبَابُ البُكَاءِ التَّذَكُّرُ(٢)

بَلَى إن فُقْدَانَ الحَبِيبِ بَلِيَّةٌ ... وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُم يَصْبِرُ

رَأَيْتُ خِيَارَ المُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا ... شَعُوبَ وَخَلْفًا بَعْدَهُم يَتَأَخرُ(٣)

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا ... بِمُؤْتَة مِنْهُمْ ذو الجناحَيْنِ جَعْفَرُ

وَزَيْدٌ وَعَبْدُاللهِ حِينَ تَتَابَعُوا ... جميعًا وأسبابُ المَنِيَّةِ تَخْطِرُ(٤)

غَداةَ مَضَوْا بالمؤمنينَ يَقُودُهُمْ ... إلى المَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَة أَزْهَرُ(٥)

أَغَرُّ كضَوْءِ البَدْرِ من آلِ هاشِمٍ ... أَبِيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامَةَ مِجْسَرُ(٦)

فَطَاعَنَ حتى مَالَ غيرَ مُوَسَّدٍ ... بِمُعْتَرَكٍ فيه قَنًا مُتَكَسِّرُ(٧)

فصارَ مع المُسْتَشْهِدِينَ ثَوابُهُ ... جِنَانٌ ومُلْتَفُّ الحدائِقِ أخْضَرُ(٨)

وكُنا نَرَى في جَعْفَرٍ مِن مُحَمدٍ ... وَفَاءً وأَمْرًا حازِمًا حِينَ يَأْمُرُ

وما زالَ في الإسلامِ من آلِ هاشِمٍ ... دَعَائِمُ عِزٍّ لا يَزُلْنَ وَمَفْخَرُ

هُمُ جَبَلُ الإسلامِ والناسُ حَوْلَهُمْ ... رِضَامٌ إلى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَبْهَرُ(٩)

بَهَالِيلُ مِنْهُم جَعْفَرٌ وابنُ أُمِّهِ ... عَلِيٌّ ومنهم أحْمَدُ المُتَخيرُ(١٠)

---

(١) تَأَوَّبَنِي: عادني ورجع إليَّ، وأصله آبَ يَئُوبُ: رجع. وأعسر: شديد العسر. ومسهر: داعٍ إلى السَّهر، ومانع من النوم.

(٢) العبرة: الدمعة. والسفوح: السائلة أو الشديدة السَّيلان.

(٣) شعوب: تروى بضم الشين فهي جمع شُعْبٍ؛ وهو: القبيلة، ويقال: هو أكبر منها، ويجب حينئذ نصبها منوَّنةً، وتروى بفتح الشين، فهي المنية، فعول بمعنى فاعل، سميت بذلك؛ لأنها تشعب الأحباب؛ أي: تُفرِّقهم. وَخَلْفًا: تُروى بالفاء؛ ومعناه: الذي يأتي بعدهم، وتُروى بالقاف، وهو ظاهر المعنى.

(٤) تخطر: تقول: خطر فلان في مشيته: إذا اختال فيها وتبختر وتحرَّك واهتزَّ.

(٥) ميمون النَّقيبة: يريد أنه مسعود منجح فيما يطلبه. وأزهر: أبيض.

(٦) الأبيُّ: العزيز الذي يأبى الضَّيم؛ أي: يمتنع من قبوله. سيم: كلف. المجسر: الشديد الجسارة.

(٧) المعترك: موضع الحرب.

(٨) الحدائق: جمع حديقة؛ وهي: الجنة.

(٩) الرضام: جمع رضم؛ وهو: الحجارة يجعل بعضها فوق بعض. والطود: الجبل. ويروق: يعجب.

(١٠) البهاليل: جمع بهلول؛ وهو: السَّيِّد.

وحَمْزَةُ والعَباسُ مِنْهُمْ ومنهمُ ... عَقِيلٌ وماء العُودِ من حيثُ يُعْصَرُ
بِهِمْ تُفْرَجُ اللأْوَاءُ في كلِّ مَأزِقٍ ... عَمَاسٍ إذا ما ضاق بالناس مَصْدَرُ[1]
هُمْ أولياءُ اللهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المُطَهَّرُ

وقال كعب بن مالك يرثي جعفر بن أبي طالب:

هَدَتِ العيون ودَمْعُ عَيْنِك يَهْمُلُ ... سَحًّا كَمَا وَكَفَ الطِّبَابُ المُخْضِلُ[2]
في لَيْلَةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا ... طَوْرًا أَحِنُّ وتَارَةً أَتَمَلْمَلُ[3]
وَاعْتَادَنِي حَزْنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِي ... بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسِّمَاكُ مُوَكلُ[4]
وكأنَّمَا بينَ الجَوَانِحِ والحَشَا ... مما تأوَّبَنِي شِهَابٌ مُدْخَلُ[5]
وَجْدًا على النَّفَرِ الذينَ تَتَابَعُوا ... يومًا بمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لم يُنْقَلُوا
صَلَّى الإلهُ عليهمُ من فِتيَةٍ ... وسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المُسْبِلُ[6]
صَبَرُوا بمُؤْتَةَ للإلهِ نُفُوسَهُمْ ... حَذَرَ الرَّدَى وَمَخَافَةً أَنْ يَنْكُلُوا[7]
فَمَضَوْا أَمَامَ المسلمين كأَنَّهم ... فُنُقٌ عليهنَّ الحَدِيدُ المُرْفَلُ[8]
إذْ يَهْتَدُونَ بجعفرٍ ولوائِهِ ... قُدَّامَ أَوَّلِهِم فَنِعْمَ الأول
حتى تفَرَّجَتِ الصفوفُ وجعفرٌ ... حيث الْتَقَى وَعْثَ الصفوف مُجَدَّل[9]
فَتَغَيَّرَ القَمَرُ المنيرُ لفَقْدِهِ ... والشَّمْسُ قد كُسِفَتْ وكادَتْ تَأْفِلُ[10]

---

(١) اللأواء: الشدَّة. والمأزق: المكان الضَّيِّق. والعماس: المظلم؛ يريد عند ارتفاع الغبار فيه.

(٢) يهمل: يسيل؛ تقول: همل الدَّمع: إذا سال. وسحًّا: صبًّا. ووكف: قطر. والطباب: ثقب في خرز المزادة التي يجعل فيها الماء. والمخضل: اسم فاعل من أخضل: إذا تندى.

(٣) في «البداية والنهاية» (٢٦١/٤): «أتمهَّل»، وورد كذلك في «سيرة ابن هشام» (٤٤٣/٣)؛ كما في أعلاه. وأحن: مضارع من الخَنَّة؛ وهي: صوت يخرج من الأنف مع بكاء. وأتململ: أتقلَّب.

(٤) بنات نعش: من النجوم المعروفة.

(٥) الجوانح: عظام أسفل الصدر. والشهاب: القطعة من النار. ومدخل: اسم مفعول من أدخل.

(٦) المسبل: الممطر، ويقال للمطر: سبل.

(٧) ينكلوا: يرجعوا عن عدوِّهم هائبين له.

(٨) فنق: جمع فنيق: وهو الفحل من الإبل. والمرفل: الذي تجرُّ أطرافه على الأرض.

(٩) الوعث: الرمل الذي تغيب فيه الأرجل. ومجدَّل: مطروح على الجدالة؛ وهي: الأرض.

(١٠) تأفل: تغيب.

قَـرْمٌ عَـلَا بُـنـيـانُـهُ مِـن هـاشِـمٍ ... فَرْعًا أَشَمَّ وسُؤْدَدًا ما يُنْقَلُ[(١)]

قَوْمٌ بـهـمْ عَـصَـمَ الإلـهُ عِـبَـادَهُ ... وعـلـيـهـمْ نَـزَلَ الـكـتـابُ المُنْزَلُ

فَـضَـلُـوا المُعَـاشِـرَ عِـزَّةً وتَـكَـرُّمًـا ... وتَغَمَّدَتْ أَحْلامُهُمْ مَنْ يَجْهَلُ[(٢)]

لا يُطْلِقُونَ إلى السُّفَاهِ حُبَاهُمُ ... وتَرى خَطِيبَهُمُ بِحَقٍّ يَفْصِلُ[(٣)]

بِيضُ الوجوهِ ترى بُطُونَ أَكُفِّهِمْ ... تَنْدَى إذا اعْتَذَرَ الزمانُ المُمْحِلُ[(٤)]

وبِـهَـدْيِـهِـمْ رَضِـيَ الإلـهُ لِخَلْقِهِ ... وبِحَدِّهم نُصِرَ النبيُّ المُرْسَلُ[(٥)]

وقال حَسَّان بن ثابت يبكي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

ولقد بَكَيْتُ وعَز مَهْلِكُ جَعْفَرٍ ... حِبُّ النبي على البَرِيةِ كُلِّها

ولَقد جزِعْتُ وقلتُ حين نُعِيتَ لي ... مَنْ للجِلادِ لَدَى العُقَابِ وظِلِّها[(٦)]

بالبِيضِ حين تُسَلُّ من أَغْمادِها ... ضَرْبًا وَإِنْهَالِ الرماحِ وعَلِّها[(٧)]

بعدَ ابنِ فاطِمَةَ المبارَكِ جَعْفَرٍ ... خَيرِ البَرِيةِ كلِّها وأجلِّها[(٨)]

رُزْءًا وأكرمِها جميعًا مَحْتِدًا ... وأَعَـزِّهـا مُـتَـظَـلِّـمًـا وأَذَلِّـهـا

لـلحق حين ينوبُ غيرَ تَنَحُّلِ ... كَذِبًا وأَنداها يَدًا وأقلِّها[(٩)]

فُحْشًا وأكثرِها إذا ما يُجْتَدى ... فَضْلًا وأنداها يدًا وَأَبَلِّها[(١٠)]

---

(١) القرم: أصله الفحل من الإبل، وأراد منه ههنا: السيِّد، وقوله: ما ينقل: يروى بالقاف، ومعناه ظاهر، ويروى بالفاء؛ ومعناه: لا يحجر.

(٢) تغمَّدت أحلامهم مَنْ يجهل؛ أي: سترت أهل الجهل.

(٣) الحُبَى ـ بضم الحاء مقصورًا ـ: جمع حبوة، مثل خطوة وخطى؛ والحبوة: أن يشبك المرء أصابع يديه بعضها في بعض ويجعلها في ركبتيه إذا جلس، وربما احْتَبَى الناس بحمائل السيف ونحوها.

(٤) الممحِل: هو من المحل؛ وهو: الشدَّة والقحط وكُلْب الزّمان والجدب.

(٥) بحدِّهم: يروى بالحاء المهملة، والجيم مكسورة؛ فأما مَنْ رواه بالمهملة فقد أراد به إقدامهم وشجاعتهم وجرأتهم في أوقات النزال. وأما مَنْ رواه بالجيم المكسورة، فهو الاجتهاد.

(٦) العقاب في هذا المكان: الراية.

(٧) الإنهال: أن تسقى الناس بعد الشراب الأول، وهو معطوف على قوله: الجلاد في البيت السابق. والعل: الشرب الثاني.

(٨) فاطمة ههنا: هي أم جعفر وعلي وعقيل أبناء أبي طالب، وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي.

(٩) التنحُّل: الانتحال، والتنحُّل: الكذب أيضًا.

(١٠) يُجْتَدَى: تطلب جدواه؛ والجدوى ـ بفتح الجيم ـ: المنحة والعطية.

حَيٌّ مِن احياءِ البَرِيةِ كلِّها   بالعُرْفِ غيرَ مُحَمدٍ لا مِثْلُهُ[(١)]

قال البغوي: «**كان جعفر يحب المساكين، ويجلس إليهم، ويخدمهم، ويخدمونه ـ يحدثهم ويحدثونه ـ؛ فكان رسول الله ﷺ يكنيه أبا المساكين**»[(٢)].

وصدقت زوجه أسماء بنت عُمَيْس حيث وصفته بعد موته قائلة: «**ما رأيتُ شابًّا من العرب كان خيرًا من جعفر، ولا رأيت كهلًا خيرًا من أبي بكر**»[(٣)].

وصدقت في رثائه حين قالت:

فآليتُ لا تَنْفَك نفسي حزينةً   عليك ولا ينفك جِلْدِي أغْبَرا
فلله عَيْنًا مَنْ رأى مثله فتًى   أكر وأحمى في الهياج وأصبرا[(٤)]

ومناقب جعفر كثيرة مشهورة[(٥)].

❑ ذو الجناحيْن القائد

عاد جعفر إلى المدينة المنورة مهاجرًا إليها من هجرته إلى أرض الحبشة في أعقاب غزوة خَيْبَر التي كانت في شهر محرم من سنة سبع الهجرية ـ كما ذكرنا من قبل.

وكانت غزوة مُؤْتَة في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجرية، فمكث مع النبي ﷺ سنة وثلاثة أشهر، لم يكن فيها الأحداث المهمة غير عُمْرَة القضاء التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة السابعة الهجرية التي شهدها النبي وغير بعض السرايا التي قادها أصحاب النبي ﷺ.

ثم جاءت سرية مُؤْتَة، وهي من أهم سرايا النبي ﷺ؛ لأنها كانت على الروم في أرض الشام وحلفائهم من العرب الغساسنة النصارى وحلفاء الغساسنة من العرب

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٠ ـ ٤٤٥)، وانظر: البداية والنهاية (٤/٢٥٧، ٢٦٠ ـ ٢٦٢)، ومقاتل الطالبيين (١٠، ١١).
(٢) الإصابة (١/٢٤٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/٤١).
(٤) البداية والنهاية (٤/٢٥٣).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٩).

النصارى والمشركين؛ فكانت أول سرية تتعرض بالدولة البيزنطية، وهي من أكبر دولتين في العالم حينذاك «**الروم والفُرْس**»؛ كما كانت أول سرية تنهض بتعرض خارجي على نطاق دولي لا على نطاق محلي قَبَلي؛ لذلك احتفل النبي بهذه الغزوة، وحشد لها ثلاثة آلاف مجاهد من المسلمين وَوَلَّى قيادتها أكفأً قادته: زيد ابن حارثة الكلبي، وجعفر بن أبي طالب، وعبداللَّه بن رَوَاحة.

وبالرغم من قِصَر المدة التي بقي فيها جعفر إلى جانب النبي ﷺ إلا أنه شارك في سرية مُؤْتَة قائدًا؛ فخاض معركة مهمة جدًّا من معارك المسلمين على الروم وحلفائهم، وهي المعركة التمهيدية الحقيقية لفتح بلاد الشام التي حملت المسلمين على تأسيس أول ركن لدولة الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية؛ ذلك أن الرسول ﷺ إلى جانب تبليغه الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم في وقته، كان قائدًا ماهرًا يقظًا لا يَغُضُّ الطرف عن أي مظهر عدواني قد يَحُطُّ من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها؛ فلم يقف ساكتًا إزاء استشهاد رسوله الذي بعثه إلى أمير الغساسنة في بُصْرَى؛ فأرسل سرية مُؤْتَة؛ للأخذ بثأر رسوله الشهيد، وهناك عند مُؤْتَة على حدود البَلْقَاء إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت التقى المسلمون بقوات الروم.

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها سرية مُؤْتَة، فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى؛ فبينما رأى الروم تلك السرية «**غارة**» من الغارات التي اعتاد البدو شنها للنهب والسلْب، كانت تلك السرية في الواقع ومعركتها من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها؛ فهي حرب منظمة كانت لها مهمة خاصة جعلت المسلمين يتطلعون جديًّا لفتح أرض الشام.

وفي العام التالي - أي في السنة التاسعة الهجرية «٦٣٠م» - قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة «**تبوك**»، فأظهر قوة المسلمين، وعاد إلى المدينة منتصرًا.

لقد قَدَّرَ الرسول القائد - عليه أفضل الصلاة والسلام - بعمق ودقة أهميةَ سرية

مُؤْتَة وأهمية المعركة التي تخوضها، وخطورتها على حاضر المسلمين ومستقبلهم؛ لذلك جعل على تلك السرية ثلاثة قادة من أبرز قادته وألمعهم؛ إذا سقط الأول شهيدًا تولى القيادةَ الثاني، فإذا استُشهد الثاني تولاها الثالث، فإذا استُشهد اصطلح المسلمون على قائد يختارونه.

وما وَلَّى النبي ﷺ قبل سرية مؤتة ولا وَلَّى بعدها ثلاثة قادة أو قائدين على سرية واحدة، ولكن بُعْدَ نظره ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتقديره لأهمية هذه السرية وخطورتها هو الذي جعله يولي ثلاثة قادة على سرية واحدة مرة واحدة فقط في حياته العسكرية كلها، وقد صدقت الأحداث ما توقعه؛ فانهزمت السرية تعبويًّا ولكنها انتصرت سوقيًّا، وأثرت في معنويات الروم تأثيرًا عظيمًا.

والهزيمة التعبوية لا تُعَدُّ شيئًا بالنسبة للانتصار السوقِي ـ كما هو معلوم.

وتولية جعفر القيادة في سرية مُؤْتَة على أهميتها وخطورتها دليلٌ على كفايته القيادية وأنه قائد من طراز فريد.

وليس من الصعب اكتشاف سمات جعفر القيادية؛ فقد كان من أولئك القادة ذوي العقيدة الراسخة، الذين يضحون بأرواحهم؛ من أجل عقيدتهم، ويعتبرون الشهادة فوزًا عظيمًا.

وحين رفع اللواءَ جعفرٌ بعد استشهاد سلفه زيد بن حارثة، كان يعلم بالتأكيد أنه يسلك طريق الشهادة؛ فأقبل على مصيره المرتقب مُقْبلًا غير مدبر بإصرار وعناد واستقتال، وهذا دليل على شجاعته النادرة التي لا تتكرر إلا في المجاهدين الصادقين المحتسبين من ذوي العقيدة الراسخة والإيمان العميق.

وكان يتمتع بعقل سديد ومنطق صائب وذكاء وَقَّادٍ؛ مما يؤدي إلى أن تكون قراراته سريعة صحيحة.

وكان ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسئولية، ويحبها، ولا يتهرب منها أو يلقيها على عواتق الآخرين.

وكان ذا نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، ثابتة على الخطوب والأحداث، والإيمان بالقضاء والقدر يقوي هذا الاتجاه.

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، ويكلف كل فرد منهم ما يستطيع أن يؤديه بكفاية وإتقان.

وكان يثق برجاله ويثقون به، وكان موضع ثقة النبي ﷺ وثقة أصحابه الكاملة، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه.

وكان ذا شخصية قوية نافذة، يضبط رجاله، ويسيطر عليهم، ويتحلى بالطاعة التي هي الضبط المتين في أجلى مظاهره.

وكان ذا ماضٍ ناصعٍ مجيدٍ نسبًا وفي خدمة الدين الحنيف.

وكان عارفًا بمبادئ الحرب: يختار مقصده ويُديمه، يتخذ مبدأ التعرض سبيلًا لمعركته، يحشد قوته، ويقتصد بمجهوده، ويطبق مبدأ الأمن على قوته، ويديم معنوياتها، ويرعى قضاياها الإدارية.

ولم يطبق مبدأ المباغتة في هذه السرية؛ فقد كان من الصعب إخفاء حركتها في تلك الظروف التي كان العدو يتوقع أن يهاجمهم المسلمون بعد مقتل رسول رسول اللَّه ﷺ إلى أمير الغساسنة؛ إذ من الصعب السكوت عن قتله أو إهماله، وهو رسول من رُسُل الدعوة، والرسل لا تُقْتَل أبدًا، بل تُكرم بموجب العُرْف السائد حينذاك حتى بين القبائل العربية التي تسكن الصحراء البعيدة عن مَعالم الحضارة.

لقد كان قائدًا متميزًا، وحسبه أن يكون من خريجي مدرسة الرسول القائد العظيمة - عليه الصلاة والسلام - في القيادة والعقيدة.

فرضي اللَّه عن أبي المساكين ذي الجناحين الطيار...

فكم كانت له مواقف مشهورة، ومقامات محمودة، وأجوبة سديدة، وأحوال رشيدة.

٣٤

عبدالله بن رَوَاحَةَ الأنصاري الخزرجي
النقيب الشاعر القائد الشهيد

٣٤

عبداللَّه بن رَوَاحَةَ الأَنصاري الخزرجي

النقيب الشاعر القائد الشهيد

هو عبداللَّه بن رَوَاحَة بن ثَعْلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كَعب بن الخَزْرَج بن الحَارث بن الخَزْرَج[١].

وأمه: كَبْشَة بنت واقِد بن عمرو بن الإِطنابة بن زيد مَنَاة بن مالك الأغر[٢]، من الخزرج أيضًا، يلتقي نسبهما بمالك الأغر.

وكان ابن رواحة يكنى: أبا محمد، وقيل: يكنى أبا رواحة[٣]، ولعله كان يكنى بهما جميعًا[٤]، وليس له عقب[٥]، وهو خال النعمان بن بشير[٦]؛ لأن عمْرَة بنت رواحة هي زوج بشير بن سعد وأم النعمان بن بشير[٧].

وكان عبداللَّه بن رواحة يكتب في الجاهلية، وكانت الكتابة في العرب قليلة[٨]؛ فكان من القلائل الذين يكتبون في الجاهلية.

أسلم قديمًا[٩]، وشهد بيعة العَقَبَة الآخرة، وبايع رسول اللَّه ﷺ بها، وكان

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٦٣)، وطبقات ابن سعد (٣/٥٢٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٥).
(٣) أُسْد الغابة (٣/١٥٦)، والإصابة (٤/٦٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦)، وفيه: أنه خال بشير بن سعد، والصحيح أن بشيرًا زوج أخت عبدالله بن رواحة.
(٦) أُسْد الغابة (٣/١٥٧).
(٧) الاستبصار (١١٢).
(٨) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦)، وتهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٠).
(٩) البداية والنهاية (٤/٢٥٦).

الذين شهدوها من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين[١]، وقيل: كانوا سبعين وامرأتين[٢]، واختار النبي ﷺ اثني عشر نقيبًا، كان منهم عبدالله بن رواحة[٣].

آخى النبي ﷺ بين عبدالله بن رواحة والمقداد بن عمرو[٤].

❑ المجاهد العظيم عبدالله بن رواحة رضي الله عنه

● مع النبي ﷺ:

في غزوة بدر الكبرى خرج عُتْبَة بن ربيعة بين أخيه شَيْبَة بن ربيعة وابنه الوليد ابن عُتْبَة، ودعوا إلى المبارزة؛ فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عَوْف ومعوذ ابنا عَفْراء، وعبدالله بن رواحة، فقالوا: «**لستم لنا بأَكْفاء!!**»، وَأَبَوْا إلا قومهم؛ فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعُبَيْد بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، فبارز عُبَيْدَةُ ـ وكان أسنَّ القومِ ـ عُتْبَةَ بن ربيعة، وبارز حمزةُ شَيْبَة بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عُتْبَة.

وأما حمزة فلم يُمهل شيبة أن قتله، وأما علي فلم يُمهل الوليد أن قتله، وأما عبيدة وعتبة فقد اختلفا ضربتين؛ كلاهما جرح صاحبه؛ فكَرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عُتْبَة؛ فقتلاه واحتملا عُبَيْدة إلى أصحابه[٥].

ولما انتصر المسلمون على المشركين في بدر، بعث النبي ﷺ عبدَالله بن رواحة بشيرًا بالنَّصْر إلى أهل «**العالية**»[٦]، وبعث زيد بن حارثة الكَلْبِي إلى أهل

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦٣، ٦٧).

(٢) الدرر (٧٥).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٦٧)، وأنساب الأشراف (١/٢٤٤)، والدرر (٧٥)، وجوامع السيرة (٧٦)، والمحبر (٢٦٩).

(٤) الدرر (٩٩).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥)، والدرر (١١٤)، وجوامع السيرة (١١٢، ١١٣).

(٦) العالية: اسم لكل ما كان من جهة نجدٍ من المدينة من قراها وعمايرها إلى تِهامة فهي العالية، وما كان دون ذلك من جهة تِهامة فهي السافلة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/١٠٠، ١٠١).

«السافلة»[1]، فجعل عبدالله ينادي على راحلته: **«يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وقَتْلِ المشركين وَأَسْرِهم!! قُتِلَ ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جَهْل، وَقُتِلَ زَمعة بن الأسود وأُمية بن خلف، وَأُسِرَ سُهَيْل بن عمرو ـ ذو الأنياب ـ في أسرى كثيرة»**، قال عاصم بن عَدِي: **«فقمت إليه، فنحوته، فقلت: أحقًّا ما تقول؟! قال: إي والله، وغدًا يَقْدُم رسول الله ﷺ ـ إن شاء الله ـ ومعه الأسرى مقرنين»**، ثم اتبع دور الأنصار بالعالية ـ العالية: بنو عمرو بن عوف، وخَطْمَة، ووائل، منازلهم بها ـ فبشرهم دارًا دارًا، والصبيان يشتدون معه[2].

وفي أسرى بدر قال عبدالله بن رواحة للنبي ﷺ: **«يا رسول الله، أنت في واد كثير الحطب، فأضرِم الوادي عليهم نارًا، ثم ألقهم فيه»**[3].

وكانت غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية الهجرية[4].

● وشهد عبدالله بن رواحة غزوة **«أُحُد»**[5]، فلما استُشهد حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعاد النبي أدراجه مع المسلمين إلى أهله، ساق عبدالله بن رواحة نساء بني الحارث بن الخزرج إلى قرب دار النبي ﷺ، فَنَدَبْنَ حمزةَ مع نساء الأنصار، فأمر النبي ﷺ أن يَعُدْنَ إلى منازلهن بعد أن دعا لهن، ونهاهن الغد عن النوح أشد النهي[6].

وكانت غزوة **«أُحُد»** في شهر شوال من السنة الثالثة الهجرية[7].

● وفي غزوة بدر الآخرة التي كانت في شهر شعبان[8] من السنة الرابعة

---

(١) انظر: المادة (٢) في الهامش، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٨٤، ٢٨٥).
(٢) مغازي الواقدي (١/١١٤، ١١٥).
(٣) عبدالله بن رواحة، للدكتور جميل سلطان ص (٢٥)، دار القلم ـ دمشق.
(٤) ابن الأثير (٢/١١٦)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/١٥)، والعبر (١/٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦).
(٦) مغازي الواقدي (١/٣٨٧).
(٧) تاريخ خليفة بن خياط (١/٢٦)، والعبر (١/٥).
(٨) سيرة ابن هشام (٣/٢٢١).

الهجرية استُخلف عبداللَّه بن رواحة على المدينة[١]، فأقام النبي ﷺ على ماء بدر ثمانية أيام، ولكن أبا سفيان بن حرب لم يحضر مع قريش لقتال المسلمين ـ كَمَا وَعَدَ ـ، فعاد المسلمون إلى المدينة دون أن يلقوا كيدًا[٢].

● وفي غزوة الخَنْدَق ـ وهي غزوة الأحزاب ـ التي كانت في شهر شوال من سنة خمس الهجرية[٣] انضمت يهود بني قُرَيْظَةَ إلى الأحزاب ونقضت عهدها، فلما عَلِمَ النبي ﷺ بانتقاض قُرَيْظَةَ، بعث سعد بن مُعَاذ بن النعمان وهو يومئذٍ سيد الأوس، وسعد بن عُبَادة بن دُلَيْم أحد بني ساعدة بن كَعب بن الخزرج وهو يومئذٍ سيد الخزرج، ومعهما عبداللَّه بن رَواحة، وخَوات بن جُبَير أخو بني عمرو بن عوف، فقال: «**انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا، فألحنوا لي لحنًا أعرفه[٤] ولا تَفُتُّوا في أعضاد الناس[٥]، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس**»، وخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، وأقبلوا إلى رسول اللَّه ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا: «**عَضَلٌ والقَارة**»؛ أي: كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجِيع: خُبَيْب وأصحابه؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اللَّه أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين**»[٦].

وانتهى الخبر حول نقض بني قُرَيْظَة العهد؛ فاشتد الخوف وعظم البلاء[٧].

وبعثت عَمْرَة بنت رواحة ابنتها بجفنَة تمر «**عَجْوَة**» في ثوبها، وكان المسلمون قد أصابتهم مجاعة شديدة، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه، وقالت

---

(١) مغازي الواقدي (١/٣٨٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٢٢١، ٢٢٢).

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٢٢٩).

(٤) فألحنوا لي لحنًا: اللَّحن: أن يخالف ظاهر الكلام معناه؛ قال الشاعر:

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا ... واللَّحن يفهمه ذَوُو الألباب

(٥) يقال فتَّ في عضده: إذا أضعفه وأوهنه.

(٦) سيرة ابن هشام (٣/٢٣٧، ٢٣٨)، وانظر: مغازي الواقدي (٢/٤٢١).

(٧) مغازي الواقدي (٢/٤٥٩)، والدرر (١٨٣)، وجوامع السيرة (١٨٨).

عَمْرَة لابنتها: «**يا بُنَية، اذهبي إلى أبيك بشير بن سعد، وخالك عبدالله بن رواحة بغدائهما**»، فانطلقت الجارية حتى أتت الخندق، فوجدت رسول الله ﷺ جالسًا في أصحابه، فقال: «**تعالي يا بُنَية، ما هذا معك؟**»، فقالت: بعثتني أُمي إلى أبي وخالي بغدائهما. قال رسول الله ﷺ: «**هاتيه**»، ثم أمر بثوب فبُسط له، وجاء بالتمر فنثره عليه فوق الثوب، ونادى أهل الخندق للغداء، فاجتمعوا عليه يأكلون منه[1].

❑ من مواقف البطولة والشجاعة لعبدالله بن رواحة في وجه رأس المنافقين

عن أسامة بن زيد أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ركب حمارًا عليه إكاف تحته قطيفةٌ فَدَكيةٌ، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج - وذلك قبل وقعة بدر -، حتى مَرَّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين، والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبدالله بن أُبي بن سلول، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة خَمَّرَ عبدُالله بن أبي أنفَهُ بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا. فسلَّم عليهم النبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -، ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبي بن سلول: أيها المرء لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه. قال ابن رواحة: اغشنا في مجالسنا؛ فإنا نحب ذلك. فَاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: «**أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبدالله بن أبي -، قال كذا وكذا؟!**» قال: اعف عنه يا رسول الله واصفح؛ فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة[2] على أن يتوجوه فيعصبونه

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٤٧٦).

(٢) البحرة: في رواية الحموي «البحيرة» بالتصغير، وهذا اللفظ يُطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية، ونقل «ياقوت» أن البحرة من أسماء المدينة النبوية.

بالعصابة[١]، فلما رد اللَّه ذلك بالحق الذي أعطاك شَرِقَ[٢] بذلك؛ فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -»[٣].

وعن أنس ﷺ قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبداللَّه بن أبي. فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سَبخَة[٤]، فلما أتاه النبي ﷺ قال: إليك عني، واللَّه لقد آذاني نَتنُ حمارك. فقال رجل من الأنصار منهم: والله، لحمار رسول اللَّه أطيب ريحًا منك[٥].

قوله: «**فقال رجل من الأنصار منهم**»: قال الحافظ في «**الفتح**» (٥/٣٥٢): «**لم أقف على اسمه أيضًا، وزعم بعض الشراح أنه عبداللَّه بن رواحة، ورأيت بخط القطب أن السابق إلى ذلك الدمياطي، ولم يذكر مستنده في ذلك، فتتبعت ذلك فوجدت حديث أسامة بن زيد... فإن كانت القصة متحدة احتمل ذلك**».

❑ عبداللَّه بن رواحة ﷺ قائد السرية إلى أسير بن رزام

كانت هذه السرية في شوال سنة ست الهجرية إلى أُسَيْر بن رزام اليهودي؛ فلما قُتِلَ سَلام بن أبي الحُقَيْق اليهودي، أَمَّرت يهود عليهم أُسَيْر بن رزام؛ فسار في غَطَفَان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول اللَّه ﷺ، وبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ؛ فوجه عبداللَّه بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سرًّا، فسأل عن خبره وغِرته، فَأُخْبِرَ بذلك، وقدم على رسول اللَّه ﷺ فأخبره الخبر؛ فندب رسول اللَّه ﷺ الناس؛

---

(١) فيعصبونه بالعصابة: يعني يرئِّسوه عليهم ويسودوه، وَسُمِيَ الرئيس معصبًا؛ لما يعصب برأسه من الأمور، أو لأنهم يعصبون رءوسهم بعصابة لا تنبغي لغيرهم يمتازون بها.

(٢) شرق بذلك: أي غصَّ به، وهو كناية عن الحسد.

(٣) رواه البخاري (٤٥٦٦)، كتاب التفسير - باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

(٤) السبخة: هي الأرض التي لا تُنبِتُ؛ لملوحة أرضها.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس (٥/٢٩٧) حديث (٢٦٩١)، ورواه مسلم في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين.

فَانْتُدِبَ له ثلاثون رجلًا، فبعث عليهم عبدالله بن رواحة، وقدموا على أُسَيْر فقالوا: «**نحن آمِنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟**»، قال: «**نعم، ولي منكم مثل ذلك؟**»، فقالوا: «**نعم**». وقالوا لأسير: «**إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك؛ لتخرج إليه؛ فيستعملك على خَيْبَر ويُحسِنَ إليك**»، فطمع في ذلك وخرج، وخرج معه ثلاثون رجلًا من يهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كانوا بـ «**قَرْقَرَةِ ثِبَار**»[١]، ندم أُسَيْر، وفكر بالخيانة، قال عبدالله بن أُنَيْس - وكان في السرية -: «**وأهوى بيده إلى سيفي، ففطنت له، ودفعت بعيري، وقلت: غدرًا أيْ عدو الله!! فعل ذلك مرتين، فنزلت فَسُقْتُ بالقوم حتى انفرد لي أُسير، فضربته بالسيف، فأندرتُ عامة فَخِذِه وساقه، وسقط عن بعيره، وبيده مِخْرَش**[٢] **من شَوْحَط**[٣]**، فضربني فشجني، وملنا على أصحابه فقتلناهم كلهم غير رجل واحد أعجزنا شدًّا، ولم يُصَبْ من المسلمين أحدٌ، ثم أقبلنا إلى رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث، فقال: «نجاكم الله من القوم الظالمين**»[٤].

وهكذا أدى عبدالله بن رواحة واجبه على أحسن الوجوه، دون أن يتكبد المسلمون خسائر في الأرواح أو العدة.

ألست تُبْصِرُ عبدالله في نفر	أعظِمْ به وبهم من حوله نفرا
جاءوك يا ابن رزام لو تطاوعُهم	لأذهب الله عنك الرجْسِ والوضَرا[٥]
دَعْها أسيرُ لك الويلات من رجلٍ	ضل السبيل فأمسى يركبُ الغُرَرَا[٦]

---

(١) قرقرة ثبار: موضع على ستة أميال من خيبر باتجاه المدينة؛ انظر: معجم البلدان (٣/٥).

(٢) المخرشة: عصا معوجَّة الرأس؛ كالصولجان.

(٣) شوحط: ضرب من شجر جبل السَّراة تتَّخذ منه القِسِيُّ، واحدته: شوحطة.

(٤) طبقات ابن سعد (٢/٩٢، ٩٣)، ومغازي الواقدي (٢/٥٦٦ - ٥٦٨).

(٥) الرجس: القَذَر. والوضر: الوَسَخ.

(٦) الغرر: التعريض للهلكة.

❑ قَبْل سرية مؤتة

شهد عبدالله بن رواحة بعد عودته من سريته إلى خَيْبَر غزوة الحُدَيْبِية[١] وغزوة خَيْبَر، وفي الطريق إلى خيبر قال النبي ﷺ لعبدالله بن رواحة: «**ألا تُحَرِّك بنا الرَّكْب؟**»، فنزل عبدالله عن راحلته وقال:

واللهِ لولا أنتَ ما اهتَدَينا ... ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِيْنَةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَينا

والمشركون قد بغوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم ارحمْهُ**»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**وَجَبت يا رسول الله!!**»؛ فَقُتِلَ يوم مُؤتة شهيدًا[٢].

ولما قسم النبي ﷺ خيبر على المسلمين، كان سهم بني الحارث بن الخزرج لكل مئة رأس منهم رأس يُعْرَف يُقسم على أصحابه ما خرج من غلتها، وكان رأس بني الحارث بن الخزرج عبدالله بن رواحة[٣].

وكان رسول الله ﷺ يبعث إلى أهل خيبر خَارِصًا[٤] بين المسلمين ويهود، فيَخْرِص عليهم، فإذا قالوا: تَعَديتَ علينا، قال: «**إن شئتم فلنا، وإن شئتم فلكم**»، فتقول يهود: «**بهذا قامت السماوات والأرض**»، وإنما خرص عليهم ابن رواحة عامًا واحدًا، ثم أُصيب بمؤتة[٥].

وشهد عُمْرَة القضاء[٦] التي كانت في شهر ذي القعدة من سنة سبع الهجرية[٧]، وحين دخل رسول الله ﷺ مكة في تلك العُمْرَة، دخلها عبدالله بن

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٦٣٩)؛ وانظر: طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٦٨٩ - ٦٩٢، ٧١٨).

(٤) الخارص: الذي يقدِّر التمر وهو على أصوله قبل أن يجد. والخرص هنا هو: التقدير.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/٤٠٩)؛ وانظر: مغازي الواقدي (٢/٦٩١).

(٦) طبقات ابن سعد (٣/٥٢٦).

(٧) تاريخ خليفة بن خياط (١/٤٨)، والعبر (١/٨).

رواحة آخذًا بخطام ناقته يقول:

خلوا بَنِي الكُفار عن سَبِيلِهِ   خَلوا فكل الخَيْر في رسوله[١]
يا رب إني مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ   أعرفُ حق اللهِ في قَبُوله[٢]
نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله
ضَرْبًا يُزِيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ   وَيُذْهِلُ الخليلَ عن خليله[٣]

فقال عمر بن الخطاب: «**يا ابن رواحة، حرم اللَّه وبين يدي رسول اللَّه ﷺ وتقول هذا الشعر؟!**»، فقال النبي ﷺ: «**خَل عنه يا عمر!! فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبْل**»[٤].

❑ القائد الشهيد في سرية مؤتة

بعثه النبي ﷺ في جمادى الأولى من سنة ثمانٍ الهجرية إلى الشام في ثلاثة آلاف مجاهد، واستعملَ عليهم زيد بن حارثة وقال: «**إن أُصيبَ زيدٌ فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبداللَّه بن رواحة على الناس**»، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج.

ولما أكملت السرية استحضاراتها للحركة، ودع الناس أمراءَ رسول اللَّه ﷺ وسلموا عليهم، فلما وُدِّعَ عبداللَّه بن رواحة مع مَنْ وُدِّعَ من أمراء رسول اللَّه ﷺ، بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟! فقال: «**أما واللَّه ما بي حب الدنيا ولا صَبَابة بكم، ولكني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقرأ آية في كتاب اللَّه ﷻ يذكر فيها النار:** ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]، **فلست**

---

(١) سبيله: طريقه التي انتهجها له الله ـ تَعَالَى.

(٢) قيله: القيل بكسر القاف، والقول بفتح وسكون، والقال بالفتح وقلب الواو ألفًا: كلٌّ ذلك عند جماعة من أهل اللُّغة بمعنًى واحدٍ، ويقال: القول هو المصدر، والقيل: الاسم.

(٣) الهام: جمع هامة، والمراد هنا الرأس. ومقيل الهام: الأعناق: ويذهل: يشغل. انظر: سيرة ابن هشام (٤٢٥/٣).

(٤) الإصابة (٦٧/٤)، وانظر: مغازي الواقدي (٧٣٦/٣)، وطبقات ابن سعد (٥٢٧/٣).

أدري كيف لي بالصدور بعد الوُرُود»، فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزبَدا[١]

أو طعنةً بيَدَيْ حَرانَ مُجْهَزةً ... بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحشَاء والكَبدا[٢]

حتى يُقالَ إذا مَروا على جَدَثِي ... أَرْشَدَهُ اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا[٣]

وخرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، حتى إذا ودعهم وانصرف، قال عبدالله بن رواحة:

خلَفَ السلامُ على امْرِئٍ وَدعْتُهُ ... في النخلِ خَيْرِ مُشَيعٍ وخَلِيلِ

ثم مضوا حتى نزلوا «**مُعَان**»[٤] من أرض الشام، فبلغ الناسَ أن هِرَقْلَ ملكَ الرومِ قد نزل «**مَآب**»[٥] من أرض «**البَلْقَاء**»[٦] في مئة ألفٍ من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْنْ وبَهْراء وبَلِي مئة ألف منهم، عليهم رجل من بَلِي ثم من أحد إِرَاشَة يقال له: «**مالك بن زافلة**»، فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على «**مُعَان**» ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: «**نكتب إلى رسول الله ﷺ، ونخبره بعَدَد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنَمْضِي**»، فشجع الناسَ عبدُاللَّه بن رواحة، وقال: «**يا قوم، واللَّه إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ـ الشهادة ـ، وما نقاتل الناسَ بعَدَد ولا قُوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللّه به، فانطلقوا، فإما هي إحدى الحُسْنَيَيْنِ: إما ظهور، وإما شهادة**»، فقال الناس: «**قد واللّه صَدَقَ ابنُ رواحة**»؛ فمضى الناس، فقال عبداللّه بن رواحة في مَحْبَسِهم ذلك:

---

(١) ذات فرغ: يريد واسعة. والزَّبد: أصله ما يعلو الماء إذا غَلَا، وأراد هنا ما يعلو الدم الذي يتفجر من الطعنة.

(٢) مجهزة: سريعة القتل؛ تقول: أجهز على الجريح، إذا أسرع في قتله. وتنفذ الأحشاء: تخرقها وتصل إليه.

(٣) الجدث ـ بفتح الجيم والدال المهملة وآخره ثاء مثلثة ـ: القبر.

(٤) معان: بلد في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.

(٥) مآب: مدينة في طرف الشَّام من نواحي البلقاء.

(٦) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشَّام ووادي القرى، قصبتها عمَّان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة.

جَلَبْنَا الخيلَ من آجاء فَرْعٍ ... تُغَرُّ من الحشيشِ لها العُكُومُ[١]
حَذَوْنَاهُمْ من الصوانِ سِبْتًا ... أَزَلَّ كأنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ[٢]
أقامتْ ليلتين على مُعَانٍ ... فأُعْقِبَ بعد فَتْرَتِهَا جُمُومُ[٣]
فَرُحْنَا والجِيَادُ مُسَومَاتٌ ... تَنَفس في مناخرها السموم[٤]
فلا وأَبِي مَآبَ لَنَأْتِيَنَّهَا ... وإنْ كانت بها عَرَبٌ ورومُ
فَعَبَّأْنَا أَعِنَّتَهَا فجاءَتْ ... عوابِسَ والغُبَارُ لها بَرِيمُ[٥]
بذي لَجَبٍ كأَن البيضَ فيه ... إذا بَرَزَتْ قَوانِسهَا النجومُ[٦]
فَرَاضِيَةُ المَعِيشَةِ طَلَّقَتْهَا ... أَسِنتُها فَتَنكِحُ أو تَئِيمُ[٧]

ومضى الناس قُدُمًا إلى هدفهم، وكان زيد بن أَرقم يتيمًا لعبداللَّه بن رواحة في حِجْرِهِ، فخرج به في سفره ذلك وقد أردفه على حقيبةِ[٨] رَحْلِهِ، فسمعه ينشد في ليلة من الليالي هذه الأبيات:

إذا أَدَّيْتَنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي ... مَسِيرَةَ أربعٍ بعد الحِسَاءِ[٩]

---

(١) أَجَأ ـ بفتح الهمزة والجيم وآخره همزة ـ: أحد جبلي طيئ والآخر سلمى. وفرع: يروى بالعين المهملة وبالعين المعجمة: اسم موضع. وتغر: تطعم شيئًا بعد شيء، تقول: غررت الطائر: إذا أطعمته. والعكوم: الجنوب. وفي رواية: جلبنا الخيل من آجام قرح. وقرح: اسم موضع أيضًا.

(٢) حذوناهم؛ أي: جعلنا لهما حذاء. والحذاء: النعل. والصَّوَّان: الحجارة الملس، واحدتها صوانة. والسِبت: بكسر السين ـ: النعال التي تصنع من الجلد المدبوغ. وأزل: أملس ظاهر الصفحة. والأديم: الجلد.

(٣) الجموم: استراحة الفرس، وأراد هنا: استعداده ونشاطه.

(٤) مسوَّمات: مرسلات، أو معلمات. والسموم: الريح الحارة.

(٥) بريم: هو في الأصل خيط تنظمه المرأة ثُمَّ تشدُّه على وسطها، وأراد ههنا: الحزام.

(٦) بذي لجب: اللجب: كثرة الأصوات واختلاطها، وذو اللجب: الجيش. والقوانس: جمع قونس؛ وهو: أعلى البيضة. والنجوم خبر كأن، وجملة الشرط وجوابه المحذوف: معترضة.

(٧) تئيمُ: تبقى بلا زوج.

(٨) الحقيبة: ما يجعله الراكب وراءه إذا ركب.

(٩) الحساء: جمع حِسَى؛ وَالحِسَي: سهل من الأرض يستنقع فيه الماء، أو غَلِظٌ فوقه رمل يجمع ماء المطر، وكلما نزحت دلوًا، جَمَّتْ أخرى.

فَشَأْنُكِ أَنْعُمٌ وخَلاكِ ذَمٌّ ... ولا أَرْجِع إلى أَهْلِي ورائي[١]
وجاء المسلمون وغَادَرُونِي ... بأَرضِ الشأْمِ مُشْتَهِيَ الثواءِ[٢]
وردك كل ذي نَسَبٍ قَرِيبٍ ... إلى الرحمنِ مُنْقَطِعَ الإِخَاءِ
هنالك لا أُبالي طَلْعَ بَعْلٍ ... ولا نَخْلٍ أسافِلُها رِوَاءِ[٣]

فما سمعها زيد بن أرقم حتى بكى؛ فخفقه[٤] عبدالله بن رواحة بالدُّرة، وقال: «**ما عليك يا لُكَعْ[٥] أن يرزقني الله شهادة، وترجع بين شُعْبَتي الرحْل[٦]؟!**».

وقال زيد بن أرقم: قال عبدالله بن رواحة في سفره ذلك وهو يرتجز:

يا زَيْدُ زَيْدُ اليَعْمَلاتِ الذُّبَّلِ ... تَطَاوَلَ اللَّيْلُ هُدِيتَ فانْزِلِ[٧]

ومضى الناس حتى إذا كانوا بتُخوم[٨] البَلْقاء ثم دنا العدو، انحاز المسلمون إلى قرية مُؤْتَة، فالتقى الناس عندها.

وتعبأ لهم المسلمون؛ فجعلوا على ميمنتهم رجلًا من بني عُذْرَة يقال له: قُطْبَة ابن قَتَادَة، وعلى مَيْسَرَتهم رجلًا من الأنصار يقال له: عُبَادَة بن مالك.

والتقى الناس، ونشب القتال بين الجانبين؛ فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ؛ حتى شَاطَ في رِماحِ القوم[٩].

وأخذ الرايةَ جعفرُ بن أبي طالب؛ فقاتل بها حتى إذا أَلْحَمَهُ القتال، اقتحم[١٠]

---

(١) ولا أرجع: جزم هذا الفعل على الدعاء؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد في هذه السريَّة ولا يرجع إلى أهله.
(٢) الثواء ـ بفتح الثاء المثلثة ـ: الإقامة؛ تقول: ثوى في المكان يثوي ـ من باب ضرب ـ: إذا أقام.
(٣) البعل: الذي يشرب بعروقه من الأرض. والعذى: الذي يشرب من ماء السماء. وقوله: أسافلها رواء: أظهر ما فيه أنَّهُ مبتدأ وخبر، ففي هذا البيت إقواء؛ وهو: اختلاف حركة الرويِّ.
(٤) خفقني: ضربني. والدُّرَّة: العصا.
(٥) لكع: اللئيم.
(٦) شعبتا الرَّحل: طرفاه المقدَّم والمؤخَّر.
(٧) اليعملات: جمع يعملة؛ وهي: النَّاقة السريعة. والذبل: التي أضعفها السير فَقَلَّ لحمها.
(٨) تخوم: حدود الأرضين التي تقع بين أرض وأرض، ويقال بفتح التاء أو ضمِّها.
(٩) شاط في رماح القوم؛ أي: هلك؛ تقول: شاط الرجل، إذا سال دمُهُ؛ فهلك.
(١٠) اقتحم عن فرس له؛ أي: رمى بنفسه عنها؛ يريد: أنَّهُ كان فارسًا فترجَّل.

عن فرس له شقراء، فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ؛ فكان جعفر أول رجل من المسلمين عُقِرَ في الإسلام، وقاتل جعفر قتال الأبطال حتى سقط، وَأَخَذَ الراية عبدُاللَّه بن رواحة، فتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أَقْسَمْتُ يا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّه ... لَتَنْزِلِنَّ أو لَتُكْرَهِنَّهْ

إنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرنَّهْ ... ما لي أراكِ تَكْرَهِينَ الجَنَّهْ[1]

قد طَالَمَا مذ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أنتِ إلا نُطْفَةٌ في شَنَّهْ[2]

وقال أيضًا:

يا نَفْسُ إلا تُقْتَلِيْ تَمُوتِي ... هَذَا حِمَامُ الموتِ قد صَلِيتِ

وما تَمَنيْتِ فقد أُعْطِيتِ ... إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيتِ

يريد: صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم نزل.

وأتاه ابن عَمٍّ له بِعَرْقٍ[3] من لحمٍ، فقال: «**شُدَّ بهذا صُلْبَكَ؛ فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت**»، فأخذه من يده، ثم انْتَهَس[4] منه نَهْسَةً، ثم سمع الحَطَمَة[5] في ناحية الناس، فقال: «**وأنتِ في الدنيا!!**»، ثم أخذ سيفه وتقدم، فقاتل حتى قُتِلَ.

وأخيرًا استراح الراحة الأبدية مَنْ كان لا يَستريح ولا يُريح، يجاهد بلسانه ويده وسيفه، وظل يجاهد بها جميعًا حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وهو يحمل لواء رسول اللَّه ﷺ، ويستقتل دفاعًا عنه وعن مُثُلِهِ العليا؛ فسقط ابن رواحة شهيدًا مضرجًا بدمائه، دون أن يسقط لواء النبي ﷺ؛ فقد تلقفه مجاهد جديد يسعى إلى الشهادة دونه، فضحى ابن رواحة بروحه من أجل دينه، ومات الذين حرصوا على

---

(١) أجلب الناس: صاحوا واجتمعوا. والرنَّة: صوت فيه ترجيع يشبه البكاء.

(٢) النطفة: الماء القليل الصافي. والشَّنَّة: القربة.

(٣) العرق: العظم الذي عليه بعض اللَّحم.

(٤) انتهس: أخذ بفمه منه يسيرًا.

(٥) الحطمة: الكسرة.

الحياة؛ كما مات ابن رواحة، ولكن شتان بين الميتتين.

كانت أمنيته ضربة سيف أو طعنة رمح تنقله إلى عالم الشهداء الظافرين!!

هوى جسده؛ فصعدت روحه المستبسلة الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، وتحققت أغلى أمانيه.

حتى يُقالَ إذا مَرُّوا على جَدَثي ... يا أرشد اللَّه من غاز وقد رشدا

نعم يا ابن رواحة...

يا أرشد اللَّه من غاز وقد رشدا!!!

إيه يا زيد بن حارثة.. ويا جعفر.. ويا عبدالله.. أي رحلة مجيدة كانت لكم؟!!

وأي اتفاق سعيد كان؟!!

لقد خرجتم إلى الغزو معًا... وصعدتم إلى الجنة معًا.

وخلد الشعر موقف عبداللَّه بن رواحة في مؤتة من تحفيزه للمسلمين... ومن قيادته؛ فقال:

لم يلبث القوم حتى قال قائلُهم[1] ... فيمَ الحواز وهل في الأمر من جَدَلِ

إنا خرجنا نريدُ اللَّه فاستبِقوا ... من كل منتهب للخير مُهْتَبِلِ[2]

لو زالتِ الأرض أو زالتْ جوانبُها ... بمن عليها من الأقوام لم نَحُلِ

هما سبيلان إما النصرُ ندرِكُهُ ... أو جنةُ الخلدِ فيها أطيبُ النُّزُلِ

لسنا نقاتل بالآلاف نحشُدها ... ألفًا لألفٍ من الأبطال مُكتملِ

إنا نقاتلُ بالدين الذي ضمنت ... أعلامُهُ النصرَ في أيامِنا الأولِ

لولا مقالة عبداللَّه ما انكشفت ... تلك الغواشي ولولا اللهُ لم يَقُلِ

* * *

(١) هو: عبدالله بن رواحة.

(٢) اهتبل الأمر: اغتنمه.

انهض بعتبِك عبدالله مضطلِعًا ... بكل ما تحملُ الأطوادُ مِنْ ثِقَلِ
هذا مجالُك فارْكض غيرَ مُتَّئِدٍ ... وإن رأيت المنايا جُوّلًا فَحُلِ
كم جئت بالعربي السمْحِ مُرْتجلًا ... واليومَ يوم منايا الروم فارتَجِلِ
للعبقرية فيه مَظْهَرٌ أنِقٌ ... يا حسنَهُ مظهرًا لو كان يَقدِرُ لي
قنعتُ بالشعرِ أغزو المشركين به ... فلم أُصْبِ فيه آمالي ولم أنَلِ
لقطرةٌ من دَمِي في الله أبذلُهَا ... أبقى وأنفعُ لي من هذه الطوَلِ[1]
تقلد القومَ ملءَ الدهر من شرفٍ ... وليس لي من غواليها سِوَى العَطَلِ

* * *

ياشاعرالصدق[2]ماخاب الرجاءُ[3]ولا ... مِثْلُ العطاءِ الذي أدركتَ والنفَلِ
خُذْ عند ربك دَار الخُلد تسكنها ... قُدْسِيةَ الجو والأرواح والظلَلِ
آثَرْتَهُ واصطفيتَ الحقَّ تكلؤُهُ ... مما يحاولُ أهْلُ الغيِّ والضلَلِ[4]
ليسَ العَرانِينُ كالأذنابِ منزلةً ... ولا الغطارفة الأمجادُ كالسفَلِ[5]

الشاعر العملاق المجاهد بلسانه ﷺ

كان عبدالله شاعرًا، ينطلق الشعر من بين ثناياه عذبًا قويًّا وكان النبي ﷺ يحب شعره ويستزيده منه.

كان عبدالله بن رواحة أحد شعراء النبي ﷺ الذين يذبون عن الإسلام بألسنتهم: كعب بن مالك الأسلمي، وعبدالله بن رواحة، وحسان بن ثابت من بني النجار، وكلهم من الخزرج من الأنصار[6]، وكان من شعراء الصحابة

---

(١) القصائد الطوال.
(٢) هو: عبدالله بن رواحة.
(٣) تمنيه الشهادة.
(٤) الضلل: اسم من الضلال.
(٥) العرانين: جمع العِرْنِين؛ وهو: الأنف؛ والمقصود: السادة الشرفاء. والغطارفة: جمع غطريف؛ وهو: السيد.
(٦) جوامع السيرة (٢٨).

المشهورين[1].

وقد كان النبي ﷺ يوم الخندق ينقل التراب، حتى وارى التراب شَعْرَ صدره، وهو يرتجز برجز ابن رواحة:

تاللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنْزِلَنَ سكينةً علينا وثَبِّتِ الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا[2]

وروى هشام بن عروة عن أبيه قال: سمعت أبي يقول: ما سمعت أحدًا أَجْرَأَ ولا أسرعَ شعرًا من عبدالله بن رواحة؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول له يومًا: «**قُلْ شعرًا تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك**»؛ فانبعث مكانه يقول:

إني تفرست فيك الخير أعرفُهُ والله يعلم أَنْ ما خانني البصرُ
أنتَ النبي ومَن يُحرم شفاعته يومَ الحساب لقد أَزْرَى به القَدَرُ
فَثَبتَ اللهُ ما آتاكَ من حسن تثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نُصِرُوا

فقال رسول الله ﷺ: «**وأنت فثبتكَ اللهُ يا ابن رواحة**».

قال هشام بن عروة: «فثبته الله عَزَّوَجَلَّ أحسن الثبات؛ فَقُتِلَ شهيدًا، وَفُتِحَتْ له الجنة فدخلها».

وفي رواية ابن هشام:

إني تفرستُ فيك الخير نافلةً فراسة خالفت فيك الذي نظروا
أنتَ النبي ومَن يُحْرم نوافله والوجْهَ منك فقد أزرى به القَدَرُ[3]

وتمام القصيدة هي:

إني توسمت فيك الخير نافلةً والله يعلم أَنْ ما خانني البصرُ[4]

---

(١) البداية والنهاية (٤/٢٥٨).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٤).
(٣) الاستيعاب (٣/٩٠٠)، والاستبصار (١٠٩، ١١٠).
(٤) في تهذيب ابن عساكر (٧/ ٣٩٣): «والله يعلم أني ثابت البصر»، وما أثبتناه في أعلاه أصح، والسبب واضح.

فثبتَ اللَّه ما آتاك من حَسَنٍ تثبيتَ موسى ونصرًا كالذي نُصِرُوا
يا آل هاشم إن اللهَ فضلكم على البرية فضلًا ما له غِيَرُ
ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضهم في جُلِّ أمرك ما آووا ولا نصروا
فَخَبرونِيَ أثمان العَباءِ متى كنتم بطاريقَ أو دانتْ لكم مُضَرُ
نُجَالِدُ الناسَ عن عرضٍ فنأسرهم فينا النبي وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس يغلبنا حي من الناس إن عزوا وإن كَثُروا

وروى أنه لما قال: «**فثبت اللَّه ما آتاك من حسن**»؛ قال له النبي ﷺ: «**وإياك يا سيد الشعراء**»[١].

وعن أبي هُرَيرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن أخًا لكم لا يقول الرفث - يعني ابن رواحة - قال:**

وفينا رسولُ اللَّه يتلو كتابَهُ إذا انشق معروف من الفجر ساطِعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيتُ يُجافي جنبُهُ عن فراشِهِ إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ[٢]

وزاد ابن عساكر:

وأعلم علمًا ليس بالظن أنني إلى اللَّه محشورٌ هناك وراجعُ[٣]

وقال يبكي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه الذي استُشهد في غزوة أُحُد:

بكتْ عَيْنِي وحُق لها بُكاها وما يُغْنِي البُكاءُ ولا العَوِيلُ[٤]
على أسدِ الإلهِ غَداةَ قالوا أَحمزةُ ذاكمُ الرجل القتيلُ
أصيب المسلمون به جميعًا هناكَ وقد أُصِيبَ به الرسولُ

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٣٩٣)، وانظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٢٨)، وهذا القول ليس بثابت عن النبي ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٦١٥١).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٥).
(٤) العويل: البكاء مع ارتفاع صوت.

أبا يَعْلَى لَكَ الأرْكانُ هُدَّتْ ... وأنت الماجدُ البَرُّ الوَصولُ[١]
عليكَ سلامُ ربك في جِنانٍ ... مُخالطها نَعيمٌ لا يَزُولُ
ألا يا هاشِمَ الأخيارِ صبرًا ... فكل فَعالِكُمْ حَسَنٌ جميلُ
رسول اللهِ مُصْطَبِرٌ كريمٌ ... بأمر اللّه ينطقُ إذ يقولُ
ألا مَنْ مُبْلِغٌ عني لُؤَيًّا ... فبعدَ اليوم دائلةٌ تدولُ[٢]
وقَبْلَ اليومِ ما عَرَفُوا وذاقوا ... وقائعنَا بها يُشْفَى الغليلُ[٣]
نَسيتُمْ ضَرْبَنَا بقَلِيبِ بَدْرٍ ... غداةَ أتاكُمُ الموتُ العَجيلُ[٤]
غداةَ ثَوَى أبو جَهْلٍ صَرِيعًا ... عليه الطيْرُ حائمةً تَجُولُ[٥]
وعُتْبَةُ وابنُهُ خَرًّا جميعًا ... وشَيْبَة عَضَّهُ السَّيْفُ الصقِيلُ[٦]
ومَتْرَكُنَا أُمَيةَ مُجْلَعِبًّا ... وفي حَيْزومِهِ لَدْنٌ نَبِيلُ[٧]
وهامَ بني رَبيعَة سائِلُوهَا ... ففي أسيافنا منها فُلُولُ
ألَا يا هِنْد فابْكي لا تَمَلِّي ... فأنتِ الوالِهُ العَبْرى الهَبولُ[٨]
ألَا يا هِنْدُ لا تُبْدِي شَمَاتًا ... بحمزة إن عِزَّكُمُ ذليلُ[٩]

وقال يبكي نافع بن بُدَيْل بن وَرْقاء الذي استشهد في سرية بئر معونة:

رَحِمَ اللهُ نافِعَ بنَ بُدَيْلٍ ... رحمةَ المُبْتَغي ثوابَ الجِهَادِ

---

(١) أبو يعلى: هي كنية حمزة ﷺ وكان حمزة يُكَنَّى بابنه «يعلى»، ولم يعش لحمزة ولد غيره، وكان كذلك يُكَنَّى «أبا عمارة»، وعمارة بنت له. والماجد: الشريف.
(٢) دائلة تدول: يريد دائرة الحرب.
(٣) الغليل: حرارة الجوف من عطش أو حزن.
(٤) العجيل: العاجل السريع.
(٥) حائمة: تدور حوله؛ تقول: حام الطائر حول الماء: إذا دار حوله. وتجول: تجيء وتذهب.
(٦) خرًّا جميعًا: سقطا على الأرض.
(٧) مجلعبًّا: معناه أنه ممتد مع الأرض. والحيزوم: أسفل الصدر. واللَّدن: الرمح اللين. والنبيل: العظيم.
(٨) الواله: الشديد الحزن، أو هي الفاقد. وَالْعَبْرَى: الكثيرة الدمع. والهبول: التي فقدت عزيزها.
(٩) سيرة ابن هشام (١٤٨/٣، ١٤٩)، وقال ابن هشام: «أنشد فيها أبو زيد الأنصاري لكعب ابن مالك»، ولكن ابن إسحاق نسبها لابن رواحة.

صـابِـرٌ صـادقٌ وَفِيٌّ إذا مـا ... أكثرَ القوم قالَ قولَ السدادِ[١]

وقال في بدرٍ الآخرة:

وَعَدْنَا أبا سُفْيَانَ بَدْرًا فلم نَجِدْ ... لِميعاده صِدْقًا وما كانَ وَافِيَا

فَأُقْسِمُ لو وافيتَنا فلَقِيتَنَا ... لأُبْتَ ذَمِيمًا وافْتَقَدْتَ المَوَالِيا[٢]

تركْنَا به أوصالَ عُتْبَة وابنِهِ ... وعَمْرًا أبا جَهْلٍ تَرَكناهُ ثاوِيا[٣]

عَصَيْتُمْ رسولَ اللهِ أُفٍّ لدينكُمْ ... وأمرِكُمُ السَّيْءُ الذي كان غاويا[٤]

فإني وإنْ عَنفْتُموني لقائِلٌ ... فِدى لرسولِ اللهِ أهلِي ومالِيا[٥]

أطَعْنَاه لم نَعْدِلْهُ فينا بغيرِهِ ... شِهَابًا لنا في ظُلْمَةِ الليْلِ هادِيا[٦]

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: حضرت حربًا فقال عبدالله بن رواحة:

يا نفس ألا أراك تكرهين الجنَّه ... أحلِفُ بالله لَتَنْزِلِنَّهْ

طائعةً أو لَتُكْرَهِنَّه[٧]

ولقد كان شاعرًا مجيدًا، حاضر البديهة، يرتجل الشعر القوي الرصين، ويوظف شعره في خدمة الإسلام والمسلمين؛ فكان من شعراء الدعوة المعدودين.

وفي عبدالله بن رواحة وفي صاحبيْه حسان بن ثابت وكعب بن مالك نزلت ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٧][٨].

---

(١) سيرة ابن هشام (١٨٩/٣).

(٢) افتقدت: فقدت. والموالي: جمع مولى، ولها معانٍ كثيرة؛ منها: ابن العم، ومنها الناصر والمعين.

(٣) الثاوي: المقيم؛ تقول: ثوى بالمكان يثوي: إذا أقام به.

(٤) أفٍ: كلمة تقال عند استقباح الشيء أو عند تعذُّره. وقوله: وأمركم السَّيْء: بفتح السين وسكون الياء، وأصله بتشديد الياء فخفَّفه؛ كما قالوا: هين، ولين، وميت، وقيل: والأصل في جميعها بتشديد الياء.

(٥) عنفتموني: لمتموني.

(٦) قوله: «لم نعدله» يريد: لم نعدل به؛ أي: لم نجعله مع غيره سواءً؛ انظر: سيرة ابن هشام (٢٢٣/٣).

(٧) حسن: أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٨٢/٢/٣).

(٨) الاستبصار (١٠٨)، والاستيعاب (٨٩٨/٣).

القائد التقي الشهيد

عن أبي الدرداء أنه قال: «**رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره**، في اليوم الحار الشديد الحر، حتى إن الرجل ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما في القوم صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة»[١].

وبكى يومًا ابن رواحة، فبكت امرأته، فقال: «**ما يبكيك؟!**»، فقالت: «**رأيتك بكيْتَ فبكيتُ!!**»، فقال: «**إني قد علمتُ أني وارد النار، فلا أدري أخارج منها أم لا؟!**»[٢].

وقال أبو الدرداء: «**أعوذ بالله أن يأتيَ يوم علي لا أذكر فيه عبدالله بن رواحة، كان إذا لقيني مقبلًا ضرب بين ثديي، وإذا لقيني مدبرًا ضرب بين كتفي، ثم يقول: يا عُوَيْمر، اجلس فلنؤمن ساعة. فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول: يا عويمر، هذه مجالس الإيمان**»[٣].

وكان عبدالله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحابه يقول: «**تعال نؤمن بربنا ساعة**»، فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله، ألا ترى أن ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة!!**»، فقال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله ابن رواحة؛ إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة**»[٤].

وتزوج رجل امرأة عبدالله بن رواحة، فسألها عن صنيعه فقالت: «**كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل بيته صلى ركعتين، لا يدع ذلك**»[٥].

وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أول خارج إلى الغزو وآخر قافل[٦].

---

(١) الاستيعاب (٣/٩٠٠)، والاستبصار (١١٠).
(٢) الاستبصار (١١٠).
(٣) أسْد الغابة (٣/١٥٧).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩١)، والإصابة (٤/٦٦).
(٥) الإصابة (٤/٦٦).
(٦) أسْد الغابة (٣/١٥٧).

وقال الزبير بن العوام: ما رأيت أحدًا أجرأَ ولا أسرعَ شعرًا من ابن رواحة.

وقال ابن كثير: قد شهد له رسول اللَّه ﷺ بالشهادة؛ فهو ممن يُقطع له بدخول الجنة.

وهو صاحب المناقب المذكورة في الإسلام والأيام المشهورة[(١)].

وكان من المجتهدين في العبادة[(٢)].

وانظر إلى جرأته؛ فما كان أحد أجرأ منه؛ كما قال الزبير رضي الله عنه: «**كان أبو الدرداء** رضي الله عنه آخر أهل داره إسلامًا؛ لم يزل متعلقًا بصنم له وقد وضع عليه منديلًا، وكان عبداللَّه بن رواحة رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام فيأبى، فيجيئه عبداللَّه بن رواحة، فلما رآه قد خرج من بيته خالفه، فدخل بيته وأعجل امرأته، وإنها لتمشط رأسها، فقال: أين أبو الدرداء؟ فقالت: خرج أخوك[(٣)] آنفًا. فدخل بيته الذي كان فيه الصنم ومعه القدوم، فأنزله وجعل يقدده فِلْذًا فِلْذًا وهو يرتجز سرًّا من أسماء الشياطين كلها: «**ألا كل ما يُدعى مع اللَّه باطل**» ثم خرج، وسمعت المرأة صوت القدوم وهو يضرب ذلك الصنم، فقالت: أهلكتني يا ابن رواحة!! فخرج على ذلك، فلم يكن شيء حتى أقبل أبو الدرداء إلى منزله، فدخل فوجد المرأة قاعدة تبكي شفقًا منه، فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك عبداللَّه بن رواحة دخل علي فصنع ما ترى. فغضب غضبًا شديدًا، ثم فكر في نفسه، فقال: لو كان عند هذا خير لدفع عن نفسه. فانطلق حتى أتى رسولَ اللَّه ﷺ ومعه ابن رواحة فأسلم[(٤)].

❑ أما عن قيادته:

كان رضي الله عنه أول خارج إلى الغزوات وآخر قادم[(٥)].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٧/٣٩٠).

(٢) الاستبصار (١١٠).

(٣) قيل: إنه كان أخاه لأمه.

(٤) حياة الصحابة، للكندهلوي (١/٣٦٤).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/٢٦٥).

قال ابن رواحة: «**لا أزال حبيسًا في سبيل الله حتى أموت**»[١]؛ وكانت الشهادة في سبيل الله من أعز أمانيه[٢].

لقد كان من هواة الجهاد، يحفزه إليه عقيدتُهُ الإسلاميةُ، ورغبتُهُ الصادقةُ في نيل أجر المجاهدين في سبيل الله والشهداء لإعلاء كلمة الله؛ فهو الذي شجع المسلمين في سرية مؤتة على لقاء الكفار؛ وكان المسلمون ثلاثة آلاف، والكفار مئتي ألف[٣] ـ مئة ألف من الروم بقيادة هِرَقْل قيصر الروم، ومئة ألف من العرب بقيادة رجل من بَلِيٍّ ثم أحد إراشَة يقال له: مالك بن زافلة ـ، فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على مُعَان ليلتين يفكرون بأمرهم، فشجع الناسَ عبدُالله بن رواحة وقال: «**يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلّتِي خرجتم تطلبون ـ الشهادة ـ، وما نقاتل الناس بعَدَدٍ ولا قُوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْنِ: إما ظهور، وإما شهادة**»[٤].

ومهما قيل في مبالغة الذين سجلوا تعداد الروم وحلفائهم، فإن الحقيقة تبقى واضحة للدارسين بأن الروم وحلفاءهم كانوا أضعاف تعداد المسلمين، كما أنهم يقاتلون في بلادهم دفاعًا عنها، بينما يقاتل المسلمون بعيدًا عن قاعدتهم الرئيسة ـ المدينة ـ؛ وبذلك تكون المزايا العسكرية في التفوق العَدَدِي والعُدَدي، وفي قرب قواعد الروم إلى قواتهم المقاتلة، هذه المزايا مع الروم على المسلمين بلا مراء.

وفي هذه الحالة، وبمثل هذا الموقف، وبموجب المقاييس المادية وحدها فإن تشجيع المسلمين على اقتحام الروم وحلفائهم بالرغم من تفوق الروم العَدَدي تفوقًا ساحقًا على المسلمين، وقرب قواعدهم من قواتهم المقاتلة، وخبرتهم الطويلة في

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٣٩٢/٧).
(٢) الاستيعاب (٨٩٨/٣).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢٦٥/١).
(٤) سيرة ابن هشام (٤٢٩/٣، ٤٣٠).

فنون الحرب بشكل أفضل بكثير من خبرة أولئك المسلمين القادمين من أعماق الصحراء يمكن اعتباره بموجب المقاييس المادية وحدها مجازفة من المجازفات الخطيرة التي تؤدي إلى التهلكة، ويمكن اعتباره خطأً فاحشًا من الأخطاء العسكرية الفاحشة أيضًا.

ولكن المقاييس المادية تُطَبَّقُ على الذين يعتمدون الوسائل المادية وحدها في حروبهم، أما الذين يحاربون حربًا عقائدية جهادًا في سبيل اللَّه ودفاعًا عن عقيدتهم وعن حرية انتشارها، فلا تُطَبَّقُ عليهم المقاييس المادية وحدها التي تُطَبَّقُ على غيرهم في حروب استثمارية، أو توسعية، أو من أجل أمجاد شخصية وأحقاد عنصرية أو طائفية؛ وعلى ذلك فلا تُطَبَّقُ هذه المقاييس المادية على أمثال عبداللَّه بن رواحة؛ لأنهم كانوا يخوضون حربًا عقائدية لا دخل للمادة فيها من قريب أو بعيد، وإلا فماذا يمكن أن يُقَالَ في غزوة بدر الكبرى الحاسمة بالنسبة للمقاييس المادية وحدها، وكان تفوق المشركين على المسلمين بنسبة ثلاثة على واحد في الأشخاص، وبنسبة مئة على واحد بالخيل، والخيل أنجع سلاح في الحروب القديمة؟؟!!

لقد حَرَّضَ عبدُاللَّه بن رواحة المسلمين على القتال؛ لأغراض عقائدية؛ فكان تحريضه خطأً بالنسبة للمقاييس المادية، ولكنه كان عين الصواب بالنسبة للجهاد والحرب العادلة التي كان يخوضها المسلمون حينذاك.

وتشجيع عبداللَّه بن رواحة المسلمين على قتال الروم وحلفائهم واستجابة المسلمين لهذا التشجيع له دلالة لا يمكن أن يختلف فيها اثنان؛ هي: أنه كان يثق ثقة عالية برجاله، وأن رجاله كانوا يثقون به ثقة مطلقة، والثقة المتبادلة بين القائد ورجاله من أهم مزايا القائد المتميز.

ولا يمكن أن يثق الرجال بقائدهم ثقة مطلقة عفوًا وبدون أسباب، كما أن النبي ﷺ كان لا يولي المراكز القيادية إلا لأشخاص لهم مؤهلاتٌ عاليةٌ ومزايا واضحةٌ

المعالمِ؛ فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يَحْرِصُ أعظم الحرص على تَوَلِّي الرجل المناسب للعمل المناسب؛ تطبيقًا لتعاليم الإسلام في الولاية.

وثقة النبيﷺ بعبدالله بن رواحة وثقة رجال عبدالله بن رواحة به أسبابها وحوافزها واحدة هي تمتع عبدالله بن رواحة ـ بالإضافة إلى عمق إيمانه ـ بمزايا قيادية أَهَلَتْهُ لِأَنْ يكون أحد قادة النبيﷺ ، وأن يستحوذ على ثقة رجاله المطلقة.

ويمكن إيجاز مزاياه القيادية:

ـ بأنه كان قادرًا على إصدار القرار السريع الصحيح:

فهو من القلة النادرة التي تُحْسِنُ القراءة والكتابة في وقت كان لا يُحْسِنُ فيه القراءة والكتابة في المجتمع السائد حينذاك إلا القلائل الذين يُعَدُّونَ على الأصابع وَيُشَارُ إليهم بالبنان؛ مما يدل على ذكائه الألمعي.

ـ وكان شجاعًا مقدامًا:

فقد أثبت جدارة في كل الغزوات التي خاضها تحت لواء النبي ﷺ ؛ كما برزت شجاعته بوضوح في قيادة سريته إلى أحد أعداء الإسلام والمسلمين من يهود؛ فقد كانت مهمة تلك السرية مهمة صعبة للغاية لا يقدر عليها غير الفدائيين المغاوير الشجعان.

ـ وكان يتحلى بإرادة قوية ثابتة:

وقد ظهرت إرادته التي لا تتزعزع قُبَيْل سرية مُؤْتة؛ إذ تتردد الأكثرون ولم يتردد الأقلون، وعلى رأسهم عبدالله بن رواحة، الذي أصر على مجابهة الروم وحلفائهم؛ فكان له ما أراد.

ـ وكان له نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، يحب رجاله ويحبونه، له شخصية قوية نافذة، وقابلية بدنية فائقة، وماض ناصع مجيد حسبًا ونسبًا وفي خدمة الإسلام والمسلمين، يتحلى بأعلى

درجات الضبط المتين والطاعة.

- وكان يعرف مبادئ الحرب ويطبقها بفطرته التي لا تخطئ:

فهو يطبق مبدأ «**اختيار المقصد وإدامته**»، لا يحيد عنه أبدًا، ويسعى لتحقيقه بكل ما يستطيع من قوة وجهد وعزم، وكانت معاركه تعرضية كلها، لم يدافع أبدًا، ولم يطبق الدفاع في القتال.

وكان يطبق مبدأ «**المباغتة**»؛ فقد باغت اليهوديَّ ومَنْ معه؛ فاستطاع التغلب عليهم، والقضاء على نشاطهم التخريبي.

وكان يطبق مبدأ «**الاقتصاد بالقوة**»؛ فهو يعتقد بحق أنه ينتصر على أعدائه بقوة عقيدته وضعف عقيدتهم، لا بِعَدَدٍ أو عُدَدٍ.

وكان يطبق مبدأ «**الأمن**»؛ لذلك استطاع أن يباغت أعداءه، ولم يستطع أعداؤه أن يباغتوه.

وكان يديم المعنويات، بل كان بحق كتلة من المعنويات، يقاتل بشعره كما يقاتل بسيفه، ويرفع المعنويات بالعقيدة الراسخة والإيمان العميق.

وكان يساوي نفسه برجاله، ولا يتميز عليهم بشيءٍ، ويستشيرهم في كل خطوة يخطوها أو عملية ينفذها.

تلك هي سماته القيادية التي جعلت النبي ﷺ يوليه مركزًا قياديًّا، وجعلت أصحابه يثقون به ويعتمدون عليه، وهو حَرِيٌّ بالثقة والاعتماد.

لله دَرُّ حسان بن ثابت حين يقول في ابن رواحة:

ثُم جُودِي لِلْخَزْرَجِيِّ بِدَمْعٍ ... سيدًا كان ثم غير نَزُورِ[1]

قد أتانا من قتلهم ما كفانا ... فبِحُزْنٍ نَبِيتُ غَيْرَ سُرُورِ[2]

---

(١) أراد بالخزرجي: عبدالله بن رواحة. والنزور: القليل العطاء.

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٦).

وقال شاعرٌ من المسلمين ممن رجع من غزوة مؤتة:

كَفَى حَزَنًا أَني رَجَعْتُ وجَعْفَرٌ وَزَيْدٌ وعبدُاللهِ في رَمْسِ أَقْبُرِ
قَضَوْا نَحْبَهُمْ لما مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ وخُلِّفْتُ للبَلْوَى مع الْمُتَغَبِّرِ[1]
ثلاثةُ رهطٍ قُدِّمُوا فَتَقَدَّمُوا إلى وِرْدِ مَكْروهٍ من الموت أحمرِ[2]

ومضى عبدالله بن رواحة إلى رحاب الله أطيب رحاب، وبقي ذكره في بطون الكتب، وَمِثْلُهُ يستحق الثناء المستطاب.

رَضِيَ اللهُ عَنِ الْعَقَبِيِّ النقيب...

الصحابي الجليل...

والقائد الشجاع...

والشاعر المجيد...

والبطل الشهيد...

عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي.

* * *

(١) قضوا نحبهم: يريد ماتوا، وأصل النَّحب: النذر. والمتغبر: الباقي.
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٦، ٤٤٧).

٣٥

القائد شهيد يوم الرجيع

مرثد بن أبي مرثد الغنوي

٣٥

القائد شهيد يوم الرجيع

مرثد بن أبي مرثد الغنوي

هو: مَرْثَد بن أبي مَرْثَد.

واسم أبي مَرْثد: كَناز بن حِصْن بن يَرْبُوع بن طَرِيف بن خَرَشَة بن عُبَيْدَة بن سَعْد بن عَوْف بن كَعْب بن مالِك بن جَلان بن غَنْم بن عمرو، وهو غَني بن أَعْصُر بن سَعْد[(١)] بن قَيْس عَيْلَان بن مُضَر[(٢)].

أبوه: أبو مَرْثَد الغَنَوِي، وكان تِرْبًا[(٣)] لحمزة بن عبد الْمُطلب عمِّ النبي ﷺ وحليفه، وكان رجلًا طُوالًا كثير شعر الرأس[(٤)]، ومن المهاجرين الأولين[(٥)]، شهد بَدْرًا وأُحُدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ، ومات بالمدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة اثنتي عشرة الهجرية، وهو يومئذ ابن ست وستين سنة[(٦)].

وآخى النبي ﷺ بين أبي مَرْثَد الغَنَوِي وعُبَادة بن الصامت، وبين مَرْثَد بن أبي مَرْثَد وأوس بن الصامت أخي عُبادة بن الصامت[(٧)] من الخزرج.

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٤٧)، وفي «طبقات ابن سعد» (٤٧/٣): خرشة بن عبيد، وكعب بن مالك ابن جلَّان، وغنم بن يحيى بن يعصر.

(٢) طبقات ابن سعد (٤٧/٣)، وجمهرة أنساب العرب (٢٤٤).

(٣) تربًا: المماثل في السنِّ، وأكثر ما يستعمل في المؤنث، والجمع: أترابًا.

(٤) طبقات ابن سعد (٤٧/٣).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٢٤٧).

(٦) طبقات ابن سعد (٤٧/٣)، والاستيعاب (١٧٥٥/٤)، وأُسْد الغابة (٢٩٤/٥).

(٧) طبقات ابن سعد (٤٧/٣، ٤٨)، وأُسْد الغابة (٣٤٥/٤).

جهاد مرثد مع النبي ﷺ

كان مرثد وأبوه في سرية حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ التي كانت في شهر رمضان من السنة الأولى الهجرية، فلم يلقوا كيدًا[١].

وفي مرحلة مسير الاقتراب بين المدينة وموقع بَدْر كانت إبل أصحاب رسول اللَّه ﷺ يومئذ سبعين بعيرًا، فَاعْتَقَبُوهَا؛ فكان رسول اللَّه ﷺ وعلي بن أبي طالب ومَرْثد بن أبي مَرْثد الغَنَوِي يعتقبون بعيرًا[٢]؛ فكان إذا كانت عُقْبَة النبي ﷺ قالا: «**اركب حتى نمشي عنك**»، فيقول: «**ما أنتما بأقوى على المشي مني، وما أنا أغنى عن الأجر منكما**»[٣].

وكان مع أصحاب النبي ﷺ في غزوة بدر الكبرى فَرَسَانِ: فرس لمرثد بن أبي مَرْثَد، وفرس للمِقداد بن عمرو البَهْراني حليف بني زُهْرة، ويقال: فرس للزبير بن العوام، ولم يكن إلا فرسان، ولا اختلاف أن المِقْداد له فرسٌ[٤]، ويقال لفرس مَرْثَد: السبَل[٥].

وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ بسهم للفرس وبسهم لصاحبه، وهناك مَنْ يقول: إن رسول اللَّه ﷺ ضرب يومئذ للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم[٦].

وقد أبلى مَرْثَد في غزوة بدر بلاءً حسنًا، وشارك في إحراز النصر المؤزر للمسلمين على المشركين، وأسر مرثد في هذه الغزوة أبا ثور أحد المشركين؛ فافتداه

---

(١) مغازي الواقدي (٩/١).

(٢) سيرة ابن هشام (٢٥١/٢)، والدرر (١١١)، وجوامع السيرة (١٠٨)، ومغازي الواقدي (٢٤/١).

(٣) طبقات ابن سعد (٢١/٢)، وعيون الأثر (٢٤٦/١، ٢٤٧).

(٤) مغازي الواقدي (٢٧/١).

(٥) سيرة ابن هشام (٣١٢/٢)، ويقال له: السَّيْل؛ انظر: مغازي الواقدي (٢٧/١)، قال أبو ذر: «يروى السيل بالياء المنقوطة باثنتين من تحتها، والصواب فيه: السَّبَل بالباء المنقوطة بواحدة من تحتها، وهي اسم علم معرفة لا ينصرف»؛ انظر: الهامش رقم (١) في سيرة ابن هشام (٣١٢/٢).

(٦) مغازي الواقدي (١٠٢/١، ١٠٣).

جُبَيْر بن مُطْعم[١].

وهكذا كان مَرْثَد أحد البدريين[٢].

كما شهد مرثد غزوة «**أُحُد**» مع مَنْ شهدها من المسلمين[٣]؛ وبذلك نال مَرْثَد شرف الصحْبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد - عليه أفضل الصلاة والسلام -.

مرثد ﷺ ينقذ كثيرًا من المسلمين المحتجزين في سجون مكة

كان المشركون من قريش يحتجزون المسلمين من قريش ومن غيرها؛ ليمنعوهم من الهجرة إلى المدينة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وكانوا يطلقون على هؤلاء المسلمين المحتجزين في مكة «**الأسرى**»، وكان مَرْثد ممن يحملون الأسرى من مكة إلى المدينة؛ لشدته وقوته[٤] وشجاعته وإقدامه؛ إذ كان المسلمون يحاولون بشتى الطرق والأساليب إنقاذ أولئك الأسرى؛ لإطلاقهم من الأسر، ومنحهم حريتهم الدينية في كنف النبي ﷺ والمسلمين في المدينة المنورة.

وكان بمكة بَغِيٌّ يقال لها: «**عِنَاق**»، وكانت صديقة له في الجاهلية، وكان مَرْثد قد وَعَدَ رجلًا أسيرًا من المسلمين بمكة أن يحمله من مكة حتى يأتِيَ به المدينة، فجاء ذات ليلة حتى انتهى إلى حائط من حيطان مكة في ليلة قمراء، فجاءت «**عناق**»، وأبصرت سواد ظله بجانب الحائط، فلما انتهت إليه عرفته، فقالت: «**مَرْثَد؟!**»، فقال: «**مَرْثَد!!**»، فقالت: «**مرحبًا وأهلًا، هَلُمَّ فبت عندنا الليلة!!**»، فقال: «**يا عناق، إن الله حرم الزنا!!**»، فصاحت بأعلى صوتها: «**يا أهل مكة، إن هذا**

---

(١) أنساب الأشراف (٣٠٢/١).

(٢) مغازي الواقدي (١٥٣/١)، والدرر (١٢١)، وجوامع السيرة (١١٥).

(٣) الاستيعاب (١٣٨٣/٣)، وطبقات ابن سعد (٤٨/٣).

(٤) أُسْد الغابة (٣٤٥/٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٨٦/٢).

يحمل الأسرى من مكة!!»؛ فَتَبِعَهُ ثمانية رجال، فسلك طريق «**الخَنْدَمَة**»[١]، حتى انتهى إلى كهف في الجبل ودخله، وجاء الرجال الثمانية، فوقفوا على باب الكهف، ولكنهم لم يقبضوا على مرثد، فعادوا أدراجهم إلى مكة خائبين، ورجع مَرْثَد إلى صاحبه الأسير بعد عودة الذين طاردوه ولم يفلحوا بالقبض عليه، فحمله، وكان رجلًا ثقيلًا، حتى انتهى إلى «**الأذاخِر**»[٢]، ففكك عنه كَبْلَه[٣]، ثم حمله إلى المدينة.

□ **قائد سرية الرجيع[٤] وإخوانه الشهداء الأبرار «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وزيد بن الدثنة، وعبدالله بن طارق، وخبيب بن عدي»**

قَدِمَ على رسول الله ﷺ بعد «**أُحُد**» في نِصْف صَفَر في آخر تمام السنة الثالثة من الهجرة ـ والصواب أنه في أوائل السنة الرابعة الهجرية ـ نَفَرٌ من عَضَل والقارة، وهما من الهَوْن[٥] بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة أخي بني أسَد بن خُزَيْمَة، فذكروا له ﷺ أن فيهم إسلامًا، ورغبوا أن يبعث نفرًا من المسلمين يفقهونَهُم في الدين؛ فبعث رسول الله ﷺ معهم ستة[٦] رجال من أصحابه، وقيل: عشرة[٧]، وقيل: سبعة[٨]، والصحيح أنهم عشرة، سبعة منهم معلومة أسماؤهم في كتب الأحاديث والسيرِ، وثلاثة لم يكونوا من مشاهير القوم.

والمذكورون من العشرة هم: «**مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوِي حليف حمزة بن عبد**

---

(١) الخندمة: جبل بمكة المكرمة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٤٧٠، ٤٧١).
(٢) الأذاخر: موضع بالقرب من مكة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (١/١٥٨، ١٥٩).
(٣) كبله: القيد من أي شيءٍ كان، والجمع: أكْبُل، وكُبُول، وأكبال.
(٤) الرَّجيع: اسم ماء لهذيل، بين عسفان ومكة، قرب الهدأة بين مكة والطائف. انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٤/٢٢٨، ٢٢٩).
(٥) ويقال: الهون بضم الهاء؛ انظر: سيرة ابن هشام (٣/١٦٠).
(٦) سيرة ابن هشام (٣/١٦٠)، وجوامع السيرة (١٧٦).
(٧) صحيح البخاري (٥/١٠٣)، وطبقات ابن سعد (٢/٥٥).
(٨) مغازي الواقدي (١/٣٥٥).

المطلب، وخالد بن البُكَيْر الليثي حليف بني عَدِي بن كَعْب، وعاصِم بن ثابت بن أبي الأَقْلح أخو بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وخُبَيْب بن عَدِي أخو بني جَحْجَبى بن كُلْفَة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدثِنة بن معاوية أخو بني بَيَاضة بن عمرو بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غُضْب بن جُشَم بن الخزرج، وعبدالله بن طارق حليف بني ظَفَر بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس، وأخوه لأُمِّهِ مُعَتب ابن عُبَيْد حليف بني ظَفَر»، وَأَمَّرَ عليهم رسولُ اللَّه ﷺ مَرْثَد بن أبي مَرْثَد الغَنَوي، ويقال أميرهم: عاصِم بن ثابت بن أبي الأَقْلح.

وخرجت السرية مع القادمين إلى رسول اللَّه ﷺ من عَضَل والقَارة، حتى إذا صارت الرَّجِيع بناحية الحجاز بـ «**الهَدْأة**»[1]، غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هُذَيْلًا، فلم يَرُع القومَ وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف وقد غَشُوهم، فأخذ المسلمون سيوفهم؛ ليقاتلوهم، فَأَمنوهم وأخبروهم أنهم لا أَرَب لهم في قتلهم، وإنما يريدون أن يصيبوا بهم فِداءً من أهل مَكَّة.

فأما مَرْثَد، وخالد بن البُكَيْر، ومُعَتب بن عُبَيْد، وعاصم بن ثابت فأبوا، وقالوا: «**والله، لا قَبِلْنَا لمشرِكٍ عهدًا أبدًا**»؛ فقاتلوهم حتى قُتِلُوا.

وكان عاصِم يُكْنَى «**أبا سليمان**»، فجعل يقاتلهم وهو يقول:

مـا عِـلَّـتِـي وأَنَـا جَـلْـدٌ نـابِـلُ ... والـقَـوْسُ فيهـا وَتَـرٌ عُـنَـابِـلُ[2]

تَـزِلُّ عـن صَـفْـحَـتِـهـا المَعَـابِـلُ ... الموتُ حـقٌّ والحيـاةُ بـاطِـلُ[3]

وكـل مـا حَـمَّ الإلـهُ نـازِلُ ... بـالمرءِ والمرءُ إلـيـه آئِـلُ[4]

إن لم أُقَاتِلْكُمْ فأُمضي هَابِلُ[5]

---

(١) الهدأة: موضع بين عسفان ومكة؛ انظر: معجم البلدان (٤٤٨/٨).

(٢) النابل: صاحب النبل، ويروى في مكانه (بازل)؛ ومعناه: قويٌّ شديدٌ. وعنابل: غليظ شديد.

(٣) المعابل: جمع معبلة؛ وهو: نصل عريض طويل.

(٤) حَمَّ الإله: قَدَّرَهُ، وهو هنا مبني للمعلوم. وآئِلٌ: اسم فاعل: رجع يرجع.

(٥) هابل: فاقد وثاكل؛ تقول: هبلته أمُّهُ؛ أي: ثكلته وفقدته، يدعو على نفسه بالموت إن لم يقاتلهم.

فرماهم بالنبْل حتى فَنِيت نَبْلُهُ، ثم طاعنهم بالرمح حتى كُسِر رمحُهُ، فَقَاتَلَ بالسيف حتى قُتِلَ، وقد جَرَحَ رجلين من المشركين، وَقَتَلَ واحدًا منهم.

ولما قُتِلَ عاصم، أرادت هُذَيْل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شهيد، وكانت قد نَذَرَتْ ـ حين أصاب عاصم ابنيها في أُحُد ـ: «**لئن قدرت على رأس عاصم لتشربَنَّ في قِحْفِهِ الخمر**»؛ فَمَنَعَتْهُ الدَّبْرُ[(١)] ؛ فقالت هُذَيل: «**إذا جاء الليل ذهب الدَّبْرُ**»؛ فأرسل اللَّه ـ تَعَالَى ـ سَيْلًا لم يُدْرَ سببه، فحمله قبل أن يقطعوا رأسه، فلم يَصِلُوا إليه، وكان قد نَذَرَ ألا يَمَسَّ مشركًا أبدًا، فَأَبَرَّ اللَّه ـ تَعَالَى ـ قَسَمَه بعد موته ـ رضوان اللَّه عليه.

وأما زيد بن الدثِنَّة، وخُبَيْب بن عَدِي، وعبداللَّه بن طارق، فَأَعْطَوْا بأيديهم[(٢)] ؛ فَأُسِروا، فخرجوا بهم إلى مكة، فلما صاروا بـ «**مَرِّ الظَّهْران**»[(٣)] ، انتزع عبداللَّه بن طارق يده من القِران، ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، ورموه بالحجارة، حتى مات ـ رضوان اللَّه عليه ـ، فقبره بـ«**مَرِّ الظَّهْران**».

وحملوا خَبيْب بن عَدِي وزيد بن الدثِنَّة؛ فباعوهما بمكة من قريش بأسيرين كانا بمكة؛ فابتاع خُبَيْبًا حُجَيْرُ بن أبي إهاب التميمي حليفُ نَوْفَل لعُتْبَةَ بن الحارث ابن عامِر بن نَوْفل ـ وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامِر لأمه ـ؛ ليقتله بأبيه.

وأما زيد بن الدثِنَّة فابتاعه صَفْوان بن أُمية؛ ليقتله بأبيه أُمية بن خلف، وبعث به صَفْوان بن أُمَية مع مولى له يقال له: «**نَسْطَاس**» إلى «**التنْعِيم**»[(٤)] ، وأخرجه من الحرم؛ ليقتله، واجتمع رهط من قريش منهم أبو سُفْيَان بن حَرْب، فقال أبو سفيان حين قُدِّمَ زيد ليُقْتَل: «**أَنْشُدُكَ اللَّه يا زيد، أَتُحِبُّ أن محمدًا عندنا الآن في مكان**

---

(١) الدبر: اسم لجماعة النحل.

(٢) أعطوا بأيديهم: انقادوا.

(٣) مَرّ الظهران: موضع على مرحلة من مكة للذاهب إلى المدينة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٢١/٨ ـ ٢٣).

(٤) التنعيم: موضع بين مكة وسرف على فرسخين من مكة، وقيل: على أربعة فراسخ.

نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟!»، فقال زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه، تُصِيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي!!»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا!!»، ثم قَتَلَهُ نَسْطَاس، فرحم الله زيدًا.

أما خُبَيْب بن عَدِي، فَحَدَّثَتْ ماوِية[1] مولاة حُجَيْر بن أبي إهاب: أنه قال لها حين حضره القتل: «ابعثي إلي بحديدة أتطهر بها للقتل، فأعطيتُ غلامًا من الحي الموسي، فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيت، فوالله ما هو إلا أن وَلَّى الغلام بها إليه، فقلت: ما صنعتُ؟ أصاب والله الرجل ثأره؛ يقتل هذا الغلام، فيكون رجلًا برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لَعَمرك ما خافت أُمُّك غَدْرِي حيث بعثتك بهذه الحديدة إلي!! ثم خَلَّى سبيله!!»، وكان الغلام ابنها.

ثم خرجوا بخُبَيْب، حتى إذا جاءوا إلى التنْعِيم ليصلبوه، قال لهم: «إن رأيتم أن تَدَعُوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا»، قالوا: دونك فارْكَعْ. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: «أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طَوَّلْتُ جَزَعًا من القتل، لاستكثرتُ من الصلاة»؛ فكان خُبَيْب بن عَدِي أول مَنْ سَنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

ورفعوا خُبَيْبًا على خشبة، فلما أوثقوه قال: «اللهم، إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فَبَلِّغْهُ الغداةَ ما يُصْنَع بنا!!»، ثم قال: «اللهم، أحْصِهِمْ عَدَدًا، واقْتُلْهُمْ بِدَدًا[2]، ولا تُغَادِرْ منهم أحدًا»، ثم قتلوه ـ رَحِمَهُ اللهُ[3].

---

(١) ماويَّة: بالواو والياء المشدَّدة، وفي بعض الروايات في غير سيرة ابن هشام (١٦٥/٣): مَارِيَة، براء مهملة وبعدها ياء مثناة مخففة.

(٢) بِدَدًا: بكسر الباء وفتح الدال، جمع بِدة، بكسر الباء؛ وهي: الفرقة، ويصحُّ أن يكون بفتح الباء مصدرًا؛ ومعناه: التبدُّد؛ أي: التفرُّق.

(٣) انظر: الخبر عن بعث الرَّجيع في «سيرة ابن هشام» (١٦٠/٣ ـ ١٨٣)، و«مغازي الواقدي» (٣٥٤/١ ـ ٣٦٣)، و«طبقات ابن سعد» (٥٥/٢، ٥٦)، و«البخاري» (٦٧/٤، ١٠٣/٥)، و«الطبري» (٢/

وهكذا صدق مَرْثد ما عاهد اللَّه عليه؛ فمضى شهيدًا في معركة غير متكافئة، تكاثر فيها عليه وعلى رجاله المشركون المتفوقون على أفراد سريته عَدَدًا وعُدَدًا؛ فقاتل حتى استُشهد مُقبلًا غير مُدبر؛ لأنه يدافع عن عقيدته، فلا يبالي أن يَقْتُل أو يُقْتَل، ولكن يبالي أن لا يلحق بعقيدته العار، فما قصر في إقدامه مدافعًا عن الإسلام والمسلمين؛ ففاز بالشهادة، وربحت تجارته.

استشهد مرثد في سرية الرجيع التي خرجت في شهر صفر سنة أربع الهجرية «**٦٢٥م**»، وكان ﵁ في ريعان الشباب، ولا نستطيع أن نتبين من سمات قيادته إلا أنه كان قائدًا من قادة العقيدة، داعيًا في قيادته، وقائدًا في دعوته، قوي البدن، يتحمل المشاق، ويصبر على المصاعب، يتحلى بالضبط المتين والطاعة المطلقة، شجاعًا مقدامًا، لا يخشى الموت وَيُقَدِّمُ حياته فداءً لعقيدته.

ولله در القائل:

صَلَّى الإله على الذين تتابعوا ... يوم الرجيع فأُكرموا وأُثيبوا
رأس السرية مرثد وأميرهم ... وابنُ البكير إمامُهَم وَخُبَيْبُ
وابنُ لطارق وابنُ دثنة منهم ... وافاه ثَمَّ حِمامُهُ المكتوبُ
والعاصمُ المقتولُ عند رجيعهم ... كَسَبَ المعالي إنه لكسوبُ
منع المقادة أن ينالوا ظهره ... حتى يُجالد إنه لنجيبُ[1]

* * *

٥٣٨ - ٥٤٢)، و«ابن الأثير» (١٦٧/٢، ١٦٨)، و«ابن كثير» (٦٢/٤ - ٦٩)، و«جوامع السيرة» (١٧٦ - ١٧٨)، و«سرح العيون» (٤٠/٢ - ٤٣)، و«الدرر» (١٦٨ - ١٧٣)، و«أنساب الأشراف» (٣٧٥، ٣٧٦).

(١) البداية والنهاية (٧١/٤).

٣٦

القائد الشهيد قائد سرية الرجيع

عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح

«حَمِيُّ الدَّبْرِ»

٣٦

القائد الشهيد قائد سرية الرجيع

عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح

«حَمِيُّ الدَّبْرِ»

عن أبي هريرة ﷺ قال: «بعث النبي ﷺ سريةً عينًا، وَأَمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت ـ وهو جَدُّ عاصم بن عمر بن الخطاب ـ؛ فانطلقوا حتى إذا كان بين عُسْفَانَ ومكة، ذُكِرُوا لحي من هُذيل يُقال لهم: «**بنو لِحْيان**»، فَتَبِعُوهُمْ بقريب من مئة رامٍ؛ فاقتصوا آثارهم، حتى أَتَوْا منزلًا نزلوه، فوجدوا فيه نَوَى تمر تزودوه من المدينة؛ فقالوا: «**هذا تمر يثرب**»، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدْفدٍ، وجاء القوم، فأحاطوا بهم فقالوا: «**لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا**»، فقال عاصم: «**أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبرْ عنا نبيك**»، فقاتلوهم حتى قَتَلُوا عاصمًا في سبعة نفر بالنَّبْل، وبقي خُبيب وزيد ورجل فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حَلُّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها؛ فقال الرجل الثالث معهما: «**هذا أول الغدر**»؛ فأبى أن يصحبهم؛ فَجَرَّرُوهُ وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل؛ فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قَتَلَ الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قَتْلَهُ استعار مُوسًى من بعض بنات الحارث؛ لِيَسْتَحِدَّ بها، فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبي لي، فَدَرَجَ إليه حتى أتاه، فوضعه على فخذه ـ فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني ـ وفي يده الموسى؛ فقال: أَتَخْشَيْنَ أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب؛ لقد رأيته

يأكل من قِطْفِ عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم؛ ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت. فكان أول من سَنَّ الركعتين عند القتل هو، ثم قال: «**اللهم أحصهم عددًا**»، ثم قال:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأْ ... يُبارك على أوصال شِلْوٍ ممزعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قَتَلَ عظيمًا من عظمائهم يوم بدر؛ فبعث اللَّه عليه مثل الظلة من الدَّبْرِ فحمته من رُسُلِهِمْ؛ فلم يقدروا منه على شيء»[١].

ذكر الواقدي أن سبب خروج بني لحيان عليهم قتل سفيان بن نبيح الهذلي على يد عبداللَّه بن أنيس، وقصته عند أبي داود بإسناد حَسَنٍ.

«**وأمر عليهم عاصم بن ثابت**» كذا في الصحيح، وفي السيرة أن الأمير عليهم كان مرثد بن أبي مرثد، وما في الصحيح أصح[٢].

«**ورجح السهيلي أن رواية البخاري أن عاصمًا كان أميرهم أرجح، وجمع غيره بأن أميرَ السرية مرثد، وأن أمير العشرة عاصم؛ بناء على التعدد**»[٣].

نأتي إلى بطلنا عاصم بن ثابت وقد قتَلَ عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر من النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر، وَقَتَلَ عاصم في يوم أحد مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري؛ فنذرت أمهما سلافة بنت سعد بن شهيد لتشربن الخمر في قحفة رأسه، قال أبو جعفر الطبري: وجعلت لمن جاء برأسه مئة ناقة، وشاع خبر نذرها في

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٠٨٦) باب غزوة الرجيع، وأخرجه أبو داود (٢٦٦٠، ٢٦٦١)، وعزاه المزي للنسائي، وأحمد (٢/٢٩٤، ٣١٠)، والطيالسي (٢٥٩٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١١٣).

(٢) فتح الباري (٧/٤٤٠).

(٣) فتح الباري (٧/٤٣٩).

قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة أن لو ظفر بعاصم بن ثابت، وَقَدَّمَ رأسه لسلافة.

ولذا أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد.

قال عاصم لما رأى غدر عضل والقارة «**هذيل**» على ماء الرجيع: «**أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك**»، وقال:

ما عِلتي وأنا جَلْدٌ نابلُ　　والقوس فيها وَتَرٌ عَنابِلُ
تَزَلُّ عن صفحتها المَعَابِلُ　　الموتُ حَقٌّ والحياةُ باطلُ
وكُلُّ ما حَمَّ الإلهُ نازلُ　　بالمرءِ والمرءُ إليه آئِلُ
إِنْ لم أُقاتِلْكُم فَأُمي هابِلُ

وقال عاصمٌ أيضًا:

أبو سُليمانَ وريشِ المقْعَدِ　　وَضَالةٌ مِثلُ الجحيم المُوقَدِ
إذا النواحي افْتَرَشَتْ لم أُرْعِدِ　　ومَجْنأٌ من جلد ثورٍ أَجْرَدِ
ومؤمنٌ بما على محمدِ

وقال أيضًا:

أبو سليمانَ ومثلي رَامَا　　وكان قومي مَعْشَرًا كراما[1]

تذكر عاصم نذر سلافة الذي نذرته، وجرد سيفه، وهو يقول: «**اللهم إني أحمي لدينك، وأدفع عنه، فَاحْمِ لحمي وعظمي، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله**[2]**، اللهم إني حميت دينك أول النهار، فَاحْمِ جسدي آخره**».

قال ابن إسحاق: فلما قُتِلَ عاصم، أرادت هذيل أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد؛ فمنعته الدَّبْرُ[3]، فلما حالت بينهم وبينه، قالوا: «**دعوه حتى يمسي**

(١) البداية والنهاية (٣/٦٤ ـ ٦٧).

(٢) صور من حياة الصحابة، لعبد الرحمن رأفت الباشا (٦/٢٩).

(٣) الدَّبْر: الزنابير، وقيل: ذكور النحل.

فيذهب عنه فنأخذه»؛ فبعث اللَّه سيلًا في الوادي، فاحتمل عاصمًا، فذهب به، وكان عاصم قد أعطى عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْرَ منعته: «**يحفظ اللَّه العبد المؤمن؛ كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته؛ فمنعه اللَّه بعد وفاته؛ كما امتنع في حياته**»[1].

قال عروة بن الزبير: «**فبعث اللَّه عليهم الدبر تطير في وجوههم وتلدغهم؛ فحالت بينهم وبين أن يقطعوا**».

عن قتادة قال: «**كان عاصم بن ثابت أعطى اللَّه عهدًا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا؛ فكان عمر يقول لما بلغه خبره: يحفظ اللَّه العبد المؤمن بعد وفاته؛ كما حفظه في حياته**»[2].

ويا لها من كرامة لذلكم الولي الكبير التقي حمي الدبر!!

ويا لكرامة عاصم حيًّا وميتًا!!

قال الحافظ ابن حجر: «**إنما استجاب اللَّه له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله؛ لِمَا أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه**»[3].

ويقول ابن سيد الناس في كتابه «**المقامات العلية في الكرامات الجلية**»: «**أعطى اللَّه عهدًا أن لا يمس مشركًا.**

وعناية الرحمن تعصم عاصمًا ... عَن أن يُنَالَ براحه أو أصْبَعِ
بالسيل بعد الدَّبْر من أعدائه ... في مصرعٍ أكرِمْ به من مَصْرَعِ»[4]

---

(١) البداية والنهاية (٣/٦٧).

(٢) فتح الباري (٧/٤٤٤).

(٣) فتح الباري (٧/٤٤٥).

(٤) المقامات العلية في الكرامات الجلية، لابن سيد الناس ص (٧٢).

قال حسان يهجو بني لحيان:

إن سرك الغَدْرُ صِرْفًا لا مِزَاجَ له ... فَأْتِ الرجيع فسل عن دارِ لِحْيانِ
قَوْمٌ تَوَاصَوْا بأكل الجار بينَهُمُ ... فالكلبُ والقِرْدُ والإنسانُ مثلانِ
لو ينطِقُ التَّيسُ يومًا قام يَخْطُبُهُم ... وكان ذا شرفٍ فيهم وذَا شانِ

وقال أيضًا:

لَعَمْري لقد شَانَتْ هُذَيْلَ بنَ مُدْرِكٍ ... أحاديثُ كانتْ في خُبيبٍ وعَاصِمِ
أحاديثُ لِحْيان صُلُوا بِقِبَاحِهَا ... ولِحيانُ جَرَّامُونَ شرَّ الجرائِمِ
أناسٌ هُمُ من قومهم في صميمهم ... بمنزلة الزَّمْعَانِ[1] دَبْرَ القوادِمِ
هُمُ غَادِرُوا يوم الرجيعِ وأسلمتْ ... أمَانَتُهُم ذا عِفَّةٍ ومكارِمِ
رسولَ رسولِ اللَّه غَدْرًا ولم تكنْ ... هُذَيْلٌ توقى مُنْكَرَاتِ المحارِمِ
فَسَوْفَ يَرَوْنَ النصر يومًا عَلَيْهِمُ ... بقتلِ الذي تحميه دُونَ الجرائِمِ
أبابيلُ دَبْرٍ شُمَّسٌ دون لحمه ... حَمَتْ لحمَ شَهَّادٍ عظيمِ الملاحمِ
لعلَّ هُذَيْلًا أن يَرَوْا بمُصابِهِ ... مصارِعَ قتلى أو مَقامًا لمأتمِ
ونُوقِعُ فيها وقعة ذات صولةٍ ... يُوَافِي بها الركبانُ أهلَ المواسِمِ[2]
بأمرِ رسولِ اللَّه إن رسولَهُ ... رَأَى رأي ذي حزمٍ للحيان عالمِ
قُبَيِّلَة ليس الوفاء يهمهم ... وإنْ ظُلِمُوا لم يدفعوا كفَّ ظالمِ
إذا الناس حَلُّوا بالفضاء رأيتهم ... بمجرى مسيل الماء بين المخارِمِ
محلهم دارُ البوار ورأيهم ... إذا نَابَهُم أمرٌ كرأي البهائم[3]

ويذكر حسان جرائم هذيل، ومخازيها، وخيانتها، وغدرها، ويتمنى لقاءها وحربها، ثم يقول: إن دم هذه القبيلة لا يوفي بدم أصحاب محمد ﷺ، ثم ينشد حسان من جديد ويقول: إن قتل هؤلاء القَتَلَةِ هو شفائي مما أُعَاني من الألم

---

(١) الزمعان: الرعاع أو سفلة القوم.
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٧٠).
(٣) شاعر الإسلام حسان بن ثابت، لوليد الأعظمي ص (٢٢٣)، مكتبة المنار ـ الكويت.

والأسى، ولكن الأمرَ أمرُ رسولِ اللّهﷺ ؛ يقول:

لَحَا اللّه لحيانًا فليستْ دماؤهم ... لنا من قتيلي غدرة بوفاءِ[١]

هُمُ قَتَلُوا يوم الرجيع ابنَ حُرَّةٍ ... أخا ثقة في وُدِّه ووفاءِ

فلو قُتِلُوا يوم الرجيع بأسْرهم ... بذي الدَّبْر ما كانوا له بكفاءِ

قتيلٌ حمته الدَّبْر بين بيوتهم ... لدى أهل كفر ظاهر وجفاءِ

فقدْ قتلت لحيان أكرَمَ منهمُ ... وباعوا خبيبًا ويلهم بلفاءِ

فأف للحيانِ على كل حالةٍ ... على ذكرهم في الذكر كل عفاءِ

قُبَيِّلةٌ باللؤم والغدر تعتزي ... فلم تُمْسِ يخفى لؤمها بخفاءِ

فلو قُتِلُوا لم تُوَفَّ منه دماؤهم ... بلى إن قتلى القاتلية شفائي

فإلّا أمتْ أذعر هذيلًا بغارةٍ ... كغادي الجهام المغتدي بإفاءِ

بأمرِ رسول اللّه والأمرُ أمرُهُ ... يبيت للحيان الخنا بفناءِ

يُصَبِّحُ قومًا بالرجيع كأنهم ... جداء شتاءٍ بِتْنَ غير دفاءِ[٢]

ولله در أحمد محرم وهو يتكلم عن عاصم بن ثابت فيقول:

قتلتمْ عاصمًا بطلًا مجيدًا ... مَخُوفَ الكَر مرهوبَ النزالِ[٣]

فنونُ الحرب تعرفُهُ عليمًا ... بأسرار الأسنة والنصالِ

وتشهدُ أنه البطلُ المُرجى ... إذا فزع الرماةُ إلى النبالِ

رماكُم ثم جالدكُم فأدى ... أمانَتَهُ وَأَوْدَى غيرَ آلِ[٤]

وَقَاتِلُ عقبةٍ في يوم بدرٍ ... أَيَحْفِلُ حين يُقتَلُ أو يبالي

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/١٨٠).

(٢) شاعر الإسلام حسان بن ثابت ص (٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) لما كانت ليلة العقبة أو ليلة بدر، قال النبي ﷺ لمن عنده: «كيف تقاتلون؟» فقام عاصم بن ثابت، فأخذ القوس والنبل، وقال: إذا كان القوم قريبًا من مئتي ذراع كان الرمي، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعبة بالرماح حتى تنقصف، فإذا انقصفت وضعناها وأخذنا السيوف وكانت المجالدة...» لله درك.. هكذا أنزلت الحرب، ومن أراد أن يقاتل فليقاتل؛ كما يقاتل عاصم!!.

(٤) الآلي: المُقَصِّر.

أردتم بيعَهُ ليُنَالَ وِتْرٌ[1] لِهَامةِ ماجدٍ سَمْحِ الخِلَالِ

حماهُ اللَّه من دَنَسٍ ورجْسٍ وسوءِ المنكراتِ من الفعالِ

شهيدُ الحقِ تحرسُهُ جنودٌ من الدَّبْر المسلحِ للنضالِ

وعبد الله[2] فيم قتلتموه وَسُقْتُم صاحِبَيْهِ[3] بشَرِّ حالِ

رضِيتم بيعَ أنَفسِكم ببخسٍ قليلِ النفع من إبلٍ ومالِ

❊ ❊ ❊

---

(١) الْوِتْر: الثأر.

(٢) عبدالله: هو عبدالله بن طارق رضي الله عنه.

(٣) هما: زيد بن الدثنة، وخبيب.

٣٧

إلى أصحاب العقيدة في كل أمة وبلد..

إلى عشاق السموِّ في كل عصر وَأَمَد..

الصحابي الصقر

خُبَيْبُ بنُ عَدِيِّ بنِ مالكٍ الأوسيُّ الأنصاريُّ ..

ودرس الفداء الذي ليس له نظير

٣٧

إلى أصحاب العقيدة في كل أمة وبلد..

إلى عشاق السموّ في كل عصر وَأَمَد..

الصحابي الصقر

خُبَيْبُ بنُ عَدِيٍّ بنِ مالكٍ الأوسيُّ الأنصاريُّ..

ودرس الفداء الذي ليس له نظير

«والآن.. أفسحوا الطريق لهذا البطل يا رجال.. وتعالوا من كل صوب ومن كل مكان.. تعالوا خفافًا وثقالًا.. تعالوا مسرعين وخاشعين.. وأقبلوا لِتُلَقِّنُوا درس الفداء الذي ليس له نظير..!!

تقولون: أَوَ كل هذا الذي قصصت علينا من قبل لم تكن دروسًا في الفداء ليس لها نظير..؟!

أجلْ، كانت دروسًا.. وكانت في روعتها تجل عن المثيل وعن النظير.. ولكنكم الآن أمام أستاذ جديد في فن التضحية.. أستاذ لوْ فَاتَكُم مشهدُهُ، فقدْ فاتكم خيرٌ كثيرٌ، جِدُّ كثير!!.

إلينا يا أصحاب العقيدة في كل أمة وبلد..

إلينا يا عُشاق السُمُوِّ من كل عصرٍ وَأَمَد..

وأنتم أيضًا يا مَن أَثْقَلَكُمُ الغرورُ، وظننتم بالدين والإيمان ظن السَّوْءِ .. تعالوا بغروركم..!!

تعالوا وانظروا أية عِزة .. وأية مَنَعَةَ .. وأي ثباتٍ .. وأي مضاء .. وأي فداء .. وأي ولاء!!

وبكَلمة واحدة: أية عظمة خارقة وباهرة يُفيئها الإيمان بالحق على ذَويه المخلصين..!!

أترون هذا الجثمان المصلوب..؟!

إنه موضوع درسنا اليوم.. يا كل بني الإنسان..!!

هذا الجثمان المصلوب أمامكم .. هو الموضوع.. وهو الدرس.. وهو الأستاذُ.. اسمه «**خُبيب بن عَدِي**».. احفظوا جيدًا هذا الاسم الجليل.. احفظوه وانشدوه.. فإنه شرف لكل إنسان.. من كل مذهب.. من كل جنس.. وفي كل مكان.

إنه من أوْس المدينة وأنصارها.

كان عذْبَ الروح، شفافَ النفس، وثيقَ الإيمان، ريانَ الضمير، كان كما وصفه حسان بن ثابت شاعرُ الإسلامِ:

صقرًا توسط في **الأنصار** منصبُهُ سَمْح السجية مَحْضًا غير مُؤْتَشَبِ

لما رفعت غزوة بدر أعلامها، كان هناك جنديًا باسلًا، ومقاتلًا مقدامًا، وكان من بين المشركين الذين وقعوا في طريقه إبان المعركة فصرعهم بسيفه «**الحارث بن عامر بن نوفل**»، وعرف بنو الحارث مصرعَ أبيهم، وحفظوا جيدًا اسمَ المسلمِ الذي صرعه في المعركة وهو خبيب بن عدي» [١].

لما بقي خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبداللَّه بن طارق أعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حَلَّ الهذيليون أوتار قسيهم فربطوهم بها؛ فقال عبداللَّه بن طارق: «**هذا أول الغدر**»؛ فأبى أن يصحبهم؛ فَجَرّوهُ وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل؛ فقتلوه، واستشهد رضي الله عنه حيث أراد.

وهكذا قضى ثمانية من أعظم المؤمنين إيمانًا، وأبرهم عهدًا، وأوفاهم لله

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٩٢، ٣٩٣).

وللرسول ذمة..!!

وبقي خبيب وزيد بن الدثنة فَقَادَهُمَا الرماةُ البغاةُ إلى مكة حيث باعوهما لمشركيها.

فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وَبَيَّنَ ابن إسحاق أن الذي تولى شراءَهُ هو حجين بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل، وكان أخا الحارث بن عامر لأمه.

وفي رواية بريدة بن سفيان: أنهم اشتروا خبيبًا بأمَةٍ سوداء.

وقال ابن هشام: باعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة، ويمكن الجمع.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية؛ فقتله بأبيه.

وعند ابن سعد: أن الذي تولى قتله نسطاس مولى صفوان.

وعند ابن سعد: أن المشركين حبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، وأساءوا إلى خبيب في أُسَارِهِ؛ فقال لهم: ما تصنع القوم الكرام هذا بأسيرهم!! فأحسنوا إليه بعد ذلك، وجعلوه عند زينب بنت الحارث، وهي أخت عقبة بن الحارث الذي قَتَلَ خبيبًا.

وعند ابن إسحاق: أن خبيب بن عدي حُبِسَ عند مَارِيَّةَ مولاة حجين بن أبي إهاب.

ويمكن الجمع: بأن التي حُبِسَ في بيتها مَارِيَّةُ، والتي كانت تحرسه هي زينب بنت الحارث.

قال خبيب لموهب مولى آل نوفل: يا موهب أطلبُ إليك ثلاثًا؛ أن تسقيني العذب، وأن تجنبني ما ذُبِحَ على النُّصُبِ، وأن تُعْلِمَني إذا أرادوا قتلي.

فلما أجمعوا على قَتْلِهِ، استعار موسًى من كلا المرأتين، وكان الذي أوصله إليه ابن إحداهما.

ذكر الزبير بن بكار: أن هذا الصبي هو أبو حسين بن الحارث بن عدي بن نوفل ابن عبد مناف.

وقال ابن هشام: يُقَالُ: إن الغلام ابن مَارِيَّةَ.

وأقبل الصبي فأخذه خبيب فأجلسه عنده، فخشيت المرأة أن يقتله، فناشدته، فقال: ما كنتُ لأغدر.

وعند عروة: «**فأخذ خبيب بيد الغلام فقال: هل أمكن اللَّه منكم؟ فقالت: ما كان هذا ظني بك. فرمى لها الموسى وقال: إنما كنت مازحًا**».

أسلم خبيبٌ قلبَهُ وأمرَهُ لله رب العالمين...

معه من سكينة اللَّه التي أَفَاءَهَا عليه ما يذيب الصخر ويلاشي الهول...

كان اللَّه معه...

وكان هو مع الله...

وَرَزَقَهُ اللَّه زرقًا حسنًا آتاه اللهُ عبدَهُ الصالح كرامة له...

تقول مارية مولاة حجين بن أبي إهاب: «**حُبِسَ خبيب في بيتي، ولقد اطلعت عليه وإن في يده لقطفًا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه**».

ويحتمل أن يكون كل من مارية وزينب قد رأت القطف في يده يأكله وما بمكة يومئذ ثمرة من العنب، رزق من اللَّهِ رزقه خبيبًا!!

فلما خرجوا به من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه، جعلوا يساومونه على إيمانه..

لكنهم كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمية نَبْل..!!

أجل، كان إيمان خبيب؛ كالشمس قوةً وبُعدًا ونارًا ونورًا..

كان يضيء كل من التمس منه الضوء، ويُدفئ كل من التمس منه الدفء..!!

أما الذي يقترب منه ويتحداه فإنه يحرقه ويسحقه..!!

لما خرجوا به إلى التنعيم فقال: «**دعوني أصلي ركعتين**»، فصلاهما في خشوع،

وسلام، وإخبات، وتدفقت في روحه حلاوة الإيمان، ثم انصرف إليهم فقال: «**لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت سجدتين أخريين**».

وممن حضر ذلك الموقفَ أبو إهاب بن عزيز، والأخنس بن شريق، وعبيدة بن حكيم السلمي، وأميه بن عتبة بن همام، وأبو سفيان بن حرب، قال خبيب: «**اللهم، إني لا أجد من يبلغ رسولك مني السلام فبلغه**»؛ فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فأخبره.

ودعا خبيب فقال: «**اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا**»[1].

فَلَبَّدَ رجل من المشركين بالأرض؛ خوفًا من دعائه، فلم يَحُلِ الحولُ ومنهم أحد حيٌّ غير ذلك الرجل الذي لَبَّدَ بالأرض.

وحكى ابن إسحاق عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: «**كنتُ مع أبي فجعل يلقيني إلى الأرض حين سمع دعوة خبيب.. وهنا راح خبيب ينشد:**

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا ... قبائِلَهم واستجمعوا كل مجمعِ[2]

وكلهم مبدي العداوة جاهدٌ ... علي لأني في وثاق مضيعِ

وقد جمعوا أبناءَهم ونساءَهم ... وقُرِّبْتُ من جذع طويل ممنعِ

إلى اللَّه أشكو غربتي ثم كُربتي ... وما أرصد الأحزابُ لي عند مصرعي

فذا العرش صَبَّرَنِي على ما يراد بي ... فقد بضعوا لحمى وقد ياس مطمعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأْ ... يبارك على أوصالِ شلوٍ ممزعِ[3]

وقد خيروني الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناي من غير مجزعِ

وما بي حذار الموت إني لميتٌ ... ولكن حذاري جحم نار ملفعِ

فواللَّه ما أرجو إذا مت مسلمًا ... على أي جنب كان في اللَّه مصرعي

---

(١) بددًا؛ أي: متفرقين.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص (٢٩٠)، وانظرها: عند ابن إسحاق.

(٣) أوصال: جمع وصل؛ وهو: العضو. والشِّلو ـ بكسر المعجمة ـ: الجسد، وقد يُطلق على العضو، ولكن المراد به هنا الجسد. والممزع: المقَطَّع.

فلستُ بمُبدٍ للعدو تخشعًا ... ولا جزعًا إني إلى الله مصرعي

لعله لأول مرة في تاريخ العرب يصلبون رجلًا ثم يقتلونه فوق الصليب؛ لقد أعدوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خبيبًا.. وشدوا في أطرافه وثاقه.. واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة.. ووقف الرماة يشحذون رماحهم.

جرت هذه كلها في بطء مقصود أمام البطل المصلوب..!!

لم يُغمض عينيه، ولم تزايل السكينة العجيبة المضيئة وجهه..!!

قال عروة: «**فلما وضعوا السلاح وهو مصلوب، نادوه وناشدوه: أتحب أن محمدًا مكانك؟ قال: لا، والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه**»[(١)].

«**والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله ﷺ بشوكة**».

نفس الكلمات العظيمة الشاهقة التي قالها صاحبه «**زيد بن الدثنة**» رضي الله عنه وهم يهمون بقتله..!!

نفس الكلمات الباهرة الرائعة الصادقة التي قالها «**زيد**» بالأمس.. ويقولها خبيب اليوم..!!

وكانت هذه الكلمات إيذانًا بقتله؛ فقام إليه عتبة بن الحارث فَقَتَلَهُ.

وعند البخاري أيضًا عن جابر قال: «**الذي قتل خبيبًا هو أبو سِرْوَعة**»[(٢)]. وأبو سِرْوَعَة هو أخو عقبة بن الحارث.

وذكر ابن إسحاق بسند صحيح عن عقبة بن الحارث قال: «**ما أنا قتلت خبيبًا؛ لأني كنتُ أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة العبدري أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طَعَنَهُ بها حتى قَتَلَهُ**»[(٣)].

---

(١) فتح الباري (٧/٤٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٨٧).

(٣) فتح الباري (٧/٤٤٥).

ودعا النبي على الظَّلَمَةِ من بني لحيان.

«وفي حديث أنس تشريكُ النبيِّ ﷺ بين بني لحيان وبني عصية وغيرهم في الدعاء عليهم.

وبقي الجثمان الشهيد تحرسه فرقة من القرشيين حملة الرماح والسيوف أربعين يومًا، ومن فوره دَعَا النبي ﷺ الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، فركبا فرسيهما، ومضيا يقطعان الأرض وَثْبًا، وجمعهما اللَّه بالمكان المنشود، وَأَنْزَلَا صاحبهما «خبيبًا» حيث كانت بقعة ظاهرة من الأرض في انتظاره لتضمه تحت ثراها الرطيب، ولا يعرف أحد حتى اليوم.. أين قبر خبيب؟!.

ولعل ذلك أحرى به وأجدر؛ حتى يظل مكانه في ذاكرة التاريخ وفي ضمير الحياة: بَطَلًا.. فَوْقَ الصَّلِيبِ»[١].

ولله دَرُّ حسان بن ثابت وهو يقول:

ما بال عينيك لا ترقا مدامعها ... سحًا على الصدر مثل اللؤلؤ القَلِقِ
على خبيب فتى الفتيان قد علموا ... لا فشل حين تلقاه ولا نزقِ
فاذهب خبيب جزاك اللَّه طيبةً ... وجنة الخلد عند الحور في الرفقِ
ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... حين الملائكة الأبرار في الأفقِ
فيم قتلتم شهيد اللَّه في رجل ... صاغ قد أوعث[٢] في البلدان والطرقِ

❑ ما أطيب الشعر في موقف خُبيب

لله دَرُّ شاعر الإسلام أحمد محرم حين يقول:

خُبَيْبٌ في يَدَيْ جافٍ شديدٍ ... يُعَذَّبُ في أداهمِهِ الثقالِ[٣]
وَزَيْدٌ عِنْدَ جَبَّارٍ عنيدٍ ... يَصُبُّ عليه مُختلفَ النكالِ

---

(١) رجال حول الرسول ص (٣٩٩).

(٢) أوعث: ساء سلوكه وتعثر.

(٣) الأداهم: القيود.

كِلاَ أَبَوَيْهِمَا قُتِلَا بِبَدرٍ ... فَتِلكَ حفائظُ الرمَمِ البَوالي[١]
يَزِيدُهما البلاءُ هُدًى وَعِلمًا ... بأَن الحادثاتِ إلى زَوالِ
وَأَن لِكُلِ نَفْسٍ مُنْتَهاها ... وإنْ طَمِعَ المضلِلُ في المُحالِ
لِكُلٍّ مَشهدٌ عَجَبٌ عليه ... جَلالُ الحق بُورِكَ مِن جَلالِ
يَروحُ الموتُ حولهما وَيَغْدُو ... يُكَشِّرُ عن نَواجِذِهِ الطوالِ[٢]
وَذِكْرُ اللهِ مُتصِلٌ يُوالِي ... مِنَ العَبَقِ المُقدسِ ما يُوالي[٣]
هُوَ الإيمانُ مَن يشدُدْ قواهُ ... يُزَلْزِلْ في الخطوبِ قُوى الجِبالِ

❊ ❊ ❊

هنيئًا يا خُبَيْبُ بلغتَ شَأْوًا ... رَفِيعَ الشأنِ مُمتنعَ المَنَالِ[٤]
مَلأتَ يَدَيْكَ مِن رِزقٍ كَرِيمٍ ... أتاكَ بِغَيرِ كَدٍّ أو سُؤَالِ
تَنَزَّلَ مِن لَدُنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ... عَمِيمِ الجودِ فَياضِ النوالِ
كُلِ العِنَبَ الجَنِيَّ وَزِدْهُ حَمدًا ... على حَمْدٍ يَدومُ مَدى الليالي
تَقولُ الحَارِثِيَّةُ مَا لِعَيْنِي ... أَفي سِحرٍ تَقَلَّبُ أم خَيالِ
أرى عِنَبًا وما مِن ذَاكَ شَيْءٌ ... بِمَكةَ يا لها عِظَةً وَيالي
ويا لَكَ مِن أسيرٍ ما عَلِمنا ... لَه بينَ الأسارَى مِن مِثالِ

❊ ❊ ❊

أتى الأجلُ الذي انتظروا وَهذِي ... سُيوفُ القومِ مُحَدَثَةُ الصقَالِ[٥]
فماذا في يَمِينكَ يا خُبَيْبُ ... وما بالُ الصغيرِ من العِيالِ[٦]

---

(١) حفائظ: جمع حفيظة؛ وهي: الحميَّة في الشيء الذي ينبغي أن يُحْفَظَ. والعبق: رائحة الطيب.

(٢) النواجذ: الأضراس.

(٣) كان خبيب رضي الله عنه يتهجد بالقرآن، فإذا سمعه النساء بكين ورققن عليه.

(٤) قالت زينب بنت الحارث: والله، ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب؛ لقد وجدته يأكل قطفًا من عنب؛ مثل رأس الرجل، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة عنب وما كان إلا رزقًا رزقه الله.

(٥) كان شراؤهما في ذي القعدة، فحبسوهما حتى تنتهي الأشهر الحرم.

(٦) لما أجمعوا على قتلهما، استعار خبيب من زينب بنت الحارث موسى؛ ليستحد به، فغفلت عن ابن لها صغير، أقبل حتى جلس على فخذه والموسى في يده؛ فخشيت أن يقتله وفزعت لذلك؛ فقال لها:

كـأن بـأُمـهِ حَـذَرًا عـلـيـهِ ... نَـوازِعَ مـن جـنـونٍ أو خَـبـالِ
تَرَى الموسَى بِكَفكَ وَهْوَ رَهْنٌ ... بِـذَبـحٍ فـوقَ فـخـذك واغـتـيـالِ
ولـكـنْ لـلـكـريمِ الـسـمْـحِ نَـاهٍ ... مِـنَ الـشِّـيَـمِ الـسَّـنِـيَّـةِ والخِـصَـالِ
ومـاذا كـنـتَ تحذرُ مـن عـقـابٍ ... وَوِرْدُ الموتِ مُحتضَرِ السجالِ[١]
وَسِـعْـتَ عَـدوكَ الموتـورَ حِـلْـمًـا ... ومـكـرمـةً عـلـى ضِـيـقِ المجالِ
فـأيـكـمـا الـذي رَمَـتِ الـسـجـايـا ... مُـرُوءَتَـهُ بِـأَسـرِ واعْـتِـقَـالِ
وَأَيـكـمـا الـقـتـيـلُ وَمَـنْ سـيـبـقـى ... حـيـاةً لـلأواخِـرِ والأوالـي

* * *

ألا إن الـصـلاةَ لَخَـيـرُ زادٍ ... وإن الـركـبَ آذنَ بـارتحـالِ[٢]
تـزودْ يـا خُـبَـيـبُ وَثِـقْ بِـرَبٍّ ... لِمثـلِـكَ عِـنـدَهُ حُـسْـنُ المآلِ
فَـسِـرْ فِي نـورِهِ الـوضـاحِ وَأَلْـبِسْ ... جَـمـالَ الخُلْـدِ فِي وَطـنِ الجمالِ
هُـنـالِـكَ مَـعْـرِضٌ لـلـهِ فـخـمٌ ... بَـدِيْـعُ الـصـنـعِ لم يَـخْـطُـرْ بِـبالِ
أَتَـرْضَـى أن تَـرى خَـيْـرَ الـبـرايـا ... مَـكـانَـكَ سَـاءَ ذَلِـكَ من مَـقـالِ[٣]
صَـدَقْـتَ خُـبَـيْـبُ إنـكَ لِلعوادي ... إذا هِـيَ أخـطـأَتْـهُ لَـذُو احـتِـمـالِ
تَـبِـيـعُ بِـشَـوكـةٍ تُـؤذيـهِ نَـفْـسًـا ... تَـشُـكُّ صَـمِـيـمَـها صُـم العوالي[٤]
كـذلِـكَ قـالَ زَيْـدُ الخيـرِ لما ... تَـردى في الـسـفـاهةِ كل قالِ[٥]

أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله!!.

(١) جمع سجل؛ وهو: الدلو المملوء.

(٢) لما خرجوا بخبيب؛ ليقتلوه قال: اتركوني أصلي. فتركوه فصلى ركعتين ثم انصرف إليهم وقال: لولا أن تقولوا: جزع من الموت لزدت. ثم قال: اللهم، أحصهم عددًا، ولا تبق منهم أحدًا، واقتلهم بددًا. وأنشد أبياتًا منها:

ولـسـت أبـالـي حين أُقْـتَـلُ مـسـلـمًـا ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلـك في ذات الإلـه وإن يـشـأ ... يـبـارك عـلـى أوصـال شـلـو ممزع

(٣) لما أرادوا قتله شدوه إلى خشبة طويلة، وأعملوا فيه الرماح والحراب، ثم قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك؟ قال: لا، والله ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه!!.

(٤) الرماح الصلبة المتينة.

(٥) كذلك قالوا لزيد بن الدثنة وقال لهم. والقالي: المُبْغِض.

هُمُو قتلوكَ مَصلوبًا وأَغْرَوْا ... بِهِ وَبِكَ الضعافَ مِنَ الموالي
رَفِيقُكَ في التجلُّدِ والتأسي ... وَخِدْنُكَ في التقدمِ والصِّيالِ[1]
أتعتزلانِ دِينَ اللهِ خَوْفًا ... فَمَنْ أولَى بخوفٍ وَابْتِهَالِ[2]
معاذَ اللهِ إن اللهَ حق ... وإن المجرمينَ لَفِي وَبَالِ[3]
لَدِينُ الشركِ أجدرُ باجْتنابٍ ... وَأَخْلَقُ باطِّرَاحٍ واعْتزالِ
هُوَ الداءُ العُضالُ لِمُبتغيهِ ... وكل الشر في الداءِ العُضالِ
كَمالُ النفسِ إيمانٌ وَتقْوَى ... وماذا بعدَ مرتبةِ الكمالِ

* * *

حَبِيسَ الأربعينَ ألا انطلاقٌ ... كَفَاكَ ألم تَزَلْ مُلْقَى الرحالِ[4]
أَسَرك أن تَظَل مَدَى الليالي ... جَميعَ الشملِ مَوصولَ الحِبالِ
عَلَى خَرْقَاءَ يَكْرَهُ مَن يراها ... طِلابَ الوُدِّ مِنها والوِصالِ[5]
عَلِقْتَ بها فما أحدثْتَ هَجرًا ... ولا حدثْتَ نَفْسَكَ بالزيالِ[6]
يَمل المرءُ صاحِبَهُ فَيشقَى ... بِصُحْبَتِهِ وما بِكَ مِن مَلالِ
وَيَسْلُو كل ذِي شَجَنٍ وَوَجْدٍ ... وأنتَ على مُصَابِكَ غيرَ سالِ
بُلِيتَ بِكلِ ذِي قَلْبٍ غَبِي ... غُدافِيٍّ مِنَ الإيمانِ خالِ[7]
لأنتَ الحجةُ الكُبرى عليهم ... فما نَفْعُ المِراءِ أوِ الجدالِ[8]

(١) التجلد والتأسِّي: الصلابة والصبر.
(٢) قالوا لخبيب: ارجع عن الإسلام أو لنقتلنك. قال: إن قتلي في سبيل الله لقليل. وهكذا قالوا لصاحبه فأجاب بمثل هذا.
(٣) الوبال: الشدَّة وسوء العاقبة.
(٤) هو: خبيب؛ تركوه مصلوبًا على خشبته بعد قتله أربعين يومًا، وحوله الحراس؛ ليراه الناس.
(٥) المراد بها الخشبة.
(٦) الزيال: الفراق.
(٧) الغداف: الغراب. والغدافي: ما أشبه لونه.
(٨) المراء: الجدال والنزاع واللجاجة.

تَأهبْ يا خُبَيْبُ أتاكَ غَوْثٌ ... يَؤُمكَ في رَكائبهِ العِجالِ(١)
مَضَى بِكَ يَتبعُ الغُرَماءُ مِنه ... بَعِيدَ مَدَى التَّعَلُّلِ والْمِطالِ(٢)
تَقَاضَوْهُ فما ظَفِرَ التقاضي ... بِغَيْرِ عُلالَةِ النقْعِ الْمُذالِ(٣)
قَطيعٌ من طَغَامِ القومِ يَعْدُو ... على آثارهِ عَدْوَ الرِّئَالِ(٤)
فلما أوشكوا أن يُدْرِكُوه ... أهَابَ عليكَ يا رب اتكَالي
وألقَى بالشهيد فَغيبتْهُ ... طِبَاقُ الأرضِ كَنزًا من لآلِ
يَزِينُ المسلمينَ إذا تداعَتْ ... شعوبُ الأرضِ من عَطِلٍ وَحَالِ(٥)
طَوَتْ جَسَدًا من الريحانِ رَطبًا ... عليهِ جَلالَةُ الشيخِ البِجالِ(٦)
قَضَى وَكَأنَهُ حَيٌّ يُرَجَّى ... لِحُسنِ الصُّنْعِ من صحبٍ وآلِ
يُدِيرُ القومُ أعيُنَهم حَيارى ... كأن اللهَ ليس بِذِي مِحَالِ(٧)
ويَأْسَفُ مَعشرٌ باتوا سُهَارَى ... تَفيضُ جِراحُهم بعدَ انْدِمالِ
أجابَ اللهُ دَعْوَتَهُ فبادوا ... وعادوا مِثلَ مُحْتَرَقِ الذبالِ(٨)

❊ ❊ ❊

بَني لِحْيَانَ ما صَنَعَ ابنُ عمرٍو ... وماذا بالأسُودِ من النمالِ(٩)

---

(١) بعث النبي ﷺ الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو لإنزال خبيب عن خشبته، فوجدا عنده أربعين رجلًا يحرسونه، ولكنهم سكارى نيام، فحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء، وشعر بهما المشركون فانطلقوا وراءهما، فلما لحقوا بهما بعد جهد قذفه الزبير؛ فابتلعته الأرض.

(٢) الغرماء: جمع الغريم.

(٣) المذال: المسبل. وتقاضوه: طلبوه. والعلالة: البقيّة. والنقع: الغبار.

(٤) الرئال: أفراخ النعام، واحدها رأل.

(٥) الحالي: المزين بالحلي. والعطل: الخالي منه.

(٦) البجال: السيد العظيم المبجل من الناس.

(٧) المحال: القوة.

(٨) الذبال: جمع ذبالة؛ وهي: الفتيلة للسراج.

(٩) هو: المنذر بن عمرو ﷺ بعثه ﷺ هو وأصحابه القراء مع أبي عامر بن مالك «ملاعب الأسنة» لما قدم عليه فقال: إني أرى أمرك هذا أمرًا حسنًا شريفًا، فلو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. قال له: «إني أخشى أهل نجد عليهم»؛ فقال أبو عامر:

قَتلتم صحبَهُ وصرعتموه ... فيا لِلُّؤمِ والخُلُقِ الرذالِ(١)
ولولا الغَدْرُ لم يخشَوا أذاكم ... وهل تخشى القُرومُ أذى الأفالِ(٢)
أأصحابُ اليمينِ بكم أُصيبوا ... لأنتم شَرُّ أصحابِ الشمالِ

* * *

بَني لِحْيانَ وَاعَجبي لِبأْسٍ ... خَبَتْ جمَراتُه بعدَ اشْتِعالِ
فررتم تَتقون الموتَ زَحفًا ... على القِمَمِ الشَّواهِقِ والقِلالِ(٣)
هو المَسخُ المُبِينُ فمن أسودٍ ... تَصِيدُ القانِصينَ إلى وِعالِ(٤)
دَعْوا الشركَ المُذِل إلى حياةٍ ... مِنَ الإسلامِ وارفةِ الظلالِ
هو الدين الذي يُحيي البرايا ... ويُصلِحُ أمرَهم بعدَ اخْتِلالِ
يَظل النورُ في الآفاقِ يَسْرِي ... وَيَسطعُ ما تَلَا القرآنَ تالِ

* * *

أرى أُمَمًا على الغَبراءِ مَرْضَى ... تَبطَّنَ جوفَها داءُ السلالِ
تُخالُ أشَد خَلْقِ اللهِ بأسًا ... على الضعفِ المُبرحِ والهُزالِ
إذا مَلأَتْ جَوانِبَها دَوِيًّا ... فلا تَغْرُرْكَ جَلْجَلَةُ السعالِ
مُخضبةَ البَنانِ لكل صَيْدٍ ... يَعِن وتلك أنيابُ السعالي(٥)
حَيَارَى لا تُريدُ الحق نَهْجًا ... ولا تَدَعُ الحرامَ إلى الحلالِ
ألا هادٍ يُقَوِّمُ من خُطَاهَا ... وَيَحْسِمُ دَاءَها بعد اعْتِلالِ

هم في جواري وعهدي. فساروا بكتاب من النبي إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر، فلما انتهوا إلى بئر معونة ذهب أحدهم بهذا الكتاب إلى عامر فلم ينظر إليه وقتله، ثم صاح بقوم من بني لحيان ورعل وذكوان فقتلوا القراء وبقي بكعب بن زيد رمق؛ فَحُمِلَ من المعركة، وعاش بعد ذلك، واستشهد في غزوة الخندق، ونجى الله منهم عمرو بن أمية الضمري ورجلًا آخر.

(١) القبيح.

(٢) الأفال: جمع أفيل؛ وهو: الفصيل. والقروم: جمع قرم؛ وهو: الفحل.

(٣) رءوس الجبال.

(٤) جمع وعلة؛ وهي: أنثى الوعل.

(٥) السعالي: الأغوال، جمع سعلاة.

٣٨

كُرْز بن جابر القُرَشِيُّ الفِهْرِيُّ

القائد الشَّهيد

٣٨

كُرْز بن جابر القُرَشِيُّ الفِهْرِيُّ

القائد الشَّهيد

هو كُرْز بن جابِر بن حِسْل[١] بن الأحبّ[٢] بن حَبِيْب بن عمرو بن شَيْبَان مُحَارِب بن فِهْر[٣] بن مالِك، القُرَشِيُّ، الفِهْرِيُّ[٤].

وكان من رؤساء قريش قبل أن يُسْلِم، وأغار على سرح المدينة[٥] في شهر جمادى الآخرة من السَّنة الثانية الهجرية[٦]، فخرج رسول اللَّه ﷺ في طلبه، واستعمل على المدينة المنوَّرة زيد بن حارثة، حتى بلغ واديًا يقال له «**سَفْوان**»[٧] من ناحية بَدْرٍ، وفاته كرز، فلم يدركه، وهي غزوة بدر الأولى[٨]، فعاد المسلمون إلى المدينة[٩].

أسلم بعد الهجرة[١٠]، وحسن إسلامه[١١]، فولَّاه النبيُّ ﷺ قيادة سرية من

---

(١) في أُسْد الغابة (٢٣٧/٤): حسيل. ويقال: حسل. وكذلك في الاستيعاب (١٣١٠/٣).

(٢) في الإصابة (٢٩٧/٥): لاحب. وكذلك في الاستيعاب (١٣١٠/٣)، وأُسْد الغابة (٣٢٧/٤)، وفي جمهرة أنساب العرب (١٧٩): الأجَبُّ.

(٣) نسب قريش (٤٤٨).

(٤) أُسْد الغابة (٣٧/٤)، والاستيعاب (١٣١٠/٣)، وانظر: الإصابة (٢٩٧/٥).

(٥) الإصابة (٢٩٧/٥).

(٦) سيرة ابن هشام (٢٣٨/٢)، والدرر (١٠٦)، وجوامع السيرة (١٠٢)، وفي طبقات ابن سعد (٢/ ٩)، ومغازي الواقدي (١٢/١): أنها في ربيع الأول.

(٧) سفوان: وادٍ من ناحية موقع بدر؛ انظر: معجم البلدان (٩٠/٥).

(٨) سيرة ابن هشام (٢٣٨/٢).

(٩) الدرر (١٠٦)، وجوامع السيرة (١٠٣).

(١٠) الاستيعاب (١٣١٠/٣).

(١١) أُسْد الغابة (٢٣٧/٤).

سراياه[١]، وهذا دليل قاطع على ثقة النبيِّ ﷺ بدينه وكفايته القياديَّة.

قائد السَّريَّة إلى العُرَنيين

وكانت هذه السريَّة في شهر شوال من السنة السَّادسة الهجرية[٢]، فقد قَدِم نفر من عرَيْنَة[٣] ثمانيةٌ على رسول اللَّه ﷺ فأسلموا، ومرضوا بالمدينة، فأمر بهم رسول اللَّه ﷺ إلى لِقاحه[٤]، وكانت ترعى بذي الجَدْر ناحية قُبَاء على ستة أميال من المدينة، فكانوا فيها حتى صَحُّوا وسمنوا، فغدوا على اللِّقاح واستاقوها. وأدركهم يسار مولى النبيِّ ﷺ ومعه نفرٌ من المسلمين، فقاتلهم فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشَّوك في لسانه وعينيه حتى مات.

وبلغ رسولَ اللَّه ﷺ الخبر، فبعث في أثرهم عشرين فارسًا، واستعمل عليهم كُرْز بن جابر الفِهْرِيَّ، فأدركوهم وأحاطوا بهم وأسروهم، وربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة، فعاقبهم بموجب الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة: ٣٣].

وكانت اللِّقاح خمس عشرة لقحة غزارًا، فردُّوها إلى المدينة، وفقد رسول اللَّه ﷺ منها لقحةً واحدة، فسأل عنها فقيل: نحروها[٥].

وهكذا، أدَّى كرز واجبه على أحسن وجه في قيادة هذه السرية، واستعاد

---

(١) الإصابة (٥/٢٩٧).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٥٦٨)، وطبقات ابن سعد (٢/٩٣).

(٣) في أنساب الأشراف (١/٣٧٨): ويقال: من عُكَل، قبيلة عربية من هذيل. انظر: جمهرة أنساب العرب (١٩٨)، أما عرينة فهم من بجيلة. انظر: جمهرة أنساب العرب (٣٨٨).

(٤) اللِّقاح: الإبل ذوات اللبن، واحدها لقحة.

(٥) طبقات ابن سعد (٢/٩٣)، وسيرة ابن هشام (٤/٣١٨، ٣١٩)، ومغازي الواقدي (٢/٥٦٨ - ٥٧١)، وأسْد الغابة (٤/٢٣٧)، والاستيعاب (٤/١٣١٠).

اللِّقاح من الذين نهبوها، وأسر الذين غدروا وسلَّمهم إلى النبيِّ ﷺ، حيث أنزل بهم ما يستحقونه من عقاب عادل؛ ليكونوا عبرةً لغيرهم من الذين يطمعون في غزو المدينة أو مهاجمتها لسبب أو لآخر من الأسباب.

وهذا حديث البخاري عن هذه السرية:

عن أنس رضي الله عنه **«أن ناسًا من عُكل[1] وعُرَينة[2] قدموا المدينة على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا[3] المدينة. فأمر لهم رسول الله ﷺ بذَودٍ وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا، حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذود[4]. فبلغ النبي ﷺ، فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فَسَّمروا[5] أعينهم وقطعوا أيديهم، وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم»**[6].

وعد البخاري ـ أيضًا ـ (ح٢٣٣) **«فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم وسُمِّرت أعينُهم وأُلْقُوا في الحَرَّة[7] يستسقون فلا يُسقون»**. نبذهم في الشمس حتى ماتوا.

وعن أنس ـ أيضًا ـ: **«فرأيت الرجل منهم يكدم الأرض بلسانه حتى يموت»**.

ولأبي عوانة: **«يعض الأرض؛ ليجد بردها مما يجد من الحر والشدة»**.

«وقيل: إن الحكمة في تعطيشهم لكونهم كفروا نعمة سقي ألبان الإبل التي

---

(١)، (٢) عكل: من عدنان، وعرينة من قحطان؛ فهما قبيلتان متغايرتان.

(٣) استوخموا: وفي رواية (اجتووا). قال ابن فارس: اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة، وقيده الخطابي: بما إذا تضرر بالإقامة.

(٤) استاقوا الذود: السوق: هو السير العنيف. والذود: هي النوق والنَّعَم.

(٥) سمروا أعينهم: وعند مسلم: «سملوا أعينهم». والسمل: فقء العين بأي شيء. والسمر لغة في السمل؛ أي: أمر بمسامير فأحميت فأكحلهم بها.

(٦) أخرجه البخاري (٤١٩٢)، ومسلم، وأبو داود، وأبو عوانة في «صحيحه»، وأبو نعيم في «المستخرج».

(٧) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء معروفة بالمدينة.

حصل لهم بها الشفاء من الجوع والوخم، ولأن النبي ﷺ دعا بالعطش على من عطَّش أهل بيته، في قصة رواها النسائي، فيحتمل أن يكونوا في تلك الليلة منعوا إرسال ما جرت به العادة من اللبن الذي كان يُراح به إلى النبي ﷺ من لقاحه في كل ليلة، كما ذكر ذلك ابن سعد، والله أعلم»(١).

❑ الشَّهيد

شهد كرز مع النبيِّ ﷺ غزوة فتح مكَّة مع مَنْ شهدها من المسلمين في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية(٢)، فكان كرز مع رَتَل المسلمين بقيادة خالد بن الوليد الذي تقدَّم لفتح مكة باتجاه «**الخَنْدَمَة**»(٣)، وكان فيه صَفْوان بن أُميَّة، وعِكْرِمَة بن أبي جَهْل، وسُهَيْل بن عمرو، وكانوا قد جمعوا ناسًا من المشركين؛ ليقاتلوا المسلمين.

وناوشهم خالد مناوشة طفيفة، فقُتل كُرْز، وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة بن أَصْرَم حليف بني مُنْقِذ، وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشذَّا عنه، وسلكا طريقًا غير طريقه خطأً، فقُتلا جميعًا؛ قُتل خُنَيْس قبل كرز، فجعله كرز بين رجليه، ثمَّ قاتل عنه حتى قُتل وهو يرتجز ويقول:

قد علمت صَفْراء من بني فِهْرْ   نقيَّة الوجهِ نقيَّة الصَّدْرْ

لأضربنَّ اليومَ عن أبي صَخْرْ

وكان خُنيس يكنى: أبا صَخْر، وخُنيس من خُزاعة(٤).

والذي يبدو أنَّ كرز بن جابر ثبت؛ دفاعًا عن زميله خوفًا من أن يجهز

---

(١) فتح الباري (٧/٤٠٧).

(٢) أنساب الأشراف (١/٣٥٣)، وأُسْد الغابة (٤/٢٣٧)، والاستيعاب (٤/١٣١٠)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/٥٠)، والعبر (١/٩).

(٣) الخندمة: جبل بمكة المكرمة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٤٧٠، ٤٧١).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٢٦، ٢٧)، وأُسْد الغابة (٤/٢٣٧)، والاستيعاب (٤/١٣١٠)، والإصابة (٥/٢٩٨).

المشركون عليه، ولكنَّه قُتلَ وهو يدافع عن زميله الجريح، فقتلا معًا، دون أن يترك زميله يلاقي وحده مصيره المحتوم، بينما يتملَّص هو من المعركة للنجاة بنفسه، مما يدلُّ على شهامته العربية الإِسلاميَّة الأصيلة.

وقد وقع هو وزميله في فخ للمشركين، ولم يكونا ليقعا فيه لو أنَّهما سلكا الطريق الصحيح ولم ينحرفا عنه خطأً، وبهذا نال كرز شرف الصُّحبة، وشرف قيادة إحدى سرايا النبي ﷺ، وشرف الجهاد تحت لوائه، وشرف الشهادة في ساحات الجهاد.

❑ القائد

استشهد البطل في غزوة فتح مكة سنة ثمان الهجرية (٦٢٩م).

أما مزايا قيادته، فبالإِضافة إلى إيمانه العميق، يبدو أنه كان شجاعًا مقدامًا، سريع الحركة، مندفعًا، يحسن التعرُّض والمطاردة، من أولئك النفر من القادة العقديين الذين يكثرون في أيام الرسالة، ويقلُّون في أيام المادة التي تطغى بها الناحية المادية على القيم الدينيَّة.

فرضي اللَّه عن الصحابي الجليل، البطل المقدام، القائد الشهيد؛ كرز بن جابر الفهري القرشي.

❊ ❊ ❊

٣٩

القائد الشهيد
أبو النعمان
بشير بن سعد الخزرجي

ومواقفه العظيمة في خدمة الدين

٣٩

القائد الشهيد

أبو النعمان بشير بن سعد الخزرجي

ومواقفه العظيمة في خدمة الدين

هو بشير بن سَعْد بن ثعلبة بن خَلَّاس [١]بن زيد بن مالِكِ الأغرِّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج [٢].

وهو والد النعمان بن بشير أول مولود للأنصار بعد الهجرة، وبه يكنى.

كان رضي الله عنه يكتب بالعربية في الجاهلية، وكانت الكتابة قليلة في العرب [٣].

شهد بيعة العَقَبة الثانية مع الأوس والخزرج المسلمين [٤]، ويقال: إنَّه أوَّل مَنْ أسلم من الأنصار [٥]، فهو من السَّابقين الأولين إلى الإسلام من أهل المدينة الأنصار.

❑ المجاهد البطل الصبَّار قائد سرية فَدَك[٦]

شهد بشيرٌ بدرًا [٧]، وأُحُدًا، والخندق، والمشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ[٨]

---

(١)في الإصابة (١/١٦٣)، وتهذيب التهذيب (١/٤٦٤)، وخلاصة تهذيب التهذيب (٥٠): وردت «جلاس»، بضم الجيم، وتخفيف اللام.

(٢)طبقات ابن سعد (٣/٥٣١)، والاستبصار (١٢١)، وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٦٤)، وأُسْد الغابة (١/١٩٥)، والاستيعاب (١/١٧٢)، وانظر: جمهرة أنساب العرب (٣٦٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٢٤).

(٣)طبقات ابن سعد (٣/٥٣١)، وتهذيب التهذيب (١/٤٦٤).

(٤)سيرة ابن هشام (٢/٦٧)، وجوامع السيرة (٨٠)، والدرر (٧٦).

(٥)البداية والنهاية (٦/٣٥٣).

(٦)فدك: قرية بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة.

(٧)سيرة ابن هشام (٢/٣٣٨)، ومغازي الواقدي (١/١٦٥)، وجوامع السيرة (١٣٠)، والدرر (١٢٩).

(٨) طبقات ابن سعد (٣/٥٣١)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٢٤)، والاستبصار (١٢١)، والاستيعاب (١/١٧٢).

وفي شهر شعبان من السَّنة السَّابعة الهجريَّة، بعث رسول اللَّه ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلًا إلى بني مُرَّة بِفَدَك، فخرج يلقى رعاء الشَّاء، فسأل عن الناس، فقيل: في بواديهم، فاستاق النَّعَمَ والشَّاءَ، وانحدر إلى المدينة.

وخرج الصَّرِيخ(١) فأخبرَ بني مُرَّة، فأدرك بشير بن سعد الدَّهْم(٢) منهم عند اللَّيل، فأتوا يرامونهم بالنَّبْل حتى فنيت نَبْل أصحاب بشير. وأصبحوا، فحمل المُرِّيُّون عليهم، فأصابوا أصحاب بشير. وقاتل بشير حتى ارتُثَّ(٣) وضرب كعبُه، فقيل: قد مات.

ورجع بنو مُرَّة بنَعمهم وشَائهم.

وقدم عُلْبَة بن زيد الحارثي ـ أحد المسلمين ـ من سرية بشير بن سعد على رسول اللَّه ﷺ بخبر السرية، ثم قدم من بعده بشير بن سعد(٤).

❑ قائد سرية يُمْن(٥) وجُبَار(٦)

لما بلغ النبيَّ ﷺ أنَّ جمعًا من غَطَفَان بـ«**الجِنَان**»(٧) قد واعدهم عُيَيْنَة بن حِصْن ليكون معهم؛ ليزحفوا إلى رسول اللَّه ﷺ، دعا رسول اللَّه ﷺ بشير بن سعد، وعقد له لواءً، وبعث معه ثلاث مئة رجل، إلى يُمْن وجُبَار في شهر شوَّال من السنة السابعة الهجرية.

---

(١) الصَّريخ: الاستغاثة، والمستغيث، والمغيث، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

(٢) الدهم: جمع دهماء؛ وهم: عامة الناس. والدَّهم ـ بفتح الدال وسكون الهاء ـ: العدد الكثيرة؛ يقال: جاءهم دهم من الناس.

(٣) ارتث: ضُرِبَ في الحرب، فَأُثْخِنَ، وَحُمِلَ وَبِهِ رَمَقٌ، ثم مَاتَ، فهو مرتثٌّ.

(٤) طبقات ابن سعد (١١٨/٢، ١١٩)، ومغازي الواقدي (٧٢٣/٢ ـ ٧٢٦)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢٨٤/٤).

(٥) يُمْن: ماء لغطفان بين المدينة وَفَيْد؛ انظر: معجم البلدان (٥٢٤/٨).

(٦) جبار: ماء لقضاعة بين المدينة وَفَيْد؛ انظر: معجم البلدان (٤٣/٣).

(٧) الجِنَاب: من ديار فزارة بين المدينة وَفَيْد؛ انظر: معجم البلدان (١٤١/٣).

وسار المسلمون اللَّيلَ، وكمنوا النهار، حتى أتوا إلى يُمْن وجُبَار، وهي نحو الجِنَاب، والجِنَاب يعارض (سَلَاح)[1] وخَيْبَر ووادي القُرى، فنزلوا بسَلاح، ثمَّ دنوا من القوم، فأصابوا نَعَمًا كثيرًا، وتفرَّق الرِّعاء، فحذَّروا الجمع فتفرَّقوا ولحقوا بعَلياء بلادهم.

وخرج بشير بن سعد في أصحابه، حتى أتى محالَّهم، فلم يجد فيها أحدًا.

ورجع بشير بالنَّعَم، وأصاب من غَطَفان رجلين، فأسرهما، وقدم بهما إلى رسول اللَّه ﷺ، فأسلما، فأرسلهما النبيُّ ﷺ[2].

وهكذا استطاع بشير أن يؤدي واجبه على أحسن وجه في هذه السرية.

ولله در القائل في هذه السرية وقائدها البطل:

عُيَيْنَةُ ماذا أنتَ وَيْحكَ صَانِعُ؟ ... وما ذلك الجمعُ الذي أنتَ جَامِعُ؟
رُوَيْدَكَ هل يغزو المدينةَ حانِقٌ ... ويطمعُ فيها يا عُيينَةُ طامِعُ؟
هي الصخرةُ العظمى فلا البأسُ نافعٌ ... إذا جِئْتَ تَبغيها ولا السَّيفُ قاطِعُ
لها من جَلَالِ اللهِ حِصْنٌ مُمنَّعٌ ... يَرُدُّ الأذَى عنها وجَيْشٌ مُدافِعُ
وفيها رسولُ اللهِ والنَّفَرُ الأُلى ... يَهُونُ عليهم أن تَهُولَ الوقائِعُ
إذا وَرَدوا الهيجَاءَ فالنَّقعُ قائمٌ ... وإن صَدَرُوا بالخيلِ، فالنَّصرُ لامِعُ
بَشيرُ بنُ سعيدٍ يا عُيينَةُ قادِمُ ... فهل أنتَ بالجمعِ المضلَّلِ راجِعُ؟
أتاكم على بُعْدِ المَزَارِ حَديثُهُ ... فلا قَلْبَ إلا واجفٌ منه جَازِعُ
فَرَرْتُم تُرِيْدونَ النَّجاةَ وقد بَدَا ... لكم منه يومٌ هَائلُ البأسِ رَائِعُ
وغادرتمُ الأنعامَ تَعْوِي رُعاتَها ... وتَندبُها آثارُها والمراتِعُ[3]
فيا لكَ من نَهْبٍ تَوَلَّى حُماتُهُ ... وأقبلَ يُزجَى سِربُهُ المتتابِعُ

---

(١) سَلَاح: موضع أسفل من خيبر؛ انظر: معجم البلدان (١٠١/٥).

(٢) طبقات ابن سعد (١٢٠/٢)، ومغازي الواقدي (٧٢٧/٢ - ٧٣١)، وسيرة ابن هشام (٢٨٤/٤).

(٣) تعوي: تدعو. والمراتع: جمع المرتع؛ وهو: موضع الرَّتْع.

ويا للأسِيرَيْنِ اللذين نَهاهما ... عن الشِرْكِ ناهٍ من هُدَى اللهِ رادعُ
هُما أسلما لما بَدَا الحقُّ واضحًا ... وللحقِّ نورٌ للعَمَايَةِ صادعُ
أطاعا رسولَ اللهِ فَاهْتَدَيَا بِهِ ... وما يَسْتَوِي فِي النَّاسِ عاصٍ وطائعُ
عُيَيْنَةُ من يَنْزَعْ إلى الرُّشْدِ لا يَزَلْ ... على لاحبٍ منه فهل أنت نازِعُ؟[1]

في قيادة تعبويّة

وفي غزوة عُمْرَة القضاء التي كانت في ذي القعدة من السَّابعة الهجرية[2]، حمل رسول اللَّه ﷺ السِّلاح والبيض والدروع والرِّماح، وقاد مئة فرس عليها محمَّد بن مَسْلَمَة، وقدَّم السِّلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، فقيل: يا رسول الله! حملت السِّلاح وقد شرطوا علينا ألَّا ندخل عليهم إلَّا بسلاح المسافر: السيوف في القُرُب! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إنا لا نُدْخِلُهَا عليهم الحَرَم، ولكن تكون قريبًا منَّا**».

وسار رسول اللَّه ﷺ يُلَبِّي والمسلمون يُلَبُّون، ومضى محمد بن مَسْلَمَة بالخيل إلى «**مَرِّ الظَّهْران**»[3]، فوجد نفرًا من قريش، فسألوا محمَّد بن مَسْلَمَة فقال: «**هذا رسول اللَّه يُصبِّح هذا المنزل غدًا إن شاء الله**»، فرأوا سلاحًا كثيرًا مع بشير بن سعد، فخرجوا سريعًا حتى أتوا قريشًا فأخبروهم بالذي رأوا من الخيل والسِّلاح، ففزعت قريش وقالوا: واللهِ ما أَحْدَثْنا حَدَثًا، ونحن على كتابنا ومدَّتنا، ففيمَ يغزونا محمَّد في أصحابه؟

ونزل رسول اللَّه ﷺ مرَّ الظَهْران، وقدَّم السِّلاح إلى بطن «**يَأْجج**»[4] حيث ينظر إلى أنصاب الحرم.

---

(١) اللاحب: الطريق البَيِّن. ونزع إلى الشيء: ذهب إليه.
(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٠).
(٣) مَرُّ الظهران: موضع على مرحلة من مكة.
(٤) يأجج: مكان من مكة على ثمانية أميال.

وبعثت قريش مِكْرَز بن حَفْص بن الأَخْنَف في نفرٍ من قريش، حتى قدموا بطن يَأْجَج، ورسول اللَّه ﷺ في أصحابه والهَدْي والسِّلاح، قد تلاحقوا، فقالوا: يا محمَّد! واللَّه ما عُرِفْتَ صغيرًا ولا كبيرًا بالغَدْر! تدخل بالسِّلاح الحَرَم على قومك، وقد شرطتَ ألَّا تدخل إلَّا بسلاح المسافر: السيوف في القُرُب؟! فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا ندخلها إلَّا كذلك**»، فرجع مِكْرَز سريعًا بأصحابه إلى مكَّة، فقال: «**إنَّ محمَّدًا لا يدخل بسلاح، وهو على الشَّرط الذي شرط لكم**»[1].

واستطاع بشير بقيادته التعبويَّة هذه بإمرة النبيِّ ﷺ، في غزوة من غزواته، أن يؤثِّر في معنويات قريش، وأن يجعلها لا تفكِّر بالغدر؛ لأنَّ المسلمين مسلَّحون، كما استطاع النبيُّ ﷺ أن يطبق مبدأ: الأمن، وذلك بإعداد السِّلاح لاستخدامه عند الحاجة، في حالة نقض قريش لعهودها، فكان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كما هو معهود فيه ـ متَّسمًا ببعد النَّظر، فأدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات، دون أن يغدر أو يفكِّر بالغدر؛ لأنَّ الوفاء بالعهود من المبادئ الإِسلامية الثَّابتة ومن تعاليم الإِسلام المقرَّرة المعروفة.

❑ موقفه العظيم وإخلاصه في سقيفة بن ساعدة

ولعلَّ أعظم مواقف بشير في خدمة الإِسلام والمسلمين، هو مبادرته لمبايعة أبي بكر الصدِّيق بعد انتقال النبيِّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فكان أوَّل مَن بايع أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه يوم السَّقِيْفة من الأنصار[2].

ولإبراز أهميَّة مبادرة بشير في البيعة التي وضعت حدًّا للفتنة المحتملة بين المهاجرين والأنصار، لا بدَّ من ذكر مختصر ما حدث في سقيفة بني ساعدة، فقد

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٣٣، ٧٣٤).

(٢) أُسْد الغابة (١/١٩٥)، والاستيعاب (١/١٧٢، ١٧٣)، والإصابة (١/١٦٣)، والاستبصار (١٢١)، وتهذيب ابن عساكر (٧/٢١٥)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٢٤)، وأنساب الأشراف (١/ ٥٨٠)، وطبقات ابن سعد (٣/١٨٢).

كانت بيعة أبي بكر فتنة، ولكنَّ اللَّه وقَى شرَّها[١]، كما وصفها عمر بن الخطَّاب.

فقد اجتمعت الأنصار في سَقِيْفَة بني ساعدة[٢]، وأخرجوا سعد بن عُبادة؛ ليولُّوه الأمر، وكان مريضًا، وذلك لما قُبض النبيُّ ﷺ.

وقال سعد بن عُبادة بعد أن حمد الله: «**يا معشر الأنصار! لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب، إنَّ محمَّدًا ﷺ لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم، فما آمن به إلَّا القليل، ما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولأصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشدَّ النَّاس على عدوِّه، حتى استقامت العرب لأمر اللَّه طوعًا وكرهًا، وأعطى البعيدُ المقادة صاغرًا، فدانت لرسوله بأسيافكم العرب، وتوفَّاه اللَّه وهو عنكم راضٍ قرير العين. استبِدُّوا بهذا الأمر دون الناس، فإنَّه لكم دونهم**».

فأجابه الأنصار بأجمعهم: أن قد وفِّقْتَ وأصبتَ الرأي، ونحن نوليك هذا الأمر، فإنَّك مَقْنعٌ ورضًا للمؤمنين.

ثمَّ إنَّهم ترادُّوا الكلام، فقالوا: وإنْ أبى المهاجرون من قريش وقالوا: نحن المهاجرون، وأصحابه الأولون، وعشيرته وأولياؤه؟! فقالت طائفة منهم: نقول: منَّا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا أبدًا، فقال سعد: «**هذا أوَّل الوهن**».

وسمع عمر بن الخطَّاب الخبر، فأتى منزل النبيِّ ﷺ، وأبو بكر فيه، فأرسل إليه أن اخرج إليَّ، فأرسل إليه «**إني مشتغل**»، فقال عمر: «**قد حدث أمرٌ لا بدَّ لك من**

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٢٧)، والبداية والنهاية (٥/٢٤٥).

(٢) سقيفة بني ساعدة: بالمدينة، وهي ظلَّة، كانوا يجلسون تحتها، بويع فيها أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه. والسقيفة: كلُّ بناء سُقِّفَ به صُفَّة أو شبه صُفَّة مما يكون بارزًا، ألزم هذا الاسم للتفرقة بين الأشياء. وأما بنو ساعدة الذين أُضيفت إليهم السقيفة، فهم حَيٌّ من الأنصار، وهم بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو، منهم سعد بن عُبَادَةَ؛ انظر: معجم البلدان (٥/٩٥).

حضوره»، فخرج إليه، فأعلمه الخبر. فمضيا مسرعين نحو سقيفة بني ساعدة ومعهما أبو عُبَيْدَة بن الجرَّاح.

قال عمر: «فأتيناهم، وقد كنتُ زوَّرت كلامًا أقوله لهم، فلما دنوت أقول، أسكتني أبو بكر، وتكلَّم بكلٍّ ما أردتُ أن أقول، فحمد الله، وقال: «إنَّ اللَّه قد بعث فينا رسولًا شهيدًا على أُمَّته؛ ليعبدوه ويوحِّدوه، وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجرٍ وخشب، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص اللَّه المهاجرين الأولين بتصديقه والمواساة له والصَّبر معه على شدَّة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالفٌ، زارٍ عليهم، فلم يستوحشوا لقِلَّة عَدَدهم وشَنَف[1] الناس لهم، فهم أوَّل مَن عبد اللَّه في هذه الأرض وآمن باللَّه وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحقُّ الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلَّا ظالم. وأنتم يا معشر الأنصار مَن لا يُنكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم في الإِسلام، رضيكم اللَّه أنصارًا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا تفاوتون بمشورة، ولا تُقضى دونكم الأمور».

وقام الحُباب بن المُنْذِر بن الجَموح فقال: «**يا معشر الأنصار! املكوا عليكم أمركم، فإنَّ الناس في ظلِّكم، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم، ولا يصدروا إلَّا عن رأيكم. أنتم أهل العزِّ وأولو العدد والمَنَعة وذوو البأس، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم، أبى هؤلاء إلَّا ما سمعتم، فمنَّا أمير ومنكم أمير**».

فقال عمر: «**هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن! واللَّه لا ترضى العرب أن تؤمِّركم ونبيُّنا من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها مَنْ كانت النبوَّة فيهم، ولنا بذلك الحجَّة الظَّاهرة! مَنْ ينازعنا سلطان محمَّد، ونحن أولياؤه وعشيرته؟!**».

---

(١) الشنف: البغض والتنكُّر.

فقال الحُباب بن المنذر: «**يا معشر الأنصار! املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أَبَوْا عليكم فأجلوهم عن هذه البلاد وتولَّوا عليهم الأمور، فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم، فإنَّه بأسيافكم دان الناس لهذا الدِّين، أنا جُذَيْلُها**[١] **المحُكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب**[٢]، **أنا أبو شبل في عرينه الأسد، والله لو شئتم لنعيدنَّها جَذَعَةً**»[٣].

فقال عمر: «**إذًا ليقتلك الله**»، فقال: «**بل إيَّاك يقتل**».

فقال أبو عُبَيْدَة: «**يا معشر الأنصار! إنكم أوَّل مَنْ نصر، فلا تكونوا أوَّل مَنْ بدَّل وغَيَّر!**».

وقام بشير بن سعد فقال: «**يا معشر الأنصار! إنَّا والله وإن كُنَّا أُولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في الدين، ما أردنا به إلَّا رضى ربِّنا وطاعة نبيِّنا والكَدْح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغي به الدنيا. ألا إنَّ محمَّدًا ﷺ من قريش، وقومه أولى به، وايم الله! لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر، فاتَّقوا الله ولا تخالفوهم**».

فقال أبو بكر: «**هذا عمر وأبو عبيدة، فإن شئتم فبايعوا**»، فقالا: «**والله لا نتولى هذا الأمر عليك، وأنت أفضل المهاجرين، وخليفة رسول الله ﷺ في الصَّلاة، وهي أفضل دين المسلمين. ابسط يدك نبايعك**»، فلما ذهبا يبايعانه، سبقهما بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحُباب بن المنذر: «**عَقَتْكَ عَقَاقِ! أنَفِسْتَ على ابن عمِّك الإمارة؟!**»، فقال: «**لا والله، ولكنني كرهت أن أُنَازع القوم حقَّهم**».

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد، قال

---

(١) الجُذَيْل: تصغير جذل؛ وهو: عود يكون في وسط مبرك الإبل، تحتك به، وتستريح إليه، فيضرب به المثل في الرجل يشتفي برأيه.

(٢) العذيق: تصغير عذق؛ وهو: النخلة نفسها. والمرجب: الذي تبنى إلى جانبه دعامة ترفده؛ لكثرة حمله ولعزِّه على أهله؛ فَضُرِبَ به المثل في الرحل الشريف الذي يعظمه قومه.

(٣) لنعيدها جذعة: الجذعة هي الفتيَّة.

بعضهم لبعض، وفيهم أُسَيْد بن حُضَيْر، وكان نقيبًا: «**والله لئن وليتْها الخزرج مرَّة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيبًا أبدًا، فقوموا فبايعوا أبا بكر**»، فبايعوه، فانكسر سعد بن عُبَادة والخزرج وما أجمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كلِّ جانب[١]، فبايعه المهاجرون، وبايعه الأنصار[٢].

لقد كان موقف بشير في سقيفة بني ساعدة موقفًا رائعًا حقًّا، فكان مفتاحًا لكلِّ خير، مغلاقًا لكل شر، قال قولة الحق في أحرج المواقف، ولم تؤثر فيه عصبية للخزرج ولا لابن عمه سعد بن عبادة.. بل كان خالصًا لله ولدينه، مما يستحق أعظم التقدير وأعمق الإعجاب.

هاجر بشير إلى المدينة مع المهاجرين إليها، وكان نزل (وَدَّان)[٣]، فهو من المهاجرين باعتباره هاجر من ودَّان إلى المدينة، وهو من الأنصار باعتباره من الخزرج ومن الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية، كما ذكرنا.

ولا نعرف متى وُلد، ولكنه استشهد في معركة «**عين التمر**»[٤] تحت راية خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصدِّيق ﷺ فقد شهد بشير مع خالد حروبه[٥]، وكان استشهاده سنة اثنتي عشرة الهجرية[٦] (٦٣٣م)، ودفن في عين التمر[٧].

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٢٥ - ٣٣١)، وانظر: الطبري (٣/٢٠٣ - ٢٠٦)، والبداية والنهاية (٥/٢٤٥ - ٢٤٧).

(٢) الطبري (٣/٢٠٦).

(٣) وَدَّان: قرية جامعة من الجحفة على مرحلة بينها وبين الأبواء على طريق الحاج في غربيها ستة أميال؛ انظر: معجم البلدان (٨/٤٠٥، ٤٠٦).

(٤) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة، بقربها موضع يقال له: شفاثا، على طرف البريَّة؛ انظر: معجم البلدان (٦/٢٥٣).

(٥) البداية والنهاية (٦/٣٥٣).

(٦) أُسْد الغابة (١/١٩٥)، والإصابة (١/١٦٢)، وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٦٥).

(٧) البداية والنهاية (٦/٣٥٣).

وبشير هو أخو سماك بن سعد من أمِّه وأبيه، وكان سِماك بدريًّا [١] أيضًا.

وكان بشير طويلًا فارع الطول، معدودًا من الذين إذا ركبوا الفرس تخطُّ إبهاماه في الأرض [٢]، وصفًا له بالطول الفارع.

وهكذا انتهت حياة بشير، بعد أن قدَّم ما يملك لإعلاء كلمة الله، حتى روحه قدَّمها في خدمة الإِسلام والمسلمين، دون أن يأخذ شيئًا جزاء ما قدَّم أو يطالب بشيء.

فكان بحق من الذين يعملون لقلوبهم، لا من الذين يعملون لجيوبهم، ومن الذين يعملون لدينهم، لا من الذين يعملون لدنياهم، ومن الذين لا يضحُّون بالآخرة من أجل الدنيا، ولا بما عند اللَّه من أجل ما عند الناس.

❑ القائد

قاد بشير سريتين مستقلتين من سرايا النبيِّ ﷺ أخفق في قيادة سريته الأولى حتى كاد يفقد حياته فيها، ونجح في قيادة سريته الثانية، فحقَّق أهدافه تحقيقًا كاملًا.

وما كان إخفاقه في قيادة السريَّة الأولى عن تقصير منه أو من أحد رجاله، فقد قاتل وقاتلوا بعناد وبسالة لا مزيد عليهما، حتى استُشهدوا وكاد، ولكن إخفاقه كان بسبب صراع بين قوَّتين غير متكافئتين عَدَدًا وعُدَدًا، فقد كان المسلمون في ثلاثين مجاهدًا، وكان المشركون في حشود ضخمة جدًّا، وما كان بمقدور المسلمين أن يفعلوا أكثر من الثباتِ والقتال إلى أن فنيت نبالهم إلى آخر نبل وآخر رمق، وعلى رأسهم قائدهم الشجاع، وهذا ما فعلوه، فتغلَّبت الكَثرَة الكثيرة على القلَّة القليلة بعد ثبات عجيب وقتال شديد وتضحية فائقة.

أما نجاحه في قيادة سريته الثانية، فكان بتأثير المباغتة بالزمان للمشركين، فقد

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٢٦/٣).

(٢) المحبر (٢٣٣).

كان المسلمون يَسْرُونَ[١] ليلًا ويكمنون نهارًا، فباغتوا أعداءهم، واستطاعوا تحقيق أهداف سريتهم كاملة.

ولو كان إخفاق بشير في قيادة سريته الأولى نتيجة لنقصٍ في كفايته القيادية، لما ولَّاه النبيُّ ﷺ قيادة إحدى سراياه من جديد. بل إنَّ النبيَّ ﷺ ولَّاه إحدى قَدَماته التعبويَّة في إحدى غزواته، كما ذكرنا، وهذا دليل على أنَّ إخفاق بشير في قيادة سريته الأولى لم يكن لتقصيره أو عجزه، بل لأنَّ ظروفه الراهنة جعلته في موقف عصيب للغاية، وليس أمامه إلَّا الشَّهادة أو الهزيمة، فاختار الشَّهادة دون تردُّد. وهذا دليل على شجاعته الفائقة.

وكان نجاح بشير في قيادة القَدَمة التعبويَّة التي تولَّاها في غزوة من غزوات النبيِّ ﷺ لا يقلُّ عن نجاحه في قيادة سريته الثانية. وكان دليلًا على ثقة النبيِّ ﷺ بكفايته القياديَّة ورضاه عنها.

ومن طبيعة السَّريتين التي تولى قيادتها، يبدو طابع (الغارة) عليهما، للتأثير المعنوي على المشركين بالدرجة الأولى، والغارة تحتاج إلى قائد سريع القرار صَائِبِهِ، سريع الحركة والتنقل، يتحمَّل المشاق بسهولة ويسر، ويتمتَّع بمرونة خططه القتالية، ذكيٍّ، حاضر البديهة.

كما أنَّ طبيعة قيادته القَدَمَة التعبويَّة في غزوة من غزوات النبيِّ ﷺ التي كانت تتَّسم بالتأثير المعنوي في المشركين، هي بحاجة إلى قائد سريع القرار صَائِبِهِ، سريع الحركة والتنقل أيضًا، يتميَّز بالشجاعة والإقدام.

لقد كان بشير قائدًا عقائديًّا، ذا إرادة قويَّة ثابتة، ونفسية رصينة لا تتبدَّل في حالتي الاندحار والنصر، يتحمل المسئولية ولا يتهرَّب منها ولا يلقيها على عواتق الآخرين، يتمتَّع بمزية سبق النظر الدَّالة على الذكاء والاتزان، يعرف نفسيات رجاله

---

(١) السُّرَى: سير عامة الليل، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وفي المثل: «عند الصباحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى»، يضرب في احتمال المشقَّة والحثِّ على الصبر، حين تُحْمَدُ العاقبة.

وخواصهم ويكلِّف كلَّ فرد منهم بما يطيق النهوض به، يثق برجاله ويثقون به، وتثق به القيادة العليا، ويحبُّ رجاله ويحبُّونه، له شخصية قويَّة مسيطرة، وقابلية بدنية متميزة، وماضٍ ناصع مجيد.

وهذه المزايا القيادية هي نتيجة من نتائج عقيدته الرَّاسخة وإيمانه العميق، التي جعلت منه قائدًا جيدًا ومجاهدًا صادقًا.

وعند تطبيق مزاياه القيادية على مبادئ الحرب المعروفة، نجد أنَّه يطبِّق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، وكان قائدًا تعرُّضيًّا يؤمن بأنَّ أنجح وسائل الدفاع هو التعرُّض، يطبق مبدأ المباغتة أهمَّ مبادئ الحرب على الإطلاق، كما فعل في سريته الثانية، حيث طبَّق مبدأ المباغتة بالزمان بشكل رائع حقًّا، وكان يطبِّق مبدأ المرونة ومبدأ التعاون، كما يطبِّق مبدأ إدامة المعنويات.

وكان يتحلَّى بمزية الطَّاعة المطلقة، وهو الضبط المتين الذي يميز القائد الجيد والجندي الجيد عن القائد الرديء والجندي الرديء.

وكان يستشير رجاله، ولا يستبدُّ دونهم في تصريف الأمور، ويساويهم بنفسه في الأمور كافة ولا يرضى أن يتميَّز عليهم بشيءٍ استغلالًا لمنصبه القياديِّ.

لقد كان أحد خريجي مدرسة النبيِّ ﷺ في العقيدة القيادية، وكان أحد قادة خير القرون في التوحيد من أجل الجهاد، والجهاد من أجل التوحيد.

❑ بشير في التاريخ

يذكر التاريخ لبشير أنَّه كان أوَّل الأنصار إسلامًا، وأحد السابقين الأولين للإسلام، وأحد الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية.

ويذكر له أنَّه كان من البدريين، وشهد غزوات النبيِّ ﷺ كافة، وجاهد تحت لوائه جنديًّا وقائدًا ومرءوسًا.

ويذكر له أنَّه قاد سريتين من سرايا النبيِّ ﷺ، وقدمة تعبوية في إحدى غزواته .

عليه الصَّلاة والسَّلام.

ويذكر له أنه جاهد المرتدين بعد أن التحق النبيُّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان ذلك في عهد أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحت لواء خالد بن الوليد، فاستُشهِد في معركة عين التَّمر.

ويذكر له أنَّه أوَّل أنصاريٍّ من الخزرج بايع أبا بكر الصدِّيق بالخلافة بعد التحاق النبيِّ ﷺ بالرفيق الأعلى، فقضى ببيعته على اختلاف محتمل بين المهاجرين من جهة، والأنصار من جهة ثانية.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابيِّ الجليل، القائد الشَّهيد، بشير بن سعد الأنصاريُّ الخزرجيُّ.

* * *

٤٠

ابن أبي العوجاء السلمي
القائد الشهيد

٤٠

ابن أبي العوجاء السلمي

القائد الشهيد

هو ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيّ، من بني سُلَيْم[١]، وهو أبو العَوْجاء السُّلَمِيّ من بني سُلَيْم[٢]، والأوَّل أشهر؛ لأنَّ أكثر المؤرِّخين الثِّقات أخذوا به.

ولا نعرف اسم ابن أبي العوجاء، ولا شيئًا عن حياته الأولى قبل الإِسلام.

وقد أسلم قبل فتح مكة، واسمه في قائمة الصَّحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة[٣].

وأخبار ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِي قليلة جدًّا، ولولا سريته التي قادها لما كان له ذكر.

على كلِّ حال، فقد نال شرف الصُّحبة وشرف الجِهاد تحت لواء النبيِّ ﷺ.

❑ قائد السريَّة

كانت سرية ابن أبي العوجاء السُّلميِّ إلى بني سُلَيْم في شهر ذي الحجَّة من السنة السَّابعة الهجريَّة[٤]، بعد عودة النبيِّ ﷺ من عُمْرَة القضاء إلى المدينة من مكَّة[٥].

فقد بعث رسول اللَّه ﷺ ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيَّ في خمسين رجلًا إلى بني

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٥/٤)، وأنساب الأشراف (٣٧٩/١)، ومغازي الواقدي (٧٤١/٢)، وعيون الأثر (١٤٩/٢)، وجوامع السيرة (١٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٢٨٤/٤)، والمحبر (١٢٢)، وأُسْد الغابة (٢٦٦/٥).

(٣) طبقات ابن سعد (٣٨٩/٤ - ٣٩٢).

(٤) طبقات ابن سعد (١٢٣/٢)، وأنساب الأشراف (٣٧٩/١).

(٥) مغازي الواقدي (٧٤١/٢).

سُلَيْم، فخرج إليهم.

وكان عَينٌ لبني سُلَيْم مع سرية ابن أبي العَوْجاء، دون أن يدري، فلما فَصَل من المدينة، خرج العَينْ إلى قومه فحذَّرهم وأخبرهم بسرية ابن أبي العَوْجاء المتوجِّهة إليهم[١].

واستعدَّ بنو سُلَيْم لمواجهة سرية ابن أبي العَوْجاء قبل وصولها إليهم، فجاءهم وهم مُعدُّون له.

فلما رآهم أصحاب رسول اللَّه ﷺ ورأوا جمعهم، دعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتمونا إليه.

وترامَوا بالنَّبْل ساعة، وجعلت الأَمداد تأتي إلى بني سُلَيْم، حتى أحدقوا بالمسلمين من كلِّ ناحية.

وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا، حتى قُتِلَ عامَّتهم، وأُصيب ابن أبي العَوْجاء جريحًا مع القتلى، ثمَّ تحامل حتى بلغ رسول اللَّه ﷺ، فقدموا المدينة في أوَّل يوم من شهر صَفَر سنة ثمانٍ الهجريَّة[٢].

وفي رواية أخرى، أن ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيَّ أُصِيب هو وأصحابه[٣] وقتلوا جميعًا[٤]، فاستُشهد ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيُّ[٥] مع مَنْ استُشهد من أصحابه.

وأرجِّح الرواية الثانية، وهي استشهاد ابن أبي العَوْجاء، لأنَّ أخباره انتهت بعد هذه السرية، فلم يعد له ذكر بين الصَّحابة في غزوات النبيِّ ﷺ وسراياه، مما يؤيِّد استشهاده.

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢٣/٢)، ومغازي الواقدي (٧٤١/٢)، وعيون الأثر (١٤٩/٢)، وانظر: أُسْد الغابة (٢٦٦/٥).

(٢) طبقات ابن سعد (١٢٣/٢، ٢٧٥/٤)، ومغازي الواقدي (٧٤١/٢)، وعيون الأثر (١٥٠/٢).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٤٨/١).

(٤) أُسْد الغابة (٢٦٦/٥)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢٨٤/٤).

(٥) المحبر (١٢٢).

ويبدو أنَّ هذه السرية كانت من السرايا الدعوية، فرفض بنو سُلَيْم قبولها، وتكاثروا على المسلمين، فأصبحت القوتان غير متكافئتين، وكان التفوق عَدَدًا وعُدَدًا مع المشركين على المسلمين، كما أنَّ المشركين كانوا في بلادهم، يستندون على قاعدتهم، بينما كان المسلمون بعيدين عن قاعدتهم، وكانت خطوط مواصلاتهم طويلة، مما سهَّل تموين المشركين وصعَّب تموين المسلمين.

وهذا التفوق الكبير الذي كان مع المشركين، أدَّى إلى اندحار المسلمين دون أن يقصِّروا في أداء واجبهم، فما ضعفوا ولا استكانوا ولا استسلموا، بل قاتلوا قتال الأبطال حتى تساقطوا جميعًا شهداء في ساحة الجهاد. كما أن العين الذي كان للمشركين بين المسلمين، نقل أخبار المسلمين إلى المشركين وكشف نيات المسلمين للمشركين مبكِّرًا، فأعان المشركين على إحراز النصر من جهة، وأدى إلى هزيمة المسلمين من جهة أخرى، وكان من الصَّعب أن يحول المسلمون دون تسرُّب العيون إلى المدينة، فقد كان أولئك العيون يتظاهرون بالإسلام ويختلطون بالمجتمع الإسلامي، فمن الصعب الكشف عنهم في تلك الظروف والأحوال السائدة حينذاك.

وكان ابن أبي العوجاء أسوة لرجاله في القتال حتى الرمق الأخير، فلم يبق عليه عتب ولا لوم، وحسبه أنَّه استُشهد دفاعًا عن عقيدته، ولم يتخلَّ عنها خوفًا على روحه، فمات ميتة الأبطال.

❑ القائد

ذكرنا أن أخبار ابن أبي العَوْجاء السُّلَمِيِّ قليلة للغاية، فظهر فجأة، وقاد سريته، فقضى شهيدًا في أواخر سنة سبع الهجريَّة، ولا معلومات إضافية عنه إنسانًا.

ويبدو أنَّه كان على جانب عظيم من الإيمان والورع والتقوى، لكي يوليه النبيُّ ﷺ قيادة قسم من أصحابه إلى بني سُلَيم قوم ابن أبي العَوْجاء، مما يدل على أنَّ إيمانه العميق اقتلع ما في نفسه من تقاليد الجاهلية في التعصب الأعمى للقبيلة،

وحلَّ محلَّه الدفاع عن الإِسلام والمسلمين.

كما يبدو أنَّه كان على جانب كبير من الذكاء والاتِّزان، وحسن التصرُّف، وقوّة الشخصية، والثقة بالنفس، لكي يستطيع قيادة أصحابه كما ينبغي، فليست القيادة سهلة التكاليف يستطيع تحمُّل أعبائها كلُّ إنسان، كما أنَّ النبيَّ ﷺ لا يولي القيادة إلَّا الرجل المناسب الذي يستطيع تحمُّل أعبائها بإيمانه وكفاياته القيادية، لا بنسبة أو حسبه أو أمر من أمور الدنيا الأخرى المتعارف عليها عند حكَّام الدنيا وحدهم، ولا مكان لهما في مقاييس النبيِّ ﷺ والحكَّامِ الذين يقتفون آثاره ويهتدون بهديه في تولية الرجل المناسب للعمل المناسب.

إنَّ ابن أبي العَوْجاء من القادة العقائديين الذين عملوا لعقيدتهم لا لأنفسهم، فضحَّوا بأرواحهم من أجل عقيدتهم، ولم يضحُّوا بعقيدتهم من أجل أرواحهم.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، القائد الشهيد، ابن أبي العوجاء السُّلَمِي.

* * *



٤١

شُجَاع بن وَهْب الأَسَدِيُّ

السَّفير القائد الشَّهيد

٤١

شُجَاع بن وَهْب الأَسَدِيُّ

السَّفير القائد الشَّهيد

هو شُجَاع بن وَهْب[١] بن ربيعة بن أسَد بن صُهَيْب بن مالِك بن كثير[٢] بن غنم بن دُودَان بن خُزَيْمَة، الأَسَدِيُّ[٣]، حليف لبني عَبْد شَمْس من قُرَيش، يُكْنَى: أبا وَهب[٤].

أسلم قديمًا، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وعاد إلى مكَّة لمَّا بلغ المهاجرين أن أهل مكَّة قد أسلموا[٥]، فكان من السَّابقين الأولين[٦] إلى الإِسلام.

ولما أَذِنَ النبيُّ ﷺ للمسلمين بالهجرة من مكَّة إلى المدينة، كان شجاع من أوائل مَنْ هاجر إلى المدينة من المسلمين[٧]، فقد قدم المهاجرون من مكَّة إلى المدينة أَرْسالًا، وكان بنو غَنْم بن دُوْدَان أهل إسلام، وقد أوعبوا مع رسول اللَّه هجرةً، رجالُهم ونساؤهم[٨].

وفي المدينة آخى النبيُّ ﷺ بين شجاع وأوس بن خَوْلي[٩]، وهو أوس بن خَوْلي

---

(١) الإصابة (٣/١٩٤)، وأُسْد الغابة (٢/٣٨٦)، والاستيعاب (٢/٧٠٧).
(٢) في طبقات ابن سعد (٣/٩٤): ابن كبير.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٩٤)، والإصابة (٣/١٩٤)، وأُسْد الغابة (٢/٣٨٦)، والاستيعاب (٢/٧٠٧).
(٤) أُسْد الغابة (٢/٣٨٦)، والاستيعاب (٢/٧٠٧).
(٥) أُسْد الغابة (٢/٣٨٦).
(٦) الإصابة (٣/١٩٤).
(٧) سيرة ابن هشام (٢/٨٠)، وانظر: الدرر (٨١)، وجوامع السيرة (٨٧).
(٨) انظر: التفاصيل في «سيرة ابن هشام» (٢/٨٠ - ٨٣).
(٩) المحبر (٧٢)، وانظر: أُسْد الغابة (٢/٣٨٦)، والاستيعاب (٧٠٧)، وطبقات ابن سعد (٣/٩٤)، والاستبصار (١٨٦).

بن عبدالله بن الحارث من بني عَوْف بن الخَزْرَج[١].

❑ المجاهد

شهد شجاع غزوة «بَدْرٍ»[٢] الحاسمة هو وأخوه عُقْبَة بن وَهْب الأسديُّ[٣]، وكانت غزوة بدرٍ في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية الهجريَّة.

وشهد سرية عُكَّاشة بن مِحْصَن إلى «الغَمْر»[٤] التي كانت في شهر ربيع الأول من السَّنة السَّادسة الهجريَّة، فغنمت السريَّة وعادت أدراجها سالمة إلى المدينة المنوَّرة[٥].

كما شهد شجاع، المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ[٦]، لم يتخلَّف عن مشهد من مشاهده، وأدَّى واجبه في الجهاد في غزوات النبيِّ ﷺ وفي السرايا التي شهدها على أحسن وجه يؤديه المجاهدون الصَّادقون.

❑ قائد السرية

يبدو أنَّ شجاعًا أبدى كفايةً عالية في تلك الغزوات والسَّرايا التي شهدها، فأمَّره النبيُّ ﷺ على سريةٍ مؤلَّفة من أربعة وعشرين رجلًا، في شهر ربيع الأوَّل من سنة ثمانٍ الهجريَّة، وجَّهها ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ إلى جمعٍ من بني هَوَازن بـ«السِّيِّ»[٧] من

---

(١) الاستبصار (١٨٤، ١٨٥).
(٢) مغازي الواقدي (١/١٥٤)، وسيرة ابن هشام (٢/٣٢٦)، وجوامع السيرة (١١٦)، والدرر (١٢٢).
(٣) أنساب الأشراف (١/٢٠٠)، وجوامع السيرة (١١٦)، والاستيعاب (٢/٧٠٧)، وأُسْد الغابة (٢/٣٨٦).
(٤) الغمر: هو ماء لبني أسد، على ليلتين من (فَيْد)؛ انظر: طبقات ابن سعد (٢/٦١).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٥٥٠).
(٦) الاستيعاب (٢/٧٠٧)، وأُسْد الغابة (٢/٣٨٦).
(٧) السِّيُّ: موضع من أرض بني عامر من ناحية «ركبة» من وراء «المعدن»، وهي على خمس ليالٍ من المدينة المنوَّرة؛ انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٢٧)، وانظر: معجم البلدان (٥/٢٠٣، ٢٠٤).

أرض بني عامِر من ناحية «رُكْبَة»[١] من وراء «المَعْدِن»[٢]، وهي من المدينة المنوَّرة على خمس ليالٍ، وأمره النبيُّ ﷺ أن يُغير عليهم.

وخرج شجاع من المدينة المنوَّرة على رأس سريَّته، فكان يسير اللَّيل ويكمُن النَّهار، حتى صبَّحهم وهم غارون، وكان قد أمر أصحابه قبل ذلك ألَّا يُمْعِنُوا في الطَّلب، فأصابوا نَعَمًا كثيرًا وشاءً، فاستاقوا ما غنموا حتى قدموا بالغنائم المدينة المنوَّرة.

واقتسم رجال شجاع الغنيمة، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيرًا لكلِّ رجل، وعدلوا البعير بعشرة من الغنم.

وغابت السرية في مهمَّتها خمس عشرة ليلة[٣]، منذ غادرت المدينة حتى عادت إليها منتصرة غانمة سالمة.

وأصابت السريَّة في الحاضر[٤] نُسوة، فاستاقوهنَّ، حتى قدم وفد بني هَوَازِن مُسلمين، فكلَّموا رسول اللَّه ﷺ في السَّبْيِ، فكلَّم النبيُّ ﷺ شجاعًا ورجاله في ردِّهنَّ إلى ذويهنَّ، إلَّا جارية وضيئة كان شجاع قد أخذها لنفسه بثمن، فأصابها. فلما قدم وفد بني هوازن، خيَّرها شجاع بين المقام معه والرَّحيل مع أهلها، فاختارت المقام عند شجاع، فلقد قُتِل يوم «اليَمَامة» وهي عنده، ولم يكن له منها وَلَد[٥]، وكان يوم اليمامة في السنة الحادية عشرة الهجرية بين المسلمين بقيادة

---

(١) ركبة: ماء بين «غمرة» و«ذات عرق» بناحية «السّيّ»؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٢٧٨/٤، ٢٧٩).

(٢) المعدن: قرية بين مكة والطائف، يقال لها: معدن البُرْم، كثيرة النخيل والزرع؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٩٤/٨).

(٣) مغازي الواقدي (٧٥٣/٢، ٧٥٤)، وطبقات ابن سعد (١٢٧/٢)، وأنساب الأشراف (٣٨٠/١)، وعيون الأثر (١٥٢/٢).

(٤) الحاضر: القومُ النُّزولُ على ماء يقيمون به ولا يرحلون. والحَيُّ إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم، والمقيم في الحضر.

(٥) مغازي الواقدي (٧٥٦/٢).

خالد بن الوليد وبين المرتدين بقيادة مُسَيْلَمة الكذَّاب، وذلك في صدر خلافة أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبعد التحاق النبيِّ ﷺ بالرفيق الأعلى[1].

لقد أدَّى شجاع في قيادة هذه السرية واجبه بشكل متميِّز، فسلم وغنم، وانتصر على عدوِّه وأثَّر في معنويات هوازِن أثرًا بالغًا.

وقد أسلم قسم من هوازِن، وقصدوا النبيَّ ﷺ، وأعلنوا إسلامهم على يديه.

❑ السَّفير إلى الغَساسنة

بعث النبيُّ ﷺ قبل الفتح «**فتح مكَّة**» وبعد الحُدَيْبية رسله إلى الملوك[2] والرؤساء، وذلك في شهر ذي الحجَّة سنة ست الهجرية[3]، فبعث من جملة مَنْ بعث إليهم شجاع بن وَهْب الأسديَّ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّانيِّ يدعوهم إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا.

قال شجاع: «**فأتيتُ إليه وهو بـ«غُوْطَة»** دِمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر «**هِرَقل**» وهو جاءٍ من حِمْص إلى إيلِيَاء «**القُدس**»، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسولِ اللَّه ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبُه - وكان روميًّا اسمه مُرَي - يسألني عن رسول اللَّه ﷺ، فكنت أحدِّثه عن صفة رسول اللَّه ﷺ وما يدعو إليه، فيرقُّ حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قد قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبيِّ ﷺ بعينه، فأنا أؤمن به وأصدِّقه وأخاف من الحارث أن يقتلني.

وكان يكرمني ويحسن ضيافتي.

«**وخرج الحارث يومًا، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول اللَّه ﷺ، فقرأه، ثمَّ رمى به، وقال: مَنْ ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر**

---

(١) انظر: التفاصيل في «ابن الأثير» (٢/٣٦٠ - ٣٦٧).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨)، وجوامع السيرة (٢٩).

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨)، والطبري (٢/٦٤٤)، وانظر: سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨).

إليه ولو كان باليَمَن جئته، عليَّ بالناس! فلم يزل يفرض حتى قام، وأمر بالخيول تنعل، ثمَّ قال: أخبر صاحبك ما ترى!».

«وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: ألَّا تسير إليه، والْه عنه ووافني بإيلياء. فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غدًا! فأمر لي بمئة مثقال ذهب، ووصلني مُرَيٌّ، وأمر لي بنفقة وكسوة، وقال: أقرِئْ رسول اللَّه ﷺ مني السَّلام، فقدمت على النبيِّ ﷺ، فأخبرته، فقال: بادَ ملكه، وأقرأته من مُرَيٍّ السَّلام وأخبرته بما قال، فقال رسول اللَّه ﷺ: صَدَقَ»، ومات الحارث بن شمر عام الفتح[١].

وكان نصُّ رسالة النبيِّ ﷺ إلى الحارث:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

من: محمَّد رسول الله.

إلى: الحارث بن أبي شَمِر.

سلام على مَنْ اتَّبع الهدى وآمنَ باللَّه وصَدَّق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن باللَّه وحدَه لا شريك له يَبقى مُلكك[٢].

علامة الختم
الله
رسول
محمد

فقدم عليه شجاع بن وَهْب، فقرأه عليه، فقال: **«ومَنْ ينتزع ملكي؟! إني سأسير إليه»**[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد (١/ ٢٦١، ٣/ ٩٤، ٩٥)، وانظر: ابن الأثير (٢/ ٢١٣)، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٦٨)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/ ٦٣).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٦٨)، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٦٢، ٦٣)، للاطلاع على مصادر ومراجع نصِّ الرسالة النبوية فيها.

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٢٦٨).

لقد استطاع شجاع، أن يصل إلى ملك الغساسنة، الحارث بن أبي شَمِر، في ظروف صعبة للغاية، إذ كان في شغل شاغل باستقبال قيصر الرُّوم، في طريقه إلى القدس؛ شكرًا لله على نصره المؤزر على الفُرس في معارك طاحنة، فقدَّم شجاع رسالة النبيِّ ﷺ إلى ملك الغساسنة، ودعاه إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونجح في التأثير في حاشية الملك، فأسلم حاجبه الذي كان من أقرب المقربين إليه، وأعلن إسلامه برسالته الشفهية إلى النبيِّ ﷺ، التي نقلها شجاع.

ولا بدَّ أنَّ شجاعًا بأسلوبه الحصيف داعيًا إلى اللَّه قد أثر في غير هذا الحاجب الذي أعلن إسلامه.

وقد استشهد شجاع يوم اليمامة، وكان من جند خالد الشجعان سنة إحدى عشرة الهجرية (٦٣٢م).

لم يبخل بروحه على عقيدته، فسقط شهيدًا في قتال المرتدين، فكان استشهاده واستشهاد غيره من المسلمين، هو الذي جعل المسلمين يحرزون النَّصر على أعدائهم المتفوقين عليهم عَدَدًا وعُدَدًا.

وبأمثال شجاع بن وهب، يستنزل النَّصر، وبتضحيته وتضحية أمثاله في سبيل عقيدتهم، أحرز المسلمون النصر، وارتفعت رايات الإسلام والمسلمين شرقًا وغربًا.

❏ **القائد**

على الرَّغم من تفوُّق بني هَوَازن بالعَدَد والعُدَد على سريَّة شجاع تفوُّقًا ساحقًا، إلَّا أنَّ شجاعًا استطاع مباغتة عدوِّه، بالزمان الذي لم يكونوا يتوقَّعون أن يُهَاجموا فيه، وبالأسلوب الذي كان سريعًا صاعقًا، فشلَّ بذلك إرادة العدو على القتال، وشلَّ بذلك تفكيره الصائب، وتركه يتخبط في فوضى الارتباك والتردُّد، وبذلك استطاع أن يكبِّده خسائر فادحة بالأرواح والأموال والسَّبي، في وقت خاطف قصير جدًّا.

والمباغتة أهمُّ مبدأ من مبادئ الحرب كما هو معروف.

ولم يقتصر شجاع على تطبيق مبدإ المباغتة، بل طبَّق أكثر مبادئ الحرب الأخرى وأهمَّها، فقد طبَّق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، وكان مقصده حسب نص أمر النبيِّ ﷺ الذي أصدره إليه، هو الغارة على بني هَوَازن، فنفَّذ شجاع هذا المقصد الواضح الجليَّ، وأمر رجاله بألَّا يطاردوا العدو، حتى لا يتورَّط رجاله في مواقف ليست في الحسبان وليست في صالحهم.

كما طبَّق مبدأ التعرُّض، وكان قائدًا تعرُّضيًّا من الدرجة الأولى، بعيدًا عن اتِّخاذ أسلوب الدفاع في عملياته القتالية.

وقد طبَّق مبدأ الأمن، فلم يستطع العدو أن يباغت سريته قبل القتال أو في أثنائه أو بعده، واستطاع هو أن يباغت عدوَّه في الزمان والأسلوب، كما ذكرنا.

وطبَّق مبدأ الاقتصاد بالمجهود، فأمر بعدم مطاردة العدو، حتى لا يبذِّر في قوَّاته أو يتكبَّد خسائر في الأرواح دون مسوِّغ.

وطبَّق مبدأ الأمور الإدارية، فأمَّن لرجاله كلَّ ما يحتاجون إليه من مواد إداريَّة، بموجب خطَّة إدارية بسيطة مرنة، قابلة للتطبيق بسهولة ويُسر؛ لخلوِّها من التَّعقيد.

وطبَّق مبدأ إدامة المعنويات تطبيقًا رائعًا حقًّا، وما كان الهدف من سريته إلَّا لإدامة معنويات رجالها بخاصة والمسلمين بعامة، وإضعاف معنويات بني هوازن بخاصة والمشركين بعامة.

وكان صاحب قرار سريع صحيح، وذا شجاعة شخصية نادرة، وإرادة قوية نافذة، ونفسيَّة لا تتبدَّل في حالتي النَّصر والاندحار.

وكان يعرف نفسيات رجاله ومزاياهم وقابلياتهم، يثق بهم، ويثقون به، ويحبُّهم ويحبُّونه.

وكان موضع ثقة النبيِّ ﷺ وتقديره واعتزازه.

وكان ذا شخصيَّة قوية مسيطرة، وقابلية بدنية جيدة؛ لأنَّه كان شابًّا، وكان من ذوي الماضي المجيد.

وكان قائد عقائديًّا، يؤمن باللَّه إيمانًا راسخًا ويتوكَّل عليه توكُّلًا مطلقًا، مجاهدًا من الطراز الأوَّل، من أعز أمانيه نيل الشهادة، لا يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه ما دام عمله خالصًا في سبيل اللَّه ومن أجل إعلاء كلمة الله.

لقد كان شجاعٌ قائدًا متميِّزًا حقًّا.

فرضي اللَّه عن الصحابي البدري، القائد المنتصر، والمجاهد البطل الشهيد، والسفير الألمعيِّ، شجاع بن وهب الأَسَدِي.

* * *

٤٢

القائد الشهيد
كَعْب بن عُمَيْر الغفاري

٤٢

القائد الشهيد كَعْب بن عُمَيْر الغفاري

من كبار الصحابة[١]، جاهد تحت لواء الرسول ﷺ جهادًا صادقًا مثمرًا، فاستحق أن يتولى قيادة إحدى سرايا النبي ﷺ، وقد استشهد في السنة الثامنة الهجرية[٢].

❑ جهاده

بعثه النبيُّ ﷺ مرَّة بعد مرَّة أميرًا على السَّرايا[٣]، ولكن لم يسجِّل له أصحاب السِّير والمؤرخون غير سرية واحدة فقط.

فقد بعث رسول اللَّه ﷺ في شهر ربيع الأول من السنة الثامنة الهجرية كعبَ بن عُمَير الغِفَاري، في خمسة عشرَ رجلًا حتى انتهوا إلى «**ذات أَطْلَاح**»[٤] من أرض الشَّام، فوجدوا جمعًا كثيرًا من قُضَاعَة[٥]، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبْل. فلما رأى ذلك أصحاب النبيِّ ﷺ، قاتلوهم أشدَّ القتال حتى قُتِلوا، فأفلت منهم جريح في القَتْلى، فلما بَرَدَ عليه اللَّيل تحامل حتى أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره الخبر، فشقَّ ذلك على رسول اللَّه ﷺ، وهَمَّ بالبَعْث إليهم، فبلغه أنَّهم قد ساروا إلى موضع آخر، فتركهم[٦].

وكان كعب ـ في صفحة مسير الاقتراب من المدينة إلى ذات أطلاح ـ يكمن

---

(١) الإصابة (٣٠٧/٥)، والاستيعاب (١٣٢٣/٣)، وأُسْد الغابة (٢٤٦/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢)، ومغازي الواقدي (٧٥٢/٢)، وعيون الأثر (١٥٢/٢).

(٣) أُسْد الغابة (٢٤٦/٤)، والاستيعاب (١٣٢٣/٣).

(٤) ذات أطلاح: موضع من وراء وادي القرى إلى المدينة؛ انظر: معجم البلدان (٢٨٧/١).

(٥) انظر: الاستيعاب (١٣٢٣/٣).

(٦) مغازي الواقدي (٧٥٢/٢، ٧٥٣)، وطبقات ابن سعد (١٢٧/٢، ١٢٨)، وعيون الأثر (١٥٢/٢)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢٩٦/٤).

النَّهار ويسير اللَّيل، حتى دنا من قُضَاعة، فرآه عَينٌ لهم، فأخبرهم بقِلَّة أصحاب النبيِّ ﷺ، فجاءوا على الخيول وقتلوهم[١]، وكانت قُضَاعة هي التي قتلتهم[٢].

وفي رواية أنَّ كعب بن عُمَير جُرِح، فتحامل حتى بلغ المدينة[٣]، وما تحامل كعب، بل تحامل أحد رجاله، والإجماع على أنَّه قتل في هذه السرية[٤].

لقد حاول كعب أن يباغت قضاعة، فكمن نهارًا، وسار ليلًا، فأدَّى الذي عليه من واجب الكتمان لمباغتة عدوِّه، وتحقيق هدفه بالمباغتة، ولكن أحد عيون قضاعة رأى سرية كعب واكتشف أنَّها قليلة العدد، بعيدة المدد، فأنذر قومه بالذي رآه واكتشفه، فتكاثر العدد على السريَّة القليلة، التي استماتت في القتال، حتى استُشهد أفرادها وعلى رأسهم قائدها.

وكان من الصَّعب أن يحول كعب بين أحد عيون قضاعة، وبين الذي حدث، في البيداء الشاسعة، وسط مجتمع يتشابه أفراده لغة وشكلًا وثيابًا، في ظروف غير اعتيادية هي ظروف الحرب بين المسلمين من جهة والمشركين من جهة أخرى، فاستطاعت الفئة المتفوِّقة عَدَدًا وعُدَدًا، أن تبيد الفئة القليلة؛ لأنَّ الصراع كان بين فئتين غير متكافئتين، ولأنَّ التفوق العُدَدي بالسِّلاح والخيل كان إلى جانب العدو، ولأنَّ العدو كان يقاتل في بلده مستندًا على قاعدته، بينما كان يقاتل المسلمون بعيدًا عن المدينة «**قاعدتهم**»، فكانت المزايا العسكرية، كلُّها تقريبًا، إلى جانب المشركين، فانتصروا على المسلمين الذين اعتمدوا المباغتة لإحراز النصر، ففقدوا تلك المباغتة بانكشاف أمرهم في نيَّتهم وفي عَدَدهم، فلم يبق أمامهم إلَّا أن ينالوا الشَّهادة، إذ خسروا إحدى الحُسْنَيَيْنِ «**النَّصر**»، فلم يبق أمامهم إلَّا إحدى الحسنيين

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٥٣).
(٢) أُسْد الغابة (٤/٢٤٦)، والاستيعاب (٣/١٣٢٣).
(٣) الإصابة (٥/٣٠٧).
(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/٤١)، والمحبر (١٢٠)، والإصابة (٥/٣٠٧)، والاستيعاب (٣/١٣٢٣)، وأُسْد الغابة (٤/٢٤٦).

التي لا تقلُّ أجرًا عن الأولى، وهي الشَّهادة.

فضحَّوا بأرواحهم جميعًا؛ دفاعًا عن عقيدتهم، وآثروا الشهادة على الحياة.

وكان استشهاد كعب في السنة الثامنة الهجرية (٦٢٩م).

* * *

٤٣

القائد الشهيد.. ذو النور
الطُّفَيْل بن عَمرو الدَّوْسيُّ الأزديُّ

هادم ذي الكَفين «صنم قومه»

٤٣

القائد الشهيد.. ذو النور

الطُّفَيْل بن عَمرو الدَّوْسيّ الأزديّ

هادم ذي الكفين «صنم قومه»

هو الطُّفَيْل بن عمرو بن طَرِيْف بن العاص بن ثَعْلَبَة بن سُلَيْم بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس بن عُدْثَان بن عبداللَّه بن زَهْران بن كَعْب بن الحارث بن كَعْب بن عبداللَّه بن مالك بن نَصْر بن الأَزْد[١].

وكان إسلام الطُّفيل في مكَّة بعد رجوع النبيّ ﷺ من الطَّائف بعد دعوة ثقيف إلى الإسلام ورفضهم الإيمان برسالته[٢]. وكان ذلك في السنة العاشرة من بعثة النبي ﷺ. وأمره رسول اللَّه ﷺ بدعاء قومه إلى الإسلام، فقال: «**يا رسول الله! اجْعَلْ لي آية تكون لي عَوْنًا**»، فدعا له رسول اللَّه ﷺ، فجعل اللَّه في وجهه نورًا، فقال: «**يا رسول الله! إني أخاف أن يجعلوها مُثْلَة**»، فدعا له رسول اللَّه ﷺ، فصار النُّور في سَوْطه، وكان يضيء في الليلة المظلمة، فهو معروف بذي النور[٣].

وخرج الطُّفيل إلى قومه، فلما جاءهم ونزل أتاه أبوه، وكان شيخًا كبيرًا، فقال لأبيه: «**إِلَيْكَ عني يا أبتِ، فلستُ منك ولستَ مني**»، فقال أبوه: «**لِمَ يا بُنَيَّ؟**»، فقال: «**أسلمتُ وتابعتُ دين محمَّد ﷺ**»، فقال أبوه: «**أَيْ بنيَّ! فديني دينُك**»، فقال: «**فاذهب فاغتسل وطهِّر ثيابك، ثم تعال حتى أُعلِّمك ما عُلِّمْتُ**»، فذهب

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٣٧/٤)، والإصابة (٢٨٦/٣)، وأُسْد الغابة (٥٤/٣).

(٢) الدرر (٦٨)، وجوامع السيرة (٦٧).

(٣) الدرر (٦٨)، وجوامع السيرة (٦٧)، وانظر: سيرة ابن هشام (٤٠٨/١)، وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٣٨)، وأُسْد الغابة (٥٤/٣)، والاستيعاب (٧٦٠/٢، ٧٦١).

فاغْتَسَلَ وطهَّر ثيابه، ثمَّ عرض الطُّفيل الإسلام على أبيه، فأسلم[١].

ثم أتت صاحبة الطُّفيل، فقال لها: «**إليك عني، فلستُ منك ولستِ مني!**»، فقالت: «**ولِمَ بأبي أنتَ وأُمِّي؟**»، فقال: «**فرَّق بيني وبينك الإسلامُ، وتابعت دينَ محمَّد ﷺ**»، فقالت: «**فديني دينك**»، فقال: «**فاذهبي إلى حِسْي[٢] ذي الشَّرى[٣] فتطهَّري منه**»، فذهبت واغتسلت، ثم جاءت، فعرض عليها الطفيل الإسلام، فأسلمت[٤].

ولكنَّ أُمَّ الطُّفيل لم تُسْلم.

ودعا قومه فأجابه أبو هُرَيْرَة رضي الله عنه وحده[٥].

وأبت دَوْس وتعاصت على الطُّفيل، فقدم على رسول اللَّه ﷺ مكَّة قبل أن يهاجر إلى المدينة، ومعه أبو هُرَيْرة، فقال: «**يا رسول الله! غلبَ على دوس الزِّنا، والرِّبا، فادْعُ اللَّه عليهم**»[٦].

قال أبو هريرة: جاء الطُّفيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقال: إن دَوسًا قد هلكت، عصت وأبت، فادع اللَّه عليهم. فقال: «**اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم**»[٧].

وخرج الطُّفيل إلى قومه، فلم يزل بأرض دَوْس يدعوها حتى هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة.

ومضى يوم بَدْرٍ، وأُحُد، والخَنْدق، والطُّفيل بأرض قومه يدعوهم إلى الإسلام، حتى قدم على رسول اللَّه ﷺ بمن أسلم من قومه ورسول اللَّه ﷺ بغزوة خَيْبَر[٨]،

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٤٠٨، ٤٠٩)، وطبقات ابن سعد (٤/٢٣٨).
(٢) الحسي: السهل من الأرض يستنقع فيه الماء، والرمل تحته صلابة فيه ماء.
(٣) ذو الشرى: صنم دَوْسٍ.
(٤) سيرة ابن هشام (١/٤٠٩)، وطبقات ابن سعد (٤/٢٣٨).
(٥) الإصابة (٧/٢٨٧).
(٦) الإصابة (٣/٢٨٧).
(٧) أخرجه البخاري (٤٣٩٢)، كتاب المغازي - باب - قصة دوس والطفيل بن عمرو.
(٨) طبقات ابن سعد (٤/٢٣٩)، وسيرة ابن هشام (١/٤٠٩، ٤١٠).

حتى نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دَوْس[١]، أو تسعين أهل بيت من دَوْس[٢]، ثم لحقوا برسول اللَّه ﷺ بخَيْبَر، فأسهم لهم مع المسلمين[٣]، فقد قدم أبو هرَيرة والطُّفيل وأصحابهم الدَّوسيون، فكلَّم رسول اللَّه ﷺ أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة، ففعلوا[٤].

وهكذا هدى اللَّه مَنْ هدى إلى الإسلام من دَوْس على يدي الطُّفيل[٥]، وعلى يدي جُنْدُب بن عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسِيِّ، وكان جُنْدُب هذا يقول في الجاهليَّة: «**إنْ للخلق خالقًا، لكن لا أدري مَنْ هو!**»، فلما سمع بخبر النبيِّ ﷺ خرج ومعه خمسة وسبعون رجلًا من قومه، فأسلم وأسلموا، وكان يقدِّمهم لرسول اللَّه ﷺ رجلًا رجلًا، وكان أبوه عمرو بن حَمَمَة حاكمًا على دَوْس ردحًا طويلًا[٦].

❑ قائد السريَّة لهدم ذي الكَفَّيْن

شهد الطُّفيل بعد خَيْبَر - التي كانت في شهر المحرَّم من السنة السَّابعة الهجريَّة - عُمَرَة القضاء التي كانت في ذي القعدة من السنة السَّابعة الهجرية، وشهد غزوة فتح مكة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية[٧].

ولما افتتح رسول اللَّه ﷺ حُنَيْنًا التي كانت في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجرية، وأراد المسير إلى الطَّائف، بعث الطُّفيل إلى ذي الكَفَّيْن[٨] - صنم عمرو ابن حَمَمَة - يهدمه، وأمره أن يستمدَّ قومه ويوافيه بالطائف. فقال الطُّفيل: «يا

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٤٤٠)، وطبقات ابن سعد (٤/٢٣٩)، وأُسْد الغابة (٣/٥٥)، وجوامع السيرة (٦٧).
(٢) الاستيعاب (٢/٧٦١)، والبداية والنهاية (٦/٣٣٧).
(٣) أُسْد الغابة (٣/٥٥).
(٤) مغازي الواقدي (٢/١٨٣).
(٥) البداية والنهاية (٦/٣٣٧).
(٦) الإصابة (٣/٢٨٧).
(٧) الإصابة (٣/٢٨٧).
(٨) ذو الكفين: صنم لدوس ثم لبني مُنهب. انظر: كتاب الأصنام، للكلبي.

رسول الله! أوْصِني»، قال: «أفشِ السَّلام، وابذُل الطعام، واسْتَحْي من اللَّه كما يستحي الرَّجل ذو الهَيْئَة من أهله، إذا أسأْتَ فأحسن ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]»، فخرج الطُّفيل سريعًا إلى قومه(١)، وكان ذلك في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجريَّة. وهدم الطُّفيل ذا الكفَّين وجعل يَحشو النار في جوفه ويقول:

يا ذا الكفَّين لستُ من عُبَّادِكا ميلادنا أَقْدَمُ من ميلادِكا
إني حَشَوْتُ النَّار في فؤادِكا

وأسرع معه قومه، فانحدر منهم أربع مئة، فوافوا النبيَّ ﷺ(٢) بالطَّائف بعد مُقَامِه بأربعة أيام، فقدم بدَبَّابةٍ ومَنْجنيق(٣)، واستعملهما في حصار الطائف.

وكان الصَّنم ذو الكفين من خشب(٤)، فلما أحرقه الطُّفيل بانَ لمن بقي ممَّن تمسَّك به أنَّه ليس على شيء، فأسلموا جميعًا(٥)، وانتهى أمر الشِّرك في دَوْس إلى الأبد.

❑ الشَّهيد

عاد الطُّفيل مع النبيِّ ﷺ من غزوة الطَّائف إلى المدينة المنوَّرة، فكان معه بالمدينة حتى قُبض - عليه الصَّلاة والسَّلام -.

فلما ارتدَّت العرب خرج مع المسلمين، فجاهدَ حتى فرغوا من طُلَيْحَة الأَسَدِيِّ وأرض نجدٍ كلِّها.

ثم سار إلى اليمامة، فاستُشهد في تلك المعركة، وكان معه ابنه عمرو بن الطُّفيل

---

(١) مغازي الواقدي (٣/٩٢٢، ٩٢٣).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٥٧)، ومغازي الواقدي (٣/٩٢٣)، وسيرة ابن هشام (١/٤١٠)، وعيون الأثر (٢/٢٠٠)، وانظر: أنساب الأشراف (١/٣٨٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٥٧)، ومغازي الواقدي (٣/٩٢٣).
(٤) طبقات ابن سعد (٤/٢٣٩).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/٢٤٠).

الذي قُطعت يده[١] في تلك المعركة، وكان ذلك سنة إحدى عشرة الهجرية، وكانت معركة اليمامة بين المسلمين من جهة ومُسَيْلَمَة الكذاب من جهة ثانية، وكان المسلمون بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد جرت المعركة في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

«وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب أن الطفيل بن عمرو استشهد بأجنادين في خلافة أبي بكر، وكذا قال أبو الأسود عن عروة، وجزم ابن سعد بأنه استشهد باليمامة، وقيل: باليرموك»[٢].

واستبَلَّ عمرو بن الطُّفيل وصحَّت يده، فبينما هو عند عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إذ أُتي بطعام، فتنحَّى عنه، فقال عمر: «ما لك! لعلَّك تَنَحَّيتَ لمكان يدك؟»، قال: «**أجل!**»، قال: «واللَّه لا أذوقه حتى تَسوطه بيدك، فواللَّه ما في القوم بَعْضُه في الجنَّة غيرك». ثم خرج عمرو بن الطُّفيل عام اليرموك في خلافة عمر بن الخطَّاب، فقُتل شهيدًا[٣].

ولعلَّ من الطَّريف، أن نذكر أنَّ الطُّفيل ـ كما ذكرت معظم المصادر الموثوقة التي تحدّثت عنه ـ رأى رؤيا وهو متوجِّهٌ إلى اليمامة، فقال لأصحابه: «إني قد رأيت رؤيا فاعْبُروها لي[٤]؛ رأيت أنَّ رأسِيَ حُلِقَ، وأنَّه خَرَجَ من فمي طائر، وأنَّه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وكأنَّ ابني يطلبني حَثِيثًا، فَحِيل بيني وبينه»، فقالوا: خيرًا، فقال: «**أما أنا واللَّه فقد أوَّلتُها: أما حلق رأسي فقطْعُه، وأما الطَّائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها، فالأرض تُحْفَر لي وأُدْفَنُ فيها، فقد رَجَوْت أن أُقْتل شهيدًا، وأما طلب ابني إياي فلا أراه إلَّا سيغدو في طلب الشَّهادة، ولا أراه يلحق بي في سفرنا هذا**»، فقُتل الطُّفيل شهيدًا يوم اليمامة،

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٤٠).
(٢) فتح الباري (٧/٧٠٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٤٠).
(٤) عَبَّرَ الرؤيا يعبرها ـ من باب نصر ـ: فسرها.

وجرح ابنه، ثم قتل ابنه باليرموك بعد ذلك في زمن عمر بن الخطَّاب ﵁ شهيدًا.

❑ الطفيل القائد

كان الطُّفيل رئيسًا من رؤساء دَوْس، كما أنَّه مبعوث النبيِّ ﷺ إليها، فاهتدى على يديه بين سبعين عائلة وتسعين عائلة من عوائلهم حتى غزوة خَيْبَر، فهاجر بهم إلى المدينة المنوَّرة، وبعد فتح مكة بادر الطُّفيل بالمطالبة بتوليته إحراق صنم دَوْس الخشبيِّ؛ لتعلم أنَّه لا يضرُّ ولا ينفع، فولَّاه النبيُّ ﷺ سرية من سراياه استطاعت إحراق هذا الصنم، فلم يبق أحد في دَوْس إلَّا وأعلن إسلامه وانخرط في جيش المسلمين، فقاد الطُّفيل دَوْسًا في حصار الطائف وفي حروب الرِدَّة، حتى استُشهد ﵁.

وهو بدون شكٍّ له تجربة عمليَّة في الحرب، وعلومه العسكرية المكتسبة لا غبار عليها.

ولا يمكن تقدير: هل كان قائدًا موهوبًا أم لا؟ لأنَّه لم يَقُد معارك حاسمة تثبت موهبته العسكرية.

وصفاته القياديَّة لا تختلف كثيرًا عن غيره من قادة النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه خريج مدرسة النبوَّة القياديَّة وله نفس المزايا والخصال التي تميِّز غيره، وعاش في نفس البيئة العربية الإسلامية في نفس المنطقة العربية، منطقة شبه الجزيرة العربية، وهو وهم من أصل واحد، هو العرب.

وحسبه أن يكون أحد قادة سرايا النبيِّ ﷺ وأحد شهداء المسلمين الأولين.

ونختم مسيرتنا مع ذي النور، هادم ذي الكفين، القائد الشهيد، الطفيل بن عمرو الدوسي بما قاله يخاطب قريشًا، وكانوا قد هدَّدُوه لما أسلم:

ألا أَبْلِغْ لديكَ بني لُؤَيٍّ ... على الشَنآن والغَضَب المُرَدِّ
بأَنَّ اللهَ ربُّ النَّاس فردٌ ... تَعالى جدُّه عن كلِّ جدِّ
وأن محمَّدًا عَبْدٌ رسولٌ ... دليل هدى موضح كلِّ رشد
وأن اللهَ جَلَّلَهُ بهاءً ... وأعلى جَدَّه عن كل جد

٤٤

القائد العَقبِيُّ البدريُّ

قُطْبَة بن عامِر بن حَدِيدَة الأنصاريُّ الخزرجيُّ

(٤٤)

القائد العَقبيُّ البدريُّ

قُطْبَة بن عامِر بن حَدِيدَة الأنصاريُّ الخزرجيُّ

هو قُطْبَة بن عامِر بن حَدِيدَة بن عمرو بن سَوَاد بن غَنْم بن كَعْب بن سَلِمَة[١]، الأنصاري، الخَزْرَجِيُّ السَّلِمِي، يكنى: أبا زيد[٢][٣].

هو أحد الستة السابقين الذين أسلموا من الخزرج، فقطبة من الستة النفر الذين يروى أنهم أول من أسلم من الأنصار بمكة ليس قبلهم أحد[٤].

وقد شهد قطبة بيعة العَقَبتين جميعًا في روايتهم كلهم[٥]، لا خلاف في ذلك[٦].

في الغزوات والسرايا

١ـ شهد قطبة سرية حمزة بن عبد المطَّلب عمِّ النبيِّ ﷺ، وهو أوَّل لواء عقده النبيُّ ﷺ، وكانت في رمضان من السنة الأولى الهجريَّة، في ثلاثين راكبًا من المهاجرين في رواية[٧]، وفي خمسة عشر من المهاجرين وخمسة من الأنصار في رواية أخرى، من بينهم قُطْبَة[٨].

(١) سيرة ابن هشام (٤١١/١)، وأُسْد الغابة (٥٥/٣)، والبداية والنهاية (٣٣٧/٦).
(٢) الإصابة (٢٨٧/٣، ٢٨٨)، وتهذيب ابن عساكر (٦٢/٧).
(٣) أُسْد الغابة (٢٠٥/٤)، والاستيعاب (١٢٨٢/٣).
(٤) طبقات ابن سعد (٥٧٨/٣).
(٥) طبقات ابن سعد (٥٧٨/٣).
(٦) أُسْد الغابة (٢٠٥/٤).
(٧) طبقات ابن سعد (٦/٢).
(٨) مغازي الواقدي (٩/١).

٢- وشهد غزوة «**بَدْرٍ**» الكبرى الحاسمة[١] التي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجريَّة[٢].

وكان مع المسلمين سبعون بعيرًا، وكانوا يتعاقبون الإِبل: الاثنين، والثلاثة، والأربعة، وكان خِراش بن الصِّمَّة، وقطبة، وعبدالله بن عمرو بن حَرام على بعير[٣]، وذلك مسير الاقتراب من المدينة إلى موقع بَدْرٍ.

ورمى يوم بدرٍ حجرًا بين الصفين، وقال: «**لا أفِرُّ حتى يفرَّ هذا الحجر**»[٤].

وقد أَسَرَ قطبة في هذه الغزوة مالكَ بنَ عُبَيْد الله[٥] بن عثمان أخا طلحة بن عُبَيْد الله من بني تَيْم[٦] من قريش.

٣- وشهد غزوة «**أُحُد**»[٧] التي كانت في شهر شوال من السنة الثالثة الهجريَّة[٨]، وكان أحد الرماة من أصحاب النبيِّ ﷺ الذين برزوا في تلك الغزوة[٩]، وقد جرح يوم أُحد تسع جراحات[١٠]، فلم تمنعه جراحاته من المبادرة إلى الخروج في اليوم التالي من يوم «**أُحُد**» مع النبيِّ ﷺ إلى «**حَمْراء الأسد**»[١١]، فشهد معه تلك الغزوة[١٢].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٤٦/٢)، والدرر (١٣٣)، وجوامع السيرة (١٣٨).
(٢) طبقات ابن سعد (١٢/٢).
(٣) مغازي الواقدي (٢٤/١).
(٤) أُسْد الغابة (٢٠٦/٤).
(٥) ورد في مغازي الواقدي (١٤٠/١): مالك بن عبدالله بن عثمان. والصواب: مالك بن عبدالله.
(٦) أنساب الأشراف (٣٠٢/١).
(٧) طبقات ابن سعد (٥٧٨/٣).
(٨) طبقات ابن سعد (٣٦/٢).
(٩) مغازي الواقدي (٢٤٣/١)، وأنساب الأشراف (٣٢٣/١).
(١٠) طبقات ابن سعد (٥٧٩/٣).
(١١) حمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة، إليه انتهى رسول الله ﷺ في طلب المشركين بعد يوم أحد مباشرة؛ انظر: معجم البلدان (٣٣٧/٣).
(١٢) مغازي الواقدي (٣٣٥/١).

٤ـ وشهد غزوة «**الخندق**»[١] التي كانت في شهر شوَّال من السنة الخامسة الهجرية[٢]، كما شهد ـ فارسًا ـ غزوة بني قُرَيْظَة وهم يهود[٣]، وكانت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة الهجرية[٤].

٥ـ وشهد معركة «**مؤْتَة**» التي كانت في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجريَّة[٥]، فلما استُشهد القادة الثلاثة بالتعاقب؛ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبداللَّه بن رَوَاحة، وكانت الهزيمة وقُتل المسلمون، جعل قطبة يصيح: «**يا قوم! يُقْتَل الرَّجل مُقْبلًا أحسن من أن يُقْتَل مُدْبِرًا**»، يصيح بأصحابه فما يتوجه إليه أحد[٦].

٦ـ وشهد غزوة فتح مكَّة، فعقد النبيُّ ﷺ الألوية والرايات في «**قُدَيْد**»، فجعل راية بني سَلِمَة مع قُطْبَة[٧].

٧ـ تلك هي الغزوات والسرايا التي ورد ذكر قطبة فيها.

والواقع أنَّه شهد المشاهد كلَّها مع رسول اللَّه ﷺ[٨]، لم يتخلَّف عنه في مشهد من مشاهده، بالإضافة إلى السرايا التي شهدها مع قادة السرايا الآخرين.

❑ قائد السريَّة

ولَّى النبيُّ ﷺ في صفر سنة تسع الهجرية قُطبة على سرية مؤلفة من عشرين رجلًا[٩] إلى حَيٍّ من خَثْعَم بناحية «**بِيشَة**»[١٠] قريبًا من «**تُرَبَة**»[١١] بناحية

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٧٨/٣).

(٢) جوامع السيرة (١٨٥)، والدرر (١٧٩).

(٣) مغازي الواقدي (٤٩٨/٢).

(٤) مغازي الواقدي (٤٩٦/٢).

(٥) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢).

(٦) مغازي الواقدي (٧٦٣/٢).

(٧) مغازي الواقدي (٨٠٠/٢، ٨٠١)، وطبقات ابن سعد (٥٧٩/٣).

(٨) أسْد الغابة (٢٠٦/٤)، وطبقات ابن سعد (٥٧٨/٣).

(٩) طبقات ابن سعد (١٦٢/٢).

(١٠) بيشة: وادٍ يصب سيلُهُ من الحجاز حجاز الطائف، ثم ينصبُّ في نجد.

(١١) تُرَبَة: وادٍ بالقرب من مكة على مسافة يومين منها.

«تَبَالَة»[١]، في منطقة مدينة الطَّائف، وأمره أن يشنَّ الغارة عليهم، وأن يسير اللَّيل ويكمُن النَّهار، وأمره أن يغذَّ السير.

وخرجوا على عشرة أبْعِرَة يعتقبونها، قد غيَّبوا السِّلاح، فأخذوا على «**الفتْق**»[٢] حتى انتهوا إلى بطن «**مَسْحاء**»[٣]، فأخذوا رجلًا فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضِر[٤]، فضرب قُطْبَة عنقه.

وأقاموا حتى كان ساعة من اللَّيل، فأخرجوا رجلًا منهم طليعة، فوجد حاضِر نَعَمٍ، فيه النَّعَم والشَّاء، فرجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رآه.

وأقبل القوم يَدِبُّون دبيبًا يخافون الحَرَس، حتى انتهوا إلى الحاضر، وقد ناموا وهدءوا، فكبَّروا وشنُّوا الغارة.

وخرج إليهم رجال الحاضر، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، حتى كثرت الجراح في الفريقين.

وأصبحوا، وجاء الخَثْعَمِيُّون الدَّهْم[٥]، فحال بينهم سَيْلٌ أَتِيٌّ، فما قدر رجل منهم يمضي، حتى أتى قطبة على أهل الحاضر، فأقبل بالنَّعَم والشاء والنساء إلى المدينة، فكان سهامهم أربعة أربعة، والبعير بعشرة من الغنم، بعد أن خرج الخُمْسُ[٦].

وربما يتبادر إلى الأذهان، صعوبة تنقُّل النَّعَم والشاء والنساء من منطقة الطائف إلى المدينة المنورة؛ لأنَّ المسافة بين المنطقتين شاسعة جدًّا، ولكن الصعوبة في إخراج تلك الغنائم من منطقة خَثْعَم الذين كانوا من المشركين، أما ما حول خثعم من

---

(١) تبالة: بلدة بالقرب من الطائف؛ انظر: معجم ما استعجم (١٩١).

(٢) الفتق: قرية بالطائف، ومن مخاليف الطائف.

(٣) مسحاء: من مخاليف الطائف.

(٤) الحاضر: القومُ النُّزُولُ على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنها.

(٥) الدهم: العدد الكثير؛ انظر: النهاية (٣٨/٢).

(٦) مغازي الواقدي (٧٥٤/٢، ٧٥٥)، وطبقات ابن سعد (١٦٢/٢).

الطائف إلى المدينة المنورة، فكان قد انتشر الإِسلام في ربوعها، فلا يستطيع المشركون مطاردة المسلمين في مناطق إسلاميَّة، مما يسَّرَ لقطبة التنقُّل بسلام وأمن واطمئنان بين إخوته في الدين، بعيدًا عن المشركين.

لقد أدَّى قطبة واجبه في قيادة السرية حتى الأداء، فأغار على المشركين من خَثْعَم، وكبَّدهم خسائر بالأرواح والممتلكات، وباغتهم مباغتة كاملة بالزمان، إذ أغار عليهم في وقت لا يتوقعونه، فانتصرت سريته القليلة في عَدَدها على خَثْعَم الكثيرين عَدَدًا وعُدَدًا.

فكان قطبة بحق قائدًا متميزًا من قادة سرايا النبيِّ ﷺ.

وحسبه شرفًا أنَّه نال شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ، وشرف قيادة أحد سراياه في حياته المباركة.

وإذا كان القائد المثالي، لا بد أن تتوفَّر فيه ثلاث مزايا رئيسة: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية. فبالإِمكان أن نتبينَّ في قطبة مزيتين من تلك المزايا الثلاث، وهي التجربة العملية، فقد شهد غزوات النبيِّ ﷺ كافة وقسمًا من سراياه، وهي تجربة عملية طويلة مثمرة.

أما العلم المكتسب، فقد كان العربي يتعلَّم فنون القتال ويمارس تلك الفنون، فلما جاء الإِسلام أصبح تعلُّم تلك الفنون من تعاليم الإِسلام التي يُقْتَضى أن يطبِّقها كلُّ مسلم ويلتزم بها، ويبدو أنَّ قطبة بَزَّ أقرانه في الرَّمي، فكان من الرماة المعدودين من صحابة رسول اللَّه ﷺ الذين يشار إليهم بالبنان.

أما سماته القياديَّة الفرعية، فيبدو أنَّه كان سريع القرار وصحيحه، ذا شجاعة شخصية نادرة، وإرادة قوية ثابتة، يتحمَّل المسئولية ويحبُّها، ولا يلقيها على عواتق الآخرين، ذا نفسية لا تتبدل في حالتي النَّصر والاندحار، عارفًا بنفسيات رجاله وقابلياتهم، ويكلِّف كلَّ فرد منهم وفقًا لقابلياته.

وكان يطبِّق مبادئ الحرب، وبخاصة: المباغتة، أهمَّ مبادئ الحرب على

الإِطلاق، كما يطبِّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته. ومبدأ: التعرُّض، ومبدأ: المرونة، ومبدأ: التعاون، ومبدأ: الأمن.

فرضي اللَّه عن الصحابي البدري والقائد البطل قطبة بن عامر الخزرجي.

* * *

٤٥

القائد الشهيد.. شهيد البحر

عَلْقمةُ بن مُجَزِّز المُدْلِجِيُّ

٤٥

القائد الشهيد.. شهيد البحر

عَلْقمةُ بن مُجَزِّز المُدْلِجِيُّ

هو عَلْقَمَة بن مُجَزِّز بن الأَعْورَ بن جَعْدَة بن مُعَاذ بن عُتْوارةبن عمرو بن مُدْلِج[١] بن مُرَّة بن عبد مَنَاة بن كِنَانَة[٢]، الكِنَانِيُّ، المُدْلِجِيُّ[٣].

أبوه: مُجَزِّز المُدْلِجِيُّ، القائف[٤]، وإنما قيل له: مُجَزِّز؛ لأنَّه كلَّما أَسَرَ أسيرًا جَزَّ ناصيته[٥]، والذي سُرَّ النبيُّ ﷺ بقيافته[٦]، فقد روت عائشة أمُّ المؤمنين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -، أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها مسرورًا تبرق أسارير وجهه فقال: «**أَلَمْ تَرَيْ أنَّ مُجَزِّزًا مَرَّ على زيدٍ بن حارثة وأُسامة بن زيد قد غطَّيا رءوسهما وبدت أقدامهما، فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض**»[٧].

وأخوه: وَقَّاص بن مُجَزِّز، قتل في غزوة «**ذي قَرَد**»[٨] التي كانت في شهر ربيع الأول من السنة السَّادسة الهجريَّة[٩].

ووالد علقمة وأخوه كانا مُسْلِمَيْن، ولكن لا ندري متى أسلم علقمة، ولا متى أسلم أبوه وأخوه، إلَّا أنَّ علقمة سأل رسول اللَّه ﷺ أن يبعثه في آثار القوم الذين

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٨٧)، وأُسْد الغابة (٤/١٤)، والإصابة (٤/٢٦٧).

(٢) جمهرة أنساب العرب (١٨٧).

(٣) أُسْد الغابة (٤/١٤)، والإصابة (٤/٢٦٧).

(٤) القائف: مَنْ يُحسن معرفة الأثر وتَتَبُّعه.

(٥) أُسْد الغابة (٤/٣٠٣).

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٨٧).

(٧) أُسْد الغابة (٤/٣٠٣).

(٨) ذو قرد: ماء على ليلتين من المدينة، بينها وبين خيبر. انظر: معجم البلدان (٧/٥٠)، وانظر: سيرة ابن هشام (٤/٣١٧)، وأُسْد الغابة (٥/٨٩)، حول قَتْلِ وَقَّاصٍ في غزوة ذي قرد.

(٩) سيرة ابن هشام (٤/٣١٧).

قتلوا أخاه في غزوة ذي قَرَد؛ ليدرك ثأره فيهم[١]، مما يدلُّ على أن إسلامه كان قبل شهر ربيع الأول من السنة السَّادسة الهجرية، فلا بدَّ من أن يكون إسلامه قد تمَّ قبل فتح مكَّة، وقد أطلق بعض الرواة على علقمة أنصاريًّا بالمعنى الأعمِّ[٢]، وهذا دليل على أنَّه كان في المدينة مع الأنصار قبل فتح مكَّة.

ولم تذكر المصادر المعتمدة أنَّه تخلَّف عن النبيِّ ﷺ في غزواته بعد إسلامه.

وإغفال ذكر ما شهده من غزوات ليس دليلًا على أنَّه لم يشهدها، وبذلك نال علقمة شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيِّ ﷺ.

وقد اقتصرت المصادر على ذكر أنَّه شهد غزوة ذي قَرَد[٣]، ولم تفصِّل الغزوات الأخرى التي شهدها.

❑ قائد السريَّة إلى الحبشة

بلغ رسول اللَّه ﷺ، أنَّ ناسًا من الحبشة تَرَايَاهم[٤] أهل «**جُدَّة**»[٥]، فبعث في شهر ربيع الآخر من السنة التَّاسعة الهجريَّة سرية مؤلَّفة من ثلاث مئة مجاهد بقيادة عَلْقَمة بن مُجزِّز المُدْلِجيِّ.

وانتهى علقمة بمن معه إلى جزيرة في البحر، وقد خاض إلى الحبشة البحر، فهربوا منه، فرجع هو وأصحابه ولم يَلْقَ كَيْدًا.

وفي طريق عودة علقمة، تعجَّل بعض القوم إلى أهلهم، فأَذِنَ لهم، فتعجَّل عبداللَّه بن حُذَافة السَّهْمِيُّ فيهم، فأَمَّرَهُ على مَنْ تَعَجَّل.

لقد كان الحبشة يعتبرون غزو بلاد العرب نزهةً من النزهات، فكان لهم شأن في اليمن، وكان لهم شأن في مكَّة عام الفيل سنة مولد النبيِّ ﷺ (٥٧١م)، وكان

---

(١) الإصابة (٤/٢٦٧).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/٣١٧).
(٣) تراياهم؛ أي: نظروهم ورأوهم؛ انظر: شرح المواهب اللدنية (٣/٥٨).
(٤) جُدَّة: بلدة على ساحل البحر الأحمر الحجازي، وهي فرضة مكة، بينها وبين مكة ثلاث ليال.

ذلك قبل الإِسلام.

أما بعد الإِسلام، فقد أصبح الأمر مُختلفًا جدًّا، فلم يبق في بلاد العرب نفوذ أجْنَبِيٌّ، وما محاولة الحبشة في السنة التَّاسعة الهجرية التي تصدَّى لها علقمة، إلَّا إحدى المحاولات التي باءت بالإخفاق الذريع.

وكان علقمة أحد الحماة القادرين الذين تصدَّوا للغزو الأجنبيِّ، فقنع الغزاة بدلًا من الغنيمة بالهزيمة، ومن الاستيطان بالإياب.

❑ **جهاده بعد النبيِّ ﷺ**

شهد علقمة معركة اليرموك[١] الحاسمة التي كانت بقيادة خالد بن الوليد سنة ثلاث عشرة الهجرية[٢].

وكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، قد سمَّى لكلِّ أمير من أمراء الشام كُوْرَةً، فسمى لأَبي عُبَيْدَة بن الجَرَّاح حِمْصَ، وليزيد بن أبي سُفيان دِمَشْق، ولشُرَحْبِيل بن حسنة الأَرْدُن، ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن مُجَزِّز فلسطين[٣]، فلما شارفوا الشَّام، وهم مع كلِّ أمير منهم جمع كثير، فأجمع رأيهم أن يجتمعوا بمكان واحد، وأن يلقوْا جَمْعَ المشركين بجمع المسلمين، فخاضوا معركة اليرموك الحاسمة مجتمعين، ولم يبقوا كما كانوا متفرِّقين، ولولا اجتماعهم لما انتصروا أبدًا[٤].

وشهد معركة «**الجابِيَة**»[٥]، وهي التي فتحت أبواب دِمَشْق للمسلمين، وكان

---

(١) الإصابة (٤/٢٦٧).

(٢) الطبري (٣/٣٩٤)، وابن الأثير (٢/٤١٠).

(٣) انظر: سيرة أبي عبيدة بن الجرَّاح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص في كتاب «قادة فتح الشام ومصر».

(٤) الطبري (٣/٣٩٤).

(٥) الجابية: قرية من أعمال دمشق؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/٣٣)، وانظر: الإصابة (٤/٢٦٧) حول حضوره هذه المعركة.

ذلك في سنة ثلاث عشرة الهجريَّة[١].

وحَصَر علقمة بـ«**غَزَّة**»[٢] الفِيقَار[٣]، وجعل يراسله، فلم يشفِه أحد بما يريد، فأتاه كأنَّه رسول علقمة فقال: «**إنَّ معي نفرًا يشركونني في الرأي، فأَنْطَلِقُ فآتيكَ بهم**»، وكان الفيقار قد بعث رجلًا من رجاله يقف على الطريق ليقتله، فبعث الفيقار إلى ذلك الرجل ألَّا يعرض له، فخرج علقمة من عنده، فلم يَعُدْ[٤]، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجرية[٥]، ففتح عمرو بن العاص في هذه السنة غَزَّة[٦].

ولما قدم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من المدينة إلى بلاد الشَّام لفتح القُدْس التي يحاصرها المسلمون، وفتحت القُدسُ أبوابها للمسلمين، واستسلم المدافعون عنها للمسلمين، فرّق عمر فلسطين على رجلين؛ فجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين «**الشمالي**» وأسكنه «**الرَّملة**»[٧]، وجعل علقمة بن مُجَزِّز على نصفها الآخر «**الجنوبي**» وأسكنه «**إيْلِيَاء**»[٨]، فأصبح علقمة واليًا على جنوبي فلسطين وكانت عاصمته القُدْس، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجريَّة[٩].

وأصبح علقمة سنة عشرة الهجرية على فلسطين كلها[١٠]، ويومها كان الوالي مسئولًا عن القضايا العسكرية كمسئوليته عن القضايا الإداريَّة، فهو قائد ووالٍ في

---

(١) انظر: تفاصيل فتح دمشق في «ابن الأثير» (٢/٤٢٧ - ٤٢٩).

(٢) غَزَّة: مدينة من أقصى بلاد الشام من ناحية مصر، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/٢٨٩ - ٢٩١).

(٣) الفيقار: والي غزة من الروم.

(٤) الطبري (٣/٦٠٤)، وابن الأثير (٢/٤٩٦).

(٥) ابن الأثير (٢/٤٩٧).

(٦) ابن الأثير (٢/٤٩٧).

(٧) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين؛ انظر: معجم البلدان (٤/٢٨٦)، وهي قرب مدينة اللدِّ.

(٨) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس؛ انظر: معجم البلدان (١/٣٩٢).

(٩) الطبري (٢/٦١٠)، وابن الأثير (٢/٥٠١).

(١٠) الطبري (٤/٦٧)، وابن الأثير (٢/٥٣٦).

وقت واحد، يؤدي واجبه الإداري في السَّلام، وينهض بأعباء القتال في الحرب.

الشَّهيد

بقي علقمة عاملًا لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه على حرب فلسطين[١]، وفي سنة عشرين الهجرية (٦٤٠م) بعث عمرُ علقمةَ إلى الحبشة، وكانت قد تعرَّضت ببلاد المسلمين فأصيب قسم من المسلمين، وقد بعث عمرُ علقمة في البحر لحرب الحبشة، فأصيب المسلمون في البحر[٢]، وهلكوا كلُّهم[٣]، فجعل عمر على نفسه أن لا يحمل في البحر أحدًا للغزو من المسلمين[٤]، فرثى حَوَّاس العذري علقمة، فقال:

إنَّ السَّلام وحسن كلِّ تحيَّةٍ ... تغدو على ابن مُجَزِّزٍ وتروح[٥]

وهكذا انتهت مسيرة حياة علقمة في الجهاد لخدمة الإِسلام والمسلمين بالشَّهادة، وكانت الشهادة من أغلى أمانيه، فتحقَّقت أمنيته فضحَّى بروحه دفاعًا عن الإِسلام والمسلمين.

وكان استشهاده سنة عشرين الهجرية (٦٤٠م).

علقمة القائد

١ ـ كان علقمة أحد قادة النبيِّ ﷺ وأحد أمرائه[٦]، وكان أحد عمَّال أبي بكر الصدِّيق وقادته، وكان أحد عمَّال عمر بن الخطَّاب وقادته، وكان موضع ثقة النبيِّ

---

(١) الإصابة (٤/٢٦٧).
(٢) الطبري (٤/١١٢)، وابن الأثير (٢/٥٦٩)، والإصابة (٤/٢٦٧).
(٣) أُسْد الغابة (٤/١٤).
(٤) الطبري (٤/١١٢)، وابن الأثير (٢/٥٦٩)، والإصابة (٤/٢٦٧).
(٥) الإصابة (٤/٢٦٧)، وأُسْد الغابة (٤/١٤)، والبداية والنهاية (٧/١٤٣)، وقد جاء فيه: أنَّ علقمة توفي سنة ثلاث وعشرين الهجرية، دون أن يذكر أين تُوفِّي وكيف توفِّي، وقد انفرد بذلك؛ فلم نأخذ به.
(٦) البداية والنهاية (٧/١٤٣).

ﷺ وخلفائه من بعده، لم يتخلَّوا عنه، واستعانوا به في أعمالهم الإدارية والعسكرية، وفي السِّلم والحرب.

ومن الواضح أنَّ علقمة كان رجل دولة بكلِّ ما في هذا التعبير من معان، وهب كلَّ طاقاته الماديَّة والمعنوية للمصلحة العامة وحدها، فكأنَّه لم يُخْلَقْ إلَّا لخدمة المصلحة، ناسيًا مصلحته الذاتية في خضمٍّ مصالح الإسلام والمسلمين، ومصالح غيره من الناس.

وحسبه شرفًا أنَّه نال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيِّ ﷺ وشرف قيادة سرية من سراياه، وشرف العمل بإمرة الشيخين أبي بكر الصدِّيق وعمر الفاروق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قائدًا وإداريًّا، وهو شرف ـ بدون شك ـ عظيم.

٢ـ لقد قضى حياته كلَّها مجاهدًا، تارة جنديًّا من جنود المسلمين، وتارة قائدًا من قادتهم، وفاضت روحه إلى خالقها في آخر لحظة من لحظات حياته، ولا يزال السيف بيده، فهو بدون شكٍّ ذو تجربة عملية على إدارة القتال وممارسته.

وتوليته القيادة على عهد النبيِّ ﷺ وعلى عهد الشيخين من بعده، يدلُّ على أنَّه كان عالمًا بفنون القتال، وهو بذلك قد حاز مزيتين رئيستين من مزايا القائد المتميِّز؛ هما: العلم المكتسب، والتجربة العملية.

كما أنَّ حرمانه من خوض المعارك الحاسمة لسبب أو لآخر، لا ينفي عنه هذه المزيَّة.

يقول اللواء الركن/ محمود شيت خطاب: «في دراستي قادة الفتح الإسلامي، كان في نيتي إدخال علقمة بين قادة فتح الشَّام، باعتباره أحد الذين تولوا قيادة من قيادات بلاد الشَّام مع الرعيل الأول من القادة الذين ولَّاهم أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه مناصب القيادة بعد انتهاء حروب الرِدَّة وعودة الوحدة إلى العرب تحت لواء الإسلام. ولكنَّني لم أجد له فتحًا كالذي وجدت لغيره، فلم أدخله مع قادة فتح الشَّام، فدخل مع قائمة قادة النبيِّ ﷺ في هذا الكتاب، وهذا أجدى عليه من

دخوله مع قائمة قادة الفتح، فتزكية النبيِّ ﷺ له قائدًا من قادة سراياه أهم من تزكية غيره له، وهو شرف عظيم.

وما كان النبيُّ ﷺ ليولي رجلًا من أصحابه منصب القيادة، إلَّا إذا كان مستحقًّا لهذا المنصب استحقاقًا لا مزيد عليه، فقد كان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ملتزمًا بمبدأ «تولية الرجل المناسب العملَ المناسب»، التزامًا صارمًا؛ ليعلِّم أتباعه ضرورة الالتزام بهذا المبدأ الحصيف، وليكون قدوة حسنة لهم في كلِّ زمان ومكان.

وأدَّى النبيُّ ﷺ الأمانة وبلَّغ الرِّسالة، وبقيت أعماله وأقواله سُنَّةً للمسلمين، سار عليها قسم منهم فأراحوا واستراحوا، ولم يستطع أن يسير عليها قسم آخر فَدَمَّرُوا ودُمِّروا، وأتعبوا وتعبوا، وقاد الذين اتَّبعوها بلادهم وأُمَّتهم إلى النصر، وقاد الذين عجزوا من اتِّباعها بلادهم وأُمَّتهم إلى الهزيمة.

لقد كان من مزايا علقمة إيمانه العميق باللَّه ورسوله، وثقته المطلقة بهما، وتوكُّله على اللَّه في كلِّ أعماله؛ ما عظم منها وما حقر، وما كبُر منها وما صَغُر، فكان من أصحاب العقائد الذين يعملون لخدمتها ولا يعملون لخدمة أنفسهم.

وكان قادرًا على إصدار القرارات السريعة الصحيحة؛ لذكائه اللَّماع أولًا، ولأنَّه يعتمد على الاستطلاع لمعرفة قوَّة العدو، وقيادته، وأرضه، ونِيَّاتِهِ.

ولعلَّ ما فعله علقمة من استطلاع الفيقار والي غَزَّة في أثناء حصارها كان عملًا فذًّا لا يُقدم عليه إلَّا الأقلُّ القليل من القادة. فقد كان علقمة قد حصر الفِيقَار بغَزَّة وجعل يراسل فلم يُشفه أحدٌ بما يريد، فأتاه كأنَّه رسول علقمة، فأمر الفيقار رجلًا أن يقعد له في الطريق، فإذا مرَّ به قتله. وفطن علقمة، فقال: «**إنَّ معي نفرًا يشركونني في الرأي، فأنطلق فآتيك بهم**»، فبعث الفيقار إلى ذلك الرجل ألَّا يعرض له، فخرج علقمة ولم يَعُدْ، وفعل كما فعل عمرو بن العاص في الأرطبون[1].

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٩٧).

فقد أقام عمرو على «**أجْنادِين**»[١] لا يقدر من الأرطبون على شيءٍ، ولا تشفيه الرُّسل، فسار إليه بنفسه، فدخل عليه كأنَّه رسول، ففطن به الأرطبون وقال: «**لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأمير برأيه**». فأمر إنسانًا يقعد على طريقه ليقتله إذا مرَّ به، وفطن عمرو لفعله فقال: «**قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنَّا واحد من عشرة بعثنا عمر إلى هذا الوالي لنكايته، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا الذي عرضت عليَّ الآن، فقد رآه الأمير وأهل العسكر، وإن لم يروه رددتَهم إلى مأمنهم**»، فقال: «**نعم**»، ورد الرَّجل الذي أمر بقتله، فخرج عمرو من عنده. وعلم الروميُّ أنَّها خدعة اختدعه بها، فقال: «**هذا أدهى الخَلْق**».

وبلغت خديعته عمرَ بن الخطَّاب فقال: «**لله درُّ عمرو!**»[٢].

ولا تختلف عملية علقمة عن عملية عمرو في أسلوبها وفي أهدافها، ولا في طريقة التخلُّص من مخاطرها، ويبدو أنَّ عملية عمرو شاعت؛ لقولة عمر بن الخطَّاب فيه: «**لله درُّ عمرو!**»، بينما بقيت عملية علقمة معروفة في أضيق نطاق.

وعملية علقمة تدلُّ على حرصه على الاستطلاع الشخصي حرصًا لا مزيد عليه، كما أن ذكاءه الخارق وحضور بديهته وحسن تصرُّفه، مزايا تجعل القائد قادرًا على وضع خطَّة سريعة وصحيحة في آن واحد.

وكان يتمتَّع بشجاعة شخصيَّة فائقة، ولعلَّ إقدامه على استطلاع أحوال الفِيقار استطلاعًا شخصيًّا مع احتمال انكشاف أمره وتعرُّضه من جراء ذلك إلى الهلاك دليل على شجاعته الشخصية الفائقة.

وقد ركب البحر مرتين قائدًا، مرة على عهد النبيِّ ﷺ، ومرَّة على عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، وإقدام أعرابيٍّ على ركوب البحر دون سابق تجربة في معاناة ركوبه لا يخلو من شجاعة نادرة.

---

(١) أجنادين: موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين، وهو من الرَّملة من كورة بيت جبرين.
(٢) ابن الأثير (٢/٤٩٨، ٤٩٩).

وكان ذا إرادة قويَّة ثابتة، إذا قرَّر أمرًا أبرمه بدون تردُّد، ولا يتخلَّى عن هدفه قبل أن يبذل من أجل تحقيقه ما يستطيع من جهد مادِّي ومعنويٍّ.

وكان يتمتَّع بمزية سبق النظر، فكان يحسب لكلِّ أمرٍ حسابه بدقَّة وحذر، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات.

وكان يعرف نفسيَّات رجاله وقابلياتهم؛ لأنَّه يعيش معهم أكثر مما يعيش مع أهله، فكان يكلِّف كلَّ واحد منهم ما يناسب نفسيَّته وقابليته، ولا يكلِّف المرءَ ما لا يطيق.

وكان موضع ثقة النبيِّ ﷺ وموضع ثقة الشيخين أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطَّاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، وموضع ثقة رجاله، وكان يبادلهم ثقة بثقةٍ وحبًّا بحبٍّ، والثقة والحبُّ المتبادلان بين القائد ورجاله أساسان رئيسان من أُسس نجاح القائد في قيادته.

وكان ذا شخصيَّة قويَّة نافذة، يسيطر بالمثال الشخصي والعدل والثقة والحبِّ، لا بالإكراه والظلم والكبت والكراهية.

وكان ذا ماضٍ ناصع مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين، والواقع أنه قضى حياته كلَّها في خدمة عقيدته، ونسي أوَّل ما نسي نفسه في خضمِّ خدمة عقيدته بأمانة وقوَّة وإخلاص.

وكان من القادة الذين لا يكتفون بما تمليه عليهم أفكارهم الخاصة وتجاربهم العملية، بل يستشيرون رجالهم، ويعملون بما يشيرون به عليهم.

وكان يطبِّق أكثر مبادئ الحرب أهميَّة بكفاية واقتدار.

فقد كان يطبِّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، فلا يتحرَّك إلَّا مفتوح العينين على هدى وبصيرة من غير تهوُّر ولا ارتجال.

وكانت خططه كلُّها تعرضيَّة، ولم يتَّخذ خطَّة دفاعيَّة في حياته العسكرية أيام

النبيِّ ﷺ وأيام الشيخين من بعده.

وكان يطبِّق مبدأ المباغتة، فقد باغت الحبشة في خوض البحر إليهم قائدًا من سرايا النبيِّ ﷺ، وباغت قائد حامية غَزَّة بزيارته مفاوضًا، فلم يعرف حقيقة أمره إلَّا بعد نجاته، مما فتَّ في عضد قائد حامية غَزَّة وأثَّر في معنوياته؛ لأنَّه وجد المسلمين يستأثر دونهم بالخطر ويؤثرهم بالأمن.

وكان يطبِّق مبدأ حشد القوَّة، فيحشد القوَّة المناسبة للنهوض بالواجب المقدس، مع ملاحظة مبدإ الاقتصاد بالمجهود، الذي يحول دون الإِسراف بالقوَّة دون مسوِّغ.

وكان يطبِّق مبدأ الأمن، فلا نعرف أن العدو استطاع مباغتة قواته في معركة خاضها.

وكان يطبِّق مبدأ المرونة، فخططه قابلة للتحوير حسب ظروف القتال المستمرة بسرعة، وليست جامدة في قوالب صلبة.

وكان يطبِّق مبدأ التعاون، وقد برز تعاونه بوضوح في معركة اليرموك الحاسمة وفي معارك فتح فلسطين.

وكان يطبِّق مبدأ إدامة المعنويات، بالمثال الشخصي، والعقيدة الرَّاسخة والقيادة الحكيمة، والنَّصر.

وكان يطبِّق مبدأ الأمور الإدارية، فما عانت قوَّاته من نقص في الشئون الإدارية.

لقد كان علقمة بحق قائدًا متميزًا، ولا عجب فهو أحد قادة النبيِّ ﷺ.

فرضي اللَّه عن الصحابي الجليل، الإداري العظيم، القائد الشهيد، الذي نال شرف الجهاد في البر والبحر حتى لقي اللَّه شهيدًا في البحر: علقمة بن مُجَزِّز المُدْلِجِيِّ.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**غزوة في البحر خير من عشر غزوات في البر، ومن أجاز البحر فكأنما جاز الأودية كلها، والمائد فيه كالمتشحِّط في دمه**»[1].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الغريق في سبيل اللَّه شهيد**»[2].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**المائد في البحر الذي يصيبه القيء له أجر شهيد، والغريق له أجر شهيدين**»[3].

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: رواه البخاري في «التاريخ» عن عقبة بن عامر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١٧٣).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود عن أم حرام، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (١١٩٤)، و«صحيح الجامع» (٦٦٤٢).

٤٦

الجرَّار.. مسعر الحرب.. سيد فزارة

الأعرابي القائد

عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَاري

أول أعرابي تولى قيادة سرية للنبي ﷺ

٤٦

الجزَّار.. مسعر الحرب.. سيد فزارة الأعرابي القائد

عُيَيْنَة بن حِصْن الفَزَاري

أول أعرابي تولى قيادة سرية للنبي ﷺ

هو عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري. كان اسمه حُذيفة، فأصابته لَقْوَةٌ[١]، فجحظت عينه، فسُمِّي أبا عُيينة[٢]، ويكنى أبا مالك[٣].

كان عيينة بطلًا من الأبطال المعدودين قبل الإسلام وبعد الإسلام، وسيدًا من سادات العرب، وكان في الجاهلية من الجرَّارين، يقود عشرة آلاف. ولم يكن الرجل يُسمَّى جرارًا حتى يرأس ألفًا على الأقل.

وكانت حياة عينيه سلسلة من المعارك المتصلة، فقد كان بطبيعته مسعر حرب[٤].

أسلم عُيينة بعد فتح مكَّة، وقيل: قبل الفتح، وشهد الفتح مُسْلمًا[٥]، ونصَّ ابن حجر العَسْقلاني على أنَّه أسلم قبل الفتح، وشهدها، وشهد حُنَينًا والطَّائف[٦]، وهو ما أُرَجِّحه؛ لأنَّه جزم في ذكر إسلامه، بينما لم يجزم غيره ورَوى أنَّه أسلم قبل الفتح أو بعده، دون أن يبتَّ في الأمر، كما أرجحه للسبب الذي سأذكره وشيكًا

(١) لقوة: داء يكون في الوجه يعوجُّ منه الشدق.
(٢) المعارف (٣٠٢).
(٣) أُسْد الغابة (١٦٧/٤)، والإصابة (٥٥/٥).
(٤) مِسعر حرب: مُوقِدُ حرب.
(٥) مغازي الواقدي (٧٢٧/١ - ٧٣١).
(٦) الاستيعاب (١٤٤٩/٣)، وأُسْد الغابة (١٦٧/٤)، وتهذيب الأسماء واللغات (٤٩/٢).

أيضًا[١].

ولكننا لا نعلم متى أسلم، إلَّا أنَّه كان مشركًا حتى السنة السَّابعة الهجرية؛ فيبدو أنه أسلم في أواخر السنة السَّابعة الهجريَّة أو أوائل السنة الثامنة الهجريَّة، فشهد مع النبيِّ ﷺ فتح مكة المكرَّمة التي كانت في رمضان من تلك السَّنة.

جهاده

في غزوة الفتح:

كان عُيَيْنَة في أهله بِنَجْدٍ، فأتاه الخبر أنَّ رسول اللَّه ﷺ يريده وجْهًا، وقد تجمَّعت العرب إليه، فخرج في نفرٍ من قومه حتى قدم المدينة، فوجد رسول اللَّه ﷺ قد خرج قبله بيومين، فسلك عن ركوبه فسبق إلى «**العَرْج**»[٢]، فوجده رسول اللَّه ﷺ بالعَرْج.

ولما نزل رسول اللَّه ﷺ العَرْج أتاه عُيينة فقال: «**يا رسول الله! بلغني خروجك ومَنْ يجتمع إليك، فأقبلتُ سريعًا، ولم أشعر فأجمع قومي فيكون لنا جَلَبَة كثيرة، ولستُ أرى هيأة حرب، لا أرى ألوية ولا رايات! فالعُمْرَة تريد؟ فلا أرى هيأة الإحرام! فأين وجهك يا رسول الله؟**»، قال: «**حيث يشاء الله**».

وسار مع النبيِّ ﷺ، ووجد الأَقْرَع بن حابِس بـ«**السُّقْيا**»[٣] قد وافاه في عشرة نفرٍ من قومه، فساروا معه.

ولما نزل النبيُّ ﷺ (قُدَيْدًا)[٤]، عقد الألوية وجعل الرَّايات، فلما رأى عُيينة القبائل تأخذ الرايات والألوية عضَّ على أنامله، فقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: «**عَلَامَ تندم؟!**»، قال: «**على قومي ألَّا يكونوا نفروا مع محمَّد، فأين يريد محمَّد يا أبا بكر؟**»، قال:

---

(١) الإصابة (٥/٥٥).
(٢) العرج: عَقَبَةٌ بين مكة والمدينة على جادة الحاج، تذكر مع السُّقْيا.
(٣) السُّقْيا: قرية جامعة من عمال الفُرْع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ميلًا.
(٤) قُديد: اسم موضع قرب مكة.

«**حيث يشاء الله!**»، فدخل رسول اللَّه ﷺ مكَّة بين الأَقْرَع بن حابس وعُيينة[١].

وقد كان فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية[٢].

وقد شهد عيينة بن حصن غزوة حنين مع المسلمين[٣].

وشهد ـ أيضًا ـ غزوة حصار الطائف من المسلمين في شوال من السنة الثامنة الهجرية[٤].

وانصرف رسول اللَّه ﷺ عن الطَّائف حتى نزل «**الجِعْرانة**»[٥] فيمن معه من الناس، ومعه من هَوَازِن سَبْيٌ كثير: ستة آلاف من الذَّراري والنساء، ومن الإبل والشَّاء ما لا يُدْرى عِدَّته.

وأتاه وفد هوازن وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أَصْلٌ وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك، فامْنُنْ علينا مَنَّ اللَّه عليك.

ثمَّ قام رجل من هوازن، أحد بني سعد بن بكر، يقال له زهير، يكنى أبا صُرَد، فقال: «**يا رسول الله! إنَّما في الحَظائر[٦] عَمَّاتُك وخالاتك وحواضنك[٧] اللَّائي كُنَّ يَكْفُلْنَك، ولو أنَّا مَلَحْنا[٨] للحارث بن أبي شمر أو للنُّعمان بن المنذر، ثمَّ نزل منَّا بمثل الذي نزلتَ به رَجَوْنا عَطْفَهُ وعائدته[٩] علينا، وأنت خير المكفولين**»، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟**»، فقالوا: «**يا رسول الله! خيَّرتنا**

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٨٠٣، ٨٠٤).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٣٤)، وعيون الأثر (٢/١٦٣)، والدرر (٢٢٧)، وجوامع السيرة (٢٢٦).

(٣) أُسْد الغابة (٤/١٦٧)، والإصابة (٥/٥٥)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٤٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٥٨).

(٥) الجعرانة: هي ماء بين الطائف ومكَّة، وهي إلى مكَّة أقرب.

(٦) الحظائر: جمع حظيرة؛ وأصلها: ما يُصْنَعُ للإبل والغنم؛ ليكفَّها ويمنعها الانفلات.

(٧) حواضنك: النساء اللاتي أرضعنك؛ لأنَّ حاضنة رسول الله ﷺ من بني سعد، وهم من هوازن.

(٨) ملحنا: أرضعنا. والملح: الرضاع.

(٩) عائدته: فضله.

بين أموالنا وأحسابنا، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبُّ إلينا».

وقال لهم النبيُّ ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطَّلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليتُ الظهرَ بالناس، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول اللَّه ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول اللَّه ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فسأُعطيكم عند ذلك وأسأل لكم**».

فلما صلَّى رسول اللَّه ﷺ الظهر بالناس قاموا فتكلَّموا بالذي أمرهم به رسول اللَّه ﷺ، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطَّلب فهو لكم**»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ، فقال الأقرع بن حابِس: «**أما أنا وبنو تَمِيم فلا**»، وقال عُيينة: «**أما أنا وبنو فَزَارة فلا**»، وقال عباس بن مِرْداس: «**أما أنا وبنو سُلَيْم فلا**»، فقالت بنو سُلَيْم: بلى! ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما مَنْ تَمسَّكَ منكم بحقِّه من هذا السَّبي، فله بكل إنسان ست فرائض من أوَّل سَبْيٍ أُصيبه**»، فردُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم[1].

وأعطى رسول اللَّه ﷺ المُؤَلَّفَة قلوبهم، وكانوا أشرافًا من أشراف الناس، يتألَّفهم ويتألَّف بهم قومهم، فأعطى رجالًا من رؤساء قريش ومن رؤساء القبائل، فكان ممن أعطاهم من رؤساء القبائل: الأَقرع بن حابس التَّميمي مئة بعير، ومالك بن عَوْف النَّصْرِي مئة بِعيرٍ، وعُيينة بن حِصْن مئة بعير.

❑ عيينة قائد السرية إلى تميم

لما رجع رسول اللَّه ﷺ من الجِعْرانة، قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ذي القعدة، فأقام بقيَّة ذي القعدة وذي الحجَّة، فلما رأى هلال المحرَّم بعث المصدِّقين، وبعث بُسْر بن سُفيان الكَعْبيَّ إلى بني كَعْب، فخرج بُسْر على صدقات بني كَعْب، ويقال: إنَّما سعى عليهم نُعَيْم بن عبداللَّه النَّحَّام العَدَوِيُّ، فجاءَ وقد حلَّ بنواحيهم بنو جُهَيْم من بني تَميم، وبنو عمرو بن جُنْدُب بن العُتَيْر بن عمرو بن تَميم

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/١٣٤ - ١٣٦)، ومغازي الواقدي (٣/٩٤٩ - ٩٥٥).

على غدير لهم بـ«**ذات الأَشْطَاط**»[1]، ويقال: وجدهم على «**عُسْفَان**»[2]. وأمر بُسْر بجمع مواشي خُزاعة؛ ليأخذ منها الصَّدَقة، فحشرت خُزاعة الصَّدَقة من كلِّ ناحية، واستنكرت ذلك بنو تميم وقالوا: ما هذا؟ تؤخذ أموالكم منكم بالباطل!! وتجيَّشوا وتقلَّدوا القِسِيَّ وشهروا السيوف، فقال الخُزاعيون: نحن قوم نَدين بدين الإِسلام، وهذا من ديننا، وقال التَّميميُّون: واللَّه لا يصل إلى بَعيرٍ منها أبدًا.

ولما رآهم المُصدِّق، هرب منهم، وانطلق مولِّيًا وهو يخافهم، والإِسلام يومئذ لم يعمَّ العرب، وقد بقيت بقايا من العرب.

وقد كان رسول اللَّه ﷺ قد أمر مصدِّقيه أن يأخذوا العَفْوَ منهم ويتوقَّوا كرائم أموالهم، فقدم المصدِّق على النبيِّ ﷺ فأخبره الخبر، وقال: «**يا رسول الله! إنما كنتُ في ثلاثة نفرٍ، فوثبت خُزاعة على التَّميميِّين فأخرجوهم من مَحالِّهم، وقالوا: لولا قرابتكم ما وصلتم إلى بلادكم، ليدخلنَّ علينا بلاءٌ من عَداوة محمَّد ﷺ، وعلى أنفسكم حيث تعرِضون لرُسُل رسول اللَّه ﷺ، تردُّونهم عن صدقات أموالنا، فخرجوا راجعين إلى بلادهم**».

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا؟**»، فانتدب أوَّل الناس عيينة، فقال: «**أنا واللَّه لهم، أتبع آثارهم ولو بلغوا «يَبْرِين»**[3] حتى آتيك بهم إن شاء الله، فترى فيهم رأيك أو يُسْلِموا»[4].

وبعث النبيُّ ﷺ في المحرَّم سنة تسع الهجرية عُيَيْنَة قائدًا لسرية في خمسين فارسًا من العرب، ليس فيهم مُهاجريٌّ ولا أنصاري إلى بني تَمِيْم الذين كانوا فيما بين السُّقيا وأرض بني تميم، فكان يسير اللَّيل ويكمن النهار وهجم عليهم، فلما

---

(١) ذات الأشطاط: موضع تلقاء الحديبية؛ انظر: معجم ما استعجم (١٢٨).

(٢) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة، على مرحلتين من مكة، وهي حد تهامة؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (١٧٣/٦، ١٧٤).

(٣) يبرين: رمل معروف في ديار بني سعد من تميم؛ انظر: معجم ما استعجم ص (٨٤٩).

(٤) مغازي الواقدي (٩٧٣/٣ - ٩٧٥).

رأوا الجمْع ولَّوا الأدبار، وأخذ منهم أحد عشر رجلًا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًا، فجلبهم عُيينة إلى المدينة، فأمر بهم رسول اللَّه ﷺ فحبسوا في دار رَمْلَة بنت الحارث.

وقدم في السَّبْي عدَّة من رؤساء تميم، منهم عطارد بن حاجب، والزِّبْرقان بن بَدْر، وقيس بن عاصِم، والأقرع بن حابِس، وقيس بن الحارث، ونُعَيْم بن سعد، وعمرو بن الأَهْتَم، ورَباح بن الحارث بن مُجاشِع، فلما رأوهم بكى إليهم النِّساء والذَّراري فعجلوا، وجاءوا إلى باب النبيِّ ﷺ، فنادوا: يا محمَّد! اخْرج إلينا!.

وخرج رسول اللَّه ﷺ، وأقام بلال الصَّلاة، وتعلَّقوا برسول اللَّه ﷺ يكلِّمونه، فوقف معهم، ثمَّ مضى فصلَّى الظُّهر. وقُضيت الصَّلاة، فجلس - عليه الصَّلاة والسَّلام - في صَحْن المسجد، فقدَّم وفدُ تميم عُطاردَ بن حاجِب فتكلَّم وخطب، فأمر رسول اللَّه ﷺ ثابت بن قيس بن شمَّاس، فأجابهم[1]. ثم قدَّم الوفد شاعرهم الزِّبْرِقان بن بَدْر، فأمر رسول اللَّه ﷺ حسَّان بن ثابت فأجابهم أيضًا[2].

ونزل في وفد بني تميم قوله - تعالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤]، فرد عليهم رسول اللَّه ﷺ الأسرى والسَّبْي[3].

لقد استطاع عُيَيْنة أن يؤدِّيَ واجبه في قيادة هذه السرية، فكان عند حسن ظن النبيِّ ﷺ والمسلمين به، فلقنَ بني تَمِيْم الذين لم يستجيبوا للمتصدِّق الذي بعثه النبيُّ ﷺ ومنعوا الزَّكاة - درسًا لا ينسونه، فباغت جموعهم مباغتة بالغة؛ إذ هجم عليهم في وقت لا يتوقَّعونه، وبذلك شلَّ طاقاتهم الفكريَّة لإعداد خطَّة مناسبة يتصدون بها لسريته ويصدُّون بها هجوم السريَّة المباغت، فتبدَّدت إدارتهم على

---

(١) انظر: نص الخطابين في مغازي الواقدي (٣/٩٧٦، ٩٧٧)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٢٤).
(٢) انظر: نص القصيدتين في مغازي الواقدي (٣/٩٧٧، ٩٧٨)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٢٥ - ٢٣٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٦٠، ١٦١)، وعيون الأثر (٢/٢٠٣ - ٢٠٥).

القتال، ولم يَعُد أمامهم غير الهزيمة والنَّجاة بأنفسهم، فتغلَّبت الفئة القليلة، وهي سرية عيينة، على الفئة الكثيرة، وهي حشود تميم، وكان لقيادة عُيينة أكبر الأثر في انتصار سريته على المنحرفين من بني تميم.

ولله در القائل في هذه السرية وعيينة:

أعدَّ ابن حِصنٍ للوغى وأمدَّه ... بكل شديد البأس مطعمه مُرُّ
إذا ذاقه في غمرة الحرب قَرْنُه ... تنكَّب يلوي أخْدَعَيْه ويزورُّ
أغار عليهم فاستباح نفوسَهم ... وأموالهم فلينظروا لِمَن الخُسْرُ؟
تُساق سباياهم وأنعامهم معًا ... بأعينهم من كلِّ أوبٍ وهُمْ كُثْرُ
تَودُّ لو ان القوم يستنقذونها ... وهيهات لجَّ الرُّعْبُ واستفحل الذُّعرُ
أقاموا على غيظ وعاد عيينةٌ ... مغانمه شتى وآثاره غُرُّ
عليه من النصر المحجَّل بهجةٌ ... إذا ائتلفت أوضاحها ضَحِكَ النصر

وقد كان حول حياة عيينة بعد إسلامه شكوك، مما أدَّى إلى اختلاف الناس في أمره، ولا أعتقد أنَّ هناك مَنْ يختلف في حسن قيادته لسريته، ولعلَّ هذا الواجب هو النقطة المضيئة في حياة عيينة التي لا يختلف في تقديرها حق تقديرها اثنان.

ارتد عيينة وحارب مع طليحة، ثم أسلم.

كان عيينة من الأعراب الجفاة[١]، وكان فيه جفاء سكان البوادي[٢].

تزوج عثمان بن عفان ابنة عيينة[٣].

كان عيينة قائدًا في الجاهليَّة، وقائدًا في الإِسلام، بل كان أحد الجرَّارين المعدودين من العرب في الجاهلية، وهم أكابر القادة العرب في حينه.

وقد رفعه إلى تولي المنصب القيادي على قبيلته في الجاهلية، أنَّه رئيس تلك

---

(١) أُسْد الغابة (٤/١٦٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٤٩).
(٢) الإصابة (٥/٥٥).
(٣) الاستيعاب (٣/١٢٥٠)، وأُسْد الغابة (٤/١٦٧).

القبيلة الشَّرعي خلفًا لأبيه وتنفيذًا لوصيَّته وهو على فراش الموت قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ولكنَّه لم يتولَّ القيادة على عهد النبيِّ ﷺ؛ لا لأنَّه كان رئيسًا لقبيلة عريقة من قبائل العرب حسب، بل لأنَّه أوَّل مَن انتدب من المسلمين لحرب المنحرفين من بني تَميم الذين منعوا الزكاة ولم يستجيبوا للمصدِّق الموفد إليهم من النبيِّ ﷺ لجمع الصَّدقات.

ولكنَّ القول بأنَّه تولى منصبه القيادي في الإِسلام؛ لأنَّه كان أوَّل مَن انتدب من المسلمين لحرب المنحرفين من بني تميم، لا يُغني عن كلِّ قول؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قمَّةٌ في تطبيق مبدأ تولية الرجل المناسب العمل المناسب، فلا بدَّ أن يكون عيينة ذا مزايا قيادية معيَّنة أهَّلته لتولي القيادة.

فهو حائز على صفتين من صفات القيادة الرئيسة، هما: التجربة العملية، والعلم المكتسب.

فقد كانت لعيينة تجربة عملية طويلة في الحروب قبل الإِسلام وبعده، منتصرًا تارة ومندحرًا تارة أخرى، وبخاصة حربة على المسلمين، فقد كانت اندحارًا متواصلًا، فكان إسلامه نوعًا من استسلام القائد المندحر لخصمه المنتصر، بعد أن بذل قصارى جهده لإِحراز النَّصر دون جدوى.

أما علمه المكتسب في العسكرية، فهو ابن رئيس مرموق من رؤساء القبائل، له مشاكل لا أوَّل لها ولا آخر مع القبائل العربية الأخرى، وهو رئيس قبيلة مرموق بعد أبيه. ورث عن أبيه مشاكل كثيرة، وخلق لنفسه مشاكل جديدة، تكون الحرب هي الحلُّ الوحيد غالبًا لتلك المشاكل القديمة والجديدة، وكانت الحرب هي القاعدة والسلام هو الاستثناء بين القبائل، وليس للعدو غير السَّيف، وليس لحماية القبيلة غير السَّيف، فمن الطبيعي أن يتعلَّم ابن الحرب فنون الحرب، أسوة بغيره من رؤساء القبائل العربية بخاصة، وبغيره من العرب بعامة.

أما مزاياه القيادية الفرعية، فقد كان صاحب قرار سريع صحيح، ويبدو أنَّه كان أقرب إلى التهوُّر منه إلى الاتِّزان.

وكان يتمتَّع بشجاعة شخصيَّة لا غبار عليها، وإرادة قوية ثابتة، وكان يتحمل المسئولية ويحبُّها إلى درجة كبيرة؛ نظرًا لاعتزازه بنفسه، ونسبه، ومقامه، ذا شخصية قويَّة نافذة مسيطرة إلى درجة الاستبداد بالرأي والابتعاد عن المشورة.

ونعود إلى معرفته لمبادئ الحرب، فقد كان يطبِّق مبدأ التعرُّض، فكلُّ حروبه - تقريبًا - تعرضيَّة، وكان يطبِّق مبدأ المباغتة، أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، وقد رأينا كيف باغت بني تَميم بالزمان.

وكان يطبِّق مبدأ حشد القوَّة، ويهتمُّ بذلك غاية الاهتمام، لحشد أكبر ما يمكن من قوة بشرية في الزمان والمكان المناسبين؛ لإرضاء نزعته الشخصية إلى حبِّ هذا الفخر والتَّعالي والأمجاد؛ لهذا كان على طرفي نقيض من مبدأ: الاقتصاد بالمجهود.

❑ عُيَيْنَة في التَّاريخ

يذكر التاريخ لعُيَيْنَة أنَّه نال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيِّ ﷺ.

ويذكر له أنَّه الأعرابي الأول الذي تولَّى قيادة سرية من سرايا النبيِّ ﷺ، ولم يتولَّ هذا المنصب القيادي في حياة النبيِّ ﷺ أعرابيٌّ قبله، ولم يتولاه أعرابي بعده عدا الضحَّاك بن سُفيان الكِلابي.

ويذكر له أنه ارتد، ثم أسلم وحسن إسلامه.

فرحم اللَّه القائد الأعرابي جزاء ما قدَّم للإسلام، وغفر له، والإسلام يجب ما قبله.

❊ ❊ ❊

٤٧

الضَحَّاك بن سُفْيَان الكِلَابِيُّ

سياف النبيّ ﷺ

القائدُ الشَّهيد

٤٧

الضَحَّاك بن سُفْيَان الكِلَابِيُّ

سياف النبيِّ ﷺ
القائدُ الشَّهيد

هو الضَحَّاك بن سُفْيان بن عَوْف بن كَعْب بن أبي بَكْر بن كِلَاب بن ربيعة بن عامِر بن صَعْصَعَة، العامِريُّ الكِلابيُّ، يكنى: أبا سعيد[١].

أسلم وصحب النبيَّ ﷺ[٢]، ولكن لا نعلم متى أسلم بالضبط.

وهو معدود من أهل المدينة، كان ينزل باديتها[٣]، وكان ينزل نَجْدًا[٤] أيضًا في موالي «ضَرِيَّة»[٥]، وكان واليًا على مَنْ أسلم هناك من قومه[٦].

وكان الضحَّاك أحد الأبطال، وكان يقوم على رأس رسول اللَّه ﷺ متوشِّحًا سيفه، وكان يُعَدُّ بمئة فارسٍ وحده[٧]، فكان سيَّاف رسول اللَّه ﷺ قائمًا على رأسه متوشِّحًا بسيفه[٨].

وفي سرية (بئر مَعُوْنَة)[٩] التي كانت مؤلَّفة من سبعين رجلًا من الأنصار شَبَبَة

(١) أُسْد الغابة (٣/٣٦)، وانظر: الاستيعاب (٢/٧٤٢)، والإصابة (٣/٢٦٧)، وتهذيب التهذيب (٤/٤٤٤).

(٢) أُسْد الغابة (٣/٣٦).

(٣) الاستيعاب (٢/٧٤٢)، وانظر: أُسْد الغابة (٣/٣٦).

(٤) تهذيب التهذيب (٤/٤٤٤).

(٥) ضريَّة: قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجدٍ. انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٥/٤٣١ - ٤٣٤).

(٦) الإصابة (٣/٢٦٧)، وانظر: تهذيب التهذيب (٤/٤٤٤٤).

(٧) الاستيعاب (٢/٧٤٢)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٥٠)، وانظر: التراتيب الإدارية (١/٣٤٧).

(٨) الإصابة (٣/٢٦٧).

(٩) بئر معونة: ماء من مياه بني سُلَيْم بين أرض بني عامر وأرض بني سُلَيْم.

يُسَمُّون القُرَّاء بقيادة المُنْذِر بن عمرو الأنصاري، وكانت في صفر من السَّنة الرابعة الهجرية [١]، غدر المشركون بهذه السرية، فاستُشهد أفراد السرية، وكان من بين الشُّهداء عامِر بن فُهَيْرَة مولى أبي بكر الصدِّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -. وكان الذي قتله رجل من بني كِلاب يُقال له: جَبَّار بن سُلْمَى، ذكر أنَّه لما طعنه قال: «**سمعته يقول: فُزْتُ والله! فقلت في نفسي: ما قوله: فُزْتُ!! فأتيت الضحَّاك بن سُفيان الكِلابيّ فأخبرته بما كان، وسألته عن قوله: فُزْتُ! فقال: الجنَّة**». وعرض عليه الضحَّاك الإسلام، فأسلم، وكتب الضحَّاك إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلام قاتل عامر بن فُهَيْرَة [٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ الضحَّاك أسلم قبل سنة أربع الهجريَّة، دون أن نعرف بالضبط موعد إسلامه.

وقد أهدى الضحَّاك للنبيِّ ﷺ لَقْحة [٣] تدعى: «**بُرْدَة**»، لم يُر من الإبل سنًا كان أحسن منها ولا أغزر، كانت تحلب ما تحلب لقحتان، فربما حُلِبَتْ لأضياف رسول الله ﷺ غبوقًا [٤] وصبوحًا [٥].

ويبدو أنَّ الضحَّاك كان قريبًا من نفس النبيِّ ﷺ وموضع ثقته ومحبَّته؛ سيَّافَهُ، وينزل عليه ضيفًا، ويفاتحه بقضايا الزواج، ويوليه على قومه، ويهدي له، وهذا دليل على أنَّ الضحاك أسلم وحسن إسلامه.

وكان مخلصًا للإسلام والمسلمين، محبًّا لله ورسوله.

❑ في الغزوات

شهد الضحَّاك غزوة فتح مكة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثامنة

(١) طبقات ابن سعد (٢/٥١، ٥٢).
(٢) مغازي الواقدي (١/٣٤٩).
(٣) لقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللَّبن.
(٤) الغبوق: ما يُشرب بالعشيِّ، وما يُحلب بالعشيِّ.
(٥) أنساب الأشراف (١/٥١٣).

الهجريَّة[١]، فإن النبيَّ ﷺ لما سار إلى فتح مكَّة كان بنو سُلَيْم تسع مئة، فقال لهم: «**هل لكم من رجل يعدل مئة يوفيكم ألفًا؟**»، فوفاهم بالضحَّاك وكان رئيسهم[٢]، وإنَّما جعله عليهم؛ لأنَّهم جميعًا من قيس عَيْلَان[٣]، فقال عبَّاس بن مِرْداس السُّلَمِيُّ:

نذود أخانا عن أخينا ولو نَرى ... وصالًا لكُنَّا الأقربين نُتابعُ
نُبايع بين الأَخْشَبَيْنِ[٤] وإنَّما ... يدُ اللَّه بين الأخشبين تُبايعُ
عَشِيَّةَ ضحَّاك بن سفيان مُعْتَصٍ ... لسيفِ رسول اللَّه والموت واقع[٥]

كما شهد الضحَّاك غزوة «**حُنَين**» التي كانت في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجرية[٦]، فضمَّ إليه النبيُّ ﷺ بني سُلَيْم، فكانوا إليه ومعه[٧].

وشهد حصار الطَّائف الذي كان في شهر شوَّال من السنة الثامنة الهجرية[٨].

تلك هي الغزوات التي ورد للضحَّاك فيها ذكر، ومادام قد أسلم قبل سنة أربع الهجرية، فمن المعقول أنَّه شهد غير هذه الغزوات، ولكن لم يُذكر دورُه فيها في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا، وما كانت تلك المصادر لتسكت عنه ـ كما لم تسكت عن غيره ـ من الخوالف، لو كان منهم.

ومهما يكن من أمر، فقد نال الضحَّاك شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرَّسول القائد ـ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٣٤).
(٢) الإصابة (٣/٢٦٧)، والمعارف (٨٩).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٥٠).
(٤) الأخشبان: جبلان يُضَافَانِ تارة إلى مكَّة وتارة إلى منًى، وهما واحد؛ أحدهما أبو قبيس والآخر قيعقعان. انظر: معجم البلدان (١/١٥٠).
(٥) الاستيعاب (٢/٧٤٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٢/١٤٩).
(٧) سيرة ابن هشام (٤/٧٦).
(٨) طبقات ابن سعد (٢/١٥٨).

والقول بأنَّ واجبه الإداري واليًا على مَنْ أسلم من قومه في ناحية من نواحي نَجْدٍ شغله عن واجبه في الجهاد ليس صحيحًا، فقد كان شهود الغزوات هو ومَن معه من بني كلاب فرضٌ لا يستطيع أن يتخلَّى عنه.

والصواب أنَّه شهد الغزوات فذكر المؤرخون قسمًا منها، وأغفلوا قسمًا آخر منها.

❑ قائد السريَّة

بعث رسول اللَّه ﷺ في شهر ربيع الأول من سنة تسع الهجريَّة جيشًا إلى «**القُرَطاء**»[1] بقيادة الضحَّاك، ومعه الأَصْيَد بن سلَمَة بن قُرْط بن عبد، حتى لقوهم بـ«**الزُّج**»[2] زُجِّ لاوَه، فدعوهم إلى الإسلام فأَبَوْا، فقاتلوهم فهزموهم.

ولحق الأَصْيَد أباه سَلَمَة بن قُرْط، وسَلَمَة على فرس له على غدير زُجٍّ، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبَّه وسبَّ دينه، فضرب الأَصْيَد عُرْقُوبَي فرس أبيه، فلما وقع على عُرقوبيه ارتكز سَلَمَة على رمحه في الماء، ثمَّ استمسك به، حتى جاءه أحدهم فقتله، ولم يقتله ابنه[3].

لقد أدَّى الضحَّاك واجبه في قيادة هذه السرية، وأعطى درسًا قاسيًا للمشركين في منطقة نَجْدٍ ومَنْ حولهم من الأعراب، فأثَّر ذلك في معنوياتهم كثيرًا، ففشا بينهم الإسلام وانضمُّوا إلى المسلمين.

وقد ذكره عبَّاس بن مِرْداس السُّلَمِيُّ في شعره بما هو أهله، منوِّهًا به وبرجاله في هذه السرية، فقال:

إنَّ الذين وَفَوْا بما عاهدتهم ... جيش بعثْتَ عليهم الضحَّاكا

---

(١) القرطاء: بطن من بني بكر.

(٢) الزَّج: موضع بناحية ضرية بنجد.

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٦٢، ١٦٣)، ومغازي الواقدي (٣/٩٨٢)، وعيون الأثر (٢/٢٠٦، ٢٠٧)، وانظر: أنساب الأشراف (١/٣٨٢).

أَمَّرْته ذَرِب[١] اللِّسان كأنَّه لما تَكَنَّفَهُ[٢] العَدُوّ يَرَاكا
طَوْرًا يُعانِقُ باليدَيْنِ وتارةً يَفْري[٣] الجَماجِم صارمًا بَتَّاكا[٤]

والضحَّاك ورجاله يستحقُّون مثل هذا الثناء.

❑ الشَّهيد

لما التحق النبيُّ ﷺ بالرَّفيق الأعلى، ارتدَّت بنو سُلَيْم، وتبعوا الفُجاءَة السُّلَمِيَّ، فقال لهم الضحَّاك: «**يا بني سُلَيْم! بئس ما فعلتم!**»، وبالغ في وعظه، فشتموه وهمُّوا به ـ وكان صاحبَ راية بني سُلَيْم ورأسهم ـ فارتحل عنهم، فندموا وسألوه أن يُقيم، فأبى، وقال: «**ليس بيني وبينكم موادَّة**»، وقال في ذلك شعرًا منه:

لقد جَرَّ الفجاءة على سُلَيْمٍ مخازي عارها في الدَّهر باقِ[٥]

ورجع الضحَّاك مع المسلمين إلى قتالهم، فاستُشهد[٦]، سنة إحدى عشرة الهجريَّة، وأُسر الفُجاءَة السُّلَمِيُّ، فقتله أبوبكر الصدِّيق؛ عقابًا له على رِدَّته، وقتل المرتدين من قومه[٧].

لقد كان لثبات الضحَّاك على عقيدته الرَّاسخة العميقة، أعظم الأثر في بني سُلَيْم؛ مسلمهم ومرتدِّهم، فقد كان الأسوة الحسنة للمسلمين الذين لم يرتدُّوا عن

---

(١) ذرب: سليط اللِّسان.
(٢) تَكَنَّفَهُ: أحاط به.
(٣) يفري: يشق، يُفَتِّتُ.
(٤) بَتَكَ: قطع، وَالْبَتَّاكُ: القاطع؛ انظر: الاستيعاب (٧٤٢/٢)، والإصابة (٢٦٧/٣).
(٥) الإصابة (٢٦٧/٣)، واسم الفجاءة: إياس بن عبد ياليل؛ انظر: ابن الأثير (٣٥٠/٢)، وانظر: المعارف (٤١٢).
(٦) الإصابة (٢٦٧/٣)، وجاء خبر استشهاده في سيرة الضحَّاك بن سفيان بن الحارث لا في سيرة الضحَّاك بن سفيان بن عوف؛ فقال ابن حجر العسقلاني في سيرة الأول: «قلت: ويخطر لي أنَّ صاحب هذه الترجمة هو هذا الآتي»؛ أي: الضحاك بن سفيان بن عوف، وكلُّ الدلائل تدل على صحة ما ذهب إليه ابن حجر العسقلاني ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، وبه أخذ صاحب الأعلام؛ انظر: (٣٠٨/٣).
(٧) ابن الأثير (٣٥٠/٢، ٣٥١).

الإسلام، كما كان ـ أيضًا ـ الخصم اللَّدود للذين ارتدُّوا، فوعظهم، وأنَّبهم، واشتدَّ عليهم، فلما أخفقت محاولاته السلميَّة قاتلهم مع الذين قاتلوهم من المسلمين في حروب الرِدَّة، فضحَّى بروحه من أجل عقيدته، ولم يُضَحِّ بعقيدته من أجل روحه، واستُشهد في ساحة الجهاد، ولكنَّ دمه لم يذهب عبثًا، بل كان من عوامل النصر الذي حقَّقه المسلمون على المرتدِّين من سُلَيْم وغيرها من القبائل، فعاد المرتدون من سُلَيْم إلى الإسلام من جديد، وعادت الوحدة إلى هذه القبيلة العربيَّة تحت لواء الإسلام، فحقَّق الضحَّاك ما كان يتمنَّاه لسُلَيْم في حياته من العودة إلى الإسلام، وبذل روحه رخيصة من أجل تحقيق أغلى أمانيه، فخسر روحه وربح بني سُلَيْم، وحقَّق بموته أعزَّ ما كان يتمنَّاه لقومه في حياته، فكان الرَّابح بميزانه وبميزان أهل القلوب.

❑ الضحاك القائد

وكان سيَّاف النبيِّ ﷺ[1] يقوم على رأس رسول اللَّه ﷺ متوشحًا بسيفه، وكان من الشجعان الأبطال[2]، ولَّاه رسول اللَّه ﷺ على مَنْ أسلم من قومه[3] قديمًا، ولما رجع من «**الجِعْرانة**»[4] بعد غزوة الطَّائف إلى المدينة، بعث المصَّدِّقين، فبعث الضحَّاك إلى بني كِلاب، وكان ذلك في شهر المحرَّم من السَّنة التاسعة الهجريَّة[5].

وتوليته المناصب الإدارية دليل على قابلياته في القضايا الإدارية وأمانته أيضًا.

وكان كريمًا مضيافًا، يُعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر، وكان أمينًا صادقًا وفيًا.

---

(١) جوامع السيرة (٢٦).

(٢) أسُد الغابة (٣/٣٦).

(٣) الاستيعاب (٢/٧٤٢).

(٤) الجعرانة: ماء بين الطَّائف ومكَّة، وهي إلى مكَّة أقرب؛ انظر: التفاصيل في «معجم البلدان» (٣/١٠٩).

(٥) مغازي الواقدي (٣/٩٧٣)، وأنساب الأشراف (١/٥٣١).

وكان من الدعاة الأولين إلى الإسلام، قضى حياته داعيًا إلى اللّه بين قومه، فلما انحرف قسم منهم فارق المنحرفين وانضمَّ إلى الذين استقاموا، ففصل السَّيف في اختلاف الفئتين، فانتصر الحق على الباطل، والنور على الظلام.

وكان أحد الأبطال، يُعَدُّ بمئة فارس وحده[1]، وكان من الشجعان يُعدُّ بمئة فارس[2]، فقد كان أحد الأبطال الشجعان المعدودين، لا يخفي مكانه ولا مكانته على أحد من المسلمين وغير المسلمين.

ومفتاح شخصيَّته القياديَّة هو شجاعته الفائقة التي زادها الإيمان الراسخ جذوة ونشاطًا، فوجهها إلى الخير والإصلاح، بعد أن كانت للشر والبطش، وللعدل والبناء، بعد أن كانت للظلم والهدم.

لقد حاز ـ بدون شك ـ على صفتين من صفات القيادة الثلاث، حاز على العلم المكتسب بإتقان فنون القتال، وحاز على التجربة العملية في الغزوات والسرايا وفي حرب الرِدَّة.

أما مزاياه القياديَّة الأخرى فلا تكاد تختلف كثيرًا عن أمثاله من قادة النبيِّ ﷺ، فهم خريجو مدرسة قيادية واحدة، وعاشوا في بيئة واحدة، من أمة واحدة، في ظروف اجتماعية واحدة.

فقد كان قادرًا على إصدار قرارات سريعة صائبة، شجاعًا، مقدامًا، على جانب عظيم من الشَّجاعة والإقدام، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمَّل المسئولية ويحبُّها ولا يخافها، ذا نفسية رصينة لا تتبدَّل في حالتي النصر والهزيمة، ويتمتَّع بمزية سبق النظر، فقد سبق قومه إلى الإسلام، فلما ارتدَّ بعضهم حذَّرهم وبشَّرهم بالعاقبة الوخيمة التي تنتظرهم، عارفًا بنفسيَّات رجاله وقابلياتهم، يثق بهم ويحبهم، ويثقون به ويحبُّونه، ذا شخصيَّة قويَّة نافذة، وذا قابلية بدنية متميزة، وذا ماض

(١) الاستيعاب (٢/٧٤١).

(٢) الإصابة (٣/٢٦٧).

ناصع مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين.

وكان يطبِّق مبادئ الحرب في قتاله؛ فهو يختار مقصده ويسعى إلى تحقيقه. يطبِّق مبدأ التعرُّض، ومعاركه كلُّها تعرضيَّة، يباغت خصمه كلَّما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويحشد القوَّة المناسبة للواجب المناسب، ويقتصد بالمجهود، ويطبِّق مبدأ الأمن لحماية قواته من مباغتة العدو لها.

لقد كان الضحَّاك قائدًا متميِّزًا.

فرضي اللَّه عن الصحابي الجليل، سيَّاف النبي ﷺ، والقائد البطل الشهيد، الضحاك بن سفيان الكِلابيِّ.

* * *

٤٨
الحِبُّ بن الحِبِّ
أسامة بن زيد الكلبي

الجدير بالإمارة.. والقائد الذي هاجم الإمبراطورية الرومانية وجرّأ العرب على مهاجمتها

٤٨

الحِبُّ بن الحِبِّ

أسامة بن زيد الكلبي

الجدير بالإمارة..

والقائد الذي هاجم الإمبراطورية الرومانية وجرَّأ العرب على مهاجمتها

هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى الكلبي[١].

أبوه: هو زيد بن حارثة مولى رسول اللَّه ﷺ.

وأمه: أم أيمن، حاضنة رسول اللَّه ﷺ، وكانت مولاة لأبيه عبداللَّه بن عبد المطلب، فلما توفي أصبحت ملكًا للرسول ﷺ، فأعتقها رسول اللَّه ﷺ، وزوَّجها زيد بن حارثة، فولدت له أُسامة.

❑ **مع النبي ﷺ:**

عاش أسامة بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ في كنف النبي ﷺ وفي رعايته، وكان الصحابة يطلقون عليه حِب رسول اللَّه ﷺ كما جاء في حديث المرأة المخزومية التي سرقت حين قالوا: «**ومن يجترئ عليه إلا أسامة حِب رسول اللَّه ﷺ**»[٢].

عن أسامة بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ حدَّث عن النبي ﷺ أنه كان يأخذه والحسن فيقول: «**اللهم أحبَّهما فإني أحبُّهما**»[٣].

وعن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أسامة أحب**

---

(١) طبقات ابن سعد (٦٢/٤)، والإصابة (٢٩/١)، وأُسْد الغابة (٦٤/١)، والاستيعاب (٧٥/١)، وتهذيب ابن عساكر (٣٩١/٢).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والنسائي، والطيالسي، وابن سعد.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٣٥)، والنسائي في «الفضائل» (٨٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٣٢/١/٤).

الناس إليَّ»[1].

وعن أم المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: أراد النبي ﷺ أن يُنَحِّيَ مخاط أسامة. قالت عائشة: حتى أكون أنا الذي أفعل. قال: «**يا عائشة أحبِّيه فإني أُحبه**»[2].

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: عثر أسامة بعتبة الباب فشُجَّ في وجهه فقال لي رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ -: «**أميطي عنه الأذى**» فقذرته، فجعل يمصُّ الدم ويمجُّه عن وجهه ويقول: «**لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أنفقه**»[3].

وعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: أمَّر رسول اللَّه ﷺ أسامة على قوم، فطعنوا في إمارته، فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم اللَّه لقد كان خليقًا بالإمارة، وإنْ كان من أحبِّ الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**»[4].

وعند مسلم ص (١٨٨٥) من الزيادة «**فأوصيكم به، فإنه من صالحيكم**»، وعند النسائي في الفضائل (٨٣) «**فاستوصوا به خيرًا فإنه من خيركم**».

وعن أسامة بن زيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: «**لما ثقل رسول اللَّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ - هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول اللَّه ﷺ وقد**

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٥٩٦)، واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (٢/٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٣٧٢).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٣٨١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) صحيح لغيره: أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢٣٥٦)، واللفظ له، وأخرجه أحمد (٦/١٣٩، ٢٢٢)، وابن ماجه (١٩٧٦)، وأبو يعلى (٤٥٩٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/١/٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٥٠)، ومسلم (٢٤٢٦)، والترمذي (٣٨١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (٢/١١٠)، وفي «فضائل الصحابة» (١٥٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/١/٤٥).

أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يصبُّها عليَّ أعرف أنه يدعو لي»[(١)].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «**غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات، وخرجت فيما يبعث من البعث تسع غزوات، مرة علينا أبو بكر ومرَّة أسامة**»[(٢)] وهذا يدل على أن النبي ﷺ أمَّر أسامة مرات قبل سريته إلى الروم.

وبلغ حب النبي ﷺ لأسامة أن كان يردفه وراءه مرات عديدة، فقد دخل مكة يوم «**الفتح**» ورديفه أسامة، فأناخ في ظل الكعبة ودخلها مع بلال وأسامة، وشوهد أسامة وهو رديف رسول اللَّه ﷺ حين أفاض من عرفه[(٣)].

❑ جهاده مع النبي ﷺ

رده الرسول ﷺ يوم «**أحُد**»؛ لصغر سنه، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري، ورافع بن خديج من بني حارثة ولهما خمسة عشر عامًا، وردَّ أسامة، وعبداللَّه بن عمر، وغيرهما؛ لصغر سنهم، ولكنه عاد فأجازهم عام «**الخندق**» بعد ذلك بسنة، وكان لعبداللَّه بن عمر يوم «**أُحُد**» أربعة عشر عامًا، وكان سائر من رُدَّ معه في هذه السن أيضًا[(٤)].

وشهد غزوة «**الخندق**» بعد أن أصبح عمره خمسة عشر عامًا، كما شهد الغزوات الأخرى تحت لواء الرسول القائد عدا «**مؤتة**»، فقد شهدها تحت لواء «**أبيه**» زيد[(٥)].

وقد أبلى يوم «**حُنَيْن**» أحسن البلاء، وثبت فيه ثبات الأبطال، إذ إنه ثبت مع

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٥/٢٠١)، والترمذي (٣٨١٧)، وقال: هذا حديث غريب. وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٥٢٦)، والطبراني في «الكبير» (١/١٦٠) (٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٠، ٤٢٧١)، كتاب المغازي ـ باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحُرقات من جُهينة.

(٣) فتح الباري (٨/٨١)، وطبقات ابن سعد (٤/٦٦).

(٤) جوامع السيرة، لابن حزم ص (١٥٩).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/٦٢).

عشرة رجال من أصحاب النبي ﷺ وآل بيته الطاهرين بعد هزيمة المسلمين في أول معركة (حنين)[١]، فاستطاع الرسول ﷺ بهذه الساقة الصغيرة أن يجمع مئة من المسلمين يحمي بهم انهزام المسلمين من مطاردة المشركين لهم، ثم يقوم بالهجوم المقابل بعد فتور زخم هجوم المشركين، فلما عاد المنهزمون من المسلمين بعد فرار المشركين، وجدوا أسرى المشركين في الأغلال.

لقد كان أسامة الشجاعة والإقدام منذ نشأته؛ أرسل النبي ﷺ أسامة على رأس قوة من المسلمين، وكان ذلك أول تجربة عملية لإمارة أسامة، فلقي العدو وقاتلهم مظهرًا شجاعة نادرة. قال أسامة: «**فأتيت النبي ﷺ وقد أتاه البشير فإذا هو متهلل وجهه، فأدناني، ثم قال:** «**حدِّثني!**»، فجعلت أحدِّثه، فقلت: فلما انهزم القوم أدركت رجلًا وأهويت إليه بالرمح. فقال: لا إله إلا الله! فطعنته فقتلته!.. فتغيَّر وجه رسول اللَّه ﷺ وقال: «**ويحك يا أسامة! فكيف لك بلا إله إلا الله؟! ويحك يا أسامة! فكيف لك بلا إله إلا الله؟**»، فلم يزل يردِّدها عليَّ حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل عملته واستقبلت الإسلام يومئذ جديدًا، فلا واللَّه لا أقاتل أحدًا قال: لا إله إلا الله، بعد ما سمعت رسول اللَّه ﷺ[٢]».

---

(١) الذين ثبتوا عشرة رجال؛ وهم:

أ - من المهاجرين:

١- أبو بكر ٢- عمر

ب - من أهل البيت:

١- علي بن أبي طالب ٢- العباس بن عبد المطلب

٣- أبو سفيان بن الحرث ٤- ابن أبي سفيان

٥- الفضل بن العباس ٦- ربيعة بن الحرث

ج - من الموالي:

١- أسامة بن زيد ٢- أيمن ابن أم أيمن

راجع: سيرة ابن هشام (٧٢/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٦٩/٤)، وتهذيب ابن عساكر (٣٩٥/٢).

ولقد بوَّب البخاري هذه في كتاب المغازي باب «**بعث النبي ﷺ أسامة إلى الحُرقات من جهينة**»: عن أسامة بن زيد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى الحُرقة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلتَهُ بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، قلت: كان متعوِّذًا. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم**»[١].

قال الحافظ ابن حجر في «**الفتح**» (٥٩١/٧): قوله «**بعثنا رسول اللَّه ﷺ إلى الحرقة**» ليس في هذا ما يدل على أنه كان أمير الجيش كما هو ظاهر الترجمة، وقد ذكر أهل المغازي سرية غالب بن عبداللَّه الليثي إلى الميفعة ـ وهي وراء بطن نخل، وذلك في رمضان سنة سبع، وقالوا: إن أسامة قتل الرجل في هذا السرية، فإن ثبت أن أسامة كان أمير الجيش فالذي صنعه البخاري هو الصواب؛ لأنه ما أُمِّر إلا بعد قتل أبيه بغزوة مؤتة، وذلك في رجب، وإن لم يثبت أنه كان أميرها رجح ما قال أهل المغازي» أ.هـ.

❑ بعث أسامة وسريته إلى تخوم البلقاء والداروم

بعد عودة الرسول ﷺ من حجة الوداع، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة، والمحرَّم، وصفر من السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢م)، فأمر بتجهيز جيش ضخم كان فيه أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقَّاص، وأبو عبيدة بن الجراح ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ، وجعل هذا الجيش بإمرة أسامة، فتجهَّز الناس، وأوعب[٢] مع أسامة المهاجرون الأولون[٣]، وأمر النبي ﷺ أسامة أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء[٤] والداروم[٥] من

(١) البخاري (٤٢٦٩).

(٢) أوعبوا معه؛ أي: خرجوا جميعهم للغزو.

(٣) سيرة ابن هشام (٣١٩/٤)، وطبقات ابن سعد (١٩٠/٢).

(٤) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان.

(٥) الداروم: قلعة بعد مدينة غزة للقاصد إلى مصر، الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار

أرض فلسطين.

وتأخَّر تجهيز هذا الجيش؛ لمرض الرسول ﷺ، فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، ثم قال: «**أيها الناس! أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**[١]». ثم نزل رسول اللَّه ﷺ، فأسرع الناس في جهازهم. وخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا موضع «**الجرف**»[٢]، فعسكر الجيش هناك ينتظرون نتيجة مرض الرسول ﷺ.

قال أسامة: «**لما ثقل رسول اللَّه ﷺ، هبطتُ وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمتَ فلا يتكلَّم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليَّ، فأعرف أنه يدعو لي**»[٣].

وكان أول أمر أصدره أبو بكر رضي الله عنه بعد أن تمَّت له البيعة بالخلافة أن قال: «**أنفذوا بعث أُسامة**».

ولكن أسامة طلب من عمر رضي الله عنه أن يرجع إلى المدينة؛ ليستأذن أبا بكر في رجوع أسامة وجيشه قائلًا: «**ارجع إلى خليفة رسول اللَّه فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإنَّ معي وجوهَ الناس وحدَهم، ولا آمن على خليفة رسول اللَّه وثقل رسول اللَّه يتخطَّفهم المشركون**».

وقالت الأنصار لعمر: «**فإن أبى إلا أن نمضي، فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلًا أقدم سنًّا من أسامة**».

وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائره وقال: «**لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول اللَّه ﷺ**».

فرسخ.

(١) طبقات ابن سعد (٤/٦٨).

(٢) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو دمشق.

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٦٨).

ولما سمع أبو بكر رسالة الأنصار من عمر، وثب لها وكان جالسًا، فأخذ بلحية عمر وقال مغضبًا: «**ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ** وتأمرني أن أنزعه؟!».

ورجع عمر إلى الناس، فسألوه عما صنع، فقال: «**امضوا ثكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله**[١]».

وقال الناس لأبي بكر: «**إنَّ هؤلاء جند المسلمين، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرِّق جماعة المسلمين عنك**».. فأجابهم أبو بكر: «**والذي نفسي بيده، لو ظننت أنَّ السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة، كما أمر النبي ﷺ**»[٢].

ورجع أسامة بنفسه إلى أبي بكر وقال له: «**إنَّ رسول اللَّه بعثني وأنا على غير حالكم هذه، وأنا أتخوف أن تكفر العرب، فان كفرت كانوا أول من يُقَاتَل، وإن لم تكفر مضيتُ، فإن معي سروات الناس وخيارهم**»..

وكان جواب أبي بكر لأسامة ولغيره من الناس ما ذكره في خطابه: «**واللَّه لأن تخطفني الطير أحب إليَّ من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول اللَّه ﷺ**»[٣].

وأمر أبو بكر الناس بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بـ«**الجرف**»، فخرجوا كما أمرهم أبو بكر. ولما أكمل الجيش تحشُّدَه بـ«**الجرف**»، زارهم أبو بكر مودِّعًا. وتحرَّك هذا الجيش إلى هدفه، فشيَّعه أبو بكر ماشيًا وأصرَّ على بقاء أسامة راكبًا؛ ليزيد الناس لإمارة أسامة إذعانًا وتسليمًا. فقال له أسامة: «**يا خليفة رسول الله! واللَّه لتركبنَّ أو لأنزلن**»، فقال أبو بكر: «**واللَّه لا تنزل وواللَّه لا أركب! وما عليَّ أن أغبرَّ قدمي في سبيل اللَّه ساعة، فإن للغازي بكل**

---

(١) الطبري (٢/٤٦٢).

(٢) ابن الأثير (٢/١٢٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٦٧).

خطوة يخطوها سبع مئة حسنة تكتب له وسبع مئة درجة ترفع له، وترفع عنه سبع مئة خطيئة!»، فلما آن له أن يودِّع الجيش قال لأسامة: «**إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل**[١]»، فأذن أسامة لعمر أن يتخلَّف عن الجيش.

وقبل أن يعود أبو بكر أدراجه إلى المدينة، وقف في جيش أسامة خطيبًا وقال: «**أيها الناس، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم شيئًا بعد شيء فاذكروا اسم اللَّه عليه، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا.. اندفعوا باسم الله**».

وقال لأسامة: «اصنع ما أمرك به نبي اللَّه ﷺ: ابدأ ببلاد قضاعة، ثم ائت «**آبل**»[٢]، ولا تقصرنَّ في شيء من أمر رسول الله، ولا تعجلنَّ لما خلَّفت عن عهده»[٣]..

لقد كانت وصية أبي بكر لجيش أسامة أروع ما يمكن أن يوجهه خليفة إنسان يقدِّر كرامة الإنسانية، لقائد إنسان يقود جيشه لخوض حرب عادلة، ولم تطمع قوانين الحرب والحياد من القانون الدولي في القرن العشرين أن تسمو إلى الهدف الرفيع الذي عبَّر عنه أبو بكر رضي الله عنه بهذه الكلمات القليلة في عددها، الكبيرة في معناها.

وسار أسامة في ثلاثة آلاف[٤] يقطع البيد في أيام شديدة الحر من شهر حزيران،

---

(١) الطبري (٢/٤٦٣).
(٢) آبل: تُسمَّى آبل الزيت، وهي مدينة بالأردن من مشارف الشام. راجع: معجم البلدان (١/٥٢).
(٣) الطبري (٢/٤٦٣).
(٤) البدء والتاريخ (٥/١٥٢).

وبعد عشرين يومًا من مسيرته نزل أسامة بجيشه فأغار على «**آبل**» الواقعة شمالي «**مؤتة**»، وبثَّ خيوله في قبائل قضاعة وأحلافهم، تلك القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في معركة «**مؤتة**»، فبثَّ خيوله في تلك القبائل، وقضى على كل مقاومة صادفها هناك.

لقد نفذ أسامة أمر الرسول ﷺ: أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وأن ينزل على أعدائه في عماية الصبح، وأن يتمَّ ذلك دراكًا حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه، فلما أنجز كل ذلك، عاد إلى المدينة بعد أربعين يومًا، وقيل: سبعين يومًا من يوم مغادرته لها، ممتطيًا الجواد الذي استشهد عليه أبوه زيد في غزوة «**مؤتة**»، قال عروة فما رُئي جيش كان أسلم وأغنم من ذلك الجيش»[1].

عاد إلى المدينة بجيشه الظافر، فتلقَّاه أبو بكر الذي خرج في جماعة من كبار الصحابة للقائه، وتلقَّاه أهل المدينة. ودخل أسامة المدينة المنورة تحيط به هالة من فخار النصر، والناس حوله يردِّدون فيه قول الرسول ﷺ فيه: «**إنه خليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**».

وبعثه أبو بكر بعد رجوعه في أثر خالد بن الوليد إلى «**اليمامة**»، فلحقه، وشهد معه القتال[2].

شن أسامة رضي الله عنه الغارة على «**أُبْنى**» فأحرق وخرَّب، وقال رضي الله عنه لأصحابه قبل الهجوم: اجعلوها غارة، ولا تمعنوا في الطلب، ولا تفترقوا، واجتمعوا، وأخفوا الصوت، واذكروا اسم اللَّه في أنفسكم، وجردوا سيوفكم، وضعوها فيمن أشهروا عليكم السلاح.

ثم رفع عليهم الغارة، فما نبح كلب، ولا تحرك أحد، ولا شعروا إلا بالقوم قد

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٦٨)، وتهذيب ابن عساكر (٢/٣٩٤).
(٢) البدء والتاريخ، لأبي يزيد البلخي (٥/١٥٢).

شنوا عليهم الغارة، ينادون بشعارهم: يا منصور أمت[١].

«فقال بُريدة بن الحُصَيب لأسامة: «يا أبا محمد، إني شهدت رسول اللَّه ﷺ يوصي أباك أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن أطاعوه خيرهم، فإن أحبُّوا أن يقيموا في ديارهم، ويكونوا كأعوان المسلمين، فلا شيء لهم في الفيء ولا في الغنيمة، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن تحولوا إلى دار الإسلام، كان لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين.

فقال أسامة: هكذا وصية رسول اللَّه ﷺ لأبي، ولكنه أمرني - وهو آخر عهده إلي - أن أسرع المشي، وأسبق الأخبار، وأن أشن الغارة عليهم بغير دعاء «**أي إنذار**»، فأحرِّق وأخرِّب.

فقال بريدة: سمعًا وطاعة لأمر رسول رسول اللَّه ﷺ[٢].

❑ ثأر أسامة لأبيه:

وكان أسامة قد خرج على فرس أبيه التي قتل عليها أبوه يوم مؤتة، وكانت تدعى: «**سبحة**»، وقتل قاتل أبيه في الغارة. كما أخبره به بعض أهل أبنى[٣].

❑ عودة الجيش واستقبال الخليفة والمسلمين له:

ثم عاد أسامة بجيشه سالمًا غانمًا إلى المدينة، بعد غياب خمسة وثلاثين يومًا، سار عشرين في بدأته، وخمس عشرة في رجعته، وكان أسامة أرسل بشيره من وادي القرى بسلامة المسلمين، وأنهم أغاروا على العدو، فأصابوهم، فلما سمع المسلمون بقدومهم، خرج أبو بكر مع المهاجرين، وخرج أهل المدينة، حتى العواتق «**أي: الشابات**»، وسُروا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين، ودخل يومئذ على

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر (١٢٣/١).
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر (١٢٣/١).
(٣) أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ وابن حبه، للدكتور وهبة الزحيلي ص (٨٣)، دار القلم.

فرسه «**سبحة**» كأنما خرج من ذي خشب «**موضع**»، عليه الدرع، واللواء أمامه يحمله بُرَيْدة، حتى انتهى به إلى المسجد النبوي، فدخل، فصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومعه اللواء، فما زال معقودًا في بيته حتى توفي[١].

وفي هذا الاستقبال الحافل ردد الناس قول النبي ﷺ في أسامة: «**إنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**».

❑ أهم آثار هذا البعث:

وقد حقق أسامة بهذا النصر مجدًا سامقًا، إذ هاجم الإمبراطورية الرومانية في عقر دارها، وجرَّأ المسلمين العرب على مهاجمتها، ونزع هيبة الروم من قلوب المسلمين، ومهد الطريق أمامهم لفتح بلاد الشام ومصر.

ولعل أروع أسباب النصر هو توقيت البعث بعد الوفاة، إذ لم يخطر ببال أحد المبادرة بمثل هذا الهجوم في وقت شغل فيه المسلمون بوفاة نبيهم، وبردَّة العرب، وباستفحال خطر مانعي الزكاة.

وبرهان ذلك أن خبر نَعْي رسول الله، وإغارة أسامة في ناحية أرضه، جاء في وقت واحد، وبخبر واحد، فقالت الروم: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا.

والجدير بالذكر أن الجيش عاد سالمًا، يحمل غنائم كثيرة.

قال عروة: فما رُئِيَ جيشٌ كان أسلم وأغنم من ذلك الجيش[٢].

وكذلك أحدث هذا الجيش رهبة بين العرب في الجزيرة العربية، فما إن كان أسامة يمرُّ بقبيل يريدون الارتداد، إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم[٣].

---

(١) تهذيب ابن عساكر (١/١٢٤).

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢/٣٩٤).

(٣) المرجع السابق (١/١٢٥)، والبداية والنهاية (٦/٣٠٤).

وكان لهذا الجيش فضل كبير في تثبيت الإسلام؛ لأنه استطاع هزيمة الروم وقتلهم، ثم رجعوا سالمين، فثبت الناس على الإسلام[(١)].

لله درها من قصيدة:

سر يا أُسامةُ ما لجيشكَ هَازِمُ ... أنت الأميرُ وإن تعتَّب وَاهِمُ
قالوا غلامٌ للكتائبِ قائدٌ ... وفتى على الصِّيدِ الخضارم حَاكُم[(٢)]؟
غَضِبَ النبيُّ وقال إنِّي بالذي ... جَهِلَ الغِضابُ السَّاخطونَ لعالِمُ
إن يجهلُوه فقد عَرفتُ مَكانَهُ ... والعدلُ عِندي لا محالةَ قائِمُ
ولئن رموه بما يسوءُ فقد رموا ... مِن قبلُ والدَه ولَجَّ النَّاقِمُ
نقموا الإِمارَةَ فيهما وهُما لها ... أهلٌ فكلٌّ أحوذِيٌّ حازِمُ[(٣)]
الخيرُ فيه وفي أبيهِ فآمِنوا ... يا قومِ وَانْطلِقوا لما أنا عازِمُ

* * *

ساروا وظَلَّ مع النبيِّ خليلُه ... والخطبُ بينهما مُقيمٌ جاثِمُ
يَنتابُ مَضجَعُه وينظرُ ما الذي ... صنعَ القضاء فَهمُّه مُتراكِمُ
مَرِضُ النبيِّ طَغَى عليه فَقلبُه ... يَغشاهُ مَوجٌ للأسى مُتلاطِمُ
ودَرَى أسامةُ فانثنى في جيشهِ ... والحزنُ طامٍ والدُّموعُ سَواجِمُ[(٤)]

* * *

مات الرَّسولُ المجتبى مات الذي ... أحيا نُفُوسَ الناسِ وهْيَ رَمائِمُ
مات الرسولُ فكلُّ أُفقٍ عابسٌ ... أسفًا عليه وكلُّ جوٍّ قائمُ
مات الذي شَرَعَ الحياةَ كريمةً ... والنَّاسُ شرٌّ والحياةُ مآثِمُ
مات الذي كانت عجائبُ طِبِّهِ ... تَشفِي العُقولَ وداؤُها مُتفاقِمُ

(١) المرجعان السابقان.
(٢) الخَضَارِمُ: جمع الخِضْرَمِ؛ وهو: الكثير العطاء.
(٣) الأحوذي: الحاذق السريع في كل ما أخذ فيه.
(٤) طَامٍ: مِنْ طَمَا؛ بمعنى: اشتدَّ، وسجم: سال وانصب.

طَاشتْ لمصرعِه عُقولٌ رُجَّحٌ ... وَوَهتْ قُوىً مشدودةٌ وعَزائِمُ
دنيا الممالكِ بعد عصرِ مُحمَّدٍ ... حُزْنٌ يُجدَّدُ والعصورُ مَآتِمُ
صلَّى عليكَ اللهُ إنَّ قضاءَهُ ... حَتْمٌ وإنْ زَعَمَ المزاعِمَ حَالِمُ

❊ ❊ ❊

عاد ابنُ زيدٍ بالكتائبِ ما لوَى ... من عزمِه الحَدَثُ الجليلُ العَارِمُ(١)
يَمشِي الخليفةُ لائذًا بركابِهِ ... وكأنَّما هو سائِقٌ أو خادِمُ
وأبى الأميرُ فقال دُونَكَ مَركبي ... لا تَمْشِ إنِّي إن فَعلتَ لَغانِمُ
ولئن أبيتَ لأنزلَنَّ كَرامةً ... لكَ فاقْضِ أمرَكَ لا نَبَا لَكَ صَارِمُ(٢)
قال الخليفةُ ما أراكَ بِمُنصِفي ... دَعْنِي فللإسلامِ حَقٌّ لَازِمُ
أنا من جُنودِك لو ملكتُ رأيتني ... تحت اللِّواءِ فهالكٌ أو سالمُ

❊ ❊ ❊

قُضِيَ الوَداعُ وعادَ مَشكورَ الخُطَى ... يَرعاهُ للإسلامِ رَبٌّ راحِمُ
سِرْ يا أُسامةُ فالقواضبُ لم تُمتْ ... هِيَ ما ترى وَهْوَ الجهادُ الدَّائِمُ
وإذا البواترُ واللهاذِمُ أعوزَتْ ... فالمسلمونَ بَوَاتِرٌ ولهاذِمُ(٣)
يا لائِمَ القمرِ المنيرِ مُودِّعًا ... هل كان قبلكَ للكواكبِ لائمُ؟
هِيَ يا أخا الشَّوقِ المبرِّحِ قُبْلَةٌ ... ما ذَاقَ لذَّتَها مَشُوقٌ هائِمُ
ولقد تكونُ وفي حلاوتها أسى ... مُرٌّ مذاقتُهُ ووَجْدٌ جاحِمُ(٤)

❊ ❊ ❊

زَلْزِلْ جُنودَ الرُّومِ وَاهْدِمْ مُلكَهُمْ ... في عزِّهِ العالي فنعِمَ الهادِمُ
قتلوا أباك فلا تَدَعْهُمْ وَاعْتَصِمْ ... منهم بربِّك إنَّه لكَ عاصِمُ

---

(١) الشرس: المؤذي.

(٢) الصارم: السيف القاطع. ونبا السيف: كَلَّ وارتدَّ ولم يقطع.

(٣) سيوف حادة قاطعة.

(٤) شديد الاشتعال.

ولقد هَزمتَ جُموعَهم فتفرَّقوا وشَفاكَ منهم جيْشُكَ المُتلاحِمُ
وأجَلْتَ خيلكَ في عِراصِ دِيارِهم وفعلتَ فِعلَك والأُنوفُ رَواغِمُ[١]
قتلٌ وأسرٌ هَدَّ من عَزَماتِهم وأذلَّهم وكذاكَ يُجزَى الظَّالِمُ
ولَئِنْ أزلتَ دِيارَهُم ونَخيلَهَم من بَعدِ ما ظلموا فمالكَ لائمُ

❋ ❋ ❋

عُدْ يا ابنَ زيدٍ باللِّواءِ مُظفَّرًا وَانْعَمْ فَبالُ مُحمَّدٍ بكَ ناعِمُ
هذا أبو بكرٍ مَشَى في صحبهِ يلقاكَ مُبتهِجًا وركبُك قادِمُ
هُمْ هنَّئُوكَ وأنت أهلٌ للذي صنعوا وحَسْبُكَ أن يُفيق النَّائمُ
اشكُرْ صَنيعَ اللهِ يا شيخَ الوغَى إنَّ الذي عابَ الغُلامَ لنادِمُ
حِبَّ الرسولِ لكَ البِشارةُ إنَّه شرَفٌ له فوقَ النُّجومِ دَعائِمُ[٢]
ماذا يقولُ ذَوُو الحفيظةِ بعدَ ما شكَرتْ أُميَّةُ ما صَنَعْتَ وهاشِمُ؟
عفوًا فتلكَ حَميَّةٌ عَربيَّةٌ أعيا الأوائلَ عهدُها المُتقادِمُ
للمرءِ من نُورِ الحقائقِ ما يَرى لا ما تُريهِ وساوسٌ ومَزاعِمُ
والنَّاسُ عِندَ فِعالِهم إنْ يفعلوا خيرًا فأحرارُ النُّفوسِ أعاظِمُ
لا حُكْمَ للأنسابِ أو للسنِّ في ما قالَ فِيهم مادحٌ أو واصِمُ[٣]

لا يعرف مقادير الرجال إلا الرجال:

قال عمر رضي الله عنه «**ما كنت لأحُيِّي أحدًا بالإمارة غير أسامة؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قُبض وهو أمير**»[٤].

قال عبداللَّه بن دينار: كان عمر بن الخطاب إذا رأى أسامة بن زيد، قال: السلام عليك أيها الأمير، فيقول أسامة: غفر اللَّه لك يا أمير المؤمنين، تقول لي هذا؟

---

(١) العِراص: جمع العرصة؛ وهي: ساحة الدار.
(٢) الحِبُّ: المُحِبُّ والمحبوب.
(٣) عائب.
(٤) طبقات ابن سعد (٦٧/٤)، وتهذيب ابن عساكر (٣٩٤/٢).

قال: فكان يقول له: لا أزال أدعوك ما عشت، أيها الأمير، مات رسول الله ﷺ، وأنت عليَّ أمير[١].

وقد فضَّله في العطاء على أترابه من أبناء المهاجرين والأنصار حتى على ابنه عبدالله بن عمر، إذ فرض لأسامة أربعة آلاف درهم وفرض لابنه عبدالله ثلاثة آلاف درهم، فقال عبدالله لأبيه: «**يا أبت! لم زدته عليَّ ألفًا؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي، وما كان له ما لم يكن لي!**»، فأجابه عمر: «**إنَّ أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وكان أسامة أحب إلى رسول الله ﷺ منك**»[٢].

وقال ابن إسحاق: «**إن عمر فرض لابنه ثلاثة آلاف، وفرض لأسامة ثلاثة آلاف وخمس مئة، فقيل له في ذلك؟ فقال: أأجعل حِبَّ رسول الله كحِبِّ نفسي؟!!**».

وفي رواية أنه فرض لأسامة أربعة آلاف كالبدريين.

قال ابن عمر: فرض عمر لأسامة أكثر مما فرض لي، فقلت: إنما هجرتي وهجرة أسامة واحدة! فقال: إن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وإنه كان أحب إلى رسول الله منك، وإنما هاجر بك أبوك، فآثرت حب رسول الله ﷺ على حِبي»[٣].

وكان عثمان رضي الله عنه يثق بأسامة كثيرًا ويقرِّبه إليه.

واعتزل أسامة الفتن بعد مقتل عثمان إلى أن مات[٤]؛ وفاء لعهده الذي كان قطعه على نفسه ألَّا يقاتل من يقول: «**لا إله إلَّا الله**»، بعد الذي كان من رسول الله ﷺ معه حين علم منه قصة قتله أحد الرجال في إحدى الغزوات بعد أن قال: «**لا**

(١) رواه أبو يعلى وابن حبان والبيهقي في «السنن» وأحمد في «المسند».

(٢) الخراج، لأبي يوسف ص (٥١).

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمر، وابن عساكر في «تاريخه» (٢/٣٩٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/٧٠).

(٤) الإصابة (١/٢٩).

إله إلا الله**»، كما أسلفنا.

كما اعتزل هذه الفتن بعض كبار الصحابة؛ منهم: سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، حيث آثروا ألَّا يلوِّثوا أيديهم بدماء المسلمين، مما يدل على تحرج أسامة وصحبه من الشبهات..

فقد قال أسامة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلَّا الله**».

وسكن أسامة «**المزة**»[١] في دمشق بعد فتحها، ثم رجع فسكن «**وادي القرى**»[٢]، ثم عاد إلى المدينة حيث توفي بـ«**الجرف**»[٣]، وحمل من «**الجرف**» إلى المدينة بعد موته ودفن فيها[٤].

لقد مات النبي ﷺ وعُمْرُ أسامة عشرون عامًا، أو ثمانية عشر عامًا برواية أخرى[٥].

وإنني أرجح أن عمره حين مات النبي ﷺ كان عشرين عامًا؛ ذلك لأن عمره في غزوة «**أحد**» كان أربع عشرة سنة، وكان عمره يوم «**الخندق**» التي وقعت في السنة الخامسة للهجرة خمس عشرة سنة، وكان وفاة النبي ﷺ في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢م)، وعلى ذلك يكون مولد أسامة قبل الهجرة بتسع سنين (٦١٣م)، وقد توفي سنة أربع وخمسين للهجرة[٦] (٦٧٤م) فيكون قد عاش ثلاثًا

---

(١) المزة: قرية كبيرة غَنَّاء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ.
(٢) وادي القرى: وَادٍ بين المدينة والشام من أعمال المدينة، كثير القرى.
(٣) الإصابة (٢٩/١).
(٤) طبقات ابن سعد (٧٢/٤).
(٥) طبقات ابن سعد (٧٢/٤).
(٦) الإصابة (٢٩/١)، وفي تهذيب ابن عساكر (٣٩٢/٢): أن عُمرَهُ يوم توفي رسول الله ﷺ كان عشرين عامًا.

وستين سنة قمرية.

❑ الحِبُّ القائد الذي جرَّأ المسلمين على مهاجمة الروم

١ـ «**إنه خليق للإمارة**» هذا ما كان يردِّده النبي الكريم عن أسامة، والمعروف أن الرسول ﷺ كان يتمتع بموهبة فذَّة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب، حتى إن بعض المستشرقين يرون أن موهبته الفائقة ـ في معرفة نفسيات وقابليات أصحابه وتكليف كل فرد منهم بما يناسب نفسيته وقابليته ـ كانت من أهم عوامل نجاحه في نشر الدعوة الإسلامية.

لقد طعن «**المنافقون**»(١) أولًا في إمارة أسامة؛ لصغر سنة، فانتشرت مقالتهم هذه بين بعض الناس(٢)، فتناقل هذا الطعن الناس، ونقله بعض المستشرقين من بعض المصادر القديمة، ونقله عنهم ـ بقصد أو بدون قصد ـ بعض المثقفين من العرب والمسلمين، فشاع أمره في مدارسنا وبين مثقفينا كأنه حقيقة واضحة لا تحتاج إلى تفكير وتمحيص!!

إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يولي أسامة إمارة جيش فيه صفوة أصحابه يتحرك لخوض معركة غير معروفة النتائج، ما لم تتوفر فيه صفات معينة تؤهله لِتَسَنُّمِ هذا المنصب الخطير.

وإذا كان أي إنسان سَوِيٍّ لا يُقدم على تعيين شاب لا كفاءة له على قيادة جيش فيه خاصة أصدقائه وأهل بيته في مهمة خطيرة يحتمل أن يلاقوا فيها الموت، فكيف يمكن أن يُقدم الرسول القائد على مثل هذا العمل؟؟.

٢ـ فما المزايا التي وجدها الرسول ﷺ في أسامة، فجعلته يعيِّنه أميرًا على أخطر جيش في أخطر مهمة في أخطر الظروف والأحوال؟؟

---

(١) الطبري (٢/٤٢٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٦٥).

ولكي نقدر مزايا أسامة التي أهّلته لِتَسَنُّم هذا المنصب الخطير، لا بد لنا أن نذكر شيئًا عن واجبه الذي أنيط به تنفيذه في الغزوة الأخيرة التي قادها.

كان واجب أسامة في تلك الغزوة، استنادًا إلى الأمر الصريح الذي أصدره الرسول ﷺ إليه، أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم في عماية الصبح، دراكًا، وأن يعود من مهمته بعد إنجازها إلى المدينة دون تأخير!

إذًا، فمهمة أسامة، هي القيام «**بغارة**» كبيرة تهدف إلى التأثير المعنوي على الروم وحلفائهم بالدرجة الأولى.

وكان النبي ﷺ يتوخَّى من هجماته المتكررة على تخوم الروم إثبات قوة المسلمين عمليًّا؛ حتى يحول دون مهاجمة الروم للمسلمين، وكان بهذه الهجمات يطبق الفكرة السوقية المعروفة: «**الهجوم أنجع وسائل الدفاع**».

لقد كان واجب أسامة هو خوضُ معركةِ معنوياتٍ بالدرجة الأولى، تعتمد على المباغتة والاندفاع والحرب الخاطفة تجاه عدو قوي تتيسر لديه قوات نظامية وغير نظامية، ولديه إمكانات مادية هائلة بالنسبة لإمكانات المسلمين في حينه، ومثل هذه المعركة تحتاج إلى قائد يمتاز بالشجاعة الخارقة التي تضمن الإقدام والاندفاع، ويمتاز بالعقيدة الراسخة التي تستهين بالأخطار، ويمتاز بالعقلية الراجحة التي تتبصَّر بالعواقب، وتمتاز بعد كل ذلك بالفتوة التي تتحمل المشاق ولا تبالي بالأهوال.

لقد رأينا أسامة يتمتع بكل هذه الخصال بشكل واضح ـ كما مرَّ بنا في دراسة سيرته ـ.

لمسنا شجاعته في إقدامه متطوعًا للقتال يوم «**أُحُد**» حين كان بعمر الورد، فردَّه الرسول ﷺ؛ لأنه لم يبلغ يومها من العمر ما يؤهله لتحمل أعباء القتال.

ولمسنا شجاعته في ثباته المستميت مع الرسول ﷺ يوم «**حُنَيْن**» عندما تحطَّمت أعصاب أشجع الرجال.

ورأينا شجاعته حين أمَّره النبيﷺ على سرية قاتلت بعض الأعراب...

تلك هي شجاعته وإقدامه.

وقد نشأ أسامة وترعرع في بيت النبيﷺ ، فآمن منذ عرف نفسه بالإسلام، وأصبح مستعدًا للتضحية بكل شيء في سبيل عقيدته التي آمن بها... لقد كان أسامة منذ نعومة أظفاره عقائديًّا من الطراز الأول.

أما عقليته الراجحة التي ظهرت بوادرها مبكرة على تصرفاته، فيدلنا عليها إيثار النبيﷺ له باستشارته في أخطر قضية عائلية صادفها في حياته، وكان عمر أسامة حينذاك ستة عشر عامًا! لقد كان أسامة مقربًا من الرسول ﷺ ، ولكن ذلك لم يكن السبب الأول والأخير لاستشارته، إذ كان هناك كثيرون غير أسامة مقربين من النبي ﷺ ذوي قرباه، ومن آل بيته، ومن أصحابه، وهم أكبر من أسامة سنًّا وأكثر تجربة في الحياة، فإيثار أسامة بالاستشارة دليل قاطع على مكانته العقلية الرفيعة.

أما شبابه فلا حاجة بنا إلى إثباته، خاصة وأنَّ هذا الشباب، كان السبب المباشر لتذمُّر بعض الناس من إمارته.

تلك هي مزايا أسامة التي تجدها واضحة عند دراسة سيرته، وهي وحدها التي أهَّلته لِتَسَنُّمِ منصبه الرفيع.

لقد قضى الإسلام ـ مع ما قضى عليه من تقاليد الجاهلية ـ على الأنفة من تأمير من لم تقدمه السن، والاستمساك بعرى التفاضل بالأنساب والأحساب...

إن التفاضل في الإسلام يخضع للتقوى وصالح الأعمال.. للكفاءة.

لقد رفعت مزايا أسامة وحدها أسامة إلى الإمارة، وقبل أن يتولى إمارة الجيش الذي تعرَّض بالإمبراطورية الرومانية جرَّبه الرسول ﷺ قائدًا لعدة غزوات داخلية أثبت فيها كفاءته بصورة عملية.

أما حب الرسول ﷺ له فلم يك السبب الوحيد لإمارته، وحسبنا أن نتذكر نتائج المعركة التي قادها أسامة، فقد كان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعًا للمسلمين؛ لأن العرب قالوا: «**لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش**»، فكفُّوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه[1]، كما أن الروم قالوا: «**ما بال هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا**[2] **فشغلوا بالاستعداد للدفاع عن بلادهم تجاه جيش المسلمين، واستبعدوا من أذهانهم فكرة مهاجمة المسلمين في عقر دارهم؛ انتهازًا لفرصة موت قائدهم ونبيهم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ** ».

٣ـ واستنادًا إلى مبادئ الحرب، كان أسامة «**يختار هدفه ويديمه**»، ويفكر في أقوم وسيلة للوصول إليه، ثم يقرِّر الخطة المناسبة للحصول عليه. وكانت غزوات أسامة كلها «**تعرُّضية**» تشيع فيها روح «**المباغتة**»، وكانت غزوته الأخيرة مباغتة كاملة لأعدائه بالزمان والمكان؛ لذلك استطاع الانتصار عليهم بالرغم من قلَّة قواته بالنسبة إلى كثرة قواتهم، وبالرغم من وجودهم في ديارهم بينما كانت خطوط مواصلات أسامة بعيدة عن المدينة «**قاعدة حركة المسلمين**».

كما إن أسامة كان «**يحشد قواته**» قبل الإقدام على خوض المعركة، و«**يديم معنوياتها**»، فكان جيشه يتحلى بالطاعة الناجمة عن الحب المتبادل والثقة المتبادلة.

كما امتاز جيشه بالشجاعة والإقدام، والجلد والصبر، وتحمل المشاق، وهي الصفات المعنوية الخالدة لكل جيش في كل زمان ومكان.

لقد كان أسامة يتحلى بنفس صفات جيشه المعنوية، وكان مثالًا شخصيًّا رائعًا لجيشه في كل تلك الصفات.

فرضي اللَّه عن القائد البطل، والصحابي الجليل، حِبِّ رسول الله، وابن حِبِّه، أسامةَ بنِ زيدٍ.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٢٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٨٦).

❑ **تعقيب:**

ماذا كان أسامة في ولائه...؟ ماذا كان في افتدائه...؟ في عظمة نفسه وامتلاء حياته..؟!

لقد بلغ من ذلك كله المدى الذي هيَّأه لهذا الفيض الغامر من حب رسول اللَّه ﷺ له وتقديره.

كان رضي الله عنه مالكًا لكل الصفات العظمة التي تجعله قريبًا من قلب الرسول ﷺ وكبيرًا في عينيه.

فهو ابن مُسلمَيْن كريمين من أوائل المسلمين سبقًا إلى الإسلام، ومن أكثر الناس ولاءً للرسول ﷺ وقربًا منه.

وهو ابن من أبناء الإسلام الحنفاء الذين وُلِدوا فيه، وتَلَقَّوْا رضعاتهم الأولى من فِطرته النقية، دون أن يدركهم من غبار الجاهلية المظلمة شيء..

وهو رضي الله عنه على حداثة سنه مؤمن قوي، يحمل تبعات دينه وإيمانه في ولاء مكين وعزيمة قاهرة صاعدة إلى أسمى ما يتمناه المرء، وهي في هذا أغرب من الخيال..

لقد وضع أسامة حياته كلها فدىً لدينه، فكان شبابه عنده توثب روح واستنارة فكر، وطفرة أمل وكان أسامة من سادات الشباب الذين قال فيهم هاشم الرفاعي:

شباب ذلَّلوا سبل المعاني ... وما عرفوا سوى الإسلام دينًا
تعهَّدهم فأنبتهم نباتًا ... كريمًا طاب في الدنيا غصونَا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُماة ... يَدُكُّون المعاقل والحصونَا
شباب لم تحطمه الليالي ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينَا
وإن جَنَّ المساء فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينَا

لقد جرأ أسامة «**وهو دون العشرين**» شيوخ الصحابة وساداتهم، بل جرَّأ المسلمين أجمعين على غزو إمبراطورية الروم وقتلهم.. وأعطى أعظم الدرس لشباب هذه الأمة فهل وعوْه عنه؟؟

ونظرة إلى واقع المسلمين... وواقع شباب المسلمين تُدمي العين والفؤاد؛ شاخت أفئدة الشباب وهم في مقتبل العمر، وعاشوا في ربيع الحياة، لا زهر ولا ثمر!! بل شوك وغسلين. فيهم شيخوخة الهمم والعزائم.. يمتد الشباب من كل أمة في حياة أممهم وهم ينكمشون، خفَّ بهم اللهو حتى ثقلت عليهم حياة الجدِّ، هوَّن عليهم الهزل كل صعبة فاختصروها، رجولة أجسامهم تحتج على طفولة أعمالهم..

الأمر العظيم عندهم ألا يحملوا أبدًا تبعة أمر عظيم، قلَّدوا الغرب في رزائله، وجعلهم الغرب كالحيوانات محصورة في طعامها وشرابها ولذَّاتها.

جعلوا الشباب موقف بلادة، لا يخطو إلى الرجولة، يبقى خوَّارًا لا يستطيع أن يحمل أثقالًا مع أثقاله، يستوطئ العجز والخمول، فلا يكون الواحد منهم إلا قاعد الهمة، رخو العزيمة، ضُجَعَة لا يمشي، نُوَمَة لا ينهَض، مستريحًا لا يعمل، وما ذهاب الحارس عن مكان إلا دعوة اللصوص إليه.

من فُسولة طبعهم ولؤمهم ودناءتهم هربوا من الميدان الذي سبق إليه سبقًا عظيمًا أسامة رضي الله عنه وشباب القرون الخيرية...

من سقوط شبابنا رضوا ذل دينهم وأوطانهم. إن الجمل إذا اسْتَنْوَق تخنَّث ولان وخضع، ولكنه يحمل... وهؤلاء إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وخضعوا، وأبوا أن يحملوا، ولا يعوون أي درس من الأيام.. واقعهم أو أيام العظام.. في حين وعى أسامة رضي الله عنه الدرس البليغ الذي عاشه، وعاشته حياته كلها في حرمة دم المسلم، فقال لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه: **«إنك لو كنت في شِدْق أسد، لأحببت أن أدخل معك فيه، ولكن هذا أمر لم أره»**...!! ولزم داره في الفتنة حتى وافته المنية.

فرضي اللَّه عن خير شباب الأمة، وحِبِّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم.

* * *

(٤٩)

الصحابي الجليل والقائد المؤمن

عمرو بن العاص السهمي

فاتح فلسطين ومصر وليبيا

٤٩

الصحابي الجليل والقائد المؤمن

عمرو بن العاص السهمي

فاتح فلسطين ومصر وليبيا

بطلنا هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم؛ ويكنى أبا عبدالله(١). أبوه هو العاص بن وائل أحد أشراف قريش في الجاهلية وزعيم بني سهم وقائدهم في يوم (الفجار) الثاني قبل بعثة النبي ﷺ(٢)، وقد أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان أحد سادات قريش الذين ذهبوا إلى أبي طالب يسألونه أن يكف عنهم رسول اللَّه ﷺ(٣)، كما كان أحد زعماء قريش الذين حاولوا صد النبي ﷺ عن دعوته وعرضوا عليه كل المغريات ليكفَّ عنهم(٤)، وكان أحد المستهزئين بالرسول ﷺ وبأصحابه(٥).

وأم عمرو هي سلمى بنت حرملة، تلقَّب النابغة، من بني عَنَزَةَ، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ، فاشتراها الفاكهة بن المغيرة، ثم اشتراها عبداللَّه بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فأنجبت عمرًا(٦).

وعمرو من بني (سهم)، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش انتهى إليها الشرف قبيل الإسلام هم: هاشم، وأمية، ونوفل، وعبد الدار، وتيم، وأسد، ومخزوم، وعدي،

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧)، والإصابة (٢/٥)، وأُسْد الغابة (١١٥/٤)، والاستيعاب (١١٨٤/٣).
(٢) ابن الأثير (٢١٦/١).
(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٧/١).
(٤) سيرة ابن هشام (٣١٥/١).
(٥) ابن الأثير (٢٦/٢)، وسيرة ابن هشام (١٠٦/٢)، وجوامع السيرة ص (٥٣).
(٦) أُسْد الغابة (١١٦/٤)، والاستيعاب (٨٤/٣).

وجمح، وسهم[١]، وكان لكل بطن من هذه البطون واجب خاص، فكان بنو سهم أصحاب الحكومة في قريش، والحكومة عمل يشبه القضاء بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب إلى زعماء بني سهم فيما يقع بينهم من الخصومات، وهذا يدل على أنهم كانوا أصحاب رأي وحلم ودهاء. وكان لبني سهم أيضًا الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهتهم، وهي أشبه شيء بالأوقاف العامة، وفي قبضة صاحب هذا العمل الأموال المحجَّرة (كما كانوا يسمونها) يتصرَّف فيها حسب ما تقتضيه القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم.

لقد اشتهر بنو سهم بالغزو، والشرف، والشعر، وفصل الخصومات، والكرم، واليسار[٢].

❑ في الجاهلية:

كان عمرو جزارًا[٣]، وكان يحترف التجارة أيضًا، وكان في قافلة فيها أموال لقريش وتجارة وهي التي ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج عليها[٤]، فكان خروجهم ذلك السبب المباشر لغزوة (بدر) الكبرى؛ وكان يسافر بتجارته إلى الشام واليمن ومصر والحبشة. بعثته قريش إلى النجاشي صاحب الحبشة ليسلِّمه جعفر بن أبي طالب وصحبه من المهاجرين إلى أرض الحبشة، فلم يفعل النجاشي[٥] فبقي المهاجرون في الحبشة بأمان، وبذلك فشل عمرو في مهمته هذه.

شهد غزوة (أُحُد) مع المشركين[٦] ونظم الشعر متشفيًا بهزيمة المسلمين في تلك

---

(١) سيرة ابن هشام (١/١٤٣، ١٤٤).

(٢) انظر: تاريخ عمرو بن العاص، للدكتور حسن إبراهيم حسن (١٠، ١١).

(٣) المعارف (٥٧٥).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤)، وجوامع السيرة، لابن حزم (١٠٧).

(٥) ابن الأثير (٢/٢٩)، وسيرة ابن هشام (١/٣٥٦)، وأسد الغابة (٤/١١٦).

(٦) سيرة ابن هشام (٣/٦).

المعركة[١]، وكان أشد الناس على رسول اللَّه ﷺ[٢].

لقد كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكورًا بذلك فيهم[٣] وكان فوق ذلك معروفًا بالدهاء وحسن التصرف بين رجالات قريش، مما أدى إلى إرساله سفيرًا إلى الحبشة؛ لإقناع النجاشي بتسليم المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة إلى المشركين من قريش.

❑ مع النبي ﷺ

١ـ إسلامه:

أسلم عمرو سنة ثمان للهجرة، فقد قدم مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، فلما رأى النبي ﷺ عمرًا وصاحبيه قال: «**ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها**» يعني أنهم وجوه أهل مكة[٤].

لقد كان عمرو يفكر في الإسلام قبل إعلان إسلامه، وقد أسلم على يد النجاشي[٥]، وكان همَّ بالإقبال إلى رسول اللَّه ﷺ في حين انصرافه من الحبشة، ثم لم يعزم له حتى سنة ثمان للهجرة[٦].

سأل رجل عمرًا: «**ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت في عقلك؟!**»، قال: «**إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم، وكانوا ممن توازي حلومهم الجبال. فلما بُعث النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ فأنكروا عليه فلذنا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا، نظرنا وتدبَّرنا، فإذا حق بيِّن، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه، فبعثوا إلي فتى منهم، فناظِرني في ذلك،**

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/١١٠، ١١٦).
(٢) الاستيعاب (٣/١١٩٠).
(٣) الاستيعاب (٣/١٨٨).
(٤) أُسْد الغابة (٣/٣٧٢)، والاستيعاب (٣/١٠٣٤).
(٥) ابن الأثير (٢/٨٧، ٨٨)، والإصابة (٥/٢)، وأُسْد الغابة (٤/١١٦).
(٦) الاستيعاب (٣/١١٨٦).

فقلت: أنشدك اللَّه ربك ورب من قبلك ومن بعدك، أنحن أهدى أم فارس والروم؟ قال: نحن أهدى؛ قلت: فنحن أوسع عيشًا أم هم؟ قال: هم. قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمرًا في كل شيء، وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد عن أن البعث بعد الموت ليُجزَى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل»[(١)].

قال عمرو: «ثم جُعل الإسلام في قلبي، فأتيت رسول اللَّه ﷺ؛ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله، فبسط يده! ثم إني قبضت يدي، فقال: «**مالك يا عمرو؟**» فقلت: أردت أن أشترط. فقال: «**تشترط ماذا؟**» فقلت أشترط أن يُغفر لي. فقال: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» فقد رأيتني ما أحد أحب إليَّ من رسول اللَّه ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت؛ لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني؛ إجلالًا له»[(٢)].

لقد أسلم عمرو بعد تفكير طويل، لذلك قال الرسول ﷺ عن إسلامه: «**أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص**».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ابنا العاص مؤمنان**»[(٣)]، ولفظ الحاكم: «**ابنا العاص مؤمنان؛ هشام، وعمرو**».

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كان فزعٌ بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفا فاحتميت بحمائله فقال رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ: «**يا أيها الناس ألا كان فزعكم إلى اللَّه وإلى**

---

(١) الإصابة (٥/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٩)، وفتح مصر والمغرب ص (٢٤٣).

(٣) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢/٣٥٤)، وعند أحمد عقب هذا الحديث: يعني هشامًا وعَمْرًا (٢/٣٥٣)، وأخرجه النسائي في «فضائل الصحابة» (١٩٥).

رسوله»، ثم قال: «**ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان**»[١].

وعن عقبة بن عامر ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص**»[٢].

وقال طلحة بن عبيد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن عمرو بن العاص من صالحي قريش**»[٣].

قال الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٧٩/١):

«**وفي الحديث منقبة عظيمة لعمرو بن العاص** ﵁، **إذ شهد له النبي** ﷺ **بأنه مؤمن، فإن هذا يستلزم الشهادة له بالجنة؛ لقوله** ﷺ **في الحديث المشهور: «لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة»**. متفق عليه.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وعلى هذا فلا يجوز الطعن في عمرو ﵁ كما يفعل بعض الكتاب المعاصرين وغيرهم من المخالفين ـ بسبب ما وقع له من الخلاف بل القتال مع علي ﵁ ؛ لأن ذلك لا ينافي الإيمان، فإنه لا يستلزم العصمة كما لا يخفى، لا سيما

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٠٣/٤)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٩٦).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٥٥/٤)، والترمذي (٣١٦/٢)، وقال الترمذي «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن مشرح بن هاعان». وأخرجه الروياني في «مسنده» (١/٥٠/٩ ـ ٢).
قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٨/١) حديث (١٥٥): «مشرح بن هاعان وثقه ابن معين وغيره، وضعفه بعضهم، وهو حسن الحديث عندي، وابن لهيعة وإن كان ضعيفًا؛ لسوء حفظه؛ فإن رواية العبادلة عنه تصحح حديث؛ كما جاء في ترجمته، وهذا من رواية اثنين منهم، وهما أبو عبدالرحمن واسمه عبدالله بن يزيد المقري، وعبدالله بن وهب»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩٧١).

(٣) صحيح لغيره: أخرجه الترمذي في «سننه»، كتاب المناقب، باب مناقب عمرو بن العاص (٣٧١/٩) (٣٨٤٤)، وقال: «لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن مشرح، وليس إسناده بالقوي» وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٥/٤) من حديث عبدالله بن يزيد المقري بإسناد حسن، ورواية العبادلة ـ ومنهم: عبدالله بن يزيد ـ عن ابن لهيعة تصحح حديثه؛ فالحديث صحيح بشواهده. انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق عبدالقادر الأرناءوط.

إذا قيل: إن ذلك وقع منه بنوع من الاجتهاد، وليس اتباعًا للهوى.

سرية عمرو بن العاص إلى بلاد بلي وعَذرة «ذات السلاسل»[1]

قال عمرو: «**ما عدل بي رسول اللَّه ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابي في حربه منذ أسلمت**»، فقد ولَّاه قيادة سرية مؤلفة من ثلاث مئة رجل من أشراف المهاجرين والأنصار؛ لصدِّ جمع (قُضَاعة) الذين يريدون أن يهاجموا أطراف المدينة المنورة؛ فسار عمرو الليل وكمن النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا غفيرًا، فاستمد رسول اللَّه ﷺ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مئتين، وعقد له لواء وبعث به معه سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا.

ولحق أبو عبيدة بعمرو، فأراد أن يؤم الناس، فقال عمرو: «**إنما قَدِمْتَ عليَّ مددًا وأنا الأمير**»، فقال أبو عبيدة: «لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه»، فقال عمرو: «**بل أنت مدد لي!**»، فقال أبو عبيدة: «يا عمرو! إن رسول اللَّه ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك»؛ فأطاع له بذلك أبو عبيدة، وكان عمرو يصلي بالناس، فسار حتى وطئ بلاد (بَلِيٍّ) ودوَّخها، وأتى إلى أقصى بلادهم وبلاد (عُذرة)، و(بَلْقَين)، ثم لقي جمعًا فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد وتفرَّقوا؛ وبذلك انتهى واجب عمرو، فقفل راجعًا إلى المدينة[2].

ولما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم، فحال عمرو بينهم وبين ذلك. ثم أرادوا أن يوقدوا نارًا يصطلون عليها من البرد، فمنعهم عمرو أيضًا، فشق على المسلمين ذلك ولم يحتملوا تلك الشدة التي تهدد بقذف من يوقد النار

---

(١) ذات السلاسل: ماء بأرض جذام يقال له: السلسل. وهي وراء وادي القرى، وبينها وبين المدينة عشرة أيام. انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٣١).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣١)، وسيرة ابن هشام (٣/ ٢٩٨)، وجوامع السيرة، لابن حزم (٢٠)، وابن الأثير (٢/ ٨٨)، والطبري (٢/ ٣١٥)، والاستيعاب (٣/ ١١٨٦)، وعيون الأثر، لابن سيد الناس (٢/ ١٥٧).

فيها، فشكوه إلى رسول اللَّه ﷺ، فكلمه في ذلك، فقال له عمرو: «**كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارًا فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد**»، فأعجب به رسول اللَّه ﷺ أيما إعجاب، وحمد له رأيه[1].

ولله در القائل في هذه السرية؛ مثنيًا على البطل عمرو بن العاص رضي الله عنه:

إلى ذاتِ السَّلاسِلِ مِن بَليٍّ ... وعُذْرَةَ فَامْضِ بُورِكَ مِن مُضِيِّ

تَدَفَّقْ بالألى جاشَتْ قُواهُم ... إليكَ تَدَفُّقَ السَّيْلِ الأَتِيِّ[2]

إلى قومٍ مِن الأعداءِ تُطوَى ... جَوانِحُهُم على الدَّاءِ الدَوِيِّ[3]

تَأَلَّبَ جَمعُهُم من كُلِّ أَوْبٍ ... يُحاوِلُ بالسُّيوفِ حِمَى النَّبِيِّ[4]

أَهَزْلٌ من قُضاعَةَ أم خيالٌ ... غَوِيٌّ جَالَ في جَوٍّ غَوِيٍّ؟

تَوَلَّى الكفرُ أمرَ القومِ فيه ... فسوفَ يَرَوْنَ عاقِبَةَ الوَلِيِّ

جَمعتَ لحربهم يا عمرُو بأسًا ... يُزلزِلُ كلَّ جَبَّارٍ عَتِيِّ

رأيتَ جُموعَهم شتَّى فهذا ... رَسولُكَ جاء بالمَدَدِ القويِّ

عليه أبو عُبَيْدَةَ في سلاحٍ ... يَمُجُّ عُصارَةَ الموتِ الوَحِيِّ[5]

نَهاهُ مُحمَّدٌ عن كلِّ أمرٍ ... تَضيقُ بهِ وما هو بالعَصِيِّ

يُنازِعُكَ الإمامَةَ ثم يَرْضَى ... وتِلكَ سَماحةُ الخُلُقِ الرَّضِيِّ

رَميتَ الكافِرينَ بكل ماضٍ ... مِنَ الأبطالِ يَعصِفُ بالرَّمِيِّ

فزالوا عن حظائِرِهمَ سِراعًا ... ولم تُغنِ الرِّباقُ عن الشَّوِيِّ[6]

تَواصَوْا بالثَّباتِ فَزَلزَلْتُهُم ... صَواعِقُ ما تَكُفُّ عَنِ الهَوِيِّ[7]

---

(١) السيرة الحلبية (٣/٢٧٣)، وتاريخ الخلفاء، للسيوطي (٧٢).

(٢) جاشت: تدفقت وفاضت. والأتيُّ: يأتي من حيث لا يدرك.

(٣) اللازم مكانه لا يبرحه.

(٤) الأوب: الجهة.

(٥) الوَحِيُّ: السريع. ويمجُّ: يرمي.

(٦) الرباق: حبال بها عرى. والشوي: الشاء.

(٧) الانقضاض.

هُوَ البأسُ اسْتَطَارَ فلا ثَبَاتٌ ... لِغيرِ السَّيفِ والبطَلِ الكَمِيِّ
قَضَيْتَ السُّؤْلَ من قَتلٍ وغُنْمٍ ... وَنِلْتَ ذُؤابَةَ الشَّرفِ العَلِيِّ[١]
وكنتَ القائدَ الفَطِنَ المُلَقَّى ... فُنونَ المكرِ والكَيْدِ الخَفِيِّ
مَنعتَ النَّارَ خِيفةَ أن تُعَرِّى ... جُنودُكَ شِيمَةَ الحَذِرِ الذَّكِيِّ
تُدافِعُ دُونَ عِدَّتِهِم عَدُوًّا ... تُخادِعُهُ عنِ الأمرِ الجَلِيِّ
ولم تَتْبَعْ قُضَاعَةَ إذ تَوَلَّتْ ... وإذ ذَهَلَ الصَّفِيُّ عَنِ الصَّفِيِّ
تُقَاتِلُها بسيفٍ من دَهاءٍ ... يُمزِّقُها بِحَدٍّ لَوْذَعِيِّ[٢]
رَمى الفاروقُ من عَجَبٍ بقولٍ ... يُثيرُ حَمِيَّةَ الرَّجُلِ الأَبِيِّ
فقال له أبو بكرٍ رُوَيْدًا ... ولا تَعْدِلْ عَنِ السَّنَنِ السَّوِيِّ
رسولُ اللهِ أكثرُ مِنكَ عِلمًا ... بِصاحِبِهِ ولستَ لهُ بِسِيِّ[٣]
وما للحربِ إلا كلُّ طَبٍّ ... يُصرِّفُها برأيٍ عَبْقَرِيِّ[٤]

***

أميرَ الجُندِ يا لكَ من سَرِيٍّ ... أصابَ إمارةَ الجُندِ السَّرِيِّ
مَشَى الصِّديقُ والفاروقُ فيه ... على أدبٍ من الخُلُقِ السَّنِيِّ
وهل يُقضَى على اسمِ اللهِ أمرٌ ... فيُنكِرُهُ التَّقِيُّ على التَّقِيِّ؟
إذا استوتِ المراتِبُ وَهْيَ شَتَّى ... فما فضلُ اللَّبِيبِ على الغَبِيِّ؟
أجَلْ يا عمرُو ما بِكَ من خَفَاءٍ ... إذا فَزِعَ الرجالُ إلى الكَفِيِّ[٥]
شَأَوتَ السَّابِقِينَ إلى مَحَلٍّ ... يُجاوِزُ غايَةَ الأَمَدِ القَصِيِّ[٦]
وذلكَ فضلُ ربِّكَ زِيدَ فيهِ ... على يدِهِ لِذي الجَدِّ الحَظِيِّ[٧]

---

(١) ذؤابة كل شيء: أعلاه.
(٢) اللوذعي: الذكيُّ الحديد الفؤاد؛ كأنه يلدغ من ذكائه.
(٣) السِّيُّ: المساوي وَالْمِثْل.
(٤) الطبُّ: الحاذق الماهر.
(٥) الذي يكفيك ويُغنيك عن غيره.
(٦) شَأَى القومَ: سَبَقَهُمْ.
(٧) الذي أحبَّهُ الناس ورفعوا منزلته.

ورحم اللَّه الشعبي حيث قال: «**دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه؛ أما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو للمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير**»[(١)]، وكان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرو يمشي يقول: «**ما ينبغي لأبي عبداللَّه إلا أن يمشي أميرًا**»[(٢)]، وكان إذا رأى الرجل يتلجلج يقول: أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد، وإذا استضعف رجلًا في رأيه وعقله قال: «**أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد**»، وهو يريد بذلك أن اللَّه خالق الأضداد[(٣)].

❑ هدم عمرو لسواع

بعث النبي ﷺ حين فتح مكة عمرًا إلى «**سواع**» صنم هُذيل؛ ليهدمه.

قال عمرو: «**فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ن قلت: أمرني رسول اللَّه** ﷺ **أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، فقلت: لِمَ؟، فقال: تُمنع! فقلت: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك هل يَسْمع أو يُبْصِر! فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ فقال: أسلمت لله**».

ولله در القائل في هذا:

ويا عمرو اتَّخِذْ لِسُواعَ بأسًا ... يُذِلُّ من الطواغيتِ الجباها
وينتزع الغَوايةَ من نفوسٍ ... ألحَّ ضلالُها وطغى هواها
تقدمْتَ ضلالةً شابتْ عليها ... هُذَيْلٌ بعدما قَضَّتْ صِبَاها
تطاولت القُرون وما تناهتْ ... فَقُلْ لِسُواعِ دَهْرُك قد تناهى
رآه وليُّهُ كَذِبًا فولَّى ... يسائل نفسَه ماذا عراها؟

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص (١٣٦).

(٢) الإصابة (٢/٥).

(٣) الاستيعاب (١٨٨/٣)، والإصابة (٢/٥، ٣).

وقال شهدن أن اللَّه حقٌّ ... وأن النفس ينفعها هداها
جعلت محمدًا سببي فإني ... أرى أسبابه شُدَّت عُراها

إرسال النبي ﷺ عمرًا إلى جيفر وعبد ابني الجُلَنْدَي، وإسلامهما على يد عمرو رضي الله عنه

وإلى عمان[١] بعث رسول اللَّه ﷺ عمرًا إلى جَيْفَر وعبدٍ[٢] ابني الجُلَنْدَي، وهما من الأزد، وكان جيفر هو الملك، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتابًا وختم الكتاب. قال عمرو: «**فلما قدمت (عُمان) عمدت إلى عبدٍ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا، فقلت: إني رسولُ رسولِ اللَّه ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدَّم عليَّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك. فمكثت أيامًا ببابه، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فدفعت إليه الكتاب مختومًا ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرق منه، فقال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غدًا؛ فلما كان الغد رجعت إليه، فقال: إني فكَّرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكّت رجلًا ما في يدي. قلت: فإني خارج غدًا؛ فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إلي، فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا وصدَّقا بالنبي ﷺ، وخليًا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني؛ فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم، فلم أزل مقيمًا فيهم حتى بلغنا وفاة رسول اللَّه ﷺ**»[٣].

---

(١) عمان: كورة باليمن، وهي على ساحل بحر اليمن والهند، تشتمل على بلدان كثيرة. راجع: التفاصيل في «معجم البلدان» (٦/٢١٥).

(٢) في «جوامع السيرة، لابن حزم»: جيفر وعياذ. انظر: ص (٢٩)، والصواب ما ذكرناه أعلاه؛ لإجماع أهم المصادر عليه.
قرأ جيفر الكتاب؛ فأغلظ في القول؛ فهدده عمرو، فاستمهله إلى الغد؛ فلما كان الغد أَسْلَمَ هو وأخوه.

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٦٢، ٢٦٣)، وانظر: جوامع السيرة، لابن حزم ص (٢٠، ٢٤، ٢٩).

وعاد عمرو من (عُمان) إلى المدينة المنورة بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ[١]

يقول الشاعر:

رُسُل النبي بكل أرض جُوَّلُ ... ترمي بهم هِمَمٌ نواهِضُ قُذَّفُ
حملوا القلوب الصُّمَّ يعصمهم بها ... دين لهم صُلْبٌ ورأي مُصْحَفُ[٢]
ترمي الجلامَدَ والحديد بقوةٍ ... تمضي فتصدع ما تشاء وتعصِفُ[٣]
يخشى العَتِيُّ المستبدُّ نَكَالَها ... ويهابها المستكبر المتغطرفُ[٤]

* * *

وطحا بجيفر جهله وعنادُه ... فأبى على عمروٍ وأعرض يأنَفُ
ورآه يهدر بالوعيد فراعه ... وأتى غَدٌ فانقاد لا يتوقف
وانساق يتبعه أخوه وإنه ... لمهذَّبٌ سَمْحُ الخلال مثقَفُ

❑ جهاده في حرب أهل الردَّة

مات رسول اللَّه ﷺ وعمرو بعُمان، فأقبل حتى انتهى إلى (البحرين) فوجد المنذر بن ساوى في الموت. ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر فنزل بقرة بن هبيرة[٥] وهو يقدم رِجْلًا إلى الردة ويؤخر أخرى ومعه جيش من بني عامر، فأكرم قرة مثواه؛ فلما أراد عمرو الرحلة خلا به قرة وقال: «**يا هذا! إن العرب لا تطيب لكم نفسًا بالأتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها؛ فتسمع لكم وتطيع! وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم**»، فقال عمرو: «**أكفرت يا قرة؟! أتخوِّفنا بالعرب؟! فواللَّه لأوطئن عليك**

---

(١) ابن الأثير (٢/١٣٤).

(٢) المصحف: المحكم.

(٣) الجلامد: جمع الجلمد؛ وهو: الصخر. وتقصف: تكسر.

(٤) المتغطرف: المتكبر.

(٥) قرة بن هبيرة: أحد الوجوه الذين وفدوا على رسول الله ﷺ؛ فأسلم، ثم ارتد بعد وفاة النبي ﷺ؛ فأسره خالد، وبعث به موثقًا إلى أبي بكر، فاعتذر أنه خاف مسيلمة الكذاب على ولده وماله وأنه لم يرتد في الباطن؛ فعفا عنه أبو بكر. راجع: الإصابة (٥/٢٣٨).

الخيل في حفش[١] **أمك**[٢]، ومرَّ بمُسيْلمة الكذاب فأعطاه الأمان، فقال له عمرو: «**اعرض لي ما تقول**»، فذكر مسيلمة بعض كلامه، فقال عمرو: «**والله إنك لتعلم أنك من الكاذبين**» فتوعده مسيلمة[٣].

ولما وصل عمرو المدينة وعقد أبو بكر أحد عشر لواءً لحرب أهل الردة، عقد لعمرو وأرسله إلى (قُضَاعة)[٤]، وكان قد حاربهم في حياة النبي ﷺ في غزوة ذات السلاسل، وكانت قضاعة قد ارتدت بعد وفاة النبي ﷺ؛ فلما أنفذ إليهم أبو بكر جيشًا بقيادة عمرو، سار عمرو بجيشه في الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل بلاد قضاعة، فأعمل السيف في رقابهم وغلبهم على أمرهم؛ فعادوا إلى الإسلام، وعاد هو إلى المدينة حاملًا لواء النصر.

❑ إني سهم من سهام المسلمين وأنت ـ بعد الله ـ الرامي والجامع لها

٢ـ في أرض الشام:

ردَّ أبو بكر عَمْرًا إلى عمله الذي كان رسول الله ﷺ ولاه إياه في (عُمان)، فلما أراد إرسال الجيش لفتح أرض الشام كتب أبو بكر لعمرو: «إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولَّاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك به أخرى؛ إنجازًا لمواعيد رسول الله ﷺ وقد وليته، وقد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، وإلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك»، فكتب إليه عمرو: «**إني سهم من سهام الإسلام، ـ وأنت بعد الله ـ الرامي والجامع لها، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي**»[٥].

---

(١) الحفش: بيت تنفرد فيه النفساء.

(٢) ابن الأثير (٢/١٣٤).

(٣) الإصابة (٥/٢٣٩).

(٤) الطبري (٢/٤٨٠)، وابن الأثير (٢/١٣٢).

(٥) الطبري (٢/٥٨٧، ٥٨٨)، وابن الأثير (٢/١٥٤).

فعقد أبو بكر لعمرو وأمره أن يسلك طريق (أَيْلَة)[١] عامدًا إلى فلسطين، وكان العقد لكل أمير من أمراء الشام في بدء الأمر ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الأمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمس مئة[٢]، وكان جيش عمرو مؤلفًا من أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب، وقال أبو بكر لعمرو: «قد وليتك هذا الجيش، فانصرف إلى أرض فلسطين، وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أرادك ولا تقطع أمرًا إلا بمشورته»؛ فأقبل عمرو على عمر بن الخطاب وقال له: «يا أبا حفص! أنت تعلم شدَّتي على العدو وصبري على الحرب، فلو كلَّمت الخليفة أن يجعلني أميرًا على أبي عبيدة، وقد رأيت منزلتي عند رسول اللَّه ﷺ، وإني لأرجو أن يفتح اللَّه على يدي البلاد ويهلك الأعداء»، فقال عمر بن الخطاب: «ما كنت بالذي أكلِّمه في ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، وَلَأَبُو عبيدة أفضل منزلة منك وأقدم سابقة منك، والنبي ﷺ قال فيه: أبو عبيدة أمين الأمة»، فقال عمرو: «ما ينقص من منزلته إذا كنت واليًا عليه؟!»، فقال عمر: «ويلك يا عمرو! إنك ما تطلب بقولك هذا إلا الرياسة والشرف، فاتق اللَّه ولا تطلب إلا شرف الآخرة ووجه اللَّه ـ تَعَالَى ـ»، فقال عمر: «إن الأمر كما ذكرت»[٣].

وما كادت جيوش المسلمين تصل أرض الشام، حتى بعث (هرقل) قادته وجيوشه باتجاه قادة وجيوش المسلمين، فكان (تذارق) شقيق (هرقل) أمام عمرو على رأس جيش عدده تسعون ألفًا[٤]، ولكن قادة المسلمين فوَّتوا على الروم فرصة ضرب جيوش المسلمين على انفراد إذ كاتبوا عمرًا: ما الرأي؟ فأجابهم: «**إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نغلب من قلَّة، وإذا نحن تفرقنا لا تقوم كل فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدوِّنا**»، وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم مثل جواب عمرو

---

(١) أيلة: مدينة على ساحل بحر «القلزم» مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام.

(٢) البلاذري ص (١١٦).

(٣) فتوح الشام، للواقدي (٨/١)، وانظر: وصية أبي بكر لعمرو في نفس المصدر (٨/١، ٩).

(٤) الطبري (٢/٥٩٠)، وابن الأثير (٢/١٥٦).

وقال: «**إن مثلكم لا يؤتى من قلَّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، واجتمعوا باليرموك**».

واجتمع المسلمون باليرموك، واجتمع الروم بها أيضًا، فنزل الروم (الواقُوْصَة)[1]، وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم، وانتقل المسلمون عن معسكرهم، فنزلوا على طريق الروم وليس للروم طريق إلا عليهم، فقال عمرو: «**أيها الناس، أبشروا... حصرت واللَّه الروم وقلَّ ما جاء محصور بخير**»[2].

وفي معركة اليرموك الحاسمة، كان عمرو على الميمنة؛ فكان له أثر كبير على انتصار المسلمين في هذه المعركة.

وفي معركة فتح (**دمشق**) نزل عمرو بجيشه في ناحية باب (**توما**)، وبعد فتحها سار المسلمون نحو فحل، وتجمعت بقايا الروم في «**فِحْل**» وكانت قوتهم (٨٠) ألف يقودهم (**سقلار بن مخراق**) الذي نظم الدفاع عن «**بيسان**»، وانضمت قوات أبي عبيدة إلى «**شرحبيل**» ـ على اعتباره قائد منطقة العمليات. فأعاد «**شرحبيل**» التنظيم، ودفع «**خالد بن الوليد**» على المقدمة وتولى «**أبو عبيدة وعمرو بن العاص**» قيادة المجنبتين. ولما اقترب جيش المسلمين، دمر «**سقلار**» مجاري المياه، وأغرق المنطقة التي تحولت إلى مستنقع طيني من الصعب التحرك فيه، وتوقف جيش المسلمين فترة من الوقت، وظن «**سقلار**» أنه يستطيع مباغتة جيش المسلمين؛ فقام بهجوم مفاجئ، ولكن «**شرحبيل**» «**لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة**»، فتلقى المسلمون الصدمة، واستمرت المعركة الليل بطوله ونهار اليوم التالي، ثم انتزعت قوات المسلمين النصر، وطاردوا «**الروم**» حتى الرِّدغة، أو «**الرِّداغ**»، ولم يفلت من الثمانين ألفًا إلا الشريد. وهذه هي المعركة المعروفة في التاريخ باسم

---

(١) الواقوصة: وَادٍ بالشام في أرض حوران.

(٢) الطبري (٢/٥٩١)، وابن الأثير (٢/١٥٦).

«**غزاة فِحْلًا، أو ذات الرِّدغة، أو بيسان**»، وانصرف بعدها أبو عبيدة إلى «**حمص**» فيما توجه عمرو ابن العاص، وشرحبيل إلى «**بيسان**» وصالحوا أهلها على مثل صلح أهل دمشق بعد معركة قصيرة وحاسمة[1].

وشهد عمرو فتح طبرية[2] هو وشرحبيل بن حسنة وصالحا أهل الأردن[3]، وعلم عمرو أن الروم حشدوا جيوشهم، وعلى رأسها قائد فلسطين أرطبون (أريطيون) في (أَجْنَادَيْن)[4]، فسار عمرو ومعه شرحبيل بن حسنة، واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي، وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورًا، وكان قد وضع (بالرملة)[5] جندًا عظيمًا، و(بإيلياء) جندًا عظيمًا أيضًا، فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: «**رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، (يقصد عمرًا)، فانظروا عما تنفرج**». وكان معاوية بن أبي سفيان قد شغل أهل (قَيْسَارية) عن عمرو، كما جعل عمرو علقمة بن حكيم الفراسي[6]، ومسروق العكي[7] وجعل أبا أيوب المالكي[8] (بالرملة)، فشاغل هؤلاء القادة القوات الرومانية عن قوات عمرو الأصلية.

---

(١) انظر: عمرو بن العاص، لبسام العسلي ص (٣٠)، دار النفائس.

(٢) الطبري (٢/٦٣٠)، وابن الأثير (٢/١٦٦).

(٣) ابن الأثير (٢/١٩٣).

(٤) أجنادين: موضع معروف من نواحي فلسطين، وهو قريب من الرملة.

(٥) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلًا.

(٦) علقمة بن حكيم الفراسي: أدرك النبي ﷺ، وشهد اليرموك، وجهزه أبو عبيدة من مرج الصفر مسلحة بين دمشق وفلسطين، استعمله عمر بن الخطاب على الرملة، واستعمله عمرو بن العاص على قتال إيلياء. راجع: الإصابة (٥/١١٢).

(٧) مسروق العكي: أدرك النبي ﷺ، وليست له رواية لا رؤية، شهد اليرموك أميرًا على بعض الكراديس، وبعثه أبو عبيدة مسلحة بين دمشق وفلسطين، وشهد قتال أهل الردة، كما شهد بعض فتوح العراق، وكانت له أيام مشهورة. راجع: الإصابة (٦/٨٨).

(٨) أبو أيوب المالكي: أدرك النبي ﷺ، وشهد فتوح الشام، وَأَمَّرَهُ عمرو على جيش لقتال الروم. انظر: الإصابة (٧/١٣).

وأقام عمرو على (أجنادين) لا يقدر على الأرطبون، ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه ودخل عليه، كأنه رسول، ففطن به الأرطبون، وقال: «لا شكَّ أن هذا هو الأمير، أو من يأخذ الأمير برأيه»، فأمر رجلًا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرَّ به. وفطن عمرو إلى غدر الأرطبون، فقال له: «**قد سمعت مني، وسمعت منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه، ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر، والأمير، وإن لم يروه، رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك**». فقال الأرطبون: «**نعم**» وردَّ الرجل الذي أمره بقتل عمرو، فخرج عمرو من عند الأرطبون، فعلم الرومي بأن عمرًا خدعه، فقال: «**خدعني الرجل! هذا أدهى الخلق!!**». وبلغت خديعته عمر بن الخطاب، فقال: «**لله در عمرو!**».

وعرف عمرو من استطلاعه الشخصي هذا نقاط الضعف في مواضع الروم، فهاجمهم واقتتلوا قتالًا شديدًا؛ كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، ولكن أرطبون انهزم؛ فأوى إلى (إيلياء)، ونزل عمرو (أجنادين)، وانضم علقمة ومسروق وأبو أيوب إلى عمرو بأجنادين[1].

ولما دخل أرطبون (إيلياء) فتح عمرو (غَزَّة)، و(سَبَسْطِيَة)[2] و(نَابُلُس)[3]، و(اللُد)[4]، و(يُبْنَى)[5]، و(عَمْوَاس)[6]، و(بَيت جِبْرِين)[7]، و(يافا)، و(رَفَح)،

---

(١) الطبري (١٠٢/٣)، وابن الأثير (١٩٣/٢).

(٢) سبسطية: بلدة بنواحي فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يومان، وهي من أعمال نابلس.

(٣) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

(٤) اللد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين، وقد أصبحت اليوم بلدة كبيرة.

(٥) يبنى: بليد قرب الرملة.

(٦) عمواس: هي كورة من فلسطين بالقُرب من بيت المقدس، وهي على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس.

(٧) بيت جبرين: بليد بين المقدس وغزة، بينه وبين المقدس مرحلتان، وبينه وبين غزة أقرب من ذلك.

وقدم أبو عبيدة بن الجراح، وهو محاصر (إيلياء)، وهي بيت المقدس. فطلب أهل (إيلياء) من أبي عبيدة الصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر بن الخطاب نفسه، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر، وأنفذ صلح (إيلياء)، وكتب لهم به عهدًا[١].

وحاصر عمرو (قيسارية) بعد فتح بيت المقدس، ولكنه خرج إلى مصر، فتولى فتحها معاوية بن أبي سفيان[٢].

لقد شهد عمرو أكثر معارك فتح أرض الشام، وكان فتح أكثر فلسطين على يديه.

❑ الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بعد الفراغ من فتح أرض الشام أن يسير إلى مصر في جنده[٣]، فخرج في ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل، أسرع «**عمرو بن العاص**» من جوف الليل حتى لا يشعر به أحد من الناس، وقاد قواته محاولًا الوصول إلى «**مصر**» قبل أن يعدل أمير المؤمنين عن «**قراره الأوَلِيِّ**». ولكن أمير المؤمنين «**تخوف على المسلمين**» فكتب إلى «**عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين**». وأدرك الكتاب عمرًا، وهو بـ«**رفح**» فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه خشية أن يكون فيه أمر يمنعه من «**فتح مصر**»، وتابع سيره حتى نزل بقرية فيما بين «**رفح**»، و«**العريش**» فسأل عنها فقيل: إنها من مصر؛ فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين. وقال عمرو لمن معه: «**ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟..**

---

(١) البلاذري (١٤٤)، وابن الأثير (١٩٣/٢).

(٢) البلاذري (١٤٦).

(٣) الطبري (١٩٥/٣)، وابن الأثير (٢١٨/٢)، وليس من المعقول أن يمضي عمرو إلى مصر من تلقاء نفسه دون استشارة عمر بن الخطاب؛ مما أدى إلى غضب عمر، فكتب إلى عمرو يوبخه؛ كما جاء في البلاذري ص (٢١٤): أنه عمر بن الخطاب، ولا أحد يستطيع مخالفته.

قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه، ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا، وامضوا على بركة الله».

كانت «**العريش**» أول قاعدة مصرية متقدمة اصطدم بها جيش المسلمين، ولكن هذه القاعدة لم تصمد طويلًا، فتم فتحها، وتابع «عمرو بن العاص تقدمه عبر الطريق الساحلي التقليدي، وكانت أخبار تقدم المسلمين تسبقهم إلى مصر، فقد كانت عيون الروم «**البيزنطيين**» قد وصلت إلى مصر، وأعلمت المسئولين فيها أن هذا الجيش هو الذي فتح مدن: طرابلس، وصور، وجبلة، وأجنادين، وسائر مدن «**فلسطين**». وقد دفع ذلك «**المقوقس**» إلى إرسال مفارز من قواته «إلى جميع أطراف بلاده مما يلي الشام، بأن لا يتركوا أحدًا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض «**مصر**»؛ لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل؛ فيدخل الرعب في قلوب قومه.

اخترق عمرو بجيشه الصحراء حتى وصل إلى «**الفرما**»[1] في حدود مصر؛ وهناك اصطدم بمقاومة قوية لم يتمكن من تجاوزها بسهولة؛ فاستمرت الحرب حول «**الفرما**» شهرًا؛ وقاتل الروم قتالًا شديدًا إلى أن تمَّ انتزاع النصر، وكان «**القبط**» عونًا للمسلمين في حربهم ضد الروم.

تابع «**عمرو بن العاص**» تقدمه عبر أرض مغطاة بقشور الصدف البيضاء (استحالت اليوم إلى رمال) حتى وصل مدينة «**مجدل**»[2] ومنها إلى «**القواصر**»، ثم إلى «**بلبيس**» التي كان يدافع عنها «**أرطبون**».

وقد سلك «**عمرو**» هذا المحور حتى يتجنب الطريق التقليدي الذي كان يسلكه الفاتحون والذي تعترضه المستنقعات (مما كان يحد من حركة «**فرسان المسلمين**» لو

---

(١) «الفرما»: اسم عربي لمدينة «بلوز»، وكان القبط يسمونها «برمون»، وهي مدينة ساحلية، وهي مفتاح مصر من الشرق، وكانت مدينة حصينة وقوية.

(٢) مجدل: هي القنطرة شرق حاليًا، وكانت مجدل أول مركز يلي الصحراء بعد «الفرما».

اتبعوه).

عندما علم «**المقوقس**» بقدوم «**عمرو بن العاص**» إلى مصر؛ توجه إلى «**بابليون**» وأخذ في تجهيز الجيوش ضد «**عمرو بن العاص**»، وكان على «**القصر**»[(١)] قائد من الروم يقال له «**الأعيرج**» - وهو القائد «**جورج الروماني**» - وكان يعمل على تنفيذ أوامر المقوقس، وقيادة الدفاع، وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له بنيامين؛ لعل أصله يهودي (ما إن بلغه قدوم «**عمرو بن العاص**» حتى كتب إلى «**القبط**» يعلمهم أنه لن تكون هناك دولة للروم في مصر بعد هذا التاريخ وأن ملكهم قد انقطع، ويأمر «**القبط**» بتلقي «**عمرو**» وعدم مدافعته أو محاربته).

كانت «**أرمانوسة**» - ابنة المقوقس - في طريقها إلى «**قيصرية**»؛ لتزف إلى قسطنطين «**ابن هرقل**»، فلما علمت أن «**قيصرية**» قد أصبحت تحت حصار العرب المسلمين عادت إلى مصر بما كان معها من الخدم والهدايا والأموال. وما إن وصلت «**بلبيس**» حتى جاء العرب وحاصروها. وكان «**أرطبون**» قد دفع قوات استطلاعية؛ للدفاع عن «**بلبيس**». وحدثت معركة قصيرة وحاسمة سقط فيها من الروم ألف قتيل وأكثر من ثلاثة آلاف جريح، وعادت «**فلول**» هذه القوة فالتجأت إلى أسوار «**بلبيس**» واحتمت بتحصيناتها.

وعندما علم «**المقوقس**» بحصار ابنته في «**بلبيس**» مع علمه بما تعرضت له حاميتها من هزيمة منكرة أظهر ميلًا للاتصال بالمسلمين وعقد صلحًا معهم (وعقد مؤتمرًا مع بطارقته، وناقشهم في الموقف بعد أن أزال المسلمون قوات الروم عن الشام وقوات الفرس عن العراق، ونصح قومه بعقد الصلح، ولكن كبار قادته قاوموه «**ووثبوا عليه يريدون قتله**»؛ فأوقف من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف، وقال لوزيره: اكتب إلى ابنتي كتابًا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم

---

(١) هو: قصر الشمع، مكانه الآن هو الدير المحرق بمصر القديمة، ويرى بعض المؤرخين أنه حصن بابليون.

الأمان وتنفذهم إلينا).

حاول «**أرطبون**» التعويض عن هزيمته «**بفلسطين**» فأظهر مقاومة ضارية، وقاتل المسلمون قتالًا شديدًا تزيد على الشهر؛ وفي النهاية نظم هجومًا قويًّا بعد أن ترك الأثقال مع «**عامر بن ربيعة العامري**» وانتصر المسلمون، ووقعت «**أرمانوسة**» أسيرة في قبضة «**عمرو بن العاص**» الذي وجهها إلى والدها مع ما تستحقه من الحماية والرعاية.

وكان لهذا الموقف أثره في تدعيم ثقة «**القبط**» بالمسلمين، ولكن ما إن أخذ جيش المسلمين في التحرك من «**بلبيس**» في اتجاه «**تليوب**» حتى أخذ أهل القرى والحقول في الفرار من وجه «**جيش الفتح**»، فأرسل إليهم «**عمرو**» من يطمئنهم، ويطلب إليهم «**عدم الرحيل من بلادهم، وأن الجيش الإسلامي لن يطلب أكثر مما يتم تقديمه له من مواد التموين والعلف**».

واستجاب السكان لذلك، وتوقف عمرو في «**تليوب**»، ثم غادرها في اتجاه «**تندونياس**»[1] حيث كانت في انتظاره المقاومة المنظمة والقوية.

وتوقف «**عمرو**» أمام تلك المقاومة، ودارت معارك ضارية، وأبطأ عليه الفتح؛ فكتب إلى أمير المؤمنين «**عمر**» يستمده، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل[2] وكتب إليه:

«أما بعد، فإني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم: الزبير بن العوام؛ والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت؛ ومسلمة بن مخلد ـ وقال آخرون: بل خارجة بن حذافة الزابع ـ لا يعدون مسلمة ـ وقال عمر ابن الخطاب: إن معك اثني عشر ألفًا؛ ولا يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة»..

---

(١) هي: التي أطلق عليها المسلمون بعد ذلك «أم دنين»، ثم سميت «المقس»، وهي شمال حصن بابليون، وكانت ميناء مصر زمن الفتح.

(٢) وَرَدَ الزبير في عشرة آلاف، ويقال: في اثني عشر ألفًا. البلاذري ص (٢١٤).

وكان «**عمرو**» قد نظم مواقعه؛ وحفر الخنادق؛ وزاد من تفريق أصحابه؛ ليرى العدو أنهم أكثر مما هم، وعندما علم «**عمرو**» باقتراب «**الدعم**» توافرت لديه معلومات أن «**تيودور**» قائد الروم قد صمم على مهاجمة المسلمين «**قبل أن تنضم إليهم قوات الدعم**»، وتأكدت هذه المعلومات عندما خرج «**تيودور**» بقواته نحو «**هليوبوليس ـ أو عين الشمس**» ـ وكانت على مسافة ستة أميال من معسكر المسلمين ـ فما كان من «**عمرو**» إلا أن أرسل كتيبتين ـ تحت جنح الليل؛ تَمَرْكَزَت إحداهما عند مواقع «**تندونياس**» ذاتها؛ في حين تمركزت الثانية في موضع في ثنية الجبل «**قرب القلعة الحالية**».

وخرج «**عمرو**» بأكثر الجمع من الغرب للقاء الروم بعد أن طلب من جند «**الكمينين**» عدم الظهور إلا عندما يسمح الموقف بالانقضاض على جناح جيش الروم ومؤخرته، وخرج «**الروم**» من بين البساتين والأديرة التي كانت في الشمال الشرقي من الحصن ولم يكن لهم علم «**بمكيدة عمرو**». وحدث اللقاء بين الجيشين في مكان وسط بين معسكريهما «**ولعله مكان العباسية الآن**» ولما اشتدت المعركة؛ أقبلت الكتيبة الأولى من جهة الجبل تجتاح مؤخرة الروم؛ فاتجه هؤلاء ـ وقد ركبتهم الهزيمة ـ في اتجاه «**أم دنين**» فلقيتهم قوة الكمين الآخر بها، ففر الروم يطلبون النجاة؛ ولكن سيوف المسلمين حصرتهم، فلم ينج منهم غير ثلاث مئة مقاتل؛ نزلوا إلى السفن وعادوا إلى الحصن.

تدعمت قوة «**عمرو**» بوصول الإمدادات؛ فأرسل قوة قتالية «**من خمس مئة فارس**» بقيادة خارجة بن حذافة؛ للالتفاف حول التحصينات؛ ونظم «**عمرو**» هجومًا جبهيًا قويًا، وحملت الخيل التي كانت من وراء الروم؛ واقتحمت عليهم فانهزموا وسقطت «**تندونياس**» في قبضة المسلمين.

انصرف «**عمرو**» لإعادة تنظيم قواته والاستعداد للمرحلة التالية وجعل من «**تندونياس ـ أو ـ أم دنين**» قاعدة له، وتوجه بعد ذلك إلى «**حصن بابليون**» ونظم

الحصار حوله، وتصادف ذلك مع بداية **«فصل الفيضان»**.

حاصر المسلمون **«حصن بابليون»** وكان بها جماعة من الروم وقادة القبط ورؤسائهم وعليهم **«المقوقس»**[١]، واستمر القتال شهرًا؛ عرف القبط خلاله **«جد العرب وتصميمهم على فتحه وصبرهم على القتال ورغبتهم في النصر»** فخاف **«المقوقس»** أن يظهروا عليهم، فتنحى **«المقوقس»** وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي ودونهم جماعة يقاتلون العرب بقيادة **«الأعيرج»**[٢] حتى لحقوا **«بالجزيرة»** وهي **«جزيرة الروضة التي أنشئت فيها دار صناعة السفن فيما بعد»**[٣]، وأمروا بقطع الجسر.

وأخذت **«الروح المعنوية»** للقبط تتدهور، وظهرت الانقسامات فيما بينهم، فجمَّع **«المقوقس»** من يثق بهم واستشارهم سرًّا في الأمر، وأرسل إلى **«عمرو بن العاص»** رسالة، جاء فيها:

«أنتم قد ولجتم في بلادنا؛ وألححتم في قتالنا؛ وطال مقامكم في أرضنا؛ وإنما أنتم عصبة يسيرة؛ وقد أظلتكم الروم؛ وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل؛ وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا عليه؛ ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبكم ورجائكم؛ فابعث إلينا رجلًا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى به نحن وهم من شيء» فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم يومين وليلتين؛ حتى خاف عليهم **«المقوقس»** فقال لأصحابه: **«أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟»**.

---

(١) يطلق المؤرخون اسم «المقوقس» على حاكم مصر في ذلك العصر إطلاقًا خاطئًا، والمقصود بالمقوقس هو «قيرس» بطريق الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج عن أرض مصر.

(٢) الأعيرج: هو جورج قائد حرس الحصن، ويقال له: «المندفور القبطي»، وكان يدير مصر من قبل المقوقس وبأمره.

(٣) فتوح مصر والمغرب ص (٩٦).

لقد أراد «**عمرو**» بذلك أن يري رسل «**المقوقس**» حال المسلمين، ثم ردَّ عليهم «**عمرو**» مع رسله: (... ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال:

١ـ الإسلام؛ فكنتم إخواننا، وكان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا.

٢ـ وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون.

٣ـ وإما أن نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم اللَّه بيننا وهو خير الحاكمين».

وعادت رسل «**المقوقس**» إليه، فقال لهم كيف رأيتموهم؛ قالوا: «**رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة؛ والتواضع أحب إليه من الرفعة؛ ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة؛ إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم**»، فقال «**المقوقس**» عند ذلك: «**والذي يحلف به... لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم؛ وهم محصورون بهذا النيل؛ لم يجيبونا بعد اليوم إذا مكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم**».

وردَّ «**المقوقس**» على «**ابن العاص**» طالبًا إرسال «**رسل من العرب المسلمين**»؛ للتفاوض معهم؛ والاتفاق على ما عساه أن يكون خيرًا للطرفين؛ فبعث «**عمرو بن العاص**» عشرة نفر «**أحدهم عبادة بن الصامت**»، وكان «**عبادة**» ضخمًا ـ فيه وحشية البداوة على ما يظهر وقسوتهم ـ فطلب «**المقوقس**» تنحيته، ولكن الوفد رفض إجراء الحوار إلا مع «**عبادة**».

وانتهت المباحثات إلى اتفاق يتم بموجبه فرض الجزية بمعدل «**دينارين**» على كل رجل منهم؛ وكتب «**المقوقس**» إلى ملك الروم «**هرقل**» يعلمه على وجه الأمر كله؛ فكتب إليه ملك الروم: «... **إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا؛ وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى؛ فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى**

العرب واختاروهم علينا؛ فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مئة ألف معهم العدة والقوة؛ والعرب وحالهم وصفتهم على ما قد رأيت؛ فعجزت عن قتالهم؛ ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم في حال القبط أذلاء ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر ـ تنتصر ـ عليهم، وإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم «كأكلة»، فناهضهم القتال ولا يكون لك رأي غير ذلك».

وكتب ملك الروم إلى جماعته في مصر كتابًا بمثل ذلك؛ وأقبل «**المقوقس**» إلى «**عمرو بن العاص**» فقال له: «**لقد كره الملك ما فعلت، وعجزني وكتب إليَّ وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك؛ وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم؛ ولم أكن لأخرج عما دخلت فيه وعاقدتك عليه؛ وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متم لك على نفسي؛ والقبط متمون لك الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم؛ وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب إليك أن تعطيني ثلاث خصال:**

١ـ ألا تنقض بالقبط وأدخلني معهم؛ وألزمني ما يلزمهم؛ وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه، فهم متمون لك على ما تحب.

٢ـ إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم، فلا تفعل حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا، فإنهم أهل ذلك؛ لأني نصحتهم فاستغشوني؛ ونظرت لهم ـ وأخلصت ـ فاتهموني.

٣ـ أطلب إليك إن أنا مُتُّ أن تأمرهم فيدفنوني في «**أبي كنيس**» بالإسكندرية»[1].

جاء هذا الاتفاق دعمًا للمسلمين الذين مضى على حصارهم «**لحصن بابليون**»

---

(١) فتوح مصر والمغرب، لابن عبدالحكم ص (١٠٤، ١٠٥).

سبعة أشهر ونيف لم يتوقف خلالها القتال، فنظم «**عمرو**» هجومًا قويًّا، ووضع المنجنيق وأخذ في قصف التحصينات والأسوار[١]، وقام «**الزبير بن العوام**» باستطلاع الأسوار؛ ونادى بالمسلمين: «**إني أهب نفسي لله؛ أرجو أن يفتح اللَّه بذلك على المسلمين**» ووضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية «**سوق الحمام**» ثم صعد؛ وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا؛ فما شعروا إلا و«**الزبير**» على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم «**عمرو**»؛ خوفًا من أن ينكسر؛ فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه؛ وكبر، وكبر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج؛ لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا، فهربوا، وأسرع «**الزبير**» وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن[٢]. ومضى «**الأعيرج**» ومن معه من قادة القبط إلى سفن كانوا قد تركوها ملصقة بجدار الحصن. واستقلوها حتى وصلوا إلى «**جزيرة الروضة**».

توقف «**عمرو**» في حصن بابليون[٣]، وأخذ في تنظيم أمور «**المجتمع الجديد**»، ووجه «**عبداللَّه بن حذافة السهمي**» إلى «**عين شمس**» فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط.

ووجه «**خارجة بن حذافة العدوي**» إلى «**الفيوم**»، و«**الأشمونين**» و«**أخميم**» و«**البشرودات**»[٤] و«**قرى الصعيد**» فصالحها أيضًا على مثل صلح «**الفسطاط**».

كما وجه «**عمير بن وهب الجمحي**» إلى «**تنيس**» و«**دمياط**» و«**تونة**» و«**دميرة**»

---

(١) وفيه قال «عمرو بن العاص»:

يوم لهمدان ويوم للصدف ... والمنجنيق في بلي تختلف

وعمرو يرقل إرقال الشيخ الخرف

والإرقال: الإسراع في السير.

(٢) فتح مصر والمغرب ص (٩١)، والبلاذري (٢١٥).

(٣) بابليون: هو اسم موضع الفسطاط.

(٤) الصحيح من اسمها: البشرود؛ كما ورد في «معجم البلدان» (٢/ ١٩٠).

و«**شطا**» و«**دقهلة**» و«**نبا**» و«**بوصير**» فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضًا.

ووجه عقبة بن عامر الجهني ـ ويقال: وردان مولاه ـ إلى سائر قرى أسفل الأرض «**الوجه البحري**» ففعل مثل ذلك.

وبذلك استجمع «**عمرو**» فتح مصر، فصارت أرضها أرض خراج.

كان «**عمرو بن العاص**» قد أرسل إلى أمير المؤمنين «**عمر**» يعلمه عن «**فتح بابليون**» ويستأذنه في فتح «**الإسكندرية**» فجاءت الموافقة على متابعة «**الفتح**» فاستخلف على «**مصر**» «**خارجة بن حذافة العدوي**»، وغادر بجيشه «**بابليون**» ومعه «**جماعة من رؤساء القبط الذين عملوا على إصلاح الطرق وإقامة الجسور وتنظيم الأسواق، وتقديم كل معونة ممكنة لجيش المسلمين. واختار** «**عمرو بن العاص**» التحرك على الضفة الغربية «**للنيل**» من ناحية الصحراء، حيث يتوافر المجال لتحرك القوات وعمل الفرسان دون عائق من تلك العوائق.

وبذلك استطاع «**عمرو**» تجنب «**أرض الدلتا**» مع ما بها من قنوات وترع كثيرة.

عندما وصلت قوات المسلمين إلى «**ترنوط**»[(١)] اصطدمت بقوة للروم وحدثت اشتباكات عنيفة استمرت ثلاثة أيام؛ استطاع المسلمون بعدها انتزاع النصر، وتمزقت قوات الروم، فشكل «**عمرو**» مجموعة من الفرسان بقيادة «**شريك بن سمي**».

استطاع «**شريك**» مطاردة فلول القوات حتى مسافة (١٦ ميلًا) إلى الشمال من «**ترنوط**» وهناك اصطدم بمقاومة قوية؛ يحتمل لها أن تكون قوات دعم كانت متوجهة من الإسكندرية نحو الجنوب، ولم يتمكن «**شريك**» من القضاء على هذه القوات؛ ولكنه استطاع إيقافها، وبعث إلى «**عمرو**» رسولًا يخبره ويطلب دعمه؛

---

(١) «ترنوط»، أو «طرنوط»، أو «الطرانة» كما يسميها العرب: مدينة قديمة كان عندها معبر يعبر النيل عليه في الذهاب إلى الإسكندرية، و«ترنوط» الحالية قرية على النيل بمركز كوم حمادة.

واستمرت الحرب حتى ظهرت طلائع قوات المسلمين؛ فتمزقت قوات الروم وأخذت في الفرار[١]، ودارت معركة طاحنة بعد ذلك في «**سلطيس**»[٢] تمزقت فيها قوات الروم.

ثم تابع المسلمون تقدمهم حتى وصلوا «**الكريون**»[٣]، وكان القائد الروماني «**تيودور**» قد حصن المدينة ونظم حاميته القوية للدفاع عنها. وكان عبدالله بن عمرو «**على المقدمة**»، وكان حامل علم المقدمة «**وردان**» مولى «**عمرو**»، وخاض المسلمون معركة قاسية، قاد فيها «**تيودور**» المعركة بكفاءة؛ وأصيب عبدالله بجراح كثيرة، فقال «**لوردان**»: لو تقهقرت قليلًا نصيب الروح؟ فقال وردان: الروح تريد؟.. الروح أمامك؛ وليس هو خلفك[٤] فتقدم «**عبدالله**» واستأسد الناس، وأمكن تحقيق النصر، وهربت فلول الروم، فانضموا إلى حامية الإسكندرية.

كان الروم يعلقون أملًا كبيرًا على القواعد البحرية؛ ولهذا فقد بذلوا كل

---

(١) وقد أقيمت في موقع هذه المعركة قرية حملت اسم القائد المسلم، وتعرف باسم «كوم شريك»، وهي من قرى «كوم حمادة».

(٢) سلطيس: كذا في الأصل، وصواب الاسم «سنطيس»؛ قرية كبيرة في منتصف المسافة تقريبًا بين «كوم شريك» و«كريون»، وعلى بعد ستة أميال جنوب «دمنهور».

(٣) الكريون: مدينة قديمة، زارها ابن حوقل، وذكر عنها في كتابه: أنها كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية، وكان التجار يركبون فيها القوارب إلى «الفسطاط» التي كانت «أم دنين»، وذلك في وقت الصيف إذا ما عَلَا النيل. وكانت مدينة الكريون آخر حصن «ليم» من سلسلة الحصون الممتدة للروم بين حصن «بابليون» و«الإسكندرية»، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، كما كان لها خطر كبير في الحرب؛ إذ كانت تشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون أو حصن «نقيوس».

(٤) عَلِمَ «عمرو» بإصابة ابنه عبدالله بجراح كثيرة؛ فأرسل من يسأله عن حاله؛ فكان رد عبدالله:

أقول إذا ما جاشت النفس اصبري ... فعما قليل تحمدي أو تلامي

ويروي البيت:

أقول لها إذا جشأت وجاشت ... رويدك تحمدي أو تستريحي

وخرج الرسول إلى «عمرو» وأخبره بما قال «عبدالله»، فقال «عمرو»: «هو ابني حقًّا».

جهودهم للاحتفاظ بها، وعندما علم «**هرقل**» ملك الروم بحصار «**بابليون**» توقع أن تكون المرحلة التالية هي استيلاء المسلمين على «**الإسكندرية**»، فجمع قادته وقال لهم: «**لئن ظهرت العرب على الإسكندرية؛ فإن في ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ وإنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية**».

ولما كان عيد الروم بالإسكندرية أمر بالاستعداد للخروج إليها؛ وحتى يباشر قتالها بنفسه إعظامًا لها؛ وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم.

ولكن ما إن أتم استعداده وبدأ الرحلة حتى توفي [١]، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية. ولكن رغم ذلك فقد بقيت هناك حامية قوية «**لا تقل عن خمسين ألف جندي**».

وهناك بعض المصادر تحدد حجم الحامية بأكثر من مئة ألف جندي مع من انضم إليها من حاميات الأقاليم المصرية التي فتحها المسلمون؛ في حين لم يكن عدد مقاتلي جيش المسلمين يزيد على (١٢) ألف مقاتل.

وكانت حصون الإسكندرية قوية ـ منذ أيام البطالسة ـ حتى تقوى على رد غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين، وكانت هذه الحصون مزدوجة ومجهزة بأدوات الحصار، وفيها «**مخزون كبير يساعدها على الصمود لفترة طويلة؛ كما كانت الإمدادات متوفرة لها عن طريق البحر**».

وصلت قوات المسلمين، واحتلت مواقعها؛ لتحاصر مدينة «**الإسكندرية**» ما بين حلوة إلى قصر «**فارس**» وإلى ما وراء ذلك، وكان مع هذه القوات رؤساء القبط يمدونهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والعلوفة.

ونزل «**عمرو**» بحلوة؛ وأقام فيها لمدة شهرين والقتال مستمر بين العرب والروم. فأقلق هذا الخليفة عمر، فبعث إلى عمرو كتابًا يلومه فيه هو والمسلمين، فقرأ

---

(١) كان موت هرقل يوم الأحد «١١فبراير ٦٤١م»؛ أي: قبل سقوط بابليون؛ مما يدل على أن الروم كانوا يستعدون لحرب طويلة؛ من أجل الاحتفاظ بمصر.

«**عمرو**» الكتاب على المسلمين. ثم إن عَمْرًا خشي أن تضطرب الأمور في «**أم دنين**» وفي الجنوب بسبب انصراف قوات المسلمين إلى حرب الإسكندرية وحصارها، فقرر العودة إلى «**أم دنين**» والإقامة فيها، وعقد لواء حرب الإسكندرية إلى «**عبادة بن الصامت**».

ومضت فترة شهرين آخرين قبل أن يتمكن جند المسلمين من اقتحام الإسكندرية وفتحها عنوة، ولكن «**عمرو بن العاص**» جعل أهلها ذمة، على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم ـ شأن العرب مع أهالي معظم البلاد التي فتحوها. وإنما عامل عمرو المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحًا يستجلب محبتهم، ويستألفهم، وكانت أهم شروط الصلح «**الذي تولى عقده المقوقس**» مع العرب النقاط التالية:

١ـ أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين في السنة.

٢ـ مدة الهدنة أحد عشر شهرًا.

٣ـ يحتفظ العرب بمواقعهم مدة الهدنة، ولا يباشرون قتالًا ضد الإسكندرية، على أن يلتزم جند الروم مقابل ذلك بإيقاف كل عمل عدواني.

٤ـ ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء، وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين.

٥ـ أن ترحل الحامية التي بها مع ما يملكون من أموال وأمتعة، وأن يدفعوا الجزية عن شهر عند رحلتهم.

٦ـ يبقى اليهود بالإسكندرية.

٧ـ توقف الروم عن كل محاولة لإرسال جيش بهدف استرداد مصر.

٨ـ أن يكون عند المسلمين مئة وخمسون جنديًا من الرؤساء، رهينة؛ لضمان تنفيذ هذه المعاهدة.

وكتب «**عمرو**» بعد فتح الإسكندرية رسالة إلى الخليفة «**عمر**» يعلمه بالفتح

ويشرح له أحوال المدينة، وكان في رسالته «... **أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها؛ غير أني أصبت فيها أربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربع مئة ملهى للملوك**»، ويقال: «**إنه رحل عن الإسكندرية في الليلة التي دخلها** «**عمرو**» أو في الليلة التي خافوا فيها دخول «**عمرو**» سبعين ألف يهودي؛ وكانت عدة من بالإسكندرية من الروم مئتي ألف من الرجال؛ وكان بها مئة مركب حملت ثلاثون ألفًا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل؛ وبقي من بقي من الأسارى ممن بلغ الخراج؛ فأحصى يومئذ ست مئة ألف سوى النساء والصبيان.

واستخلف عمرو بن العاص على الإسكندرية عبدالله بن حذافة السهمي في رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفسطاط(١):

فيا فسطاط عمرو العاص عودي يعود الطير كم نزح السنينا

❑ فتح ليبيا:

ما كاد «**عمرو بن العاص**» ينتهي من تنظيم أمور «**الإسكندرية**» حتى توجه بجيشه نحو الغرب «**على الطريق الساحلي**» حتى قدم «**برقة**» فصالح أهلها على ثلاث عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ووجه «**عمرو**» قوة قتالية بقيادة «**عقبة بن نافع**» حتى بلغ «**زويلة**» وصار ما بين «**برقة وزويلة للمسلمين**»(٢).

ثم سار «**عمرو بن العاص**» حتى نزل «**أطرابلس**» وحاصرها شهرًا ولم يقدر عليها. وخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر «**عمرو**» متصيدًا في سبعة نفر، فمضوا غربي المدينة حتى ابتعدوا عن العسكر، ثم رجعوا فأصابهم الحر؛ فأخذوا على ضفة البحر، وكان البحر لاصقًا بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور؛ وكانت سفن الروم شارعة في مرساها إلى بيوتها. فنظر «**المدلجي**» وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة؛ «**كان البحر في حالة**

---

(١) فتح مصر والمغرب (١٠٦ - ١١٠)، وابن الأثير (٢/٢١٩).

(٢) فتوح مصر، لابن عبدالحكم (٢٣٠)، والبلاذري (٣١٤)، والطبري (٤/١٤٤).

الجزر وليس في حالة «المد»، فدخلوا فيه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا، فلم يكن للروم مفزع ومهرب إلا سفنهم، وأبصر «**عمرو**» وأصحابه «**اللَّه أكبر**» في جوف المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم؛ فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم؛ وغنم «**عمرو**» ما كان في المدينة.

وكان من بمدينة «**سبرت**»[1] - وكان اسمها «**نبارة**» - متحصنين، فلما بلغهم محاصرة «**عمرو**» مدينة «**أطرابلس**» وأنه لم يصنع فيهم شيئًا ولا طاقة له بهم «**أمنوا**»، فلما ظفر «**عمرو بن العاص**» بمدينة «**أطرابلس**» جرد خيلًا كثيفة من ليلة، وأمرهم السير بسرعة، فصبحت خيله مدينة «**سبرت**» وقد غفل أهلها؛ وفتحوا أبوابهم؛ لتسرح ماشيتهم؛ فدخلوها فلم ينج منهم أحد؛ واحتوى جند عمرو على ما فيها؛ ورجعوا إلى «**عمرو**» فكتب هذا إلى أمير المؤمنين رسالته:

«... إن اللَّه قد فتح علينا «أطرابلس» وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعة أيام؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها؛ ويفتحها اللَّه على يديه فعل».

فكتب إليه عمر:

«لا... إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها؛ لا يغزوها أحد ما بقيت»[2].

❑ غزو بلاد النوبة

رجع «**عمرو**» بجيشه إلى قاعدته في «**الفسطاط**»، وانصرف إلى تنظيم أمور «**مصر**»، وأراد تأمين مصر من الجنوب، فأرسل «**مجموعة قتالية**» بقيادة «**عقبة بن نافع الفهري**» فدخلت خيولهم أرض النوبة، فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا؛ إذ

---

(١) سبرت: واسمها «نبارة» أو «السوق القديم»، ويقال: إنه ربما كان عبدالرحمن بن حبيب هو الذي أطلق عليها اسم «نبارة» في سنة (٣١ هـ).

(٢) أصدر أمير المؤمنين عمر أوامر مماثلة لإيقاف توغل المسلمين على حدود «الروم» وعلى حدود «فارس»؛ خوفًا على المسلمين من التوسع بما يزيد على طاقتهم.

كان أهلها ماهرين برمي السهام؛ فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم؛ فانصرفوا بجراح كثيرة وحدق «**عيون**» مفقودة، ولم يصالحهم «**عمرو**» ولم يزل يهاجمهم حتى عزل عن مصر، وولي عبدالله بن سعد بن أبي سرح؛ فصالحهم؛ فكانت بينهم وبين المسلمين هدنة: يعطيهم المسلمون شيئًا من القمح والعدس؛ ويعطيهم النوبيون رقيقًا.

❑ انتقاض الروم بالإسكندرية واستعادتها مرة ثانية بعد قتل القائد الرومي

استقر المسلمون في مصر؛ ولكن كان من الصعب على الروم الاعتراف بهزيمتهم؛ أو التسليم بما أحرزه المسلمون من نصر؛ وأفادوا من تفوقهم البحري الإبقاء على الاتصال «**ببقايا أنصارهم**» في المدن الساحلية في الشام ومصر.

وفيما كان المسلمون منصرفون لإقامة المجتمع الجديد، كانت الاتصالات مستمرة في الخفاء، وقام بعض أولئك الذين حرمهم المسلمون من امتيازاتهم بالكتابة إلى «**قسطنطين**» «**ابن هرقل**» الذي أصبح إمبراطورًا للروم بعد وفاة أبيه يهونون عليه فتح الإسكندرية؛ لقلة ما بها من حامية المسلمين؛ وبما يعاني فيها الروم من المذلة وأداء الجزية؛ فبعث «**قسطنطين**» قوة في «**ثلاث مئة مركب**» بقيادة «**منويل الخصي**» ونزلت هذه القوة بالإسكندرية في عام ٢٥هـ «**نهاية سنة ٦٤٥م**»، وانضم فلول الروم إلى هذه القوة.

وعمل «**المقوقس**» على مقاومة هذا الهجوم وانضم إليه القبط، وعمل «**منويل**» على قتل المسلمين الموجودين بالإسكندرية «**كحامية صغيرة للدفاع عنها**».

كان عمرو بن العاص «**في الفسطاط**» عندما قامت قوة الروم بالإنزال؛ وأراد بعض القادة «**في مقدمتهم خارجة بن حذافة**» الإسراع للقاء قوات الروم قبل أن يتمكنوا من مغادرة الإسكندرية؛ خشية أن «**تنتقض**» مصر على المسلمين وتنضم إلى «**الروم**»، ولكن عَمْرًا قال لقادته: لا، لن أهاجمهم، ولكن أدعهم حتى يسيروا

إليَّ؛ فإنهم يصيبون من مروا به؛ فيخزي اللَّه بعضهم ببعض.

خرجت قوات «**الروم**» من الإسكندرية؛ ومعها من نقض من أهل القرى؛ فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون أطعمتها وينتهبون ما مروا به، فلم يعرض لهم «**عمرو**» حتى بلغوا مدينة «**نقيوس**»[(١)] حيث اصطدم بهم المسلمون وهم في البر والبحر، وبدأ الروم والقبط برمي المسلمين «**بالنشاب**» بكثافة عالية مستفيدين من تفوقهم العددي «**حيث كانت قوة الروم تزيد على (١٥) ألف مقاتل**»، وأصابت نشابٌ فرسَ «**عمرو**» في لبتها، فترجل عنها «**عمرو**»، ثم خرج الروم من البحر؛ فاجتمعوا هم والذين في البر؛ واستمروا في نضح المسلمين بالنشاب، فتراجع المسلمون قليلًا، دار هذا القتال العنيف في البر والبحر وحمل الروم على المسلمين؛ وأرغموا قوة الفرسان «**التي يقودها شُريك**» على التراجع، ونظم الروم هجومهم على شكل أنساق متتالية، مما كان يضمن لهم قوة دفع على متابعة الهجوم، لكن المسلمين صمدوا، ثم قام «**عمرو**» بتنظيم هجوم قوي، وأمكن له التغلب على الروم، وأخذ في مطاردتهم حتى اضطرهم إلى اللجوء إلى أسوار الإسكندرية؛ وتوقف المسلمون ريثما يعيدوا تنظيم قواتهم؛ واستخدم «**عمرو**» المنجنيق؛ لتدمير الأسوار[(٢)]، ثم اقتحم المسلمون المدينة، وقُتل «**منويل الخصي**» قائد الروم، وأمعن عمرو بن العاص في قتال الروم داخل الإسكندرية؛ وتوسط بعض «**القبط**» فرفع «**عمرو**» عنهم[(٣)].

---

(١) نقيوس: من المدن المصرية القديمة، وقد زالت وَحَلَّ محلها اليوم الكوم الأثري الموجود بالجهة البحرية من سكن «زاوية رزين» بمركز «منوف» المعروف عند الأهالي هناك باسم «كوم مانوس».

(٢) أعاقت هذه الأسوار تقدم المسلمين، وأضرت بهم؛ فأقسم عمرو: «لئن أظهره الله عليهم ليهد من سورها؛ حتى تكون مثل بيت الزانية، تؤتى من كل مكان»، وعندما اقتحم المسلمون الإسكندرية عمل على الوفاء بقسمه؛ فدمر أسوار المدينة جميعها.

(٣) عمل «عمرو» على بناء مسجد في الموضع الذي توقف فيه القتال، وهو المسجد الذي يقال له في الإسكندرية: «مسجد الرحمة» كناية عن استجابة «عمرو» لعامل «الرحمة» وقدرته على إبادة الروم لو أراد ذلك.

جمع «**عمرو**» ما أصاب منهم؛ وجاءه أهل القرى ممن لم ينقضوا العهد؛ فقالوا: قد كنا على صلحنا؛ وقد مَرَّ علينا هؤلاء اللصوص؛ فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك، فرد عليهم «**عمرو**» ما كان لهم من المتاع مما عرفوه وأقاموا عليه البينة، وقال بعضهم لعمرو:

«**ما حلَّ لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا؛ لأنا في ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده الله**»، فندم عمرو وقال: «**ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية**».

وكانت هناك قرية اسمها «**خربة وردان**» لا يقطنها إلا «**الرهبان**»، وقد عمل هؤلاء على الغدر بالمسلمين والانقضاض على مؤخرتهم «**ساقتهم**».. مستفيدين من موقع قريتهم القريبة من «**الكريون**».

ولما بلغ «**عمرو**» ما فعله أهل «**خربة وردان**» وجه إليهم قوة قتالية عملت على قتل «**الغادرين**» وتخريب القرية؛ التي بقيت خرابًا حتى اليوم.

انصرف «**عمرو**» بعد «**فتح الإسكندرية الثاني**»؛ لإعادة تنظيم الدفاع، وقطع من أصحابه لرباط «**حامية**» الإسكندرية، وربع قواته: الربع يقيمون ستة أشهر؛ ثم يعقبهم شاتية لمدة ستة أشهر، والنصف الثاني يقيمون معه.

وكان أمير المؤمنين «**عمر بن الخطاب**» يبعث في كل سنة «**غازية**» من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية؛ وكاتب الولاة بألا تغفلها، وأن يعملوا على «**تكثيف رابطتها**»؛ لحمايتها من «**غدر الروم**»[1].

فرضي اللَّه عن عَمرِو بن العاص، الذي يحتلُّ أنصَعَ صَفَحَاتِ الفتح الإسلامي في تاريخ العرب والمسلمين؛ بِفَتْحِهِ لفلسطين، ومصر، وليبيا، وهي بلادٌ لم يفتحْ غيرُه من قادةِ العرب أوسعَ منها وأكثرَ خيرًا.

---

(١) فتوح مصر والمغرب، لابن عبدالحكم ص (٢٥٨).

هذه الأرضُ التي قد زينتْ بنجوم المجدِ تحبُو في سَمَاهَا
هاهنا مرَّ الزبيرُ وهاهنا ضمَّخَ ابنُ العاصِ بالطِّيبِ ثَراها

❑ **أمَّا واقِعُنَا:**

ماذا تبقَّى من ضياء الصُّبح في عينِ الوطنْ
والشمسُ تجمعُ ضوءَها المكسورْ
والصبحُ الطريدُ
رفاتُ قِدِّيسٍ يفتِّشُ عنْ كَفَنْ
النيلُ بين خرائِبِ الزمنِ اللقيطْ
يسيرُ مُنكسرًا على قدمَينْ عاجزتَينْ
ثُمَّ يطلُّ في سَأمٍ ويسأل عن سَكَنْ
يتسوَّل الأحلامَ بين الناسِ
يسألهم وقدْ ضاقتْ به الأيامُ
مَن منَّا تغيَّر؟
وجهُ هذي الأرضِ.. أمْ وجهُ الزمنْ
في كلِّ يومٍ يشطرون النهرَ
فالعينانِ هاربتانِ في فَزَعٍ
وأنفُ النيل يسقط كالشظايا
والفمُ المسجون أطلالٌ
وصوتُ الريحِ يعصفُ بالبَدَنْ
قدمانِ خائرتانِ.. بطنٌ جائعٌ
ويدٌ مُكَبَّلةٌ.. وسيفٌ أخرسُ
باعُوهُ يومًا في المزادِ بلا ثَمَنْ

النيلُ يرفعُ رايةَ العِصيانِ
في وَجْهِ الدمامَةِ.. والتنطُّع.. والعَفَنْ

* * *

ماذا تبقَّى مِنْ ضياء الصبحِ
في عَيْنِ الوطنْ..
الآن فوقَ شواطئ النهرِ العريقِ
يموت ضوءُ الشمسِ
تصمُتُ أُغنياتُ الطيرِ.. ينتحِرُ الشجرْ
خَنقُوا ضياءَ الصُّبحِ في عين الصغارِ
ومَزَّقوا وَجْهَ القمرْ
باعُوا ثيابَ النهرِ في سُوق النِّخاسَةِ
أسكتُوا صوْتَ المَطَرْ
في كلِّ شِبْرٍ وَجْهُ ثُعبانٍ بلوْنِ الموتِ
يَنْفُثُ سُمَّهُ بين الحُفَرْ..
في كلِّ عينٍ وَجْهُ جَلَّادٍ يُطِلُّ ويختفي
ويعودُ يزأر كالقَدَرْ..
صَلَبُوا على الطرقاتِ
أمجادَ السنينِ الخُضْرِ
باعُوا كلَّ أوْسِمَةِ الزمانِ البِكْرِ
عُمْرًا.. أو ترابًا.. أو بَشَرْ..
أترى رأيتم كيفَ يُولد عندنا
طفلٌ وفي فَمِهِ حَجَرْ؟

لَمْ يَبْقَ شيءٌ للطيورِ على ضفافِ النيلِ
غيرُ الحزن يَعْصِفُ بالجوانِحْ
زمنُ العصافير الجميلةِ قد مضى
وتحكَّمَتْ في النهرِ أنيابٌ جَوارِحْ
زمنُ القراصِنَةِ الكبارِ
يُطلُّ في حُزْن العيونِ..
وفي انطفاءِ الحُلمِ..
في بؤْسِ الملامِحْ..

* * *

ماذا تَبقَّى مِنْ ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوَطَنْ
زمنُ الفوارِسِ قد مضَى..
قل للخُيولِ تَمَهَّلي في السَّيْرِ
فالفُرسانُ تسقُط في الكمائِنْ
قلْ للنوارسِ حاذري في الطيرِ
إنَّ الريحَ تعصِفُ بالسفائِنْ
قلْ للطيورِ بِأَنَّ وجهَ الموتِ قنَّاصٌ
يطوفُ الآنَ في كلِّ الأماكنْ..
ويلٌ لمَاءِ النهرِ حينَ يجيءُ مُنكَسِرًا
وفي فَزَعٍ يُهادِنْ

* * *

ماذا تبقَّى مِن ضياءِ الصُّبحِ في عَيْنِ الوطنْ
والنهر مسجونٌ وطَيْفُ الحلمِ

بين رُبوعِهِ يَجري ويصرخُ في أَلَمْ
لم يبقَ شيءٌ فوق أطلال الشواطئ
غيرُ عصفور كسير كان يشدو بالنَّغمْ
لمْ يبقَ بينَ حدائقِ الأطفالِ
غيرُ فراشةٍ بيضاءَ مَاتَتْ
حينَ حَاصَرَهَا العَدَمْ
لم يَبْقَ غيرُ كَتَائِبِ الجَهلِ العتيق
تُطِلُّ في خُبْثٍ.. وتَضحكُ في سَأَمْ
مَنْ باعَ للَّيلِ الطَّويلِ عيونَنَا؟
مَنْ أخْرَسَ الكلماتِ فينا؟
مَنْ بحدِّ السيفِ ينتهكُ القلمْ؟

* * *

مَاذا سَيَبْقَى بعدَ موتِ النهرِ
غيرُ شُجَيْرَةٍ صفراءَ تبحثُ عن كَفَنْ
ماذا سيبقى بعدَ قتْل الفجرِ
غير سحابةٍ سوداءَ
تَبكي فَوْقَ أطلالِ الوَطَنْ
ماذا سيبقى مِنْ رُفَاتِ الصبُحِ
غير شراذِمِ الليلِ القبيح
تحومُ في وَجْهِ الزمَنْ

* * *

يَأَيُّهَا الليلُ الطويلُ

ماذا يَضيرُكَ إنْ تركتَ الصبحَ يَلْهُو
فوقَ أعناقِ الحَدائِقْ..
ماذا يَضيرُك إنْ غَرست القمحَ في وطَني
وحَطمت المشانِقْ
في كلِّ بيتٍ في مدينتنا سُرَادِقْ
ماذا يضيركَ أن يعودَ العدلُ فينا شامِخًا
ويطوفُ مرفوعًا على ضَوْءِ البَيَارِقْ
مَاذَا يَضيرُكَ أنْ تعودَ الشمسُ
تسري في العيونِ
وأن يعودَ الفجرُ يقتحمُ الخَنَادِقْ
ماذا يَضيرُكَ أنْ يعودَ النَّوْرَسُ المقهورُ
يَصْدَحُ في السماءِ..
فلا تطارِدُهُ البنادقْ
ماذا يضيرك أنْ تعودَ قوافِلُ الأحلامِ
تسكنُ في العيونْ
ماذا يضيرك أنْ يصِيرَ الحَرْفُ حُرًّا
لا قيودَ.. ولا سياطَ.. ولا سجونْ..

❊ ❊ ❊

يَأَيُّهَا النهرُ الجَلَيلْ
أنا مِن بلاطِكَ مُستقيلْ..
أنا لن أغنِّيَ في سجونِ القَهْرِ
والليل الطويلْ

أنا لنْ أكونَ البُلْبُلَ المسجونَ في قَفَصٍ ذليلْ
أنا لن أكونَ الفارسَ المهزومَ
يجري خلفَ حُلْمٍ مُستحيلْ..
ما زال دمعُ النيل في عيني
دماءٌ لا تجفُّ.. ولا تسيلْ
الآن أُعْلِنُ.. أنَّ أزْمِنَةَ التنطُّعِ
أخرستْ صوْتي
وأنَّ الخيْلَ مَاتَتْ عندما اختنقَ الصهيلْ..
يَا أيُّهَا النهرُ الجليلْ
إِنْ جِئْتَ يومًا شامخًا..
ستعودُ في عَيْنَيَّ.. نِيْل[1]...

❑ أخي:
النيلُ أصبحَ مَرْتعًا
كي تسْتَحِمَّ بِهِ البغالْ
وهو النجاشيُّ المسافرُ في القرونِ
فكم رأى قِصَصًا وقالْ
طهِّرْ مياهَ النيلِ مِلْءَ شطوطِهِ
بحديث عَمْرٍو والرجالْ
دوِّنْ لنا الآياتِ...
دوِّنْ سِرَّهَا في النيلْ..

---

(١) قصيدة «أغنية للوطن»، لفاروق جويدة ـ الأهرام (١٩٩٥/٦/٢٥).

هذا كاتمُ الأسرارِ في لغةِ المُحَالْ
سنُفَتِّشُ الأمواجَ عَنْ مكنونِهَا
فعطِّر ورْدَهَا بِنَذْرِ[1] الزُّبيرِ
ورَوِّهَا قِصصَ الجلالْ

❊ ❊ ❊

(١) لما وهب نفسه لله لفتح حصن بابليون.

جدول عمليات فتح مصر[1]

تسلسل الأرقام	السنة الهجرية	التاريخ الميلادي	موجز الأحداث
١	١٨هـ	١٢ كانون الأول «ديسمبر» ٦٣٩م	وصول عمرو بن العاص إلى حدود مصر
٢	١٩هـ	٢٠ كانون الثاني «يناير» ٦٤٠م	فتح الفرما
٣	١٩هـ	أيار «مايو» ٦٤٠م	غزو إقليم الفيوم
٤	١٩هـ	٦حزيران «يونيو» ٦٤٠م	وصول الدعم لقوات عمرو بن العاص
٥	١٩هـ	تموز «يوليو» ٦٤٠م	بدء حصار حصن بابليون
٦	١٩هـ	أويلول «سبتمبر» ٦٤٠م	توقيع المعاهدة بي «المقوقس» و «عمرو بن العاص» ورفض «هرقل» لهذه المعاهدة واستمرار المحاصرة.
٧	٢٠هـ	٦نيسان «ابريل» ٦٤١م	استسلام حصن «بابليون» وهو اليوم يؤرخ به الفتح الإسلامي لمصر
٨	٢٠هـ	١٣ أيار «مايو» ٦٤١م	فتح «نقيوس»
٩	٢٠هـ	حزيران «يونيو» ٦٤١م	بدء الهجوم على الإسكندرية
١٠	٢٠هـ	٨ تشرين الثاني «نوفمبر» ٦٤١م	استسلام الإسكندرية
١١	٢١هـ	١٧ أيلول «سبتمبر» ٦٤٢م	إجلاء الروم عن الإسكندرية
١٢	٢٥هـ	نهاية عام ٦٤٥م	ثورة الإسكندرية ودعم الروم لها
١٣	٢٦هـ	صيف ٦٤٦م	الفتح الإسلامي الثاني للإسكندرية

(١) وفقًا لما جاء في «فتوح مصر والمغرب»، لابن عبدالحكم.

❏ عمرو بن العاص القائد

تحلَّى عمرو رضي الله عنه بصفات قيادية أهلته لهذا المنصب حتى أصبح من كبار القادة في عهد الرسول ﷺ وصاحبيه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.

وقد توافرت في عمرو الصفات القيادية الآتية:

● **الشَّجاعة**

من الصفات التي كان يتمتع بها عمرو الشجاعة، فقد كان جريئًا مقدامًا ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض غمار الحرب، ولا يخشى الموت.

ومن المواقف التي برزت فيها هذه الصفة:

ما حدث في معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبع مئة من المسلمين، مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم[١].

● **الرأي السديد والعقل الراجح**

يُعَدُّ عمرو رضي الله عنه ذا رأي سديد وعقل راجح، فهو معدود من دهاة العرب المقدَّمين في الرأي، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلًا في رأيه قال: «**أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد**» يريد خالق الأضداد.

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب. وفي ذلك يقول الثعالبي ـ رحمه اللَّه ـ: «**ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه** رضي الله عنهم»[٢]. ولرجاحة عقله رضي الله عنه بعثته قريش إلى الحبشة

---

(١) فتوح مصر والمغرب، لابن عبدالحكم ص (٨٣)، تحقيق عبدالمنعم عامر، طبع ونشر لجنة البيان العربي، والإصابة (٣/٣).

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي ص (٨٨)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، والإصابة (٣/٣).

للتفاوض مع النجاشي بشأن ردِّ المهاجرين إلى مكة[١].

- **بُعْد النظر**

كان عمرو رضي الله عنه يتمتع بصفة بُعْد النظر، فهو يقدِّر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع.

ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد لذلك أنه حين فزع أهل المدينة لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد، بينما تفرق الناس.

- **القدرة على جمع المعلومات**

يُعَدُّ جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكري ووضع الخطة المناسبة له.

ولهذا كان عمرو رضي الله عنه يحرص على جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض، التي سيقاتل عليها.

ومن الأمثلة على ذلك:

ما حدث في سرية ذات السَّلاسل، حيث استعان بأخواله من «**بِلَي**» في إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه مما كان سببًا في انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمرًا مهمًّا لوضع صورة أمام القائد عن عدوه وسلاحه وخططه العسكرية وحلفائه فإن عَمْرًا كان يقدِّر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء كان ذلك بالاستطلاع الشخصي أو بإرسال العيون والأرصاد.

ومن الأمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصي: ما قام به رضي الله عنه من استكشاف مقر قائد الروم «**أرطبون**»، حيث اطلع على مواطن الضعف في مواضع جيش الروم.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/٣٣٥)، والسيرة النبوية، لابن هشام (١/٣٥٦).

- **الماضي الناصع المجيد**

من الصفات القيادية التي توافرت لعمرو رضي الله عنه الماضي المجيد؛ فهو من بني سهم، وهذا البطن من قريش انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، حيث كانت لهم السِّيادة والسلطان في مكة.

كما كان عمرو نفسه من ذوي الشرف في الجاهلية وممن عُرفوا بسداد الرأي والحزم.

فقد حازم الشرف من جميع جوانبه، فهو ذو نسب شريف، كما أنه تربَّى في بيت شريف هو بيت العاص بن وائل، وعاش في بلد شريف هو مكة المكرمة.

- **اتخاذ القرارات الصحيحة وتنفيذها في الوقت المناسب**

من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها عمرو رضي الله عنه اتخاذ القرارات الصحيحة.

فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتى تؤدي الغرض منها. ومن الأمثلة على ذلك: ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك؛ إذ إن هذا القرار يحقق مصلحة كبيرة في هذا الظرف الحاسم، وهو وحدة المسلمين وإظهار هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهي تفرُّق الجيوش الذي هو مظنة للفشل والخذلان مما يُغري أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو رضي الله عنه يعتمد في ذلك على أسس اتخاذ القرارات ابتداءً من الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية في الحسبان، مثل: الطبيعة الجغرافية، والأهمية الاستراتيجية للموقع، والطبيعة البشرية سواء كانت في جانب جنده أو لدى جنود أعدائه، حتى ينتهي الأمر بإصدار القرار المناسب في وقته.

وقد كان أسلوب عمرو رضي الله عنه هو عدم إخضاع قراراته للعامل الزّمني، وإنما كان يُسَخِّر هذا العامل لمصلحة قراراته، فكان يقوم بجمع الأعمال الممكنة في حدود هذا العامل حتى تحين اللحظة المناسبة للتنفيذ، فيخرج القرار بصورة متكاملة وفورية، مع أن الإِعداد له قد استغرق وقتًا طويلًا[1].

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث عند فتح بيت المقدس، وذلك أن عَمْرًا بعدما فرغ من فتح البلاد المجاورة لبيت المقدس عزم على فتح هذه المدينة.

ولكنه بعد دراسة الأمور المتعلقة بهذا الشأن من جميع الوجوه كان قراره الأخير هو ألَّا يفتحها بنفسه؛ لأن هذا العمل سيكلفه جهدًا، لا ضرورة له، فأرسل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخبره بحقيقة الموقف، ويطلب منه أن يحضر بنفسه لمصالحة أهل هذه المدينة[2].

يروي الطبري خبر ذلك فيقول: «**وكتب أرطبون إلى عمرو:... والله لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تُغَر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة**».

فدعا عمرو رجلًا يتكلم الرومية فأرسله إلى أرطبون وأمره أن يُغْرِب[3] ويتنكر، وقال: استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله... وكتب إليه: جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد... فخرج الرسول ـ على ما أمر به ـ حتى أتى أرطبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر، فاقترأه[4]، فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على أرطبون فقالوا: من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟

قال: صاحبها رجل اسمه «**عمر**» ثلاثة أحرف. فرجع الرسول إلى عمرو فعرف

---

(١) انظر: عمرو بن العاص، لبسَّام العسلي ص (١٥٤، ١٥٦).

(٢) تاريخ الطبري (٣/٦٠٦، ٦٠٧).

(٣) يغرب: تقول العرب: أغرب زيد في الأمر إذا جاء بشيء قولًا أو فعلًا. انظر: لسان العرب (٢/٦٦٧).

(٤) اقترأه: الاقتراء: افتعال من القراءة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٠)؛ ولسان العرب (٣/٤٢).

أنه عمر»[١].

وكتب إلى عمر يستمده ويقول: «**إني أعالج حربًا كئودًا صدومًا[٢] وبلادًا ادخرت لك فرأيك**».

ولما كتب عمرو إلى عمر بذلك عرف أنه لم يقل إلا بعلم، فنادى في الناس، ثم خرج فيهم[٣].

❑ المبادئ العسكرية التي طبقها عمرو رضي الله عنه

تتلخص المبادئ العسكرية التي طبقها عمرو رضي الله عنه في المبادئ الآتية:

- **المبدأ الأول: الحرص على تطوير القدرة الحركية**

لمَا وصل عمرو رضي الله عنه إلى مصر حرص على تطوير القدرة الحركية لجيشه، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة «**الروضة**»؛ لاستخدامها في نقل قواته.

كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه[٤].

وكان اهتمام عمرو بالشئون الإدارية والمباغتة والاقتصاد بالقوى وغيرها إنما هو من أجل خدمة القدرة الحركية وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق يتبين أن هذا المبدأ لدى عمرو رضي الله عنه يقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

الأولى: إزالة السدود والحواجز التي يمكن أن تعوق القدرة الحركية.

---

(١) تاريخ الطبري (٣/٦٠٦).

(٢) الصدم في اللغة: ضرب الشيء الصلب بمثله، ووصفت الحرب هنا بالصدوم؛ لأن كلا الجيشين يتصادمان فيحدث من جراء ذلك ضرر على كل الطرفين. انظر: لسان العرب (٢/٤٢٢)، والقاموس المحيط (٤/١٤٠).

(٣) تاريخ الطبري (٣/٦٠٦، ٦٠٧)، والكامل، لابن الأثير (٢/٤٩٩).

(٤) الكامل، لابن الأثير (٣/٢٦)، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكسي (١/٨)، وعمرو بن العاص، لبسام العسلي ص (١٢٨).

الثانية: اختيار محاور العمليات التي تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.

- **المبدأ الثاني: الشدة على أعداء المسلمين**

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثاني سنة (٢٥هـ)، غدر أهل قرية تسمى «**خربة**»، وكان أهلها رهبانًا بمؤخرة جيش عمرو وقتلوهم، ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية وأقام بها وجَّه مولاه ويسمى «**وردان**» فقتلهم وخرب قريتهم وتسمى الآن «**خراب خربة وردان**»[(١)].

ومن هذا الموقف نستنتج أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر؛ وذلك لكي يردع الأعداء عن التمادي في ارتكاب مثل هذا الخلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم، ويضمن لهم الأمن والسلامة.

وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف في رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه في ذلك فرفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع مسجدًا يعرف بمسجد الرحمة في الإسكندرية.

ومن هذا الموقف ينبغي أن يُعلم أن عَمْرًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يترك في مثل تلك الظروف القاسية التي تدعو إلى الشدة والصلابة مجالًا للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له؛ لأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان ينطلق من منطلق البناء والإصلاح، لا الحقد أو حبِّ الانتقام.

وقد كان عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صلبًا عندما يقرر خوض القتال، ففي بِلْبِيس[(٢)] - مثلًا - قام بتصفية قوات العدو وإبادتها إبادة كاملة.

ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في المجتمع الجديد، إنما هو مجرد وسيلة غاية في حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمي الذي يفتقر إلى

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص (٢٣٨).

(٢) بِلْبِيس: مدينة بمصر بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ، وعلى طريق الشام.

الاستقرار والهدوء[1].

- **المبدأ الثالث ادخار القوى**

لقد كانت قوات المسلمين في جميع الحروب التي خاضوها أقل من قوات أعدائهم، ولهذا فكَّر القادة العسكريون؛ اقتداءً بالرسول القائد ﷺ في إيجاد البديل الذي يعوِّض عن هذا النقص في العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة: عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه.

ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْرًا رضي الله عنه عندما أراد فتح أَجْنَادين وجد أن «**أرطبون**» الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما في كل من «**إيلِيَاء**»[2] و(الرَّمْلَة)[3]، ففصل عمرو في جيشه قوتين صغيرتين وعيَّن على كل واحدة منهما قائدًا، وأمرهما بمنع أي تحرك لقوات الروم إلى «**أَجْنَادين**». أما القوة الرئيسة فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم.

وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان.

- **المبدأ الرابع خفة الحركة**

كان عمرو رضي الله عنه يؤمن بمبدأ خفة الحركة ويحسن تطبيقه في الوقت المناسب.

ومن الأمثلة على ذلك: أن عَمْرًا رضي الله عنه عندما احتل «**طَرَابُلُس**» أمر قواته بالتوجه إلى «**صَبْرا**» ليلًا، فتحركت القوات بقيادة عبدالله بن الزبير فدخلها صباحًا، واستسلم أهل المدينة دون قتال.

---

(١) انظر: فتوح مصر والمغرب ص (٢٣٨)؛ وعمرو بن العاص، لبسام العسلي ص (١٣٦، ١٣٩).

(٢) إيلِيَاء: اسم لمدينة (بيت المقدس)، ومعناه: بيت الله، وقد سميت باسم بانيها، وهو إيلياء بن آرم بن سام بن نوح عليه السلام.

(٣) الرَّمْلَةُ: إحدى مدن فلسطين، وتقع غرب بيت المقدس، قرب الساحل، وقد سكنها مجموعة من العلماء فَنُسبوا إليها، وكانت رباطًا للمسلمين.

وفي ذلك يقول ابن عبدالحكم: «**كان من بـ«سَبْرَتْ»**[١] متحصنين... فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طَرَابُلُس وأنه لم يصنع فيهم شيئًا ولا طاقة له بهم آمنوا».

فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طَرَابُلُس جرَّد خيلًا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السَّير فصبَّحت خيله مدينة «**سَبْرَت**» وقد غفلوا وقد فتحوا أبوابهم؛ لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها، ورجعوا إلى عمرو[٢].

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب:

مفتاح شخصية عمرو، أنه كان يستعرض جوانب (القوة) دائمًا، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من (القدرة) موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي، فقد كان رجلًا يتقن الحساب ويجيد المساومة... يقف ساكنًا ويفكر طويلًا... ثم يساوم في حرص. إنه كان يشترط دائمًا... هكذا كان موقفه في كل أمر!!

❏ **القائد**

كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكورًا بذلك فيهم[٣]، وكان جريئًا مقدامًا[٤] وذا رأي قريش، كما وصفه أبو بكر الصديق[٥].

---

(١) سَبْرَت: مدينة كورة طرابلس المغرب قرب «نبارة»، وقد كان السوق القديم في سَبْرَت، ونقل منها إلى «نبارة». مراصد الاطلاع على أسماء البقاع، تأليف عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي (٦٨٩/٢)، الطبعة الأولى (١٣٧٣هـ)، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.

(٢) فتوح مصر والمغرب، لابن عبدالحكم ص (٢٣١)، وانظر: المدرسة العسكرية الإسلامية.

(٣) الاستيعاب (١١٨٨/٣).

(٤) فتوح مصر، لابن عبدالحكم ص (٥٢) نقلًا عن كتاب تاريخ عمرو بن العاص، للدكتور حسن إبراهيم ص (٨١)، ونص ما جاء فيه: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على عمر بن الخطاب، فقال عمر: كتبت إلى عمرو بن العاص يسير إلى مصر من الشام. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، إن عمرًا لمجروء وفيه إقدام وحب للإمارة... إلخ.

(٥) اليعقوبي (١٠٧/٢).

وبذلك اجتمعت لعمرو أهم عناصر القيادة: الشجاعة الشخصية، والبطولة، والجرأة، والإقدام، والرأي السديد، والعقل الراجح، والمنطق السليم.

فإذا أضفنا إلى ذلك حرص عمرو على استكمال جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض التي يقاتل عليها، وذلك بالاستطلاع الشخصي، والاستطلاع بالعيون والإرصاد، فقد تيسَّرت لعمرو كافة عوامل إعداد خطة مناسبة ناجحة.

وكان لحضور عمرو إلى مصر في جاهليته أثر كبير على معرفته بأحوال مصر وأخبارها؛ طرقها، وطبيعة أرضها، ومدى الاضطهاد الديني والسياسي الذي يتحمله أهل مصر من الروم ـ فلا عجب أن يقدم عمرو على دخول مصر على رأس ثلاثة آلاف وخمس مئة رجل فقط؛ إذ لولا تيسُّر المعلومات الكافية لديه عن مصر وأهلها وضعف حاميتها لما كان من المعقول أن يقدم على فتح مصر بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال.

وكان عمرو يتمتع بحاسة معرفة تأثير طبيعة الأرض على المعركة، فهو الذي أشار على قادة المسلمين في أرض الشام بالاجتماع في «**اليرموك**»، فلما نزل الروم معسكرهم انتقل المسلمون إلى معسكر مناسب ونزلوا على طريق انسحاب الروم، وليس للروم طريق إلا على المسلمين!... حينذاك هتف عمرو: «**أيها الناس! أبشروا، حصرت واللَّه الروم، وقلَّ ما جاء محصور بخير!!**».

وكان يؤمن بأهمية (الضبط) والطاعة والسيطرة؛ لذلك كان يفرض على رجاله ضبطًا عاليًا ويطالبهم بالطاعة المطلقة لأوامره، ويسيطر عليهم سيطرة تامة؛ ولعل منع رجاله ـ وفيهم بعض كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح ـ من إشعال النار ليلًا على الرغم من شدَّة البرد؛ ليحول دون كشف مواضعهم للعدو، مثال رائع لشدة ضبط عمرو وسيطرته النافذة على مرءوسيه بصرف النظر عن قيمتهم الاجتماعية.

وكان بعيد النظر...

وبعد نظره جعله يمنع رجاله من مطاردة «**قضاعة**» بعد هزيمتها؛ خوفًا من وجود مددٍ لها، فيقع رجالهم في كمين يكبدهم خسائر فادحة.

وكان عمرو يحارب بسيفه وعقله على حد سواء! كان يباشر القتال بنفسه، وهو القائل:

وصبرنا على مواطن ضنك وخطوب تُري البياض الوليدَا

لقد كان عمرو يجيد حرب الدعاية، ويؤمن بمبدأ: «**الحرب خدعة**».

وكان يقدِّر أهمية توحيد القيادة وضرورة وجود قائد واحد، ويدير معركة واحدة على رأس قوة واحدة، وعلى الرغم من حرصه الشديد على الإمارة إلا أن الْتِفَاتَتَهُ البارعة إلى حصر القيادة بيده فقط في معركة ذات السلاسل كانت ذات أهمية بالغة من الناحية العسكرية البحتة؛ لأن وجود قائدين على رأس قوة واحدة يؤدي إلى الارتباط والبلبلة وضياع المسئولية وتفرق الشمل وبعثرة الجهود.

لقد كان عمرو أوسع قواد المسلمين حيلة، وأشدهم ذكاء، وكان قائدًا عقائديًّا يتمتع بشخصية جبارة، وإرادة حديدية، وذكاء خارق، ودهاء عجيب، وكان يتحمل المسئولية كاملة مهما تكن النتائج.

وكانت معاركه (تعرضية)، يعمل على (مباغتة) عدوه كما فعل في فتح حصن بابليون، وينجز (تحشيد قوته) قبل الإقدام على خوض معاركه كما فعل في طلب المدد قبل معركة ذات السلاسل، وكما أشار باجتماع المسلمين في اليرموك قبل خوض هذه المعركة الحاسمة.

كما كان يحرص على تطبيق مبدأ (الأمن)؛ لذلك حرص على السُّرى ليلًا والاختفاء نهارًا في مسير الاقتراب إلى غزوة (ذات السلاسل)، كما حرص على عدم إيقاد النار وعدم المطاردة في تلك المعركة، وتلك أمثلة على تطبيقه مبدأ (الأمن) في المدى التعبوي.

أما تطبيقه هذا المبدأ في المدى السوقي فمظهره في فتح ليبيا؛ لتأمين مصر من

الغرب، ومحاولته فتح النوبة؛ لتأمين مصر من الجنوب.

وكان يبذل قصارى جهده؛ لتأمين (تعاون) قواته وأرتاله في القتال، كما كان (يديم معنويات) رجاله بشتى الوسائل قبل المعركة وفي أثنائها وبعدها، ويسهر على توفير (الأمور الإدارية) لقواته.

لقد كان قائدًا مثاليًا بكل ما في القيادة المثالية من معنى.

❑ موقع عمرو بن العاص من فن الحرب

«والله إن حرب ـ عمرو بن العاص ـ لينة؛ ما لها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره؛ إن عَمْرًا لعض» «رمينا أرطبون العرب بأرطبون الروم فانتظروا عم تنفرج».

مقولتان لأمير المؤمنين «**عمر**» تظهران الصفة «**الخصوصية**» لحروب «**عمرو بن العاص**»؛ الأولى الوصول إلى «**هدف الحرب**» باتباع طريقة تختلف عن المجابهة المباشرة وعدم الاعتماد على «**الحسم في الصراع المسلح**» وحده، وهو ما أصبح يعرف في عالم فن الحرب الحديث باسم «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**»، والثانية هي «**دهاء عمرو بن العاص**» وتسخير هذا الدهاء للوصول إلى «**هدف الحرب**». وكان «**أرطبون**» ـ على ما هو معروف في التاريخ ـ من أدهى الخَلق.

وكان أمير المؤمنين عمر من أقدر رجال التاريخ على تقويم «**أهمية العوامل المختلفة التي تصنع النصر**» كما كان من أكثرهم «**خبرة بالرجال**»، وعلى هذا فإن وصفه لقائده «**عمرو بن العاص**» بتلك الصفات إنما يحدد «**الصفة الخصوصية**» للقائد «**عمرو**» في إطار «**الاستراتيجية العامة**» لفن الحرب عند العرب المسلمين.

لقد مارس «**عمرو بن العاص**» دوره القيادي في عهد رسول الله ﷺ، ثم كان أحد قادة جيوش الشام، وقاد قوات المسلمين في فتح مصر، وقاد بعد ذلك القوات في «**الحرب الأهلية الدينية**»، وكانت القيادة في هذه الحرب الأخيرة أقرب ما تكون إلى «**قيادة القوات في الحروب الثورية**»، ثم عاد «**عمرو**» إلى مصر وقاد حربًا من

هذا النوع أيضًا. فكانت قيادته متنوعة، وكانت برهانًا على نجاحه في جميع الأحوال.

كان «**عمرو بن العاص**» قائدًا موهوبًا؛ وورث «**الحكمة**» والدهاء عن أسلافه، وكان يطمح باستمرار لممارسة هذا الدور القيادي؛ ولكنه لم يكن قادرًا على تحقيق تلك النجاحات التي حققها لولا «**استيعابه**» لعقيدة الإسلام الدينية، ولولا قدرته على تمثل «**العقيدة القتالية الإسلامية**»، كما أنه لم يكن قادرًا - يقينًا - على تحقيق تلك النجاحات أيضًا لولا وجود جيل من المجاهدين، لا يعرفون غير الجهاد في سبيل اللَّه طريقًا إلى الجنة.

ولقد كانت هذه المعطيات مشتركة بين قادة العرب المسلمين جميعًا، إلا أن «**خصوصية**» عمرو بن العاص هي التي أعطت لتطبيقاته ميزاتها.

ومن هنا ظهر «**التجديد والتطوير**» في «**فن الحرب**» عند العرب المسلمين، ولعل هذه الميزات هي أفضل ما يمكن أن تتصف به القيادة «**الرائدة والمجددة**».

❑ عمرو بن العاص والاستراتيجية العُليا

١- الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

كان «**عمرو بن العاص**» واحدًا من القادة الأربعة الذين توجهوا لفتح الشام، وقد قرر هؤلاء القادة التراجع حتى «**الجولان**» للبقاء على اتصال «**بقاعدة إمدادهم ودعمهم في الجزيرة العربية**».

وقد انصرف «**عمرو**» بعد «**اليرموك**» وفتح «**دمشق**» وتوجه إلى «**فلسطين**» قاعدة عملياته الأساسية؛ فقضى على «**الحاميات**» الموزعة في «**أجنادين**» و«**إيلياء**» - بيت المقدس - و«**فحل**» وافتتح بقية المدن؛ وهكذا لم يفاتح أمير المؤمنين «**عمر**» في موضوع فتح «**مصر**» حتى أمكن له تنظيم قاعدة قوية ومأمونة في فلسطين.

وعندما عرض «**ابن العاص**» على أمير المؤمنين «**مشروعه**» لفتح مصر - قال له:

«**إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا**»، وعلى هذا فقد استند في مشروعه إلى فكرة «**إقامة قاعدة قوية ومأمونة**» تضمن حماية الفتوح في الشام من جهة، وتضمن الانطلاق إلى مزيد من الفتوحات، من جهة أخرى.

ويتأكد ذلك من خلال اقتراحه بعد فتح «**طرابلس**» في «**ليبيا**» التوغل «**لفتح أفريقيا**».

كما يتأكد حرص «**ابن العاص**» أيضًا على «**تأمين القاعدة القوية**» من خلال تصرفه أثناء «**حصار الإسكندرية**» فعندما تأخر فتح الإسكندرية؛ ولم تكن قد مضت فترة طويلة على فتح «**بابليون**» أسرع «**ابن العاص**» نحو الجنوب؛ ليقيم في «**بابليون**» بعد أن ترك الجيش بقيادة «**خارجة بن حذافة**»، وبذلك ضمن حماية «**مؤخرة الجيش**» الذي يمارس عملياته ضد الإسكندرية؛ كما ضمن استمرار العمل لتأمين القاعدة القوية.

وفي الوقت ذاته فإن توجيه القوات نحو الجنوب «**بقيادة عقبة بن نافع الفهري**» لم يكن أكثر من تأمين قاعدة قوية في «**مصر**».

وهنا تظهر قضية تناقض الصورة العامة للموقف. فقد كانت «**عملية**» إقامة قاعدة قوية ومأمونة ـ في مصر ـ تتطلب فترة زمنية غير قصيرة لإقامة المجتمع الجديد؛ وتنظيم التأمين المادي للقاعدة؛ ومعرفة الطبيعة الجغرافية والبشرية والاقتصادية للإقليم ...إلخ

وعلى هذا فقد يكون طلب «**عمرو**» إلى أمير المؤمنين «**عمر**» السماح له بتجاوز الحدود للتوغل في أفريقيا ـ ولم تمض سوى فترة قصيرة على «**فتح مصر**» ـ هو أمر يتناقض مع مبدأ «**إقامة قاعدة قوية ومأمونة**»، وهنا يأتي أمر «**أمير المؤمنين عمر**»؛ ليضمن فرض القيود اللازمة للتوقف والانصراف إلى عملية «**إقامة القاعدة القوية والمأمونة**»، وقد يكون السبب في هذا التناقض هو اعتقاد «**عمرو بن العاص**» بقدرته على التوغل، مع المحافظة على «**القاعدة في مصر**» ومهما كان عليه الموقف؛ فإن

التزام «**عمرو بن العاص**» بالاستراتيجية العليا للعرب المسلمين؛ لم يكن التزامًا «**حرًّا دون ضوابط**» وإنما كان مقيدًا بإرادة «**القيادة العليا**» المسئولية عن التخطيط الاستراتيجي والتي كان يمارسها عمليًّا أمير المؤمنين عمر خلال مرحلة فتح مصر.

فالقاعدة القوية والمأمونة ليست مجرد منطقة عسكرية تتمركز فيها القوات للقيام بأعمال قتالية محددة؛ وإنما هي منطقة وإقليمًا يضم مجموعة من الشروط؛ كتوفر القدرة البشرية؛ والموارد المادية القادرة على دعم عمليات القوات المسلحة؛ والموقع الجيوستراتيجي الذي يضمن حرية العمل العسكري.

❑ عمرو بن العاص واستراتيجية «الهجوم غير المباشر»

لعله ما من استراتيجية يمكن لها تمييز أساليب «**عمرو بن العاص**» القيادية مثل استراتيجية الهجوم غير المباشر. ويمكن من خلال استعراض سيرة «**عمرو**» القيادية إيجاز الملامح العامة لهذه الاستراتيجية على النحو التالي:

١ـ معرفة الخصم معرفة دقيقة:

ولعل عمرو بن العاص من أكثر القادة الذين أفادوا من ميزة معرفة الخصم، وتحديد نقاط ضعفه وقوته، والإنقاص من أهمية عناصر القوة مع التركيز على نقاط الضعف بحيث يشعر هذا الخصم أن نتيجة المعركة مقررة مسبقًا في غير صالحه حتى قبل البدء بها. وقد عرف «**عمرو بن العاص**» ـ على سبيل المثال ـ موقف زعيم قضاعة ـ قرة ـ وهدده بقوله: موعدك حفش أمك، ووالله لأوطئن عليك الخيل، فما كان من «**قرة**» إلا أن جاء مستسلمًا لأمير المؤمنين بعد أن تولت قوات المسلمين اجتياح أرضه.

وفي الشام كان هناك أكثر من موقف يبرهن على استخدام «**عمرو**» لمعرفته بالخصم حتى يتمكن من القضاء عليه ومهاجمته من نقاط ضعفه.

٢- إخضاع الخصم لأساليب الحرب النفسية:

لم تكن طرائق «**الحرب النفسية**» وأساليبها معروفة بصيغتها العلمية الحديثة في عهد القائد «**عمرو بن العاص**»، لكن استقراء «**مسيرة الأعمال القتالية**» التي قادها تبرهن على أنه استخدم جميع الطرائق الممكنة والوسائل المتوافرة؛ لإقناع خصومه بعدم جدوى مقاومتهم، ولم تكن عملية حبس سفراء «**المقوقس**» لمدة يومين في معسكره سوى وسيلة «**لإظهار قوة العرب المادية والمعنوية**» مقابل «**الضعف في الروح المعنوية عند الخصم**» مما حمل المقوقس على الاعتراف بقوله: «**لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد**».

٣- اللجوء إلى أسلوب «الترغيب»:

ولقد كانت عبارة «**لكم ما لنا وعليكم ما علينا**» تعبيرًا عن مبدإ فريد في التاريخ؛ وصحيح أن هذا المبدأ قد جاء به الإسلام وهو في جوهر العقيدة الإسلامية، إلا أن عَمْرًا طبقة بكفاءة عالية. ولعل النصوص التي جاءت في الاتفاقية بين «**عمرو بن العاص**» و«**المقوقس**» هي شهادة كافية على ذلك؛ كما أن إرسال «**ابنة المقوقس**» إلى أبيها - لم تكن سوى وسيلة «**ترغيب**» - وهي وسيلة منسجمة وطبيعة الإنسان العربي في التصرف بنبل عند المواقف التي يصل فيها الخصم إلى موقف الضعف.

وهكذا كانت «**أصالة العروبة**» عند «**عمرو**» وعمق الإيمان لديه هما العاملان الموجهان له في سلوكه عند مجابهة مثل هذه المواقف.

وعلاوة على ذلك فإن «**عمرو بن العاص**» لم يحاول، لا في المرحلة الأولى من الفتح ولا بعدها، انتزاع إدارة البلاد من أهلها، فكان لذلك دوره في تحقيق التوافق بين الطرح النظري للمبادئ وتطبيقها عمليًّا؛ مما ضمن له «**كسب ثقة المصريين**» وحملهم على مبادلته وفاء بوفاء؛ والإخلاص له ودعمه بكل الوسائل الممكنة.

٤- العناد في الحرب والصمود في القتال:

فقد استمر حصار «**أرطبون**» في «**أجنادين**» فترة طويلة لم يظهر العرب خلالها

أي تهاون أو ضعف يشير إلى احتمال تراجع المسلمين عن هدفهم؛ وكذلك فعلوا عندما حاصروا «**الفرماء**».

وقد حاصر المسلمون «**حصن بابليون**» أكثر من ستة أشهر، ما وهنوا ولا ضعفوا ولا ترددوا. وكذلك فعلوا عندما حاصروا الإسكندرية طوال فترة لم يتوقف فيها القتال، وكان هذا التصميم كافيًا لإقناع أعداء المسلمين بصدق تهديداتهم وصدق وعيدهم وعنادهم في القتال حتى يبلغوا هدفهم. وكان هذا العناد «**في حوار الإرادات**» عاملًا في جملة العوامل التي أقنعت أعداء المسلمين باستمرار في الخضوع لإرادتهم؛ والتخلي عن «**الصراع المسلح**»، واعتماد أسلوب الحوار السياسي بديلًا عنه؛ وكان ذلك بدقة ما يريده المسلمون ويعملون له.

٥ـ القيام بالتظاهرات القوية وتوجيه الضربات الحاسمة لقلب ميزان القوى:

وكان «**عمرو بن العاص**» ـ كما تظهر سيرة أعماله القيادية ـ شديد الحساسية بالنسبة لموضوع ميزان القوى؛ ورغم معرفة «**عمرو بن العاص**» لضعف قوته العددية وإيمانه بأنه من المحال على العرب المسلمين الوصول إلى التعادل العددي في ميزان القوى، وأن هذا التعادل يأتي عن طريق «**التفوق النوعي للمسلمين**»، إلا أن «**عمرو بن العاص**» كان يعمل باستمرار لإجراء الاضطراب في ميزان القوى للوصول إلى موقع التفوق العددي أيضًا سواء بواسطة تجزئة المعارك واستنزاف قدرة عدوه على مراحل؛ أو عن طريق توجيه الضربات القوية والحاسمة.

وقد كان كمين المسلمين لقوات الروم في «**عين شمس ـ هليوبوليس**» مشابهًا من حيث الظروف ومن حيث النتائج أيضًا لمعركة «**أجنادين**»؛ إذ أمكن في هذه المعركة تدمير الكتلة الرئيسية لقوات العدو عن طريق «**الحيلة ـ أو ـ الاستخدام الماهر لفن الاستراتيجية**» وبذلك أصبح بالمستطاع تطوير الأعمال القتالية التالية في إطار من التوازن النسبي في القوى العددية مع تفوق هائل في الروح المعنوية لصالح المسلمين؛ مما كان يضمن توفر فرص ملائمة لتحقيق الانتصارات المتتابعة.

٦- حرمان العدو من موارده الاقتصادية:

فقد أمكن عزل قوات الروم في «**فلسطين**» بعد معركة اليرموك الحاسمة وفتح «**دمشق**»، وتحولت قوات الروم إلى «**حاميات منعزلة**»، فقام عمرو بن العاص بتطويق كل حامية بمعزل عن بقية الحاميات وحرمانها من مواردها الحياتية، وإرغامها بالتالي على الاستسلام بعد إخضاعها لضغوط تجعلها أمام موقف لا مخرج منه إلا بالقتال اليائس أو الاستسلام؛ وكان هذا ما يحدث في كثير من الأحيان.

وكانت النتيجة مضمونة في جميع الحالات، وتم تطبيق هذه السياسة الاستراتيجية ذاتها عند فتح «**مصر**»، وكان جيش المسلمين يعتمد في إمداده وتموينه على «**التعايش**» مع الوسط المحيط به، وكان ذلك يعني ببساطة حرمان العدو من هذه الموارد. وبعد معركة «**أم دنين**» تطوع «**الأقباط**» لدعم المسلمين وتقديم الإمدادات والمواد التموينية مما أدى إلى حرمان «**الروم**» من هذه الموارد؛ وأضعف موقفهم الإداري، ولم يبق أمامهم سوى الاعتماد على «**المخزون**» وهو مهما كان كبيرًا؛ لا بد له من النفاد بعد فترة الحصار الطويلة؛ على نحو ما حدث «**في حصار الإسكندرية**».

٧- الفصل بين الحلفاء:

فقد كان الروم حلفاء الغساسنة في الشام، وكان الروم حلفاء «**القبط**» في مصر. وكان الروم هم العدو الرئيس للعرب المسلمين؛ ولهذا فقد تم العمل لفصل حلفاء الروم باتباع «**سياسة مرنة**» تتساهل إلى أبعد الحدود مع السكان «**المغلوبين على أمرهم**» في سوريا ومصر؛ مع التشدد حتى أبعد الحدود مع قوات الاحتلال «**البيزنطية**» مما كان يدفع أهل البلاد إلى «**فك ارتباطاتهم التاريخية**» والانضمام إلى «**العرب المسلمين**» أو «**تحييدهم والابتعاد بهم عن الصراع**» مع كسب دعمهم الضمني.

وكان ذلك في حد ذاته مكسبًا كبيرًا للمسلمين، إذ إنه أدخل الاضطراب في

ميزان قوى العدو وأضعف موقفه.

وقد يكون من الصعب «**حصر**» جميع أساليب «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**» والتي طبقها القائد العربي المسلم «**عمرو بن العاص**».

ولم تكن «مطابقته للهدف مع الإمكانات المتوفرة» «واختيار الخط الأقل توقعًا» و«استثمار خط المقاومة الأضعف» و«التحرك بمرونة في إطاري العمليات وتعبئة القوات» و«التجديد المستمر في أساليب خوض القتال» هي بعض الأساليب التي ضمنت «**لعمرو بن العاص**» تحقيق انتصاراته الرائعة.

ولعل اختياره لمحور تحركه عوضًا عن التوجه إلى الإسكندرية مباشرة هو وحده برهان على العمق الاستراتيجي في تفكير عمرو بن العاص إذ إنه لو اختار التحرك على المحور الثاني لمجابهة الروم في «**الإسكندرية**» بمعركة جبهية مباشرة لكان الفشل من نصيبه يقينًا، ولوضع قوات المسلمين في «**مأزق**» قد لا تتمكن من الخروج منه.

- **استراتيجية «الحرب التشتيتية» عند عمرو:**

ترتبط هذه الاستراتيجية في جذورها بالاستراتيجية السابقة «**استراتيجية الهجوم غير المباشر**» من حيث تأثيرها على مسيرة الأعمال القتالية في مسرح العمليات. فهدف استراتيجية «**الحرب التشتيتية**» هو وضع قيادة العدو أمام مواقف تجعلها عاجزة عن «**اتخاذ القرار المناسب؛ وتنفيذه في الوقت المناسب**» ومن هنا تتركز جهود «**الحرب التشتيتية**» للتأثير على القيادات أكثر مما تهدف إلى التأثير على القوات؛ ولو أن النتيجة لا بد لها وأن تنعكس على القوات بصورة مباشرة.

وقد كانت استراتيجية «**الحرب التشتيتية**» هي الطابع المهيمن على تحرك القوات الإسلامية منذ مغادرتها للجزيرة العربية، وقد أدرك «**عمرو بن العاص**» أهمية هذه الاستراتيجية؛ فحاول استخدامها وفقًا لظروف القتال، وقد عمل «**عمرو بن العاص**» عند توجهه إلى «**أجنادين**» على توجيه مجموعات قتالية إلى «**إيلياء**» و«**الرملة**» بهدف حرمان قوات «**الروم**» من تنسيق التعاون فيما بينها؛ وحرمان

قيادات هذه القوات من طرح «**مبادءات**» قد تعوق مسيرة الأعمال القتالية لقوات المسلمين وفقًا لما كان يوجهها «**عمرو بن العاص**»، ثم أعاد «**عمرو**» تنفيذ مثل هذه الاستراتيجية في «**مصر**» عندما أرسل مجموعات قتالية إلى «**عين شمس**» و«**الفيوم**» و«**الأشمونين**» و«**أخميم**» و«**البشروات**» و«**قرى الصعيد**» و«**تنيس**» و«**دمياط**»... إلخ

ولعل الظاهرة البارزة هي المرونة الكبرى في تطبيق هذه الاستراتيجية؛ فقد عمل «**عمرو**» على تطبيقها في المرة الأولى قبل معركة «**أجنادين**» الحاسمة، وقام بتطبيقها في المرة الثانية بعد معركة «**أم دنين**» الحاسمة. فكان تطبيقها في المرة الأولى تمهيدًا للنصر، وكان تطبيقها في الثانية استثمارًا للنصر، وبقي هدفها في الحالين واحدًا وهو تحقيق «**هدف الحرب**» والوصول إلى «**غاية السلم**» بالجهد الأدنى من القوة العربية الإسلامية مع وضع قيادات الروم في الحالين في موقع «**السلبية المطلقة**».

لقد كان تأثير الحرب التشتيتية مذهلًا بالنسبة لقيادات «**الروم ـ البيزنطيين**» فقد كانت هذه القوات عاجزة في الواقع عن «**إدراك سر القوة الجديدة للعرب المسلمين**»، وتبع ذلك جهل مطبق في أساليب عمل هذه القوات؛ وطرائق عملياتها، وتنظيمها. وقد أفاد «**عمرو بن العاص**» ـ كما أفاد بقية قادة المسلمين من هذا القصور في قيادات العدو ـ فعملوا على تطوير أعمالهم القتالية. وكون القادة لأنفسهم «**هالة ضخمة**»، واكتسبت قوات المسلمين «**هيبة عظمى**» ساعدتها على «**تشتيت قيادات العدو**» وإرباكها وجعلها عاجزة عن اتخاذ أي موقف؛ (إلا موقف الدفاع وراء التحصينات)، وكان هذا الموقف في حد ذاته نصرًا كبيرًا للعرب المسلمين؛ إذ ساعدهم على تجزئة معارك الحرب واختيار «**نقاط الضعف**» المتتالية لاحتراق «**القوة العظمى**» وتفتيتها.

ولم يكن وصول خبر توجه «**عمرو بن العاص**» إلى مصر، وسبق أخبار انتصاراته في فلسطين سوى إحدى ظواهر الحرب التشتيتية التي أضعف مقاومات قيادات الروم، وحملتها على توقع نتائج الحرب قبل أن تصل معاركها إلى

حدودهم.

وقد اتبع «**عمرو بن العاص**» أساليب «**الحرب التشتيتية**» في الحرب الأهلية أيضًا؛ وليس بالإمكان في جميع الأحوال فصل الصراع المسلح بين الطرفين المتحاربين من أجل «**الحكم**» عن الصراع السياسي، سواء عند رفع المصاحف على الرماح أو حتى التحكيم في «**صفين**»، وقد لا تكون هناك حاجة للبرهان على نجاح «**عمرو**» في تطبيق استراتيجية «**الحرب التشتيتية**» حتى في هذا النوع من الحروب الثورية. ويكون «**عمرو بن العاص**» نتيجة لذلك هو «**رائد استراتيجية الحرب التشتيتية**» في إطاريها الثوري والنظامي.

ويأتي نجاحه بعد ذلك ثمرة من ثمار التطبيق الذكي والماهر لجميع الاستراتيجيات، وأبرزها «**استراتيجية الحرب التشتيتية**».

❑ عمرو واستراتيجية «الهجمات الوقائية»

كثيرًا ما يختلط مضمون «**استراتيجية الهجمات الوقائية**» بمضمون «**الهجمات الإجهاضية المسبقة**» وتتزايد صعوبة التمييز بينهما عند وضعهما في إطار «**حروب الفتح للعرب المسلمين**» إذ يمكن - إلى حد معين ومن وجهة نظر فن الحرب - اعتبار فتح الشام والعراق هو «**هجوم وقائي**» هدفه الأول هو حماية الجزيرة العربية - قاعدة الإسلام - من تدخل الروم والفرس. وقد تدخل هذا المفهوم ذاته في أقوال «**عمرو ابن العاص**» عند طرح مشروعه لفتح «**مصر**» حتى يضمن حماية الجناح الغربي للأقطار الإسلامية في الجزيرة والشام.

ويمكن متابعة ذلك واعتبار تقدم «**عمرو بن العاص**» في الصحراء الليبية حتى «**طرابلس**» و«**زويلة**» نوعًا من الهجمات الوقائية - لحماية «**غرب مصر**». وكذلك الأمر بالنسبة لتوجه «**عقبة بن نافع**» جنوبًا حتى النوبة.

وبدهي أن هذا «**التفسير**» لا ينقص من «**أهمية الهدف من الفتح - أو هدف الحرب**» ذلك أن حماية قاعدة الإسلام لم يكن أكثر من وسيلة لحماية المسلمين

وضمان الظروف لمتابعة دورهم الحضاري والإنساني، وكذلك الأمر بالنسبة لهدف الفتح في «**الشام والعراق**» وهو تعريف الناس «**برسالة الإسلام**».

ويعتبر تفسير عملية الفتح بالهجمات الوقائية هو «**الترجمة العملية**» للوصول عبر «**هدف الحرب**» إلى «**غاية السلم**». أما بالنسبة لهجوم قوات المسلمين من أجل فتح الإسكندرية «**الثاني**» فيمكن اعتباره «**مجرد هجوم مضاد**» لا علاقة له «**بالهجمات الإجهاضية المسبقة**» رغم توفر جميع الظروف لوضع هذا الهجوم في إطار «**الهجمات الإجهاضية المسبقة**»؛ فتحرك قوات المسلمين إلى الشمال؛ ومحاولة «**حصر قوات الهجوم البيزنطي**» ثم العمل على اتخاذ جميع التدابير ـ كإزالة التحصينات وتدمير الأسوار ـ هي كلها تدابير وقائية لحرمان العدو من كل فرصة تسمح له بالهجوم في المستقبل.

وهنا وفي مجال تطبيق هذا المبدأ يظهر «**عمرو بن العاص**» متبعًا وليس مبدعًا. ولعل عدم توفر الظروف المناسبة، والسلبية التي أظهرتها القوات البيزنطية هي التي لم تسمح «**لعمرو بن العاص**» في تطوير هذا المبدأ. ولكن «**عمرو بن العاص**» أظهر الإبداع في الاتجاه المقبل الذي يمكن أن يطلق عليه «**تطبيق استراتيجية الردع**»؛ فقد عمل «**عمرو بن العاص**» على إقامة الحاميات القوية في الإِسكندرية، ودعم أمير المؤمنين عمر هذا الاتجاه عندما نظم إرسال قوات من الجزيرة لدعم «**قوات المرابطين في الثغور**» والإقامة في الإسكندرية بطريقة متناوبة تضمن «**ردع قوات الروم**» عن التفكير في الهجوم على الموانئ البحرية. واستثمار التفوق البحري للروم من أجل الإغارة على الثغور الإسلامية.

ويكون «**عمرو بن العاص**» بذلك قد دمج «**مفهومي الردع والهجمات الإجهاضية المسبقة**» عن طريق اتخاذ الإجراءات المناسبة لتطبيقهما معًا إذا ما تطلب الموقف ذلك؛ وهذا هو إبداع «**عمرو بن العاص**» في مجال تطوير «**فن الحرب**» والعمل باستمرار على التوفيق بين «**الهدف**» وبين «**الوسائط المتوافرة**» مطبقًا بذلك

المضمون الحقيقي «**للاستراتيجية العليا**».

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن «**عمرو بن العاص**» قد جاء إلى «**عالم الفتوح الإسلامية**» في بداية هذه الفتوح فاحتل مركز «**الريادة**» من حيث السبق الزمني؛ ولكن هذا السبق لم يكن كافيًا ليضعه في مرتبة «**الرواد الأوائل للفتح**» لو لم يتمكن من تحقيق النجاحات الضخمة في تطبيق أسس «**الاستراتيجية العليا**» وفي مجال الاستخدام المرن «**لمبادئ الحرب**»، فكان من نتيجة ذلك تحقيق انتصارات خالدة حفظها التاريخ فيما حفظه من آثار لا زالت تنطق بها «**مصر**»، وستبقى.

❑ عودة أخرى إلى مبادئ الحرب ومعرفة عمرو الفطرية بها

١- المباغتة:

سار «**عمرو**» والسرية معه، وهم يسيرون في الليل ويكمنون في النهار؛ حتى اقتربوا من - ذات السلاسل - وبينها وبين المدينة عشرة أيام وأراد المسلمون إشعال النار، إذ كانت ليلة شديدة البرد، فمنعهم، وعندما رجع «**عمرو**» اعتذر إلى الرسول ﷺ، وأخبره أنه منع المسلمين من إشعال النار؛ خشية أن يراها عدوهم؛ فيرى قلتهم فيطمع فيهم.

وعندما فتح «**عمرو**» طرابلس، وجه قوة قتالية لفتح «**نبارو - أو سبرت**» وأمرهم بالسير بسرعة، فصبحت خيلة مدينة «**سبرت**» وقد غفل أهلها وفتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم؛ فدخلها المسلمون، ولم ينج من أهل «**سبرت**» أحد.

وتلك هي بعض أساليب «**عمرو**» لتحقيق «**المباغتة**». ومن الواضح هنا أن «**عمرو بن العاص**» قد اعتمد على «**المباغتة الزمنية**»، فقد كانت قضاعة - في الحالة الأولى - غافلة عن احتمال هجوم المسلمين عليها، فقاد «**عمرو**» قواته، وباغت القوم قبل أن يعرفوا بوجوده. وفي المرة الثانية كان أهل «**سبرت**» يعتقدون أن «**عمرو بن العاص**» منصرف مع جند المسلمين لفتح «**طرابلس**»، فلما تم له فتحها وجه قوة من الفرسان لتتحرك بسرعة وتسبق أخبار الفتح إلى سبرت، وأمكن بذلك تحقيق

«**المباغتة**» وإنجاز النصر الحاسم.

ومن الواضح أن «**عمرو بن العاص**» قد طبق مبادئ الحرب الصارمة في أول عمل قيادي تم تكليفه به؛ ويبرهن ذلك على وجود استعداد فطري لتطبيق «**مبادئ الحرب**» بصورتها الصحيحة؛ وإقرارًا بالحقيقة فقد كانت حياة الإنسان العربي في صراع مستمر، وكانت الغزوات لا تنقطع بين العرب بعضهم ضد بعض. وكانت «**الإغارات**» هي الأسلوب الطبيعي لحياة «**البداوة**». إلا أن الممارسات بقيت محدودة في نطاق «**القبيلة**» أو «**مجموعة القبائل المتحالفة**». وجاء الإسلام فوحد القبائل، وتعاظمت بذلك قوة العرب، وزاد حجم القوات المسلحة مما ألقى على عاتق القادة مزيدًا من الأعباء، وفرض عليهم تطوير الأساليب القتالية. ويظهر ذلك بصورته الواضحة في توجيه القوات لفتح «**سبرت**» فقد ضمن «**عمرو**» توفير جميع الظروف المناسبة لنجاح المباغتة؛ ذلك أنه اختار القوة من «**الفرسان**»، وطلب إليهم التحرك «**بسرعة**» وأمرهم بالتحرك «**ليلًا**» بحيث يصلون إلى (هدفهم) مع أول ضوء من فجر اليوم التالي، وبذلك أمكن تحقيق «**المباغتة**». وقد أفادت قوات المسلمين من «**ذهول المباغتة**» لتنفيذ ضربتها الحاسمة بأقل جهد ممكن، وبأقل خسارة ممكنة.

وكان «**عمرو**» ماهرًا في جميع عملياته؛ وحريصًا باستمرار على تحقيق المباغتة سواء عن طريق إعادة التنظيم باستمرار، وبعد كل مرحلة؛ أو عن طريق المناورات الخداعية والتظاهرات التي تحمل العدو على تقدير قوات المسلمين بأكثر من قوتها العددية الحقيقية. وبذلك أخذت المباغتة أشكالًا مختلفة عند التطبيق؛ ولم تعد مجرد «**مباغتة زمانية**» أو «**مباغتة مكانية**»، بل تجاوزت ذلك إلى مستوى «**المباغتة في العمليات**». ويعتبر «**عمرو بن العاص**» في هذا المجال «**أستاذًا ورائدًا**» وقد كان في «**مدرسته**» عقبة بن نافع الفهري؛ وعبدالله بن حذافة السهمي وعبدالله بن سعد وسواهم. وتظهر سيرة هؤلاء القادة أنهم مارسوا بعد ذلك؛ وعندما أسندت إليهم

أعمال قيادية مستقلة، أدوارهم القيادية بنجاح، وأفادوا من كفاءة «**عمرو بن العاص**» القيادية؛ واقتبسوا منه كثيرًا من المبادئ التي استخدمها وعمل على تطويرها، وفي طليعتها مبدأ «**المباغتة**».

وكان تطبيق هذا المبدأ في كثير من الأحيان هو العامل لتحطيم ميزان القوى وتحويله لصالح العرب المسلمين.

وعلاوة على ذلك فقد كان للمباغتة دورها الحاسم في إسقاط الحصون المنيعة؛ «**كحصون أجنادين، وأم دنين**» إذ كان ظهور المسلمين على الأسوار كافيًا لانهيار المقاومة. ولم يكن فتح «**طرابلس**» سوى نتيجة «**للمباغتة**» التي أجاد المسلمون استخدامها.

٢ـ أمن العمل:

المقصود بأمن العمل هنا هو **مجموعة التدابير والإجراءات التي اتخذها** «**عمرو بن العاص**» لحماية قواته من جهة، ولضمان الشروط المناسبة التي تساعد على النجاح في تنفيذ الواجب القتالي من جهة أخرى، ويدخل في مجموعة هذه التدابير أعمال الاستطلاع ـ بما فيها الاستطلاع الشخصي ـ وجمع المعلومات من المصادر المختلفة؛ واتخاذ تدابير الحيطة الضرورية لحماية القوات من مباغتة العدو، ثم اتخاذ التشكيلات القتالية المناسبة التي تساعد القوات على الاضطلاع بعملياتها. ويمكن في مجال الاستطلاع التذكير بمحاولة «**عمرو بن العاص**» اقتحام «**حصن عدوه أرطبون**» والمغامرة بنفسه حتى قام باستطلاع ما يريده. وقد كرر «**عمرو بن العاص**» هذه المحاولة في «**مصر**» وكان النجاح حليفه أيضًا.

ولم تقتصر أعمال الاستطلاع عند «**عمرو بن العاص**» على معرفة الأهداف العسكرية، وإنما تجاوزتها لمعرفة جميع الأمور المتعلقة بالعدو بما في ذلك أوضاعه الاقتصادية والسياسية. وكان لذلك دوره الحاسم في الوصول إلى «**الغاية السياسية**» من الحرب ومعالجتها بصورة صحيحة.

وإذا أمكن مراجعة مسيرة الأعمال القتالية «**لعمرو**» فسيظهر أنه كان يسير إلى «**هدفه**» دائمًا وهو على ثقة تامة، ولم تكن هذه الثقة سوى نتيجة للمعلومات التي يحصل عليها بوسائطه المتنوعة وأبرزها الاستطلاع، «**ولم يكن نجاحه الحاسم في نصب كمين عند** «**عين شمس**» سوى نتيجة لمعرفته الدقيقة بنوايا عدوه وأهدافه».

أما في مجال تدابير الحيطة فيمكن ذكر ما قام به «**عمرو**» عند توقفه أمام «**أم دنين**» حيث قام المسلمون «**بحفر الخنادق حولهم**» وتنظيم أعمال الحراسة.

ولعل أفضل برهان على نجاح «**عمرو**» في اتخاذ «**تدابير الحيطة**» هو عدم تمكن قوات الروم من مباغتة المسلمين ولو مرة واحدة ـ، وفي «**فحل**» كان «المسلمون لا يصبحون ولا يمسون إلا على تعبئة» ومن الواضح أن تدابير الحيطة هي التي أحبطت في مرات كثيرة محاولات الغدر بالمسلمين ومباغتتهم.

وفي مجال اتخاذ التشكيلات القتالية المناسبة على مسرح العمليات، فإن إرسال «**عمرو**» لمجموعات قتالية لمجابهة «**إيلياء**» و«**الرملة**» لم يكن سوى وسيلة لضمان «**أمن العمل**» عند تنفيذ الواجب الرئيس؛ وهو تدمير كتلة قوات الروم في أجنادين. كما أن دفع المقدمات، لم يكن أكثر من وسيلة أيضًا لحماية الكتلة الرئيسية من قوات المسلمين التي كان يقودها «**عمرو بن العاص**».

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن مبدأ «أمن العمل» هو من أكثر المبادئ أهمية، وكثيرًا ما ضاعت جيوش في القديم والحديث بسبب إهمالها بعض عوامل هذا المبدأ؛ فوقفت عاجزة عن تنفيذ واجباتها.

وإذا أمكن تجاوز «**تاريخ فن الحرب القديم**» دفعة واحدة للوصول إلى «**العصر الحديث**» فإن اجتياح الألمان لحدود الاتحاد السوفييتي بمثل تلك السهولة، وكذلك «فشل القوات العربية عن الاضطلاع بواجبها في الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة (٥حزيران ـ يونيو ـ ١٩٦٧) وفشل القوات الإسرائيلية في الحرب التالية (٦ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٧٣) إنما يعود في قسم كبير منه لإهمال مبدإ «**أمن العمل**»،

والتحرك «**للحرب**» بعيون مغمضة، مقابل وضوح كامل في الرؤيا عند الطرف المقابل.

ولعل اهتمام قادة العرب المسلمين عامة و«**عمرو بن العاص**» منهم خاصة بتطبيق هذا المبدإ بكل أبعاده إنما يبرهن على «**التطور الكبير**» الذي وصله قادة المسلمين في عالم «**فن الحرب**».

وهنا تبرز أهمية العقيدة الدينية أيضًا في تكوين مفاهيم «**العقيدة القتالية**»؛ لتساعد «**القادة**» على ممارسة أدوارهم القيادية. ولم يكن الإصرار المستمر في القرآن الكريم على «**الحرص على المسلمين**» والحذر «**من أعداء المسلمين**» سوى التحديد النظري لأسس العمل التي يجب على القائد الالتزام بها؛ لتطبيق مبدأ «**أمن العمل**»، وقد آمن «**عمرو بن العاص**» واستوعب مبادئ العقيدة الإسلامية بقلبه وعقله، فكان بدهيًا أن يساعده ذلك على صقل مواهبه القيادية وتطويرها. فأصبح بذلك جديرًا بحمل راية الإسلام القيادية وتحقيق الانتصارات الرائعة تحت ظلها.

٣ـ القدرة الحركية:

كانت جيوش المسلمين «**جيوش فرسان**» يوم كانت «**الخيول**» و«**الإبل**» هي وسائط «**حرب الحركة**»، وقد انطلقت هذه الجيوش من «**قلب الجزيرة**» إلى الشام؛ فكانت في حالة «**حركة دائمة**» لتدمير مقاومات الروم القتالية؛ واستمر الصراع بالنسبة «**لعمرو بن العاص**» أربعة أعوام تقريبًا حتى أمكن تصفية جميع «**جيوب المقاومة**»، وقاد «**عمرو بن العاص**» بعد ذلك قواته «**عبر سيناء**» حتى وصل «**مصر**» وهناك خاض مجموعة من الأعمال القتالية «**بداية من الفرماء وحتى حصن بابليون أو أم دنين**» وبعد ذلك عمل «**عمرو بن العاص**» على تطوير القدرة الحركية وذلك بالاستيلاء على «**السفن الموجودة**» في «**جزيرة الروضة**»، واستخدامها لنقل القوات. ولم يكن اتفاق «**عمرو بن العاص**» مع القبط على «**إصلاح الطرق وإقامة الجسور**» سوى وسيلة لتطوير حرب الحركة، كما أن اختياره للتحرك محور «**غرب النيل**»

حيث الصحراء الواسعة، وعدم وجود الحواجز الأرضية لم يكن إلا وسيلة أيضًا لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه؛ وإن إصرار «**عمرو بن العاص**» على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن أكثر من وسيلة لإزالة العوائق التي تعترض «**حرب الحركة**» وتعوق استخدام «**القدرة الحركية**». ويمكن الاستمرار في ذلك للبرهان على استخدام «**القدرة الحركية**» على أفضل وجه ممكن.

وتتلخص أساليب «**عمرو بن العاص**» في مجال حرب الحركة ـ على مستوى العمليات ـ بالمبدأين التاليين:

أ ـ إزالة جميع العوائق والسدود والحواجز البرية التي يمكن لها إعاقة «**القدرة الحركية**».

ب ـ اختيار محاور العمليات التي تساعد قوات العرب المسلمين على تطبيق استراتيجيتهم المفضلة؛ واستخدام قدرتهم الكامنة «**في مجال حرب الحركة**».

وهكذا فإن دور «**عمرو بن العاص**» في هذا المجال يتركز على (الإفادة من القدرة الحركية العالية للمسلمين والعمل على تطويرها).

ومن المعروف أن القدرة الحركية العالية للقوات الإسلامية كانت تعتمد على مبدأين أساسيين هما: الاعتماد على «**قوة الفرسان**» مع التحرر من الأعباء الإدارية التي كانت ترهق عاتق الجيوش المضادة للمسلمين، وتبرز كفاءة «**عمرو بن العاص**» في معرفة ميزات قوات المسلمين واستثمارها إلى أبعد الحدود مع العمل على تطوير هذه الميزات وإعداد الظروف المناسبة لاستخدامها.

وكانت «**المباغتة**» و«**الحرص على أمن العمل**» و«**المبادأة واستخدام القوة الهجومية**» و«**الاقتصاد بالقوى**» و«**الاهتمام بالشئون الإدارية**» وغير ذلك هي من أجل خدمة «**القدرة الحركية**» وتوفير الشروط المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول: إن القضية في أساسها ليست قضية توفر

مجموعة من المميزات للجيوش المقاتلة؛ أو وجود بعض «**الفضائل الحربية**»، وإنما القضية هي قضية معرفة هذه «**المميزات والفضائل**» والإفادة منها قدر المستطاع؛ وقد عمل «**عمرو بن العاص**» على الإفادة من «**فضائل الجيش الإسلامي الحربية**»، وعمل بدوره على تطوير تلك «**الفضائل**». وإذا ما أمكن بعد ذلك معرفة أن «**حروب المسلمين**» كلها كانت نوعًا من «**حروب الحركة**» التي تعتمد في أساسها على «**القدرة الحركية العالية**»، وإذا ما أمكن أيضًا تحديد موقع «**عمرو بن العاص**» كواحد من «**قادة الفتح الأوائل**» يمكن تقديم أهمية المنجزات التي حققها في مجال «**استثمار القدرة الحركية لقوات المسلمين وتطويرها**» بحيث أصبحت تطبيقاته العملية هي المنهل الذي يرجع إليه قادة المسلمين في تطويرهم لأعمالهم القتالية التالية.

٤ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية:

تبرز مرة أخرى قضية التكامل في «**العقيدة القتالية**» للمسلمين من خلال استقراء التطبيقات العملية لمبدأ «**المبادأة واستخدام القوة الهجومية**» إذ إنه من المحال فصل هذا المبدأ عن بقية المبادئ؛ والنظر إليه بصورة مستقلة ـ مثلًا ـ عن «**القدرة الحركية**» أو «**أمن العمل**».

ويتطلب إبراز هذا المبدأ النظر إليه من الزاوية المضادة أي من زاوية «**الدفاع والاعتماد على القلاع والتحصينات**»، ومن المعروف أن المسلمين كانوا يبتعدون تمامًا عن «**حروب الحصار**» واستخدام القلاع والحصون معتمدين في ذلك على ما تضمنه لهم «**حروب الحركة**» من مميزات لعل أبرزها المحافظة على المبادأة، وحسم الصراع المسلح لصالحهم.

وعلاوة على ذلك فقد كانت قوات المسلمين ضعيفة في عددها ضعيفة في تسليحها؛ فكان من المحال اللجوء إلى الدفاع وتوزيع الحاميات بحيث يتم استنزاف القوة المقاتلة وتشتيتها في الحصون والقلاع، وكان المسلمون يعتمدون على

«**قدرتهم الحركية**» لإجراء الحشد السريع، وتوجيه الضربات الحاسمة، ثم التفرق بعد ذلك لمعالجة الأهداف المختلفة، تمامًا كحركة السيل الجارف الذي ينحدر من المرتفعات؛ ليزيل جميع العقبات والسدود عند تجمعه، ثم ليتفرق بعد ذلك في المجاري المختلفة حتى إذا ما صادف سدًّا جديدًا تجمع وأزال السد ليتابع مسيرته بعده وهكذا.

وعلاوة على ذلك كله؛ فقد كان من المحال على المسلمين تحقيق سياستهم الاستراتيجية؛ وحمل رسالتهم إلى الدنيا دون الانتقال بها وتعريف الناس بها. وكان «**عمرو بن العاص**» رائدًا في هذا المجال أيضًا، فقد استطاع المحافظة على المبادأة في معاركه كلها، ولم يترك لأعدائه أبدًا فرصة التدخل في مخططات عملياته، وكان يعمل باستمرار على فرض المواقف القتالية؛ حتى يحرمهم من «**حرية العمل**». وكان يعمل باستمرار على «**استثمار القدرة الحركية الكامنة**» وتوجيهها للأعمال الهجومية؛ ولم يكن توقفه أمام بعض التحصينات سوى توقف مرحلي لإعداد الظروف المناسبة من أجل تطوير الأعمال القتالية و«**استخدام القوة الهجومية**».

وقد يكون من الصعب معرفة ما إذا كان «**عمرو بن العاص**» قد أراد فعلًا انتظار الروم عند هجومهم على الإسكندرية؛ حتى يخرجوا من المدينة، وحتى يغادروا المواقع والتحصينات القوية للاصطدام معهم في معركة جبهية يستفيد فيها من «**القوة الهجومية**» لقواته. ولكن النتيجة واضحة تمامًا. فقد استطاع ـ عن طريق الانتظار حمل الروم عل مغادرة الإسكندرية. ولم يصطدم معهم حتى وصلوا «**نقيوس**»، وبذلك أمكن له «**استخدام القوة الهجومية**» وتحقيق النجاح في تدمير الكتلة الرئيسية لقوات الروم.

وتظهر هذه الملامح ذاتها في عدد من معارك «**عمرو بن العاص**»، فلم يكن «**الكمين**» في «**عين شمس**» سوى برهان واضح على إفادة «**عمرو**» من القوة

الهجومية لتدمير قوات العدو. كما أن توجيه القوات لفتح «**سبرت**» لم يكن إلا استثمارًا للقدرة الحركية العالية لقوات المسلمين واستخدامها للهجوم.

إن «**المبادأة واستخدام القوة الهجومية**» كانت إحدى فضائل الجيوش الإسلامية، وأن كفاءة «**عمرو بن العاص**» تكمن في قدرة «**عمرو بن العاص**» على معرفة ميزة «**هذه الفضيلة**» واستخدامها بمهارة.

٥ـ مبدأ الاقتصاد بالقوى:

كانت الأعباء التي فرضها الإسلام على العرب المسلمين تتجاوز كثيرًا «**قوتهم العددية**»، ولم يكن باستطاعة العرب المسلمين حمل «**الأمانة**» إلا إذا أمكن لهم التوفيق بين «**الهدف**» و«**الوسائط المتوافرة لديهم**» في جميع معاركهم وحروبهم، وكذلك «**الاقتصاد بالقوى**» حتى تتوفر لهم القدرة على متابعة حمل «**الأمانة**». وبذلك لم تكن «**فتوح المسلمين**» مجرد «**معركة حاسمة**» أو «**حربًا صاعقة**» تتقرر بنتيجتها «**مسيرة السلم أو الحرب**»، وإنما كانت «**حروبًا مستمرة**» بعضها يأخذ شكل ما يطلق عليه اسم «**الصراع المسلح**» وبعضها يأخذ ما هو معروف باسم «**الصراع السياسي**» وكانت الحرب في الحالات جميعها «**حرب تدمير وبناء مستمرة**» تدمير التكوين القديم للمجتمعات والمفاهيم والقيم وبناء تكوين جديد لهذه المجتمعات وقيمتها ومفاهيمها. وكان ذلك كله يتطلب قدرة هائلة لا من أجل خوض المعارك وتحقيق الانتصار في حروب «**الجهاد في سبيل الله**»، وإنما أيضًا من أجل إقامة المجتمعات الجديدة.

وعلى هذا فقد كان «**مبدأ الاقتصاد بالقوى**» هو القاسم المشترك بين قادة المسلمين جميعًا بداية من عهد رسول الله ﷺ وحتى آخر قادة فتوح المسلمين. وكان تطبيق هذا المبدأ عند «**عمرو بن العاص**» مميزًا وواضحًا بصورة خاصة؛ فقد استطاع «**عمرو**» الموازنة دائمًا بين مجموعة العوامل التي تتدخل في المعركة، وإجراء التعادل بينها وبين العوامل المقابلة التي تضمن النصر. وكانت خسائر

القوات التي يقودها «**عمرو**» محدودة باستمرار؛ ولم ينكب المسلمون تحت قيادته أو تنتكس لهم راية في جميع المعارك التي خاضوها معه.

وقد يكون من الصعب تقويم دور «**عمرو**» بمعزل عن مجموعة العوامل التي شاركت في تكوين «**شخصيته القيادية**» أو معرفة الحوافز التي استخدمها «**عمرو**» للوصول إلى أهدافه، ولكن المعلومات المتوفرة عن أسلوب قيادته تبرهن على أنه كان يهتم «**بتقدير الموقف**» قبل كل شيء، ثم يعطي الأهداف المتتابعة الأفضلية التي تستحقها، ويقوم بحشد قواته كلها، ويقذف بها إلى المعركة بعد إعداد الظروف المناسبة للاشتباك؛ وكان لا يتسرع في حكمه، ولا يستأثر باتخاذ القرار. وساعده ذلك على تكوين القناعة الكاملة بحتمية النصر، فكانت القوات تتحرك بقيادته وهي مدركة لدورها. وبذلك كان يتم التنفيذ بصورة متكاملة ومنسجمة مما كان يضمن تحقيق «**مبدأ الاقتصاد بالقوى**»، وليس المقصود هنا بمبدأ «**الاقتصاد**» هو توفير القوى وعدم استخدامها؛ بقدر ما يعني زجها كلها أو بعضها بحسب ما يتطلبه الموقف؛ مع الاحتفاظ دائمًا بقوة احتياطية كافية لحسم الصراع المسلح في اللحظة المناسبة. وهذا بدقة ما كان يفعله «**عمرو**» في حروبه ضد «**الروم**».

وهذه النماذج وأمثالها هي براهين كافية على «**تقنين**» استخدام القوى والحرص على «**مبدأ الاقتصاد بالقوى**» الذي كان في طليعة المبادئ التي حرص عمرو بن العاص على تطبيقها في حروبه كلها التي كانت حروب دهاء، أو حروبًا تمارس فيها السياسة الاستراتيجية دورها بالدرجة الأولى.

❑ عمرو والاهتمام بالشئون الإدارية

كان جيش المسلمين يمضي إلى أهدافه وهو متحرر من الأعباء الإدارية؛ فكان المقاتل لا يحمل من الزاد إلا ما يكفيه لتجاوز مرحلة المسير؛ وكان هذا الجيش يعتمد في تعايشه على ما توفره البيئة المحيطة من موارد تموينية وغذائية.

وقد كان لهذا الأسلوب ميزاته؛ إذ إن عدم الاعتماد على «**المخازن**

والمستودعات» حرر القوات من أعبائها الإدارية، وضمن لها القدرة على المناورة وسرعة الحركة؛ كما أن التعايش في الوسط المحيط كان من شأنه حرمان العدو من موارده الحياتية والتموينية[1]، ولكن ذلك كان يلقي على عاتق القادة أعباء إضافية؛ ذلك أن أعمال القتال كانت تتطلب تأمين الإمدادات المختلفة، سواء لتغذية آلة الحرب، مثل تأمين «**أدوات اقتحام الأسوار**» وأجهزة «**اقتحام التحصينات**»؛ كالسلالم والمجانيق والأوهاق وغيرها من الأعتدة المختلفة الخفيفة منها والثقيلة؛ أو من أجل تأمين إمداد القوات باحتياجاتها التموينية؛ كالأغذية للمقاتلين، والعلف للخيول. وتتعاظم هذه الأعباء بالنسبة للقادة عند معرفة أن تأمين هذه المتطلبات يجب أن يكون متوافقًا مع الهدف السياسي الذي يفرض «إقامة علاقات حسنة مع السكان».

وقد ظهرت كفاءة «**عمرو بن العاص**» في هذا المجال في مواقف كثيرة، لعل أبرزها إرساله من يطلب إلى أهل القرى والبلاد البقاء في قراها وبلادهم بعد أن بلغه أنهم أخذوا في الفرار من وجه جيش المسلمين بعد فتح «**بلبيس**»، وقد توجه الرسل إلى أهل القرى وقالوا لهم: «لا يرحل أحد من بلده، ونحن نقنع بما توصلونه إلينا من الطعام والعلوفة؛ فأجابوا إلى ذلك». وتضمنت اتفاقية «**عمرو**» مع «**المقوقس**» تقديم العون للمسلمين، فقام «**القبط**» بفتح الأسواق التي واكبت تحرك الجيش؛ وبذلك اضطلع أهل البلاد بواجب «**التأمين الإداري للقوات**» علاوة على اضطلاعهم «**بواجب التأمين الهندسي**».

---

(١) لقد بقيت الجيوش الأوروبية تعتمد على «المخازن والمستودعات» حتى أيام «نابليون بونابرت»، وكان تحرر جيوش «الثورة» من أعبائها الإدارية، وهو في طليعة العوامل التي ساعدت نابليون على الانقضاض بسرعة على إيطاليا؛ وتحقيق انتصاراته الحاسمة؛ وبذلك يكون النظام الإسلامي قد سبق النظام الغربي بأكثر من عشرة قرون في مجال «تأمين المتطلبات الإدارية من مسرح العمليات» و«دعم القدرة الحركية للجيوش»، علمًا أن الجيوش الأوروبية لم تتمكن من تحقيق التوازن بين تأمين متطلباتها الإدارية وبين «إقامة علاقات جيدة مع السكان» لإقامة سلم دائم، في حين حقق المسلمون ذلك.

ومن المعروف أن جيش «**عمرو بن العاص**» لم يحمل معه من «**فلسطين**» أدوات العبور؛ كالسفن، ولا أدوات اقتحام الأسوار؛ كالسلالم، والحبال، ولا أدوات قصف التحصينات؛ كالمجانيق. وقد اضطر المسلمون إلى تأمين هذه المتطلبات من مسرح الأعمال القتالية ذاته. وكان التأخير في تأمين هذه المتطلبات يؤثر أحيانًا على مسيرة الأعمال القتالية؛ فقد أدى غياب وسائط اقتحام الأسوار إلى حصار «**أم دنين**» فترة طويلة.

كما أدى غياب «**المجانيق**» إلى إطالة أمد حصار الإسكندرية. ولكن هذا التأخير كان أهون في جميع الأحوال من إثقال كاهل القوات بالأعباء الإدارية عند تحركها، هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى فإن تأمين هذه المتطلبات ـ حتى لو جاء متأخرًا نسبيًّا في بعض الأحيان ـ إنما هو برهان على اهتمام «**عمرو بن العاص**» بالتأمين الإداري لقواته وتلبية متطلباته في جميع الظروف.

وصحيح أن المتطلبات الإدارية «**لجيش المسلمين**» كانت محدودة ومتواضعة، سواء بالنسبة لأنواعها أو حتى بالنسبة لكمياتها ـ قياسًا على ما كانت تتطلبه الجيوش المقابلة ـ؛ كجيش الروم الذي كان يزيد في «**مصر**» على عشرة أضعاف حجم جيش المسلمين. ولكن قضية «**اهتمام عمرو بن العاص بالشئون الإدارية**» تتجاوز قضايا «**النوع أو الكمية**» لتصل إلى قضية المبدإ ذاته، وهو إقامة التوازن بين تأمين متطلبات القوات إداريًا؛ وبين أسلوب العمل لإقامة مجتمع ما بعد الحرب.

وبذلك يحتل «**عمرو**» المركز المرموق في التوفيق بين مختلف العوامل التي تحقق النصر النهائي.

◉ قدرة عمرو الفائقة على اتخاذ القرارات الصحيحة:

وأكبر مثال لذلك «**معركة أجنادين**»؛ فقد كانت قرارًا اتخذه عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأشرف على تنفيذه.

● حماية المرءوسين:

يظهر ذلك جليًا لما منع المسلمين من مطاردة خصومهم في غزوة «**ذات السلاسل**»، فهو لا يريد توريط المرءوسين في مواقف غير مأمونة النتائج. وكذلك منعه للمسلمين من إيقاد النيران ليالي البرد - أثناء غزوة «**ذات السلاسل**» أيضًا، ومثال ذلك يوم وقف على أسوار «**بابليون**» ومنع المسلمين من التدافع لصعود السلم.

● **الاستعداد الدائم للقتال عند عمرو وقواته وروحهم المعنوية العالية:**

ويظهر هذا واضحًا في حصار «**بابليون**» وطريقة فتح «**طرابلس**».

أما روحهم المعنوية العالية فانظر إلى مقالة قبطي أسلم وهو «**كريب بن أبرهة**»: «كنت أرعى غنمًا لأهلي بالقواصر[1] يوم نزل عمرو ومن معه؛ فدنوت إلى أقرب منازلهم؛ فإذا بنفر من القبط، كنت قريبًا منهم؛ فقال بعضهم لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم؛ يقدمون على جموع الروم وإنما هم قلة من الناس. فأجابه رجل آخر منهم فقال: إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا خيرهم»[2].

● **القدرة على تحمل الصعاب:**

لك أن تتصور عَمْرًا - وهو شيخ يقترب من الستين عامًا، وهو يمتطي صهوة جواده ويسير بقوات المسلمين من معركة إلى معركة، ومن بلد إلى بلد، تحت ظروف قاسية، في حرِّ الصيف وقرِّ الشتاء، في الليل والنهار؛ صراع مع الطبيعة وصراع مع العدو.

لقد كانت قدرة المقاتل المسلم فوق احتمال البشر، وكان جيش المسلمين - ومنه

---

(١) القواصر: بلدة قديمة من أعمال مركز «التل الكبير»، ومكانها الآن القصاصين، وكانت بين الفرما وحصن بابليون.

(٢) فتوح مصر والمغرب، لابن عبدالحكم ص (٨٥).

جيش عمرو - متميز بقدرة على تحمل الصعاب لم يبلغها جيش من جيوش العالم في القديم أو الحديث.

● القائد الفذّ

أعطى عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإسلام والمسلمين كثيرًا، وشيد للعرب أمجادًا وصروحًا تشهد بها أجنادين والفسطاط، وكل شبر في فلسطين ومصر، وهو قد أعطى «**فن الحرب**» إرثًا خالدًا، فكان نموذجًا مميزًا في عالم القيادة.

ولعل أبرز المرتكزات التي استند إليها عمرو هي: الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة، واستراتيجية الحرب التشتيتية وحرب الحركة، والاهتمام بالشئون الإدارية، ويبرهن ذلك على أنه كان أكثر تركيزًا على السياسية الاستراتيجية. ويظهر ذلك أن عَمْرًا كان قائدًا استراتيجيًّا بالدرجة الأولى، وهو متفوق في هذا المجال، وآثاره جميعها تشهد على ذلك.

لقد كان عمرو بن العاص نسيجًا وحده ومزيجًا متكاملًا من الإيمان والدهاء والشجاعة.

لقد كان من ثمرات جهاد عمرو فتح فلسطين، ومصر، وليبيا - وهي بلاد لم يفتح غيره من قادة العرب في عهد الإسلام أوسع منها وأكثر خيرًا -.

إن التاريخ يذكر لعمرو دهاءه الفذ وإدارته الحكيمة للبلاد التي كان يحكمها، ويذكر له جهاده في عهد النبي ﷺ وجهاده في حروب الردة وفتح فلسطين، ومصر، وليبيا.

إنه يحتل أنصع صفحات الفتح الإسلامي في كل تاريخ العرب والمسلمين.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الصحابي الجليل، القائد الفاتح، الإداري الداهية، عمرو بن العاص السهمي.

عمرو عند الموت

لما دنت المنية من عمرو حوَّل وجهه إلى الحائط يبكي طويلًا، وابنه يقول له: ما يبكيك؟ أما بشرك رسول اللَّه ﷺ بكذا؟.. أما بشرك بكذا؟ حتى أقبل بوجهه؛ وقال: إن أفضل ما تَعُد عليَّ شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ﷺ، ولكني كنت على أطباق ثلاث: قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إليَّ من رسول اللَّه ﷺ ولا أحب إليَّ من أن أستمكن منه فأقتله، فلو متُّ على تلك الطبقة لكنت من أهل النار، ثم جعل اللَّه الإسلام في قلبي؛ فأتيت رسول اللَّه ﷺ لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله، فبسط يده، ثم إني قبضت يدي؛ فقال: «**ما لك يا عمرو؟**» فقلت: أردت أن أشترط! فقال: «**تشترط ماذا؟**» فقلت: أشترط أن يغفر لي. فقال: «**أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله؛ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؛ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» فقد رأيتني ما من الناس أحب إليَّ من رسول اللَّه ﷺ، ولا أجل في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما أطقت؛ لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني؛ إجلالًا له، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة. ثم ولينا أشياء بعد، فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها. فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنوا عليَّ التراب سنًّا، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر «**جزور**» ويقسم لحمها، فإني أستأنس بها حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي. ثم قال: اللهم لا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر؛ وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين، ثم أخذ يردد «**لا إله إلا الله**» فلم يزل يرددها حتى مات بمصر (يوم الفطر سنة ٤٣ للهجرة) عن عمر يناهز التسعين عامًا[١].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤، ٢٦٠).

ختامًا لقادة النبي ﷺ

بنهاية ترجمة عمرو بن العاص رضي الله عنه كانت خاتمة لذكر قادة سرايا النبي ﷺ من المغاوير والفرسان الذين ما جاد بمثلهم الزمان، ولا أنجب ميدان الفروسية والبذل والعسكريةِ من يدانيهم ولا يبلغ معشار معشارهم.

تركنا البحار الزاخرات وراءنا فمن أين يدري الناس أنّى توجهنا

فهم الذين اختارهم النبي ﷺ في أصعب الظروف لقيادة سراياه، وكانوا محل ثقته الغالية وشرفوا بذلك...

والمتصفح معنا لأعمالهم يجدها صورة مثلى في إجادة فن الحرب وتطبيق مبادئ الحرب التي عرفها العالم مؤخرًا، وقد عرفها هؤلاء القادة بسليقتهم، وفطرهم النقية، واستعدادهم الفطري، وموهبتهم، وتربيتهم في مدرسة الإسلام العسكرية، ومدرسة النبوة، وميدان الفروسية وسط صهيل وغبار الحروب، ومع ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ قد تركوا الترف، ووسائدهم الوثيرة، وسقط بعضهم شهداء في ميدان الجهاد والشرف، فهل وعت الأمة الدرس الغالي العالي؟!

* * *

جدول توضيحي للسرايا

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
١	حمزة بن عبد المطلب	ثلاثون من المهاجرين	حمزة بن عبد المطلب	(٣٠٠) راكب	أبو جهل بن هشام	العيص	رمضان من السنة الأولى	حجز بين الطرفين مجدي بن عمرو الجهني
٢	عبيدة بن الحارث	ستون من المهاجرين	عبيدة بن الحارث	أكثر من مئتي راكب وراجل	أبو سفيان بن حرب	ماء بوادي رابغ	شوال من السنة الأولى	جرت مناوشات بين الطرفين، ورمى فيها سعد بن وقاص أول سهم رمي في الإسلام
٣	سعد بن أبي وقاص	عشرون من المهاجرين	سعد بن أبي وقاص	قافلة لقريش	-	الخرار	ذو القعدة من السنة الأولى	تملصت القافلة ونجت من المسلمين
٤	عبدالله بن جحش	اثنا عشر رجلا من المهاجرين	عبد الله ابن جحش	أربعة رجال	عمرو بن الحضرمي	نخلة	رجب من السنة الثانية	١-أول قتيل من المشركين ٢-أول أسير من المشركين ٣-أول غنيمة للمسلمين ٤-استعمال الرسائل المكتوبة
٥	عمير بن عدي بن خرشة	رجل واحد	عمير بن عدي بن خرشة	امرأة واحدة	عصماء بنت مروان	المدينة المنورة	رمضان من السنة الثانية	تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتهجوه شعرا
٦	سالم بن عمير	رجل واحد	سالم بن عمير	عدو واحد	أبو عفك اليهودي	المدينة المنورة	شوال من السنة الثانية	يحرض على رسول الله ويقول الشعر في هجائه
٧	محمد بن سلمة	نفر من الأوس	محمد بن سلمة الأنصاري	عدو واحد	كعب بن الأشرف	المدينة المنورة	ربيع الأول من السنة الثالثة	يهجو النبي بشعره ويهجو المسلمين ويحرض عليهم ويؤذيهم
٨	زيد بن حارثة الكلبي	مئة راكب وراجل	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة قريش	صفوان بن أمية	الغزوة من أرض نجد	جمادى الآخرة من السنة الثالثة	غنم قافلة قريش وأسر فرات بن حيان فأسلم
٩	عبدالله بن أنيس	رجل واحد	عبدالله بن أنيس	جماعة حشدوا لقتال المسلمين	سفيان بن خالد الهزلي	عرنة	المحرم من السنة الرابعة	حشد الجموع لقتال المسلمين
١٠	أبو سلمة بن عبد الأسد	-	أبو سلمة بن عبد الأسد	بنو أسد	رئيس بني أسد	قلي	المحرم من السنة الرابعة	لحشدهم على المسلمين
١١	المنذر بن عمرو الأنصاري	سبعون رجلا من الأنصار	المنذر بن عمرو الأنصاري	سبعون من سليم	سليم بن ملحان والحكم بن كيسان	بئر معونة	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركين بدعاة المسلمين

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
١٢	مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عشرة رجال	مرثد بن أبي مرثد الغنوي	عضل والقارة	رئيسا القبيلتين	الرجيع	صفر من السنة الرابعة	غدر المشركين بالمسلمين
١٣	محمد بن مسلمة	ثلاثون راكبا	محمد بن مسلمة الأنصاري	القرطاء بطن من بني بكر من كلاب	رئيس القبيلة	القرطاء في البكرات بناحية ضرية	محرم من السنة السادسة	قتل نفرًا منهم وهرب سائرهم وعاد بالغنائم
١٤	عكاشة بن محصن الأسدي	أربعون رجلا	عكاشة بن محصن الأسدي	بنو أسد	رئيس القبيلة	الغمر غمر مرزوق	ربيع الأول من السنة السادسة	استاق المسلمون مائتي بعير وهرب المشركون
١٥	محمد بن مسلمة الأنصاري	عشرة رجال	محمد بن مسلمة	بنو ثعلبة وبنو عوال من ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الآخر من السنة السادسة	استشهد المسلمون وجرح قائدهم
١٦	أبو عبيدة بن الجراح	أربعون رجلا	أبو عبيدة بن الجارح	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	ذو القصة	ربيع الآخر من السنة السادسة	هرب المشركون وغنم المسلمون مواشيهم وأمتعتهم
١٧	زيد بن حارثة الكلبي	—	زيد بن حارثة الكلبي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ربيع الآخر من السنة السادسة	غنم المسلمون شاه ونعمًا وأسرى
١٨	زيد بن حارثة الكلبي	سبعون ومائة راكب وراجل	زيد بن حارثة الكلبي	قافلة لقريش	صفوان بن أمية	العيض	جمادى الأولى السنة السادسة	غنم المسلمون القافلة
١٩	زيد بن حارثة الكلبي	خمسة عشر رجلا	زيد بن حارثة الكلبي	بنو ثعلبة	رئيس القبيلة	الطرف	جمادى الآخرة السنة السادسة	غنم المسلمون عشرين بعيرًا وهربت الأعراب
٢٠	زيد بن حارثة الكلبي	خمسمائة رجل	زيد بن حارثة	جذام	الهنيد بن عارض	حسمى	جمادى الآخرة السنة السادسة	غنم المسلمون ألف بعير وخمسمائة شاة مع مائة من الأسرى، فأعادها النبي لهم
٢١	زيد بن حارثة الكلبي	—	زيد بن حارثة الكلبي	الأعراب في وادي القرى (بنو فزارة)	رئيس القبيلة	وادي القرى	رجب من السنة السادسة	كبدهم خسائر في الأرواح وأصاب أسرى
٢٢	عبدالرحمن ابن عوف	—	عبدالرحمن ابن عوف	بنو كلب	الأصبغ بن عمرو الكلبي	دومة الجندل	شعبان من السنة السادسة	أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وأسلم معه ناس كثير
٢٣	علي بن أبي طالب	مائة رجل	علي بن أبي طالب	بنو سعد بن بكر	رئيس القبيلة	فدك	شعبان من السنة السادسة	إحباط حشدهم مددًا ليهود خيبر، فهرب بنو سعد وخلفوا خمسمائة بعير وألفي شاة غنمها المسلمون

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
٢٤	زيد بن حارثة الكلبي	مفرزة خفيفة	زيد بن حارثة الكلبي	فزارة من بني بدر	رئيس القبيلة	أم خرفة بوادي القرى	رمضان من السنة السادسة	انتقم من بني بدر لنهبهم قافلة تجارية للمسلمين
٢٥	عبدالله بن عتيك	رجل واحد مع مفرزة من خمسة رجال	عبدالله بن عتيك	أبو رافع ابن أبي الحقيق	أبو رافع سلام بن أبي الحقيق	خيبر	رمضان من السنة السادسة	قتله لأنه حرض غطفان على المسلمين
٢٦	عبد الله بن رواحة	ثلاثون رجلًا	عبدالله بن رواحة	رجل واحد	أسير بن زارم اليهودي	خيبر	شوال من السنة السادسة	قتله لأنه سار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين
٢٧	كرز بن جابر الفهري	عشرون فارسًا	كرز بن جابر الفهري	ثمانية من العرنيين	ثمانية من العرنيين	الطريق القريبة من المدينة	شوال من السنة السادسة	خانوا الأمانة فعوقبوا على خيانتهم
٢٨	عمرو بن أمية الضمري	رجلان	عمرو بن أمية الضمري	أبو سفيان ابن حرب	أبو سفيان ابن حرب	مكة	شوال من السنة السادسة للهجرة	أرسل أبو سفيان ليغتال النبي ﷺ فعاد هذا إلى أبي سفيان بعد إسلامه
٢٩	عمر بن الخطاب	ثلاثون رجلًا	عمر بن الخطاب	عجز هوازن	—	تربة	شعبان من السنة السابعة	هرب المشركون فعادوا إلى مكة
٣٠	أبو بكر الصديق	—	أبو بكر الصديق	بنو كلاب	—	ضُرِيَّة بنجد	شعبان من السنة السابعة	هرب المشركون وسبي قسم منهم
٣١	بشير بن سعد الأنصاري	ثلاثون رجلًا	بشير بن سعد الأنصاري	بنو مرة	—	فدك	شعبان من السنة السابعة	غنم المسلمون فاستعاد المشركون الغنائم وكبدوا المسلمين خسائر فادحة
٣٢	غالب بن عبدالله الليثي	مائة وثلاثون رجلًا	غالب بن عبدالله الليثي	بنو عُوَال وبنو عبد بن ثعلبة	رئيس القبيلة	الميفعة بناحية نجد	رمضان من السنة السابعة	كبدوا المشركين خسائر في الأرواح وغنموا نعمًا وشاء
٣٣	بشير بن سعد الأنصاري	ثلاثمائة رجل	بشير بن سعد الأنصاري	غطفان	عيينة بن حصن	يمن وجبار	شوال من السنة السابعة	هرب المشركون وغنم المسلمون نعمًا كثيرًا
٣٤	ابن أبي العوجاء السلمي	خمسون رجلًا	ابن أبي العوجاء السلمي	سليم	رئيس القبيلة	الجموم	ذو الحجة من السنة السابعة	استشهد أكثر المسلمين
٣٥	غالب بن عبدالله الليثي	بضعة عشر رجلًا	غالب بن عبدالله الليثي	بنو الملوح	بنو الملوح	الكديد	صفر من السنة الثامنة	غنم المسلمون النعم

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
٣٦	شجاع بن وهب الأسدي	أربعة وعشرون رجلًا	شجاع بن وهب الأسدي	بنو عامر من هوازن	رئيس القبيلة	السبي ناحية الركية من وراء المعدن	ربيع الأول من السنة الثامنة	غنم المسلمون نعمًا وشاء
٣٧	كعب بن عمير الغفاري	خمسة عشر رجلًا	كعب ب عمير الغفاري	قبائل حربية	—	ذات أطلاح	ربيع الأول من السنة الثامنة	استشهد المسلمون
٣٨	زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبدالله بن رواحة	ثلاثة آلاف رجل	زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبدالله بن رواحة	مائة ألف من غسان وحلفائهم	شُرحبيل بن محمد الغساني	مؤتة	جمادى الأولى من السنة الثامنة	انسحب المسلمون بقيادة خالد بن الوليد بعد استشهاد القادة الثلاثة، وتكبد المسلمون خسائر فادحة بالأرواح لتفوق المشركين عليهم تفوقًا ساحقًا
٣٩	عمرو بن العاص	ثلاثمائة رجل معهم ثلاثون فرسًا وأمدهم النبي بمائتي رجل	عمرو بن العاص، وعلى المدد أبو عبيدة بن الجراح	قضاعة	رؤساء قبائل بلى وعذرة وبلقين	ذات السلاسل	جمادى الآخرة من السنة الثامنة	وطئ بلاد بلى ودوخها حتى إلى أقصى بلادهم وبلاد عذرة وبلقين ولقي جمعًا بعد ذلك فحمل المسلمون عليهم فهربوا في البلاد وتفرقوا، والهدف من السرية إحباط تجمعات قضاعة وحثهم للهجوم على المسلمين
٤٠	أبو عبيدة ابن الجراح	ثلاثمائة رجل	أبو عبيدة بن الجراح	جهينة	رئيس القبيلة	القبيلة مما يلي ساحل البحر الأحمر	رجب من السنة الثامنة	لم يلقو كيدًا
٤١	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	خمسة عشر رجلًا	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	محارب من غطفان	محارب من غطفان	خضرة في نجد	شعبان من السنة الثامنة	غنم المسلمون مائتي بعير وألفي شاة
٤٢	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	ثمانية رجال	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري	قريش وحلفاؤها	أبو سفيان ابن حرب	بطن مكة	رمضان من السنة الثامنة	الهدف هو التضليل من التوجه نحو مكة لفتحها، فسارت هذه السرية بعكس اتجاه مكة، ثم تحرك المسلمون نحو هدفهم الأصلي مكة
٤٣	خالد بن الوليد	ثلاثون فارسًا	خالد بن الوليد	العزى صنم لقريش وجميع بني كنانة	—	العزى (صنم) في نخلة	رمضان من السنة الثامنة	هدم العزى

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
٤٤	عمرو بن العاص	مفرزة خفيفة	عمرو بن العاص	سواع صنم هذيل	رئيس هذيل	ديار هذيل	رمضان من السنة الثامنة	هدم سواع
٤٥	سعد بن زيد الأشهلي	عشرون فارسًا	سعد بن زيد الأشهلي	صنم للأوس والخزرج وغسان بالمشلل	—	مناة (صنم)	رمضان من السنة الثامنة	هدم مناة
٤٦	خالد بن الوليد	ثلاثمائة وخمسون رجلًا	خالد بن الوليد	جذيمة من كنانة	رئيس قبيلة جذيمة	ناحية يلملم	شوال من السنة الثامنة	كبد جذيمة خسائر في الأرواح
٤٧	الطفيل بن عمرو الدوسي	مفرزة خفيفة	الطفيل بن عمرو الدوسي	ذو الكفين (صنم عمرو بن حممة الدوسي)	—	في منطقة الطائف	شوال من السنة الثامنة	هدم ذا الكفين
٤٨	عيينة بن حصن الفزاري	خمسون فارسًا	عيينة بن حصن الفزاري	بنو تميم	رئيس بني تميم	بين السقيا وأرض بن تميم	المحرم من السنة التاسعة	هرب المشركون فأسر أحد عشر رجلًا وسبي إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًا أعادهم النبي إلى أهليهم
٤٩	قطبة بن عامر بن حديدة	عشرون رجلًا	قطبة بن عامر بن حديدة	خثعم	رئيس خثعم	ناحية بيشة قريبًا من تربة في ناحية تبالة	صفر من السنة التاسعة	تكبد المشركون خسائر في الأرواح وغنم المسلمون النعم والشاء والأسرى
٥٠	الضحاك بن سفيان الكلابي	—	الضحاك بن سفيان الكلابي	بنو كلاب	رئيس بني كلاب	القرطاء بناحية زج لاوة	ربيع الأول من السنة التاسعة	انتصر على بني كلاب
٥١	علقمة بن مجزز المدلجي	ثلاثمة رجل	علقمة بن مجزز المدلجي	الحبشة	رئيس الحبشة في الجزيرة التي تقابل مدينة جدة	الحبشة في الجزيرة تقابل جدة	ربيع الآخر من السنة التاسعة	هرب الأحباش
٥٢	علي بن أبي طالب	مائة وخمسون رجلا على مائة بعير وخمسين فرس	علي بن أبي طالب	الفلس صنم طيء وفي كتاب الأصنام الفلس بفتح الفاء	عدي بن حاتم الطائي	محلة آل حاتم الطائي بأرض طيء على جبلهم: أجأ	ربيع الآخر من السنة التاسعة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو أنها سرية من سرايا الدعوة
٥٣	عكاشة بن محصن الأسدي	—	عكاشة بن محصن الأسدي	عذرة وبلي	رئيس القبيلة	الجناب أرض عذرة وبلي	ربيع الآخر من السنة التاسعة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو أنها سرية من سرايا الدعوة

تسلسل	اسم السرية	قوة السرية	قائد السرية	قوة الأعداء	قائد الأعداء	المكان	التوقيت الهجري	النتائج
٥٤	خالد بن الوليد	—	خالد بن الوليد	بنو عبد المدان	رئيس القبيلة	نجران	ربيع الأول من السنة العاشرة	التفاصيل غير متيسرة عن هذه السرية ويبدو أنها سرية من سرايا الدعوة
٥٥	علي بن أبي طالب	ثلاثمائة فارس	علي بن أبي طالب	مذحج	رئيس القبيلة	اليمن (بلاد مذحج)	رمضان من السنة العاشرة	قاتلهم فانتصر عليهم، فغنم منهم النعم والشاء وأسر الأسرى، ثم أعلنوا إسلامهم
٥٦	أسامة بن زيد ابن حارثة الكلبي	ثلاثة آلاف مجاهد بين راكب وراجل	أسامة بن زيد (حِب رسول الله وابن حبه)	الروم وحلفاؤهم من قضاعة	رئيس قضاعة	أبنى وهي أرض السراة ناحية البلقاء	صفر من سنة إحدى عشرة	١- أمر النبي ﷺ بإنفاذ بعث أسامة في صفر ٢- تحرك أسامة بجيشه إلى هدفه في ربيع الآخر بعد وفاة النبي ﷺ وتولي أبي بكر الصديق ﷺ الخلافة ٣- شن أسامة غارة، سريعة فانتصر، فعاد أدراجه إلى المدينة المنورة ٤- أثرت هذه السرية في الروم وحلفائهم تأثيرًا بالغًا مما مهد للفتح الإسلامي القريب.

٥٠

السيد السابق

الشهيد البدري القرشي

مصعب بن عمير العبدري

أول سفير في الإسلام

أسلم على يديه السعدين .. وحامل اللواء في بدر وأحد

٥٠

السيد السابق .. الشهيد البدري القرشي

مصعب بن عمير العبدري

أول سفير في الإسلام

أسلم على يديه السعدين .. وحامل اللواء في بدر وأحد

هو الصحابي الجليل مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي بن كلاب العبدري رضي الله عنه.

كان غرَّة فتيان قريش، وأوفاهم بهاءً، وجمالًا وشبابًا يصف المؤرخون والرواة شبابه، فيقولون: «**كان أعطر أهل مكة**». وُلِد في النعمة، وغُذِّي بها، وشبَّ تحت خمائلها.

ذلك الفتى الريَّان، المدلل المنعَّم، الذي حوَّله الإسلام إلى أسطورة من أساطير الإيمان والفداء.

إنه واحد من الذين صاغهم الإسلام وتربَّوا وصُنعوا على يد رسول اللَّه ﷺ.

إنه «**مصعب الخير**» كما كان لقبه بين المسلمين... باللَّه ما أروعه من حديث ونبأ؛ نبأ مصعب بن عمير.

السابق إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم... ومعه السَّكينة التي تغمر فؤاده، والفؤاد المتوثب للدعوة إلى الله، والحكمة والتصميم الذي يغيِّر سير الزمان.

حبسته أمه «**خناس بنت مالك**» ـ لما علمت بإسلامه ـ في دارها، واحتال نفسه وخرج مهاجرًا إلى الحبشة مرتين ، وعاد إلى مكة وقد ودَّع دنيا الترف بعد أن كانت ثيابه قبل إسلامه كزهور الحديقة؛ نضرةً، وتألقًا وعطرًا .. ما كان أحد أنعم منه قبل الإسلام.. فدعاه حب اللَّه ورسوله إلى الخروج من هذا كله، كيف لا،

وهو عما قليل سيقدم روحه ونفسه قربانًا لربه ودينه..

خرج مصعب من النعمة الوارفة، وآثر عليها الشظف والفاقة، وارتدى أخشن الثياب، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة، والمتألقة بنور الإيمان قد جعلت منه سيدًا يملأ الأعين جلالًا والنفس روعة وهاجر ولم يستطع أحد أن يعترض طريقه.

وبعد أن تمت بيعة العقبة الأولى، وانتهى موسم الحج بعث النبي ﷺ مع الأنصار الذين عقدوا معه بيعة العقبة الأولى أولَ سفير له في يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، ويقوم بنشر الإسلام بين الذين لا زالوا على الشرك.

وقد اختار النبي ﷺ لهذه السفارة الشاب الصالح التقي الشجاع «**مصعب بن عمير العبدري**»، الذي كان من السابقين الأولين إلى الإسلام من شباب قريش.

ولقد أثبت الشاب مصعب أنه خير سفير للإسلام اعتمده النبي ﷺ لدى أهل يثرب، فقد قام بمهمته خير قيام، إذ استطاع بدماثة خلقه وصفاء نفسه أن يجمع كثيرًا من أهل يثرب على الإسلام حتى إن قبيلة من أكبر قبائل يثرب (وهي قبيلة بني عبد الأشهل) قد أسلمت جميعها على يده بقيادة رئيسها سعد بن معاذ رضي الله عنه[(١)].

حمل مصعب أمانة الدعوة كأوفى ما يكون حمل الأمانات، وغزا أفئدة أهل المدينة بصدقه وإخلاصه وزهده ويقينه؛ فدخلوا في دين الله أفواجًا.

لقد جاءها يوم بعثه الرسول ﷺ إليها، وليس فيها سوى اثني عشر مسلمًا، ولكنه لم يكد يتم بينهم تسعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول.

وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة الأولى... كان مسلمو المدينة يرسلون إلى مكة وفدًا يمثلهم وينوب عنهم... كان عدد أعضائه سبعين مؤمنًا ومؤمنة.. جاءوا ومعهم معلمهم ومربيهم «**مصعب بن عمير**» رضي الله عنه .

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى، لباشميل ص (٤٩).

ولنقف الوقفات مع هذا النجاح المنقطع النظير لسفارة الصادق المخلص مصعب ابن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أول ما قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم»(١).

وفي لفظ عند البخاري: «**أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يُقرئون الناس، فقدم بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي** ﷺ**، ثم قدم النبي** ﷺ **فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله** ﷺ **حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله** ﷺ**، فما قدم حتى قرأت:** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ **في سور من المفصل**»(٢).

بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار إلى المدينة؛ ليعلمهم كتاب الله، فنزل بني غنم على أسعد بن زرارة يحدِّثهم ويقصُّ عليهم القرآن، فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ، يدعو ويهدي الله على يديه، حتى قلَّ دارٌ من دور الأنصار إلَّا أسلم فيها ناسٌ لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح، وكسرت أصنامُهم، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ، وكان يُدعى المقرئ.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيدالله بن المغيرة بن معيقيب وعبدالله بن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يُريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، وكان سعدُ بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر، على بئرٍ يُقال له: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيِّدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركٌ على دين قومه، فلمَّا سمعا به قال

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٤)، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨٣/١/٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).

سعدٌ لأُسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجُلين اللذين قد أتيا دارَيْنَا ليُسفِّها ضُعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارَيْنَا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدمًا، قال: فأخذ أسيد بن الحضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلمَّا رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيِّد قومه وقد جاءك، فاصدق اللَّه فيه.

قال مصعب: إن يجلس أُكلِّمه. قال: فوقف عليهما مُتشتِّمًا(1)، فقال: ما جاء بكما إلينا تُسفهان ضعفاءنا عنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. وقال موسى بن عقبة: فقال له: علام أتيتنا في دارنا بهذا الرعيد الغريب الطريد؟ ليتسفه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه. قال ابن إسحاق: فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت. قال: ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يُذكر عنهما: واللَّه لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلًا، قال: أحلف بالله، لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فواللَّه ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك. قال: فقام سعد بن معاذ مغضبًا مبادرًا مخوفًا؛

(١) أي: متلفِّظًا بقبيح الكلام.

للذي ذكر له من بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: واللَّه ما أراك أغنيت شيئًا. ثم خرج إليهما سعدٌ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: واللَّه يا أبا أُمامة، واللَّه لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رمت(١) هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكرهُ؟ قال: وقد قال أسعد لمصعب: جاءك واللَّه سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا رغبت فيه، قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإِسلام، وقرأ عليه القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول الزخرف. قال: فعرفنا واللَّه في وجهه الإِسلام قبل أن يتكلم؛ في إشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن الحضير، فلمَّا رآه قومه مقبلًا قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة(٢). قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا باللَّه ورسوله. قال: فواللَّه ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلمًا أو مسلمةً، ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإِسلام، حتى لم تبق دور من دور الأنصار إلا وفيها رجالٌ ونساء مسلمون، إلَّا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف، وتلك الأوس بن حارثة؛ وذلك أنهم كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، واسمه صيفي، وقال الزبير بن بكار: اسمه الحارث،

---

(١) ما رمت هذا مني: ما بلغت هذا مني.

(٢) أي: قيادة.

وكان شاعرًا لهم، قائدًا يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان بعد الخندق»(١).

فلله درُّ مصعب بن عمير، الداعية الذي على يديه أسلم الجبلان: سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، ولله در سعد بن معاذ، فقد كان إسلامه فتحًا على الأوس والأنصار، الداعية الذي أسلم بإسلامه قومه الرجال والنساء.

فليحسن الداعية خلقه مع أهله، وليجعل بينه وبينهم وصلًا، فوالله ما دخل بنو عبد الأشهل الإسلام بدايةً إلّا حبًّا لسعد ميمون النقيبة حسن السيرة فيهم.

❏ مصعب حامل لواء المسلمين يوم بدر

وفي غزوة بدر، في «**يوم الفرقان**»، وعند خروج الجيش من المدينة دفع النبي ﷺ لواء القيادة العامة - التي يتولاها ﷺ - إلى مصعب بن عمير القرشي، وكان هذا اللواء أبيضًا(٢).

كانت للنبي ﷺ في هذا اليوم الأغر رايتان سوداوان، فأعطى راية المهاجرين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وراية الأنصار لسعد بن معاذ، وأعطى ميمنة الجيش للزبير، والميسرة للمقداد بن عمرو الكندي، كما أعطى الساقة لقيس بن أبي صعصعة رضي الله عنه.

وفي دفع اللواء إلى مصعب رضي الله عنه في أول معركة بين النبي والمشركين - وهي المعركة الفاصلة - رمز وإيحاء وتلميح إلى بطولة مصعب وشجاعته الفائقة، فالنبي ﷺ لا يحابي أحدًا، وإنما يعطي المسئولية والمنصب لمن يستحقه. ولقد ثبت مصعب في هذا اليوم ثبات الرواسي، وقاتل كأشد ما يكون قتال الرجال، وكان أهلًا لثقة النبي ﷺ:

---

(١) البداية والنهاية (٣/١٤٩ - ١٥١).
(٢) موسوعة الغزوات الكبرى «بدر»، لباشميل ص (١٢٣).

هذا عليٌّ في اللواء ومصعبٌ والنصر فِي عِطْفَيْهِما يَتَرَنَّحُ
حَمَلا لِوَائَيْهِ فلو صدح الهدى في مشهدٍ جلل لأقبل يصدحُ

بعد انتهاء معركة بدر مرَّ مصعب بن عمير بأخيه أبي عزيز بن عمير وأحد الأنصار يضع القيود في يده، فقال مصعب للأنصاري شُدَّ يديك به، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بي؟!

فقال مصعب: إنه ـ أي الأنصاري ـ أخي دونك[1].

❑ مصعب حامل اللواء والشهيد في يوم أحد

خرج النبي ﷺ إلى أحد بسبع مئة مقاتل لملاقاة ثلاثة آلاف من فرسان المشركين وصناديدهم. ولقد نجح الرسول ﷺ في التعويض عن النقص العددي في رجاله، باختياره نخبة ممتازة من صناديد المسلمين.

ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف، وجعلهم في مقدمة الصفوف؛ ليكونوا طليعة جيشه حين تلتحم الجموع.

وفي مقدمة هؤلاء حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وأبو بكر الصديق، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيدالله، وعبداللَّه بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأبو دجانة، وأنس بن النضر، وأمثالهم من أهل النجدة والبأس واليقين.

وأعطى النبي اللواء لمصعب بن عمير يوم أحد مثلما أعطاه له يوم بدر. فبطولة مصعب وشجاعته أوضح من الشمس في رابعة النهار، وأشهر في الدنيا من الدنيا نفسها «**شنشنة نعرفها من أخزم**».

رفع مصعب اللواء عاليًا، وأطلق تكبيرة كالزئير، ومضى يصول ويجول ويتواثب وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه ويشغلهم عن الرسول ﷺ بنفسه،

(١) المصدر السابق ص (١٧٠، ١٧١).

وجرَّد من ذاته جيشًا بأسره.. أجل، ذهب مصعب يقاتل وحده كأنه جيش لجب غزير.. يد تحمل الراية في تقديس.. ويد تضرب بالسيف في عنفوان. لندع شاهد عيان يصف لنا مشهد الختام في حياة مصعب العظيم..!!

يقول ابن سعد: أخبرنا إبراهيم بن محمد بن شرحبيل العبدري، عن أبيه قال: «**حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أُحُد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قمئة وهو فارس، فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾... «**وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنا على اللواء وضمَّه بعَضُدَيْه إلى صدره وهو يقول:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾... «**ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندقَّ الرمح، ووقع مصعب، وسقط اللواء**».. وقع مصعب.. وسقط اللواء!!

وقع حِلْية الشهادة، وكوكب الشهداء..!!

وقع بعد أن خاض في استبسال عظيم معركة الفداء والإيمان.

كان يظن أنه إذا سقط فسيصبح طريق القتلة إلى رسول اللَّه ﷺ خاليًا من المدافعين والحماة.

ولكنه كان يعزِّي نفسه في رسول اللَّه ﷺ من فرط حبه له وخوفه عليه حين مضى يقول مع كل ضربة سيف تقتلع منه ذراعًا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

وبعد انتهاء المعركة المريرة، وجد جثمان الشهيد الرشيد راقدًا، وقد أخفى وجهه في تراب الأرض المضمَّخ بدمائه الزكية.. وسالت الدموع وفية غزيرة عند جثمان مصعب الخير.

لك اللَّه يا مصعب.. يا من ذِكْرُكَ عطر للحياة...!! يا من صنعت الأعاجيب يوم أحد.

لك الفضل بالسبق إلى الإسلام... والسبق إلى هجرتيْ الحبشة.

وقد قال النبي ﷺ: «**لكم يا أهل السفينة هجرتان**»[١].. والسبق إلى الهجرة إلى المدينة، وإسلام رجالات يثرب على يديه، وهذه ميزة انفرد بها عن غيره من الصحابة، فقد أسلم بنو عبد الأشهل على يديه..

وهو البدري حامل اللواء.. وهو الشهيد حامل اللواء في أحد، ولذا يشهد عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو من هو بأن مصعبًا خير منه.

عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتي بطعام - وكان صائمًا - فقال: قُتِل مصعب بن عمير - وهو خيرٌ مني - كُفِّن في بُردة إنْ غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقُتِل حمزة - وهو خير مني - ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بُسِط - أو قال: أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا - وقد خشينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلَت لنا -، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[٢].

❑ ادخار الأجر لمصعب يوم القيامة:

وهذه المنقبة لا تقوم لها الدنيا بأسرها..

هنا الآخرة بظلالها وجلالها.. هنا الآلاف العلوية.. فلتتنح الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.. عن أبي وائل قال: «**عُدْنَا خبابًا فقال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نريدُ وجه الله فوقع أجرنا على الله؛ فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا؛ منهم: مصعب بن عمير، قُتِل يوم أحد، وترك نَمِرَة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت جلاه، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطيَ رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من إذخر، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدِبُها**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٧٦)، ومسلم (٢٥٠٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٧)، ومسلم (٩٤٠)، والنسائي (٣٨/٤)، والترمذي (٣٨٥٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود (٢٨٧٦)، وأحمد (١٠٩/٥)، وابن سعد في «الطبقات» (١/٣/ ٨٥).

ولله در القائل في مصعب يوم أحد:

هو مرتقى الأبطال مالك دُونَهُ متزحزحٌ فاصبْر له يا مصعبُ
ولقد صبرت تخوض من أهواله ما لا يخوض الفارس المتلبِّبُ[1]
ترمي بنفسك دون نفس محمد وتقيه من بأس العِدَى ما ترهبُ
تبغي الفداء وتلك سنَّةُ مَن يرى أن الفداء هو الذِمَامُ الأوجبُ
دَعْ مَنْ يعضُّ على الحياة فإنه غاوٍ يُضلِّل أو دَعِيٌّ يكذِبُ
ما اختار نُصرة دينه أو رأيه من لا يرى أن الفداءَ المذهبُ
ما هذه المثل التي لا تنتهي؟ هذا هو المثل الأبرُّ الأطيبُ
طاحَ الجهادُ به شهيدًا صادقًا أوْفى بعهد إلهه يتقرَّبُ
إيمانُ حُرٍّ لا يبالي كلما ركب العظائم أن يهول المركبُ
يرسو وأهوالُ الوقائع عُصَّفٌ تذرو[2] الفوارس والمنايا وُثَّبُ
إن يضربوه ففارسٌ ذو نجْدَةٍ ما انفكَّ يطعن في النحور ويضربُ
كم هاربٍ يخشى بوادر بأسِه ويخافُ منه مُشيَّعًا ما يهرَبُ
الموتُ في وثباته يجري دمًا والموت في نظراتِه يتلَهَّبُ
سقطت يداهُ وما يزال لواؤُه في صدره يحنو عليه ويحدبُ
لو يستطيعُ لمدَّ من أهدابه سببًا يُشَدُّ به إليه ويُجذَبُ
يمناهُ أم يُسراه أعظمُ حرمةً أم ساعداه وصدرُه والمنكبُ؟
جارَى مَنِيَّتَه فكُلٌّ يرتمي في شأنه جَللًا وكُلٌّ يدأبُ
حتى دعاهُ اللهُ يرحم نفسهُ فأجاب يلتمس القرار ويطلبُ
إن كان ذلك من أعاجيب الوغى فالبخلُ بالدم في المحارم أعجبُ
إن امرأً كَرِه الجهادَ فلم يَفُزْ بالموت في غمراته لمُخَيَّبُ

* * *

---

(١) تَلَبَّبَ الرجل للحرب: تحزَّم وتشمَّر.

(٢) تذرو: ترمي.

٥١

البطل المقدام

سيد الأوس وصدِّيق الأنصار

سعد بن معاذ رضي الله عنه

مَنْ حكم في اليهود بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات

ومن اهتز لموته عرش الرحمن

٥١

البطل المقدام
سيد الأوس وصدِّيق الأنصار ..

سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

مَنْ حكم في اليهود بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات،

ومن اهتز لموته عرش الرحمن

في العام الواحد والثلاثين من عمره، أسلم.. وفي العام السابع والثلاثين، مات شهيدًا.. وبين يوم إسلامه، ويوم استشهاده، قضى سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيامًا شاهقة في خدمة اللَّه ورسوله.

أسلم سعد سيد الأوس على يد مصعب الخير مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبإسلام «**سعد بن معاذ**» أشرقت في المدينة شمس جديدة، دارت في فلكها قلوب كثيرة تسلم مع «**محمد**» ﷺ لله رب العالمين.

أسلم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحمل تبعات إسلامه في بطولة وعظمة منقطعة النظير.

❑ كلمات سعد كالبشريات في يوم بدر.. وسعد بن معاذ حامل راية الأنصار:

لما قال رسول اللَّه ﷺ «**أشيروا عليَّ أيها الناس**» قال سعد: واللَّه لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «**أَجَل**». قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودَنَا ومواثيقنا، على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول اللَّه لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا البحر لخضناه معك ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في

الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلَّ اللَّه أن يُريَكَ منا ما تَقرُّ به عينَك، فسرْ على بركةِ الله.

قال ابن إسحاق: فسُرَّ رسول اللَّه ﷺ بقول سعد ونشَّطه، ثم قال: «**سيروا وأبشروا؛ فإن اللَّه قد وعدني إحدى الطائفتيْن، واللهِ لكأني أنظر إلى مَصَارِعِ القَوْمِ**»[(١)].

أَهَلَّت كلمات سعد كالبُشْريات، وتألق وجه النبي ﷺ رضًا وسعادة وغبطة، وقال للمسلمين: «**سيروا، وأبشروا، فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد وعدني إحدى الطائفتين، واللَّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم**» وتحرك القوم نحو بدر، وأعطى رسول اللَّه ﷺ رايته السوداء لسعد بن معاذ قائدًا لكتيبة الأنصار.

وقبيل المعركة اقترح سعد ـ حامل لواء الأنصار ـ على النبي ﷺ أن يبني المسلمون مقرًّا لقيادته، واقترح أن يكون مقر هذه القيادة بمثابة خط رجعة يستطيع الرسول الانسحاب منه واللحاق بالمدينة بسلام، إذا ما قُدِّر لجيش الإسلام أن ينهزم.

قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؟ فإن أعزنا اللَّه وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست إلى ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك قوم ـ يا نبي اللَّه ـ ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حربًا ما تخلَّفوا عنك، يمنعك اللَّه بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح ودعا للقائد الأنصاري بخير.

وتم بناء مقر القيادة، عريشًا بناه جنود الإسلام في مكان مناسب، وهو مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال ويشرف على ساحة المعركة.

وتم إنشاء حرس لقيادة الرسول، فرقة تم انتخابها من فتيان الأنصار، وقفوا

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٦١).

بقيادة سعد بن معاذ نفسه يحرسون الرسول ﷺ حول مقر قيادته.

وأبلى سعد بن معاذ في هذه المعركة بلاءً حسنًا وثبت ثبات الجبال الرواسي.

- **وفي غزوة أحد عندما تشتَّت المسلمون تحت وقع المباغتة الداهمة التي فاجأهم بها جيش المشركين لم تكن العين لتُخطئ مكان «سعد بن معاذ».**

لقد سمَّر قدميه في الأرض بجوار رسول اللَّه ﷺ يذود عنه ويدافع في استبسال هو له أهل، وبه جدير.

- **وفي غزوة الخندق تجلَّت رجولة سعد بن معاذ وبطولته تجلِّيًا باهرًا ومجيدًا:**

جاءت غزوة الخندق التي أجهدت المسلمين إجهادًا شديدًا، يعانون من شدة الجوع، وقسوة البرد القارص، والتخوف من غدر يهود من الخلف.. وما ثبت مع النبي ﷺ «**سوى قلة قليلة من صفوة أصحابه الذين قد ربطوا مصيرهم بمصيره، مثل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن معاذ، وطلحة بن عبيدالله، ومن على مستوى هؤلاء شجاعة ويقيناً وإيمانًا**»[1].

لما تكالبت قُوى الشرك بكتائبها الهائجة، وكادت تغرق القِلة المؤمنة، أراد رسول اللَّه ﷺ أن يعقد صلحًا منفردًا بينه وبين غَطَفَان، وسيديْها: عيينة بن حِصن، والحارث بن عوف، على أن تفكَّ غطفان الحصارَ عن المدينة، وتنسحب بجيوشها وتخذل الأحزابَ، على أن يعطيهم رسول اللَّه ﷺ ثلثَ ثمار نخْل المدينة، واستشار رسول اللَّه السعديْن، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم ـ يعني غطفان ـ لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة، إلا قِرًى[2] أو بيْعًا، وإن كانوا ليأكلون العِلْهز[3] في الجاهلية في الجهد، أَفَحِينَ أكرمنا اللَّه بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه، نقطعهم أموالنا؟! ما لنا بهما من حاجة، واللَّه لا نعطيهم

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «غزوة الأحزاب»، لمحمد أحمد باشميل ص (٢٠٢).

(٢) القِرَى: الضيافة.

(٣) العلهز: بُرٌّ يُخْلَطُ بدماءِ الحَلَم، كانت العرب في الجاهلية تأكله في الجدب.

إلا السيف، حتى يحكم اللَّه بيننا وبينهم[1].

ثم خرج سعد إلى سيِّدَيْ غطفان، وقد رفع صوته في تحدًّ: ارجعا، ليس بيننا وبينكم غير السيف.

كلمات لسعد بن معاذ تُسطَّر بمداد من نور في تاريخ أمتنا... أدرك قادة غطفان حقيقة كانوا يجهلونها وهي أن الذي يصنع الانتصارات ويبعث الأمن والطمأنينة في النفوس ساعة الروع هو قوة العقيدة وزخم الإيمان باللَّه ـ تَعَالَى ـ...

عاد قادة غطفان وكلمات سعد تدوي في آذانهم دوي الرعود.

كلمة قالها سعد وقد بلغت القلوب الحناجر من شدة الكرب وتلاحق المنايا وتقاطر البلايا..

كلمات تتفجَّر منها ينابيع الرجولة والشجاعة والأنفة والإيمان والثقة المتناهية بالله.

كلمات بثت الأمل في نفوس المسلمين، ووضعت سعدًا في مكانه تتقطع أعناق الرجال نظرًا إلى سموها وعلوها.

ولبس المسلمون لباس الحرب، وخرج سعد بن معاذ حاملًا سيفه ورمحه وهو ينشد:

لَبِّثْ قليلًا يشهد الهيجا جَمَلْ   ما أجمل الموت إذا حان الأجل

وفي إحدى الجولات تلقَّتَ ذراع سعد سهمًا وبيلًا قذفه به أحد المشركين.

☐ رَمْي سعد بسهم قطع منه الأكحل:

قال ابن إسحاق: «رماه ابن العرَقة، فلما أصابه قال: خذها مني، وأنا ابن العرقة، فقال: عرَّق اللَّه وجهك في النار، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبَّ إليَّ من أن أجاهدهم فيك من قوم آذوْا نبيك، وكذَّبوه

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٣)، والسيرة الحلبية (٢/١٠٣، وما بعدها).

وأخرجوه، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تُقرَّ عيني من بني قريظة»[١].

عن جابر قال: «**رُمي سعد يوم الأحزاب، فقطعوا أكحله، فحسمه النبي بالنار، فانتفخت يده، فتركه فنزفه الدم، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطرت منه قطرة، حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحكم أن يقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم وذراريهم، قال: وكانوا أربع مئة، فلما فرغ من قتلهم انفتق عرقه**»[٢].

❑ موافقة حكم سعد لحكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «**أن أناسًا[٣] نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأُرسل إليه فجاء على حمار، فلما بلغ قريبًا من المسجد قال النبي ﷺ: «قوموا إلى خيركم ـ أو سيدكم ـ فقال: يا سعد إن هؤلاء نزلوا على حكمك»**، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى زراريهم. قال: حكمت بحكم الله، أو بحكم الملك»[٤].

وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «أصيب سعد يوم الخندق ـ رماه رجل من المشركين يُقال له حبان بن العرقة رماه في الأكحل، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد؛ ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعته، اخرج إليهم، قال النبي ﷺ: «**فأين؟**» فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكم إلى سعد. قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم».

---

(١) رجاله ثقات: انظر: سيرة ابن هشام، وأخرجه أحمد بنحوه أطول من هذا.

(٢) إسناده حسن: رواه أحمد وابن سعد والدارمي.

(٣) في رواية البخاري (٤١٢١): نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٠٤)، ومسلم (١٧٦٨)، وأبو داود (٥٢١٥)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١١٨)، وأحمد (٣/٢٢، ٧١)، وأبو يعلى (٢/٢٠٥، ٢٠٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٩٩٣).

عن عائشة أن سعدًا قال: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبته فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغدو جرحه دمًا فمات منها رضي الله عنه»[1].

لله در سعد بن معاذ، دعا رضي الله عنه ربه ألَّا يميته حتى يُقرَّ عينه من بني قريظة، قبل أن يحكم فيهم، فلما حكم فيهم، وأقرَّ اللَّه عينه؛ دعا ثانيًا بهذا الدعاء، فجعلها اللَّه له شهادة.

عن عبداللَّه بن شداد: «دخل رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم على سعد، وهو يكبد نفسه، فقال: «**جزاك اللَّه خيرًا من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينْجِزَنَّكَ اللَّه ما وعدك**»[2].

عن محمود بن لبيد قال: لما أصيب أكحل سعد فثقل، حوَّلوه عند امرأة يُقال لها رُفيدة تداوي الجرحى، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مرَّ به يقول: «**كيف أمسيت؟ وكيف أصبحت؟**»، فيخبره حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها وثقل، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فقيل: انطلقوا به، فخرج وخرجنا معه، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالنا، وسقطت أرديتنا، فشكا ذلك إليه أصحابه، فقال: «**إني أخاف أن تسبقني إليه الملائكة؛ فتغسله؛ كما غسَّلت حنظلة**»، فانتهى إلى البيت وهو يُغَسَّل، وأمه تبكيه وتقول: «**ويل أم سعد سعدًا، حزامةً وجدًّا**»؛ فقال صلى الله عليه وسلم: «**كل باكية تكذب إلا أم سعد**»، ثم خُرج به، قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول اللَّه ميتًا أخف علينا منه، قال صلى الله عليه وسلم: «**ما يمنعه أن يخف،**

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩)، وعند مسلم (١٧٦٩): «قال سعد - وتحجر كَلْمُهُ للبرء -: اللهم إنك تعلم ...» إلخ.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات»، ورجالة ثقات.

وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قبل يومهم، قد حملوه معكم»[١].

❑ ونعاه جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ:

عن جابر رضي الله عنه جاء جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: «**من هذا العبد الصالح الذي مات؟ فُتِحت له أبواب السماء، وتحرَّك له العرش؟ فخرج رسول اللَّه ﷺ فإذا سعد...**»[٢].

وما اهتَزَّ عرشُ اللهِ من موت هالكٍ   سمعنا به إلا لسعدِ أبي عمرو

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، ولقد ضُمَّ ضمَّة، ثم أُفرِج عنه**»[٣] يعني سعدًا.

عن أنس رضي الله عنه قال: «**لمَّا حُمِلت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته! فقال النبي ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله»**[٤].

عن جابر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: «**اهتزَّ العرش لموت سعد بن معاذ**»[٥].

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**لقد اهتز العرش لموت سعد بن معاذ**»[٦].

---

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن سعد. انظر: تخريج سير أعلام النبلاء (١/٢٨٧).

(٢) إسناده صحيح: رواه النسائي عن سعد.

(٣) إسناده صحيح: رواه النسائي وابن سعد.

(٤) صحيح: رواه الترمذي وَصَحَّحَهُ. انظر: الفتح (٧/١٥٥).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٠٣)، ومسلم (٢٤٦٦)، وابن ماجه (١٥٨)، وأحمد (٣/٣١٦)، وفي «فضائل الصحابة» (١٤٨٦)، وأبو يعلى (٣/٤٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٦٣)، والطبراني في «الكبير» (٥٣٣٥)، وأخرج مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «وجنازة سعد ـ بين أيديهم ـ اهتز لها عرش الرحمن».

(٦) إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى واللفظ له (٢/٤٥٠)، وأحمد (٣/٢٣، ٢٤)، والحاكم (٣/٢٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وأخرجه النسائي في «فضائل الصحابة» (١٢١)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٨٦)، وابن أبي شيبة (١٢٣٦٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٣٣٤).

قال النضر بن شميل ـ وهو إمام في اللغة ـ: اهتز: فرح؛ كما ينقله عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١/٢٩٣).

وقال ابن حجر في «**الفتح**» (٧/١٥٥): «**واهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه؛ يُقال لكل من فرح بقدوم قادم عليه: اهتزَّ له، ومنه: اهتزت الأرض بالنبات، إذا اخضرَّت وحسنت**».

وقال المناوي في «**فيض القدير**» (٧/١٥٥): «قال ابن القيم: كان سعد في الأنصار، بمنزلة الصدِّيق في المهاجرين، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، وخُتِم له بالشهادة، وآثر رضا اللَّه ورسوله، على رضا قومه وحلفائه، ووافق حكمه حكم اللَّه من فوق سبع سماوات، ونعاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم موته، فحق له أن يهتز له العرش» وهذا متواتر.

قال الذهبي في «**السير**» (١/٢٩٧): والعرش خلق اللَّه مسخر، إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعورًا لحب سعد؛ كما جعل ـ تَعَالَى ـ شعورًا في جبل أحد، يحبه النبي ﷺ وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الإسراء: ٤٤] ثم عمَّم فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا حق».

وعن ابن عمر يرفعه «**اهتز العرش لحب لقاء اللَّه سعدًا**»(١).

من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه .. طال شوق الأبرار إلى لقاء الله، وهو إلى لقائهم أشوق.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أُهدي للنبي ﷺ جبة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»(٢).

---

(١) صحيح: رواه ابن سعد والحاكم، وَصَحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٤٨)، ومسلم (٢٤٦٩)، وأحمد (٣/٢٠٩، ٢٣٤، ٢٣٨، ٢٥١)؛=

وعن البراء رضي الله عنه قال: «**أهدي للنبي** ﷺ ثوبُ حريرٍ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، فقال النبي ﷺ «**أتعجبون من هذا؟**» قلنا: نعم. قال: «**مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا**»[1].

❑ رائق الشعر في الثناء على سيد الأنصار سعد:

هـدأ المخيَـمُ واطـمـأنَّ المضجـعُ ... وأبـى الـهـدوءَ الـصَّـارِخُ المتوجِّعُ
الحقُّ جَـنْـبٌ بـالجراحـةِ مُـثْـخَـنٌ ... وَحُشَـاشَـةٌ تهـفـو وقلبٌ يَفزَعُ[2]
يا سعدُ خطبُكَ عند كلِّ مُوَحِّدٍ ... خَطبٌ يجيءُ بهِ الزَّمانُ ويرجِعُ
الـسَّـهـمُ حيـثُ تَـراهُ لا آلامـهُ ... تُـرجَى عَـوَاقِبُـهـا ولا هُـو يُـنـزَعُ
ما أنتَ حَيْثُ يكونُ سيِّد قومِهِ ... أين الـولائِدُ والـفِـنـاءُ الأوسعُ؟[3]
لكَ من رُفَيدَةَ خَيمَةٌ في مَسْجِدٍ ... للمعشرِ الجَفَلَى تُقَامُ وترفَعُ[4]
بل تلك منزلةُ الـصَّفِيِّ بَلَغتَها ... فوَفَى الرجاءُ وصَحَّ مِنكَ المَطمعُ
حَدِبَ الرسولُ عليكَ يَكرهُ أن يَرى ... مَثواكَ مطَّرَحَ الجوارِ ويَـجـزعُ[5]
جارَ الرسولِ وما بُليتَ بحاسدٍ ... الخيرُ والرضـوانُ عِـنـدَكَ أجمـعُ
قال اجعلوا البطلَ المنوَّهَ باسمِهِ ... منِّي على كَثَبٍ أَراهُ وأَسمعُ[6]
وَأعُـودُهُ ما شـئـتُ أقضـي حَقَّـهُ ... وأرى قَضَـاءَ اللهِ ماذا يَصـنـعُ؟
حَسْبُ المجاهِدِ أن يكونَ بمسجدي ... فَـلَـذلِـكَ الحَرَمُ الأعـزُّ الأمـنـعُ

❊ ❊ ❊

= وعبد بن حميد في «المنتخب» (١١٩٨)، والطيالسي (١٩٩٠)، وأبو يعلى (٤٢٣/٥).

(١) أخرجه البخاري (٥٨٣٦)، ومسلم (٢٤٦٨)، وأحمد (٢٨٩/٤، ٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٢)، وأبو يعلى (٣/ ٢٧٣)، والطيالسي (٧١٠)، والنسائي في «الفضائل» (١١٧)، و(٨/٦)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٤٨٧)، وابن ماجه (١٥٧)، وابن أبي شيبة (١٢٣٧٠)، وابن سعد في «الطبقات» (١٣/٢/٣).

(٢) أثخنته الجراحة: أوهنته وأعجزت قواه.

(٣) جمع وليدة؛ وهي: الصبية والأمة، أو التي تستوصف قبل أن تحتلم.

(٤) الجَفَلَى: جماعة الناس وعامتهم.

(٥) حَدبَ: بمعنى عطف.

(٦) على كثب: على قرب.

اللهُ خَصمُكَ يا ابنَ قيسٍ إنَّه ... سَهْمٌ أُصيبَ به التقِيُّ الأورَعُ[١]
لا أخطأتكَ من الجحيمِ وَحرِّها ... مشبوبةٌ فيها تُدَعُّ وتُدفعُ[٢]

* * *

لِمَنِ الدمُ الجارِي يَطَلُّ هَدِيرُهُ ... مِلْءَ المسامعِ دائبًا ما يُقلِعُ؟
أفما تَرَوْنَ بَني غِفَارٍ أنَّه ... من عندِ خيمتكم يفيضُ وينْبُعُ؟
ماذا بسعْدٍ يا رُفَيْدَةُ خبِّري ... إنَّ القلوبَ من الجنُوبِ تَطَلَّع؟
يا حَسْرَتَا هو جُرْحُه يجري دَمًا ... بعد الشِّفاءِ ونَفسُهُ تَتَمزَّعُ
حَضرتْ منيَّتُهُ وحُمَّ قَضاؤُه ... ولكلِّ نَفسٍ يَومُها والمصرعُ

* * *

ضَجَّ النَّعاةُ فهزَّ يثربَ وَجدُها ... وهفا بمَكَّةَ شَجُوها المتنوِّعُ[٣]
رُكنٌ من الإسلامِ زَالَ وما انتهى ... بانيهِ ذَلكمُ المُهِمُّ المُفظِعُ
خَطبٌ أصابَ المسلمينَ فذاهلٌ ... ما يَستفيقُ وجازعٌ يَتَفَجَّعُ

* * *

صَبرًا رسولَ اللهِ إن تَكُ شِدَّةٌ ... نَزَلَتْ فإنَّكَ لَلأشَدُّ الأَضلَعُ[٤]
أنت المعلِّمُ لا شريعةَ للهُدَى ... إلا تُسَنُّ على يَدَيْكَ وتُشْرَعُ
تمضي على المُثْلَى وكلٌّ يَقتَفِي ... وَتَجِيءُ بالفُضْلَى وكُلٌّ يَتْبَعُ
أَقِمِ الصَّلاةَ على الشَّهيدِ وسِرْ بِهِ ... في ظِلِّ رَبِّكَ والملائكُ خُشَّعُ
يمشونَ حولَ سريره عَدَدَ الحصى ... فالأرضُ ما فيها لِرجلِكَ مَوْضِعُ
تمشي بأطرافِ الأَصابِعِ تَتَّقي ... ولقد تكون وما تُوقَّى الإصبعُ
العرشُ مُهتزُّ الجوانبِ يَحتَفِي ... واللهُ يضحَكُ والسَّماءُ تُرجِّعُ

---

(١) هو ابن العرقة.
(٢) دَعَّهُ: دفعه دفعًا عنيفًا.
(٣) الوجد: الألم. الشجو: الحزن.
(٤) الأضلع: الشديد القوي من الرجال.

يا ناهضًا بالدينِ يَحملُ عِبْأَهُ ... والبأسُ يعثرُ والسَّوابِقُ تَظْلَعُ
اهنأ بها حُلَلًا حملت حِسَانَها ... نُورًا على نُورٍ يُضيءُ ويَسْطَعُ[(١)]
هذا مكانُكَ لا العطاءُ مُقتَّرٌ ... عِندَ الإلهِ ولا الجزاءُ مُضَيَّعُ
لك يومَ بدرٍ عند ربِّكَ مَشهدٌ ... هُوَ للهُدَى والحقِّ عُرسٌ مُمتِعُ
نُصِرَ النبيُّ به على أعدائِه ... والجوُّ يُظْلِم والمنايا تَلمَعُ
كانت مقالةَ مُؤمنٍ صَدَعَتْ قُوى ... زعمتْ قُريشٌ أنَّها لا تُصدَعُ[(٢)]
بعثَتْ من الأنصارِ كلَّ مُدرَّبٍ ... يَقظِ المضارِبِ والقواضِبُ هُجَّعُ[(٣)]
يا سعدُ ما نَسِيَ العريشَ مُقيمُه ... يحمي غِياثَ العالمين ويمنعُ[(٤)]
لمَّا تَوالَى الزَّحفُ جِئتَ تَحُوطُهُ ... وتَرُدُّ عنه المشركِينَ وتَردع
في عُصبةٍ مِمَّن يَليكَ دَعَوْتَهَا ... فالبأسُ يَدلفُ والحميَّةُ تُسرِعُ
قمتم صفوفًا كالهضابِ يشدُّها ... راسٍ على الأهوالِ ما يتزعزعُ
ولقد رَميتَ بني قريظةَ بالتي ... سَمِعَ المجيبُ فهالكٌ ومُروَّعُ[(٥)]
أحببْ بها من دعوةٍ لك لم تَمُتْ ... حتى أصابك خَيرُها المتوقَّعُ
نقعَ الإلهُ غليلَ صَدرِك إنَّه ... يَشفِي صدور المؤمنين وينقعُ[(٦)]
إن شيعوك فلم تجدني بينهم ... فالخطبُ خطبي والبيانُ مُشيِّعُ
الدهرُ معمورٌ بذكرِكَ آهلٌ ... ما في جوانِبِهِ مكانٌ بَلقَعُ[(٧)]

ولله در حسان بن ثابت حين يقول في رثاء سعد بن معاذ رضي الله عنه:

لَقَدْ سَجَمَت مِن دَمْعِ عَيْنَيَّ عَبْرةٌ ... وحُقَّ لعيني أَن تُفيضَ على سَعْدِ

---

(١) فيه إشارة إلى مناديل سعد بن معاذ في الجنة.

(٢) إشارة إلى مقالته العظيمة للنبي ﷺ عند الخروج إلى بدر.

(٣) المضارب: السيوف. وَهُجَّع: نُوَّم.

(٤) توسل إلى النبي يوم بدر أن يبني له عريشًا على تل يشرف منه على المعركة فقبل، ولما التحم القتال جاء مع جماعة من الأنصار فوقفوا أمام العريش بسيوفهم مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٥) هو الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

(٦) نقع الغليل: سَكَّنَهُ وقطعه.

(٧) بلقع: مُقْفِر.

قتيلٌ سوي في مَعْرَكٍ فُجِعَتْ به عُيونُ ذَوَارِي الدمع دائمةِ الوجدِ
على مِلَّة الرحمن وَارِثُ جَنَّةٍ مع الشهداء وَفدُها أكرَمُ الوَفْدِ
فَإِنْ تَكُ قَدْ ودَّعْتَنَا وتَرَكْتَنَا وأمْسَيْتَ في غبراءَ مُظْلِمةِ اللحدِ
فأنتَ الذي يا سعدُ أُبْتَ بمشهَدٍ كَريمٍ وأَثْوابِ المكارِمِ والمجْدِ
بحُكْمِك في حَيِّ قُرَيْظَةَ بالذي قَضَى اللهُ فيهم ما قَضَيْتَ على عَمْدِ
فوافقَ حُكْمَ اللهِ حُكْمُكَ فيهمُ ولم تَعْفُ إذْ ذَكَّرْتَ ما كانَ مِنْ عَهْدِ
فَإِنْ كانَ رَيْبُ الدَّهْرِ أمضاكَ في الأُلى شَرَوْا هذه الدنيا بجَنَّاتها الخُلْدِ
فَنِعْمَ مَصِيرُ الصادقين إذا دُعُوا إلى اللَّه يَوْمًا للوَجَاهَةِ والقَصْدِ[1]

* * *

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٣٢/٣).

٥٢

السابق إلى الإسلام..

الفارس يوم الحرب والإقدام

البدري.. أول من عَدَا به فرسه،

وأول من قاتل على ظهر فرسه في سبيل الله عز وجل

المقداد بن عمرو الكندي

٥٢

السابق إلى الإسلام.. الفارس يوم الحرب والإقدام البدري..

المقداد بن عمرو الكندي

أول من عَدَا به فرسه،

وأول من قاتل على ظهر فرسه في سبيل الله ﷻ

هو البطل المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر الكندي النهراني، ويطلق عليه المقداد بن الأسود؛ لأنه كان قد حالف «**الأسود بن عبد يغوث الزهري**» فتبناه، أو لأنه رُبّيَ في حجر الأسود، حتى إذا نزلت الآية الكريمة الناسخة للتبني نُسب لأبيه «**عمرو**».

والمقداد من المبكِّرين بالإسلام، وسابع سبعة جاهروا بإسلامهم وأعلنوه، وهم: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سميَّة، وصهيب، وبلال، وبطلنا المقداد.

وحمل المقداد نصيبه من أذى قريش وبطشها ونقمتها، في شجاعة الرجال.. وغبطة الحواريين..!!

وفارسنا له السبق العظيم في ميدان التفاضل، وله أوليات ميمونة على صفحات تاريخنا الزاهر.

فالمقداد أول من عدا به فرسه في سبيل الله - تَعَالَى -.

وقالوا: أول من قاتل على ظهر فرسه المقداد بن الأسود.

وقالوا: أول من استجاب لداعي غزوة ذي قَرَد[1].

---

(١) فرسان حول الرسول، لأحمد خليل جمعة (٢/٤٢٨)، دار الكلم الطيب - دار البشير.

قال عنه الإمام ابن عبدالبر في «**الاستيعاب**»:

«كان المقداد رضي الله عنه من الفضلاء، النجباء، الكبار، الخيار، من أصحاب النبي ﷺ هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة».

□ موقفه العطر المنير الشاهق يوم بدر:

للمقداد بن عمرو موقف شاهق متألق منير، صاغ بكلماته القاطعة الباترة شعار المعركة، وأسهم في تشكيل ضميرها..

هذا الموقف الشامخ لوحة رائعة في سجل الخلود لا ينصل بهاؤها.. تُريك معادن الرجال الذين يصنعون التاريخ ويكتبونه بأحرف من نور يفوح منها شذا أعبق العطور على مر الأيام والدهور..

هذا الموقف الجليل تمنى كل من رآه لو أنه صاحب هذا الموقف المجيد.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه «**لقد شهدت من المقداد مشهدًا لأَن أكون أنا صاحبه أحبَّ إليَّ مما على الأرض من شيء، قال: أتى النبيَّ ﷺ وكان رجلًا فارسًا، فقال: أبشر يا نبي الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﷺ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن والذي بعثك بالحق لنكونن بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك حتى يفتح الله عليك**»[(١)].

وزاد أحمد (١/٣٩٠): «**فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسرَّه ذلك**».

وعند البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه «**قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ **ولكن امض ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ**».

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٥٧، ٤٥٨)، واللفظ له، والبخاري مختصرًا (٤٦٠٩)، وأحمد (١/٣٨٩، ٤٢٨)، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٣٤٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/١١٤).

وعند ابن إسحاق: أن «المقداد قال: يا رسول الله، امض لِمَا أراك الله، فنحن معك لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾**، ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقِّ لو سرتَ بنا إلى «بَرْك الغِماد»، لجالدنا معك من دونه، حتى نبلغه. فقال له رسول اللَّه ﷺ خيرًا ودعا له»**[1].

هذا هو القول لمن يريد أن يكتب التاريخ قوله، وهذا لهراز الحديث لمن يريد حديثًا، هذه كلمات مؤمنَة طيبة صادقة شريفة مشرقة مشرِّفة للمقداد رضي الله عنه، وبلغت هذه الكلمات النيِّرات غايتها من أفئدة المؤمنين.

ما أصدقَ المقدادَ حين يقولها ... حَرَّى وبعض القول نارٌ تَلْفَحُ[2]
إنا وراءك يا محمد نبتغي ... ما اللَّه يُعطِي المتقين ويمنحُ
لسنا بقومِ أخيك موسى إذْ أبوْا ... إلا القعود وسُبَّةٌ ما تُضرَحُ[3]

● قال علي رضي الله عنه: **«ما كان فينا يوم بدر فارسٌ غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول اللَّه ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»**[4].

وقالوا: كان مع المسلمين يوم بدر ثلاثة أفراس: فرس عليه المقداد يُقال له «**سبحة**»، وفرس عليه مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفرس عليه الزبير بن العوام».

وحلق المقداد في غزاة بدر في سماء الفروسية والبطولة عاليًا، وأظهر من ألوان الفروسية ما شهد له به القاصي والداني، واستطاع أن يأسر النضر بن الحارث العبدري حامل اللواء وشيطانًا من شياطين قريش، ومن أكابر مجرميها.

وأمر النبي ﷺ أن يقتل النضر بن الحارث بن كلدة ومعه عقبة بن أبي معيط

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٦١).
وبرك الغِمَاد: موضع على خمس ليال من مكة في طريق اليمن.
(٢) لفحته النار: أحرقته.
(٣) ضرح الشيء: دفعه وَنَحَّاهُ.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٢١٢).

صبرًا. ونَفَّذَ حكم الإعدام في النضر علي بن أبي طالب في موضع يُقال له «**الأثيل**» بوادي الصفراء.

● وفي غزوة أحد أوكل ﷺ إلى كتيبة من الجيش بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد؛ لمساندة الرماة لصد أي هجوم يقوم به الفرسان في أول المعركة»[١] وقام المقداد بمهمته على خير وجه.

شهد المقداد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ[٢]، وكان رضي الله عنه من المسارعين إلى مرضاة الله عز وجل ومرضاة رسول الله ﷺ، وكان له الموقف المشرف يوم غزوة الغابة «**غزوة ذي قَرَد**»، فحين قال رسول الله ﷺ «**الفزع الفزع.. يا خيل الله اركبي**» كان المقداد أول من خفَّ إلى رسول الله ﷺ

هو المقدادُ إن دُعِيتْ نَزَالِ[٣] تقدَّم لا يهابُ ولا يُبالي

● وفي فتح مكة كان الزبير من العوام على المجنبة اليسرى، وكان المقداد على المجنبة اليمنى، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، وهدأ الناس جاءا بفرسيْهما، فقام رسول الله ﷺ يمسح الغبار عن وجههما بثوبه، ثم قال: «**إني جعلت للفرس سهميْن، وللفارس سهمًا، فمن نقصهما نقصه الله**»[٤].

● وكان المقداد رضي الله عنه أحد الرماة المشهورين المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم: سعد بن أبي وقاص، والسائب بن عثمان بن مظعون، وزيد بن حارثة، وحاطب بن أبي بلتعة، وعتبة بن غزوان، وخراش بن الصمة، وأبو طلحة الأنصاري، وقطبة بن عامر، وبشر بن البراء بن معرور، وأبو نائلة سلكان بن

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «أحد»، لباشميل ص (٨٨).
(٢) طبقات ابن سعد (١٦٢/٣).
(٣) نَزَالِ: اسم فعل للأمر؛ بمعنى: انزل.
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٢١٤/٢٥).

سلامة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، وقتادة بن النعمان الظفري»[١].

● ومناقب المقداد رضي الله عنه كثيرة جدًّا، لا تحُصر ولا تُحصى.

ومن جليل مآثره أنه شهد معركة اليرموك، وأبلى فيها بلاء حسنًا، وكان هو القارئ لسورة الجهاد **«سورة الأنفال»** بين الصفوف.

وشهد المقداد كذلك الجابية مع عمر بن الخطاب، وحظي بدعوة مباركة من رسول الله ﷺ، وهي: **«اللهم أطعم من أطعمني، واسقِ من سقاني»**[٢].

كان المقداد كثيرًا ما يُنشد:

أنا الفارس المشهورُ في كل موطنٍ وناصر دينٍ للنبي محمد

وقد شهد المقداد بن عمرو رضي الله عنه فتح مصر[٣]، لما حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون أرسل يطلب المدد من عمر بن الخطاب، فأمده بأربعة آلاف رجل، وكتب إليه **«أما بعد، فإني قد أمددتك بأربعة آلاف، رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد ـ وقال آخرون: ـ بل خارجة بن حذافة الرابع ـ لا يعدون مسلمة ـ وقال عمر بن الخطاب: إن معك اثني عشر ألفًا؛ ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة»**.

وللمقداد في فتح مصر المقامات المشهودة، والبلاء المحمود، ففي بداية إحدى المعارك أراد المسلمون أن ينهضوا إلى العدو، فأخذ المقداد يقول أبياتًا تبعث الحماسة في النفوس، وتشير إلى فروسيته:

أنا المقدادُ في يوم النزال أبيدُ الضدَّ بالسُمر العوالي

وسيفي في الوغى أبدًا صقِيلُ طليق الحدِّ في أهل الضلالِ

---

(١) أنساب الأشراف (١/٣٢٣).

(٢) رواه مسلم في الأشربة برقم (٢٠٥٥) باب: إكرام الضيف وفضل إيثاره. فاقرأ هناك قصة الحديث كاملة في صحيح مسلم.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (٢/١١٢).

معـي مـن آل كـنـدةَ كـلُّ قَـرْمٍ ... يُجيـد الـطعـن في يـوم الـنـزال
فيا ويـل الـعِـدَا والـرُّوم مـنَّـا ... إذا الـتحـم الـفـوارسُ في الـقـتـالِ
وهـم صرعـى كـأعـجـازٍ لـنـخـلٍ ... يُـبَـقِّـعـهـا الـفـوارس بـالـنِّـصـالِ

وغزا المقداد إفريقية مع عبدالله بن أبي سرح سنة سبع وعشرين من الهجرة النبوية.

عن أبي راشد الحُبراني قال: وافيتُ المقدادَ «**فارسَ رسول الله ﷺ**» بـ«**حِمص**» على تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك. فقال: أبتْ علينا سورة البَحُوث ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١][(١)].

❑ «**لأموتَنَّ والإسلام عزيز**»:

لقد كان حب المقداد للإسلام عظيمًا، وكان إلى جانب ذلك، واعيًا وحكيمًا..

والحب حين يكون عظيمًا وحكيمًا، فإنه يجعل من صاحبه إنسانًا عليًا، لا يجد غبطة هذا الحب في ذاته... بل في مسئولياته.

والمقداد بن عمرو من هذا الطراز... فحبه الرسول ﷺ ملأ قلبه وشعوره بمسئولياته عن سلامة الرسول ﷺ، ولم يكن تُسْمَع في المدينة فزعة، إلا ويكون المقداد في مثل لمح البصر، واقفًا على باب رسول الله ممتطيًا صهوة فرسه، ممتشقًا مُهَنَّدَه وحسامه..!!

وحبه للإسلام، ملأ قلبه بمسئولياته عن حماية الإسلام.

كان المقداد رضي الله عنه في سرية فحصرهم العدو، فعزم الأمير أن لا يحسر أحد دابته، فحسر رجل دابته، لم تبلغه العزيمة، فضربه، فرجع الرجل وهو يقول: ما

---

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد، وأبو نعيم في «الحلية»، والحاكم وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي. وسورة البَحوث: هي التوبة، سُميتْ بذلك؛ لبحثها عن المنافقين وهتكها لأستارهم، وعند ابن جرير الطبري: سورة البعوث.

رأيت كاليوم قط! فمرَّ على المقداد فقال: ما شأنك؟ فذكر الرجل له قصته؟ فتقلَّد المقداد السيف، وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال له: أَقِدْهُ من نفسك، فأقاده الأمير، فعفا الرجل، فرجع المقداد وهو يقول: لأموتن والإسلام عزيز[1].

أجل.. كانت أمنيتهُ، أن يموت والإسلام عزيز، ولقد ثابر مع المثابرين على تحقيق هذه الأمنية مثابرةً باهرة مبهرة.

❑ وانظر إلى حكمة المقداد وفطنته وبصيرته:

«مرَّ رجل بالمقداد فقال مخاطبًا للمقداد: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فأقبل عليه المقداد وقال: «**ما يحمل أحدكم على أن يتمنى مشهدًا غيَّبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يصير فيه؟؟ والله، لقد عاصر رسولَ الله ﷺ أقوام كبَّهم الله ﷻ على مناخرهم في جهنم، أولا تحمدون الله الذي جنَّبكم مِثل بلائهم، وأخرجكم مؤمنين بربكم وبنبيكم؟**».

فرضي الله عن فارس الإسلام العظيم.. الحكيم.. صاحب الكلمات النيِّرة القاطعة كحد سيفه وحسامه.

❊ ❊ ❊

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٢٠٩).

٥٣

الفارس المقدام والبطل البدري الهمام..

الذي يأخذ سيف الرسول ﷺ بحقه فيفلق به هام المشركين

أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشَة

شارك في قتل مسيلمة الكذاب وكان يعدلُ ألف فارِس

٥٣

الفارس المقدام والبطل البدري الهمام..
الذي يأخذ سيف الرسول ﷺ بحقه فيفلق به هام المشركين

أبو دجانة سِمَاك بن خَرَشَة

شارك في قتل مسيلمة الكذاب وكان يعدلُ ألف فارِس

هو أبو دجانة الأنصاري سماك بن خرشة.. أحد أبطال الإسلام..

شجاع مغوار لا يُشقُّ له غبار..

له المواقف العظيمة في الجهاد.

❑ **في غزوة بدر ...**

كانت له البطولة والشجاعة الفائقة، فقد قتل من شجعان المشركين أبا مسافع الأشعري حليف بني مخزوم(١). وقتل عامر بن عوف بن ضبيرة أخا عاصم بن ضبيرة(٢). وقتل من بني سهم أبا العاص بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم(٣).

❑ **أبو دجانة في أحد..**

بطل هذا اليوم الذي سطر اسمه في التاريخ بأحرف من نور:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال: «**من يأخذ مني هذا**»، فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: «**فمن يأخذه بحقه؟**» قال: فأحجم القوم، فقال سِمَاك بن خَرَشَة أبو دجانة: أنا آخذه بحقه قال: فأخذ ففلق به هام المشركين»(٤).

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «بدر» لباشميل ص (١٨١).

(٢) ، (٣) المصدر السابق ص (١٨٣، ١٨٢) على الترتيب.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٧٠)، وعبد بن حميد (١٣٢٥)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/٢/١٠١).

تَـلَـقَّ أبـو دجـانـة بـالـيـمـين ... حُسامَكَ من يد الهادي الأمينِ
وخُـذْه بـحـقِّـه في غـيـر لـيـنِ ... لتنصُرَ في الكريهةِ خيرَ دينِ
ترفُّ على الدُّنا ظِلًّا ظليلًا
نـصـيـبـك نَـلْـتـه مـن فَـضَـلِ ربٍّ ... قضاهُ لصادق النَّجِدَات ضَرْبِ[1]
تـخـطى القوم من آلٍ وصـحـب ... فكان عليك عَضْبًا فوق عَضْبِ
تـبـخـتـر[2] وامـضِ مـسـنـونًـا صـقـيـلًا

«قال ابن إسحاق: قاتَل أبو دجانة حتى أمْعَن في الناس.

قال ابن هشام: «حَدَّثني غير واحدٍ من أهل العلم أن الزبير بن العوَّام قال: وجدتُّ في نفسي حين سألت رسول اللَّه ﷺ السيف فَمَنَعَنِيهِ وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش، وقد قمتُ إليه وسألتُه إياه قبله، فأعطاه أبا دجانة، وتركني! واللَّه لأنظرنَّ ما يصنع، فاتَّبَعتُه، فأخرج عصابةً له حمراءَ، فعصب بها رأسَه، فقالتِ الأنصار: أخرج أبو دجانة عِصَابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب، فخرج وهو يقول:

أنـا الـذي عـاهـدنـي خـلـيـلـي ... ونـحـنُ بـالـسَّـفْـحِ لـدَى الـنَّـخـيـلِ
أن لا أقومُ الدهرَ في الكَيُّول[3] ... أضـرب بـسـيـفِ الـلـهِ والـرسـولِ

فجعل لا يَلقَى أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجلٌ لا يدعُ جريحًا إلَّا ذفَّف[4] عليه، فجعل كلٌّ منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ اللَّه أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتينِ، فضرب المشركُ أبا دجانة، فاتَّقاه بدرَقَتِه، فعضَّتْ بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله»[5].

---

(١) الضَّرْب من الرجال: الماضي في الأمور.
(٢) كان أبو دجانة يختال ويتبختر عند الحرب.
(٣) الكَيُّول: مؤخر الصفوف.
(٤) ذفف عليه؛ أي: أجهز عليه.
(٥) البداية والنهاية (١٧/٤، ١٨).

رحمك الله، ورضي عنك يا أبا دجانة.. يا صاحب عِصابة الموت.. يا مَنْ لا تقوم الدهَر في الكيول، بل تفلق هامَ المشركين.

أمَّا نحن، فتُفلق هامُنا.. وتصبغ العصابات من دمانا وأعراض نسائنا.

قد استردَّ السبايا كلُّ منهزمٍ   لم تبقَ في أسْرِهَا إلا سَبَايَانَا
وما رأيتُ سياطَ الذلِّ داميةً   إلا رأيتُ عليهم لحْمَ أسْرَانا
وما نموتُ على حدِّ الظُّبا أنفًا   حتى لقد خجلَتْ منَّا مَنَايانا

❑ في أحد لله درك . أبا دجانة . من بطل:

«نجح النبي ﷺ في التعويض عن النقص العددي في رجاله، باختياره نخبة ممتازة من صناديد المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف وجعلهم في مقدمة الصفوف؛ ليكونوا طليعة جيشه حين تلتحم الجموع.

وفي مقدمة هؤلاء حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وأبو بكر الصديق، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيدالله، وعبداللَّه بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأبو دجانة، وأنس بن النضر، وأمثالهم من أهل النجدة والبأس واليقين»[١].

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا مهيبًا مشهورًا، يختال ويتبختر في مشيته عند الحرب، وأخرج أبو دجانة عصابة الموت وعصب بها رأسه، واختال بين الصفين.

لقد كان أبو دجانة هو الركن الثاني من أركان المعركة بعد حمزة رضي الله عنه، وقد أبلى في يوم أحد بلاءً عظيمًا، فكان يوم أحد لا يقوم له أحد، وقد كان لبسالته أثر عظيم في اندحار المشركين في الصفحة الأولى من المعركة.

قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين «**أي: بعد الانتكاسة**» قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة «**أي استكمل عدة حربه**» يجوز المسلمين وهو يقول:

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «أحد» لباشميل ص (٨٦، ٨٧).

«**استوسقوا كما استوسقت جزر النعم**»، وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أفضلهما عدَّة وهيأة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرَّق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟؟ أنا أبو دجانة»[1].

فاختيار النبي ﷺ أبي دجانة وإعطاؤه السيف من بين جميع أصحابه يدلُّ على خبرته العظيمة بالرجال، ومعرفته كيف يختار الأكفاء في المواطن الحرجة والساعات الدقيقة من المعارك الفاصلة.

❑ كاد يقتل هند بنت عتبة:

كاد أبو دجانة أن يقتل هند بنت عتبة زوج القائد العام لجيش مكة..

يقول أبو دجانة رضي الله عنه: «**رأيت يوم أُحد إنسانًا يحمِّس الناس حماسًا شديدًا فصمدت له، فلما حملت عليه بالسيف ولول** «**أي: صاح صيحة الفزع**» فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول اللَّه ﷺ أن أضرب به امرأة، وكانت المرأة هند بنت عتبة».

قال الزبير بن العوام: «**رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق هند بنت عتبة، ثم عدل عنها**»[2].

❑ بطولة نادرة

قال الأستاذ محمد أحمد باشميل: «من الذين أبلوا بلاءً حسنًا وأظهروا بطولة نادرة في الدفاع عن الذات النبوية الحبيبة ساعة المحنة، أبو دجانة الأنصاري الذي أعطاه الرسول ﷺ سيفه في بداية المعركة.

فقد كان أبو دجانة من الخلصاء الأبطال الذين ثبتوا مع النبي ﷺ ساعة الشدة،

---

(١) البداية والنهاية (١٧/٤).

(٢) موسوعة الغزوات الكبرى «أحد»، لباشميل ص (١١١، ١١٢).

فقد أقام أبو دجانة من نفسه سورًا؛ ليقي رسول الله ﷺ وقع السهام المنهالة عليه. فقد ترسَّ بنفسه دونه معرضًا جسمه لسيل نبال العدو المنهمر من أقواس المشركين.

وقد ذكر المؤرخون أن نبال المشركين المصوبة نحو رسول الله ﷺ كانت تقع في ظهر أبي دجانة البطل وهو مسورٌّ نفسه على رسول الله ﷺ وكان لا يأبه لها مع أنها تغرز في ظهره بكثرة حتى إن بعض المؤرخين شبَّه ظهر أبي دجانة ـ **لكثرة السهام المزروعة فيه ساعة وقوفه دون رسول الله ﷺ ـ بظهر القنفذ** ـ[1].

ولله در القائل في أبي دجانة وموقفه النبيل الفريد يوم أُحُد:

مَنِ البطلُ المُعَصَّبُ يختليها[2] ... رِقابًا ما يَملُّ الضَّرب فيها

بأبيضَ تتقيه ويعتريها ... وتكرهُ أن تراهُ ويَشتهيها

لها مِن حدِّه والٍ يليها ... ويَنْتَزِعُ الحكومةَ من ذويها

بررتَ ـ أبا دجانةَ ـ إذ تُريها ... وحِيِّ[3] الموتِ تطعمه كريها

صدرت عن السفيهة[4] تزدريها ... وتكرم سيفك العف النزيها

تولول للمنية تقيها ... فإنها يا ابنة الهجاء إيها

نجوت ولو رآك له شبيها ... مضى العَضْب[5] المشطَّب ينتضيها

حياة مناجز ما يبتغيها ... إذا شهد الكريهة يصطليها

ولله در القائل في أبي دجانة أيضًا:

سَلِمتْ يداكَ ـ أبا دجانةَ ـ من فتًى ... وَسْمُ المَنِيَّة من حِلَى صَمْصَامِهِ

أحسنتَ ذبحَ المشركين فأشبهوا ... ما يذبحُ الجزَّارُ من أنعامِهِ

---

(١) المصدر السابق ص (١٤٠).

(٢) يختليها؛ أي: يجزها أو ينزعها تشبيهًا لها بالخلا الرطب إذا فُعِلَ به ذلك.

(٣) الْوَحِيُّ: السريع.

(٤) هند بنت عتبة، وكانت إذْ ذاك كافرة، وأسلمت بعد ذلك وَحَسُنَ إسلامها.

(٥) العضب المشطب: السيف به خيوط من أثر الضرب.

قال الإمام ابن قدامة المقدسي عن أبي دجانة: «**كان بطلا شجاعًا، بُهْمَة**[١] **من البُهم، له المقامات المحمودة في مغازي رسول الله ﷺ، وكان يمشي بين الصفين، يختال في مشيته سجيَّة**»[٢].

وقال الإمام النووي في «**تهذيبه**» عنه: «**كان من الأبطال الشجعان المعروفين**»[٣].

وذكره أبو الفتح ابن سيد الناس فقال: «من كبار الأنصار، وكان أحد الشجعان رضي الله عنه له مقامات محمودة في مغازي رسول الله ﷺ»[٤].

وقال ابن كثير في «**تاريخه**» عن بطلنا: «**شهد بدرًا، وأبلى يوم أحد، وقاتل قتالًا شديدًا، وأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ سيفًا فأعطاه حقه، وكان يتبختر عند الحرب**»[٥].

قال ابن سعد في «**الطبقات**»: «آخى **رسول الله ﷺ بين أبي دجانة، وعتبة بن غزوان**»[٦].

❑ مشاهده ومغازيه الأخرى

شهد أبو دجانة رضي الله عنه المغازي النبوية جميعها، وفي شهر ربيع الأول من السنة الرابعة الهجرية أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب يهود بني النضير وقتالهم، فسار أبو دجانة لقتالهم، فحاصرهم المسلمون، وملأ الرعب قلوب بني النضير، واشتد الحصار عليهم، وصالحهم رسول الله ﷺ على الجلاء، فخرجوا، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة.

---

(١) البهمة: البطل الشجاع، وقيل: البهمة هو الفارس الذي لا يُدرى من أين يُؤتى له من شدة بأسه، وهي صفة مدح.

(٢) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، لابن قدامة المقدسي ص (١٠١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٢٧).

(٤) انظر: منح المدح، لابن سيد الناس ص (١٢١).

(٥) البداية والنهاية (٦/٣٣٧).

(٦) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٦).

وفي أثناء حصار النبي ﷺ لبني النضير استدعى اليهود أحد رماتهم المشهورين، وكان أعسر راميًا شديد النزع، يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فطلبوا منه أن يجعل خيمة الرسول ﷺ هدفًا لنباله ففعل، وأخذت نبال هذا اليهودي تتساقط على خيمة النبي القائد، وعند ذلك أمر النبي ﷺ بنقل مقر قيادته إلى مكان يكون في مأمن من نبال هذا اليهودي الرامي.

وقد قام علي بن أبي طالب بقتل هذا اليهودي الرامي واسمه (غزول)، وذلك أن غزولًا هذا كان من شجعان بني النضير، فقد خرج في عشرة من أصحابه لعله يصيب غرة من المسلمين، فوقع في كمين نصبه له علي بن أبي طالب مع سهل بن حنيف وأبي دجانة فشدَّ عليٌّ على غزول اليهودي فقتله، ثم شد أبو دجانة وأصحابه على الباقين فقُتلوا جميعهم وعددهم عشرة، وأتى علي بن أبي طالب رضي الله عنه برأس ذلك اليهودي الرامي إلى مقر القيادة النبوية[(١)].

☐ أبو دجانة قائد وحدات المسلمين التي تستولي على حصن أُبيّ بخيبر:

استبسل اليهود في معارك النطاة وبعدها، فقد استماتوا في الدفاع عن قلعة أبيّ وقاتلوا المسلمين أشد قتال[(٢)].

وقد بلغت الضراوة باليهود في القتال؛ للدفاع عن قلعة «أُبيّ» إلى أن يفتحوا أبواب هذه القلعة مستهينين بالموت ومعتدين بأنفسهم ومتحدِّين قوات المسلمين المحيطة بهم، وذلك بدعوة فرسان هؤلاء اليهود المسلمين إلى المبارزة خارج القلعة[(٣)].

ولننظر إلى ما قاله الواقدي إمام المغازي عن بطلنا أبي دجانة:

«لما تحوَّل رسول اللَّه ﷺ إلى الشق، وبه حصون ذات عدد، كان أول حصن

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «غزوة الأحزاب»، لباشميل ص (٥٧).

(٢) السيرة الحلبية (٢/١٦٥).

(٣) موسوعة الغزوات الكبرى «خيبر»، لباشميل ص (١٥٠).

بدأ منها حصن أبيّ، فقام رسول اللَّه ﷺ على قلعة يقال لها «**سمران**»[1] فقاتل عليها أهل الحصن قتالًا شديدًا، وخرج رجل من اليهود يُقال «**غزَّال**»[2] فدعا إلى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب، فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزَّال، فكان أعزل، ورجع منهزمًا فوقع، فذفف عليه، وخرج آخر فصاح: مَن يبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جحشي، فقُتِل الجحشي، وقام مكانه يدعو إلى البراز، ويبرز له أبو دجانة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المِغفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجليه، ثم ذفف عليه وأخذ سلبه، درعه وسيفه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فنفله رسول اللَّه ﷺ ذلك، وأحجموا عن البراز، فكبَّر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، يتقدمهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثًا ومتاعًا وغنمًا وطعامًا، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجدر كأنهم الظباء[3] حتى صاروا إلى حصن النزار[4] بالشق، وجعل يأتي من بقي من قلل النطاة إلى حصن النزار فغلقوا وامتنعوا فيه أشد الامتناع[5].

لله درك أبا دجانة، وسلمت يمينك، ورضي اللَّه عنك.

❑ البطل أبو دجانة يوم حنين:

ويوم حنينٍ كان يومًا مشهودًا لأبي دجانة، وهو من سادات المئة الصابرة التي تثبتت مع رسول اللَّه ﷺ يوم حنين: «**ومما لا خلاف فيه أن هوازن بعد تراجع المسلمين إلى الميدان قد قاتلت قتالًا ضاريًا، وكان فيهم رجال قد أكثروا القتل في المسلمين بشراسة، ولا أدلَّ على ذلك من هذه القصة التي رواها المؤرخون عن أن**

---

(١) في البداية والنهاية (١٩٨/٤): (سموان).

(٢) في السيرة الحلبية: غزوال.

(٣) في البداية والنهاية (١٩٨/٤): «كأنهم الضباب».

(٤) في البداية والنهاية (١٩٨/٤): «البزاة».

(٥) مغازي الواقدي (٦٦٧/٢، ٦٦٨).

رجلًا من هوازن على جمل له يهبر المسلمين بسيفه حتى أكثر القتل فيهم إلى أن تعاون عليه علي بن أبي طالب وأبو دجانة فقتلاه».

ورجل يتعاون على قتله ألمع فارسين في المهاجرين والأنصار لهو رجل فاتك شجاع ما في ذلك شك، فعليٌّ فارس المهاجرين، وأبو دجانة فارس الأنصار وصاحب سيف رسول اللَّه ﷺ يوم أحد وصاحب المواقف البطولية المشهودة في ذلك اليوم.

قالوا: **«في وصف فعل الهوازني الأفاعيل بالمسلمين»: «كان رجل من هوازن على جمل أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح له طويل أمام الناس، إذا أدرك طعن، قد أكثر القتل في المسلمين، فيصمد له أبو دجانة، فعرقب جمله، فسمع خرخرة جمله، واكتسح الجملَ، وشدَّ عليٌّ وأبو دجانة عليه، فيقطع عليٌّ يده اليمنى، ويقطع أبو دجانة يده الأخرى، وأقبلا يضربانه بسيفيهما جميعًا حتى تثلم سيفاهما فكفَّ أحدهما، وأجهز الآخر عليه، ثم قال أحدهما لصاحبه: امض لا تعرَّج على سلبه، فمضيا يضربان أمام النبي ﷺ، ويعترض لهما فارس من هوازن بيده راية حمراء، فضرب أحدهما يد الفرس، ووقع لوجهه، ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سلبه، ويمرُّ أبو طلحة فسلب الأول، ومرَّ بالآخر فسلبه»**[1].

لقد سجل أبو دجانة أضوأ الآثار في عصر النبوة وفي المغازي النبوية أمام رسول اللَّه ﷺ وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن بايعوا رسول اللَّه ﷺ على الموت.

❑ الفوز العظيم لأبي دجانة نيله الشهادة يوم اليمامة، ومشاركته في قتل مسيلمة الكذَّاب

قال الواقدي: ثبت أبو دجانة يوم أحد مع النبي ﷺ وبايعه على الموت، وهو ممن شارك في قتل مسيلمة الكذَّاب، ثم استشهد يومئذ[2].

---

(١) موسوعة الغزوات الكبرى «غزوة حنين»، لباشميل ص (١١١).

(٢) ابن سعد (١٠٢/٢/٣)، والحاكم (٢٢٩/٣).

عن أنس بن مالك قال: رمَى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة، فانكسرتْ رجلُه، فقاتل وهو مكسورُ الرِّجل حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

شهد أبو دجانة معركة اليمامة، وأبلى فيها أحسن بلاءٍ وأكرمه، وجعل يضرب المرتدين بسيفه عن يمينه، وعن شماله، ومن بين يديه، ويعانق الرجل فيصرعه، وما يتكلم بكلمة حتى أفرجوا عنه، وعند ذلك نادى المسلمين: إليَّ عباد الله! فكرُّوا عليه، فدفعوا بني حنيفة حتى ألجئوهم إلى الحديقة فدخلوا فيها. فقال أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: احملوني، فألقوني عليهم حتى أشغلهم عنكم، فألقوه عليهم، وقد انكسرت رجله، فضاربهم حتى فتح الباب للمسلمين، فدخلوا عليه، ولم يزل يُقاتل حتى قتل شهيدًا يومئذ.

وقد شارك في قتل مسيلمة الكذَّاب مع وحشي بن حرب الذي رماه بالحربة، وقد علاه أبو دجانة بالسيف، قال وحشي: فربك يعلم أيَّنا قتله.

فرضي اللَّه عن أبي دجانة سماك بن خرشة بن لوذان الساعدي، الخزرجي، الأنصاري، البدري، شهيد اليمامة.

* * *

(١) أُسْد الغابة (٢/٤٥٢)، وسير أعلام النبلاء (١/٢٤٤).

٥٤

البطل البدري
أبو طلحة الأنصاري

صوته في الجيش خير من ألف رجل.. فكيف زنده وكيف نبله؟!

٥٤

البطل البدري ..

أبو طلحة الأنصاري

صوته في الجيش خير من ألف رجل.. فكيف زنده وكيف نبله؟!

هو الصحابي الجليل زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الخزرجي البخاري، من بني أخوال رسول اللَّه ﷺ، وأحد أعيان البدريين، وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة.

مناقبه كثيرة وله من فوائد المآثر ما تزدان به الصفحات، وما تصقل به النفوس. وإليك طاقة من زهر رياضه اليانعة. فهو رضي الله عنه القائل:

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكل يوم في سلاحي صيد[(١)]

أسلم هذا البطل على يد زوجه أم سليم، فكان في ميزان حسناتها. وكان مهرها أكرم مهر:

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب أبو طلحة أمَّ سُلَيم، فقالت: واللَّه ما مثلك يا أبا طلحة يُرَدُّ ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مُسلمةٌ ولا يحلُّ لي أن أتزوجك، فإن تُسْلِم فذاك مهري وما أسألك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرُها.

قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أمِّ سليم الإسلام، فدخل بها، فولدت له[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء أبو طلحة يخطب أم سليم فقالت: إنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركًا، أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان

---

(١) الإصابة (١/٥٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٦/١١٤).

النجار، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت؟ قال: فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك موقعًا. قال: وجعل لا يجيئها يومًا إلَّا قالت له ذلك. قال: فأتاها فقال: الذي عرضت عليَّ قد قبلت قال: فما كان لها مهر إلا إسلام أبي طلحة[١].

❑ صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل:

هذه ميزة خصَّ النبي ﷺ بها أبا طلحة، فليست لأحد قبله، وليست لأحد بعده.. فكيف زنده؟ فكيف نبله؟ فكيف سهمه وسيفه؟

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَصَوْتُ أبي طلحة أشدُّ على المشركين من فئة**»[٢].

وقال ﷺ: «**لصوت أبي طلحة في الجيش خيرٌ من فئة**»[٣].

والفئة: الفرقة والجماعة من الناس في الأصل، والطائفة التي تقيم وراء الجيش، فإن كان عليهم خوف أو هزيمة التجئوا إليهم، كما في «**النهاية**».

وعن جابر وعن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/٣١٢).

وأم سُليم بنت ملحان أخوها حرام بن ملحان، وابنها أنس بن مالك، واختلف في اسمها؛ فقيل: سهلة. وقيل: رملة. وقيل: رميصة. وقيل: مليكة. وقيل: الغميصاء أو الرميصاء.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/٢٠٣)، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٩١٦): وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/١١١، ١١٢، ٢٦١)، وابن سعد (٣/٥٠٥)، والحاكم (٣/٣٥٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠٩)، والخطيب في «التاريخ» (١٣/٢٢٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦/ ١/٣١٠) عن أنس مرفوعًا به، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩١٦).

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم، وقال: رواته عن آخرهم ثقات.

قال الألباني في «الصحيحة» (١٩١٦): «قلت: ابن عقيل فيه كلام من قِبَل حفظه، وهو حسن الحديث إن شاء الله ـ تَعَالَى ـ، لا سيما عند المتابعة؛ كما هنا»، وَصَحَّحَ الحديث الألبانيُّ في «صحيح الجامع» رقم (٥٠٨١).

وكان رضي الله عنه صيِّتا، وهو الشجاع رابط الجأش الذي ينعس بين الصفين، لله دره.

عن أنس قال: قال أبو طلحة: «**لقد سقط السيف مني يوم بدر، لما غشينا من النعاس**»(١).

فالنعاس في الحرب إذًا شجاعة واطمئنان، وصبر وثبات، وإيمان راسخ، ويقين لا يداخله جزع، ولا يهزُّه هلع.

وتكرَّر هذا منه يوم أحد:

عن أنس عن أبي طلحة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «**كنتُ فيمن تغشَّاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه**»(٢) قال الحافظ في «**الفتح**» (٤٢٢/٧): «قال ابن إسحاق: أنزل اللَّه النعاس أمنة لأهل اليقين، فهم نيام لا يخافون، والذين أهمتهم أنفسهم أهل النفاق في غاية الخوف والذعر. قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: وحصول النعاس حال التحام الحرب دليل على طمأنينة القلب بنصر اللَّه وتأييده، وتمام توكلها على خالقها وبارئها».

وتحدث أبو طلحة بهذه المنة العظمى؛ شكرًا لله ـ تَعَالَى ـ في تثبيته لقلوب المؤمنين وهم يخوضون معركة فاصلة؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢٩/٤)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٠/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٨)، كتاب المغازي ـ باب ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أبو طلحة.. وما أدراك ما أبو طلحة يوم أحد:

لما تكالب المشركون حول النبي ﷺ يوم أحد؛ لقتله، كان لرماة النبل من الصحابة أكبر الأثر في صد المشركين والدفاع عن النبي ﷺ، وكان أبو طلحة من الرماة الذين اشتهروا بالاستماتة في الدفاع عن رسول اللَّه ﷺ في تلك الساعة العصيبة من المعركة، وكان لنباله الحادة الصائبة أبلغ الأثر في حماية الرسول ﷺ من أذى المشركين.

عن أنس رضي الله عنه قال: «**لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوِّبٌ**[١] **به عليه بجحفة**[٢] **له، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد القدِّ**[٣] **يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي اللَّه بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك بهم من سهام القوم، نحري دون نحرك.**

ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان القِرَبَ على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثًا»[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى يشرف النبي ﷺ فينظر إلى موضع نبله**»[٥].

وعند عبد بن حميد «**وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ بيده ويقول: يا رسول هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور**

---

(١) مُجَوِّب؛ أي: مترس عليه، يقيه بها.

(٢) الجحفة: الترس، ويقال للترس أيضًا: جوبة.

(٣) القدُّ: سير من جلد غير مدبوغ؛ يريد: أنه شديد وتر القوس.

(٤) أخرجه البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨١١).

(٥) أخرجه البخاري (٢٩٠٢)، كتاب الجهاد والسير ـ باب المجن، وأخرجه أحمد (٣/٢٦٥).

نفسه بين يدي رسول اللَّه ﷺ يقول: يا رسول اللَّه إني قوي جلد فوجِّهني في حوائجك وابعثني حيث شئت»(١).

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم أُحُد: «**من قتل كافرًا فله سلبه، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلًا**»(٢).

وعن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم حُنين: «**من قتل قتيلًا فله سلبه، فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا، وأخذ أسلابهم**»(٣).

● **وبعد النبي يغزو في البحر ويموت شهيدا:**

هذا الفارس التقي الصالح ضُرِب به المثل في الصيام، وعلو همته فيه.

فعن أنس بن مالك: «**أن أبا طلحة سرد الصوم بعد وفاة رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ أربعين سنة، لا يفطر إلا يوم فطْرٍ، أَوْ أضحَى، أو في مَرَضٍ**»(٤).

يا لله.. واللَّه إن هذا أغرب من الخيال.. وهؤلاء فرسان الصحابة سادات العبَّاد، والرجال.

عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فقال: ألا أرى ربي يستنفرني شابًّا وشيخًا؟ جهزوني. فقال له بنوه: قد غزوت مع رسول اللَّه ﷺ حتى قُبض، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت

---

(١) المنتخب، لعبد بن حميد (١٣٤٥)، وسندها صحيح.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٣/٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧١٨) في الجهاد ـ باب في السلب يُعطى للقاتل، والدارمي (٢/ ٢٢٩)، وابن سعد (٥٠٥/٣)، وَصَحَّحَهُ الحاكم (٣٥٣/٣)، ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٦٥/٢/٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٣/٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.
وله طريق أخرى عن أنس أخرجها ابن سعد هناك أيضًا وفيها: «... فما أفطر بعده إلا في مرض أو سفر حتى لقي الله».

مع عمر، فنحن نغزو عنك. فقال: جهزوني، فجهزوه، فركب البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام، فلم يتغير»[(١)]. وهذا موت في سبيل الله، وهو شهادة:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تقولون في الشهيد فيكم؟ قالوا: القتل في سبيل الله، قال: إن شهداء أمتي - إذن - لقليل، من قُتِل في سبيل اللَّه فهو شهيد، ومن مات في سبيل اللَّه فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغَرِق شهيد**»[(٢)].

● ومنقبة ومفخرة لأبي طلحة رضي الله عنه نوردها هنا:

عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ رمى جمرة العقبة، ثم انصرف إلى البدن فنحرها، والحجَّام جالس، وقال بيده على رأسه فحلق شقه الأيمن، فقسَّمه فيمن يليه ثم قال: «**احلق الشق الآخر**»، فقال: أين أبو طلحة؟ فأعطاه إياه»[(٣)].

● وأم سليم زوجه على نهجه.. وهي من أهل الجنة:

عن جابر بن عبداللَّه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أُريت الجنة فرأيت امرأة أبي طلحة، ثم سمعت خشخشة أمامي، فإذا بلال**»[(٤)].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «**دخلت الجنة فسمعت خَشْفَةً فقلت من هذا؟**

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى (٦/١٣٨)، وأخرجه الحاكم (٣/٣٥٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وسكت عليه الذهبي، وأخرجه ابن حبان (٢٢٥١)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/٢/٦٦).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٠٢)، و«أحكام الجنائز» ص (٣٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم ص (٩٤٧)، والترمذي في الحج باب (٧٣) حديث (٩١٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود (١٩٨١)، وعزاه المزي للنسائي، وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (١٢١٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/٢/٦٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٥٧)، وأبو يعلى (٤/٥١)، وأحمد (٦/٣٨٩، ٣٩٠)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (٢٧٩).

«**قالوا: هذه الغميصاء بنت مِلْحان أم أنس بن مالك**»(١).

وعن أنس قال: كان النبي ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه، إلا أم سليم، فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك فقال: إني أرحمها؛ قُتِل أخوها معي»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: «أن أم سُلَيم اتخذت يوم حنين خِنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول اللَّه ﷺ: «**ما هذا الخنجر**». قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول اللَّه ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله، اقتل مَن بَعْدَنا من الطلقاء(٣)، انهزموا بك(٤)، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**يا أم سُليم، إن اللَّه قد كفى، وأحسن**»(٥).

وفي موقف أم سُليم والثناء على زوجها أبي طلحة قال الشاعر:

لأُمِّ سُليمٍ يا أبا طَلْحَةَ العُذْرُ ... وهل يأمنُ الإسلامُ أن يغدُرَ الكفرُ
سألت فقالت: خنجري أتَّقِي به ... أذى كلِّ عادٍ من خلائِقهِ الغدرُ
أَشُقُّ به في حومة الحرب بَطْنَهُ ... إذا رامني بالسوءِ واستوعَر الأمرُ
أتعجب منها: كيف تحمي ذِمارَها ... وَتدْرأُ عنها الشَّرَّ إن هاجها الشَّرُ
وتدعو رسولَ اللَّه هل أنتَ سامِعٌ؟ ... فيفرح من رَجْعِ الحديث وَيَفْتَرُّ
نعم أنت تحميها ولكنَّ نفسَها ... لها نخوةٌ من ذاتها وبها كِبْرُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٦)، وأحمد (٣/٢٣٩، ٢٦٨)، وأبو يعلى (٦/٢٢٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٣٤٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٨/٣١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥٥).

(٣) هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم «الفتح»، سُموا بذلك؛ لأن النبي ﷺ مَنَّ عليهم وأطلقهم؛ فظنت أم سليم بأنهم منافقون.

(٤) انهزموا بك؛ أي: انهزموا عنك أو انهزموا بسببك؛ لنفاقهم.

(٥) أخرجه مسلم (١٨٠٩)، وابن سعد في «الطبقات» (٨/٣١١).

ألم تر إذ قالت: أأقتل معشرًا ... تَوَلَّوْا، فلا بأسٌ شديدٌ ولا صبرُ؟
وماذا عليها حين تكفيك أمرها ... وترمي بك الأبطالَ، والنَّقْعُ مُغْبَرُّ؟
أرادَتْكَ للأمرِ الجليلِ، ولن ترى ... كأمِّ سُلَيْم حُرَّةً حازها حُرُّ
ألم تَنْتَظِمْ بالسيف عشرينَ فارسًا ... مغانِمُهُم شتى، وأسلابُهُم كُثْرُ[1]
إذا طار منهم مُدْبِرٌ يَتَّقِي الرَّدَى ... تَلَقَّاكَ منه في مَطَارِ الرَّدى الصَّدْرُ
تخوضُ الدمَ المسفوكَ، لا جسْرَ دُونَه ... ومالَكَ كالإيمان في مثله جِسْرُ
أبا طلحة اسمع ما يقولُ ابنُ حرَّةٍ ... إليه سرى من صَفْحَتَيْ جَارِهِ الْبِشْرُ[2]
يقول: اطعني أماه من شئت وانصري ... ببأسك دينا من كتائبه النصر
فحييت عبداللَّه ما أنت كالذي ... يرى السيف مقروبًا فيأخذه الذعر
كلا أبويك استنَّ سُنَّةَ ماجد ... فطبت وطابا، لا خفاءٌ ولا نكرُ
إذا التمس الإسلام في كلِّ حادث ... يضيق به ذُخرًا، فأنت له ذُخْرُ

❊ ❊ ❊

(١) قَتَلَ أبو طلحة في غزوة حنين عشرين رجلًا من المشركين.
(٢) كانت أم سليم حاملًا بابنها عبدالله حين استلت هذا الخنجر وقالت ما قالت، والمقصود بابن الحرة هنا عبدالله، وجاره المذكور في هذا البيت هو الخنجر.

٥٥

شهيد اليمامة

«مَن حَمِد رسولُ اللَّه ربَّهُ أَنْ جَعَلَهُ في أمته

الحافظ القاري، والإمام الجاري، والمحب لربه الباري

الصحابي البدري

سالم بن مَعْقِل مولى أبي حذيفة

- رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا -

٥٥

شهيد اليمامة، «مَن حَمِد رسولُ اللَّه ربَّهُ أنْ جَعَلَهُ في أمته الحافظ القاري، والإمام الجاري والمحب لربه الباري، الصحابي البدري

سالم بن مَعْقِل مولى أبي حذيفة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -

• من السابقين الأولين البدريين المقرَّبين العالمين[١].

قال موسى بن عقبة: هو سالم بن مَعْقَل. أصله من إصطخْر - والى أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وإنما التي أعتقته هي ثُبيْتة بنت يعار الأنصارية زوجة أبي حذيفة بن عتبة، وتبناه أبو حذيفة، وزوَّجَهُ ابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة.

كان سالم رضي الله عنه ملتقى لكل فضائل الإسلام الرشيد... كانت الفضائل تزدحم فيه وحوله... وكان إيمانه العميق الصادق يُنسِّقها أجمل تنسيق... لله در هذا الصحابي الكبير الذي كان إمامًا للمهاجرين من مكة إلى المدينة طوال صلاتهم في مسجد قُباء، وكان حُجَّة في كتاب الله، حتى أمر النبي ﷺ أن يتعلموا القرآن منه.

عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**لما قدم المهاجرون الأولون العُصبة - موضع بقباء - قبل مقدم رسول اللَّه ﷺ كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآنًا**»[٢].

وعن البخاري أيضًا[٣]: «**كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين،**

(١) سير أعلام النبلاء (١/١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢)، وأبو داود (٥٨٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/١/٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٧٦، ١٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٧٥).

وأصحاب النبي ﷺ في مسجد قباء، فيهم أبو بكر، وعمر، وأبو سلمة، وزيد، وعامر ابن ربيعة»[(١)].

وعن عبدالله بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ: «**سمعت النبي ﷺ** يقول: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبَيٍّ، ومعاذ بن جبل**»[(٢)].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت أبطأت على عهد رسول الله ﷺ ليلة بعد العشاء، ثم جئتُ، فقال: «**أين كُنْتِ؟**» قلت: كنتُ أستمعُ قراءة رجل من أصحابك، لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام، وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إليَّ، فقال: «**هذا سالم مولى أبي حذيفة، الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا**»[(٣)].

وفي لفظ آخر: «**استبطأني رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ما حبسك؟ قلتُ: إن في المسجد لأحسنَ من سمعتُ صوتًا بالقرآن، فأخذ رداءه، وخرج يسمعه، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة، فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك»**»[(٤)].

وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفًا فاحتبيت بحمائله، فقال رسول**

---

(١) استشكل ذكر أبي بكر فيهم؛ إذ في الحديث أن ذلك كان قبل مقدم النبي ﷺ، وأبو بكر كان رفيقه. قال الحافظ في «الفتح» (١٦٨/١٣): «ذكرت جواب البيهقي بأنه يحتمل أن يكون سالم استمر يؤمهم بعد أن تحوَّل النبي ﷺ إلى المدينة ونزل بدار أبي أيوب قبل بناء مسجده بها؛ فيحتمل أن يُقال: فكان أبو بكر يصلي خلفه إذا جاء إلى قباء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٦)، ومسلم (٢٤٦٤)، والترمذي (٣٨١٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في «الفضائل» (١٧٤)، وأخرجه أحمد (١٨٩/٢، ١٩٥).

(٣)، (٤) إسناده جيد: أخرجه ابن ماجه (١٣٣٨)، وأحمد (١٦٥/٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٧١)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٥/٣، ٢٢٦)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، ورواه ابن الأثير في «أُسد الغابة» (٣٠٨/٢)، والحافظ في «الإصابة» (١٠٥/٤)، وأخرجه البزار عن عائشة بالمتن دون القصة، ولفظه قالت: «سمع النبي ﷺ سالمًا مولى أبي حذيفة يقرأ من الليل؛ فقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله»، قال الحافظ في «الإصابة» (٧/٢): «رجاله ثقات».

اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس، ألا كان فزعكم إلى الله، وإلى رسوله» ثم قال: «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان»(١).

وهذه منقبة ظاهرة لسالم بأنه من أهل الجنة، كما سبق أن قدمنا قول الشيخ الألباني في حديث رسول اللَّه ﷺ: «**أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص**».

وعن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: «تمنَّوْا، فقال بعضهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل اللَّه وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجدًا، وجوهرًا فأنفقه في سبيل الله، وأتصدق»، ثم قال عمر: «تمنوا فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان»(٢).

قال ابن سعد عن سالم: «**يُذكر في الأنصار في بني عُبيد لعتق ثبيته بنت يعار إياه، ويُذكر في المهاجرين لموالاته لأبي حذيفة**»(٣).

❏ نعم حامل القرآن سالم:

جاء يوم اليمامة.. وكانت حربًا رهيبة لم يُبتل الإسلام بمثلها.

و«لما انكشف المسلمون يوم اليمامة قال سالم مولى أبي حذيفة: ما كهذا كنا نفعل مع رسول اللَّه ﷺ فحفر لنفسه حفرة، وقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، فقاتل حتى قتل - رحمه اللَّه - يوم اليمامة شهيدًا سنة اثنتي عشرة، وذلك في خلافة أبي بكر الصديق»(٤).

قال ابن الجوزي: «**استشهد سالم مولى أبي حذيفة باليمامة، أخذ اللواء بيمينه**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٠٣/٤)، والنسائي في «الفضائل» (١٩٦).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في « المستدرك» (٢٢٦/٣)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٨٨/٣)، وسير أعلام النبلاء (١٦٩/١).

فقطعت، ثم تناولها بشماله(١)**، فقطعت، ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] **إلى أن قُتل**»(٢).

كان سيفه يضرب كالعاصفة في جيش مسيلمة الكذاب، وكان «**سالم**» يصيح: «**بئس حامل القرآن أنا، لو هوجم المسلمون من قِبَلي**»!

حاشاك يا سالم.. بل نِعْمَ حامل القرآن أنت...

كان سيفه صوَّالًا جوَّالًا في أعناق المرتدين، الذين هَبُّوا ليعيدوا الجاهلية.. ويطفئوا نور الإسلام. وهوى سيف من سيوف الردة على يمناه فبترها.. وكان يحمل بها راية المهاجرين بعد أن سقط حاملها «**زيد بن الخطاب**».

ولما رأى يمناه تُبتَر، التقط الراية بيسراه، وظلَّ يلوِّح بها إلى أعلى وهو يصيح تاليا الآية الكريمة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

❏ وصية سالم رضي الله عنه:

عن سعيد بن المسيب قال: «**كان سالم سائبة، فأوصى بثلث ماله في سبيل الله، وثلثه في الرقاب، وثلثه لمواليه**»(٣).

❏ سالم من الصالحين:

عن مالك بن الحارث قال: «**كان زيد بن حارثة معروفًا بنسبه، وكان سالم مولى أبي حذيفة لا يُعرَف نسبه، فكان يُقال سالم من الصالحين**»(٤).

ما ضرَّ البطل الشهيد ألا يعرف نسبه بعد أن قال عنه رسول الله ﷺ ما قال:

---

(١) كذا، ولعله أعاد ضمير «اللواء» مؤنثًا ذهابًا إلى معنى الراية.

(٢) صفة الصفوة (٢٣٨٤/١)، وسير السلف الصالحين، لقوام السنة (٤٣٦/٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٨٦/٣).

(٤) المصدر السابق (٨٧/٣).

«**الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك**»، كم من كبراء ذوي حسب ونسب يعيشون على هامش الحياة أموات، وهم أحياء:

فَرُبَّ حَيٍّ تُرَابُ الْقَبْرِ مَسْكَنُهُ ... وَرُبَّ مَيْتٍ عَلَى أَقْدَامِهِ انْتَصَبَا

كم من أناس أحياء تموت القلوب برؤيتهم... وأناس أموات تحيا القلوب بذكرهم.. ومن سادات من تحيا القلوب بذكرهم الإمام الشهيد سالم الصحابي البدري المهاجري الأنصاري رضي الله عنه.

٥٦

السيد الكبير الشهيد

أبو حذيفة بن شيخ الجاهلية عتبة بن ربيعة

القرشي العبشمي البدري

يدعو أبوه إلى المبارزة يوم بدر

٥٦

السيد الكبير الشهيد

أبو حذيفة بن شيخ الجاهلية عتبة بن ربيعة القرشي العبشمي البدري

يدعو أبوه إلى المبارزة يوم بدر

قال الذهبي عنه في ترجمته: «السيد الكبير الشهيد أبو حذيفة بن شيخ الجاهلية **عتبة بن ربيعة القرشي العبشمي البدري.. أحد السابقين. واسمه مِهشم فيما قيل. أسلم قبل دخولهم دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة مرتين».**

وعن أبي الزناد أن أبا حذيفة بن عتبة دعا يوم بدر أباه إلى البراز، فقالت أخته أم معاوية هند بنت عتبة:

الأحـولُ الأثْـعَلُ المذمـومُ طـائِـرُه ... أبو حذيفة شرُّ الناس في الدِّينِ
أما شكـرْتَ أبًا ربَّاك مِن صِغَرٍ ... حتى شببت شبابًا غير مَحْجونِ[١]

- رَضِيَ اللَّهُ عن العبد الصالح التقي أبي حذيفة الذي كتب اللَّه الإيمان في قلبه وأيده بروح منه قال - تَعَالَى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

«لما هاجر أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولى أبي حذيفة من مكة إلى المدينة نزلا على عبّاد بن بشر وقُتِلا جميعًا باليمامة.

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥٩/١/٣). يقال حجن العود يحجِنهُ حجنًا: عطفه، والمحجن: العصا المعوجة.

قالوا: **وآخى رسول اللَّه ﷺ بين أبي حذيفة وعبَّاد بن بشر»**[١].

«استشهد أبو حذيفة رضي الله عنه يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة، هو ومولاه سالم»[٢]

«كان أبو حذيفة ينادي - يوم اليمامة -: يا أهل القرآن.. زيِّنوا القرآن بأعمالكم».

«وبينما المسلمون يتفقدون ضحاياهم وشهداءهم وجدوا «**سالما**» في النزع الأخير.. سألهم: ما فعل أبو حذيفة؟! قالوا: استُشهد.. قال: فأضجعوني إلى جواره.. قالوا: إنه إلى جوارك يا سالم.. لقد استشهد في نفس المكان»[٣].

«وُجِد رأس سالم عند رجليْ أبي حذيفة، أو رأس أبي حذيفة عند رجليْ سالم»[٤].

لقد أدرك هو وصاحبه ما كانا يرجوان..!!

معًا أسلما.. ومعًا عاشا.. ومعًا استشهدا.. يا لروعة الحظوظ، وجمال المقادير..!!

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٨٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١/١٦٤ - ١٦٦).

(٣) رجال حول الرسول ﷺ ص (٦٥٨).

(٤) ابن سعد (٣/٨٨).

٥٧

الإمام البدري الشهيد
عبَّاد بن بشر الأشهلي

شهيد اليمامة

٥٧

الإمام البدري الشهيد

عبَّاد بن بشر الأشهلي

شهيد اليمامة

هو الإمام أبو الربيع الأنصاري الأشهلي عبَّاد بن بشر بن وقْش بن زُغْبة بن زعُوراء بن عبد الأشهل، أحد البدريين.. كان من سادة الأوس.

عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها ـ قالت: **«تهجَّد النبي ﷺ في بيتي، فسمع صوت عبَّاد يصلي في المسجد فقال: يا عائشة، أصوت عبَّاد هذا؟ قلت: نعم. قال: اللهمَّ، ارحم عبَّادًا»**[(١)]. وفي رواية: **«اللهمَّ، اغفر له»**[(٢)].

«وعن أنس رضي الله عنه أن أُسيد بن حُضَيْر وعبَّاد بن بشر كانا عند رسول اللَّه ﷺ في ليلة ظلماء حندس قال: فلما خرجا من عنده أضاءت عصا أحدهما فكانا يمشيان في ضوئها فلما تفرقا، أضاءت عصا هذا، وعصا هذا»[(٣)].

ولفظ البخاري **«أن رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا فتفرق النور معهما»**.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري معلقًا (٢٦٥٥)، وقال الحافظ في «الفتح» (٥/٣١٤): «وصله أبو يعلى... عن عائشة: «تهجد النبي ﷺ في بيتي، وتهجد عبَّاد بن بشر في المسجد؛ فسمع رسول الله ﷺ صوته؛ فقال: يا عائشة، هذا عباد بن بشر؟ قلت: نعم. فقال: اللهم، ارحم عبادًا».

(٢) سير أعلام النبلاء (١/٣٣٨)، والبداية والنهاية (٦/٣٣٨)، والاستيعاب (٢/٤٤٧)، والاستبصار ص (٢٢١).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/١٩٠)، والبخاري معلقًا (٣٨٠٥)، كتاب مناقب الأنصار ـ باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٤١)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/٢/١٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣/٢٨٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

وقال معمر عن ثابت عن أنس: «**أن أسيد بن حضير ورجلًا من الأنصار**»[1]، وقال حماد أخبرنا ثابت عن أنس: «**كان أسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر عند النبي ﷺ**.....».

وأنشد ابن سيد الناس في «**المقامات العلية في الكرامات الجلية، ص ٦٨**»:

ولنور عبَّادِ بْنِ بِشْرٍ آية وابن الحضير بمثلها لم يُسْمَعِ

وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: «**ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلًا بعد رسول الله ﷺ: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر**»[2].

● أسلم عبَّاد رضي الله عنه قديمًا بالمدينة على يد سفير الإسلام مصعب بن عمير، وكان إسلامه قبل إسلام أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ[3].

● كان عباد رضي الله عنه من فضلاء الصحابة، وكان سيدًا كبير القدر أوجز الذهبي معالم وملامح الإقدام والبسالة في عباد فقال: «**كان أحد الشجعان الموصوفين**»[4].

● شهد عبَّاد بدرًا، وأحدًا، والخندق، والحديبية، وحنين، وتبوك وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ.. وفي موقعة كان عباد من السبَّاقين على متون الجياد إلى ساحات الجِلاد، وكان رضي الله عنه موصوفًا بشدة البأس، والشجاعة حتى قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق: «**مُرْ عباد بن بشر، فليضرب عنق المنافق**

---

(١) هذه الرواية وصلها عبدالرزاق في «مصنفه»، ومن طريق الإسماعيلي بلفظ: «أن أسيد بن حضير ورجلًا من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرج وبيد كل منهما عصية، فأضاءت عصا أحدهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت عصا الآخر فمشى كل منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله».

(٢) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٩/٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في «الإصابة» (٢٥٥/٢)، وَصَحَّحَهُ، وذكره أيضًا في «الإصابة» (٧٦/١) عن ابن إسحاق وصرَّح بالتحديث.

(٣) طبقات ابن سعد (٤٤/٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٣٧/١).

عبدالله بن أُبيٍّ بن سلول».

● وفي غزوة تبوك جعل رسول الله ﷺ عبَّاد بن بشر على حرسه، وأوكل إليه هذه المهمة.

● وفي غزوة الأحزاب تولى عباد حراسة قبة رسول الله ﷺ.

قال ابن سعد: «**وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول الله ﷺ مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة، فكان المشركون يتناوبون بينهم؛ فيغدوا أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بن الوليد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يومًا**».

ولله در القائل في حراسة عباد لقبّة النبي ﷺ:

من ينمْ عن لَهْذَمٍ أو مِخْذَمِ[1] ... فابْنُ بِشْرٍ ساهرٌ لم ينمِ
يحرسُ القُبَّة مَا فيها سوى ... حارسُ الجيش وحامي العَلَمِ

❑ ابن عباد يشارك في قتل شيطان يهود كعب بن الأشرف:

أما فدائية عباد، فكانت شيئًا آخر، عبقت به دنيا المغازي وأوردت شجاعته كتب التراجم والسير.. ومن أعلام أعماله الفدائية أنه شارك في قتل كعب بن الأشرف اليهودي، وكفى رسول الله ﷺ شر هذا الفاجر الأفاك.

وقال عباد الشعر في قتل كعب بن الأشرف:

صرختُ له فلم يعرضْ لصوتي ... ووَافَى طالعًا من رأس جَدْرِ
فعدتُ له فقال: من المنادي ... فقلتُ أخوك عبَّاد بن بشرِ
فقال محمدٌ: أسرعْ إلينا ... فقد جئنا لتشكرنا وتقْرى
وترفدنا فقد جئنا سغايا ... بنصف الوسْق[2] من حبٍّ وتمرِ
وهذي درعنا رَهْنًا فخُذْها ... لشهرٍ إنْ وفى أو نصفِ شهرِ

(١) اللهذم: الحاد القاطع من الأسنة. والمخذم من السيوف: القاطع.
(٢) الوسق: ستون صاعًا أو حمل بعير.

فقال معاشر سغبوا وجاعوا ... وما عدموا الغنى من غير فقر
فأقبل نحونا يهوي سريعًا ... وقال لنا لقد جئتم لأمرِ
وفي أيمانـنا بيضٌ حدادٌ ... مدرَّبة بها الكفار نفري
فعانقه ابن مسلمة المردِّي ... به الكفار كالليث الهزبر
وشدَّ بسيفه صلتًا عليه ... فقطَّره أبو عبس بن جبر
وصلتُ وصاحباي فكان لما ... قتلناه الخبيث كذبح عِتْرَ[1]
وجاء برأسه نفرٌ كرامٌ ... هُمُ ناهيك من صِدْقٍ وبِرِّ
فكان اللَّه سادسَنَا فأبْنَا ... بأنعم نعمةٍ وأعزِّ نصرِ[2]

❑ **عباد بن بشر لا يضيع ثغرًا أمره رسول اللَّه ﷺ بحفظه، وهو في الصلاة، موقف شاهق يُسَجَّلُ بأحرفٍ من نور في سجل التاريخ لعبَّاد:**

عن جابر بن عبداللَّه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل[3]، فأصاب رجل منا امرأة رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسول اللَّه ﷺ قافلًا، أتى زوجها ـ وكان غائبًا ـ فلما أُخبر الخبر، حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد دمًا، فخرج يتبع أثر رسول اللَّه ﷺ، فنزل رسول اللَّه ﷺ منزلًا، فقال: «**من رجل يكلؤنا[4] ليلتنا؟**» فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله! قال: «**فكُونا بفم الشِّعْب من الوادي**»، وهما عمار بن ياسر، وعبَّاد بن بشر.

فلما خرجا إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري: أيُّ الليل تحب أن أكفيكه، أوَّله أم آخره؟ قال: اكفني: أوله.

فاضطجع المهاجري، فنام، وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجلُ، فلما رأى

---

(١) العتيرة: ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم في رجب.
(٢) المغازي (١/١٩٠، ١٩١)، والمستدرك (٣/٢٥٥) والاستيعاب (٢/٤٤٦، ٤٤٧).
(٣) اسم مكان.
(٤) يكلؤنا: يحرسنا.

شَخْص الرجل عرف أنه ربيئة[1] القوم، فرمى بسهم، فوضعه فيه، فانتزعه فوضعه، وثبت قائمًا، قال: ثم رمى بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، قال: ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهبَّ صاحبه، فقال: اجلسْ فقد أُثْبِتُّ.

قال: فوثب الرجل، فلما رآهما عرف أنه قد نذرا به، فهرب.

قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله! أفلا أهببتني أوَّلَ ما رماك؟

قال: كنتُ في سورة أقرؤها، فلم أحبَّ أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك، وايم الله! لولا أن أضيِّع ثغرًا أمرني رسول اللَّه ﷺ بحفظه، لَقَطْعُ نفسي أحبُّ إليَّ من أن أقطعها، أو أنفذها»[2].

وفي دلائل النبوة للبيهقي: «**فقام عمار بن ياسر، وقام عبَّاد بن بشر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ وقال: كنت أصلي بسورة وهي الكهف، فلم أحب أن أقطعها**».

إن الكلمات وقواميس اللغات كلها لتقف عاجزة أن تصور روعة هذا الموقف لذلكم السيد من سادات الأنصار والمسلمين: عبَّاد بن بشر.

نعم يا سيد الأنصار... يا موصل القلب بالله.. لكأني بك تترنَّم بلسان حالك ما يمنعك عن مناجاة مولاك والترنم بكلام الملك والسجود إسلامًا لوجه ربك:

عَذَابُهُ فيكَ عذبُ وبعدهُ فيك قربُ

---

(١) الربيئة: العين والطليعة الذي ينظر للقوم؛ لئلا يدهمهم العدو.

(٢) رواه أبو داود في «سننه»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك» وَصَحَّحَهُ، وعلقه البخاري في «صحيحه»، وأحمد، والدارقطني وَصَحَّحَهُ، وابن خزيمة، والبيهقي في «سننه» وفي «دلائل النبوة». قال ابن حجر: كلهم من طريق ابن إسحاق، وشيخه صدقة ثقة، وعقيل لا أعرف راويًا عنه غير صدقة؛ ولهذا لم يجزم به «المصنف»، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. وقال شعيب الأرناءوط وعبدالقادر الأرناءوط في «تخريج زاد المعاد»: «في سنده عقيل بن جابر بن عبدالله وثقه ابن حبان، وباقي رجاله ثقات».

وأنـت عـنـدي كـروحـي بـل أنـت مـنـهـا أحـبُّ
حـسـبـي مـن الحب أنـي لما تحـب أحـبُّ

☐ شهيد اليمامة: عباد بن بشر يقتل أكثر من عشرين مشركًا ثم يرزقه الله الشهادة:

بدأت معركة اليمامة، وكانت حامية الوطيس، طار فيها قلب الجبان، وغنَّى سيف الشجاع، وجاهد عبَّاد يومئذ جموع المرتدين من بني حنيفة، وكان له غَنَاء وبلاء، لم يُروَ لأحدٍ مثله، يقال: إنه قتل يومئذ عشرين مشركًا بعث بهم إلى جهنم وفدًا، وأنه كان يضرب بسيفه حتى ينحني، فيقوِّمه على ركبته، ثم يبدأ فيضرب به وجوه المرتدين[(١)].

قال رافع بن خديج: رأيت عبَّادًا يوم اليمامة، وتقدَّم إليه رجل من بني حنيفة كأنه جمل، فقال: إليَّ يا أخا الأنصار، أتحسب أنَّا كمنْ لاقيتم في بلدان الحجاز؟! فتقدَّم إليه عبَّاد وهو على ذلك مجروح كثير الجراح، فاختلفا ضربتيْن، فضربه عبَّاد ضربة قطعت رجليه من الساقيْن، ثم تجاوزه وغادره ينوء على ركبتيه، فناداه الحنفي: أجهز على قتيلك يا ابن الأكارم، فرجع إليه فقتله، ثم برز له آخر فضربه عبَّاد بالسيف على عاتقه مستمكنًا ضربة أبدى سَحْره[(٢)]، ثم تجاوزه يفري في بني حنيفة، فلما رأت ذلك حنيفة، حنقت عليه، فحملوا عليه فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه رضي الله عنه.

قال رافع: وإن حنيفة لتذكره، فكان إذا كان بالرجل منهم جراحة يقول: هذا ضربني[(٣)].

ويشهد أبو سعيد الخدري لعبَّاد بالشجاعة - أيضًا - يوم اليمامة، وينقل لنا صوته

(١) الاستبصار ص (٢٢١) بشيء من التصرف.
(٢) السَّحْر: الرئة؛ يعني: بلغت الضربة أعماق صدره؛ فبانت رئتاه.
(٣) الاستبصار ص (٢٢١، ٢٢٢).

يومئذ وهو يصيح بالأنصار: احطموا جفون[١] السيوف، وتميَّزوا من الناس، وجعل يقول: أخلصونا[٢]، أخلصونا، فأخلصوا أربع مئة رجل من الأنصار ما يخالطهم أحد، يقدُمُهم عبَّاد بن بشر، وأبو دجانة، والبراء بن مالك ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ حتى انتهوْا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أشد القتال، وقُتِل عبَّاد بن بشر ـ رحمه اللَّه ـ فرأيت بوجهه ضربًا كثيرًا، ما عرفته إلا بعلامة كانت في جسده»[٣].

● وفي قصة عبَّاد بن بشر رضي الله عنه في غزوة ذات الرقاع قال الشاعر:

نزيلَ الشِّعبِ مَن يَحْمِي سواكا ... ولكن قل: تبارك من هداكا
أترقدُ هاهنا وهُمو هناكا ... أما مِن كالىءٍ[٤] يُرجى لذاكا
إلى أن يبعث اللَّه الصَّدِيعا[٥]

ألا طوبى لعبَّاد بن بشرِ ... وعَمّارٍ كفايةِ كلِّ أمرِ
رسول اللَّه نحن لهم ويجري ... قضاء اللَّه إن طرقوا بشرِّ
كعهدك إذْ جرى سُمًّا نقيعا[٦]

وأجرى الأمرَ عبَّادٌ سويا ... فقام ونام صاحبه قِليًّا[٧]
وكان بأن يناصفه حَريًا ... مُحافظةً على المُثلى وبُقيا
قريعُ شدائدٍ وافى قريعا[٨]

لربك صلِّ يا عبَّادُ فردا ... وزِدْ آلاءه شكرًا وحمدا

---

(١) أي: اكسروا أغمادها حتى لا ترجع إليها.
(٢) أخلصونا؛ أي: انفصلوا يا معشر الأنصار عن بقية المقاتلين، وأراد رضي الله عنه أن تظهر بطولة متميزة تعيد للمسلمين الثقة بأنفسهم.
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤٤١)، وسير أعلام النبلاء (١/٣٣٨)، وحياة الصحابة (١/٢٥٦).
(٤) الكالئ: الحافظ والحارس.
(٥) الصديع: الصبح.
(٦) أي: كما عهدت في مواطن البلاء.
(٧) مليًّا؛ أي: قطعة من الليل.
(٨) القريع: الغالب في المقارعة.

وَمُحكَمُ ذكرِه فاجعلْهُ وِردا فإنَّ له على الأكباد بَردا
وإنْ أذكَى الجوانحَ والضلوعا

ولاح سوادُه فرماهُ رامي أتى إثر الحليلة في الظلام[١]
فديتُك يا ابن بِشْرٍ من هُمام أما تنفكُّ عن نزع السِّهام؟
تُحامِي عن صلاتِك ما تُحامي وجسمُك واهنُ الأعضاءِ دامي
أمَا لَكَ يا ابن بشرٍ في السَّلام وقد جرَتِ الدُّماء على الرغام؟[٢]
ألا أيقظْ أخاك من المَنامِ كفاكَ فقد بلغتَ مدى التَّمامِ
وما تَدَعُ القنوتَ ولا الخشوعا

رأى عمَّارُ خطْبَك حين هَبَّا فلم يَر مِثلَهُ من قبلُ خطبا
يقول ونفسه تنهدُّ كربا أيدعوني الحِفاظ، وأنت تأبَى؟
لقد كُلفتُ أمرًا منك صعبًا ولو أيقظتني لشفيتَ قلبا
جرحتَ سوادَه جُرحًا وجيعا[٣]

وأبصر شخصَه الرامي المِلحُّ فزلزل قلبَه للرعب نضْحُ[٤]
وأمسك منه تهنان وسَحُّ وما إنْ راعه سيفٌ ورُمْحُ
ولكن مسّه خَبَلٌ فريعا

* * *

(١) الحليلة: الزوجة. وسواده: شخصه.
(٢) الرغام: التراب.
(٣) سواده؛ أي: حبة القلب.
(٤) النضح: الرمي بالنبل.